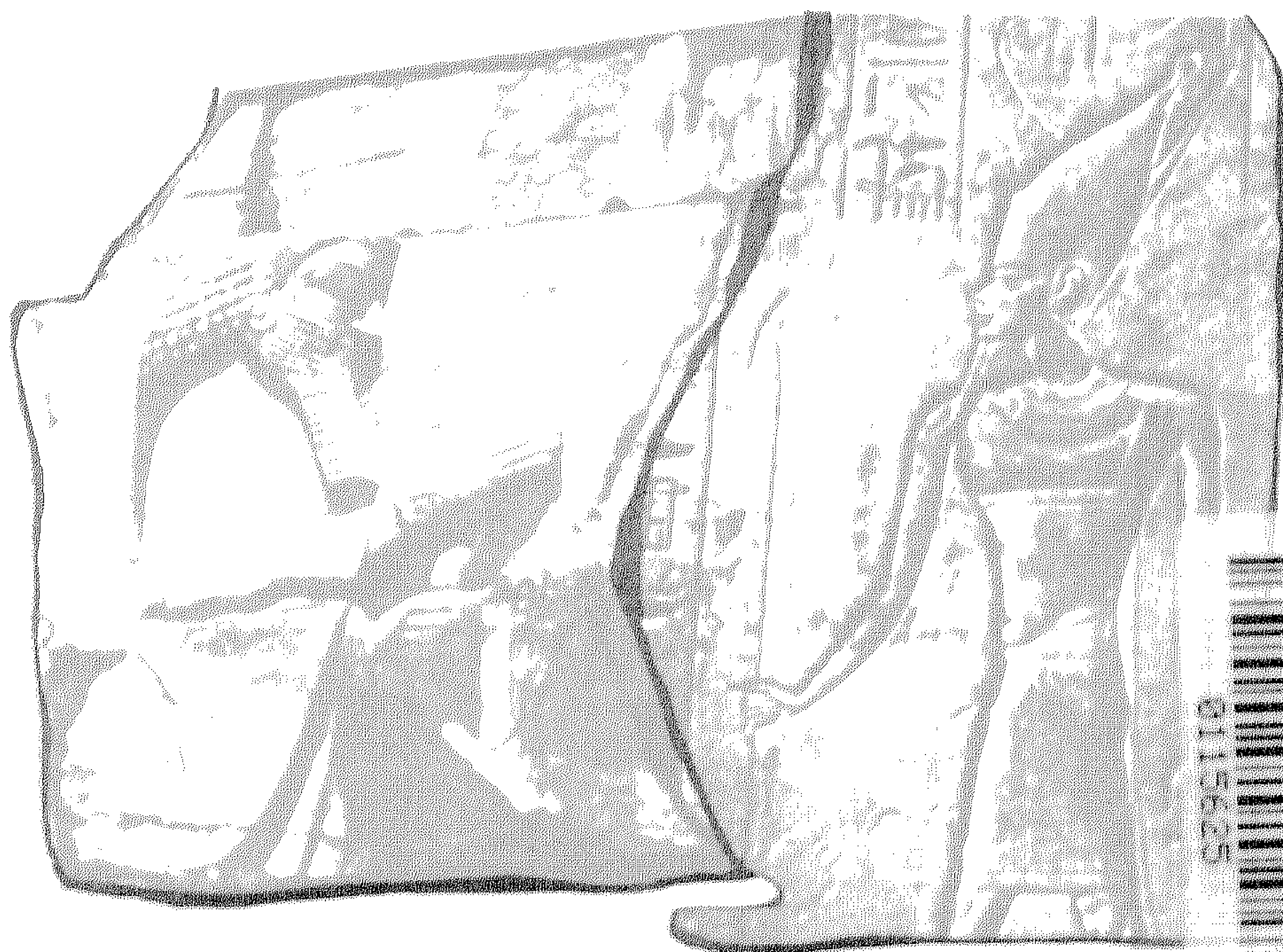
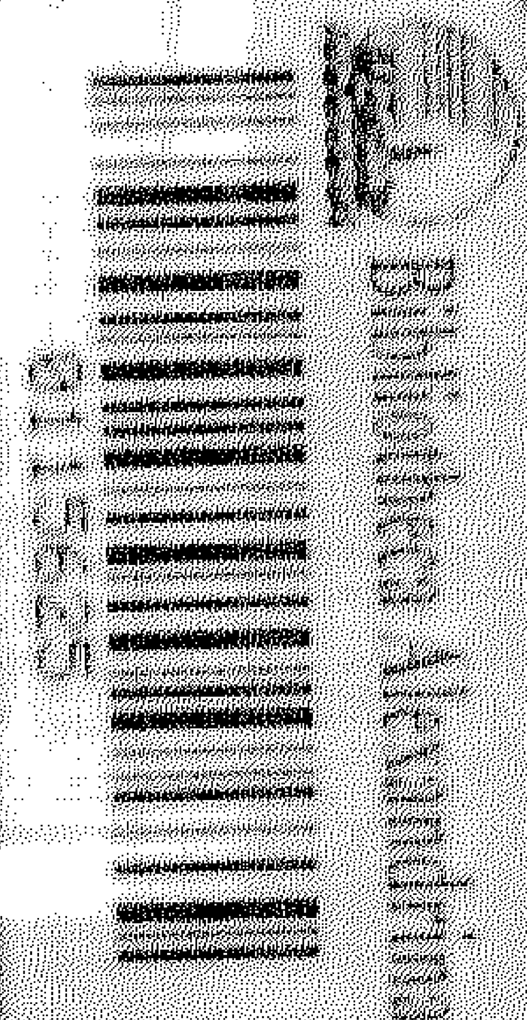
حضارة مصر والعراق

التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي - الثقافي والسياسي

برهان الدين دلّو





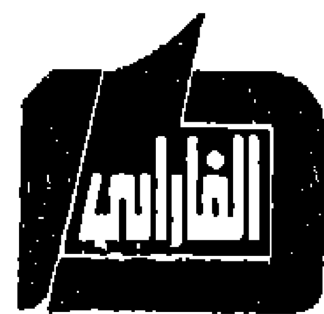
حضارة مصر والعراق

التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي - الثقافي والسياسي

برهان الدين دلّو

حضارة مصر والعراق

التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي - الثقافي والسياسي



١٩٨٩

الكتاب حضارة مصر والعراق

التاريخ الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ الثقافي والسياسي

المؤلف برهان الدّين دلّو

الناشر دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ص. ب: ٣١٨١/١١ ـ هاتف: ٣٠٥٥٢٠

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية. ش.م.ل.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

الطبعة الأولى تمـوز ١٩٨٩

الفصل الأول

مقدمة في علم التاريخ

التاريخ علم يدرس تطور المجتمع البشري في صيغة محددة وبتنوع نماذجه وبمجمل تناقضاته بهدف فهم ماضيه وآفاق تطوره المقبل. ويعتبر تاريخ المجتمع جزءاً وتتمة لتاريخ الطبيعة. وظهر تاريخ المجتمع بعد ظهور الانسان الأول. وبعد ظهور المجتمع نتيجة للتفاعل والتأثير المتبادل للناس.

وموضوع التاريخ هو الانسان ومهمته دراسة وعي الناس في الماضي والحاضر بهدف فهم المرحلة الراهنة وآفاق التطور اللاحق.

إن علم التاريخ يستند في استنتاجاته إلى دراسة كميات هائلة من الحقائق التي جمعتها جهود أجيال كثيرة من العلماء. كما يعتمد على انجازات حقول المعرفة المشتركة والمواد التاريخية المساعدة فالآثار المادية والمكتوبة تحتل المكانة الأساسية بين المصادر التاريخية العديدة. ويقوم علماء الآثار والمسكوكات في دراسة المصادر التاريخية المادية كما تقوم علوم المصادر والمخطوطات القديمة وسجل التواريخ والميروبولوجية والجغرافية التاريخية والإثنوغرافيا ـ علم دراسة الشعوب ـ بدراسة المصادر المكتوبة

بيد أن المسألة الأساسية التي اختلف حولها الفلاسفة وعلماء التاريخ، في الماضي وما تزال موضع خلافهم إلى اليوم، هي النظرة إلى التاريخ والمجتمع وتطورهما. هذه المسألة الكبرى، مسألة أسباب تقدم النوع البشري وحركته التاريخية، هي التي تشكل موضوع ما كان يسمى سابقاً بفلسفة التاريخ أو علم التاريخ اليوم أي التاريخ الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الأمور، بل يريد معرفة لماذا حدثت الأمور على نحو معين وليس على نحو آخر.

ولفلسفة التاريخ تاريخها، أعني أن المفكرين الذين كانوا يهتمون في عهود مختلفة بمسألة سبب الحركة التاريخية، قد أجابوا بأشكال مختلفة عن هذا السؤال الكبير:

فهناك من تصور أن التاريخ الانساني وجميع مجريات الحياة: الفيضانات والزلازل وثورانات البراكين والأوبئة والمجاعات والحروب المدمرة والغنى والفقر وقيام الدول وأفعال الحكام هي من صنع قوى غيبية وأن الناس غير قادرين على التأثير بشكل واعٍ في مجرى التاريخ، وأن ما يجري في المجتمع هو شيء مقرر سلفا بصورة لا راد لها.

ويرى الفلاسفة والمؤرخون المثاليون أن التطور التاريخي تحدده أعمال النخبة من الملوك والقادة والأغنياء، أو هو من عمل الرأي «الرأي يحكم العالم» فشلتر يفسر التطور التاريخي بتطور الطبائع، وسوار بتطور الأفكار (الرأي) وأوغستين تييري بالحالة الاجتماعية. وفي رأي هيغل أن التاريخ ليس سوى تفتح هذا الفكر الكوني (الفكر المطلق) وانبساطه في الزمان، وبمعنى أوضح أن شعباً ما عندما ينتقل في تطور، من درجة إلى أخرى فمرد ذلك أن الفكر المطلق (الكوني)، وهذا الشعب ليس إلا أداته، قد ارتقى إلى مرحلة أعلى في نموه. ولما كانت مثل هذه التفسيرات لا تعلل أي شيء على الإطلاق فقد وجد هيغل نفسه في ذات الحلقة المفرغة التي وقع فيها علماء الاجتماع والمؤرخون الفرنسيون. فهم يفسرون الوضع الاجتماعي بحالة الأفكار وحالة الأفكار بالوضع الاجتماعي، وبمعنى آخر ما دامت هذه المسألة، الوضع الاجتماعي، بدون حل كان العلم لا ينفك عن الدوران في حلقة مفرغة، بإعلانه أن ـ ب ـ سبب ـ أ ـ مع تعيينه ـ أ ـ كسبب لـ ـ ب ـ. وبالمقابل فإن الحل سينجلي عند حل مسألة الوضع الاجتماعي[1].

إن عزل التاريخ عن عوامله الاقتصادية وعن الحركات والثورات الشعبية المرتبطة بهذه العوامل أساسا، يعني النظر إلى التاريخ من جانب واحد. وهذا النظر الآحادي هو السمة الأولى المميزة للنظرة المثالية في تفسير التاريخ.

وقد استهدف ماركس حل هذه المسألة، أصل الوضع الاجتماعي، عندما صاغ مفهومه المادي للتاريخ وخلاصته: إن تطور المجتمع البشري ما هو إلا عملية طبيعية تاريخية. فالأساس المحدد الذي ترتكز عليه حياة المجتمع كله هو إنتاج الخيرات المادية الضرورية لهذا المجتمع. فالإنتاج المادي بالذات، لا الوعي، هو الذي يحدد تطور المجتمع، وأن الوعي يتطور بجميع أشكاله تبعاً لمستوى تطور الإنتاج. إن جميع الأفكار الحقوقية

(1) بليخانوف: فلسفة التاريخ ص ٤٢ - ٤٤.

والدينية والأخلاقية والجمالية والفلسفية وخلافها وما يناسبها من مؤسسات الدولة، رهن بمستوى الإنتاج. كذلك يحدد مستوى تطور الإنتاج العلاقات المتكونة في المجتمع، وتركيب المجتمع وتنظيمه. وهكذا فإن أسلوب الإنتاج في آخر الأمر يحدد جميع جوانب حياة المجتمع، حيث أن طابع علاقات الإنتاج يحدد البناء الاقتصادي في المجتمع. وهذا البناء الاقتصادي هو ذلك الأساس، البناء التحتي، الذي تظهر عليه مختلف العلاقات الاجتماعية، والأفكار والمؤسسات الحقوقية والسياسية والثقافية، أي كل ما يمكن تعريفه كبناء فوقي أيديولوجي وسياسي للمجتمع، وأن تبدل الأساس الاقتصادي، البناء التحتي، أو حدوث تغيرات فيه تفترض تبدّلاً وتغيُّراً في طابع البناء الفوقي، أي في طابع المؤسسات السياسية والفكرية. بيد أن البناء الفوقي، رغم أنه رهن بالأساس، بالبناء التحتي، يؤثر بدوره في البناء الاقتصادي وعلاقات الانتاج، وفي وسعه تسريع أو عرقلة تبدلها [٢].

وعليه، يمثل كل مجتمع وحدة معينة، بنية تاريخية خاصة مع أسلوب الإنتاج والبناء الفوقي الملازمين لها، يمثل تشكيلة اقتصادية اجتماعية. وقد عرف تاريخ المجتمع البشري خمس تشكيلات اقتصادية اجتماعية هي: التشكيلة المشاعية البدائية، تشكيلة الرق، التشكيلة الإقطاعية، التشكيلة الرأسمالية، التشكيلة الشيوعية التي الاشتراكية طورها الأول. ولكل من هذه التشكيلات اقتصادها ومفاهيمها وأفكارها ومؤسساتها المناسبة لها. وإن تطور التشكيلة الاقتصادية يسير من أدنى إلى أعلى أي إلى تشكيلة أكثر تقدماً من سابقتها [٣]. وعليه فإن أسلوب الإنتاج العبودي، تشكيلة الرق، الذي حل محل النظام المشاعي البدائي المتفسخ والصائر إلى الزوال، كان أكثر تقدمية منه. لأن التقدم اللاحق لم يكن ممكناً إلا شريطة تحرر جزء من المجتمع من العمل الجسدي [٤]. وبفضل العمل العبودي وصل العالم القديم إلى درجة ملحوظة من التقدم الاقتصادي والثقافي.

إن الأساس، البناء التحتي، لمجتمع الرق، شأنه شأن أساس المجتمع الاقطاعي والرأسمالي، هو تناحري، لأنه يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، على استثمار الطبقة السائدة لمنتجي الخيرات المادية المباشرين. ولهذا كانت التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية العبودية ككل تشكيلة تناحرية، استثمارية [٥].

---

(٢) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي ج ١: ص ٨٨ - ٨٩.

(٣) نيكيتين: أسس الاقتصاد السياسي: ص ٩.

(٤) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج ١: ص ٦٧.

(٥) المصدر ذاته ص ٨٩.

وبالتالي، فكل التاريخ منذ انحلال ملكية الأرض المشاعية البدائية، هو تاريخ صراع بين طبقات، طبقات مستَثمِرة وطبقات مستثمرَة، بين طبقات سائدة وطبقات مسودة، في مختلف مراحل تطورها الاجتماعي[٦]. فإذا أراد العلم التاريخي أن يكون علماً حقيقياً كان عليه أن لا يقتصر تاريخ التطور الاجتماعي على أعمال الملوك وقادة الجيوش، أعمال «الفاتحين» و «مستعبدي» الدول، بل أن يهتم قبل كل شيء بتاريخ منتجي الحوائج المادية، تاريخ الجماهير الكادحة، تاريخ الشعوب[٧].

وهكذا فإن المنهج المادي التاريخي الماركسي ينظر إلى هذا التاريخ وذاك نظرة شمولية لا ترى فيه جانباً دون آخر، بل جوانبه كلها. وهو لا يقتصر في تفسير التاريخ على العوامل الاقتصادية والاجتماعية وحدها، كما يتوهم البعض، بل هو ينظر نظرة شمولية في مختلف العوامل المؤثرة في مسار الحركة التاريخية. بيد أنه يميز العوامل الاقتصادية والاجتماعية من غيرها باعتبارها العوامل ذات التأثير الحاسم دون سائر العوامل التي تتفاوت درجات تأثيرها بتفاوت الخصائص التاريخية لهذا المجتمع وذاك في هذه المرحلة الزمنية وتلك. وانسياقاً مع هذه النظرة الشمولية للتاريخ. يرفض المنهج التاريخي الماركسي أي تفسير احادي للتاريخ، وبالتالي فهو يرفض كل التفسيرات البرجوازية التي تحصر تطور التاريخ بتطور الفكر نفسه بمعزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتقنية التي خلقته.

(٦) ستالين: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية: ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٧) المصدر ذاته ص ٧٤.

الفصل الثاني

عصور ما قبل التاريخ

نقصد علينا عصور ما قبل التاريخ ظهور الانسان على الأرض وصراعه مع الطبيعة، والاختراعات والاكتشافات والانجازات التي توصل إليها في سياق نشاطه العملي ومسيرته النضالية الشاقة في طريق التقدم. وقد ظهر الانسان على سطح الأرض في مرحلة متأخرة من مراحل تطور الطبيعة. ومنذ ظهور الانسان يبدأ تاريخ البشرية. ويقدر عمر البشرية بحوالي مليون سنة، في حين أن الحياة ظهرت على الأرض منذ تسعمائة مليون سنة تقريباً.

وهناك نظريات عديدة حول أصل الانسان. منها نظرية تقول إن الله خلق الانسان على شكله الحالي. وبعضها يقول إن الانسان ظهر كنتاج لسلسلة من التطورات الطويلة، وبالنشاط العملي الاجتماعي وبمعونة أدوات العمل التي صنعها اكتسب الانسان صفاته الحالية [1]

وهناك أيضاً آراء مختلفة حول الموطن الأول للانسان. فالعالم الانكليزي داروين يقول: كان الموطن الأول للانسان في جنوب أفريقيا ويؤيده في رأيه جماعة من العلماء. وفي رأي علماء آخرين: كان الموطن الأول للانسان في جنوب آسيا. أما العلماء السوفييت المعاصرون فيقولون: كان الموطن الأول للانسان في جنوب آسيا وفي الشمال الشرقي من أفريقيا وفي الجنوب الشرقي من أوروبا. ويعتمد جميع هؤلاء العلماء في آرائهم على ما عثر عليه من بقايا عظام الانسان الأول في المناطق المذكورة [2]

---

(١) جماعة من العلماء السوفييت، مختصر [illegible] ج ١ ص ٨

(٢) فرج، نعيم (الدكتور)، تاريخ حضارات [illegible] التقدم وما قبل التاريخ ص ١٠

وبمرور آلاف السنين على ظهور الانسان أخذت تنشأ الأجناس البشرية أي أطرزة الناس الذين يتميزون بعضهم من بعض بعلائم خارجية: بلون البشرة وشكل الأنف والشفاه، وطابع الكساء الشعري. وهذه الفروق العرقية، التي ظهرت بتأثير اختلاف الظروف الطبيعية للحياة وفي ظروف تشتت الجماعات البشرية، تكونت في الوقت الذي كان فيه الانسان المعاصر قد تكون من حيث الأساس.

وقد سببت الحدود الجغرافية ـ كالرمال والمستنقعات والجبال والبحار ـ قلة الاختلاط بين الناس وكان ذلك سبباً في تراكم مجموعات الأجناس المختلفة في الأماكن المختلفة من سطح كوكبنا. ولم يكن لهذه الفروق بالشكل الخارجي أي تأثير في التركيب البيولوجي الداخلي للانسان، وبالأحرى في مقدرته، وتطوره الاجتماعي والثقافي.

وقد استغل أنصار النظريات العنصرية البرجوازية، القائلة بأن الأجناس قد ظهرت نتيجة منشأ الناس من مختلف الاسلاف، وبأنها بالتالي غير متعادلة في النوعية وغير متساوية في الحقوق، هذا الاختلاف في الشكل الخارجي بين العروق ليقسموا الأجناس البشرية إلى عرق أعلى راق وآخر أدنى متخلف من حيث القدرة العقلية. إن هذه النظريات المنافية للعلم ما اختلقت ونشرت إلا من أجل تسويغ الظلم والاستعباد الاستعماري، ومن أجل عرقلة النضال الوطني التحرري المعادي للاستعمار والامبريالية الذي تخوضه شعوب بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية.

وقد أطلق العلماء على الفترة الزمنية التي عاشها الانسان قبل اختراع الكتابة، والتي تمتد في القدم إلى بداية ظهوره وانفصاله عن عالم الحيوان، **عصور ما قبل** التاريخ، لأننا نتعرف عليها من خلال مخلفات الانسان (**هياكل عظمية، أدوات وأوان** ونقوش) التي عثر عليها المنقبون في الحفريات الأثرية في عدد من المواقع في أوروبا وآسيا وأفريقيا. وقسم العلماء حقبة ما قبل التاريخ إلى ثلاثة عصور هي: العصر الحجري، وعصر البرونز، وعصر الحديد [٣]. واعتمد العلماء في هذا التقسيم على نوع المادة الرئيسة التي استعملها الانسان في صنع أدواته، والتي كانت في أول الأمر من الحجر ثم صارت من البرونز (خليط من

(٣) وكان مورغان أول من حاول أن يدخل، عن خبرة، نظاماً معيناً إلى ما قبل تاريخ البشرية. وقسم ما قبل التاريخ إلى ثلاثة أدوار رئيسية: الوحشية، والبربرية، والحضارة. وقسم كلاً من دوري الوحشية والبربرية إلى ثلاث مراحل: دنيا ومتوسطة وعليا، تبعاً للتقدم الحاصل في انتاج وسائل المعيشة / انجلس، فريدريك: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة. ترجمة أديب يوسف ص ٣٢.

النحاس والقصدير) فالحديد . وقسم العصر الحجري إلى ثلاثة عصور هي :

١ ـ العصر الحجري القديم (الباليوليت) : وقسم بدوره إلى عهدين .

ا ـ العصر الحجري القديم الأدنى : يمتد منذ ظهور الانسان إلى حوالي الألف الأربعين قبل الميلاد . وفي أثناء هذه الحقبة أخذ ممثلو الجنس البشري يتميزون شيئاً فشيئاً عن القرود الشبيهة بالانسان . لقد كانت أجسامهم منتصبة ، وكان حجم الدماغ يزداد دوماً مقترباً من حجم دماغ الانسان المعاصر . كما أنهم تميزوا عن عالم الحيوان بالنشاط العملي الاجتماعي بمعونة أدوات العمل التي صنعوها . لأنه ما من حيوان بقادر على القيام بالنشاط الهادف ، وما من حيوان يستطيع اعداد حتى أكثر أدوات العمل بساطة .

كان الناس الأولون عاجزين تقريباً أمام قوى الطبيعة . وكانت حياتهم قلما تختلف عن حياة الحيوان . ولكن بمقدار اتقان أدوات العمل وتطور القوى المنتجة ، بدأ الانسان يحرز انتصاراته الأولى على قوى الطبيعة . ولو أنها كانت انتصارات ضئيلة .

إن تطور البشرية المتصاعد قد حدد التطور المطرد للقوى المنتجة ، وبالدرجة الأولى تطور أدوات الانتاج . منذ قرابة سبعمائة ألف سنة قبل الميلاد ، بدأ الانسان بتكييف الحجارة صانعاً منها أدوات العمل . وفيما بعد أخذ الانسان القديم يحطم الحجارة ويكسرها حاصلاً بذلك على أدوات حجرية ذات أطراف قاطعة . وعلاوة على هذه الأدوات البدائية ، كان الانسان يصنع أدوات خشبية : عصياً حادة الأطراف ورماحاً خشبية إلخ . وفيما بعد صار الانسان ، أكثر فأكثر ، يكيف الأدوات لأغراضه ، فشرع يشحذ في الحجر محولاً اياه إلى قطاعة حادة ، إلى أداة كبيرة شاملة . يقوم بواسطتها بعمليات القطع والقص وانزال الضربات وحتى حفر الأرض . الأدوات من هذا الطراز كان يصنعها ويستخدمها أناس قريبون من حيث تطورهم من انسان جاوا ـ الانسان الشبيه بالقرد ـ إن اختراع القطاعة كان من أعظم منجزات الانسان البدائي [٤] .

لقد أخذ الانسان القديم يخصص الأدوات طبقاً لتخصيصه هذا المجال أو ذاك في نشاطه العملي وكان صنع مختلف المحكات والأدوات ذات الأطراف الحادة يتطلب من الانسان أن يقوم بانزال ضربات متكمة لتكييف الحجارة . وهذا يثبت أن جسم الانسان كان في سياق الانتاج ينمي وينمي مقدرته على الحركات المنسقة .

---

(٤) جماعة من العلماء السوفيات . المصدر السابق ج ١ ص ٢١ .

وأدى ظهور أدوات إنتاج جديدة إلى تغير حياة الانسان برمتها. فبواسطة الأدوات الجديدة أصبح في وسعه أن يصطاد بمزيد من النجاح الحيوانات الكبيرة ـ الفيلة، وحيدة القرن، الأيول، الخيول ـ وأصبح بوسعه الفوز من قطعة الأرض نفسها بقدر أكبر من الأطعمة، ومكنه من المكوث مدة أطول في مكان واحد. وفي الأماكن المريحة للصيد، بدأ الانسان بتنظيم مقرات موقتة، مستخدماً الكهوف للسكن.

وكان الانسان يحصل على قوته عن طريق جمع المأكولات الجاهزة في الطبيعة من ثمار وخضراوات وعسل النحل الوحشي، والصيد.

وفي سياق النضال ضد الظروف الطبيعية الأكثر قساوة، ومن أجل اطراد تطور البشرية، اتسم بأهمية خاصة اكتشاف الانسان للنار. فقد لاحظ الانسان، أثناء اعداده أدوات العمل، أنه عندما يضرب حجراً بآخر تنقدح شرارات، ولدى حك قطعة خشب بأخرى تتولد حرارة. وإذ استخدم الانسان هذه الظواهر الفيزيائية من أجل الحصول على النار بصورة اصطناعية، احرز أول انتصار على قوى الطبيعة وأجبرها على مساعدته في نضاله من أجل البقاء.

وباستعمال النار حمى الانسان نفسه من البرد والحيوانات المفترسة، كما أن طهي الطعام على النار جعله أكثر تغذية واسهل هضماً، وكذلك وسع موارد الطعام عند الانسان البدائي. وقد ساعد هذا، سوية مع عملية العمل نفسها، على تطور الانسان البيولوجي اللاحق. فتنوع الأغذية وتوفرها طور جسم الانسان وقواه، وزاد في قوته الإنتاجية. وقد اكتسبت أغذية اللحم أهمية خاصة باعتبار أنها تحتوي، بشكل جاهز تقريباً، على كثير من العناصر الهامة التي يحتاجها جسم الانسان ودماغه خاصة من أجل الغذاء والنمو.

وفي نهاية العصر الحجري القديم الأدنى، منذ مئة ألف سنة تقريباً، تغير مناخ النصف الشمالي من الكرة الأرضية تغيراً حاداً. فغطى الجليد جزءاً كبيراً من سطح كوكبنا، فهلكت النباتات والحيوانات المحبة للدفء. ولكن الناس بفضل النار ونشاطهم العملي لم ينقرضوا وواصلوا التطور متلائمين وشروط الحياة الجديدة.

إن بقايا انسان هذه الحقبة ـ الانسان النياندرتالي ـ [٥] وجدت في أوروبا وفي آسيا وفي أفريقيا الجنوبية وفي أراضي الاتحاد السوفياتي. وبرغم أن الأدوات الأساسية ظلت حجرية كالسابق، إلا أن انتاجها أخذ يزداد اتقاناً. وقد أدى اتقان أدوات العمل إلى تطوير

(٥) اكتشفت بقايا هيكله عام ١٨٥٦ في وادي نياندرتال قرب دوسلدورف بالمانيا وسمي باسمه.

عادات الناس في العمل وإلى نمو خبراتهم الانتاجية.

إن ظهور أدوات للعمل أكثر اتقاناً قد ساعد على تطوير الصيد الذي غدا الشكل الرئيسي الأهم عند الانسان. وبدأ الناس يصطادون جماعات وينظمون مطاردة الوحوش ودفعها إلى المستنقعات. وراح الانسان بصورة متزايدة ولمدة أطول يمكث في الأماكن المريحة للصيد، كالمخابىء والسقايف، اتقبه من رداءة الطقس.

وبما أن الانسان كان ضعيفا أمام قوى الطبيعة اضطر إلى أن يعيش مع غيره في شكل مجموعات تتعاون على العمل والصيد الجماعي والدفاع المشترك. وهكذا تشكلت أولى المجموعات البشرية المتحدة التي يطلق عليها عادة اسم «القطيع البشري البدائي». وكان ما يحتم محافظة الناس الأقدمين، قبل عصر انسان النياندرتال، على نمط الحياة البدائي هو مستوى القوى المنتجة المنخفض إلى أقصى حد.

كانت حياة الناس القدامى قاسية ومليئة بالمخاطر. وكان أكثر من نصفهم يموتون قبل أن يبلغوا الثامنة عشرة: بعضهم كانت تمزقه مخالب الضواري، والآخرون كانوا يموتون ضحايا الأمراض أو المجاعة[6]. ولذا كان الانسان بأدوات عمل بدائية يضمن بقاءه باتحاده مع جماعات كبيرة من الناس ومثل هذا الاتحاد كان ضرورياً حتى عند جمع الأعشاب والثمار وذلك للدفاع المشترك ضد الوحوش البرية.

/ وعندما انتقل الانسان إلى الصيد النشط، كان التوحيد الجماعي لجهود الناس، للرجال والنساء، يجلب لهم النجاح ويؤمن لهم وسائل العيش. وكان العمل يؤثر تأثيراً متزايداً في تطور نمط الحياة الجماعي. وكان النشاط الانتاجي بأكمله يتطلب توحيد الناس في جماعات. فقط في الجماعة كان من الممكن المحافظة على التجربة والبراعة الانتاجية المكدسة، أساس تطور الانتاج، ونقلها إلى أجيال جديدة /

وكان كل قطيع بشري يضم من عشرين إلى أربعين شخصاً لا تفرقة بينهم ولا ملكية خاصة لأحد منهم[7].

وقد اكتشف علماء الآثار عدة مراكز تجمع بشري تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى. وصنف العلماء هذه المراكز في أربع مجموعات حضارية اشتقت أسماؤها من أسماء

---

(٦) [illegible] تاريخ المجتمع [illegible] ص ١١

(٧) [illegible] المصدر السابق ص ١٢

المواقع التي وجدت فيها بفرنسا، حيث عثر على أدوات نموذجية لكل حضارة تختلف حسب بشكلها وطريقة صنعها وتنوعها. وهذه الحضارات هي:

١ ـ الحضارة السابقة للحضارة الشيلية

٢ ـ الحضارة الشيلية.

٣ ـ الحضارة الأشولية.

٤ ـ الحضارة الوسنيرية [٨].

ب ـ **العصر الحجري القديم الأعلى**: ويمتد من الألف الأربعين إلى الألف الثاني عشر قبل الميلاد. وفيه تكون انسان كرومانيون [٩]. وهو أرقى مرتبة في الذكاء وفي التكوين الجسمي من انسان نياندرتال. ولم يكن انسان كرومانيون يختلف تقريباً من حيث تركيب جسده ومظهره الخارجي عن الانسان المعاصر.

لقد تكون انسان كرومانيون نتيجة لتطور البشرية التدريجي المطرد، المرتبط بتطور النشاط العملي الجماعي لأجيال عديدة. وشيئاً فشيئاً تكونت عضوية أكثر تكيفاً للانتاج الجماعي، والتفكير والكلام المفصل الواضح. وأخذ تطور الانسان يجري حسب قوانين اجتماعية لا تلازم إلا المجتمع البشري.

كان الكرومانيون يقطنون تقريباً كل أراضي أوروبا وآسيا وأفريقيا. ونفذت جماعات منهم إلى أميركا عبر مضيق بهرنغ، وإلى اوستراليا من جنوب شرقي آسيا عبر جزر الصوند [١٠].

وبالمقارنة مع انسان نياندرتال، كان انسان كرومانيون يستخدم أدوات أكثر كمالاً وتنوعاً. وكانت تلك الأدوات تصنع من الحجر والخشب والعظم والعاج، وهي الصاقلات والهاونات والفؤوس والكاشطات والمثاقب والمدى والأزاميل [١١]. وفي هذه الآونة ظهرت الرماح ذات الرؤوس العظمية والصنارات الكبيرة التي كانت تستعمل لصيد الأسماك الكبيرة والوحوش، وأولى معدات القذف، قاذفة الرمح التي وسعت مدى الرمية وزادت من قوتها ومن ابعاد طيران الرمح أو النُشّابة [١٢]

(٨) المصدر ذاته ص ١٣.

(٩) اكتشفت بقايا هيكله العظمي في كهف كرومانيون جنوب فرنسا.

(١٠) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج ١ ص ٢٧.

(١١) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥.

(١٢) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج ١ ص ٢٥.

وفي هذا العصر تشكلت العروق أو الأجناس البشرية وهي:

١ ـ العرق الأوروبي ومنه انسان كرومانيون الطويل القامة المستطيل الرأس. ونشأ هذا العرق في أوروبا.

٢ ـ العرق المنغولي ومنه انسان شانسيلاد القصير القامة. ونشأ هذا العرق في آسيا الوسطى.

٣ ـ العرق النيجري ومنه انسان غريمالدي [١٣]. ذي السمات الزنجية. ونشأ هذا العرق في أفريقيا [١٤].

وقد استتبع تطور القوى المنتجة تغيراً في تنظيم المجتمع البشري. فحلت محل القطيع البشري البدائي جماعة انتاجية أكثر متانة هي المشاعة العشيرية أو العشيرة [١٥] في أول الأمر تشكلت عشيرة الأم، إذ كان الزواج جماعياً والابن لا يعرف في ظله إلا أمه. وبالنظر للدور الاقتصادي والاجتماعي الهام الذي كانت تقوم به المرأة (الأم) في عشيرة الأم، أطلق العلماء على هذا النظام الاجتماعي «نظام الأمومة» الذي ساد عدة آلاف من السنين. وكان يربط أعضاء المشاعة العشيرية فيما بينهم العمل المشترك والتقسيم الطبيعي للعمل بين الرجال والنساء، والواجبات المشتركة داخل الجماعة [١٦].

وكان للتغيرات في علاقة الزواج والقرابة أهمية كبرى بالنسبة لتنظيم المشاعات العشيرية. فقد كانت المشاعة البدائية أقل عدداً من القطيع لأنه مع تطور القوى المنتجة زالت ضرورة الاتحاد الدائم بين عدد كبير من الناس في الانتاج. ولكن بعض أشكال العمل، كمطاردة الوحوش، اقتضى مؤقتاً اتحاد المشاعات العشائرية في جماعات كبيرة، في قبائل [١٧].

إن الوحدة القبلية التي نشأت على هذا النحو قد حددت وحدة اللغة وجزئياً وحدة المعيشة. واستعاضت عن العلاقات الجنسية المختلطة، الموروثة عن قطيع الحيوانات والتي تميز القطيع البشري البدائي، بالزواج الخارجي، أي بتحريم علاقات الزواج داخل العشيرة [١٨].

(١٣) اكتشفت هياكله العظيمة في كهف غريمالدي بايطاليا.

(١٤) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤. وجماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص ٢٦.

(١٥) العشيرة: جماعة تضم في حظيرتها فقط أعضاء تربطهم روابط الدم.

(١٦) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج ١ ص ٢٩.

(١٧) نفس المصدر والصفحة.

(١٨) المصدر ذاته ص ٣٠.

وهكذا كان المجتمع في سياق النشاط العملي وبمقدار تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يبتعد أكثر فأكثر عن تنظيمه البدائي الأولي ويتخذ شكل منظمة انتاجية هي المشاعة العشيرية (١٩).

واتسمت علاقات الانتاج، سواء في القطيع البدائي أم في المشاعة العشيرية، بسمة علاقات أناس يعملون معاً من أجل بعضهم البعض. إن قوة الناس البدائيين كانت تكمن في جماعيتهم، في نشاطهم العملي.

وكانت الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج أساس علاقات الانتاج في النظام المشاعي البدائي. وكانت كل الخيرات التي يخلقها العمل الجماعي لأفراد المجتمع توزع بالتساوي بين جميع أفراده. وللعشيرة عقيدة واحدة، وتسود بين أفرادها العلاقات الديمقراطية في حياتهم الاجتماعية.

وقد اكتشفت عدة مراكز حضارية تعود إلى هذا العصر. وصنف العلماء هذه المراكز ثلاث مجموعات حضارية اشتقت اسماؤها من أسماء المواقع التي وجدت فيها. وهذه الحضارات هي:

١ ـ الحضارة الاورينياسية.
٢ ـ الحضارة السولتيرية.
٣ ـ الحضارة المجدلية.

٢ ـ العصر الحجري المتوسط (الميزوليت): ويمتد من الألف الثاني عشر إلى الألف الخامس قبل الميلاد: استمر تطور القوى المنتجة في هذا العصر. وأعظم اختراع قام به الناس في ذلك الوقت هو القوس والنشاب. إذ أصبح بمستطاع الانسان أن يصرع عدوه أو طريدته على مسافة بعيدة، وأن يطلق سهماً آخر إذا ما أخطأ الهدف.

وقد سهل استخدام القوس والنشاب بصورة ملحوظة نضال الانسان ضد قوى الطبيعة. كما أدى هذا الاستخدام إلى تطوير الصيد البري، وإلى تحسين حياة الناس، وخفف كثيراً من أعباء عملهم اليومي.

ومن أهم المواقع الحضارية التي تعود للعصر الميزوليتي موقع أزيل الذي اكتشف في فرنسا، كما اكتشف علماء الآثار كثيراً من المواقع الحضارية لهذا العصر في كل من أوروبا

(١٩) ذاته.

وأفريقيا وآسيا الوسطى والهند واوستراليا والاتحاد السوفياتي وفلسطين [٢٠].

٣ ـ **العصر الحجري الحديث (النيوليت)** : ويمتد من الألف الخامس إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد. وكان المناخ والحيوان والنبات في العصر النيوليتي يشبه تقريباً المناخ والحيوان والنبات الحالي.

وفي العصر الحجري الحديث، حدثت تطورات اقتصادية واجتماعية هامة. فقد اكتشف الانسان الزراعة ودجن الحيوان وصنع الفخار والنسيج وصقل الأدوات الحجرية بشكل جيد، بالإضافة إلى تعزيز وتطور النظام القبلي والعلاقات القبلية.

لقد أدى تطور الصيد البري إلى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية. فاستمرار الاحتكاك بين الصيادين وقطعان الحيوانات المتوحشة، ومراقبة حياتها، أوحى للناس بفكرة امكانية تأهيل الحيوانات. فكثيراً ما كان الصيادون، أثناء الصيد، يمسكون بالحيوانات، أو يسوقونها إلى مكان مسوّر، أو يعثرون على أولادها فيحتفظوَن بها ويربونها دون أن يقتلوها. في بادىء الأمر كانت الحيوانات تحفظ لمدة وجيزة، أما فيما بعد فكانوا يبقونها طويلاً لدرجة أنها أخذت تتكاثر في الأسر، وتصبح أليفة أنيسة لا تخاف الانسان ولا تهرب منه. وهكذا انتقل الناس إلى تربية الحيوانات التي اشتقت من الصيد [٢١].

وكان الكلب والخنازير والماعز والأغنام أولى الحيوانات التي دجنها الانسان، ثم الأبقار والحمير والخيول فيما بعد.

واتسمت تربية المواشي بأهمية كبرى بالنسبة لتطور الانسان، لأنها تمده بالطعام اللحمي في أوقات الصيد الصعبة، بالإضافة إلى ما تقدمه من جلود وصوف للباسه وخامات لصنع سلاحه وأدوات عمله.

وكان اكتشاف الزراعة أيضاً من أهم الظاهرات الاقتصادية في العصر النيوليتي. فقد نشأت الزراعة وتطورت من جمع المأكولات. فالانسان الذي كان في السابق يجمع طعامه من الحبوب والخضراوات والفواكه الجاهزة في الطبيعة أخذ يلاحظ أن البذرة التي تسقط في أرض هشة لا تلبث أن تنمو وأن النبتة الجديدة تعطي حبوباً جديدة. ذاك هو أصل

---

(٢٠) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٧.

(٢١) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص ٣٤.

الزراعة [٢٢]. وكانت نساء المجتمع البدائي هن اللواتي اكتشفن الزراعة [٢٣].

إن الانتقال من جمع النباتات إلى الزراعة لم يكن ممكناً إلا باختراع أدوات مختصة بفلاحة الأرض مثل العصا الحفارة [٢٤] والمعزقة [٢٥] وكذلك بفضل التجربة والمهارات المتراكمة في غضون السنين الطويلة من عمليات جمع النباتات. وإذ لاحظ الناس أن النباتات تنمو في الأرض المعزوقة نمواً أفضل: أخذوا يحدّون في فلاحة التربة. في البداية بالعصا ومن ثم بأداة خاصة هي المعزقة. واستخدموا لجمع المحصول المنجل الخشبي ذا الأسنان الصوانية (شفرات صوانية) الحادة. وفيما بعد. ولا سيما في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل وفلسطين، أصبحت الزراعة الوسيلة الرئيسة للحياة عبر أكثرية القبائل.

وكان في عداد أولى النباتات التي زرعها الانسان: الجوادار والشعير والقمح. وشيئاً فشيئاً استوعب انسان المجتمع البدائي الكثير من المحاصيل الزراعية المعروفة في عصرنا.

إن الانتقال إلى الزراعة جعل الانسان يعتمد على الطبيعة بدرجة أقل من ذي قبل، أي حرر الانسان خطوة جديدة من التبعية للطبيعة. وبظهور الزراعة اتسع مجال النشاط العملي عند الانسان اتساعاً ملحوظاً. فقد اكتسب عادات في العمل وتجارب جديدة، وأخذ يعرف بمزيد من العمق سنن تطور الطبيعة، ويصنع أدوات جديدة للانتاج [٢٦].

وعندما تطورت الأدوات الزراعية وحل المحراث الثقيل الذي تجره الحيوانات محل المعزقة أصبح الرجل هو الذي يمارس عملية الزراعة، لأن استعمال المحراث يتطلب قوة عضلية أكبر من قوة النساء. أما النساء فقد تفرغن بعد ذلك للأعمال المنزلية بصورة رئيسية. وقد ترتب على ذلك التحول الاقتصادي تحول اجتماعي، إذ أصبح الرجل، بعد أن تعاظم دوره في انتاج الخيرات المادية، سيد الأسرة، وأطلق العلماء على هذه الأسرة اسم الأسرة الأبوية (البطريركية).

إن التغيرات التي طرأت على الانتاج استتبعت تغيرات لاحقة في تنظيم جماعات الناس. فأخذت الصلات بين العشائر تتوطد أكثر فأكثر، مما أدى إلى قيام القبائل أي الجماعات التي توحد عدة عشائر.

(٢٢) كرروفكين: المصدر السابق ص ١٧ - ١٨.

(٢٣) نفس المصدر والصفحة.

(٢٤) عصا مقشرة بالسكين الحجرية وطرفها مشحوذ ومحروق.

(٢٥) المعزقة عبارة عن مقبض طويل مثبتة فيه شظية حادة من الحجر.

(٢٦) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي ج ١ ص ٣٧.

إن توحيد العشائر والقبائل اتسم بأهمية كبرى، إذ ساعد على نشر بعض الاختراعات والمهارات الانتاجية، وأدى فيما بعد إلى تقارب لغات العشائر وتكون لغة للقبيلة بأسرها، وكذلك إلى انشاء ثقافة عامة في القبيلة.

عصر المعادن= تطور القوى المنتجة ـ تفكك النظام المشاعي البدائي: طرأت تغيرات جذرية على تطور قوى المجتمع المنتجة في الألف الرابع قبل الميلاد، عندما أخذ الانسان يستخدم المعادن لصنع أدوات العمل. إن استخدام الأدوات المعدنية أدى إلى نمو جميع القوى المنتجة، ورفع انتاجية العمل، وأثار تغيرات في علاقات الانتاج، وتحققت في عصر المعادن انجازات حضارية هامة في حقل الثقافة.

ففي سياق البحث عن المواد لصنع الأدوات، عثر الانسان على النحاس البكر، وهو عنصر فِلزّي رخوٍ نسبياً قابل للطرق والسحب، يتغير شكله تحت ضربات القطاعة الحجريه. فاستفاد الناس من هذه الخواص، وأخذوا يصنعون منه الفؤوس والسكاكين والنصال للنشابات والرماح. ومع ذلك فإن النحاس لم يتمكن من إزاحة استخدام الحجارة كمادة لصنع الأدوات الحجرية. «ومع الزمن تطور تصنيع النحاس وتعلم الانسان أن يصهر خاماته في درجة حرارة عالية ويسكبها في قوالب خاصة ليصنع الأدوات الخفيفة»[٢٧].

وفي الألف الثالث قبل الميلاد، تعلم الانسان اعداد سبائك البرونز من خلائط النحاس والقصدير أو غيرها، وصنع من المعدن الجديد أدوات أشد صلابة وأكثر قطعاً من الأدوات النحاسية إلا أن انتشارها كان بطيئاً.

وتعلم الانسان صناعة الحديد. ورغم أن تصنيعه قد حدث في وقت متأخر بالنسبة إلى البرونز، فإنه ما فتىء أن انتشر انتشاراً سريعاً وحقق انتصاراً ساحقاً على الحجارة والمعادن الأخرى وذلك لكونه أكثر صلابة وأشد قطعاً، ولانتشاره وسهولة استخراجه.

صنع الناس من الحديد أدوات عمل كالفؤوس والمعاول والرفوش، كما صنعوا منه السلاح. وقد سهل استخدام الأدوات الحديدية عمل الحجارة وتحسين تكنيك البناء. كما ساعد استعمال الفأس والرفش الحديديين باقتلاع مساحات واسعة من الغابة وتطهير أراضيها وتحويلها إلى مزارع ومراعٍ.

وباستعمال أدوات العمل النحاسية فالبرونزية ومن ثم الحديدية، أخذ الانسان يكيّف

---

(٢٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٢١.

الحجر والخشب والعظام والقرون بمهارة كبرى، ويصنع المناجل والمعازق المعدنية وغيرها من الأدوات وآنية الاستعمال المنزلي والسلاح. وفي ذلك الوقت أيضاً بدأ الناس يبنون البيوت الخشبية الكبيرة(٢٨).

وكان لاستخدام الأدوات المعدنية على نطاق واسع أهمية بالغة بالنسبة لتطور الزراعة وتربية الماشية اللتين غدتا الفرعين الرئيسيين للنشاط الاقتصادي. فقد انتشرت الزراعة انتشاراً واسعاً في آسيا وأفريقيا، وتطور الري. وأخذت الزراعة تصبح أقل اعتماداً على الظروف الطبيعية وتعطي الناس مزيداً من المنتوجات الغذائية. وفي قطاع تربية المواشي، اسهمت الأدوات المعدنية اسهاماً كبيراً باجتثاث مساحات واسعة من الغابات وتنظيف أراضيها وتحويل قسم منها إلى مراع لتربية الماشية. وأخذت القبائل التي كانت تمارس الصيد ولا سيما في المناطق السهبية، تنتقل تدريجياً إلى تربية الحيوان.

إن بلوغ الانتاج مستوى أضحى من الممكن فيه تأمين الحاجات الحيوانية للانسان بل إعطاء منتوج زائد، قد فتح الطريق لاطراد تطور المجتمع.

وفي هذه المرحلة بلغ تطور القوى المنتجة ونمو انتاجية العمل ليس فقط عند المجموع، وإنما أيضاً عند كل عضو في المشاعية على انفراد، مستوى أصبح الناس معه غير ملزمين، من أجل الحصول على الخيرات المادية الضرورية للحياة، بأن يتعاونوا في اتحادات انتاجية كبيرة.

وقد ساعد على تفكك النظام المشاعي البدائي واقع أن التطور اللاحق للقوى المنتجة سلك طريق تخصص أدوات ووسائل الانتاج وامتلاكها الفردي. بيد أن القوى المنتجة الجديدة في المجتمع لم يعد في وسعها أن تبقى في إطار علاقات الانتاج القائمة. فإن إطار الملكية المشاعية الضيق، وتوزيع منتجات العمل بالتساوي أخذا يعوقان تطور القوى المنتجة. ولم يبق أي مبرر لضرورة العمل المشترك، وظهرت ضرورة العمل الفردي. وإذا كان العمل المشترك قد تطلب الملكية الجماعية (المشتركة) لوسائل الانتاج، فإن العمل الفردي قد تطلب الملكية الخاصة (الفردية).

وهكذا انبثقت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، ونشأ معها التفاوت في الثروة بين الناس سواء بين العشائر أم في داخل العشيرة نفسها وظهر الأغنياء والفقراء... وترك العمل المشاعي الميدان للعمل الفردي والملكية المشاعية للملكية الخاصة، والمجتمع المتعاضد الخالي

(٢٨) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج ١ ص ٤٨.

من الاستثمار والطبقات إلى مجتمع الطبقات واستثمار الانسان للانسان.

في باديء الأمر، ظهرت الملكية الخاصة للماشية والآنية المنزلية وبعض وسائل العمل الفردي ومنتوجاته، وفيما بعد شملت القطيع والأرقاء وأدوات العمل.

ومع نمو القوى المنتجة وتطور الملكية الخاصة، أصبح من الممكن أن يستخدم فرد في استثمارته الخاصة شغيلة آخرين يعطي عملهم كذلك فائضاً من المنتوجات. وأصبح من الممكن تكديس المنتوج الفائض ومبادلته بسلع غير متوافرة في الاستثمارة الخاصة. وهؤلاء الشغيلة كانت تؤمنهم الحرب: فأخذوا يحولون الأسرى إلى أرقاء. في البدء، ارتدى الرق طابعاً بيتياً ثم غدا أساس النظام الجديد (العبودي). ومع تفاقم التفاوت في الثروة، لم يعد الأغنياء يقتصرون على تحويل أسرى الحرب إلى عبيد، بل أخذوا يفرضون الرق على الذين يصبحون فقراء ومدنيين من أعضاء قبيلتهم نفسها. وهكذا نشأ أول تقسيم طبقي للمجتمع، إلى أرقاء ومالكي أرقاء (سادة).

إن انتقال المجتمع من المشاعية البدائية إلى نظام الرق يعود إلى استمرار نمو القوى المنتجة وإلى تطور التقسيم الاجتماعي للعمل وتطور التبادل.

وكان نشوء الرق ظاهرة حتمية تماماً بالنسبة لذلك الزمن، عندما أصبح العمل قادراً على ايجاد المنتوج الزائد، علماً بأن انشاء المنتوج الفائض كان يجري لدرجة ملحوظة على حساب الحد الأقصى من استنزاف القوى الجسدية والمعنوية عند منتجي الخيرات المادية (٢٩).

ومن جهة أخرى، وفي هذا المستوى من تطور أدوات الانتاج كان مجرد الحيازة على وسائل الانتاج لا يكفي لامتلاك منتوج عمل الآخرين. فكان من الضروري لهذا تحويل الانسان نفسه إلى وسيلة عمل، إلى سلعة من أجل ارغامه على العمل للآخرين. وهذا ما استدعى استخدام العاملين وإرغامهم على الانتاج، فجاء الرق كشكل للاستغلال مربح من الناحية الاقتصادية، وكان هذا أول أشكال الاستثمار في التاريخ وأكثرها وحشية وبدائية وقسوة (٣٠).

إن ظهور عمل العبيد سجل بدء مرحلة جديدة في تطور المجتمع هي مرحلة استثمار

---

(٢٩) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ص ٦١ - ٦٢.

(٣٠) ف. كيلي، م. كوفالزون: المادية التاريخية. ترجمة أحمد داود. اصدار دار الجماهير دمشق ١٩٦٧ ص ١٦٢.

الانسان للانسان. فإلى جانب المنتجين الأحرار بدأ يكدح عبيد محرومون من الحقوق، كان القسم الأكبر من عملهم يبذل لا لسد حاجاتهم الخاصة، وإنما لإيجاد المنتوج الفائض لأجل الآخرين. وهكذا أصبح عمل العبيد مصدراً لثروات هائلة لمالكيهم.

وكانت علاقات الانتاج السائدة في مجتمع العبودية علاقات استغلال الأرقاء من قبل مالكيهم، علاقات السيد والمسود التي نشأت عن الملكية التامة لأدوات ووسائل الانتاج وللعمال أنفسهم. وعلاوة على هذا فقد وجدت في مجتمع الرق ملكية الفلاحين والحرفيين الصغيرة [٣١].

وقد ارتدى استثمار العبيد [٣٢] أشكالاً في أقصى الضراوة والقساوة. وكانت معاملة العبيد أسوأ من معاملة الماشية. وكانوا يدفعونهم إلى العمل بضرب السيـاط، ويعاقبونهم بقسوة وحشية لأقل هفوة، بل كانوا يقتلونهم. وكان السيد لا يحاسب إذا قتل عبده. وكان مالك العبد يستولي على كامل ثمرات عمل عبده ولا يعطيه إلا قدراً زهيداً من مقومات العيش لكي لا يموت جوعاً ولكي يتمكن من متابعة العمل لأجله [٣٣].

وبالرغم من ذلك، فإن نظام العبودية كان أكثر تقدماً بالمقارنة مع نظام المشاعة البدائية. فقد ظهرت مع نظام العبودية فروع جديدة في الزراعة والحرف وظهرت المدن الكبيرة وتطورت الثقافة. وأدى، بالضرورة، إلى نسف رابطة الدم ضمن العشيرة والقبيلة وإلى اختلاف العشائر والقبائل بعضها عن بعض، وظهور شكل جديد لاجتماعية الناس - الشعب [٣٤].

إن نظام الرق، إذ كان الأساس لتقسيم العمل الضروري من الوجهة التاريخية، فإنه بهذا خلق الشروط لازدهار ثقافة العالم القديم، ولتقدم قوى الانتاج، وزيـادة وتائر التطور التاريخي. وإن تطور تقسيم العمل الاجتماعي كان أحد الجوانب التقدمية لاسلوب انتاج النظام العبودي بالمقارنة مع نظام المجتمع البدائي [٣٥].

---

(٣١) المصدر ذاته ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٣٢) كانوا يسمون العبد أداة ناطقة، وكان لا يمتاز عن الفأس أو الثـور إلا بكونه يملك موهبة النطق.

(٣٣) نيكيتين: أسس الاقتصاد السياسي. دار التقدم - موسكو ص ٢٢.

(٣٤) ف. كيللي وم. كوفالزون: المصدر السابق ص ١٦٤.

(٣٥) المصدر ذاته ص ١٦٣.

وكانت المصادر الرئيسة لزيادة عدد العبيد: الحرب وتجارة الرقيق واستعباد أعضاء المشاعة المعدمين لقاء ما عليهم من ديون.

لقد أصبحت العبودية عنصراً أساسيا في نظام تنمو فيه الزراعة والحرفة والتبادل وانتاجية العمل نمواً دائماً ومتزايداً.

وزاد التوسع في الانتاج وفي المبادلات من عدم التساوي في الثروة. وهكذا تركزت الملكية العقارية والنقود وكتل العبيد بين أيدي الأغنياء. وبينما أخذت الاستثمارات الريفية الصغيرة تنهار، كان الاقتصاد القائم على العبودية يقوى ويتسع ويمتد إلى كل فروع الانتاج، وأصبح من ثم وجود المجتمع يرتكز على العمل العبودي. وهكذا تكونت طريقة الانتاج القائمة على العبودية[36].

ولم يكن بوسع مالكي الأرقاء اخضاع العبيد والمشاعيين الأحرار البسطاء وإكراههم على العمل من أجلهم، وزيادة ثرواتهم، واشباع جشعهم المتنامي، وإدارة المجتمع، إلا بوجود جهاز دائم للعنف والقسر. وقد تكون هذا الجهاز تدريجياً بشكل الدولة وهيئاتها: الجيش والشرطة وجهاز الموظفين ونظام القوانين إلخ[37].

لقد ظهرت الدولة في مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع، كمنظمة سياسية مكونة جزءاً من البناء الفوقي القائم على الاساس الاقتصادي للمجتمع الطبقي. وإذا كان الأساس الاقتصادي للمجتمع هو مجموع قواه المنتجة وعلاقاته الانتاجية، فإن البناء الفوقي هو آراء المجتمع ومؤسساته التي أوجدها أساسـلكي تخدمه. وبمساعدة الدولة تحقق الطبقة المسيطرة اقتصادياً سيطرتها السياسية. إن الدولة هي آلة لصيانة سيادة طبقة على طبقة أخرى... آلة الغرض منها أن تخضع لطبقة سائر الطبقات المطوعة الأخرى. والدولة في المجتمعات الاستثمارية هي جهاز الظلم والاستثمار الطبقي

إن الأطرزة التاريخية المختلفة للدول الاستثمارية تتميز بعضها عن بعض. غير أن جوهرها واحد: الأقلية المستثمرة تسيطر على الأكثرية المستثمرة.

ويعرف التاريخ القديم بعض الأشكال الرئيسة التي تكونت فيها الدولة على أنقاض النظام البدائي. وقد وجدت أبسط أشكال الدولة في الرق القديم: مصر وبلاد ما بين النهرين

(٣٦) غنيم، أحمد محمد: تطور الملكية الفردية ص ٢٨

(٣٧) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ص ٨٣

والهند والصين وغيرها من البلدان. وقد أخذت الدولة هناك، حين كانت سيطرة الدين واستبداد السلطة المركزية، شكل سلطة الملك المطلقة «المعصومة» على كل السكان والتي كانت تمثل في الأساس شكل سيطرة ملاك العبيد وارستقراطية الكهان على جماهير العبيد والفلاحين الفقراء والحرفيين الكادحين. وقد عمل تكون الأديان الواسعة الانتشار على تقوية تأثير الكهنوت في حياة الدولة، كما عمل على تقوية نفوذ الملك، وعلى اظهاره في عيون الناس كمخلوق فوق الطبيعة منحدر من أصل إلهي «ابن السماء».

إن ظهور الدولة نفسه يعني الاعتراف بأن المجتمع يتخبط في تناقضاته الداخلية التي ليس لها حل، وأنه قد انقسم إلى طبقات متعادية لا تتفق. وهكذا أيضاً، مع ظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى طبقات متناحرة، ينشأ النضال الطبقي الذي يؤلف القوة الأساسية المحركة للتقدم البشري والتاريخي.

إن تاريخ مجتمع الرق بأكمله حافل بالصراع بين الطبقات. وقبل كل شيء بين العبيد ومالكيهم. والنضال الطبقي هو نتيجة للتضاد في الوضع الاقتصادي والتناقض بين مصالح مختلف الطبقات. أما المصالح الطبقية فيحددها وضع الطبقة المعنية في نظام الانتاج الاجتماعي. فقد كان العبيد محرومين من أية ملكية، وكانوا أنفسهم ملكية لأسيادهم ويتعرضون لأشنع استثمار في التاريخ، ولهذا كانوا معنيين موضوعياً في تصفية اسلوب الانتاج الذي زج بهم في هذا الوضع. وعليه كان العبيد طبقة ثورية، برغم أن ثوريتهم كانت تحمل طابعاً محدوداً.

وكانت الثورات المسلحة التي قام بها العبيد في الدول القديمة في أفريقيا وآسيا الشكل الأكثر سطوعاً لتجلي النضال الطبقي مثلاً: في عهد الامبراطورية المصرية القديمة، اندلعت ثورة جبارة في القاعدة اشتركت فيها إلى جانب العبيد جماهير الفلاحين في الأرياف والحرفيون في المدن، أي كافة الفئات المستعبدة والمظلومة التي لا تملك شيئاً ضد الطبقة الحاكمة والأرستقراطية السائدة المالكة لوسائل الانتاج [٣٨].

لقد كان تحطيم الانتفاضات ممكناً لأن المشتركين فيها كانوا يفتقرون للتنظيم والضبط الضروريين، ولأن قواهم كانت مبعثرة ولم يكن بوسعهم الصمود في وجه الفرق المسلحة تسليحاً جيداً للطبقة السائدة. وفي ذلك الوقت لم تكن توجد ولا كان بوسعها أن توجد

---

(٣٨) انظر ص ١١٥ وما بعدها.

ظروف واقعية من أجل تصفية استثمار الانسان للانسان[٣٩].

ولكن رغم الهزيمة، اتسمت انتفاضات المشاعيين البسطاء والحرفيين والعبيد بأهمية تقدمية كبرى، إذ أنها خففت من وطأة الاستثمار،

وكانت هذه الانتفاضات أول تجربة لنضال الجماهير العاملة في سبيل انعتاقها وتحسين ظروف حياتها. وحتى النجاحات المؤقتة للانتفاضات كانت تؤدي إلى بعض التحسن في وضع المنتجين المباشرين مما ساعد على تطور القوى المنتجة.

وكان نضال الجماهير لعاملة ضد وحشية مستثمريهم قد هز مجتمع العبودية وكانت تلك الانتفاضات بأغلبيتها السابقة تمنى بالفشل وتسحق دون رحمة، لكنها تمكنت من أن تنسف تدريجياً دعائم المجتمع العبودي وتقوضه.

(٣٩) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ص ٨٣.

الفصل الثالث

ثقافة عصور ما قبل التاريخ

١ - نشوء وتطور التفكير والكلام واللغة: نشأ التفكير نتيجة النشاط العملي للناس الأوائل. ففي مجرى العمل والتأثير النشيط في الطبيعة كانت تتطور كل عضوية الانسان ويغتني عقله.

لقد أخذ دماغ الانسان يعمم الظواهر ويربطها بسلسلة منطقية من التفكير نتيجة لتراكم الانطباعات عن الطبيعة المحيطة بالانسان وتجمع العادات خلال عصور مديدة. وبدأ الانسان يتنبأ بنتائج أعماله، ويدرك الطبيعة المحيطة به ويعرفها، فتعرف على خصائص المواد كالحجارة والأخشاب التي كان يصنع منها أدواته. وكذلك تعرف على طبائع الحيوانات فاستطاع اصطيادها، كما تمكن أيضاً أن يميز بين الثمار والخضراوات والجذور النباتية الصالحة وغير الصالحة للأكل. ولكن بالنظر للمستوى البدائي إلى أقصى حد لتطور القوى المنتجة والناس أنفسهم وعجزهم أمام قوى الطبيعة، كان تفكيرهم محدوداً أيضاً.

وساعد العمل أيضاً على تطور النشاط النفساني عند الانسان، هذا النشاط الذي يقوم على عمليات فيزيولوجية معينة تجري في الدماغ البشري. فبدون الدماغ المادي والعمليات الفيزيولوجية الجارية فيه، تستحيل حتى أبسط أشكال النشاط النفساني لدى الانسان.

وفي سياق النشاط العملي، نشأ أيضاً الكلام وتطور. ولما كان العمل دائماً عملاً اجتماعياً. لهذا برزت لدى الناس في مجرى العمل الجماعي الحاجة إلى التعارف والاتفاق والتفاهم وتبادل الأخبار والخبرات فيما بينهم، إلى قول شيء ما بعضهم لبعض. ومن ناحية ثانية، تميز الانسان عن الحيوان بأجهزة صوتية مرنة. وقد تطورت تلك الأجهزة مع تطور جسم

الانسان خلال العمل والنشاط المستمر، وتحولت الحنجرة تدريجياً إلى عضو قادر على اللفظ بأصوات مفصلة. وهكذا نشأ بصورة تدريجية الكلام المفصل، اللغة - واسطة تبادل الأفكار، وسيلة التعارف والمعاشرة بين الناس.

وقد اتسم نشوء الكلام وتطوره بأهمية كبيرة بالنسبة لتطور المجتمع لاحقاً. إذ أنه ساعد على توحيد جهود الناس أثناء العمل - وكذلك على تنظيم العمل الجماعي. فبمساعدة الكلام كان الناس يحفظون الخبرة الانتاجية المكدسة وينشرونها وينقلونها إلى الأجيال الجديدة.

وبما أن الناس كانوا يعيشون قديماً جماعات صغيرة، مغلقة. فإن لغة كل من هذه الجماعات كانت تتطور من حيث الأساس بصورة مستقلة وتتميز من لغات الجماعات الأخرى[1].

وقد مرت اللغات بعدة مراحل من التطور، وفي نهاية العصر الحجري الحديث ومطلع عصر المعادن تشكلت الاسرات اللغوية الرئيسية المعروفة وهي:

١ - اسرة اللغة الهندو - أوروبية. ٢ - اسرة اللغة التركية - المنغولية. ٣ - اسرة اللغة الصينية - التيبتية. ٤ - أسرة اللغة السامية - الحامية. ٥ - اسرة اللغة الفنلندية - الأغورية[2].

٢ - المعارف العملية: في سياق النشاط العملي واتقان أدوات العمل وتطور القوى المنتجة احرز الانسان انتصاراته الأولى على قوى الطبيعة، وكدس خلال مسيرته النضالية الطويلة والشاقة اكواماً من التجارب والخبرات والمهارات. وبمساعدة نشوء الكلام كان الناس يحفظون الخبرة الانتاجية المكدسة وينشرونها وينقلونها إلى الأجيال الجديدة.

لقد أدى نمو القوى المنتجة إلى تطور الحياة الروحية لدى المجتمع البشري. وإن اتقان صنع أدوات الصيد والسماكة وممارسة الزراعة وتربية الماشية وتحسين صنع الأدوات الحجرية، عن طريق صقلها بصورة جيدة واختراع الأدوات المعدنية وبناء المساكن وصنع الفخار والنسيج، كل ذلك وسع تدريجياً الخبرة التقنية عند الانسان وأغنى حياته الروحية.

ففي مجرى العمل، بدأ الناس الأوائل يتعلمون أنه بمقدار اتقان أدوات العمل كانت

---

(١) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ص ٩ - ١١

(٢) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٢٥.

حياتهم تتغير، ولو أن ذلك التغير كان طفيفاً بالنظر للمستوى البدائي إلى أقصى حد لتطور القوى المنتجة والناس أنفسهم، وبانتاجية عملهم المنخفضة للغاية.

وكم هي أساسية وهامة المعارف العملية التي جمعها الناس الأولون خلال عشرات الألوف من السنين اعتباراً من استعمال العصا الحجرية الغليظة ومروراً بالمعزقة والفأس ثم إلى المحراث الذي تجره الحيوانات بالإضافة إلى استخدام مناجل الحصاد ذات الحد الحجري أولاً والمعدني فيما بعد إلى استعمال الأدوات النحاسية فالبرونزية.

وكان اكتشاف النار واستخدامها بصورة اصطناعية حدثاً هاماً في تاريخ البشرية. إذ استعملها الانسان كوسيلة لطهي الأطعمة اللحمية والنباتية، وكمصدر للتدفئة والإنارة، وكأداة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات المفترسة، وكذلك من أجل اعداد بعض الأدوات، وتكييف الحجارة. كذلك ساعدت النار على اكتشاف الخزف المشوي الذي صنع منه الانسان مختلف الأوعية وزينها بالرسوم[٣].

وقد سجل الانسان باختراعه القوس والنشاب نصراً جديداً في سياق نضاله مع الطبيعة. فقد كان القوس والنشاب أقوى سلاح في أيدي الناس الأقدمين وأبعده مدى. وإن ظهوره سهل بصورة ملحوظة نضال الانسان ضد قوى الطبيعة. وازدادت أهمية الصيد في حياة المجتمع البشري زيادة كبرى. فكان الصيد يقدم للانسان كل ما هو ضروري من أجل حياته: الطعام اللحمي، اللباس من الجلود، القرون والعظام لصنع السلاح وأدوات العمل.

إن الانتقال من جمع النباتات إلى الزراعة البدائية لم يكن ممكناً إلا باختراع أدوات مختصة بفلاحة الأرض مثل العصا الحفارة والمعزقة وكذلك بفضل التجربة والمهارات المكدسة في غضون سنين طويلة من عمليات جمع النباتات. وبظهور الزراعة اتسع مجال النشاط العملي عند الانسان اتساعاً ملحوظاً. فقد اكتسب عادات في العمل وتجارب جديدة، وأخذ يعرف بمزيد من العمق سنن تطور الطبيعة ويصنع أدوات جديدة للانتاج. واتسمت تربية الماشية بأهمية كبرى بالنسبة لتطور الانسان، إذ استخدمها كمصدر مضمون لغذائه من اللحم والحليب، ولصنع لباسه من الجلد والصوف، وعمل سلاحه وأدواته من القرون والعظام، كما استعملها في أعماله الزراعية وفي النقل. وشيئاً فشيئاً ومع اتقان أدوات العمل طور الانسان مسكنه. فبينما كان يلجأ إلى الكهوف والأشجار الكثيفة

---

(٣) المصدر ذاته ص ٢٣.

أصبح في العصر الحجري الحديث يبني المساكن من الأخشاب والطين والحجارة ويحصنها بالأسيجة الخشبية والاسوار الترابية والخنادق لتحميه من الحيوانات والأعداء [٤]. ومنذ نشوء المنتوج الزائد وقيام المبادلات التجارية، بدأ الناس الأولون يجمعون تجاربهم عن عمليات التبادل التي ازدادت غنى ونمواً مع الزمن.

وهكذا فإن ذلك التطور الكبير الذي مر به الانسان في عصور ما قبل التاريخ لم يكن ليتم دون تراكم التجارب والخبرات والمهارات في مختلف أنشطة الانسان.

٣ ـ **نشأة الفن وتطوره:** لم يكن الفن منذ البداية سوى نسخ بشكل خاص وبالصور الفنية للواقع الحقيقي المحيط بالانسان. وحتى أولى أعمال الانسان البدائي الفنية لم تكن ممكنة إلا بتطور التفكير وتطور مقدرة الدماغ البشري على تكوين التصورات عن هذه أو تلك من أشياء وظاهرات الوسط المحيط بالانسان. وكذلك أيضاً لم يصبح بإمكان الانسان تصوير الأشياء المحيطة به في ابداعاته إلا عندما بلغت أعضاؤه وخصوصاً يده درجة عالية من الاتقان، وعندما تطورت أدوات العمل تطوراً كافياً [٥]. وهكذا فإن الفن نشأ ونما في المجتمع البدائي من خلال المتطلبات الاجتماعية وعكس علاقة الانسان بالانتاج.

كانت الحجارة والصخور بقسماتها الغريبة تذكر الانسان بهذه الحيوانات أو تلك، وكان الانسان يحاول جاهداً لكي يضفي عليها شبهاً أكثر. وكان الفنانون الأوائل، طبقاً لفكرتهم عن الحيوانات، يغيرون شكل الحجارة ويصبغونها. وفيما بعد استطاعوا تصوير الناس، ورسم لوحات من حياة الانسان على جدران الكهوف ومنحدرات الصخور بواسطة أبسط الرسمات التخطيطية المغطاة أحياناً بصبغة معدنية [٦]. وكانت الصبغة المعدنية تؤلف من المغرة الحمراء والصفراء واكسيد المنغنيز الأسود وغيرها.

بدأ فن التصوير في العصر الحجري القديم، ولكن التصوير الحقيقي نشأ في العصر النيوليتي. وقد وجدت معظم الصور في الكهوف. لذا يطلق على ذلك الفن اسم فن الكهوف [٧]. وكانت الصور تمثل الماموث والحصان والايلة وغيرها من الحيوانات التي تعبر عن نشاط الانسان الاقتصادي المتمثل في الصيد. وكانت الحيوانات ترسم بحجمها

---

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) جماعة من العلماء السوفيات: المصدر السابق ج ١ ص ٤٢

(٦) نفسه المصدر والصفحة.

(٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٢٥.

الطبيعي[٨]. كما كانت تلك الصور تمثل النساء، مما يدل على استمرار نظام الأمومة. وعندما اكتشف الانسان صناعة الخزف أخذ يزين الأواني الخزفية بصور ورسوم جميلة كما تطلعنا على ذلك المكتشفات الأثرية.

ونحت الفنانون الأوائل تماثيل من عظام الماموث أو الحجارة الطرية أو العاج لأغراض من بينها الأمور الدينية.

من الأعمال الفنية التي عثر عليها علماء الآثار والتي تعود إلى الفترة المجدلانية من عصور ما قبل التاريخ تماثيل صغيرة منحوتة من الحجر أو العاج[٩] ورسوم كهف التاميرا على الساحل الشمالي لاسبانيا وهي تمثل بعض النيران الوحشية والخيول والخنازير البرية[١٠]. وكانت هذه الرسوم ملونة (في الأصل) باللون الأسود أو الأحمر أو باللونين معاً[١١]. وهناك مجموعة أخرى من الرسوم عثر عليها في كهف فون دي جوم الكائن على مقربة من ليزيزي في اقليم دوردونـي بجنوب فرنسا تمثل ثيراناً وحشية وذئباً ووعول رنة. وصورة الثور لا تدع مجالاً للشك أن المنطقتين كان لها ثقافة واحدة على الرغم مما بينهما من اختلافات محلية. وفي رسم الذئب شيء من النزعة الايحائية. أما رسما وعلي الرنه اللذين يخر احدهما على الأرض ليرعى، فهما متناهيان في الروعة[١٢]. وعثر الدكتور موفيوس على حصاة كبيرة مغطاة بصور الحيوانات التي نحتت احداها فوق الأخرى، وهو يذهب إلى أنها كانت بمثابة كراسة الرسوم التمهيدية عند الفنان الحديث[١٣].

وعرف الانسان البدائي الوشم واستخدمه لتزيين جسده[١٤]. وتحلى بالأساور والقلائد[١٥].

ومن فنون الانسان البدائي الغناء والرقص والموسيقى. وكان الناس الأولون يحبون الغناء ليعينهم على الاستمرار في العمل الذي يزاولونه. وكانوا يغنون ويرقصون قبل أن يتوجهوا

(٨) المصدر ذاته ص ٢٦.

(٩) هاوك، وليام: ما وراء التاريخ. ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد ص ١٤٨.

(١٠) المصدر ذاته ص ١٤٩.

(١١) هامرتن، ع. ا: تاريخ العالم ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٥.

(١٢) المصدر ذاته ص ٢٧٦.

(١٣) هاوك، وليام: المصدر السابق ص ٢٥٦.

(١٤) هاوك المصدر السابق ج ١ ص ٣١٠.

(١٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٤٨.

إلى الصيد أو الحرب، كما كانت المحافل والطقوس الدينية مزيجاً من غناء ورقص وتمثيل [١٦]. ومع الغناء والرقص نشأ العزف الموسيقي على آلات الدق (كالطبول والصنوج) وآلات النفخ (كالأبواق والمزامير والنايات) والآلات الوترية (كالعود والقانون) [١٧]. وكانت الآلات الموسيقية تصنع من قرون الحيوانات وجلودها ومن الخيزران والخشب ثم من النحاس والعظام والأوتار وغيرها [١٨].

٤ ـ نشأة الديانة وتطورها: الديانة هي الاعتقاد بوجود آلهة وأرواح. وهناك نظريتان حول نشأة الديانة هما:

النظرية المثالية: وتتلخص في أن العقائد الدينية نشأت نتيجة لتأملات الإنسان البدائي.

النظرية العلمية: وتقول إن الديانة نشأت ليس نتيجة لتأملات الانسان القديم وإنما نتيجة لنشاطه العملي.

ترجع أصول الديانة البدائية إلى (٥٠) أو (٤٠) ألف سنة قبل الميلاد. ورغم أن الناس الأقدمين قد أحرزوا انتصارات عديدة على قوى الطبيعة، إلا أنهم مع ذلك كانوا لا يزالون ضعفاء، عاجزين أمامها. وكانت قوى الانسان وتجربته ومعرفته للطبيعة بعيدة عن أن تكون كافية لتكوين تصور صحيح عن الواقع المحيط. ولم يكن بوسع الانسان البدائي أن يوضح توضيحاً صحيحاً صلة وتتالي ظاهرات الطبيعة وتأثيرها في حياة الناس.

وكان الانسان ضعيف التسلح إلى أقصى حد، وكان على الدوام يشعر بعجزه في النضال ضد الطبيعة وفي أوقات الكوارث الطبيعية ـ الفيضانات، ثورانات البراكين، حرائق الغابات، الجفاف، الجوع ـ أرغم عجز الانسان هذا، ومعرفته الضعيفة لقوانين الطبيعة على افتراض وجود قوى خيالية لا يفهمها تقوم بإدارة الظاهرات الطبيعية.

إن التصورات الدينية التي ظهرت كانت انعكاساً خيالياً مشوهاً في رؤوس الناس البدائيين لقوى حقيقية تماماً كانت تسيطر على حياة الانسان اليومية

وبما أن الانسان البدائي غالباً ما كان عاجزاً عن الصمود في وجه الضواري الهائجة،

---

(١٦) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٣٦.

(١٧) هامرتن: المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٩

(١٨) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٣٦

وكانت حياته متوقفة على صدف الصيد: فإنه بدأ ينسب خصائص خيالية إلى الوحوش البرية. وقد فكر الانسان البدائي بأن للوحوش والناس اسلافاً مشتركين وأن الوحش يعيل الانسان مقدماً له لحمه.

وهذا التصور الخيالي عن الحيوان كسلف وحام لجنس معين من الناس المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بهذا الحيوان والتابعين له اطلق عليه العلم اسم «الطوطمية» التي كانت من أبرز أشكال العقائد الدينية في المجتمع البدائي.

وقد نشأت الطوطمية في مرحلة الجمع والصيد. وكان لكل قبيلة طوطم خاص يعتقد أفرادها أنهم انحدروا منه جميعاً، كما كانت القبيلة تحمل اسم ذلك الطوطم[19]. وفيما بعد لم يعد الحيوان وحده يعتبره الناس طوطماً وسلفاً وحامياً، وإنما أصبحت كذلك الأشجار والأعشاب. وبغية ضمان الحماية من الوحوش الضارية ومعيشة أفضل والتوفيق في الصيد، اعتبر الانسان أنه من الضروري نيل المساعدة من الطوطم الذي اختلقه خياله.

وكان الانسان يغمر الطوطم بلطفه وعطاياه ويتوجه إليه بكلمات الاستعطاف. وشيئاً فشيئاً اتخذت هذه التوجهات إلى الطوطم شكل عادات معينة تسمى سحر وشعوذة الصيد.

ومن أشكال الدين الأكثر انتشاراً كان الاعتقاد بوجود «أرواح». (مختلف الأرواح الخيرة والشريرة، العفاريت، الآلهة، إلخ..) غير مرئية وغير مادية منسوبة إليها خصائص خارقة. إن هذا الاعتقاد ينبع من عدم فهم الانسان لطابع ظواهر الطبيعة التي كان وكأنه يشبهها بنفسه ويجعل لها روحاً ويصورها بشكل كائن غير مادي تلازمه خصائص بشرية ويمتلك قوة خيالية. ومن هذا القبيل الاعتقاد بالمبدأ الروحي للحياة والموت.

وقد اعتقد الناس البدائيون بوجود روح داخل الانسان تنفصل عنه عند الموت. كما اعتقدوا أن كل شيء في الطبيعة له روح أيضاً كالجبال والأنهار والأشجار والنجوم والشمس والقمر وغير ذلك. وعبد الانسان القديم تلك الأرواح لاعتقاده بوجود قوة غير طبيعية فيها. كذلك كان يجسد تلك الأرواح بأشياء مادية ترمز إليها ويصنعها من الحجارة أو الخشب أو غير ذلك (فيتيش)، وكان الانسان يحمل معه ذلك الفيتيش لاعتقاده بأنه يحميه من الأضرار والأخطار ويجلب السعد إلى صاحبه[20]. وأخذ يعمل على ارضاء

---

(١٩) الطوطم: حيوان أو نبات تنتحل القبيلة صورته شعاراً لها.

(٢٠) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٢٨.

الأرواح بتقديم القرابين والضحايا لها [٢١].

وكان في اعتقاده أن الأرواح الخيرة تضمن له التوفيق في الصيد وجمع الغذاء، في حين أن الأرواح الشريرة تجلب له الكوارث والمصائب والأوبئة. وكانت الأرواح الرئيسة، الآلهة، تدير قوى الطبيعة: شروق الشمس، المطر، الرياح، الصاعقة، تبدل الفصول إلخ..

وعن الاعتقاد بالقوة السحرية الخارقة التي تستطيع التأثير في حياة الناس، نشأت مختلف الرقى والحجب. وكان السحر يعني الاعتقاد بمقدرة الانسان على إثارة قوى خيالية. وقد انتشر السحر على نطاق واسع في المجتمعات البدائية، وكان له تأثير كبير على مختلف نواحي حياة الانسان [٢٢]. في أول الأمر، كان كل انسان يستطيع ممارسة السحر. ولكن فيما بعد أصبح السحر مقتصراً على جماعة معينة من الكهنة والسحرة والعرافين الذين احتكروا العمليات السحرية وعقدوها وأحاطوها بهالة من الغموض والتضليل [٢٣].

إن الاعتقاد بقدرة التأثير في الطبيعة بواسطة السحر لضمان التوفيق في الصيد والجمع والسماكة أفضى في نهاية المطاف إلى تشديد تبعية الناس الأولين للطبيعة، وصرفهم عن الالتفات إلى حاجاتهم الحقيقية واستنزف طاقاتهم الخلاقة.

وعندما تطورت الزراعة وتربية المواشي وانتقل الانسان من مرحلة جمع الغذاء إلى مرحلة انتاجه، أخذ يعبد بالدرجة الأولى قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم والمطر والأنهار والينابيع والأرض وغيرها لما لها من تأثير على حياته ومعاشه.

ومع الزمن أخذت تتلاشى الآلهة الحيوانية لتحل محلها الآلهة البشرية أو حسب تعبير ول ديورانت «أصبح البشر آلهة» [٢٤]. وحين نشأت الدولة العبودية المركزية الموحدة أصبح لشعبها إله (صنم) رئيسي يعبده له السيادة على غيره من المعبودات الثانوية الأخرى تماماً كما أصبحت للملك السيادة على غيره من الرعايا والأتباع. وعبادة الأصنام من أشكال الدين أيضاً. وهي تعني نسبة قوى خارقة إلى الأشياء المادية قادرة على التأثير في الانسان. وتعني عبادة هذه الأشياء.

وبما أن الناس الأقدمين كانوا عاجزين عن تفسير موت الانسان، فقد أخذوا يخافون

---

(٢١) نفس المصدر والصفحة.

(٢٢) المصدر ذاته ص ٢٩

(٢٣) ذاته.

(٢٤) قصة الحضارة: ج ٢ ص ١٥٩.

من الأموات خوفاً خرافياً ولا سيما من أولئك الذين كانوا يرعبونهم عندما كانوا أحياء، من المحاربين البارزين والزعماء. وأخذوا ينسبون إلى أجساد الموتى وحتى إلى صورهم صفات خارقة. وفيما بعد تكوّن تصور خيالي عن عالم آخر تسكنه أرواح الموتى. وقد تجلى السعي إلى ارضاء قوة ما خارقة بشكل تقديم القرابين المادية الصرف.

وعلى هذا النحو كان ظهور العقائد الدينية القديمة نتيجة لعجز الانسان أمام الطبيعة. وقد كرست الديانة البدائية عجز الانسان أمام الطبيعة، العجز الذي كانت الديانة نفسها انعكاسه. وقد ساعدت هذه العقائد على الابقاء على هذا العجز لأنها حالت دون معرفة العالم، وشغلت الانسان عن دراسة ظواهر الطبيعة والبحث عن التفسير الحقيقي لها وعرقلت بذلك تطوره الصاعد. واستغل الكهنة الدين لمصالحهم ومصالح الطبقة السائدة والمسيطرة على المجتمع.

٥ ـ **المعارف العلمية:** تكدس لدى الناس الأولين معارف علمية هامة من خلال النشاط العملي المستمر وملاحظتهم الطبيعة المحيطة بهم. فقد نشأ علم الفلك من ملاحظة الفلاحين حركة الكواكب والنجوم. ونشأت الهندسة عن قياس الأرض المزروعة عندما بدأ الانسان يمارس الزراعة. وترقى بدايات علمي النبات والحيوان إلى مرحلة الصيد والجمع حين ميز الانسان البدائي الحيوانات والنباتات الصالحة وغير الصالحة للأكل وتعرف تدريجياً على خصائص كل منها. ونشأ الطب من الخبرات المتراكمة. ولكن الانسان البدائي ظل يجهل اسباب المرض فظن أن روحاً شريرة تدخل الجسم فتمرضه، لذلك استعمل السحر في معالجة المرض[٢٥]. ومن العدّ نشأ علم الحساب. بيد أن الانسان البدائي لم يعرف إلا الاعداد البسيطة.

وفي عصور ما قبل التاريخ، لم يسجل الانسان شيئاً عن المعارف العلمية، بل اقتصر على ممارستها عملياً، إذ لم يكن يعرف الكتابة بعد.

٦ ـ **نشوء الكتابة وتطورها:** إن استعمال الأدوات المعدنية والتحسين المستمر للأدوات الحجرية والتطور الذي حدث في مختلف فروع الاقتصاد وفي حياة الناس المادية والفكرية هيأ بدوره أفضل الظروف لاختراع الكتابة.

وقد عنى اختراع الكتابة، حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، نهاية لعصور ما قبل

---

(٢٥) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٣٠.

التاريخ وبداية العصور التاريخية.

والكتابة تدوين للغة ووسيلة لتسجيل أفكار الناس ونقلها إلى الأجيال اللاحقة.

وتطورت الكتابة منذ نشوئها بعدة مراحل: ففي المرحلة الأولى كانت تصويرية، أي رسم الصور الحقيقية للأشياء التي يراد التعبير عنها أو تدوينها. وفي المرحلة الثانية أصبحت رمزية أو فكرية، أي جاءت الصور تنقل أفكاراً معينة. وفي المرحلة الثالثة، أصبحت صوتية، أي جاءت بعض الصور تعبر عن أصوات معينة. وفي المرحلة الرابعة صارت مقطعية. ثم جاءت الكتابة الأبجدية في المرحلة الخامسة. وهنا أصبحت الأصوات تمثل بحروف لا بمقاطع أو صور، وصار الحرف الواحد يستعمل في كثير من الكلمات. وأول من اخترع الحروف الأبجدية هم الفينيقيون، ثم اخذها عنهم اليونان والرومان والآراميون والفرس والهنود والعرب وغيرهم[٢٦].

(٢٦) المصدر ذاته ص ٣١.

حضارة مصر في العصور القديمة
وما قبل التاريخ
الأحوال الطبيعية

تقع مصر أوكيمي ـ أي الأرض السوداء ـ بين أفريقيا وآسيا. فهي مفتاح أفريقيا من الشمال، وتلامس شبه الجزيرة العربية وسورية الجنوبية ببرزخ سيناء. وتشرف من الشمال على البحر الأبيض المتوسط الذي فتح أمامها رحاب الاتصال التجاري والثقافي مع دول العالم القديم الواقعة في حوضه. أما في الجنوب فتتصل بالبلدان الأفريقية المجاورة الغنية بإنتاج السلع النفيسة كالعاج والأبنوس والذهب والجلود وغيرها. تتكون أرض مصر من وادٍ ضيق محصور معظمه بين صحراوين جرداوين. ولم يكن لوادي النيل الأخضر الخصيب وجود في الأزمنة الجيولوجية البعيدة. وقبل أن يكون هناك مصريون، كانت الطبيعة تهيىء لهم المكان الذي سيعيشون فيه. وأعدت ذلك العمل ببطء في مدى آلاف وآلاف السنين[1].

كان شمال شرقي أفريقيا في الماضي هضبة عظيمة من الحجر الجيري تسقط عليها أمطار غزيرة ثم تتجمع هذه المياه وتشق طريقها في اتجاهات مختلفة. فلما انتهت تلك العصور ارتفعت الهضبة شيئاً فشيئاً، كما أخذت المياه تشق طريقها إلى البحر. وكان من أثر ذلك أن تم حفر مجرى عظيم، إذ شق الماء طريقه نحو الشمال في الهضبة الجيرية مكوناً نهراً عظيماً، واستمر ذلك حتى تم حفر مجرى وادي النيل.

وبعد العصر المطير، أخذ الجفاف يحل في منطقة كبيرة من كوكبنا منها أفريقيا. ومع استمرار الجفاف في أفريقيا اختفت الغابات وحلت محلها أراضٍ معشبة تحولت إلى قفار، ثم إلى صحارى ـ الصحراء العربية (الشرقية) شرق الوادي والصحراء الليبية (الغربية) غربه.

(١) ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة الدكتور أحمد فخري ص ٥١.

ويمكن تقسيم مصر من حيث التضاريس ومظاهر السطح إلى أربعة أقسام هي:

١ ـ وادي النيل ودلتاه.

٢ ـ الصحراء الشرقية.

٣ ـ الصحراء الغربية.

٤ ـ شبه جزيرة سيناء.

١ ـ **وادي النيل ودلتاه:** بدأ نهر النيل يشق طريقه في مصر في أواخر عصر الميوسين بعد أن تعرضت أرضها لحركة ارتفاع كبيرة أدت إلى انحسار مياه البحر الميوسيني عنها. ثم أخذ النهر الوليد يحفر لنفسه مجرى عميقاً في تكوينات الفترات الجيولوجية السابقة كما استطاع أن يوسع هذا المجرى ويزيد من عمقه. وتمكنت روافده العديدة التي كانت تنحدر إليه من جبال البحر الأحمر من أن تحفر لها هي الاخرى مجاري عميقة، ومعنى هذا أن نشأة مجرى النيل إنما ترجع إلى التعرية النهرية وحدها [٢].

ووادي النيل عبارة عن شق ضيق يخترق مصر من الفانتين في الجنوب إلى منفيس في الشمال أما الدلتا فهي سهل عظيم الاستواء يمتد من نهاية الوادي عند منف حتى سواحل البحر المتوسط. وكانت المنطقة التي يشغلها كل من وادي النيل والدلتا في عصر البليوسين خليجاً بحرياً يمتد على شكل ذراع ضيق تغمره مياه البحر. ثم امتلأ الوادي برواسب ذلك العصر وأصبح جافاً تقريباً إلا من بحيرات منعزلة قليلة الأهمية.

وقد حدث في أواخر البليوسين وأوائل البليوستوسين أن امتلأت هذه البحيرات برواسب الحصى والزلط والرمل كانت تجلبها الأنهار التي تأتي من الصحراء الشرقية والغربية وتغطي بها قاع الوادي وتملأ بها البحيرات التي كانت فيه. وكانت الاحوال المناخية في ذلك الوقت تسمح بسقوط الامطار الغزيرة وتكوين أنهار جانبية كثيرة تغذي نهر النيل بالماء وتحمل معها الرواسب إلى منطقة الوادي.

وإلى هذا الوقت لم تكن مياه النيل تأتي من الجهات الاستوائية وهضبة الحبشة بل كانت تأتي من الاراضي الواقعة على كلا جانبيه في مصر. ولكن حدث بعد ذلك أن استطاعت مياه الجهات الاستوائية ومياه هضبة الحبشة أن تشق لها طريقاً نحو الشمال إلى مجرى النيل في مصر وتصل عن طريقه إلى البحر المتوسط. واستطاعت تلك المياه أن تحمل لمصر رواسب تلك الجهات وبنوع خاص طبقة الطمي الرقيقة التي تغطي قاع وادي النيل وأرض دلتاه [٣].

---

(٢) صفي الدين، محمد (الدكتور) وزملاؤه: دراسات في جغرافية مصر ص ٢٢.

(٣) متولي أحمد (الدكتور): وجه الأرض ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

يمتد وادي النيل من الجندل الاول عند آبو' (الفانتين) إلى رأس الدلتا بالقرب من منف، ويبلغ طوله حوالي تسعمائة كيلومتر ، ويتراوح عرضه بين (١٠ ـ ٣٠) كيلو متراً، ولكنه قد يصل في بعض الجهات عرض المجرى المائي فقط. هذه هي الارض الجنوبية أو « تاشمع » كما سماها قدماء المصريين.

أما الدلتا، فكانت في أول الامر خليجاً بحرياً ملأه النيل بطميه حتى أصبح أرضاً منبسطة كان النيل يتفرع فيها إلى عدة أفرع على شكل مروحة أو مثلث أطلق عليها اليونان إسم « دلتا » نسبة إلى أحد أحرف هجائهم المثلث الشكل. ولم يبق الآن من أفرع النيل السبعة إلا اثنان يحددان الدلتا هما فرع رشيد (الغربي) وفرع دمياط (الشرقي).

والدلتا في مجموعها تنحدر انحداراً تدريجياً نحو البحر المتوسط حتى إذا لاقته كانت في مستواه تقريباً. وقد يبلغ مستوى بعض الاراضي الشمالية للدلتا منسوباً أقل من مستوى مياه البحر [٤]. وكانت الدلتا طافحة بالمستنقعات والبحيرات، وغير مزروعة [٥]. هذه هي الأرض الشمالية أو « تامح » كما سماها قدماء المصريين.

واعتباراً من الألف الخامس قبل الميلاد، أخذ سكان الهضبة ينزلون إلى وادي النيل بالقرب من موارد الماء. وبفضل عمل الناس، تغيرت معالم الوادي ودلتا النيل وأصبحت مصر أحد أقدم مواطن الحضارة البشرية.

وقد اكتشف علماء الأثار عدداً من المراكز الأثرية (محطات حضارية) في الدلتا والوادي والفيوم تعود مخلفات الإنسان فيها إلى العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الأسرات. وتمثل المحطتان الحضاريتان في الوجه البحري ! حلوان الاولى (العمري) ومرمدة بني سلامة العصر الحجري الحديث، في حين تمثل المحطتان الحضاريتان الأخريان في الدلتا ! حلوان الثانية والمعادي عصر ما قبل الأسرات. أما الوادي فتمثل فيه المحطتان الحضاريتان دير تاسا والبداري العصر الحجري الحديث، في حين تمثل حضارة العمرة وجرزة والسمانية عصر ما قبل الاسرات. وترقى المواد الأثرية المكتشفة في الفيوم إلى العصر الحجري الحديث وعصر ما قبل الاسرات [٦].

---

(٤) المصدر ذاته ص ٤١٨.

(٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية ص ١٣٧.

(٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القدم ج ١ ص ٥٢٣. انظر سليم حسن: مصر القديمة ج ١ ص ٥٩ ـ ٦٣.

٢ ـ الصحراء الشرقية: تشغل الصحراء الشرقية المنطقة الممتدة بين وادي النيل وبين البحر الاحمر وخليج السويس وانحدارها العام من الشرق، وتطل على الوادي في الغرب بحافات مرتفعة تتميز بأنها كثيرة التقطع والثغرات التي ما هي في الواقع إلا مصبات الأودية التي تنحدر إلى الوادي من جبال البحر الاحمر [٧]. وللصحراء الشرقية سلسلة فقرية تتمثل في جبال البحر الاحمر التي تمتد موازية له.

وقد تأثرت الصحراء العربية (الشرقية) كثيراً بالتعرية المائية خلال العصور المطيرة، فقطعتها مجاري الأنهار القديمة تقطيعاً شديداً... وهذه المجاري تتمثل اليوم في الاودية الكثيرة الجافة التي تمزق سطح الهضبة ولا تزال تجري في بعضها بين حين وآخر مياه السيول التي تجري في الصحراء الشرقية.

وقد اهتم فراعنة مصر بهذه المنطقة بالنظر إلى وجود الذهب والاحجار فيها. وتقع معظم مناجم الذهب في جهات نائية. وتذكر النصوص والوثائق أن قدماء المصريين استغلوا ذهب الصحراء الشرقية وحصلوا منها على مقادير كبيرة [٨].

٣ ـ الصحراء الغربية (الليبية): وتمتد في مصر من وادي النيل شرقاً حتى الحدود المصرية ـ الليبية. وتبلغ مساحتها ثلثي مساحة مصر. وهي عبارة عن هضبة صحراوية متسعة متوسطة الارتفاع تحتوي على عدد كبير من المنخفضات والكثبان الرملية. ويعتبر منخفض الفيوم أهم منخفضات الصحراء الغربية. وهو يشبه في كثير من الوجوه بقية المنخفضات الشمالية في الصحراء الغربية في وقوع كثير من أجزائها تحت سطح البحر، وفي انحدارها العام نحو الشمال، وإحاطتها بحوائط وهضاب مرتفعة في معظم جهاتها، وفي أنها تعتبر مناطق ذات تصريف داخلي.

ولكن منخفض الفيوم رغم هذا، يختلف عن هذه المنخفضات في أنه يتصل بالنيل من طريق أحد أفرعه القديمة التي تدخل المنخفض من فتحة طبيعية تعرف بفتحة «اللاهون»، وفي أن تربة إقليم الفيوم مكونة هي الاخرى من طمي النيل مثلها في هذا كمثل تربة الوادي والدلتا.

ومنخفض الفيوم هو أجمل واحة في الصحراء الغربية وذو قيمة اقتصادية كبرى. وتشير المكتشفات الأثرية في إقليم الفيوم أن سكان هذه المنطقة بدأوا بمزاولة الزراعة منذ

---

(٧) صفي الدين، محمد (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص ٥٢.

(٨) المصدر ذاته ص ٣٥٤.

العصر النيوليتي مستفيدين من السيول التي كانت تنحدر من الجبال لري حقولهم.

وقبل حكم الأسر، كان فيضان النيل يغمر إقليم الفيوم محولاً إياه إلى بحيرة عظيمة. وقد أنشأ فراعنة الأسرة الثامنة عشرة سدوداً لتخزين مياه الفيضان، وجففوا المستنقعات واستصلحوا أراضي لحقية على جانب عظيم من الخصب. ومن أجل ذلك صار إقليم الفيوم أعظم الأقاليم عمرانياً وسياسياً [٩].

٤ـ شبه جزيرة سيناء: وهي هضبة مثلثة الشكل تقع شمال شرقي مصر، رأسها في الجنوب ويجاورها خليجا العقبة والسويس من الشرق والغرب، وقاعدتها في الشمال تطل على البحر المتوسط.

والقسم الجنوبي من سيناء عبارة عن منطقة جبلية صلبة وعرة، استطاعت أن تقاوم عوامل التعرية. ولذا تبدو على هيئة قمم شاهقة. والاودية كثيرة في هذا الجزء. ويقع القسم الأوسط شمالي المنطقة السابقة ويعرف بهضبة التيه التي تحتل حوالي ثلثي شبه الجزيرة، وتنحدر تدريجياً نحو البحر المتوسط في الشمال. وينحصر القسم الشمالي بين هضبة التيه والبحر المتوسط. وهو عبارة عن منطقة سهلية تمتد بموازاة ساحل البحر، تنتشر على سطحه كثبان رملية يتراوح ارتفاعها بين (٨٠ـ١٠٠) متر. ولهذه الكثبان طاقة كبيرة على امتصاص المياه التي تسقط شتاءً بفعل الاعاصير واختزانها، فيتكون من ذلك مورد هام للمياه في هذه المنطقة المجدبة. ولعل ذلك كان السبب في أن السهل الساحلي كان طريق الاتصال بين مصر والشرق الأدنى. وقد سلكته الغزوات المختلفة التي هاجمت مصر من الشرق، كما تبعته الحملات الكثيرة التي وجهها الفراعنة للتوسع في الشرق الأدنى منذ فجر التاريخ [١٠].

وقد ألحق ملوك الاسرتين الاولى والثانية شبه جزيرة سيناء بالامبراطورية المصرية الناشئة، وشرعوا في استثمار النحاس والدهنج والفيروز [١١].

وكان للصحارى، المحيطة بالوادي ودلتاه، من الشرق والشمال الشرقي والغرب، بالإضافة إلى ثرواتها من معادن وأحجار، أهمية كبرى في حماية المصريين من الغزاة ورد هجمات المغيرين، وكانت بذلك حصناً طبيعياً ساعد سكان الوادي ودلتاه على التطور السريع وإنشاء حضارة متقدمة من الناحية الاقتصادية والثقافية.

(٩) انظر ص ٨٨.

(١٠) متولي أحمد (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٢٥.

(١١) انظر ص ٦٢.

وهناك من يقسم سطح مصر إلى قسمين مختلفين هما: مصر العليا (الوادي أو الوجه القبلي أو الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا أو الوجه البحري).

لقد أوجدت الطبيعة بلاداً مصرية وبلاداً مصرية أفريقية، والفروق بينها كثيرة وكانت من العوامل التي أثرت في تاريخها البشري والميتولوجي [١٢].

بيد أنه رغم التباين بين المنطقتين لا يمكن فصلها عن بعضها. فالدلتا تنقصها موارد الوادي، والوادي بحاجة إلى الدلتا لانه ليس له ساحل ولا يكون بدونها إلا ممراً لا منفذ له إلى آسيا وأوروبا. ومما لا ريب فيه أن العنصر الأساسي في وحدتها هو نهر النيل، فهما والحالة هذه كالزهرة وساقها لا معنى للثانية دون الأولى ولا حياة للأولى إذا قطعت عنها المادة التي فيها حياتها وغذاؤها [١٣].

مناخ مصر جميل معتدل الحرارة والرطوبة بوجه عام. حقيقة ان الصيف حار وخاصة كلما اتجهنا جنوباً، ولكن الرياح التي تهب من الشمال تخفض من وطأة أشعة الشمس. أما المدة من تشرين الأول إلى نيسان فالمناخ لطيف منعش، وفوق ذلك فإن السماء صافية والشمس ساطعة طوال أيام السنة تقريباً، وهي تضيء وتدفىء مصر وتمنحها إقليماً ضاحكاً. فالمصريون مدينون للشمس باقليمهم الصالح الذي يناسب الانسان والنبات والحيوان، والضياء في بلادهم صحي نقي يقتل الطفيليات والجراثيم ويديم الحياة ويبعث الفاعلية عندما يكون غير شديد تطيقه النفوس [١٤]. لذا عبد المصريون الشمس كما عبدوا النيل.

والامطار في مصر قليلة وتسقط بسبب تعرض البلاد للأعاصير الشتوية بوجه عام. وتتناقص كميتها باتجاه الجنوب والشرق. وبسبب قلة الأمطار في مصر، اعتمد قدماء المصريين في زراعتهم على مياه فيضان النيل. وكان مطر الشتاء يتمم دور الفيضان، فما يسقط من مطر الشتاء القليل يمد النباتات الشتوية بما قد تحتاج إليه من رطوبة.

وكان ينبت في وادي النيل نبات البَرديّ والقصب وأشجار النخيل والأثل والجميز (التين البري) والسنط، والقمح والشعير البريّان. وفي فروع النيل الراكدة المياه ومستنقعاته النائية المترامية الاطراف بالوجهين البحري والقبلي كانت تعيش أفراس البحر والتماسيح

---

(١٢) عادل عبد الحق، سليم (الدكتور): نوطة عن مصر والشرق الأدنى القديم - دمشق ١٩٤٧.
(١٣) المصدر ذاته.
(١٤) ذاته.

والاسماك والطيور المائية. وكان المصري يصل إلى تلك البقاع في زورق من البردي ليصطاد بخطافه ويرشق بنباله حيوان هذه المناقع، كما كان يصعد إلى قمم التلال الصحراوية التي تكتنف حافتي الوادي فيقتنص فيها السباع أو الضباع أو الفهود أو الثيران أو الخنازير أو الوعول أو الغزلان وغيرها من أنواع الحيوان الوحشي.

لقد منح الوضع الجغرافي لوادي النيل مصر مزايا كبيرة. فالجبال التي تحيط به غنية بأحجار البناء (كالغرانيت والبازلت والحجر الجيري)، والجبال الشرقية وخاصة النوبية تحتوي على احتياطات وافرة من الذهب[١٥]. واستخدمت جذوع النخيل والأثل والجميز في بناء المراكب النيلية ومختلف الصناعات الخشبية. وينتهي النيل في البحر الابيض المتوسط، الشريان الرئيس للتجارة العالمية في العصور القديمة. كما ان الفيضان وما يوفره من ماء وطمي مخصب هيآ للزراعة شروطاً أفضل. وأخيراً فقد منح الوضع الجغرافي لوادي النيل مصر حدوداً طبيعية وقتها، نسبياً، من خطر الغارات والاجتياحات المخربة، ومكنتها من مقاومة المهاجين مدة تكفي لان يحشد المصريون في أثنائها جيشاً لتلافي خطر الهجوم الاجنبي[١٦].

النيل وفيضانه: النيل من أعظم أنهار الدنيا وأطولها. ينبع من البحيرات الكبرى في جنوب خط الاستواء، ويجري متجهاً نحو الشمال. ويلتقي به في السودان النيل الأزرق وعطبرة ويمدّانه بالطمي (الغرين). وهذا الطمي، المؤلف من عناصر معدنية وعضوية، هو سبب خصوبة أرض مصر. ويخترق النيل فيما بين الخرطوم وعطبرة هضبة بلاد النوبة، وتعترض مجرى النيل في ستة مواضع من الخرطوم حتى الفانتين صخور تجعل الملاحة النهرية صعبة في هذا المجرى عند انخفاض الماء. وقد سميت خطأ بالشلالات، والواقع أنها جنادل احياناً وخوانق أحياناً أخرى. أشهرها جميعاً الجندل الأول عند الفانتين، الذي خلقت فكرة مياهه الدافقة في مخيلة المصريين عقيدة انبثاق النهر من مصادر سفلية خفية[١٧]. عند هذه المنطقة شق النيل مجراه في صخور متبلورة استخدمها المصريون القدماء في تشييد الهياكل والمسلات. وبعد هذه المنطقة يزداد المجرى عرضاً ويدخل النهر في منطقة من الحجر الجيري يتراوح عرض الوادي فيها بين (١٠ ـ ٣٠) كيلو متراً. وفي شمال منف يتفرع النيل إلى عدة فروع كونت، مع مرور الزمن، أراضي رسوبية أطلق عليها اليونان اسم

---

(١٥) ذاته.

(١٦) برستد، جيمس هنري: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٣.

(١٧) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ١ ص ٣.

« دلتا » وينتهي النيل عند ساحل البحر الأبيض المتوسط.

يفيض النيل كل سنة اعتباراً من شهر حزيران (يونيو) بسبب سقوط الامطار الغزيرة على الهضبة الاستوائية والامطار الموسمية على الهضبة الحبشية؛ ويسبق فيضان النهر هبوب الرياح الجهنمية المعروفة في مصر بريح الخماسين. فيرتفع الغبار ويستر كل شيء حتى تكاد تزول أثار الحياة من كل البلاد.

ويستمر الفيضان مدة أربعة أشهر فترتفع مياه النيل وتغمر الوادي بأكمله تقريباً ما عدا التلال التي تبدو وكأنها جزر عائمة في مساحة شاسعة من الماء. وفي أثناء الفيضان يتغير لون مياه النيل فتصبح حمراء قانئة بعد اخضرارها ببضعة أيام.

وعندما ينحسر النيل عن الاراضي التي غمرها مدة فيضانه ويعود إلى حالته الاعتيادية، يترك أراضي الوادي والدلتا مشبعة بالمياه ومغطاة بطبقة كثيفة مخصبة من الطمي (اللميون الاسود) المبتل الطري ومتهيئة لقبول محاريث الزرّاع وحبوبهم[١٨].

وحيث ان الامطار قليلة في مصر، لذا كانت كل حياة البلاد متوقفة على النيل وفيضانه. وهذا ما أوحى إلى « هيكاته » الجغرافي اليوناني كلمته المشهورة « مصر هبة النيل »، فنقلها عنه هيرودوت المؤرخ اليوناني ورددتها الالسن إلى يومنا هذا. فلولا النيل وفيضانه لكانت مصر كلها عبارة عن صحراء جرداء قاحلة. لذا كان طبيعياً أن يعبد المصريونُ القدماء نيلهم ويقدسوه ويحتفلوا بفيضانه وفاء له لما أنعم عليهم من خصوبة وثمار.

إن جميع آثار الحضارة المصرية القديمة ظهرت على شواطىء النيل، وجانباً كبيراً من ثروة المصريين وعمران بلادهم ناتج عن نعَم هذا النهر. فهو الذي دفع سكان هذه البلاد إلى العمل الجماعي والتعاون وإلى تعلم الزراعة والري والمساحة وهو الذي ساعد على وحدتهم.

غير أن مياه الفيضان إذا تجاوزت الحد الأعلى كانت كافية لان تجعل من النيل أداة دمار وتخريب. كما أن بضع بوصات دون المستوى العادي لمياه النهر كانت كافية لتعريض البلاد لشبح المجاعة. لذا كان على الناس الاقدمين ان يعملوا مجتمعين متعاونين وبجهود مضنية بادواتهم البدائية لدفع هذه المخاطر وغيرها. فبنوا قراهم في الأماكن العالية وحفظوا أراضيهم بسدود مرتفعة ونظموا وسائل الاستفادة من الفيضان كما تقدم.

النبات والحيوان: كان ينمو في مستنقعات الدلتا نمواً طبيعياً القصب والبردي الذي

---

(١٨) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.

استخدمه قدماء المصريين في صناعة ورق الكتابة. وعلى ضفاف وادي النيل كان ينمو نخيل البلح والأثل والجميز الذي استعملت جذوعه في إنشاء القوارب وفي مختلف الصناعات الخشبية.

وإذا كانت المنطقة الواقعة جنوب القاهرة غير ممطرة في الوقت الحالي فإنها في العصر المطير لم تكن كذلك، بل ان وديانها الصحراوية الجافة حالياً كانت عامرة بالمياه وكانت شواطئها مزدهرة بالحشائش والحبوب البرية أيضاً[١٩].

وكان يعيش على هذا العشب البري قطعان من الحيوانات البرية كالحمير والثيران، والأغنام و الغزلان والزوارق وبعض الحيوانات المتوحشة كالأسود والفهود. وقد ظلت صور هذه المناظر الطبيعية مطبوعة في أذهان المصريين يتوارثونها جيلاً بعد جيل حتى وجدناهم يصورونها في العصر التاريخي على جدران مقابرهم. هذا في الصحراء المحيطة بالوادي. وأما في الوادي نفسه فكانت المستنقعات الكثيرة تنتشر حول النهر، وكانت توجد في هذه المناطق المستنقعية الفيلة والخنازير البرية والخرتيت والتماسيح.

وكان الصيادون منذ العصر الحجري القديم الأسفل ينحدرون من الهضبة العالية على الجانبين إلى الوادي حيث يصطادون من تلك الحيوانات كما دلت على ذلك آلاتهم الموجودة بالمدرجات على جانبي النهر. وبعد انتهاء رحلة الصيد يعودون أدراجهم إلى مناطق سكناهم فوق الهضبة حيث يكونون بمأمن من هذه الحيوانات[٢٠]

---

(١٩) رزقانه، ابراهيم أحمد (الدكتور): الحضارات المصرية في فجر التاريخ. المطبعة النموذجية ـ القاهرة ١٩٤٨ ص ١٢٦.

(٢٠) رزقانه: المصدر ذاته ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

مصادر حضارة مصر في العصور القديمة وما قبل التاريخ

١ ـ مصادر ما قبل التاريخ: وتشمل:

أ ـ مخلفات الانسان الأول في مصر القديمة التي عثر عليها علماء الآثار في الهضبة الصحراوية وحافتي الوادي(حلوان ومرمدة، ودير تاسا والبداري والعمرة وجرزة والسماينة والفيوم)(*) وتشمل هذه المخلفات أدوات حجرية ومعدنية وأواني من الفخار وقرى ومساكن ومقابر وصوامع حبوب وزوارق وأوابد ومواد للزينة.

ب ـ متون الأهرام: مجموعة قصص دونت على جدران الأهرام في عهد الاسرتين الخامسة والسادسة وتحوي نصوصاً توارثها المصريون ترجع إلى عهد ما قبل الأسرات.

٢ ـ مصادر العصر التاريخي: وتشمل:

أ ـ الوثائق المكتوبة بالخط الهيروغليفي على الحجارة واوراق البردي ويأتي في مقدمتها: حجر پالرمو وبردية تورين وقوائم الكرنك وأبيدوس وسقارة.

ب ـ مخلفات إنسان العصر التاريخي في مصر القديمة وتضم هياكل بشرية وبقايا عظام، وأوابد، ومقابر، وأدوات وأواني، ومناظر مرسومة على جدران المقابر، وأثاثاً ومواد للزينة.

ج ـ رسائل تل العمرنة(**): مجموعة من رسائل الود والسياسة تبادلها القصر الفرعوني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد مع ملوك المشرق العربي وامرائه، منقوشة بالخط المسماري

(*) جنوب هليوپوليس وإلى الجنوب الشرقي من ممفيس. مرمدة: غرب الدلتا شمال غربي ممفيس. دير تاسا: جنوب أختاتون. البداري: قرب دير تاسا جنوباً. العمرة: شمال شرقي آبيروس. جزرة: جنوب ممفيس. السماينة: قرب نقادة. الفيوم: جنوب غرب ممفيس.

(**) تل العمرنة: أختاتون.

باللغة البابلية الآشورية على قطع من الطين المحروق. توضح لنا هذه الرسائل العلاقات بين مصر وسورية ـ فلسطين وبابل وآشور وميتاني وخيتا في أيام أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع (أخناتون).

د ـ ما عثر عليه من آثار في الممالك المجاورة لمصر سواء أكانت هذه الآثار مصرية الأصل نقلت إلى هذه البلدان، أم كانت آثاراً خاصة بالبلاد التي وجدت فيها، وذكر فيها معلومات عن مصر والمصريين كآثار كريت وسورية وبلاد ما بين النهرين.

هـ ـ مصادر المؤرخين القدماء الذين زاروا مصر وكتبوا عنها أشهرهم: هكتايه الملاطي: رحالة ومؤرخ اغريقي، من ميليتوس (ملاطيا) م ٥٥٠ ق.م وهيرودوت المؤرخ الهاليكارناسي م ٤٢٥ ق.م وديودور الصقلي م ٤٤ ق.م وسترابون مؤرخ وجغرافي اغريقي م ٢٥ ق.م ويليني الأكبر.

وبلوتارك مؤرخ وناقد يوناني (٤٦ ـ ١٢٠م) ويوسيفوس اسقف قيصرية م ٣٢٧م. ومانيتون السمنودي م ٢٧٠ ق.م كاهن وكاتب مصري، وهو أهم المؤرخين الذين كتبوا عن مصر. وضع كتابه «إجيتياكا ايبو فيماتا» باللغة الاغريقية، معتمداً على النقوش المصرية ومنها بردية تورين التي تقسم الملوك إلى بيوتات وأسر وهو الأساس الذي قدم عليه مانيتون تاريخه أو نقله فيما بعد.

أقسام تاريخ مصر القديمة

١ ـ **عصور ما قبل التاريخ**: وتمتد منذ أن سكن الانسان البدائي الهضبة الصحراوية في مصر حتى اختراع الكتابة الهيروغليفية حوالي منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. ويسمي علماء الدراسات المصرية الحقبة التاريخية التي سبقت مباشرة عصر الأسرات بـ «عهد ما قبل الأسرات».

٢ ـ **عصر قيام الدولة المصرية**: ويمتد من أواخر الألف الرابع قبل الميلاد حتى الفتح الفارسي لمصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد. ويقسم المؤرخون هذا العصر إلى عدة عهود تتخللها فترات انتقالية. وهذه العهود هي:

أ ـ العهد الطيني (الثيني).
ب ـ عهد الامبراطورية القديمة.
ج ـ عهد الامبراطورية المتوسطة.
د ـ عهد الامبراطورية الحديثة.
هـ ـ عهد الانحطاط (الانحلال).

الفصل السادس

مصر في عصور ما قبل التاريخ

لسنا نعلم شيئاً عن إنسان العصر الحجري القديم (الباليوتي) أو الناس الاقدمين في مصر، وذلك لإنه لم يصل إلى أيدي العلماء أو الأثريين أي هياكل أو بقايا عظمية لإنسان ذلك العصر في مصر. وكل معلوماتنا مستقاة من الادوات الحجرية التي وجدت على سطح الهضبة الصحراوية، أو على عمق كبير من السطح والتي استعملها إنسان تلك الحقبة في أموره المعاشية.

وكان مناخ تلك الجهات آنذاك أكثر رطوبة منه الآن، فتوفرت المياه التي ساعدت على نمو الحشائش والأعشاب وبعض الأشجار المتفرقة، ولا تزال الوديان الصحراوية الجافة التي كانت تجري فيها المياه في ذلك العصر موجودة في بعض نواحي الهضبة حتى وقتنا الحاضر. ويبدو أن أناس العصر الباليوتي لم يتجمعوا في هذه الفترة على ضفاف النيل بسبب طول مدة الفيضان وغزارة ما كان يحمل النهر من طمي[1].

ومما لاشك فيه أن الانسان، الذي كان يقطن تلك الهضبة، عاش في أول الامر حياة بدائية، يجمع الغذاء من الطبيعة (ثمار الاشجار وجذور النباتات) ويلتمس الرزق من الصيد ويسكن الكهوف ويستعمل أدوات يصنعها من الحجارة صنعاً بسيطاً. ومما ساعده على القنص ان الهضبة في الفترة الباليوتية كانت مأوى لكثير من الضواري كالأسود والفهود والثيران، أو الحيوانات الصغيرة كالوعول والغزلان. وهكذا كانت حياته حياة كفاح وشدة

(١) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ٨٨.

ضد الطبيعة والضواري في سبيل تأمين معاشه وحماية وجوده[٢].

وعندما بدأ مناخ الهضبة يجف وتقل الأمطار، أخذ سكانها يهجرونها وينزلون، خطوة خطوة، إلى وادي النيل بالقرب من موارد الماء. وكان ذلك في الألف الخامسة قبل الميلاد [٣].

عاشت القبائل النيوليتية التي استوطنت مصر في الألف الخامس قبل الميلاد، من السماكة والصيد وجمع الحبوب والثمار الطبيعية. واشتغلت، فيما بعد، بالزراعة وتربية الحيوان: زرعت القمح والشعير والكتان، وربت الخنازير والثيران والأغنام.

في أول الأمر، استقر الناس عند تخوم الوادي، حيث كانت توجد آنذاك واحات الفيوم، وتجري السيول المنحدرة من الجبال مؤمنة الماء الضروري لري الحقول[٤].

ولم تكن حياة قدماء المصريين هينة مرضية في العصر الحجري، وإنما كانت حياة قاسية ومليئة بالمخاطر. وكان الانسان فريسة سهلة للحيوانات المفترسة سواء على الأرض أو فوق الماء. وكانت الحمى تفتك به، والفيضانات تدمر قراه. وكانت الأرض التي ينتزعها من المستنقعات واجتثاث الأدغال يتطلبان منه عملاً جماعياً وجهداً مضنياً [٥].

وقد استتبع تطور القوى المنتجة تغيراً في تنظيم المجتمع. فحلت محل المجتمع البدائي جماعة انتاجية أكثر متانة هي المشاعة العشيرية أو العشيرة التي كان يربط بين أعضائها العمل المشترك والتقسيم الطبيعي للعمل بين الرجال والنساء والواجبات المشتركة داخل الجماعة.

ولم تكن أساليب الحصول على وسائل العيش عند قدماء المصريين، في ظروف طبيعية قاسية ومستوى تقني متدن لأدوات العمل، تسمح بأية ملكية أخرى سوى الملكية الجماعية. وكانت قوة المصريين تكمن في جماعيتهم وفي نشاطهم الاجتماعي. وكانت الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج أساس علاقات الانتاج في المشاعة العشيرية. وكانت حصيلة السماكة والصيد والانتاج الزراعي تخص جميع العشيرة[٦] وتوزع بالتساوي بين جميع أعضائها.

(٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية ص ١٣٨.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) كوروفكين، ف.ب: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص ٣٠.
(٦) المصدر ذاته ص ٢٩.

وقد أفضى تطور القوى المنتجة إلى تقسيم العمل بين الرجل والمرأة. فأخذ الرجال يقومون بالصيد وحده تقريباً، في حين كانت النساء، إضافة لتربية الأولاد، يصنعن الملابس ومختلف اللوازم، ويقمن بجمع وغرس النباتات الصالحة للأكل، وبطهي الأطعمة. وكان نشاطهن الاقتصادي مصدراً مضموناً ومنتظماً لمقومات الحياة، أما الصيد، الذي كان يقوم به الرجال، فغالباً ما كان رهناً بالصدف ولم يكن بوسعه أن يزود الناس على الدوام بالطعام الضروري. وهذا ما أبرز دور المرأة النشيط في الحياة الاقتصادية، ورفع دورها الاجتماعي في مجتمع العشيرة. ويذكر الدكتور سليم عادل عبد الحق: «أنه كانت للنساء في مجتمعات مصر والشرق الأدنى القديم، مكانة ممتازة. ويعبر عن هذه الحالة بـ «نظام الامومة» [٧].

وكانت القبائل تتنازع بسبب مناطق الصيد وأراضي الزراعة. أحياناً، كانت هذه المنازعات تقود إلى الحرب [٨]. وفي أثناء الحرب، كانت كل قبيلة تنتخب رئيساً أو قائداً حربياً [٩]. وكانت سلطة هذا القائد تقوم كذلك على مكانته وخبرته وكان ينتخب من قبل أعضاء العشيرة أو القبيلة لتنظيم جهود المجتمع في مكافحة العدو. وبانتهاء الحرب كانت تنتهي سلطة القائد الحربي.

ففي صورة محفورة على لوحة تعود لعصر ما قبل التاريخ تمثل حملة في الصحراء، لم يتميز فيها زعيما العشيرتين المتحاربتين من أتباعهما، فهما ما زالا في صفوف اتباعهما وما تميزا عنهم إلا بكونهما يحملان الطوطمين [١٠].

في الألف الرابعة قبل الميلاد، اكتشف قدماء المصريين النحاس وغيره من المعادن في شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية. وقد سهل اكتشاف النحاس وصنع الأدوات النحاسية على المصريين حفر التربة وتفتيتها واجتثاث الأشجار وقطع الحجارة ونحتها. واستطاع المصريون باستخدام الأدوات النحاسية النضال بنجاح أكبر ضد الرمال والمستنقعات: جففوا المستنقعات وانشأوا أقنية الري وأقاموا السدود وطهروا الأرض من الاجات [١١].

---

(٧) نوطة عن مصر والشرق القديم عام ١٩٤٧.
(٨) كوروفكين، ف.ب: المصدر السابق ص ٢٩.
(٩) نفس المصدر والصفحة.
(١٠) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.
(١١) كوروفكين: المصدر السابق ص ٣١.

وكان انشاء الترع والسدود وإصلاحها يتطلبان عملاً جماعياً انتظم في صفوفه ألوف الناس من ساكني ضفاف النيل. وبفضل عمل الناس، تغيرت معالم الوادي، واصبحت أراضي الوادي ودلتا النيل صالحة للزراعة (١٢).

ومن أجل تسريع العمل، زاد المصريون سعة المحفار (المعزقة)، فثبتوا به عصا طويلة كان يجرها نفر من النساء فتحفر المعزقة الثلم. ثم أضيف إليه مقبضان لتطويله، فكان على الرجل الذي يتبعه أن يضغط بكل طاقة جسمه على المقبضين وذلك في سبيل تعميق الثلم. ثم استخدمت الثيران لقطر المحراث.

لقد أدى اختراع المحراث إلى تسريع زراعة الأرض وتحسينها بشكل ملحوظ واستخدمت المناجل الخشبية ذات الاسنان الصوانية في حصاد الحبوب. وشيئاً فشيئاً، أخذت الزراعة تبلغ مستوى عالياً من التطور، وأصبحت هي وتربية الماشية الشكل الرئيس لنشاط الناس الاقتصادي في الألف الرابع قبل الميلاد (١٣).

وعندما أصبحت الزراعة تلعب الدور الرئيس في الاقتصاد، بدأت المشاعية ترسل إلى العمل أقوى أفرادها ـ الرجال. وبالتدريج تحول هؤلاء إلى قوة العمل الأساسية في الزراعة ـ وغدا عملهم يلعب الدور الحاسم في اليسر المادي للمشاعية. كذلك رفع استخدام قوة الجر الحيوانية دور الرجال في الزراعة بصورة ملحوظة. ومع تطور استخدام المحراث الذي يتطلب قوة جسدية كبيرة، انتقل العمل الزراعي نهائياً إلى أيدي الرجال.

ومع تعاظم دور الرجل في انتاج الخيرات المادية، تعزز دوره الاقتصادي والاجتماعي في الأسرة والعشيرة. وقد أدت هذه العملية إلى الاستعاضة عن نظام الأمومة بنظام الأبوة. وتحول عمل النساء الذي ظل مرتبطاً لدرجة كبيرة بممارسة الاقتصاد المنزلي، من مصدر رئيس لانتاج الخيرات المادية في المشاعية إلى مصدر ثانوي.

إن الأدوات الزراعية الجديدة التي مكنت من فلاحة الأرض بصورة أفضل، وكذلك استخدام الماشية على نطاق واسع كقوة للجر قد رفعت انتاجية العمل لدرجة كبيرة.

وقد أتاح انتاج الادوات المعدنية، النحاسية ومن ثم البرونزية، للإنسان الفرصة لتحسين تكييف الخشب والحجارة والعظام وغيرها من المواد التي كان يصنع منها ادوات كثيرة. وإن

---

(١٢) نفس المصدر والصفحة.

(١٣) نفس المصدر والصفحة.

استعمال أدوات العمل المعدنية الجديدة قد زاد من اتقان الأدوات القديمة، وهذا ما ضمن بدوره الاستمرار في اتقان عادات العمل وتكديس التجارب.

وأدى اطراد تطور القوى المنتجة إلى انفصال الحرفة عن الزراعة وتربية الماشية. وظهر حرفيون محترفون: حجارون، نحاسون، صاغة، فخارون وغيرهم، بعد أن كان الزراع يصنعون بأنفسهم تقريباً جميع الاشياء التي يحتاجون إليها.

إن استعمال الأدوات المعدنية والتحسين المستمر للأدوات الحجرية والتطور الذي حدث في مختلف فروع الاقتصاد وفي حياة الناس المادية والفكرية، هيأت بدورها أفضل الظروف لاختراع الكتابة الهيروغليفية حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

لقد كان الألف الرابع قبل الميلاد انعطافاً هاماً في حياة وتقدم سكان الوادي. فاكتشاف النحاس وغيره من المعادن، مهد الانتقال من العصر الحجري إلى عصر المعادن. وأحدث اختراع المحراث وتحسين أدوات العمل ثورة في فلاحة الأرض والانتاج، كما أن التغيرات في الانتاج أدت بدورها إلى تغيرات في البناء الاجتماعي للمجتمع. أما اختراع الكتابة، الخط الهيروغليفي، فإنه أنهى عصر ما قبل التاريخ وأدخل مصر والبشرية في العصر التاريخي.

إن تطور تربية الماشية والزراعة، بواسطة المحراث، والحرفة، قلل من الدور الاقتصادي للمرأة في الانتاج وأدى إلى الاستعاضة عن نظام الامومة بنظام الابوة. وقد أفضت جميع هذه العوامل إلى تفكك نظام العشيرة وقيام المشاعة الاقليمية المتجاورة، التي تتألف من أسر صغيرة وكبيرة. يقول الدكتور سليم عادل عبد الحق: لقد تطور نظام القبيلة الطوطمية تحت تأثير الشروط التي حولت ا لرحل إلى متحضرين (أي تحت تأثير تطور الاقتصاد من الصيد وجمع الغذاء إلى الزراعة وتربية الماشية ـ الاضافة مني). وبدأت هيمنة الرئيس تحل محل النظام الاجماعي (أي الديمقراطية العشيرية ـ الاضافة مني)، وأخذت سلطة الرجال تسود سلطة النساء واختفى تدريجياً نظام الامومة وحل محله نظام الأبوة الذي يفرض فيه الرجل أوامره على زوجته وعلى أولاده ويؤمن لهم الحماية. وجعل الرؤساء المنتخبون يتمتعون بسلطة واسعة واصبحوا وارثين لسلطة الطوطم(١٤). لماذا وكيف حدث ذلك؟

لقد أصبح الآن، بعد التغيرات في الانتاج، بامكان كل عائلة حتى القليلة العدد أن تفلح حقلاً بمساعدة المحراث وتزرع أرضاً مخصبة بالطمي والغرين. ولم يعد أبداً العمل

(١٤) المصدر السابق.

الجماعي للعشيرة كلها ضرورياً [١٥]. فقد وزع زعماء العشائر الأراضي بين الأسر التي تتألف منها العشيرة. وأصبح لكل أسرة اقتصادها الذاتي وأدواتها ومواشيها وكوخها [١٦] وشرعت العائلة تعمل في أرضها وتزرع بستانها. وكان المحصول يخصها وحدها [١٧].

وهكذا تجزأ الاقتصاد الكبير للمشاعة العشيريـة إلى استثمارات صغيرة، كانت العائلة وحدها هي المالكة لها [١٨]

صحيح أن كل أسرة كانت تزرع حصتها من الأرض، ولكن كان يتوجب عليها انشاء الاقنية والسدود وإصلاحها بشكل جماعي مع جيرانها [١٩] وهذا يعني ان الملكية الجماعية للماء، بشكل خاص، كانت توحد المشاعة الاقليمية المتجاورة [٢٠].

ومـا تجدر ملاحظته، ان الزعماء عندما وزعوا الأراضي بين الأسر، احتفظوا لانفسهم بمساحات كبيرة من أجود الأراضي التي كانت تخص المشاعة العشيرية [٢١].

لقد كفّت العشيرة عن كونها وحدة كاملة. وانتهكت روابط القرابة وحلت محلها روابط جديدة بين عائلات منفردة. ولم تكن علاقات القرابة تربط الأسر بقدر ما تربطها العلاقات الاقتصادية. واخذت تشغل مكان مشاعيـة العـشيرة القـائمـة على روابـط الدم المشـاعيـة الاقليمية المتجاورة التي تربطها مصالح اقتصادية مشتركة.

وكانت المنتوجات تبقى داخل كل اسرة، متحولة إلى ملكيتها الخاصة. وبالارتباط مع ظهور الملكية الخاصة، أخذت الممتلكات تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الابناء، وشرع ينشأ مزيد من عدم المساواة في التملك بين أعضاء العشيرة المساوين فيما مضى. وإذن إلى جانب الملكية المشاعية، ولدت الملكية الخاصة.

وقد كشفت مخلفات المقابر التي تعود إلى حقبة ما قبل الاسرات «أن أواني نعش القبر

---

(١٥) كوروفكين: المصدر السابق ص ٣٣.

(١٦) نفس المصدر والصفحة.

(١٧) نفس المصدر والصفحة.

(١٨) نفس المصدر والصفحة.

(١٩) المصدر ذاته ص ٣٤.

(٢٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص ١٤٠.

(٢١) كوروفكين: المصدر السابق ص ٣٤.

كانت تحمل نفس الـدمغة »[٢٢] وهذه الدمغة المحفورة على الاواني هي احدى علامات الملكية الخاصة[٢٣].

في هذه الظروف لم يعد بإمكان التوزيع المتساوي لمنتوجات العمل الاستجابة لمقتضيات تطور القوى المنتجة لاحقاً. وكان للتغيرات في مجال توزيع منتوجات العمل أهمية تقدمية كبيرة، لانها شجعت أهم فروع العمل (الزراعة وتربية الماشية والحرفة) وكذلك الفروع الجديدة، وأجبرت على اتقان أدوات العمل وطرائق الانتاج، وبذلك سرعت تطور المجتمع المصري لاحقاً.

لقد أسفر ظهور الملكية الخاصة عن طراز جديد للتبادل بين مختلف العائلات داخل المشاعة الاقليمية المتجاورة. وكان ذلك بمثابة مرحلة انتقال من المجتمع القائم على الملكية الجماعية لوسائل الانتاج إلى المجتمع القائم على الملكية الخاصة للوسائل ذاتها.

لقد أتاح استخدام الادوات المعدنـية والمحراث لقدماء المصريين أن يجنوا محصولاً من القمح أكثر مما كانوا يجنونه في السابق[٢٤]. وكان الانتاج وفيراً جداً، بحيث مكن ليس فقط من تغذية الناس الذين كانوا يزرعون الأرض، وإنما أيضاً بقي منه فائض[٢٥].وقد أرغم جزء من المجتمع الأسير على العمل لخدمته وحرمه من حقه في الحصول على حصته من المنتوج الاجتماعي الفائض، فتمكن بـالتـالي مـن تملـك الخيرات التي ينتجهـا الأسير ـ أي استثماره. ولهذا الغرض لم يعودوا يقتلون الأسرى، بل أخذوا يحولونهم إلى عبيد[٢٦] إلى كادحين محرومين من الحقوق، كانت المشاعية تبقيهم فقط ما داموا ينتجون المنتوج الزائد ويعودون عليها بالفائدة.

وكان العبيد يزرعون الأراضي التي يملكها الزعماء والرؤساء، ويعملون من أجلهم في إنشـاء السـدود والأقنيـة، ورعـي مـواشيهـم. لقـد كـانـوا ملكيـة لأسيـادهـم ملاك الرقيق الاستعباديين، الذين يمكنهم قتلهم أوبيعهم كحيوانات[٢٧].

---

(٢٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٩.

(٢٣) نفس المصدر والصفحة.

(٢٤) كوروفكين: المصدر السابق ص ٣٤.

(٢٥) نفس المصدر والصفحة.

(٢٦) نفس المصدر والصفحة.

(٢٧) المصدر ذاته ص ٣٥.

وترينا بعض الرسوم الأثرية العبيد وأياديهم موثقة وراء ظهورهم أو فوق رؤوسهم [٢٨]. قديماً، كانوا يطلقون على العبيد اسم « الرجال الأموات »، في حين أن العبيد كانوا يدعون « الأموات الأحياء » [٢٩]. كما تُري الرسوم القديمة ومخلفات قبور الأسياد، ملاك العبيد مميزين عن غيرهم من المصريين، بملابسهم المحوكة من النسيج الناعم، وعلى حزامهم خنجر قبضته مرصعة بالذهب، واذرعتهم محلاة بأساور ذهبية، وحول اعناقهم قلائد [٣٠].

لقد نشأت في مصر إبان الألف الرابع قبل الميلاد، ثلاث مجموعات أساسيةمن الناس تبعاً لعلاقاتهم بأدوات ووسائل الانتاج، هي:

المجموعة الأولى: مالكو العبيد الحائزون على ملكية أدوات ووسائل الانتاج، وعلى العبيد كذلك الذين يستثمرون عمل الرقيق.

المجموعة الثانية: العبيد، المحرومون من أية ملكية، الواقعون أنفسهم في الملكية التامة لأسيادهم مالكي العبيد.

المجموعة الثالثة: المشاعيون الاحرار الذين يملكون اقتصادهم الصغير الخاص القائم على العمل الشخصي والملكية الصغيرة لأدوات ووسائل الانتاج. وتدريجياً أفلس قسم كبير من المالكين الصغار وتحول إلى عبيد، واغتنى قسم ضئيل منهم وتحول إلى مستثمرين. وعلى الرغم من هذا فإن المالكين الصغار قد استمروا في البقاء.

وكانت بعض المشاعيات تشكل جزءاً من اتحادات ارضية أوسع، تضم قبائل قديمة في أغلب الظن [٣١]. وكان يطلق على هذه الاتحادات اسم « سبات » باللغة المصرية. ولكن المؤرخين اعتادوا على تسميتها بالاسم الاغريقي « نوم ـ مقاطعة » [٣٢]. ومما يلفت النظر أن الكتابة الهيروغليفية المصرية تمثل الـ « سبات » على صورة حقل تقطعه الأقنية، لأن شبكة الري كانت من بين مهام « النوم » الأساسية [٣٣].

في الأصل، كانت النومات (مقاطعات ـ اتحاد قبائل) منعزلة الواحدة عن الأخرى وخاصة في الدلتا، حيث كانت فروع النيل والمستنقعات تشكل حدوداً طبيعية بين

---

(٢٨) المصدر ذاته ص ٣٤.

(٢٩) المصدر ذاته ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٣٠) المصدر ذاته ص ٣٥.

(٣١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٠.

(٣٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣٣) نفس المصدر والصفحة.

النومات [٣٤]. يقدر أنه كان لكل «نوم» لهجته الخاصة وطواطمه وطقوسه وأساطيره وأراضيه وأقنيته [٣٥]. ويصف الدكتور سليم عادل عبد الحق النوم ـ المقاطعة بأنه غالباً ما يكون على شكل مربع يحوي أرضاً للاستثمار الزراعي واقنية للري. ويؤلف تقسيماً إدارياً مركزه مدينة (ثوت) مبنية على ملتقى طرق. وفي هذه المدينة تتكاثر الأكواخ المبنية من الطوب... وفيها أيضاً يعبد الإله الذي يحمي المقاطعة. ويتابع كلامه قائلاً: لقد عثر على وثائق ادارية تذكر اسماء هذه النومات (المقاطعات) واسماء مدنها، وآلهتها والقاب كهنتها، والقنوات التي تسقيها، وتعداد أراضيها الزراعية وما فيها من حقول مزروعة، المرتفعة منها والمنخفضة، وذكر حدودها [٣٦].

وكان أكبر هذه النومات: الفانتين وهيراكونپولبس وآبيدوس في مصر العليا، ومنف، وبوتو في مصر السفلى [٣٧].

وكانت النومات تتحارب فيما بينها بسبب الخلاف على الغنائم أو الرقيق، أو بسبب النزاعات الناشئة عن الحاجة إلى الماء [٣٨]. وتمثل الرسوم المحفورة على الواح العاج أو الحجارة مناظر المعارك بين النومات، وتكشف ميادين الحرب انها كانت تجري على الأرض كما كانت تحدث على سطح الماء [٣٩].

وكان يرأس النومات زعماء، عرف واحد منهم هو الملك «العقرب» الذي نجح في ان يوحد تحت سلطته أرضاً واسعة تمتد من هيراكونپوليس جنوباً حتى منف شمالاً [٤٠]. وبالنظر لأهمية لوحة الملك «العقرب»، فلا بأس من التوقف عندها قليلاً لدراستها وتحليلها.

لوحة الملك «العقرب» عبارة عن رأس دبوس يعود تاريخه إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، عثر عليه العالم الأثري كويبل في منطقة هيراكونپوليس التي كانت مقرحكم الملك «العقرب». يرى في اللوحة الملك مميزاً عن اتباعه بقامة أطول وحاشية ترافقه

---

(٣٤) نفس المصدر والصفحة.

(٣٥) نفس المصدر والصفحة.

(٣٦) المصدر السابق.

(٣٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٠.

(٣٨) نفس المصدر والصفحة.

(٣٩) نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) نفس المصدر والصفحة.

ومظلتين تمنعان عنه الشمس ومروحتين من ريش النعام، ممسكاً مجفاراً وكأنه يشق قناة أو يزرع أرضاً، وأمامه رجل يحمل سلة يتلقى فيها بعض التراب أو يلقي منها البذار في الثلم، وآخر يحمل سنابل رمزاً للخصب الناجم عن جهود الملك. وحول الجزء العلوي من رأس الدبوس صف من الألوية يمثل مقاطعات الجنوب وتتدلى من الألوية صور لطائر يرمز للأقوام التي استطاع الجنوب أن يقهرها ويخضعها لسلطاته. وفوق رأس الملك نقش بالهيروغليفية بما معناه « العقرب ». وتمثل خلفية الصورة أرضاً مزهرة. وفي الطرف العلوي منظر احتفال وبه جماعة من الناس في هوادج، وفي اسفل المنظر راقصات طويلات الشعر، وتحت اسم الملك حاملو ألوية الجيش. يتبين من النقش الهيروغليفي واستنطاق اللوحة وتحليل أحداثها ورموزها ما يلي:

١ ـ وجود تمايز اجتماعي بين رئيس القبيلة واتباعه لم يكن موجوداً في ظل المشاعية والديموقراطية العشيرية، وإنما برز نتيجة لظهور الملكية الخاصة والتباين في الثروة.

٢ ـ تشير أحداث الحروب إلى محاولة الزعيم « العقرب » توحيد مصر قبل قيام الدولة. وأنه نجح في توحيد مقاطعات الوادي (يضع فوق رأسه التاج الأبيض رمز الجنوب المتحد) ولم يستول على « بوتو » عاصمة مصر السفلى.

٣ ـ يشير مسك « العقرب » المحفار (المعزقة) إلى أن قضية تنظيم الري أو العناية بالزراعة كان من بين مهام النوم الأساسية.

٤ ـ تشير شارات وطواطم « رأس الدبوس » إلى القبائل التي اخضعها العقرب لسلطانه والقبائل التي هزمها ومنها قبائل مصريي الشمال والارك (أي الساميين المسلحين بالأقواس).

٥ ـ الكتابة الهيروغليفية في رأس الدبوس هي أقدم كتابة عثر عليها من هذا النوع.

٦ ـ الملك « العقرب » هو أقدم ملك مصري ذكر اسمه أثر تاريخي (٤١).

إن لوحة الملك « العقرب » هي وثيقة تاريخية اجتماعية ـ اقتصادية وسياسية وثقافية هامة للباحث في الدراسات المصرية لعهد ما قبل الأسرات.

---

(٤١) راجع حول ما يتعلق بلوحة الملك العقرب كتاب: مصر والشرق الأدنى القديم ج ١، ص ٩٣ وما بعدها للدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم، ونوطة الدكتور سليم عادل عبد الحق عن مصر والشرق القديم.

هذا، وإن ما لدينا من معطيات هي جد قليلة وغير كافية لمعرفة سلطة الملك «العقرب». ويرجح أن الدولة لم تكن قد وجدت بعد [٤٢]. وأن «العقرب» لم يكن سوى رئيس قبيلة وليس ملكاً بكل ما في مفهوم هذه الكلمة من معنى [٤٣]. ونستطيع أن نستنتج أن محاولات توحيد وادي النيل كانت قد سبقت تشكيل الدولة [٤٤]. ويشير القصص المصري القديم إلى معارك قامت بين الصعيد والدلتا هُزِم فيها الجنوبيون وجعل الشماليون من «ايون» عاصمة لهم بعد ذلك، واحتفظوا بعاصمة محلية أخرى هي «بوصير» [٤٥]. ثم شب الصراع مرة اخرى بين الشمال والجنوب فهدم الوحدة واضطرت الدلتا إلى تقوية نفسها تحت قيادة زعيم من خلفاء أصحاب الريشة [٤٦]. هزم وأعوانه الجنوبيين وأعادوا توحيد البلاد. ولعل هؤلاء الزعماء الجدد هم الذين يشير إليهم حجر پالرمو في قطعه المتناثرة [٤٧]. ويشير القصص أيضاً إلى مرحلة ثالثة من الصراع في عهد ما قبل الاسرات بين الصعيد والدلتا تفوّق فيها الجنوبيون وظهر فيها للمرة الأولى اسم الملك «عقرب» وقد تحرك لغزو الشمال على مايظهر، ولكنه قضى قبل ان يحقق النصر الذي كان من نصيب خلفه «نعرمر» على الاغلب [٤٨].

في هذه الحقبة التاريخية، دون شك، تشكل اتحادان كبيران للقبائل (مملكتان في رأي بعض المؤرخين). الأول: في الدلتا والمنطقة المتاخمة لمنف باسم «مصر السفلى» عاصمته بوتوBouto. والثاني: امتد نحو الجنوب حتى الفانتين باسم «مصر العليا» عاصمته هيراكونپوليسHieraconpolis (أهناسيا).

والسؤال الآن: ما هو أصل هذا الشعب الذي اكتشف الزراعة واستأنس الحيوان وتعلم الري والمساحة واكتشف النحاس واخترع الكتابة ووضع أجنة المعارف البشرية وانشأ حكومة منظمة، وكان أعرق الناس الاقدمين في الحضارة واسبقهم إلى الأخذ بأسبابها؟

---

(٤٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤١.

(٤٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤٤) نفس المصدر والصفحة.

(٤٥) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. دار المعارف ١٩٦٥ ج ٤ ص ١٥١.

(٤٦) أصحاب الريشة: أقوام قدموا من الشرق عبر البحر الأحمر واستقروا في الدلتا تميزهم ريشة توضع على الرأس هي شعار أقاليم البحر الأحمر.

(٤٧) المصدر ذاته ج ٤ ص ١٥١.

(٤٨) المصدر ذاته ج ٤ ص ١٥٢.

إن المعطيات الأنتروبولوجية التي أكدتها المواد الأثرية (جثث موتى واختلاف نماذج الدفن بين سكان حضارة ديوتاسا جنوبي الوادي وسكان حضارةحلوان ومرمدة شماله) وتحليل اللغة المصرية القديمة، كل ذلك يتيح لنا الافتراض، أن الشعب المصري تكون في وادي النيل نتيجة تصالب مجموعات جنسية مختلفة قدمت من الشرق والغرب والجنوب، أي من عناصر حامية اختلطت بالسامية وإلى حد ما بعناصر زنجية [٤٩]. ولكن كل هذه الأقوام انصهرت بسرعة، في سكان مصر الأصليين الحاميين، واستوعبت لغتهم، وتطبعت بعاداتهم، ولم تترك تأثيراً يذكر على الطابع الأنتروبولوجي للمصريين [٥٠].

---

(٤٩) ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩ ج ٢ ص ٦٥. د. نجيب ميخائيل ابراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم ج ١ ص ٦ - ٧. جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٨.

(٥٠) فرح، نعيم (الدكتور): تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ ص ٣٣ /.

الدولة المصرية في العصر التاريخي

تأسست الدولة المصرية بعد حكم « العقرب » بقليل، أي في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، واستمرت حتى الفتح الفارسي لمصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد أو فتح الاسكندر المكدوني إيّاها عام ٣٣٢ قبل الميلاد.

يقسم المؤرخون تاريخ الدولة المصرية إلى عهود وفترات انتقالية، تتابع على الحكم خلالها ثلاثون أسرة. وهذه العهود هي:

١ ـ العهد الطيني.
٢ ـ عهد الامبراطورية القديمة.
٣ ـ عهد الامبراطورية المتوسطة.
٤ ـ عهد الامبراطورية الحديثة.
٥ ـ عهد الانحطاط (الضعف وفقدان الاستقلال والسيادة).

تأسيس الدولة المصرية: نشأت الدولة المصرية حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، نتيجة توحيد القبائل في مصر السفلى والعليا. وكان نشوء الدولة بأجهزتها يومذاك، تحققاً لضرورة تاريخية بعد ظهور التمايز الطبقي، وفي سبيل حماية مصالح الارستقراطية وقمع ثورات الفلاحين والعبيد وتنظيم مشاريع الري. ومع ذلك، فإن تأسيس الدولة يعتبر بحد ذاته خطوة متقدمة تاريخياً بالنسبة إلى الوضع القبلي.

ولسنا نعلم اسم الملك الذي وحد البلاد سوى ما يذكره هيرودوت من أن « مينيس » هو

الذي وحد مصر وأسس ممفيس لتكون عاصمة له تتفق ومطالب الإدارة[1]. ولم يكن هذا الاتحاد، بين الوادي والدلتا متيناً مستقراً. فقد قامت بعض التمردات في مصر السفلى (الدلتا) كان الهدف منها الانفصال عن الجنوب. ولكن تلك المحاولات الانفصالية باءت بالفشل[2]. يؤيد ذلك ما تكشف عنه «صلاية نعرمر الاردوازية» عن قمع هذا الملك لتمرد حدث في الشمال (الدلتا) وأسره ستة آلاف إنسان[3]. وفي عهد الأسرة الثانية تجددت الاضطرابات والمنازعات السياسية بين مصر العليا والسفلى، وأدت إلى انفصال الشمال عن الجنوب. ولكن «خع ـ سخموي» آخر ملوك الأسرة الثانية، قتل حوالي (٥٠) ألف انسان من الأعداء الشماليين وقمع التمرد وأعاد وحدة مصر بقوة السلاح[4].

بدأ ملوك مصر العبودية حروب الفتح والتوسع لنهب ثروات الشعوب، مثلما كانوا يسلبون شعبهم عن طريق فرض الاتاوات والضرائب. وتشكلت الامبراطورية المصرية منذ العهد الطيني، واستمرت حروب التوسع في عهد الدولتين المتوسطة والحديثة، حيث بلغت الامبراطورية المصرية أوج اتساعها.

ففي العهد الطيني، احتل ملوك الأسرتين الأولى والثانية شبه جزيرة سيناء، حريوشع أي الذين فوق الرمال، وشرعوا في استثمار النحاس والدهنج والفيروز، كما احتلوا بلاد النوبة، تاستي، لاستثمار ذهبها وللحصول على العبيد ولأنها كانت المنفذ الوحيد إلى بلاد السودان حيث العاج والأبنوس وجلود الحيوانات[5].

وفي عهد الامبراطورية القديمة، واصل فراعنة الاسرتين الثالثة والرابعة (بناة الأهرام) سياسة الفتح بعد توطد السلطة الملكية داخل البلاد. فقد قاد زوسر (من ملوك الأسرة الثالثة) حملة إلى سيناء وخلد ذكرى انتصاراته على بدو المنطقة فوق صخور وادي مغارة[6]، وتوسع في بلاد النوبة. وأصدر مرسوماً يمنح فيه معبد خنوم[7] الأراضي الواقعة

---

(١) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم ج ١ ص ٩٧.
(٢) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٣٦.
(٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٢.
(٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ١ ص ١٢٣. دكتور نعيم فرح. المصدر السابق ص ٣٦.
(٥) المصدر ذاته ج ١ ص ١٤٢.
(٦) المصدر ذاته ص ١٥٠.
(٧) الإله خنوم واحد من الآلهة المصرية الخالقة يرسل مياه النيل من معبده في الفانتين.

على جانبي النيل من سهيل إلى جزيرة تاكومپو قرب دكة في النوبة. وبعبارة أخرى مرحلة طولها بين ٨٠ ـ ٩٠ ميلاً على جانبي النهر [٨].

أما سنفرو (من ملوك الأسرة الرابعة)، فقد ارسل حملة إلى بلاد النوبة عاد منها بغنائم طائلة وأسر سبعة آلاف أسير وأخذ مائتي ألف رأس من الماشية، وقام بحملة ليبية جلب بنتيجتها أحد عشر ألف أسير و (١٣,١٠٠) رأس من الماشية [٩]. وقد حفظت لنا نقوش وادي مغارة سجلاً عن حملاته في سيناء وانتصاراته على بدو الصحراء [١٠]. ومن أجل الحصول على أخشاب الصنوبر والسنديان والأرز لبناء اسطول بحري، بعث سنفرو عدة حملات إلى فينيقية [١١]. وواصل خوفو سياسة والده التوسعية، فأرسل حملة إلى سيناء كما تثبت ذلك لوحات وادي مغارة [١٢].

وتابع فراعنة الأسرة الخامسة حروب التوسع، إذ تتحدث نقوشهم عن معارك مع القبائل في شبه جزيرة سيناء وليبيا وعودة المصريين بالأسرى والغنائم [١٣]. وتشير النقوش أيضاً إلى حملات أخرى أرسلت إلى فينيقية وبلاد النوبة وإلى پونت (الصومال حالياً) [١٤].

واستخدم فراعنة الأسرة السادسة النوبيين جنوداً وعبيداً لاستخراج الذهب، بالإضافة إلى الحصول على الجزية [١٥]. وفي أثناء حكم پيپي الأول (من ملوك الأسرة السادسة) نظمت حملات كبيرة على شمالي الحبشة وجنوبي فلسطين. وتتحدث نقوش وزيره «اوني» عن الخراب الذي ارتكبته الجيوش المصرية في فلسطين. فقد دمر الغزاة المستوطنات وقطعوا أشجار التين والكرمة، وعادوا مع أسراهم الذين أطلق عليهم المصريون اسماً معبراً «الأموات الأحياء» [١٦]. وبانتهاء الأسرة السادسة ينتهي عهد الدولة القديمة في مصر [١٧].

---

(٨) المصدر السابق ص ١٥٠.
(٩) المصدر ذاته ص ١٦٤.
(١٠) نفس المصدر والصفحة.
(١١) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٣٧.
(١٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ١ ص ١٦٦.
(١٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٨.
(١٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل الدكتور: المصدر السابق ج ١ ص ١٨٩.
(١٥) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص ٥٠.
(١٦) جماعة من المؤرخي السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٩.
(١٧) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٣٨.

ويطلق على الفترة التي تلت حكم الأسرة السادسة اسم عصر التفتت والانحلال، حيث ظلت مصر مجزأة سياسياً إلى دويلات صغيرة حوالي قرنين من الزمن. فقد اخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يسعى للحصول على السلطة الملكية، مما أدى إلى نشوء حروب أهلية مستمرة ألحقت الخراب والدمار بالبلاد، إذ تعطلت مشاريع الري وتدهورت الزراعة وتوقفت التجارة وحدثت مجاعات وأخذت قبائل البدو الآسيوية تهاجم الحدود المصرية. وهكذا كان عهد الأسرتين السابعة والثامنة من أسوأ عهود التاريخ المصري القديم [١٨].

وفي غمرة الفوضى، برزت إلى مكان الصدارة في مصر مدينتان هي: هيراكليوپوليس في شمال مصر العليا، وطيبة في جنوب البلاد. وقد استطاع خيتي الأول، حاكم هيراكليوپوليس، أن يغتصب العرش من آخر ملوك الأسرة الثامنة من ممفيس وأن ينقل العاصمة إلى مدينته ويؤسس الأسرة التاسعة فيها (توجد بمتحف الأرميتاج بمدينة لينينغراد بردية عليها نص للملك خيتي ينصح فيه ابنه وخليفته أن يكون متسامحاً مع الأمراء) [١٩].

وفي الوقت الذي أخذت فيه الأسرة العاشرة تحكم هيراكليوپوليس، ظهرت سلالة أخرى قوية تحكم في طيبة وهي الأسرة الحادية عشرة. ودار الصراع بين ملوك طيبة وملوك هيراكليوپوليس انتهى بانتصار ملوك طيبة، وأصبحت مدينتهم عاصمة لمصر المتحدة من جديد في دولة واحدة. ومنذ ذلك الحين، يدخل تاريخ مصر في دور جديد يسمى بعهد الدولة الوسطى [٢٠].

امتدت فترة حكم الامبراطورية الوسطى من (٢٠٥٠ ـ ١٧٠٠ ق.م)، وحكمت خلالها في مصر الأسرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة. وفي هذه الفترة تغيرت بنية الطبقة الحاكمة فأصبحت تتألف من ملاك العبيد ومنهم الفئات الغنية من المشاعيات، بعد أن كانت تتألف من كبار الموظفين في عهد الامبراطورية القديمة [٢١].

لقد أتاح توحيد البلاد لهذه الارستقراطية الجديدة، وخاصة «النيزس» ـ أغنياء المشاعيات، ليس فقط تحسين شبكة الري وإنهاء الحروب الأهلية، وإنما أيضاً تعزيز جهاز الدولة. فقد كانوا بحاجة إلى حكومة قوية لتدعيم مراكزهم في البلاد وزيادة عدد عبيدهم

---

(١٨) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٣٨.

(١٩) نفس المصدر والصفحة.

(٢٠) نفس المصدر والصفحة.

(٢١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥١.

في مجرى حروب التوسع (٢٢).

أسس الأسرة الحادية عشرة في طيبة « منتوحوتب » الذي أنهى حكم الأسرة العاشرة في هيراكليوپوليس ووحد مصر تحت سلطته. وفي عهد الأسرة الثانية عشرة، التي أسسها امنمحات الأول، حققت مصر أيضاً استقراراً سياسياً وازدهاراً اقتصادياً كبيراً. فأول عمل قام به ذلك الفرعون هو استمالة حكام الأقاليم الذين لا زالوا يتمتعون بالنفوذ، وذلك دون الاخلال بهيبة الحكم وسلطة الملك المركزية. فقد سمح لهم بشيء من الاستقلال على أن يقدموا ولاءهم ويقوموا بما عليهم من واجبات والتزامات تجاه الدولة كدفع الضرائب وتجهيز الجيوش عند الحاجة إليها (٢٣).

التفت امنمحات الأول، بعد توطيد سلطته، إلى الأمور الخارجية. فنظم الحملات على ليبيا والنوبة وسيناء، واتخذت في حكمه اجراءات ذات دلالات وطنية، كتقوية التحصينات شرقي الدلتا وفي الجنوب، والتي عززها سنوسرت الثالث فيما بعد، للدفاع عن حدود الوطن ضد غارات القبائل السامية والأحباش (٢٤). وقد تطلبت سياسة الدفاع عن حدود البلاد جيشاً دائماً، كان الفراعنة بحاجة إليه أيضاً للمحافظة على سلطتهم في الداخل (٢٥). وقام سنوسرت الثالث بعدة حملات على ليبيا وساق منها الكثير من العبيد والقطيع. كذلك قام بهجوم على بلاد النوبة وضم قسماً منها إلى مصر (٢٦). وهكذا بلغت الامبراطورية الوسطى أوجها في عهد الأسرة الثانية عشرة (٢٧).

وكان عهد الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من العهود المظلمة في تاريخ مصر القديمة. فقد نشبت المنازعات الداخلية بين حكام الأقاليم أنفسهم، وبينهم وبين السلطة المركزية من جهة أخرى. وكثرت المؤامرات والحروب الأهلية، فاضطرب النظام واختل الأمن، وتوقفت مشاريع الري، فتدهورت الزراعة وتعطلت التجارة فعم الفقر البلاد. وقد ساعدت حالة الفوضى تلك وضعف الدولة المصرية على نجاح الهيكسوس واحتلالهم مصر حوالي عام ١٧٠٠ قبل الميلاد (٢٨).

---

(٢٢) نفس المصدر والصفحة.
(٢٣) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٣٩.
(٢٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٤.
(٢٥) نفس المصدر والصفحة.
(٢٦) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٠.
(٢٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٢.
(٢٨) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٠.

لقد جاء الهيكسوس (ملوك الرعاة أو البدو أو الأجانب) من سورية وفلسطين، وتشكلوا من قبائل سامية وحثية وكاشية [٢٩]. واستقروا في القسم الشرقي من الدلتا واتخذوا مدينة أفاريس AVARIS عاصمة لهم. وبسطوا نفوذهم على مصر وسورية وبلاد الرافدين [٣٠].

استمر احتلال الهيكسوس لمصر حوالي (١٥٠) عاماً، وحكمت منهم أسرتان: الخامسة عشرة والسادسة عشرة. أحكم الغزاة سيطرتهم على معظم البلاد، وفرضوا على السكان جزية باهظة، واستعبدوا الفلاحين، ونهبوا المعابد وخربوا بعضها. في حين أظهروا التسامح مع الارستقراطية المحلية [٣١].

وفي مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد، قامت في مصر حرب تحريرية بزعامة ملوك طيبة. في أول الأمر، لم يجد هؤلاء الملوك أي مساندة لهم من حكام الجنوب الآخرين، ولكن بمساعدة المليشيا الشعبية أنجز ملوك طيبة (سقنزع مؤسس الأسرة السابعة عشرة، وكاموس وأحمس مؤسسا الأسرة الثامنة عشرة) مهمتهم بنجاح: مناضلين معاً ضد خصومهم المحليين وضد المحتلين الأجانب ـ الهيكسوس [٣٢].

دحر أحمس الأول الهيكسوس نحو الشمال واحتل عاصمتهم أفاريس، ثم لاحقهم بقواته إلى فلسطين وحاصرهم في قلعة شاروهين حتى انتصر عليهم، وعاد إلى طيبة محملاً بالغنائم مكللاً بالنصر [٣٣].

لقد أعان على توحيد البلاد وتوطد السلطة الملكية واقع أن أحمس الأول استخدم الحركة الشعبية في النضال ضد الهيكسوس والأمراء الانفصاليين. فهو لم يترك على رأس المقاطعات إلا حكاماً موالين سلب منهم حق الوراثة وجعلهم مجرد موظفين بسطاء. وفي مقاطعات أخرى استعاض عن امرائها بحكام جدد اختارهم من بين حاشيته [٣٤].

وهكذا أنشئت في ظل الأسرة الثامنة عشرة حكومة مركزية قوية، وصلت مصر في

---

(٢٩) المصدر ذاته ص ٤١.
(٣٠) نفس المصدر والصفحة.
(٣١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٧.
(٣٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣٣) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤١.
(٣٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٨.

عهدها إلى أوج قوتها وحضارتها[٣٥].

الامبراطورية الحديثة ١٥٨٤ - ١٠٧١ ق.م: يطلق على الدولة التي نشأت في مصر بعد طرد الهيكسوس اسم الدولة الجديدة (١٥٨٤ - ١٠٧١ ق.م). حكمت البلاد خلالها أسرات ثلاث هي: الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون.

أخذ ملوك الأسرة الثامنة عشرة يعملون على تأسيس امبراطورية تضم بلاد النوبة (السودان) ومصر وسورية (بما فيها فلسطين وفينيقية). وكان أحمس الأول، مؤسس الأسرة، قد وضع حجر الأساس لتلك الامبراطورية بطرده الهيكسوس من مصر وملاحقتهم إلى فلسطين[٣٦]، وأعاد بحملة أخرى إلى النوبة سلطة مصر على ممتلكات الفراعنة القديمة في هذه المنطقة[٣٧]. أما ابنه، امنحوتب الأول فقد أرسل حملة إلى بلاد النوبة وحملة أخرى إلى سورية. كذلك فعل صهره وخليفته تحوتمس الأول الذي وصل بحملته في سورية إلى نهر الفرات، وخلّد انتصاره بلوحة تذكارية أقامها هناك[٣٨].

وفي عهد خلفاء تحوتمس الأول، أرسلت حملات إلى فلسطين وسورية بقصد اخضاع الدويلات الفينيقية وغيرها، وفي سبيل الحصول على الذهب والفضة والأخشاب والخمور والمواشي والرقيق، ليس أبداً بواسطة التبادل التجاري، وإنما تحت اسم جزية ثابتة وبكميات كبيرة[٣٩]. وقد أفادت هذه الحملات، بشكل خاص، قمة المجتمع العبودي: الفرعون، أسرته، كبار موظفيه، الكهنة، قادة الجيش، وحتى الجنود استفادوا من هذه الحروب، فكان لكل منهم حصته من الغنيمة[٤٠].

ولم يتم فتح فلسطين وسورية إلا بعد حملات مضنية، من احتلال فتمرّد فإعادة احتلال، الى أن سقطتا على يد تحوتمس الثالث[٤١].

قاد تحوتمس الثالث عدة حملات عسكرية إلى سورية، فانتصر في إحداها على تحالف

---

(٣٥) نفس المصدر والصفحة.

(٣٦) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٢ .

(٣٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٩ .

(٣٨) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٢ - ٤٣ ،

(٣٩) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٩ .

(٤٠) نفس المصدر والصفحة.

(٤١) نفس المصدر والصفحة.

الأمراء السوريين قرب مدينة مجدّو بفلسطين، وفي أخرى عند مدينة قادش عند بحيرة قـطينة إلى الغرب من حمص. وفي معركة عند كركميش (قرب جرابلس الحالية) هزم أيضاً جيوش المبتانيين، وخلد انتصاره بلوحة تذكارية أقامها على شاطىء الفرات إلى جانب اللوحة التي تركها جده تحوتمس الأول هناك (٤٢).ولم تقتصر حملاته على سورية فقط، وإنما وجه عدة حملات إلى بلاد النوبة أيضاً، فأخضع معظمها لسلطته (٤٣).

إن فتح سورية وفلسطين جعل من مصر واحدة من أقوى دول الشرق الأدنى. فقد أرسل ملك بابل الكاشي وملك الحثيين هدايا ثمينة إلى فرعون مصر (٤٤). وانصبّت الثروات المنهوبة من سورية وفلسطين في مصر الفرعونية (٤٥).

ويكفي لاعطاء صورة عن الثروات التي نهبها تحوتمس الثالث من ذكر بعض المعطيات: استولى المصريون على غنائم كثيرة أثناء القتال في مجدّو. ولكن هذه الغنائم كانت قليلة جداً بالنسبة لما وقع في يد الفرعون إثر سقوط مجدّو واستسلامها لجيشه. فقد استولى المصريون وقتئذٍ على ٩٢٤ عجلة حربية من ضمنها عجلتا ملكي قادش ومجدّو، وعلى (٢٢٣٨) حصاناً و (٢٠٠٠) ثورٍ و (٢٢٥٠٠) رأس من الغنم و (١٣٠,٠٠٠) مكيالٍ مـن القمـح، وكمية من الذهب والفضة تقدر بـ (٢٠٠) كيلوغـرام ومئات الأسرى إلخ... بالإضافة إلى جزية سنوية كان على البلدان المقهورة تأديتها للخزينة الملكية (٤٦).

وعندما عاد تحوتمس الثالث إلى طيبة وجد حملته الحربية التي بعثها إلى بلاد البونت تنتظر أوبته ومعها أشياء كثيرة ثمينة وكميات كبيرة من العاج والأبنوس وجلد النمر والذهب وما يُنيف على ٢٢٣ مكيالاً من المرّ وعدد عظيم من العبيد وقطعان الغنم (٤٧). وهكذا تأسست الدولة العسكرية المصرية في حكم تحوتمس الثالث (٤٨).

ورث خلفاء تحوتمس الثالث امبراطورية واسعة الأرجاء راسخة البنيان، فنعمت مصر بفترة ازدهار كثر فيها العمران وازداد الترف. وفي أثناء حكم امنحوتب الرابع (اخناتون)

---

(٤٢) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٤.

(٤٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤٤) برستد، جيمس هنري: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٢٠١.

(٤٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٠

(٤٦) برستد، جيمس هنري: المصدر السابق ص ١٩٩.

(٤٧) المصدر ذاته ص ٢٠١.

(٤٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٠.

زال النفوذ المصري عن سورية تقريباً ليحل مكانه نفوذ الحثيين (٤٩).

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة، قاد سيتي الأول حملة عسكرية اجتازت فلسطين ووصلت إلى قادش، حيث اشتبكت في معركة مع الحثيين وانتهى القتال بعقد معاهدة صداقة بين الطرفين (٥٠). كذلك حارب سيتي الأول الليبيين وأوقف غاراتهم على الدلتا (٥١). وتابع ابنه رمسيس الثاني أعمال والده الحربية، ووضع نصب عينيه إعادة الامبراطورية المصرية السابقة أيام تحوتمس الثالث. فجمع جيشاً قسمه إلى أربع فرق وأطلق على كل فرقة اسم أحد الآلهة المصرية (آمون، رع، بتاح، ست). عبر الجيش المصري سورية الجنوبية متجهاً نحو الشمال يتقدمه الملك على رأس فرقة الإله آمون، والتقى بجيش الحثيين عند مدينة قادش. وجرى القتال بين الفريقين القويين المتكافئين دون أن يسفر عن نصر حاسم لأي من الجانبين، وإنما إلى توقيع معاهدة صداقة عام ١٢٩٦ قبل الميلاد، وقعها رمسيس الثاني فرعون مصر وحاتوشيل الثالث ملك الحثيين. نصت المعاهدة على تعهد الطرفين بعدم اعتداء احدهما على الآخر، وبالدفاع المشترك ضد الاعتداء الخارجي أو التمرد الداخلي، وبتسليم اللاجئين السياسيين. وقد ظلت فلسطين مع جنوب سورية والساحل الفينيقي تحت النفوذ المصري، بينما ظل شمال سورية تحت سلطة الحثيين. وتوجت المعاهدة بزواج رمسيس الثاني من ابنة حاتوشيل تدعيماً لأواصر الصداقة بين الجانبين المتعاقدين (٥٢).

وبعد وفاة رمسيس الثاني، خلفه ابنه مرنبتاح، فتعرضت مصر في عهده لغزو الليبيين ولكنه تمكن من صدهم (٥٣). وبعد موت مرنبتاح، اضطربت الأوضاع الداخلية في مصر وأعلن حكام الأقاليم الانفصال عن العاصمة طيبة، فاستغل ذلك الوضع أمير من أصل سوري اسمه يارسو واستولى على العرش الملكي (٥٤). ولكن قام ضده أمير من أسرة الرعامسة يدعى ست نخت فعزله واستلم الحكم (٥٥).

---

(٤٩) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٤.

(٥٠) المصدر ذاته ص ٤٥.. أحمد فخري: مصر الفرعونية. دار ممفيس للطباعة ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٣٤٥.

(٥١) نفس المصدر والصفحة.

(٥٢) المصدر ذاته ص ٤٦. ود. سليم عادل عبد الحق: المصدر السابق. وأحمد فخري. المصدر السابق ص ٣٥٤.

(٥٣) المصدر ذاته ص ٤٧. وأحمد فخري. المصدر السابق ص ٣٥٨ ـ ٩.

(٥٤) نفس المصدر والصفحة. أحمد فخري: المصدر السابق ص ٣٦٠، ٣٦٩.

(٥٥) نفس المصدر والصفحة.

أسس ست نخت الأسرة العشرين. وخلفه بعد وفاته ابنه رمسيس الثالث الذي قام بإصلاح الجهاز الإداري وتنظيم الجيش، فاستطاع انقاذ مصر من خطرين داهماها الأول: خطر الليبيين. والثاني خطر شعوب البحر (البلاج). دحر الليبيين غرب الدلتا وتصدى لشعوب البحر[٥٦]. فخاض ضدهم عدة معارك بحرية، ثم قاد حملة إلى فلسطين وسورية واستطاع أن يشتت شعوب البحر التي وصلت إلى هناك. وفي أواخر حكم رمسيس الثالث عمت الفوضى في البلاد ودب الضعف والانحلال في الدولة، وازداد نفوذ الكهنة، وأخذ كبار الموظفين يستغلون موارد الدولة لمصلحتهم ويسيئون استعمال وظائفهم، ونضبت الخزينة الملكية من ثرواتها الاسطورية، وحدثت ضائقة اقتصادية، وارتفعت الأسعار وخاصة أسعار الحبوب، فقامت الاضطرابات في كل مكان[٥٧]. وأخيراً دبرت مؤامرة على حياة الملك انتهت بقتله.

حكم بعد رمسيس الثالث عدد من الملوك الضعفاء، فازدادت الفوضى في عهدهم، ولم يبق للملك من سلطة إلا ظلها، في حين أخذ يزداد نفوذ كهنة الإله آمون، ودخلت مصر في عهد الانحطاط.

عصر الانحطاط (١٠٨٠ - ٧١٥ ق.م): إن ضعف السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لأرستقراطية النومات أدّيا إلى تفكك جديد لمصر التي أنهكتها الحروب المستمرة[٥٨]. ففي القرن الحادي عشر، أصبح كبير كهنة آمون فرعوناً للأسرة الحادية العشرين، غير أنه لم يبسط سلطته على جميع البلاد. كما أضحى لنومات الشمال ملوكها الخاصون[٥٩].

وإذا تجاوزنا بعض الفترات التاريخية المحدودة من القوة والازدهار والبعث، فإن الخط العام لعهد الانحطاط قد تميز بضعف سلطة الفراعنة واندلاع الثورات وتعرض مصر لغزو النوبيين والاشوريين والفرس والمكيدونيين.

رأينا أنه في الوقت الذي كانت تضعف فيه السلطة الملكية بعد مقتل رمسيس الثالث، كان يتزايد نفوذ الكهنة، حتى أن حيريحور، رئيس كهنة معابد آمون في طيبة، استطاع أن

---

(٥٦) اقوام هندو ـ أوروبية انحدرت من منطقة القوقاز إلى فارس والهند وإلى آسيا الصغرى والبلقان وجزر بحر ايجه، ووصل قسم منهم إلى سورية وفلسطين ومصر.

(٥٧) نفس المصدر والصفحة.. أحمد فخري.. المصدر السابق ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٥٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٨.

(٥٩) نفس المصدر والصفحة.

يقبض على زمام السلطة الملكية بالإضافة إلى سلطته الكهنوتية، وتلقب بالقاب الفراعنة وأسس الأسرة الحادية والعشرين [٦٠].

ومثلما كانت الأملاك الواسعة والثروات الهائلة تشكل الأساس المادي لسلطة الفراعنة، كذلك شكلت أموال المعابد الأساس المماثل لسلطة الكهنة. ففي أثناء حكم رمسيس الثاني بلغ عدد ما يملكه الكهنة من الأرقاء نحو (١٠٧,٠٠٠) عبد منهم (٨٦,٥٠٠) عبد لكهنة آمون يعملون في أراضيه. وكان بيد الكهان أحسن الأراضي ونسبتها ١٥٪ من أراضي مصر منها ١٠٪ لآمون - رع والباقي لجميع الآلهة الآخرين. وكانوا يملكون ١٦٩ مدينة في مصر والنوبة وسورية، ومن الحيوانات الأهلية نحو نصف مليون رأس و ٨٨ مركباً و ٥٣ حوضاً لانشاء المراكب البحرية والنهرية. وكان (آمون) طيبة يملك ثلثي هذه الثروة وهو أغنى بـ (٥٠) مرة من (رع) هلوپوليس وبـ (٩) مرات من (فتاح) ممفيس. وعلى هذا فكهنة معابد الآلهة الثلاثة كانوا يقبضون على الاقتصاديات الوطنية كما كانوا يتزعمون بقية السلطات. وفي كل سنة كان آمون يتلقى من كوش جزية من الذهب قدرها (٢٦٠٠٠) قطعة ذهبية. وكذلك كان يتلقى كمية من الفضة تعادل (١٧) مرة وكمية من النحاس تعادل (٢١) مرة وعدداً من القطعان يعادل (٧) مرات وكمية من الخمر تعادل (٩) مرات وعدداً من المراكب يعادل (١٠) مرات ما كان يتلقاه غيره من بقية الآلهة [٦١].

وكان آمون شريكاً للملك فيما تغله مناجم الذهب في النوبة والسودان. ففي العام الرابع والثلاثين تلقى آمون ما يزيد على سبعمائة رطلٍ من الذهب من تلك المناجم. وفي العام الثامن والثلاثين تلقى الكمية نفسها، وفي العام الواحد والأربعين تلقى ما يزيد عن ثمانمائة رطلٍ، وهي كميات ذات قيمة كبرى في تلك الأيام [٦٢].

وفي أواخر الدولة الحديثة كان مجموع ممتلكات المعابد في طيبة وهليوپوليس وممفيس (٩٧,٣٦٤) فلاحاً، (٤٧٦,٩٦٣) رأساً و (٢٨٦٢) كيلومتراً مربعاً من الأراضي الزراعية و (٨٨) سفينة و (١٠٤) كيلوغرامات من الذهب إلخ.. وفي العصر الصاوي، منح الملوك أراضي للارستقراطية وحكام الأقاليم بشرط أن يوقفوها على المعابد بغية تقوية السيطرة

---

(٦٠) فخري، أحمد: مصر الفرعونية ص ٣٨٥ - ٣٨٦. وجماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٨.

(٦١) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.

(٦٢) ولسون، جون: الحضارة المصرية: ترجمة د. أحمد فخري ص ٣٠٢.

الدينية الفرعونية على عقول الفلاحين المتذمرين [٦٣].

لم تستطع الأسرة الحادية والعشرون انقاذ البلاد من الأوضاع السيئة، بل ازدادت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في التدهور، وشكل المرتزقة الليبيون المتطوعون في الجيش المصري، طبقة عسكرية تنافس بنفوذها سيطرة الكهنة. وفي منتصف القرن العاشر قبل الميلاد، تمكن أحد قادتهم ويدعى شيشانق، المنحدر من ارستقراطية الجنرالات الليبيين، من الاستيلاء على السلطة في مصر، وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين. وقد نجح شيشانق في إعادة توحيد البلاد، وعمل على ارجاع النفوذ المصري إلى فلسطين مستغلاً النزاع القائم بين المملكتين اليهوديتين [٦٤]، فقام بحملة على فلسطين هاجم فيها اورشليم وعاد بالغنائم [٦٥]. وقد مكنت الثروة الطائلة التي حصل عليها شيشانق من غزوته تلك من إنشاء حصون ومبان كثيرة أهمها جميعاً قاعته العظيمة في الكرنك والپيلون الذي بناه أمام هذه القاعة وهو أعظم پيلون في مصر على الاطلاق [٦٦].

وفي عهد خلفاء شيشانق من الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين، ضعفت السلطة المركزية وقويت سلطة امراء الأقاليم، وتفتتت وحدة البلاد السياسية، واستقل كل حاكم باقليمه، ودار الصراع بين حكام الأقاليم على السلطة والسيطرة، وعمت الفوضى والاضطرابات، وازداد الظلم والاستغلال من قبل الكهنة وطبقة العسكريين والموظفين، وضعف نفوذ مصر خارج البلاد [٦٧]. وقد أدى توقف الفتوحات الخارجية إلى نقص في عدد العبيد من أسرى الحرب، فظهر اتجاه لاستعباد السكان الأصليين، وأصبح الكثيرون من المدنيين الفقراء العاجزين عن تسديد ديونهم يحولون إلى عبيد [٦٨].

وعندما اشتد الصراع بين حكام الأقاليم المصرية، قام ملك النوبة سنة ٧٤٠ قبل الميلاد بحملة على مصر وأخضع لسلطته الحكام المتنافسين. وفي سنة ٧٢٠ قبل الميلاد، أسس شاباكو سلالة نوبية حاكمة في مصر هي الأسرة الخامسة والعشرون [٦٩].

---

(٦٣) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي ص ٦١.

(٦٤) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٩.

(٦٥) التوراة: الملوك الأول ١٤: ٢٥ - ٢٧.

(٦٦) فخري، أحمد: مصر الفرعونية ص ٣٩٩.

(٦٧) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٤٩.

(٦٨) نفس المصدر والصفحة.

(٦٩) المصدر ذاته ص ٥٠.

تعرضت مصر في عهد الأسرة النوبية للغزو الآشوري في النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد . وعلى الرغم من المقاومة التي واجهها الغزاة ، فإنهم تمكنوا بقيادة « اسرحدون » من احتلال البلاد عام ٦٧١ قبل الميلاد (٧٠) . وخضع حكام الأقاليم المصرية لسلطة الآشوريين واجبروا على دفع الجزية السهم (٧١) .

واجه المحتلون الآشوريون مقاومة وطنية شديدة ، مما اضطرهم إلى العودة إلى احتلال البلاد المرة تلو الأخرى . استغل بامتيك ، حاكم مدينة سايس في الدلتا ، ضعف الآشوريين ، فطرد حامياتهم وحرر مصر ووحدها (٧٢) .

أسس بامتيك الأول الأسرة السادسة والعشرين . وفي عهده شمل الاستقرار جميع أنحاء مصر . وبدأت تجارتها في الازدهار بفضل تشجيعه المستمر للتجار اليونانيين الذين كثر توافدهم على مصر لاستيطانها (٧٣) . وقد استعان بامتيك بالمرتزقة الاغريق لتحرير مصر من النير الآشوري وإعادة توحيدها (٧٤) . وأسس التجار اليونان مستوطنات لهم في مصر ، أهمها مدينة نقراتيس في الدلتا (٧٥) .

وكانت الهجمات الفارسية على مصر واليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد تقطع التجارة الاغريقية ، مما كان يوحد بين مصالح المدن اليونانية والملوك الصاويين في المقاومة المشتركة ضد الفرس ، ويسهل إقامة التحالف بينهما (٧٦) .

عرفت هذه الفترة القصيرة من الازدهار في تاريخ مصر القديمة باسم « العصر الصاوي » . وتميزت بتطور الانتاج السلعي ونمو الحرف وتوسع المبادلات التجارية والثقافية مع دويلات اليونان وآسيا الصغرى (٧٧) .

وقد حاول الفراعنة الصاويون تقوية النفوذ العالمي لمصر وذلك عن طريق عقد تحالفات

---

(٧٠) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٧١) فخري ، أحمد : المصدر السابق ص ٤١٥ .

(٧٢) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٧٣) فخري ، أحمد : المصدر السابق ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٧٤) سعد ، أحمد صادق : تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي ص ٧٦ .

(٧٥) نفس المصدر والصفحة .

(٧٦) نفس المصدر والصفحة .

(٧٧) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٦٩ .

مع الدول الكبرى. غير أن ضعف مصر النسبي. في هذه الحقبة التاريخية، لم يتح لملوك هذه الأسرة تحقيق سياستهم الخارجية. فقد سعى نيخاو الثاني، خليفة بامتيك، إلى إنشاء نقاط ارتكاز في فلسطين وسورية وفي المجرى الأوسط لنهر الفرات عن طريق المحالفات العسكرية، إلا أن الكلدانيين تغلبوا على قوى التحالف المصري ـ الآشوري عند مدينة كركميش سنة ٦٠٥ ق.م، وانتقلت، نتيجة لهذا الانتصار، السيادة في الشرق الأدنى إلى الامبراطورية البابلية الجديدة ـ الامبراطورية الكلدانية (٧٨).

وعندما حاول واح ـ إب ـ رع (أبريس)، أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، استعادة نفوذ مصر في فلسطين وسورية، توجه نبوخذ نصّر إلى سورية، واسترجع مدن الساحل ودمر اورشليم وأخذ الآلاف من اليهود القادرين أسرى إلى بابل (٧٩).

إن القوة المتعاظمة للارستقراطية والكهنة أجبرت الفراعنة الصاويين على طلب مساندة التجار والجنود والمرتزقة اليونانيين، مما حدد التيار الهلنيستي لسياستهم الداخلية.

وقد أثارت الامتيازات الواسعة التي منحت إلى التجار الأجانب وبصورة خاصة إلى التجار الاغريق، والنفقات الضخمة للابقاء على فرق المرتزقة اليونان في الجيش المصري، استياء الأهالي وحملتهم على الثورة. وأعلن الجنود المصريون عصيانهم على السلطة أيضاً (٨٠). وقاد أحمس، أحد قادة الفرعون، حركة التمرد وتغلب على المرتزقة، وصعد على العرش تحت اسم احمس الثاني (أمازيس) (٨١).

لم يسرح أحمس الثاني المرتزقة اليونان من الجيش أو يطردهم خارج البلاد، وإنما اكتفى باستدعاء حامياتهم التي على الحدود إلى ممفيس، وأرسل المصريين ليحلوا محلهم (٨٢). وواصل سياسة الأسرة الصاوية التقليدية في توثيق الصلات مع اليونان، وتشجيع المعمرين الاغريق على الإقامة في مصر (٨٣).

في هذه الحقبة التاريخية، حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، نشأت الدولة

---

(٧٨) نفس المصدر والصفحة.

(٧٩) التوراة: الملوك الثاني: ٢٥ : ٨ ـ ١٠.

(٨٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٩.

(٨١) نفس المصدر والصفحة.

(٨٢) فخري، أحمد: المصدر السابق ص ٤٢٩.

(٨٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٩.

الفارسية نتيجة لتوحيد القبائل والفتوحات. وقد بذل كورش بمساندة الارستقراطية الفارسية، المتعطشين جميعاً إلى الفتح والغنيمة، جميع الجهود لإقامة امبراطورية واسعة.

ففي عام ٥٥٠ قبل الميلاد، أخضع كورش ميديا، ووضع يده على ما فيها من فضة وذهب، ونهب جميع أنواع كنوزها [٨٤]. ثم احتل ارمينيا وكاپادوسيا. وفي عام ٥٤٦ قبل الميلاد، اجتاح ليديا وأسر ملكها كروسوس واستولى على ثرواته الاسطورية. واخضع بعد ذلك بقليل آسيا الصغرى بما فيها «المدن اليونانية» الواقعة على ساحل بحر إيجة وفرض الجزية على الجميع [٨٥]. وفي الفترة الواقعة بين ٥٤٥ - ٥٣٩، اجتاح كورش أراضي آسيا الوسطى [٨٦]. وأصبحت البلاد الواقعة غربي نهر الفرات في عداد دافعي الجزية إلى كورش. وغدت فارس سيدة غربي آسيا دون منازع [٨٧].

وبعد أن أحاط كورش ببلاد الرافدين من الشرق والشمال والغرب، وحاصر جميع الطرق التجارية المؤدية إليها، قرر اخضاع خصمه الرئيس، بابل الكلدانيين. وأنجز المهمة عام ٥٣٨ ق.م دون عناء كبير. وفي بابل، فتح الكهنة والتجار والمرابون الأبواب للجيش الفارسي، آملين أن تتوسع عملياتهم التجارية والمالية في ظل امبراطورية جديدة أكثر اتساعاً [٨٨].

شرع كورش في تهيئة الظروف ووضع الخطط لفتح مصر، فاطلق سراح اليهود المأسورين في بابل منذ عهد نبوخذ نصّر، وأمر بعودتهم إلى فلسطين، ومنحهم استقلالاً ذاتياً، وسمح لهم بإعادة بناء القدس، بعد أن تفاهم معهم على خطة تحويل فلسطين إلى قاعدة استراتيجية فارسية - يهودية للعدوان على مصر والاستيلاء عليها [٨٩].

وقد آثر كورش، قبل أن يلقي بحملة كبيرة لفتح مصر، أن يؤمن ظهره، ويؤكد السيادة السياسية لفارس على البلدان الواقعة شمال شرقيها. وزحف بالفعل بجيشه إلى هناك. ولكن قبائل الشاش والمساجيت وقفت في وجهه وقاومته مقاومة بطولية [٩٠]. وفي إحدى

(٨٤) المصدر ذاته ص ٢٣٣.

(٨٥) المصدر ذاته.

(٨٦) الموسوعة التاريخية السوفياتية باللغة الروسية: المجلد ٧ ص ٢٥١ - ٢.

(٨٧) فخري، أحمد: المصدر السابق ص ٤٣١.

(٨٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢٣٤.

(٨٩) تاريخ العالم باللغة الروسية: المجلد الثاني ص ٢٢.

(٩٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢٣٥.

المعارك قتل كورش عام ٥٢٩ أو ٥٣٠ قبل الميلاد [٩١]، تاركاً تنفيذ خطة فتح مصر التي وضعها وهيأ ظروفها إلى ابنه قمبيز. وفي عام ٥٢٥، قاد قمبيز الجيش الفارسي فاستولى على مصر، بمساعدة اليهود والقاعدة اليهودية، وانهى حكم الأسرة السادسة والعشرين.

حافظ الغزاة الفرس على التنظيم الاجتماعي، ولكنهم استولوا على ممتلكات المعابد مما حمل الكهنة على التذمر ورفع لواء الثورة ضدهم في أوقات متكررة [٩٢].

قاوم الشعب المصري الاحتلال الفارسي وثار عليه مرات عديدة. وتزعم حركة المقاومة الوطنية شريحة من الارستقراطية كانت تستفيد منها لتوحد البلاد وتثبيت دعائم النظام الفرعوني، فيتخلى الشعب عنها المرة تلو الأخرى. فقد تمكن أحد الأمراء المصريين ويدعى آمون ـ حر من طرد الفرس وتأسيس الأسرة الثامنة والعشرين التي كان مقرها في مدينة سايس ـ صا الحجر [٩٣]. ثم انتقل الملك إلى بيت آخر، وملوكه هم الذين اسماهم مانيتون فراعنة الأسرة التاسعة والعشرين [٩٤]. واستولى « نختنبو » على السلطة وأسس الأسرة الثلاثين. وفي عهدها، أرسل الفرس حملة جديدة إلى مصر وأعادوا احتلالهم لها عام ٣٤١ قبل الميلاد [٩٥].

ولم تتوقف الثورات. وقاد حركة المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفارسي « جناشا » احد امراء الدلتا الذي أعلن نفسه ملكاً على مصر أيضاً، واعترف به كهنة ممفيس [٩٦]. ونعرف من تمثال الستراب، أن المصريين كانوا دائمي الثورة طوال الأعوام الثمانية التي قضاها الفرس في احتلالهم الثاني لمصر [٩٧].

---

(٩١) نفس المصدر والصفحة.

(٩٢) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص ٥١.

(٩٣) فخري، أحمد: المصدر السابق ص ٤٣٩.

(٩٤) نفس المصدر والصفحة.

(٩٥) المصدر ذاته ص ٤٤٣.

(٩٦) المصدر ذاته ص ٤٤٣.

(٩٧) نفس المصدر والصفحة.

نظام الحكم والادارة - الجيش والأسطول

نظام الحكم والإدارة: من أهم المراحل في تاريخ البشرية القديم، تكون نظام الرق ونشوء الدولة الاستبدادية في مصر القديمة في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وقد ظل نظام الحكم، طوال تاريخ مصر القديمة، ملكياً استبدادياً مطلقاً يدافع عن مصالح الارستقراطية الإستعبادية، كما بقيت الأراضي الملكية الواسعة وثرواتها الاسطورية الاساس المادي لسلطة الفراعنة.

وفي عهد الامبراطورية القديمة، كانت الدولة أقوى وأكثر مركزة مما كانت عليه دولة صارغون في بلاد ما بين النهرين. وفي إبان حكم الأسرتين الثالثة والرابعة، تدعمت السلطة الملكية. وكان ذلك ضرورياً لتوحيد مصر وضمان السير العادي لنظام الري، ولقمع مقاومة العبيد والمشاعيين، ومن أجل الحصول على عدد وافر من الرقيق من أثيوبيا وليبيا وفلسطين، وأخيراً لإزالة بقايا النظام القبلي [1]. وقد نجح سنفرو وخوفو وخلفاؤهما في تحقيق هذه المهام على وجه العموم [2].

وكان الملك يؤلّه في عهد الدولة القديمة ويلقب « بالإله العظيم ». فهو حوروس إله السماء وابن اوزوريس ثم رع حوروس أو ابن رع [3]. وكان الهدف من انتحاله صفة الالوهية تخويف الشعب وارغامه على الخضوع وإطاعة أوامر السلطة الملكية المقدسة وعدم التمرد.

---

(١) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية ص١٤٩.

(٢) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

(٣) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: تاريخ الحضارة ص٩٤.

وهذه الصفة الالهية تستدعي أن يكون الملك معبوداً من قبل رعيته. ومن مظاهر هذه العبادة تقبيل الأرض بين يديه أو تقبيل أقدامه من قبل المقربين منه (٤).

وبغية تمجيد الفراعنة، شيدت الاهرام الهائلة في مصر بعمل العبيد والمشاعيين المزارعين. وفي زمن الاسرتين السابعة والثامنة عندما ضعفت السلطة المركزية للملك، وأعلن حكام الأقاليم استقلالهم عن تلك السلطة واتخذ بعضهم ألقاب الفراعنة، زالت من نفوس الناس هيبة الملوك وعظمتهم وقدسيتهم، واعتدى بعضهم على قصورهم وأهراماتهم وسرقوا محتوياتها (٥).

وفي عهد الدولة المتوسطة، لم يعد الملك « إلهاً » فحسب، بل أصبح « الراعي الصالح » المسؤول عن رعيته الساهر على مصلحة شعبه المدافع عنه والمؤمّن له العدل والحق (٦).

وفي عهد الدولة الحديثة ظلت السلطة الملكية ذات طابع إلهي ولكن الملك الإله أصبح يقود الجيش في الحروب باسم الإله آمون ـ رع الذي يمنحه سيفه وعلمه الإلهي كي يحقق النصر على الأعداء (٧). وعندما مات أخناتون، تصالح خلفه توت عنخ آمون مع كهنة آمون وخضع لسيطرتهم. ولم تعد للملك الإله تلك الرهبة والهيمنة على شعبه، بل أصبح لا بد من الاستعانة بالآلهة والقوانين (٨).

وقد جرت العادة من قبل أن يصور الملك في المناظر بحجم أكبر من صور الكهنة والموظفين والقادة العسكريين، على حين يطلعنا مشهد بمعبد الكرنك على صورة الملك رمسيس التاسع مساوية بالحجم لصورة رئيس الكهنة امنحوتب.

وعندما سيطر الأجانب على مصر في عهد الانحلال الأخير، لم يعد الملوك يدّعون أنهم آلهة أو أبناء آلهة، ولم يعد أحد ينظر إليهم نظرة تقديس وتأليه.

كان الملك، ويدعى باسم برعا ـ نُقل إلى اللغات الأخرى باسم فرعون ويعني البيت الكبير أو القصر الملكي ويقصد به ساكن ذلك البيت ـ هو الدولة وحكمه مطلق وكلمته

---

(٤) المصدر ذاته ص٩٥.

(٥) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص٥٥.

(٦) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق. جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٥٢.

(٧) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص٥٥.

(٨) نفس المصدر والصفحة.

قانون. وهو مصدر السلطات، أوامره وأحكامه هي نطق إلهي [٩]. ولما كان الفرعون يتمتع بالسلطة المطلقة فهو الذي يعين الكهنة وكبار الموظفين وحكام المقاطعات ويفرض الضرائب ويرسل الجيوش إلى البلدان المجاورة، ويستطيع مصادرة أموال رعيته والحكم عليهم بالموت دون محاكمة[١٠].

مهام الملك إذن متعددة: فمهمته الدينية هي تعيين الكهنة وإقامة المعابد والمقابر الملكية والاشراف على العقائد الدينية باعتباره إلهاً أو ابناً للإله أو الكاهن الأعظم. ومهمته العسكرية هي الدفاع عن البلاد وحماية الحدود وقمع الاضطراب والثورة وإرسال الجيوش خارج البلاد بُغية الاستيلاء على العبيد والماشية وغيرها من الثروات. وكان الفرعون يعتبر حامل أعلى سلطة قضائية هي السلطة « الإلهية ».وكان قضاة الملك في الاقاليم، في عهد الدولة القديمة، يقومون عادة بوظائف الحكام المحليين. وقد خدم القضاء مصالح مالكي العبيد. ولا قيمة عملية أبداً لما يرد في النصوص من تعابير فارغة أو ديماغوجية كتلك التي تذكر مثلاً أن من مهام الفرعون القضائية « إقامة العدل بين الناس ومنع كل ظلم واعتداء » أو التي تصف الفرعون « بالراعي الصالح » الذي يهتم بمصالح شعبه ويدافع عن « الارملة واليتيم ».

أما بالنسبة لحياة الملك فقد كان يقيم في مقر عظيم يحتوي على قسمين احدهما للحياة العامة والرسمية، والآخر لحياته الخاصة، يعيش فيه مع زوجه وأولاده وعدد كبير من المحظيات. وكان الفرعون في أوقات فراغه يمارس الصيد أو يستمع إلى الغناء والموسيقى ومشاهدة الرقص، أو يخرج في قاربه الملكي مع طائفة من الفتيات وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة[١١].

أما تتويج الملك فيتم في احتفال كبير يتقلد فيه شارات السلطة المقدسة (الصولجان والسوط) ويوضع على رأسه التاج الابيض ثم التاج الاحمر. ويجلس على عرش تحيط به أوراق البردي وأزهار اللوتس، ثم يطوف حول الحائط الأبيض ويطل على الدلتا والصيد رمزاً لتسلمه السلطة على مصر العليا والسفلى.

وكان يخلف الملك بعد وفاته ابنه الأكبر. ولكن أحياناً كان يستولي على العرش مغتصبون

---

(٩) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص٩٧.

(١٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٤٦.

(١١) ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥٠. ج ٢ ص ٩٥.

غرباء ويشكلون اسرات حاكمة جديدة. وكانت الملكة أو الزوجة الشرعيـة للملـك يجب أن تكون من أصل ملكي عادة، مما دفع بعض ملوك الدولة الحديثة إلى الزواج من أخواتهم حفاظاً على الدم الملكي. وكانت الملكة تقوم بالوصاية على ابنها إذا تولى العرش وهو طفل، فتمارس السلطة الملكية حتى يكبر أو تستأثر بالسلطة لنفسها أحياناً.

وكانت سلطة الملك في مصر ترى مهمتها الأساسية في تعزيز حكم مالكي العبيد. فقد أنشيء نظام مركز صارم للإدارة.

وكان القصر الملكي أو البيت الكبير مقر الحكم المركزي يوجه منه الفرعون شؤون الدولة. وكان الفرعون يعتمد في حكم البلاد على جهاز واسع من الموظفين على رأسهم الوزير الأول. وأول من اوجـد منصـب الوزيـر هـو الملـك زوسر (الاسرة الثـالثـة). وفي بعـض فترات التـاريـخ المصري كان الفراعنة يعيّنون وزيرين احدهما في ممفيس ويشرف على مصر السفلى، والثاني في طيبة ويشرف على مصر العليا. وكان الملك يختار وزيره عادة من بين أفراد الاسرة المالكة. أما مهام الوزير فكانت الاشراف على جميع أمور الدولة والاجهزة الإدارية كالجيش وبيت المال ومخازن الغلال وجباية الضرائـب واعمال الري والقضـاء وإدارة السجلات والوثـائـق والمحفوظات والامن وشؤون العاصمة وغير ذلك من الأمور. وكـانـت القـابـه «محافـظ العاصمة، والقاضي الأعلى، ورئيس اسرار الملك، وقائده، ومستشار الشمال والجنوب، ومدير بيوت الذهب والفضة، ومدير أعمال الملك كلها [١٢]». وكان الوزير يرئس ما يسمى «بالغرف الست الكبرى» لاستئناف القضايا الحقوقية و«غرفاً» أخرى على رأس مختلف فروع الاقتصاد [١٣]. كما كان يتبعه أيضاً بعض الدوائر التي تجمع له المعلومات كمكتب إحصاء السكان ومكتب تسجيل الأراضي والممتلكات. وفي زمـن الدولـة الحديثـة، أصبـح الوزير يرأس مجلساً تدعوه الوثائق باسم «المجلس الكبير» يتألف من كبار الشخصيات يساعد الوزير في التنفيذ بالإضافة إلى صفته الاستشارية [١٤].

وكان القصر الملكي يضم إلى جانب الوزراء والاشراف عدداً كبيراً من الموظفين الذين يشرفون على المخازن والورشات الملحقة بالقصر. وكان يقوم باعمال الكتـابـة مـوظفـون يدعون باسم «الكتاب». وفي متحف اللوفر بباريس تمثال رائـع لكـاتـب مصري جـالس

(١٢) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.
(١٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٤٦.
(١٤) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص٥٨.

مطوي الساقين ، وجسمه يكاد يكون عارياً ويمسك بيده قلماً ـ وخلف أذنه قلم آخر احتياطي ـ يدون ما يقوم به ويسجل ما يؤدي من عمل، وما يسلم من البضائع وأثمانها وأكلافها ، ومكسبها وخسارتها . و يحصي السكان وكل ما يملكه الفلاحون من أراض ومواش وأشجار مثمرة وكروم وما يستحق عليها من ضرائب عينية ، ويكتب العقود والوصايا ،وينظم الجداول بكل هذه الأمور . وهو رجل حريص معنيّ بعمله مجدّ فيه ، منفذاً لأوامر رئيسه ، أوتي قسطاً من الذكاء ، ولكنه ذكاء يقف عند الحد الذي يمنعه أن يكون خطراً [15] . وقد استطاع بعض الكتاب بفضل مهارتهم وذكائهم أن ينالوا مراتب رفيعة ويصبحوا من ذوي النفوذ والحظوة عند الفرعون [16] . وكان هناك أيضاً المحاسبون والمراقبون والحراس وغيرهم من الموظفين.

وكانت المدرسة الفرعونية تربي الموظفين ورؤساء الجيش على مبدأ « انشر الخوف من حولك ليهابك الناس ويخشوك فرقاً ». وكان حكام الأقاليم والموظفون الآخرون يحاكمون اولئك الذين يخرقون إرادة الفرعون، ويعاقبون المذنبين بالجلد أو الزج بهم في غياهب السجون ، فتتقطع آذانهم وتجدع أنوفهم [17] . وتذكر النصوص أن أحد الموظفين كان يتباهى وهو يتحدث عن قسوته قائلاً : « كنت انشر الارهاب بين الناس، وأقمع السجين، وأرغم المتمرد على الاعتراف بأخطائه » [18] .

وإذا كان للدولة بعض الجوانب الإيجابية في تاريخ مصر القديمة ، فإنها لعبت في الوقت نفسه دور اعاقة نمو القوى المنتجة بسبب قسوة الاستغلال وشدة الارهاق، فازدادت عزلتها عن الجماهير العاملة ، وأظهر الشغيلة عداءهم لسلطة الفراعنة والكهنة ، وأصبح تجنيد المحاربين من بين المصريين أمراً صعباً ، مما يفسر انتقال النظام الفرعوني إلى تشكيل الجيش من المرتزقة . ولم يتورع حكام الأقاليم والبيروقراطية العليا حتى عن الخيانة الوطنية والانضمام إلى الغزاة الاجانب كما حدث، مثلاً ، مع الهيكسوس.

وكان يطلق على إدارات الدولة المتعددة اسم « بيوت الملك ». وكان الموظفون يتقاضون اجورهم عيناً من المحصولات الخاصة بالاملاك الملكية أو من الضرائب التي تجبى عيناً [19] .

أما في الأقاليم، فكان ملوك الدولة القديمة يعينون عليها حكاماً من بين أفراد الأسرة

(١٥) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج٢ ص٩٠ ـ ٩١ . انظر كوروفكين ص٣٨ .

(١٦) حاطوم ، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ص١٠٠ .

(١٧) كوروفكين: تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية ص٤٠ .

(١٨) المرجع ذاته والصفحة ذاتها.

(١٩) فرح ، نعيم، (الدكتور): تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ ص٥٩ .

المالكة أو من كبار الموظفين والقادة العسكريين، وكان هؤلاء الحكام يمثلون الملك في مقاطعاتهم ويعتبرون أعلى سلطة إدارية وعسكرية وقضائية ودينية في مناطق حكمهم. وقد ظل نفوذ الاقاليم محدوداً طالما كانت سلطة الفراعنة قوية. ولكن عندما تولى الملك فراعنة ضعفاء في أواخر عهد الدولة القديمة، ازداد نفوذ حكام المقاطعات وتمتعوا بسلطة واسعة واستقلال داخلي محلي، وأصبحوا يورثون وظائفهم لأبنائهم من بعدهم، ويعلنون أحياناً انفصالهم عن السلطة المركزية في العاصمة [٢٠]. أما في عهد الدولة الوسطى، وخاصة في زمن الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، فقد استطاع الفراعنة فرض سيطرتهم التامة على حكام الاقاليم، إذ عينوا في تلك المناصب الموالين لهم وعزلوا عنها المعارضين لحكمهم [٢١]. كذلك كان في عهد الدولة الحديثة. ولكن في أواخر حكم الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين توالى على العرش ملوك ضعفاء، مما أتاح الفرصة لبعض حكام الأقاليم لإعلان استقلالهم وانفصالهم عن السلطة المركزية، كما أعلن البعض منهم أنفسهم، في عهود الضعف والاحتلال، ملوكاً وأسسوا أسرات ملكية حاكمة [٢٢].

وكان في المدن والقرى موظفون يدعون « اوصياء المدن والقرى »، يتبعون حاكم المقاطعة وينفذون أوامره ويشرفون على تصريف شؤون مجتمعات وحداتهم الادارية ويساعدهم في أعمالهم اعيان المدن والقرى « سارو » وهم ينحدرون من رؤساء القبائل القديمة ويؤلفون مجالس تدعى « زازات » تشمل صلاحياتها البحث في القضايا الزراعية والإدارية والعدلية وتطبيق الأنظمة [٢٣].

وفي متحف القاهرة تمثال « لشيخ البلد » ـ مختار القرية ـ وهو رجل الإدارة في القرية. ملاّك يشرف على الفعلة، بيده عصا السلطة، وينم وسط جسمه على ما يتمتع به الملاك من سعة في الرزق وقلة في الكدح [٢٤].

وكانت الإدارات الرئيسية للحكومة المصرية ثلاث هي:

١ ـ الخزينة: (مخازن ـ مستودعات وأنبار) يسجل فيها مايرد من ضرائب عينية تنهبها الدولة من السكان.

(٢٠) المصدر ذاته ص ٦٠.

(٢١) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

(٢٢) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

(٢٣) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.

(٢٤) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٣٢.

٢ ـ **الاشغال العامة:** تهتم خاصة بأعمال الري. وقد مكن الحكم المركز من إتقان منظومة الري التي كانت أساس الزراعة.

٣ ـ **الجيش (غرفة السلاح):** الذي كان يسلب الشعوب الاجنبية (٢٥).

فإلى جانب الغنائم الحربية، كانت المصادر الأساسية لدخل الحكومة هي الضرائب من السكان التي كان يقوم بجبايتها جهاز متشعب من الموظفين (٢٦).

وكانت الضرائب عينية تفرض على المواشي والمنتجات الزراعية والحيوانية والصناعية والمعدنية. وكان مكتب الاحصاء التابع للوزير يسجل جميع الأراضي والأشخاص والمواشي ويعاد الاحصاء مرة كل سنة أو سنتين لحصر أملاك الدولة والاملاك الخاصة وفرض الضرائب عليها (٢٧). وإذا علمنا ان أملاك الكهنة كانت معفاة من الضرائب، وأن جزءاً كبيراً من موارد الخزينة كان يذهب لبناء المقابر الملكية والمعابد وتزيين القصور واستيراد السلع الكمالية وغير ذلك من النفقات غير الانتاجية، يتبين لنا بوضوح أن عبء الضرائب كان ملقى بشكل رئيس على جماهير الشغيلة وخاصة الفلاحين.

الجيش والاسطول: كان الهدف الأساسي من تشكيل الجيش المحافظة على مصالح طبقة ملاك الرقيق وقمع الاضطرابات والثورات الداخلية وحماية حدود البلاد من الغارات الاجنبية والقيام بالفتوحات والتوسع من أجل الحصول على العبيد والماشية والمعادن المفيدة والثمينة وسلب ثروات الشعوب ومنها فرض الجزية على البلدان المقهورة.

لم يكن في مصر جيش دائم منظم في عهد الدولة القديمة، وإنما كان الجيش مليشيا تتألف من جنود الأقاليم، يقدمهم الحكام بناء على طلب الملك، ومن المرتزقة النوبيين والليبيين، لترسل للقتال أو لمرافقة البعثات التجارية أو الاستشارية أو الانشائية (٢٨). وعلى الرغم مما أعلنه أحد ضباطها بزهو في نقش له « أن رجاله لم يسلبوا المصريين، ولم يقتحموا الأبواب لسرقة الفطائر وغيرها »، فالمعتقد أن هذه الكتائب كان ينقصها النظام والانضباط وغير ذلك من صفات الجيوش الوطنية الدائمة (٢٩).

---

(٢٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٤٦.
(٢٦) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي ج ١ ص ٩٠.
(٢٧) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص٥٩.
(٢٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٤٦.
(٢٩) نفس المصدر والصفحة.

واعتباراً من عهد الدولة الوسطى، أخذ الفراعنة يؤسسون الجيوش الدائمة ويهتمون بتنظيمها وتجهيزها، بعد أن تكدست لديهم الخبرة بالأمور العسكرية من خلال حروبهم الطويلة مع الهيكسوس.

وقد أتاح نمو السكان وتطور الحرفة لفراعنة الدولة الحديثة زيادة عدد الجيش وتجهيزه تجهيزاً جيداً (٣٠) وأصبح الجيش دعامة السلطة الملكية (٣١). فتنوعت فرقه وتحسنت أسلحته، واقيمت المصانع لصنع السلاح واللوازم. وكان للضباط وحتى الجنود نصيب من الغنائم. كما كان الفواعنة يكافئون العسكريين الذين يبدون شجاعة وتضحية في المعارك. وازداد عدد الجنود المأجورين في الجيش المصري حتى استطاع بعضهم (الليبيون) اغتصاب السلطة وتأسيس أسرة ملكية حاكمة منهم (٣٢).

إن الانتقال إلى نظام تشكيل الجيش من المرتزقة، يؤكد أن تجنيد المحاربين من بين المصريين أصبح أمراً صعباً، وأن الشغيلة أظهروا عداءهم لسلطة الفراعنة والكهنة (٣٣) وكان المرتزقة،حتى في مصر ذاتها، قساة مع الفلاحين والعبيد. وفي حالة الحرب مع دولة أخرى، لم يكن الفرعون بقادر على أن يعتمد عليهم،ذلك لإنهم يستطيعون دائماً الانتقال إلى الجانب الذي يدفع لهم أفضل (٣٤). وقد أدى كل ذلك إلى استياء العناصر المصرية وإلى ضعف الروح القومية في الجيش ونقمة الشعب، مما سهل استيلاء الآشوريين ثم الفرس فالمكدونيين على مصر.

وكان الجيش في عهد الدولة القديمة يتألف من المشاة والرماة، وسلاحه الرماح والأقواس والمدى. وكانت فرق المشاة، المؤلفة من الفلاحين المجندين بالقوة، تشكل القوة الرئيسية في الجيش المصري (٣٥)

وفي عهد الدولة الحديثة، تنوعت فرق الجيش كالمركبات الحربية ذات العجلتين التي تجرها الخيول، وفرق المشاة (الثقال والخفاف)، وفرق اختصاصية بمهاجمة المدن مسلحة

(٣٠) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.
(٣١) كوروفكين: المصدر السابق ص٥٧.
(٣٢) انظر صفحة ١٣١- ١٣٢.
(٣٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٦٦.
(٣٤) كوروفكين: المصدر السابق ص٥٧.
(٣٥) نفس المصدر والصفحة.

بالتروس العريضة والآلات الضخمة، وأخرى تختص بحفر الخنادق والأبراج [٣٦]. كما حسّنت جمع الاسلحة فاصبحت تضاهي ما كان عند أعدائهم. فيشاهد في اللوحات الحجرية المشاة الثقال حاملين الرماح ذات الأسنة البرونزية والتروس المصفحة والفؤوس والخناجر، ويرى فيها المشاة الخفاف حاملين الأقواس والسهام ذات الأسنة البرونزية [٣٧]. وظهر استخدام السيف.

واهتم الفراعنة في مختلف عهود مصر القديمة وخاصة في الدولة الحديثة، بإقامة التحصينات على الحدود الجنوبية والغربية والشرقية، كما نظموا حراسة تلك الحصون تنظيماً دقيقاً. وما تزال بقايا تلك الحصون قائمة إلى وقتنا الحاضر.

وكان الفرعون القائد الأعلى للقوات المسلحة، يقود الجيش بنفسه في المعارك أحياناً، أو ينيب عنه ولي العهد أو ضابطاً عسكرياً مشهوراً كان يحمل لقب« قائد الجند العظيم ».وقد اشتهر تحوتمس الثالث بأنه كان قائداً شجاعاً ورجلاً ذا قوة هرقلية [٣٨] وتذكر النصوص أنه قاد (١٧) حملة حربية خاض بها معارك مظفرة منها معركة « مجدو ».وكان اول من أدار معركة حربية منظمة وقسم الجيش إلى قلب وجناحين، واول من عرف الحرب الخاطفة.

إن وجود النيل في مصر أدى إلى اختراع الأطواف ثم المراكب فالسفن منذ أن شرع المصريون في الاستقرار على ضفاف النهر العظيم كما تدل على ذلك الرسوم التي خلفوها على اللوحات والاواني الفخارية. وقد ساعد على تطوير صناعة السفن وتكوين الاساطيل البحرية الموقع الجغرافي لمصر على البحرين المتوسط والاحمر.

وكان من بين أسباب ارسال الحملات الحربية إلى فينيقية هو تأمين أخشاب الأرز والصنوبر والسنديان الجيدة لإنشاء الاسطول المصري. وقد استخدم فراعنة الدولة الحديثة الاسطول في معاركهم البحرية والنهرية، وكذلك لنقل الامدادات لدعم الجيوش البرية. وقاتل جنود الاساطيل المصرية المهاجمين من شعوب البحر « البلاج » على السواحل المصرية وانتصروا عليهم.

وفي العهد الصاوي، تطور الاسطول (الحربي والتجاري) تطوراً كبيراً ونشطت حركة

---

(٣٦) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المرجع السابق.

(٣٧) المصدر ذاته.

(٣٨) كوروفكين: المصدر السابق ص٥٧.

الملاحة. واستخدم الاسطول المصري أيضاً في الحروب مع الفرس وظل يلعب دوراً فعالاً في الحياة السياسية والاقتصادية حتى الفتح المكيدوني لمصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد [٣٩].

استخدم ملوك مصر الاسطول أيضاً في تنشيط التجارة البحرية. ومن أجل ذلك أقاموا علاقات تجارية مع فينيقية وكريت، وشقوا قناة مائية تصل النيل بالبحر الاحمر، وشجعوا التجار الأجانب وخاصة اليونانيين على الإقامة في مصر وانشاء مراكز تجارية (نوكراتسي فلاً)، وارسلوا بعثات استكشافية دارت حول افريقيا وعادت من مضيق جبل طارق (ملقارت) بعد ثلاث سنوات محملة بالبضائع الغريبة [٤٠].

وبواسطة الجيش، انشأ الفراعنة امبراطورية واسعة تمتد من النيل إلى الفرات. وبواسطته أيضاً، سلب الفراعنة البلدان المغلوبة وفرضوا الجزية على من بقي حياً من رعاياها [٤١]. وكانت قوافل البغال والسفن تنقل إلى مصر حمولات ثقيلة من الذهب والبرونز والعاج والآبنوس. وكان المحاربون يقتادون الوف الاسرى، وقطعان الماشية والخيول [٤٢].

وكانت الثروات المنهوبة تعود إلى ملاك العبيد المصريين والكهنة منهم بخاصة. وزادت الفتوحات عدد العبيد في مصر بصورة ملحوظة. وتذكر النصوص أن الكهنة كانوا يملكون (١٠٧) آلاف عبد منهم (٨٦,٥٠٠) عبد لكهنة آمون يعملون في اراضيه [٤٣] فما بالك بعددهم في استثمارات الملك ونبلاء البلاط والارستقراطية المدنية والعسكرية؟

وعلى حين كان الفراعنة يضطهدون بقسوة الفلاحين والعبيد، فإنهم كانوا يكافئون رؤساء الجيش وكبار الموظفين (البيروقراطية العليا) مقدمين إليهم الأراضي والعبيد والماشية. ويقص علينا أحد رؤساء الجيش أن الفرعون كان يمنحه عقب كل حملة من حملاته أراضيَ وذهباً وعبيداً [٤٤] فأصبح ملاكاً غنياً للرقيق [٤٥].

وإذا كانت حروب الفتح قد أغنت مُلاّك العبيد والبيروقراطية العليا ورؤساء الجيش،

---

(٣٩) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص٦٢ - ٦٣.

(٤٠) المصدر ذاته ص٦٣.

(٤١) كوروفكين: المصدر السابق ص٥٨.

(٤٢) نفس المصدر والصفحة.

(٤٣) انظر ص ٨٨.

(٤٤) كوروفكين: المصدر السابق ص ٤٠.

(٤٥) نفس المصدر والصفحة.

إلا أنها على العكس من ذلك كانت خراباً على الفلاحين. فالفلاحون المجنـدون بالقوة في الجيش كانوا يسقطون قتلى أثناء المعارك مع العدو، أو يموتون من الحمى في نوبيا المرزغية أو يهلكون من شدة الحرارة في الصحراء [٤٦]. ولم يكن هناك من بديل لزراعة أراضي الفلاحين المرسلين إلى الحرب، مما أدى إلى تدهور الاقتصاد الفلاحي وإذا قدر لمحارب أن يعود سالماً إلى قريته مسقط رأسه، فإنه كان يصعق عندما يعلم أن أمواله قد نهبت، وأن زوجه وأولاده قد بيعوا كعبيد [٤٧].

لقد تنامى حقد الفلاحين والحرفيين والعبيد على الفرعون وملاك الرقيق، وازداد تذمرهم مما حملهم على الثورة كما سيأتي.

(٤٦) نفس المصدر ص٥٨.

(٤٧) المصدر ذاته ص٥٩ ـ ٦٠.

الفصل التاسع

البنية الاقتصادية

تعترض الباحث في دراسة البنية الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة بعض الصعوبات الناجمة عن ضآلة أو نقص المعلومات والوثائق العملية التي تبحث في قضاياأساسية معينة كالملكية والعلاقات الاجتماعية بحثاً احصائياً مفصلاً. على أن هذا التحفظ لا يعني ان معلوماتنا عن البنية الاقتصادية والاجتماعية لمصر القديمة لا تفي لرسم صورة واضحة المعالم، بل يعني أنها ليست كاملة.

كان الاقتصاد المصري يعتمد بشكل أساسي على الزراعة والري. واتسم بأهمية اقتصادية كبيرة صيد السمك والصيد البري. وكانت تربية المواشي تتطور وخاصة في دلتا النيل لوجود المزيد من المراعي الغنية. وقد ساعد تحسن ادوات العمل وخاصة التوسع باستعمال البرونز، وزيادة الانتاج الزراعي ونمو السكان والفتوحات على تطور الحرفة والتجارة. وكان الأساس للمجتمع العبودي المصري يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، واستثمار الطبقة السائدة لمنتجي الخيرات المادية المباشرين، الفلاحين الفقراء والحرفيين والعبيد. ولهذا كان النظام الاقتصادي الاجتماعي العبودي المصري نظاماً طبقياً تناحرياً استثمارياً عاصفاً بالصراعات الطبقية وبثورات وانتفاضات المحرومين والمستعبدين على مضطهديهم ملاك الرقيق.

الزراعة: كانت الزراعة عماد الاقتصاد في مصر القديمة. وقد أطلق المصريون على بلادهم اسم كيمي «الأرض السوداء» دلالة على خصوبة تربتها. وكان يعمل في الزراعة أغلبية السكان وهم من الفلاحين الاحرار والعبيد. وكانت منتجاتها تشكل المصدر الأساسي

لتغذية السكان وإطعام الجيوش وتموين الخزينة الملكية وتأمين الخامات لعدد من الصناعات الحرفية. ولاغرو بعد هذا كله إذا كانت الزراعة هي المورد الخصب الذي أكسب مصر حضارتها اليافعة.

اكتشفت النساء الزراعة في وادي النيل منذ عصر ما قبل الأسرات. يؤيد ذلك ما تقصه اسطورة ايزيس من أنها عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان نمواً بـرياً في أرض مصر وكشفت عنهما لأوزير [1]. واسهمت المرأة المصرية إلى جانب الرجل في مختلف الأعمال الزراعية.

ومنذ تفسخ نظام العشيرة في عصر ما قبل الأسرات، اخذت الملكية الخاصة للأرض بالإتساع على حساب أراضي المشاعيات. وكانت جميع الأراضي الزراعية في مصر العبودية ملكاً للفرعون من الناحية النظرية، يمنح منها ما يشاء إلى أقربائه ومقربيه وإلى المعابد ورجال الدولة وغيرهم [2]. ويمكن عملياً تمييز عدة أنواع من الملكية: فمنها ملكية كاملة، ومنهاملكية مؤقتة للاستغلال مدة من الزمن أو مدى الحياة، ومنها ملكية مؤجرة للاستغلال بالحصة [3]. وأصبحت ملكية الأرض منذ عهد الدولة القديمة القاعدة المادية لسلطة الفراعنة والقوة الأساسية لنفوذ الارستقراطية والكهنة.

كـانـت المشـاعـة الريفيـة الخليـة الاقتصـاديـة والاجتماعيـة الأسـاسيـة في مصر الامبراطورية القديمة، وكانت تتعرض للاستثمار الوحشي من جانب مالكـي العبيـد [4]. وفيما بعد تطورت بصورة واسعة استثمارات المعابد، وأصبح الكهنة من كبار الملاكين العقاريين في مصر. فقد قدر ماامتلكته المعابد من أرض مصر بـ(٧٥٠,٠٠٠) فدان أي سبع أرض مصر الصالحة للزراعة [5]. وفي عهد الدولة الحديثة، نمت الملكية الخاصة عن طريق شراء الأراضي من من الفلاحين المخربين أو بطريق الحيازة، مما أدى إلى انحلال سريع للمشاعيات الريفية [6].

لقد كان العبيد يشكلون القوة العاملة الرئيسة في استثمارات الملك والمعابد وفي ممتلكات

---

(١) ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٠ ج ٢ ص ١٦٠.

(٢) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص٦٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة. ود، سليم عادل عبد الحق، المصدر السابق.

(٤) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي ج ١ ص ٩٠.

(٥) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٨٢.

(٦) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص١٦٨.

كبار مالكي الأراضي والموظفين في عهد الدولتين الوسطى والحديثة، اللتين كان نظامهما الاقتصادي يرتكز على العبودية [٧]. فقد ورد في النصوص أن المعابد كانت تملك (١٠٧,٠٠٠) عبدٍ منهم (٨٦,٥٠٠) عبدٍ لمعبد آمون وحده [٨]. فما بالك بعددهم في استثمارات الملك ونبلاء البلاط والارستقراطية المدنية والعسكرية؟

إن الأساس الذي قامت عليه علاقات الانتاج في المجتمع العبودي هو ملكية السيد لوسائل الانتاج وللمنتجين انفسهم أي العبيد، فقد كان العبد أداة مملوكة لسيده الذي لا يقتصر ملكه على استغلاله وإجباره على العمل فقط، وإنما كان يمتد إلى بيعه وشرائه، بل الاعتداء عليه وقتله [٩].

وبفضل العمل العبودي، تحققت في مصر أعمال هائلة كبناء الاهرامات والمعابد والسدود والاقنية، ناهيك عن استخدامهم في الحقول الزراعية والمناجم ونقل الاحمال وخدماً في المعابد وغير ذلك [١٠].

أما الجمهور الأساسي من السكان المصريين فكان يتألف من الفلاحين الاحرار (ميرتو، في بعض النصوص المصرية القديمة). من اغتنى منهم كالنيزس غدا في عداد الاغنياء والاسياد الارستقراطيين. ومن اصبح فقيراً معدما بائساً كانت حياتهم لا تختلف في شيء عن حياة العبيد، بل إن بعضاً منها تحول إلى رقيق بنتيجة خرابه وعدم تمكنه من تسديد ديونه إلى الاغنياء.

كان الفلاحون يحرثون الأرض، ويقدمون المحاصيل إلى فرعون وولاته وكهنته، ثم لا يلبث أن يسوقهم الجنود إلى انشاء الطرق وبناء الاهرامات و المعابد وتطهير قنوات الري وحراثة الأراضي الملكية والعمل في محاجر الدولة ومناجمها، حيث يشتغلون بالسخرة ويموت منهم المئات في كل يوم من الجوع والتعب والتعذيب والارهاق. وقد وصف أحد الكتبة المصريين بؤس معاصريه الفلاحين وما يعانونه من متاعب وما يتعرضون له من استغلال وظلم وتعذيب قائلاً: « هلا استعدت في خيالك صورة الزارع حين يجبى منه عشر حبّه؟ لقد

(٧) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي ج ١ ص ٩٠.

(٨) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج٢ ص١٨٢ وجماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص ١٦٧.

(٩) غنيم، أحمد حمد: تطور الملكية الفردية ص ٤٠.

(١٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٦٣.

أتلفت الديدان نصف القمح، وأكلت أفراس البحر ما بقي له منه: وهاجمته في الحقول جماعات كبيرة من الجرذان، ونزلت به الصراصير، والماشية النهمة، والطيور الصغيرة تختلس منه الشيء الكثير، وإذا غفل الفلاح لحظة عما يبقى له في الأرض، عدا عليه اللصوص. يضاف إلى هذا أن السيور التي تربط الحديد والمعزقة قد بليت، وأن الثورين قدماتا من جرّ المحراث. وفي هذه اللحظة يخرج الجابي من القارب عند المرسى ليطلب العشور. ثم يأتي حرّاس أبواب مخازن الملك بعصيهم، والزنوج بجريد النخل، يصيحون: تعالوا الآن، تعالوا! فإذا لم يأتهم أحد طرحوا الزارع أرضاً، وربطوه، وجروه إلى القناة وألقوه فيها مبتدئين برأسه، وزوجته مربوطة معه، ثم يُسلك أطفاله بالسلاسل إلخ....(١١).

وكان قدماء المصريين قد وضعوا أسس الزراعة منذ عصر ما قبل الأسرات، إذ اقتلعوا أشجار الغابات التي انتشرت على ضفاف النيل، وجففوا المستنقعات، وانشأوا أقنية الري وأقاموا السدود، ومهدوا الأرض لزراعة الحبوب والاشجار المثمرة.

اعتمدت الزراعة على الري، وكان كلما استطاع المصريون من استغلال فيضان النيل وتطوير أعمال الري، في بلد لا يلعب فيه المطر أي دور في حياة سكانها، كلما ازدهر المحصول وكثر. وكان النيل يحمل الخير في كل عام ويفيض على الأرض العطشى فيرويها ويغذيها بطبقة كثيفة من الطمي تزيد الأرض غنى والمواسم وفرة وجودة. وقد مكن الحكم المركز من اتقان وتوسيع منظومة الري التي كانت أساس الزراعة، فحفرت الأقنية وشقت الترع لجرّ المياه إلى الأراضي التي لا تصلها مياه الفيضان وأقيمت السدود وجففت المستنقعات. وكان من أعظم مشاريع الري التي أنجزها الفراعنة هو سد الفيوم.

يقع منخفض الفيوم على بعد خمسين كيلومتراً جنوب غربي ممفيس، وينخفض حوالي أربعين متراً عن مستوى سطح البحر. وهو أجمل واحة بالصحراء الليبية (الغربية) وذات قيمة اقتصادية كبرى. وقبل حكم الأسر، كان فيضان النيل يغمر إقليم الفيوم محولاً إياه إلى بحيرة عظيمة بحيرة موريس، تكتنفها المستنقعات.

بدأت إقامة السد في عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة بهدف تخزين المياه والإفادة منها في وقت التحاريق، وتجفيف المستنقعات واستصلاح أراضي لحقية على جانب عظيم من الخصب. ولكن الفضل الاعظم في انجازه يرجع إلى الفرعون امنمحت الثالث

---

(١١) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج٢ ص٨٣ - ٨٤. انظر ايضاً أدولف إرمان وهرمان رانكه: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ص٥١٣ - ٥١٤.

(١٨٤٩-١٨٠١ ق.م) الذي أطال السد العظيم فأبلغه إلى نحو سبعة وعشرين ميلاً، فاكتسب بذلك أراضي زراعية تبلغ مساحتها (٢٥٠٠) كيلومتر مربع أو سبعة وعشرين ألف فدان. وقد وصف هيرودوت واسترابون هذا المشروع الضخم، كما شاهد استرابون محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة باقليم البحيرة المذكورة [١٢].

وغني عن البيان أن الأراضي التي نتجت عن إقامة الجسور في الفيوم كانت ملكاً لفرعون مصر [١٣]..وغني عن البيان أيضاً أن العبيد والفلاحين الفقراء كانوا قد استخدموا في مختلف أعمال هذا المشروع العملاق. ومن أجل ذلك صار إقليم الفيوم أعظم الاقاليم عمرانياً وسياسياً [١٤].

وخلال فترة الانتقال من الدولة الوسطى إلى الدولة الحديثة، شرع الزراع المصريون باستثمار الحقول المرتفعة التي لا يصلها فيضان النيل. لذا أجبروا على سقايتهابواسطة آلات رافعة خاصة كان أبسطها «الشادوف» [١٥]. ومن الجائز أن زراعة الحقول المرتفعة أدت إلى ظهور محراث متقدم ذي مقبضين خشبيين وذلك تسهيلاً لعمل الفلاح [١٦].

استخدم قدماء المصريين أدوات زراعية صنعوها من الحجارة والخشب، وفيما بعد من النحاس فالبرونز وغير ذلك. وكانت المعزقة الاداة الأساسية في حراثة الأرض، كما كان المنجل الخشبي ذو الأسنان أو الشظايا الصوانية أداة الحصاد .وقد أدى تطور القوى المنتجة، وبالدرجة الأولى أدوات العمل، إلى زيادة الانتاج. فقد احدث استخدام المحراث ذي السكة المعدنية الذي تجره الثيران ثورة في الزراعة. فالمحراث في أصله معزقة مطورة، أضيف إليها مقبضان خشبيان ثم زيد من طول المقبضين وأضيف إليه عريش واستخدمت الثيران لجره بدل القوى البشرية، ثم استعملت البغال أحياناً في هذا العمل منذ عصر الدولة الحديثة [١٧].

وكانت عملية الحرث تتطلب وجود عاملين زراعيين، يضغط أحدهما على مقبضي

(١٢) برستد: جيمس هنري: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال ص ١٢٣ - ١٢٤.

(١٣) المصدر ذاته ص ١٢٤.

(١٤) المصدر ذاته ص ١٢٥.

(١٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥١.

(١٦) نفس المصدر والصفحة.

(١٧) إرمان - أدولف ورانكه، هرمان: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة. ترجمة د.عبد المنعم ابو بكر ومحرم كمال ص ٤٩٧.

المحراث ويقود الآخر الثورين. وحين يتم اعداد الحقل كانت تباشر عملية البذر. وكان العامل الذي يقوم بالبذر يحمل سلة تحوي الحبوب على كتفه أو بين يديه. ثم تنثر البذور فوق الأرض، ثم يطلقون خرافاً على الأرض المبذورة فتدفن البذور بأقدامها في باطن التربة (١٨). ثم استبدلت الخراف بالخنازير في الدولة الحديثة (١٩).

وكان الحصاد يتم بواسطة مناجل خشبية ذات اسنان صوانية، ويربط المحصول في حزم توضع على ظهور الحمير لتنقلها إلى الجرن حيث تدرس. ويتم الدرس بواسطة الحيوانات كالثيران والحمير ثم يجمع القش في كومة عالية ويذرى بواسطة المذراة للفصل بين القش والحبوب ثم ينقى ويغربل بالغربال ثم يحمل بأكياس لخزنه في صوامع الحبوب (٢٠).

زرع المصريون القمح والشعير والشوفان والكتان، كما اهتموا بزراعة البساتين بالاشجار المثمرة والخضار وأبدعوا في تربية الكروم وانتجوا أحسن أنواع العنب (٢١).

تربية المواشي: اهتم قدماء المصريين بتربية الماشية منذ أن دجنوها في عصور ما قبل التاريخ للاستفادة من لحمها ولبنها وخاماتها وكذلك لاستخدامها في الاعمال الزراعية. وقد وصلت إلينا رسوم أثرية تمثل ثيراناً وأبقارا وأغناماً وحميراً وخنازير وخيولاً ووعولاً وغزلاناً وطيوراً مما يفسر الأهمية الكبيرة لهذا القطاع في حياة السكان واقتصاد البلد.

وكانوا يبعثون بمواشيهم لترعى في مستنقعات الدلتا بعض الوقت حيث الحشائش البرية الغزيرة الصالحة لطعام الحيوان، إذ بينما كانت أراضي وادي النيل تستغل كلها للزراعة كانت الدلتا تحوي مساحات واسعة من المراعي تنمو فيها الحشائش البرية (٢٢).

وكانت الثيران والأبقار أهم الحيوانات الأهلية عند القدماء المصريين؛ وذلك بالنظر للدور الذي تلعبه في حياتهم وفي أعمالهم الزراعية. فالثور الذي يجر المحراث بقوته الجسدية، (رمز القوة) كان هو التعبير الذي يوصف به الملك منذ أول العصور، كما أن الملك كان يصور عادة منذ العصر الباكر على شكل ثور يهدم بقرنيه جدران المدينة أو يطأ

---

(١٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم ج ٤ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ وإرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٤٩٧.

(١٩) المصدر ذاته ص ٣٣٠. وإرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٤٩٧.

(٢٠) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٤٩٨ - ٥٠٣.

(٢١) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص ١٠٣.

(٢٢) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٠٦.

عدوه بحوافره. والبقرة (رمز الإلهة ختحور التي تمثل الأمومة المقدسة)[٢٣].

وإلى جانب الثيران والأبقار، اهتم قدماء المصريين بتربية الأغنام والماعز والحمير والخنازير[٢٤]. وأما الجياد والبغال فلم تعرفها مصر قبل غزو الهيكسوس[٢٥]. وكانوا يحتفظون بأنواع من الحيوانات البرية المجترة المقتنصة ثم يربونها مع ماشيتهم. فقد تناهت إلينا صور أثرية لظباء وتياتل ووعول وغزلان[٢٦]. وكانوا يقتنون كميات كبيرة من الطيور (كالاوز والبط) التي يصطادونها بشباكهم الكبيرة من المستنقعات[٢٧]. وكانت مستنقعات مصر تؤوي غير طيور الماء المحلية، كميات لا حصر لها من الطيور الوافدة من أوروبا[٢٨]. وكانوا يسمنون الطيور التي يصطادونها باطعامها الحبوب وخيوط العجين بعد وضعه بالماء[٢٩]. أما الدجاج فلم يكن معروفاً آنذاك على ما يبدو.

الحرفة: يطلق اسم حرفة على صناعة الاشياء بالجهد اليدوي، واسم حرفيين على الذين يقومون بصناعتها. وبمهارة الصناع المصريين، تم ابداع الآيات العجاب من الذهب والعاج والقاشاني والخشب، كما تشهد على ذلك مخلفاتهم الأثرية والنقوش والرسوم على جدران المقابر والمعابد والاواني.

وقد أدى تطور الزراعة وتربية المواشي إلى انفصال الحرفة. وظهر حرفيون ممتهنون: نحاسون، حاكة، نجارون، صانعو أثاث، صاغة، فخارون، حجارون إلخ... وشهدت الصنائع والحرف تطوراً كبيراً في مصر الفرعونية، وبلغت أوج تقدمها في عهد الدولة الحديثة، بسبب نمو القوى المنتجة، وخاصة التوسع في استخدام الادوات البرونزية، وزيادة الانتاج الزراعي ونمو السكان وزيادة عدد الجيش. كما تطور التكنيك في مجال الصنائع المدنية والحربية. ففي بناء الاهرامات، استخدمت وسائل خاصة لرفع الكتل الحجرية، كما شهدت منظومات الري التي اقيمت على بحيرة موريس أو على نهر النيل، على تطور المعارف التكنيكية، واستعملت اثناء العمليات الحربية مركبات المعارك وآلات هدم الاسوار كما

---

(٢٣) المصدر ذاته ص ٥٠٤.
(٢٤) المصدر ذاته ص ٥٠٩.
(٢٥) المصدر ذاته ص ٥١٢.
(٢٦) المصدر ذاته ص ٥٠٩ - ٥١٠.
(٢٧) المصدر ذاته ص ٥١٠.
(٢٨) نفس المصدر والصفحة.
(٢٩) نفس المصدر والصفحة.

تشير إلى ذلك اللوحات والرسوم الجدارية الأثرية.

وبصورة عامة، كان الابناء منذ طفولتهم يساعدون آباءهم ويتعلمون منهم المهنة. وهكذا كانت المهنة تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الابناء. وكان هناك حرفيون احراراً يعملون لحسابهم الخاص وآخرون يعملون في ورشات الفرعون والكهنة وكبار الموظفين [٣٠].

وفي عهد الدولة القديمة، كان معظم الحرفيين من الذكور ما عدا حياكة النسيج التي كانت من نصيب الاناث،عادة [٣١]. وكان يعمل في الحرفة الاحرار والعبيد. وكقاعدة،كان المواطنون الاحرار هم الذين يزاولون الحرفة، ولكن في الاعمال الاكثر مشقة والأقل كفاءة وعلى الاخص في البناء كان يستخدم العبيد.

هذا ويمكن تصنيف الصناعات الرئيسة لدى قدماء المصريين بالانواع التالية:

١ ـ **الصناعات المعدنية**: كان أول معدن اكتشفه المصريون هو النحاس، عثروا عليه في الالف الرابعة قبل الميلاد في شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية، وقد حفظ لنا منه العدد الوافر من الاواني والاسلحة والآلات من فجر التاريخ حتى الدولة المتوسطة [٣٢].

في اول الامر، صنع المصريون الادوات من النحاس (كالأوعية والاسلحة وادوات الزراعة والحرفة) بواسطة تطريقه، ثم تعلموا فيما بعد صهره وصبه في قوالب خشبية أو فخارية. وفي عهد الدولة الوسطى، اكتشف المصريون صناعة البرونز بخلط النحاس مع القصدير. أما الحديد فلم يستعمل في مصر إلا في عهد الدولة الحديثة [٣٣].

وعثر على الذهب في الصحراء الشرقية ونوبيا، واستعمل في صناعة الحلي وفي تطعيم وتزيين الأثاث والادوات منذ عهد الدولة القديمة، كما صنعت منه حلقات تستعمل كمقياس للتبادل التجاري [٣٤]. وتدل المجموعة المدهشة لمصنوعات الذهب من سائر عصور التاريخ المصري القديم المحفوظة في متحف القاهرة وكذلك في متحف برلين على دقة واحكام صناعتها وأناقة أشكالها [٣٥]

---

(٣٠) كوروفكين: المصدر السابق ص ٥٠ ـ ٥١.

(٣١) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥١٨.

(٣٢) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٣١.

(٣٣) نفس المصدر والصفحة. ود. نعيم فرح: المصدر السابق ص ٧٠.

(٣٤) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٧٠.

(٣٥) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٣٢.

٢ ـ الصناعات الخشبية: استخدم المصريون أشجارهم المحلية كالجميز والنخيل والصفصاف في مختلف صناعاتهم الخشبية. أما السنط. الذي يصلح لصناعة المراكب والأبواب والأثاث، فيبدو أنه أصبح في مصر نفسها نادراً منذ زمن مبكر [٣٦].

ولم يكن الخشب المحلي جيداً وجميلاً، ولذلك كثيراً ما كان يغشّى بطبقة من نوع أجود أو بطلائه بلون أصفر فاتح وتعاريج حمراء حتى يبدو على شكل الخشب الأجنبي الثمين [٣٧]. لهذا لا عجب إن عمد المصريون منذ أقدم أزمنتهم إلى البحث عن الخشب الجيد خارج بلادهم، فاستوردوا اخشاب الارز والصنوبر والسنديان من فينيقية، والمر والآبنوس من بلاد النوبة والبونت [٣٨]. ففي متحف برلين ثلاثة توابيت كبيرة من الخشب من عهد ما بين الدولتين القديمة والمتوسطة، الواحها من خشب الصنوبر، وفي هذا ما يدل على أنها جلبت مصر من الخارج [٣٩].

وكانت أدوات النجارين وصانعي الأثاث (كالمنشار والقدوم والفأس والازميل والمثقب) من النحاس في اول الامر ومن البرونز فالحديد فيما بعد [٤٠]. وبواسطة هذه الادوات، صنع النجارون القوارب والسفن النهرية والبحرية، والاعمدة التي تحمل سقوف المنازل، والابواب والمقاعد والصناديق والمناضد والتوابيت والتماثيل وغير ذلك [٤١].

وقد أبدع النجارون وصانعو الأثاث أعمالاً فائقة أتاحتها لهم صناعة المراكب والمركبات وأجزاء المنازل والأثاث وصناعة الاسلحة والتوابيت وغيرها من أثاث المقابر تشهد لصناعها بالمهارة والاتقان، على الرغم من بساطة الأدوات التي استخدمت في صنعها [٤٢].

٣ ـ صناعة المنسوجات: عرف المصريون صناعة المنسوجات الكتانية منذ العصر النيوليتي. واعتمدت هذه الصناعة منذ نشأتها على الكتان المحلي الذي عرف المصريون زراعته في العصر نفسه [٤٣]. وكانت الثياب الكتانية هي الشائعة في مصر القديمة. ولم يستعمل المصريون

---

(٣٦) المصدر ذاته ص ٥٢٢.

(٣٧) نفس المصدر والصفحة.

(٣٨) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٧١.

(٣٩) إرمان ورانكة: المصدر السابق ص ٥٢٢.

(٤٠) المصدر ذاته ص ٥٢٣، ٥٣١. ود. نعيم فرح: المصدر السابق ص ٧١.

(٤١) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص ٧١.

(٤٢) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤

(٤٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٨.

المنسوجات الصوفية إلا قليلاً. وكانت صناعة الملابس تعتبر بصفة عامة من عمل النساء، فقد سبق للإلهتين إيزيس ونفتيس أن «غزلتا ونسجتا وبيضتا» ملابس أخيهما وزوجهما اوزوريس (٤٤).

وكانت جواري البيت هن اللائي يقمن بهذا العمل في ضياع ارستقراطيي الأزمنة القديمة، غير انه فيما بعد أصبحت تقوم به نساء الفلاحين الأرقاء في الدوائر الكبيرة (٤٥). وفي حالات أخرى نرى الرجال يعملون على الانوال على نحو ما ذكره هيرودوت متعجباً (٤٦). وعلى شواهد مقابر الاسرة العشرين في أبيدوس نجد في بعض الأحيان رجالاً اتخذوا النساجة حرفة لهم (٤٧).

وتناهت إلينا صور من عهد الدولتين الوسطى والحديثة ترينا طريقة غزل الكتان ونسجه والادوات المستخدمة في صناعته. وكانت ملابس الكتان الغليظة والخشنة في كل عهد تصنع غالباً بعناية فائقة. أما ملابس الكتان الرقيقة فقد بلغت درجة عالية من الدقة والاتقان. وما حفظ لنا من هذا الكتان الرقيق يمكن مقارنته في طراوته ونعومته بنسيج الحرير في الوقت الحاضر (٤٨).

٤ ـ الصناعات الحجرية والفخارية: عرف المصريون الصناعتين الحجرية والفخارية منذ عصور ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك مخلفاتهم التي عثر عليها علماء الاثار في حلوان وسرمدة ودير تاسا والبداري والعمرة وجرزة وغيرهامن المحطات الحضارية الأثرية. واستمر قدماء المصريين في صنع بعض ادواتهم وأوانيهم من الحجارة والفخار طوال عهود العصر التاريخي المصري القديم.

ولم تكن الحجارة المجلوبة من المحاجر تستخدم في مباني المقابر والمعابد فحسب، وإنما كانت تستخدم ايضاً في صنع التماثيل والادوات والاواني وغيرها. فقد حفظت لنا مقابر فجر التاريخ صحافاً وأقداحاً من الحجر الجيري ومن المرمر ذات جمال مدهش، وعلى نحو ذلك الاواني العديدة من العصر نفسه المصنوعة من أصلد الاحجار كالغرانيت والبازلت في

(٤٤) إرمان ورانكة: المصدر السابق ص ٥١٨.
(٤٥) نفس المصدر والصفحة.
(٤٦) نفس المصدر والصفحة.
(٤٧) نفس المصدر والصفحة.
(٤٨) المصدر ذاته.

أشكال بالغة حد الكمال [٤٩]. وكان المرمر والشيست والسربنتين والديوريت والحجر الجيري والرملي والغرانيت أهم الاحجار التي استعملها قدماء المصريين.

وقد حظيت صناعة الفخار بوفرة خاصة من المواد الخام ـ الصلصال الجيد. وكانت الاوعية والاواني الفخارية تشكل باليد، ثم اخترع الدولاب حوالي عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد [٥٠]. ويشهد اختراع عجلة الفخاري على أن صناعة الفخار قد أصبحت حرفة منفصلة [٥١]. وأفضى اختراع الدولاب إلى زيادة انتاج الاواني الفخارية. ولم تكن عجلة الفخاري تحرك بالأقدام وإنما كانت تدار باليد اليسرى، في حين كانت اليد اليمنى تشكل الإناء [٥٢]. ومن ثم كانت الاواني والقدور تحرق في افران مبنية من اللبن تمثلها الصور على أشكال مختلفة [٥٣].

وكان الفخاري يصنع من الصلصال الجرار والقدور والاقداح والصحاف والصحون من مختلف الاشكال التي يميز بعضها العصور الرئيسة من التاريخ المصري. وقد حفظ لنا الكثير من هذه الاواني كما حفظ لنا الكثير من صورها [٥٤].

ومن ناحية الزخارف تتميز أيضاً اواني أقدم العصور برسومها المحفورة وصورها الملونة عن اواني الدولتين القديمة والمتوسطة. ومن الاسرة الثامنة عشرة فقط نجد من جديد سروراً قوياً بزخرفة الاواني من الصلصال. وقد كان يؤثر تحليتها بأكاليل الزهر في الوان زاهية، وفي بعض الأحيان كانت تحلى أيضاً بصور بعض الحيوان كالبط والعجول والخيل وما ماثل ذلك [٥٥].

٥ ـ صناعة الخزف (القاشاني) والزجاج: عرف المصريون صناعة الخزف منذ أقدم العصور. وقد عثر على آلاف النماذج الخزفية من مختلف العصور. وكانت طريقة صنعه تتلخص في طحن حجر الكوارتز وعجنه ثم صبه في قوالب فخارية.

وفي مقابر فجر التاريخ، عثر على خرز عقود وعلى تماثيل صغيرة لقرود وطيور

(٤٩) المصدر ذاته ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠.

(٥٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٩.

(٥١) نفس المصدر والصفحة.

(٥٢) ارمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٢٦ ـ ٥٢٧

(٥٣) المصدر ذاته ص ٥٢٧.

(٥٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥٥) المصدر ذاته ص ٥٢٨.

وحيوانات أخرى وعلى أوان أيضاً من القاشاني(٥٦). وتوسع الخزافون في صناعاتهم الخزفية في عهد الدولة الحديثة، فلم يكن هناك شيء تقريباً لم يصنع أيضاً في بعض الاحيان من القاشاني وذلك من أدق وأصغر العقود والتماثيل إلى رقاع اللعب الكبيرة والتماثيل(٥٧).

أما الزجاج فقد عرف في مصر منذ أقدم العصور. وذلك لان التحليل الكيمياوي لخرزة موجودة في متحف برلين عثر عليها في مقبرة من فجر التاريخ أثبت أنها من الزجاج(٥٨). وقد تطورت صناعة الزجاج في العصر التاريخي وبلغت شأواً عالياً في عهد الدولة المتوسطة. ومنذ الدولة الحديثة تطالعنا أدوات كاملة من الزجاج تقدمت صناعتها حتى أصبح المصريون يعرفون كيف يضفون على الزجاج أي لون يريدونه(٥٩).

٦ ـ صناعات متفرقة: فمن قصب البردي كانت تصنع القوارب والصناديق، وينسج الحصير وتفتل الحبال وتهيأ النعال(٦٠). وفوق هذا كله كانت تصنع منه المادة الأساسية لصحف الكتابة عند المصريين(٦١). وظل المصريون يصدرون ورق البردي إلى البلدان الأخرى حتى العصور الوسطى. واستخدمت جلود الحيوانات في صنع الأحذية والألبسة والتروس والجعاب والأحزمة واغطية الكراسي في المنازل(٦٢). ويدل ما حفظ لنا في المقابر من أدوات مصنوعة من الجلد على مدى تقدم هذه الصناعة. وهناك أيضاً الصناعات الغذائية ويأتي في مقدمتها الخبز والجعة.

التجارتان الداخلية والخارجية: كانت التجارة الداخلية في مصر ضعيفة نسبياً، لان الملوك وكبار رجال الدولة والمعابد كانت لهم أراضيهم وورشاتهم الحرفية. أما الموظفون والعساكر فكانت الدولة تدفع لهم رواتب عينية من غذاء ولباس. وهكذا اقتصرت التجارة

---

(٥٦) المصدر ذاته ص ٥٢٨.

(٥٧) نفس المصدر والصفحة.

(٥٨) المصدر ذاته.

(٥٩) المصدر ذاته ص ٥٢٩.

(٦٠) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥١٦.

(٦١) نفس المصدر والصفحة. وكان إعداد البردي للكتابة عليه يجري على النحو التالي: كانت تقطع سيقانه طولاً إلى شرائح رقيقة توضع عليها عرضاً طبقة ثانية من الشرائح، ثم تطرق الأوراق المؤلفة من ذلك بشدة وتجفف وتلصق جنباً إلى جنب، ثم يلف (يقرطس) الكتاب الذي ينشأ من عدد من هذه اللصائق. وكانت بدايته ونهايته تقوّيان بشرائح تلصق من الأسفل لحمايتها.

(٦٢) المصدر ذاته ص ٥٢٠.

الداخلية على الحرفيين وصغار الفلاحين الاحرار (٦٣).

وعلى الرغم من تطور الحرف في مصر الدولة القديمة، فإن الاقتصاد ظل في جوهره اقتصاداً طبيعياً (٦٤). وتشير بعض نقوش الدولة القديمة إلى قيام «السوق» الذي تدور فيه المعاملة على المبادلة والمقايضة (٦٥).

وتوضح الرسوم النادرة في إحدى مقابر سقارة عملية البيع والشراء في إحدى أسواق الدولة القديمة، إذ أننا نرى بائع السمك جالساً أمام سلة من الحلفاء وهوينظف سمكة كبيرة يساوم زبونته على ثمنها، وهي تحمل في صندوق صغير ما تقايض به عليها (٦٦). وإلى جانب هذه المجموعة بائع آخر يعرض دهاناً أو ما يشبه ذلك، وتعرض له فيه إمرأة ناءين صغيرين. وبائع آخر يبيع «كعكاً حلواً» غير أن القلادة التي تقدم له من أجل كعكة تبدو غير كافية، ولذلك يحصل علاوة عليها على زوجين من النعال، إذ يقول له الشاري «هاك (أيضاً) زوجين من النعال متينين!» وتتم عملية المقايضة (٦٧). وعند بائع الخضر يبدو أن الامر لم ينته إلى الاتفاق، إذ يريد المشتري أن يبتاع خضراً بزوج من القلائد فيقول له البائع «دعني أر، إعط الثمن (المناسب)!». وفي الوقت نفسه يأتي شار آخر يريد شراء ما يحتاجه من البصل بمروحة ومكنسة (٦٨).

على أن الامر لا يقتصر هنا على تداول المأكولات فقط، وإنما ترينا الرسوم المذكورة أحد الباعة يجلس القرفصاء أمام سفطه وفيه حلي من اللونين الأحمر والأزرق، ويساوم امرأة تريد أن تشتري إحدى هذه القطع البراقة وإلى جانبها صانع الأشصاص يحاول أن يبيع بضاعة إلى أحد الرجال (٦٩).

ومنذ قيام الدولة الحديثة اتسع نطاق الأسواق فشملت بعض البضائع المستوردة وخاصة في الدوانيء، واستحدث الميزان للتأكد من وزن السلعة لتقويمها تقويماً صحيحاً (٧٠). وعلى

---

(٦٣) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٧٢.

(٦٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٣.

(٦٥) ابراهيم نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم: ج ٤ ص ٢٩٧.

(٦٦) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٦٧.

(٦٧) المصدر ذاته ص ٥٦٧ - ٨.

(٦٨) المصدر ذاته ص ٥٦٨.

(٦٩) نفس المصدر والصفحة.

(٧٠) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ٤ ص ٣٩٨.

ذلك لم تعد السلع تبادل جزافاً أو حسب عادة لا تتميز، وإنما أصبح يدفع فيها الثمن المستحق [٧١].

وتناهت إلينا من الدولة الحديثة كثير من رسوم امثال هذه المعاملات التي كانت تحدث كثيراً بالقرب من السفن الكبيرة التي كانت تجلب السلع من الخارج إلى مصر. ففي مقبرة خاع إم حت، ترينا بعض المشاهد رسو سفن كبيرة جلبت مؤونة الحبوب للدولة وقد رست في ميناء طيبة وبينما يعمل معظم الملاحين على تفريغ شحنتها، يتسلل البعض إلى البائعين الذين يجلسون القرفصاء على الشاطىء أمام قدورهم وسلالهم يبيعون الأطعمة المختلفة، أما ما يدفعه الملاحون فيها فيظهر أنه القمح الذي أخذوه أجراً لهم مما تحمله السفن [٧٢].

ولما كانت العملة غير معروفة بعد، فقد اتخذت وحدة قيمية هي الـ« دبن » من النحاس (وزنته حوالي ٩١ غراماً) يقوّم المباع بما يعادل مضاعفاتها أو أجزاءها ويسدد الثمن سلعة تقوّم بنفس السعر. فإذا كانت هناك سلعة يقدر لها ١٠ « دبن » من النحاس مثلاً فلم يكن معنى ذلك أن يدفع مازنته ١٠ « دبن » من النحاس ولكن سلعة أخرى تبلغ قيمتها (١٠) « دبن » كذلك [٧٣].

وإذا كان النظام الفرعوني قد أعاق نمو التجارة الداخلية ولم يوفر لها ظروف التطور، فإن التجارة الخارجية حققت ازدهاراً كبيرا. وقد ساعدت الفتوحات ونمو الحرفة والزراعة إلى تنشيط حركة التجارة الخارجية التي كانت حكراً بيد الفرعون وكهنة آمون [٧٤]. واهتم الفراعنة بارسال البعثات التجارية أو الحربية إلى البلدان المجاورة لتأمين حاجات وكماليات القصور الملكية والمعابد [٧٥].

ومنذ عهد الدولة القديمة، انشأ الفراعنة علاقات تجارية مع البلدان المجاورة وخاصة مع سورية. وتوثقت هذه العلاقات وتوسعت في عهد الامبراطورية الوسطى وبصورة خاصة في عهد الامبراطورية الحديثة، حيث أخذت الأساطيل التجارية تجوب البحرين وتعود محملة بالسلع. فقد ارسل فراعنة الدولة المتوسطة بعثات تجارية بصورة رئيسية إلى فينيقية: إلى

(٧١) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٧٠.

(٧٢) المصدر ذاته ص ٥٦٨ ـ ٩.

(٧٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور) المصدر السابق ص ٢٩٧، وإرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٧٠.

(٧٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٣.

(٧٥) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٧٢.

بيبلوس (جبيل) واوغاريت (رأس شمرا) وأقاموا صلات تجارية مع بلدان بحر إيجه ، وغدت التجارة أكثر نشاطاً عما كانت عليه في زمن الدولة القديمة . وقد عزز نمو المهن والتجارة الانتاج السلعي ، وخاصة في نهاية الامبراطورية الوسطى عندما أصبح الذهب مقياس القيمة (٧٦) .

وكانت التجارة الخارجية تتم بارسال بعثات خاصة إلى الجنوب والبونت ، وإلى جزر بحر إيجه . ذلك لأن الفرعون والكهنة منذ فتح فلسطين وسورية ، أصبحوا يحصلون على مايريدون تحت شكل جزية سنوية (٧٧) . فقط مدينة صور الفينيقية كانت قد احتفظت بحق إقامة علاقات تجارية مع مصر (٧٨) .

وفي عهد الدولة الحديثة ، ارسلت بعثتان تجاريتان كبيرتان إلى الجنوب ، الأولى في حكم الملكة حتشبسوت ، والثانية في حكم تحوتمس الثالث . وجاء في النص المنقوش على معبد الدير البحري الذي أمرت حتشبسوت ببنائه ، سجل بأسماء المواد المنقولة من بلاد البونت بطريق البحر الاحمر وهذه المواد هي : صمغ المر وأشجار المر الخضراء ، وخشب الأبنوس والعاج النقي ، الذهب والفضة ، والطيوب وأنواع البخور ، ومواد لتكحيل العيون ، وقردة ، وكلاب صيد ، وعبيد (٧٩) . وقد حصل « الرسول الملكي » على هذه المواد من « ذخائر بلاد البونت » مقابل الخناجر وفؤوس القتال والقلائد البهيجة الألوان التي يرغبها أهالي البونت ، أي أن عملية التبادل تمت بالمقايضة التجارية (٨٠) .

وكان الفراعنة والكهنة يبادلون ثمار السلب مقابل مواد يوردها التجار الملكيون لبابل وقبرص وكريت وجزر إيجية أخرى (٨١) . وكان على هؤلاء التجار أن يقدموا أولى تقدماتهم إلى الفرعون وإلى الإله آمون ، ويبيعوا الآخرين الباقي ، مما أثار استياء كهنة المعابد الآخرين والتجار انفسهم الذين ازداد عددهم زيادة واضحة في عهد الدولة الحديثة (٨٢) .

---

(٧٦) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٧٧) المصدر ذاته ص ١٦٣ .

(٧٨) نفس المصدر والصفحة .

(٧٩) إرمان ورانكه : المصدر السابق ص ٥٨٨ ود . نعيم فرح : المصدر السابق ص ٧٢ . جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٦٣ .

(٨٠) المصدر ذاته ص ٥٨٧ .

(٨١) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٦٤ .

(٨٢) نفس المصدر والصفحة .

وفي العصر الصاوي، توسعت الحركة التجارية. فقد عقد بسامتيك الاول علاقات تجارية نشيطة مع بلدان الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط وبصورة رئيسية مع اليونان حيث كانت مصر تستورد منها القمح (٨٣). ولعب التجار اليونان دوراً هاماً في تجارة مصر الخارجية ومنحتهم الدولة عدداً من الامتيازات، وأسسوا مستوطنات لهم منها مدينة نوكراتيس في غربي الدلتا (٨٤). وتم في عهد نيخاو الثاني حفر قناة تصل النيل بالبحر الأحمر (٨٥).

ولعبت التجارة الخارجية دوراً هاماً في ادخال بذور انماط جديدةللانتاج، فمع انتشارها، وتغلغل عناصرها في البلاد، وخاصة في الدلتا، زادت عمليات التبادل النقدي وبالعملة المعدنية، بعد أن كانت المقايضة العينية هي الوحيدة، ولا يقوم المعدن ـ الذهب فيها إلا بدور المقياس المشترك للقيمة التبادلية.

---

(٨٣) المصدر ذاته ص ١٦٩.

(٨٤) انظر ص ٧١.

(٨٥) دريوتون، اتيين وفانديه، جاك: مصر. تعريب عباس بيومي. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٧٤. ص ٦٣٩.

الفصل العاشر

البنية الاجتماعية

هرمية المجتمع العبودي في مصر القديمة۔ طبقاته وفئاته۔ المتغيرات التي طرأت على بنية الطبقة الارستقراطية.

يعود تاريخ العبودية في مصر إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، وكانت تدعم المجتمع الرقى خلال قيام الدولة المصرية، وأصبح من ثم وجود المجتمع يرتكز على العمل العبودي. وانقسم المجتمع إلى طبقتين كبيرتين متعارضتين: طبقة العبيد، وطبقة ملاك العبيد، وهكذا تكونت طريقة الانتاج القائمة على العبودية.

وفي ظل العبودية، كان السكان ينقسمون إلى افراد أحرار وعبد. وكان الأفراد الأحرار - عدا النسوة اللائي وقعن تحت سيطرة الرجال واصبحن في مصاف العبيد منذ تفسخ نظام الأمومة واستبداله بنظام الأبوة - يتمتعون بكل الحقوق المدنية والسياسية وبالملكية، بينما كان العبيد (رؤوس في النصوص المصرية) مجردين من كل الحقوق، لا يملكون شيئاً، بل هم انفسهم مملوكون لأسيادهم.

وكان الأفراد الأحرار ينقسمون إلى طبقتين: طبقة ملاك الأراضي والعبيد، وطبقة صغار المنتجين وهم الفلاحون المشاعيون (ميرتو) والحرفيون. فمن اغتنى من هؤلاء تحول الى مالك عبد مستثمر (كالنيزس في عهد الدولة الوسطى)، ومن أفلس تحول إلى عبد. وعلى الرغم من ذلك فإن المالكين الصغار قد استمروا في البقاء.

وكان رجال الدين - بفضل ثروة المعابد - ينتمون إلى طبقة مُلاّك الأراضي والعبيد.

ولا شك أنه كان يوجد إلى جانب التناقض الطبقي بين السادة والعبيد، تناقض آخر هو

التناقض بين كبار الملاك العقاريين والفلاحين المشاعيين. ولكن نظراً لأن العمل العبودي الذي كان أقل كلفة قد امتد مع نمو النظام الرقي إلى أغلب فروع النشاط الاقتصادي، وانتهى بأن أصبح القاعدة الأساسية للانتاج فقد أصبح التناقض بين السادة والعبيد هو التناقض الجوهري في المجتمع الرقي، وتاريخ مصر القديمة حافل بالصراعات الطبقية. ومع استمرار العبودية تعاظم حقد المستثمَرين على مستثمريهم وجلاديهم الذين انعزلوا عن شعبهم مما سهل للأجانب احتلال مصر.

وهذا وان رسم صورة واقعية دقيقة واضحة ومتكاملة للمجتمع المصري ليس مهمة سهلة، بسبب قلة الوثائق ونقصانها. ومع ذلك فإن ماتناهى إلينا من معلومات هامة يكفي لرسم خطوط عامة عن التركيب الطبقي وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين طبقات المجتمع العبودي المصري.

طبقات المجتمع: تكون البناء الهرمي للمجتمع المصري وتدعم خلال قيام الدولة المصرية، فكانت طبقة الارستقراطية تشغل قمة الهرم الاجتماعي، في حين كان الفلاحون الفقراء والحرفيون وصغار الباعة والعبيد، وهم يشكلون أغلبية السكان في مصر، يشغلون قاعدته العريضة.

١ - **طبقة الارستقراطية:** كانت الطبقة الاجتماعية السائدة في مصر الامبراطورية القديمة تتألف من نبلاء البلاط وارستقراطية المقاطعات والكهنة وعلى رأسهم جميعاً الملك. وكان هؤلاء الاسياد يملكون أراضي واسعة تضم قرى متفرقة في أنحاء البلاد، وقد ورث الارستقراطيون جزءاً كبيراً من ممتلكاتهم، كما أنهم كانوا يتلقون أيضاً الأراضي من الفرعون مكافأة لهم على خدماتهم. وكان رجال الدين الاعلون ينتمون إلى الطبقة السائدة، طبقة الارستقراطية [1].

وفضلاً عن الارستقراطية العليا، كان يوجد موظفون صغار وكهنة يملك الواحد منهم عبدين أو ثلاثة من الجنس النسائي على وجه العموم. ومع ذلك لم يكن في استطاعتهم بناء قبور فخمة، وإنما كانوا يعدون أقبية مزينة بالنقوش والتماثيل [2]. وفي عهد الدولة الوسطى، تغيرت بنية الطبقة الحاكمة، بعد أن تلاشت الأراضي الواسعة لأرستقراطية العاصمة خلال فترة الاضطراب التي سبقت قيام هذه الدولة. قديماً كانت الارستقراطية تتألف في

(١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٥

(٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٥.

المقام الأول من كبار الموظفين الذين يعيشون في ممفيس عادة، ويستغلون مصريين أحرارا في أراضيهم الواسعة، أما الآن فقد أصبح قوام الارستقراطية من ملاك العبيد والنيزس[٣]. وهي العناصر التي اغتنت من الفلاحين المشاعيين.

وكان هؤلاء النيزس يملكون أراضي واسعة وماشية وعبيداً[٤]. حتى أصبحوا أحياناً نبلاء. وفي هذه الحالة، كانوا يصرحون في نقوشهم بأنهم حصلوا على «النبالة» بوسائلهم الخاصة وليس عن طريق الولادة[٥].

وقد استفادت هذه الارستقراطية الجديدة، وخاصة النيزس، من توحيد البلاد، إذ أملت ليس فقط تحسين شبكة الري وإنهاء الحروب الأهلية، وإنما أيضاً تعزيز جهاز الدولة وقيام حكومة قوية لتوطيد موقعها في البلاد وزيادة عدد عبيدها في سياق الفتوحات والتوسع[٦].

وفي عهد الامبراطورية الحديثة، تشكلت الدولة العسكرية، واصبحت الطبقة الحاكمة تتألف من قوتين جديدتين تتقاسمان الصدارة: القوة الأولى تضم نبلاء البلاط والكهنة، وتضم الثانية الفئة العسكرية. وكان الكهنة قد اثروا اثراء اسطورياً على حساب البلدان والشعوب المغلوبة، وعززوا سلطتهم أكثر عن طريق توسيع أملاكهم. فقد سلّم الفراعنة إلى المعابد أراضي واسعة مع جميع سكانها[٧]. وهكذا أصبح الكهنة ملاكين عقاريين كباراً[٨]. وكان معبد آمون في طيبة، وهو اغنى المعابد، يتلقى باستمرار أراضي جديدة[٩]. فقد منحه تحوتمس الثالث أحسن الحقول والبساتين في مصر العليا والسفلى، وأراضي مرتفعة، وأسرى آسيويين وزنوجاً كان يتوجب عليهم ملأ صوامع الإله[١٠]. وكان معبد آمون يملك من الأراضي والرقيق والفلاحين الذين يعملون فيها أكثر مما كانت المعابد الاخرى تمتلكه مجتمعة[١١] وهذا التميز لمعبد آمون جعله يلعب دوراً ملحوظاً في تاريخ مصر

(٣) المصدر ذاته ص ١٥١.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) المصدر ذاته.
(٧) المصدر ذاته ص ١٦١.
(٨) نفس المصدر والصفحة.
(٩) المصدر ذاته.
(١٠) المصدر ذاته.
(١١) انظر ص ٦٨.

اللاحق[١٢]. فقد أصبح الكاهن پتاح مس، في أواخر حكم أمنوفيس الثالث، قابضاً على كل السلطات الدينية والسياسية ومحافظاً لطيبة ووزيراً للمنشآت[١٣]. فانحاز أمنوفيس الرابع الذي كان يطمح من جهته إلى السلطة المطلقة سياسياً ودينياً، إلى جانب حزب المعارضة، وسعى بمساعدتها لاستخلاص السلطة الملكية من سيطرة كهنة آمون والنبلاء القدامى[١٤]. ولكنه لم ينجح سوى في تأجيل الأحداث المتوقعة، وهي استيلاء حريحور كبير كهنة آمون على العرش، وتلقبه بألقاب الفراعنة وتأسيسه الأسرة الحادية والعشرين[١٥].

لقد أغدق الفراعنة المنح والهبات السخية على المعابد بهدف استخدامها للدفاع عن السلطة الملكية بما لها من تأثير ايديولوجي على الجماهير الشعبية. وقد نتج من سياسة مواصلة الفراعنة منح الكهنة وغيرهم الأراضي وغيرها من الثروات نقصان واضح في الأراضي الملكية وإضعاف سلطة الفراعنة نفسها، وأدت بالمقابل إلى ثراء الكهنة وتعاظم نفوذهم وتدخلهم في شؤون الدولة إلى درجة تمكن فيها كهنة آمون من السيطرة على مقاليد الحكم في بعض الاحيان[١٦]. لقد كانت أملاك المعابد معفاة من الضرائب. وعاش الكهنة في يسر ورفاه على حساب الجماهير الشعبية الكادحة. وجاع الشعب واشتد جوعه يوماً بعد يوم لكي يتخم الآلهة[١٧].

أما القوة الثانية من الطبقة الحاكمة فكانت الفئة العسكرية التي تشكلت حديثاً من الضباط ذوي الرتب المتوسطة والعليا. وكان الفرعون يختار عناصر من ذوي الرتب العليا إلى المناصب الهامة في الإدارة المركزية والقصر الملكي، مما هيأ لهم، بحكم مراكزهم، امكانية التأثير على سياسة الدولة الداخلية. وكان الضباط ذوو الرتب المتوسطة والدنيا يتلقون أراضي مقابل خدماتهم، وشكلوا بعددهم الكبير سنداً متيناً للسلطة الملكية. وكان طبيعياً بالتالي أن يصغي الفرعون لرغباتهم[١٨]. وقد وصلت العصبة العسكرية درجة من النفوذ مكنها من اغتصاب السلطة وتأسيس اسرات ملكية حاكمة[١٩].

(١٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦١.
(١٣) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.
(١٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٥.
(١٥) انظر ص ٦٩.
(١٦) عبد الحق. سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.
(١٧) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٨٢.
(١٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٢.
(١٩) انظر ص ٥٩ - ٦٠.

لقد تغيرت بنيـة الطبقـة الارستقـراطيـة خلال مجرى العصر التـاريخي لمصر القـديمة، وظهرت تناقضات مصلحية بين مختلف فصائلها، غير أن هذه التناقضات لم تؤد إلا إلى استمرار النظام الفرعوني على نفس الأسس الاقتصادية والاجتماعية رغم التغيرات البطيئة أو الضعيفة التي طرأت على القمة السياسية [٢٠].

وعلى الرغم من أن الارستقراطية الحاكمة لم تتورع من اتخاذ مختلف اساليب العنف الرجعي أو الديماغوجية للمحافظة على مواقعها السياسية ومصـالحهـا الاقتصـاديـة ولتضليـل الجماهير في اخفاء طبيعتها الاستغلالية، فإن ذلك لم يحل دون ازدياد تفسخها وانعزالها عن الشعب، نتيجة التناقضات المختلفة، إلى درجة اعتمادها على المرتزقة والارقاء الأجانب كقوة ضاربة للجيش الدائم بدل الفلاحين المجندين الذين أظهروا عداءهم لسلطة الارستقراطية والكهنة.

٢ ـ **الفلاحون:** كان الفلاحون يؤلفون غالبية الشعب المصري وهم أعضاء المشاعيات الريفيـة الذين يملكون اقتصادهم الصغير القائم على العمل الشخصي والملكيـة الصغيرة لأدوات ووسائل الانتاج. وتدريجياً أفلس قسم كبير من المالكين الصغار وتحولوا إلى فلاحين معدمين أو عبيد. وقد اغتنى قسم ضئيل منهم وتحول إلى مالكي عبيـد ـ نيـزس ـ وتعني صغير. وعلى الرغم من هذا فإن المشاعيين الاحرار، أي المالكين الصغار، قد استمروا في البقاء.

كان الفلاحون الاحرار يملكون قطعاً صغيرة من الأرض يقومون بفلاحتها وزراعتها بأدواتـهم لحسابهم الخاص ويدفعون عنها ضريبة عينية معينة للدولة [٢١]. وكان موظفو الملك يقومون باحصاء كل ما يملكه الفلاحون من أراض ومواش وكروم وأشجار مثمرة ليحددوا عليها مقدار الضريبة [٢٢]. ومن أجل ذلك انشأ الفراعنة المخازن والمستودعات والصوامع في جميع أنحاء البلاد لجمع ما يُجبى من الفلاحين من حبوب ومنتجات أخرى.

أما الفلاحون المفلسون الذين فقدوا أملاكهم وحريتهـم فكـانـوا يعملـون في أراضي الفرعون أو المعابد أو أراضي الامراء مقابل حصة من الانتاج. وكانوا يعملون ضمن زمر تتألف كلّ منها من خمسة أشخاص تجتمع في عشرات ومئات. ويمكن أن تكون الزمرة تتألف من أفراد عائلة واحدة أو مجموعات عائلات [٢٣]. وكان لكل زمرة رئيس. وتصور

(٢٠) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ص ٥٦.

(٢١) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٦٦.

(٢٢) كوروفكين: المصدر السابق ص ٣٨.

(٢٣) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.

الرسوم والنقوش على جدران المقابر هؤلاء الرؤساء وهم مسلحون بالسوط والدبوس [٢٤].

وكانت المشاعة الخلية الاقتصادية والاجتماعية الأساسية في مصر الدولة القديمة. وكانت تتعرض للاستثمار الوحشي من جانب كبار ملاك الأراضي العقاريين (الملك ونبلاء البلاط وارستقراطية المقاطعات). وبعد مرور بعض الوقت تطورت استثمارات المعابد التي بلغت أوج اتساعها في عهد الدولة الحديثة [٢٥].

واذا كانت معلوماتنا ضئيلة عن مسألة التنظيم الداخلي للمشاعية المصرية، إلا أنه أصبح من الثابت أن الأرض والمواشي في عهد الدولة القديمة كان يمكن بيعها أو توريثها [٢٦]. وكان للمشاعية، حسب دراسات ڤ ـ آفدييڤ، مجلس خاص يدعى « زازات » يبحث في قضايا المشاعية (كتوزيع المياه والخلافات وغير ذلك) [٢٧].

وكانت المشاعة الريفية تتألف من أسرات أبوية، بطريركية، كبيرة وصغيرة وكان الابن الأكبر هو الوارث الرئيس الذي يرث إرث والده بكامله أو القسم الاعظم منه [٢٨].

هذا ولم يستفد الزراع أعضاء المشاعية الريفية في عهد الامبراطورية الوسطى من رفاه الدولة العام ولا من تخفيض الضرائب والوجائب الملكية، وذلك لأن الاستقلال الذاتي لحكام الأقاليم أخضعهمْ لعبودية مزدوجة: عبودية للفرعون، وعبودية لحكام الأقاليم نتج عنها افقار محسوس للفلاحين [٢٩]. وقد وصفت الاعمال الادبية لذلك العصر آلام الفلاح وما يعانيه من بؤس واستغلال وتعذيب واعتداء « فالمجاعة تحيط بكوخه والعمل المضني لا يكفي تأمين مقومات حياته. الجميع يسلبونه، ينتزعون منه ما أزمع على بيعه في السوق، حميره وشعيره، يضربونه دون شفقة مدافعاً عن نفسه بالصراخ والعويل. وإذا ذهب يشكو مظالمه وإهاناته لم يجد أحداً ينصفه إلخ.. » [٣٠]. وتصور القصة المعروفة باسم « شكوى الفلاح الفصيح » حالة الزارع والعلاقة اللاإنسانية التي كانت قائمة بين الفلاحين والمالكين. وتدور أحداثها حول فلاح اسمه « خونا نوب » جمع محاصيله وحملها على ظهور حميره وسار

(٢٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٤.
(٢٥) انظر ص ٦٢ وما بعدها.
(٢٦) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٤
(٢٧) نفس المصدر والصفحة.
(٢٨) المصدر ذاته.
(٢٩) المصدر ذاته ص ١٥٥.
(٣٠) نفس المصدر والصفحة.

باتجاه اهناسيا. وفي الطريق اعترضه « تحوت نخت » وهو تابع لأمين من امناء الملك وأحد كبار ملاك الاراضي، فاستولى على قافلة محاصيله بعد أن ضربه بعصاه بلا شفقة على كل انحاء جسمه وتركه فاقد الحركة على الأرض. والقصة رائعة من روائع الأدب الاجتماعي تعالج جانباً من حياة المجتمع العبودي وشكاوى الفلاحين من الظلم الاجتماعي الذي كانوا يلاقونه من موظفي الدولة بمن فيهم القضاة (٣١).

وفي عهد الأمبراطورية الحديثة لم تتغير أيضا شروط حياة الفلاحين في مجملها. فقد ظل الزراع أعضاء المشاعيات مثقلين بالضرائب وأعمال السخرة لحساب الملك والمعابد. كما أثقلت الفتوحات أيضاً من عبوديتهم هذه (٣٢). وكان الفلاحون يجندون بالقوة في الجيش. ولم يكن هناك من بديل لزراعة أراضي الفلاحين المرسلين الى ساحات القتال، مما أدى إلى تدهور الاقتصاد الفلاحي. وإذا قدر لفلاح مجند أن يعود سالماً إلى قريته، فإنه كان يصعق عندما يعلم أن أمواله قد نهبت، وأن زوجه وأولاده قد بيعوا كعبيد (٣٣).

وسلم الفراعنة أراضي واسعة مع جميع سكانها إلى المعابد (٣٤). وفي أثناء حكم الأسرة العشرين أفلس الكثير من الفلاحين ونمت الأراضي الخاصة، ونتج عن ذلك تفكك سريع للمشاعيات الريفية وتثبيت حق الملكية الخاصة العقارية (٣٥).

وعلى جدران بعض القبور مشاهد تمثل اقتياد الفلاحين الذين لم يدفعوا ضرائبهم إلى أمام الكتّاب من قبل حراس مسلحين بالعصي، كما ترى الكتّاب يدونون في السجلات ديون الفلاحين (٣٦).

وكان جباة الضرائب يعسفون الفلاحين ويسيئون معاملتهم. وتقص علينا وثيقة مصرية بعنوان « نصائح وارشادات مدرسية » حياة الفلاحين البائسة وما يتعرضون له من ظلم وتعذيب وإهانة. تقول الوثيقة: « لقد إتلفت الديدان نصف الحبوب، وأكلت أفراس البحر ما بقي منه. وهناك عدد لا يحصى من الفيران تسعى فوق الحقول كما هبطت ارجال الجراد. أما الماشية فهي تأكل. والعصافير تسرق، ولكن واحسرتاه على الفلاح فما بقي له من حبوب على

(٣١) حداد. عبد الحق وعدنان خمس: الحركات الفلاحية عبر التاريخ ص ٤٢ - ٤٧.
(٣٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٢.
(٣٣) انظر ص ٧٨.
(٣٤) انظر ص ٦٨ - ٦٩.
(٣٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٨.
(٣٦) كوروفكين: المصدر السابق ص ٣٨.

أرض الجرن فقد سرقها اللصوص. يضاف إلى هذا أن السيور التي تربط الحديد والمعزقة قد بليت، وأن الثورين قد ماتا من جرّ المحراث. وفي هذه اللحظة يصل الكاتب بقاربه إلى المرسى ثم يخرج ليطلب الضريبة المفروضة على المحصول يرافقه حراس أبواب مخازن الملك بعصيّهم وشرطة من النوبيين بمقارعهم وهم يقولون للفلاح: أعطنا الحبوب، والحبوب غير موجودة، فيضربونه ويطرحونه أرضاً ويقيدونه ثم يقذفون به في القناة فيغرق. أما امرأته فهي مربوطة أيضاً أمامه، وأولاده يشردون في الطرقات، حتى أن جيرانهم يتخلون عنهم ويهربون فتتلف حبوبهم »[٣٧].

لم يستسلم الفلاحون لما فرضه عليهم النظام الفرعوني من ظلم واستغلال وتجنيد قسري وعبودية، فتذمروا وغضبوا، وما لبثت أن تحولت مراجل غضبهم إلى انتفاضات، وتعددت ثوراتهم واشترك فيها الحرفيون الكادحون والعبيد، وكانت من العوامل الرئيسة في اضعاف دولة الفراعنة.

٣ ـ **الحرفيون**: كان العمال الحرفيون في مصر القديمة على نوعين: الأول كالنحاسين والحدادين والنجارين والفخارين والحذائين الذين يعملون لحسابهم الخاص ويبيعون أو يبادلون مصنوعاتهم في السوق. والنوع الثاني كانوا يعملون في الورشات التابعة للملك والكهنة وكبار الموظفين. وكان هؤلاء الصناع، الأحرار منهم والعبيد، يتقاضون أجورهم على شكل مواد غذائية وثياب وغير ذلك مما كان يوجد عادة في المخازن الكثيرة الملحقة بالقصور الملكية والمعابد[٣٨].

كانت حياة الحرفيين في مصر بائسة أيضاً على وجه العموم. فقد كتب عليهم ان يعيشوا حياة دون بهجة في عمل مضن، حليفتهم الحاجة المذلة والمجاعة المميتة، يسهرون في الليل مع عملهم حتى يغلبهم النعاس وتشل أياديهم المتعبة فهل يستريحون؟ كان عليهم منذ شروق الشمس أن يكونوا على رأس عملهم في الورشة.

ولم تكن حال الشغيل الحرفي لتقل بؤساً عن حال الفلاح. « فالحداد يمضي كل وقته أمام لهيب الكور ويتعرض لآلاف الأفات والامراض، والنجار يشقى كالفلاح، وكما يدمي المعول يد الفلاح يدمي المنشار يد النجار. أما الحجارون والحاكة والحذاؤون والصباغون

---

(٣٧) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥١٣ ـ ٤. ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٨٣ ـ ٤ ود. نعيم فرح: المصدر السابق ص ٦٦.
(٣٨) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٦٧.

وغيرهم من أصحاب المهن فكلهم سبكت العمل اليدوي ويحيله إلى حطام »[٣٩]. وقد وصف لنا أحد الكتاب الشعراء المصريين حالة من يعمل منهم في صناعة المعادن قائلاً:

لم أر أبداً الحداد يوفد كسفير
لا ولا صائغ الذهب يؤدي رسالة
ولكني رأيت الحداد في عمله
بجانب كوره
لقد كانت أصابعه مثل جلد التمساح
وكان أنتن من بيض السمك[٤٠].

ووصف الحياة البائسة لمن يعمل في حفر الخشب على النحو التالي:

كل صانع فنان يعمل بالازميل
يضني نفسه أكثر ممن يفلح الأرض
فحقله الخشب وأداته من المعدن
وهو يعمل اكثر مما تستطيع ذراعاه[٤١].

ووصف ديودور الصقلي « شقاء المعدنين وهم يتتبعون بالمصباح والمعول عروق الذهب في الأرض، والاطفال وهم يحملون المعدن الخام، والمهارس الحجرية وهي تطحنه، والشيوخ والعجائز وهم يغسلونه.. ويتابع قائلاً: إن ملوك مصر يجمعون السجناء وأسرى الحرب وغيرهم ممن وجهت إليهم التهم الباطلة وزجوا في السجون... هؤلاء كلهم يرسلون إلى مناجم الذهب تارة وحدهم وتارة مع جميع أسرهم ليستخدموا في الحصول على دخل كبير نتيجة كدهم... فإن كل من يرى هؤلاء البائسين المنكودي الحظ تأخذه الرحمة بهم لفرط شقائهم. ذلك أنه لا يرى أحداً يرحم المرضى والمشوهين والعجزة والضعاف من النساء. هؤلاء كلهم يُلزَمون بالدأب على العمل حتى تخور قواهم فيموتون في ذل الأسر »[٤٢].

وقد كشفت الحفريات التي أجراها « فلندرز بتري » في هضبة الصحراء قرب بحيرة موريس (منطقة الفيوم) عن أطلال مدينة أصبحت معروفة باسم « كاهون ». وكان حي العمال في هذه المدينة حياً فقيراً يسكنه حانوتيون صغار وحرفيون وشغيلة آخرون[٤٣]

(٣٩) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: تاريخ الحضارة ص ١١٢ - ١١٣.
(٤٠) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥١٥.
(٤١) المصدر ذاته ص ٥١٦.
(٤٢) نقلاً عن ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٨٥.
(٤٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٥.

بيوتهم أكواخ حقيرة من اللبن، يتوضع الواحد منها إلى جانب الآخر في مساحة صغيرة. إذ بني على مسطح يقرب من ٢٤٠ × ١٠٥ أمتار نحو ٢٠٠ ـ ٢٥٠ منزلاً صغيراً [٤٤]. في حين كانت « ڤيلات » النبلاء مساكن فخمة رحبة وواسعة، تتألف من قطع من الأرض تبلغ مساحتها نحو ٤٥ × ٦٥ متراً ـ أي أكبر بنحو خمسين ضعفاً من بيوت العمال الصغيرة [٤٥]. وتضم كل فيلا ما يقرب من سبعين غرفة ودهليزاً [٤٦] موزعة بين غرف للطعام وأخرى للاستقبال والنوم وغرف للحريم والخدم وغرف المخازن، وهناك أيضاً المطابخ والحظائر. ففي المطبخ وما يتعلق به، كان يعمل الطهاة والخبازون والجزارون وصانعو الجعة والخادمات اللواتي يطحن الحبوب [٤٧]. وكان يحيط بـ « ڤيلة النبيل » بساتين غنّاء واسعة، غرست بالكرمة والاشجار المثمرة [٤٨]. وقد شغلت ڤيلات النبلاء » وعددها عشرة، مساحة لا تقل كثيراً عن تلك التي استعملت لبناء حي العمال كله [٤٩].

وكان حي الأغنياء ينفصل عن حي الحرفيين والشغيلة الفقراء بسور سميك تخفره فرقة عسكرية قوية. وتشهد هذه السمة المميزة على الجو المتوتر الذي كان يسود مصر الامبراطورية الوسطى نتيجة لتفاقم التناقضات الاجتماعية، حيث كان « الأقوياء » السادة ملاك الرقيق يخشون انتفاضة الفلاحين المحرومين والحرفيين والعبيد [٥٠]. فقد باتوا يشعرون بأن الأرض تهتز من تحتهم.

هذا وإن ظهور عدد كبير من الحرفيين في المدن يفسر واقع أن الفلاحين المفلسين كانوا قد هجروا الريف إلى المدن بحثاً عن العمل [٥١].

وهكذا لم يكن سعيداً من أصحاب المهن سوى فئات الموظفين والكتبة الذين يحررون جداول الضرائب والأيدي العاملة ويرافقون الجباة ورؤساء ورش الملك وحكام الأقاليم [٥٢]. وقد أصبح الموظف المثل الأعلى لما يحلم الشخص بالوصول إليه. ومن المواعظ التي

(٤٤) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ١٨٠.
(٤٥) نفس المصدر والصفحة.
(٤٦) المصدر ذاته.
(٤٧) المصدر ذاته ص ١٨١.
(٤٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٥.
(٤٩) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ١٨٠.
(٥٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٥١) المصدر ذاته ص ١٥٥.
(٥٢) نفس المصدر والصفحة.

كانت توجه إلى طلبة المدارس القصيدة التالية:

ضع في صميم قلبك العزيمة
لكي تكون كاتباً
إن ذلك سوف يجنبك
العمل الشاق من أي نوع كان،
وسوف يقودك إلى الطريق
لكي تكون حاكماً ذائع الصيت (٥٣).

إن الحالة السيئة والوضع المزري وقسوة ظروف العمل والجرايات الضئيلة حملت فئات العمال والحرفيين الكادحين على مقاومة السلطة مقاومة سلبية وإيجابية واشتركوا في انتفاضات الفلاحين والعبيد في سبيل تحسين ظروف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

٤ ـ **طبقة العبيد:** يعود تاريخ العبودية في مصر القديمة إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وقد انتشرت العبودية في المجتمع المصري تدريجياً. وكانت العبودية في الامبراطورية القديمة ذات طابع بطريركي، وغدت في عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة أساس الانتاج ومرتكز النظام الاقتصادي. والمصادر الأساسية لزيادة عدد الرقيق في مصر القديمة كانت الحروب وتجارة الرقيق واستعباد أعضاء المشاعية المعدمين لقاء ما عليهم من ديون. وكان يطلق على الرقيق عادة كلمة «رؤوس» تشبيهاً بالحيوانات (٥٤).

إن أحوال العبيد في عهد الامبراطورية القديمة لا تزال موضع افتراضات وعلى أي حال، فقد كانت العبودية تلبس طابعاً بطريركياً. فعدد العبيد كان لا يزال قليلاً نسبياً، والعمل الرقي لم يكن بعد مكوناً لأساس الانتاج، وإنما كان يلعب دوراً إضافياً في الاقتصاد الذي ظل في جوهره طبيعياً. فالناس الاحرار وحتى الارستقراطية، أسياداً وكهنة، كانوا يشاركون في الاعمال الزراعية وغيرها (٥٥).

وفي عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة تفاقمت التناقضات الاجتماعية. فقد تطور الرق، وازداد عدد الأيدي العاملة الرقيقية زيادة كبيرة بسبب التوسع في الفتوحات. وكانت

(٥٣) اسماعيل عبد العزيز: نظام العاملين في الدولة عند قدماء المصريين نقلاً عن أحمد صادق سعد. تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص ٤٣.

(٥٤) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٦٥.

(٥٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٤.

جيوش الفرعون تعود بعد كل حملة بعدد غفير من الأسرى. وإذا كنا لا نملك احصائيات دقيقة بعددهم، إلا أنه على أي حال كان يبلغ عشرات الالوف. وتذكر النصوص ان المعابد في عهد الامبراطورية الحديثة كانت تملك (١٠٧) آلاف عبد منهم (٨٦,٥٠٠) عبد لمعبد آمون وحده[٥٦]. فما بالك بعددهم في استثمارات الملك ونبلاء البلاط والارستقراطية المدنية والعسكرية؟.

وهكذا تشكلت طريقة الانتاج العبودية. وأصبح العبيد يشكلون القوة العاملة الأساسية في استثمارات الملك والمعابد، وفي ممتلكات نبلاء البلاط والارستقراطية المدنية والعسكرية، وغدا من ثم وجود المجتمع يرتكز على العمل العبودي. وخدمة لمصالح طبقة مالكي العبيد، خاض فراعنة مصر الحروب العديدة بغية الاستيلاء على الرقيق والماشية وغيرها من الثروات.

وكان العبيد يعملون في الزراعة ومنظومات الري والورشات الحرفية والمناجم ونقل الاحمال، كما كانوا يعملون في بناء القصور الملكية والمعابد وخدماً فيها وجنوداً في الجيش. وبفضل العمل العبودي تحققت في مصر القديمة أعمال هائلة كسد الفيوم وتجفيف المستنقعات وانشاء اقنية الري والجسور وبناء الاهرامات والقصور والمعابد كما تشهد على ذلك النقوش والرسوم القديمة.

وقد نشطت تجارة الرقيق خاصة في عهد الأمبراطوريتين الوسطى والحديثة. وكان العبيد من بين السلع المستوردة كما يشير إلى ذلك نقش حتشبسوت على جدران معبد الدير البحري[٥٧]. وأخذ الاغنياء من المصريين يشترون العبيد ويلحقونهم بخدمتهم.

وإلى جانب حروب الفتح المستمرة، التي كانت المصدر الرئيس لتشكيل طبقة العبيد، كان المجتمع العبودي المصري نفسه مصدراً آخر لزيادة عدد الرقيق. فقد ترتب على تراكم الماشية وأدوات الانتاج والبذور في أيدي الأغنياء أن أخذ يزداد في اطّراد مستمر التجاء المشاعيين الفقراء وحتى الحرفيين إلى هؤلاء كي يحصلوا منهم على قروض عينية كانت تنتهي إلى خضوعهم وتحويلهم إلى عبيد عند عدم سدادهم الديون في الأجل المحدد. وإن تحويل الناس الاحرار إلى عبيد مدون في النقوش التي يعود تاريخها إلى أواخر الامبراطورية المصرية[٥٨].

---

(٥٦) انظر ص ٦٣.

(٥٧) انظر ص ٩٤ - ٩٥.

(٥٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٤

لقد كان العبد في مصر العبودية يعتبر «رأساً» مملوكاً لسيده الذي له عليه سلطان مطلق لا يقتصر على استغلاله واجباره على العمل، وإنما كان يمتد إلى بيعه وشرائه، بل الاعتداء عليه وقتله.

لقد نقم العبيد «الاموات الاحياء» على مستعبديهم وجلاديهم واشتركوا في جميع الانتفاضات التي قام بها الفلاحون المحرومون والحرفيون الكادحون في سبيل انعتاقهم من العبودية وتحسين ظروف حياتهم.

الفصل الحادي عشر

الحركات الشعبية

تعاقمت التناقضات الاجتماعية في مجتمع العبودية المصري. فقد تطور وازداد عدد الأيدي العاملة الرقيقية زيادة كبيرة، واشتد استغلال العبيد وحشية، وتدهورت أوضاع الفلاحين المشاعيين الأحرار الذين كانوا يعيشون في الفقر والعوز وتحت الخطر الدائم من استعبادهم جراء ما عليهم من ديون، وازدادت سوءاً أيضاً أحوال الحرفيين الكادحين بسبب قسوة ظروف العمل وضآلة الجرايات التي تدفع لهم لقاء يوم العمل الطويل والصعب. وتفجرت الصراعات بين الأجنحة المختلفة للطبقة الحاكمة. غير أن التناقض الرئيس كان بين العبيد ومن هم في مستواهم من الفلاحين الفقراء والحرفيين الكادحين من جهة، والطبقة الارستقراطية والكهنة من جهة أخرى. وتوترت العلاقات بين المالكين والمحرومين، بين المستعبِدين والمستعبَدين، بين المستغِلين والمستغَلين، وبلغ هذا التوتر درجة التفجر والاصطدام الذي أدى، فيما أدى، إلى سقوط الدولة القديمة وإلى اضعاف الدولة العبودية المصرية على وجه العموم.

وقد عبرت الطبقات والفئات المستعبَدة والمحرومة والمستَغلة عن حقدها على مستعبديها ومضطهديها بأشكال متعددة من بينها: الشكوى (شكوى الفلاح الفصيح) والامتناع عن العمل (اضراب العمال في قرية جبانة طيبة في حكم رعمسيس الثالث) والهرب من الأرض أو التجنيد العسكري، والثورة على الحكم، وذلك على الرغم من جبروت النظام الفرعوني العبودي وتأثير الكهنة الايديولوجي السلبي في جماهير الشغيلة بوجوب الخضوع والطاعة للسلطة الملكية المقدسة.

لقد تصدى الفلاحون والحرفيون والعبيد لهذا الظلم الاقتصادي والاستبداد الاجتماعي

وطغيان السلطة. وفجرت المظالم التي تكاثرت عليهم من ملاك العبيد وموظفي الحكومة ثورة جماهيرية شاملة، استطاعت أن تنتشر وتقوى مستفيدة من تفكك الطبقة الحاكمة وخلافاتها الداخلية.

وتحدثنا عن هذه الثورة الشعبية بردية في سقارة قرب ممفيس، وهي محفوظة الآن في متحف ليدن بهولندة تحت رقم ٣٤٤.

وقد تضاربت آراء المؤرخين حول تاريخ هذه الوثيقة الأدبية. فالاكاديمي ف. ف ستروڤيه يذكر أن هذه الثورة الشعبية قامت في نهاية الدولة الوسطى (في عهد الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، أي حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد) بينما يذكر المؤرخون الأوروبيون الغربيون أنها نشبت في مرحلة الفوضى والانقسام الأول في أواخر الدولة القديمة (في عهد الأسرتين السادسة والسابعة، أي حوالي ٢٢٠٠ قبل الميلاد). ويذكر الدكتور سليم عادل عبد الحق «أن الوثيقة المحفوظة في متحف ليدن منسوخة في زمن الأسرة الثامنة عشرة عن بردية قديمة يرجع تاريخها إلى زمن الأسرة التاسعة التي حكمت في هيراكليوپوليس»[1]. ويذكر آخرون أن هذه البردية تعود إلى نهاية الدولة الحديثة، أي حوالي سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد، ولكن لغة النص تدل أن الصياغة الأولى لهذه العبارات كانت قد وضعت في عهد الدولة الوسطى (ما بين ٢٠٠٠-١٧٠٠ قبل الميلاد تقريباً). وهذا يعني أن كاتب البردية الذي عاش سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد قد نقل النص عن بردية قديمة تعود إلى حوالي سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد.

وقد درس هذه الوثيقة التاريخية غاردنر سنة ١٩٠٩ تحت عنوان «نبوءات حكيم مصري» كذلك درسها برستد في كتابه «فجر الضمير». وترجمها وحللها الأكاديمي السوفييتي ستروڤيه عام ١٩١٧. وقام بترجمتها الاستاذ المصري سليم حسن في الجزء الأول من كتابه «تاريخ الأدب المصري القديم» حيث يطلق عليها اسم «نبوءات الحكيم ايپور».

تتكون الوثيقة من (١٤) صفحة، وهي عبارة عن مقدمة وستة اشعار وخاتمة. وقد ضاع أولها الذي كان يحتوي على بيان الأحوال التي دعت الحكيم إلى الإدلاء بتحذيراته أو نبوءاته، وهشم آخرها وبها فجوات كثيرة في وسطها. وأفكار ايپور في ترتيبها الأصلي غير منسقة إلى حد كبير، فهو يكثر من التكرار والتنقل بين المعاني المختلفة.

وأقوال الحكيم ايپور تصف الثورة الشعبية وهي في أوج اشتعالها. ونعرف منها أنها كانت

(١) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): نوطة عن مصر والشرق القديم. دمشق ١٩٤٧.

ثورة طبقية عامة، شملت أرياف مصر القديمة ومدنها. وقد أطاحت بنظام الحكم وقوضت أسس المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما موقف الحكيم ايپور من الثورة الشعبية فنستطيع أن نلحظه بسهولة من وصفه لأحداث الثورة وتحليله لها من وجهة نظر متعالية جداً ليس فيها أي عطف على الدوافع التي حركت الجماهير الشعبية.

تبدأ الوثيقة بالحديث عن الحروب الأهلية والبطالة والمجاعات والأزمات والأوبئة واضطراب الأمن وضعف السلطة وتجزئة البلاد، أي تصف الظاهرات والعلل الناجمة عن التناقضات الطبقية الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية، والصراعات بين أجنحة الطبقة الحاكمة.

ثم تنتقل الوثيقة إلى وصف أحداث الثورة التي قام بها الفلاحون في الأرياف والحرفيون في المدن وانضم إليهم العبيد، أي جميع الطبقات والفئات التي تعمل ولا تملك شيئاً ضد الحكام والأثرياء.

لقد عمت الانتفاضة البلاد، ونجح الثوار في أخذ العاصمة، واعتقلوا الملك، وقتلوا الموظفين وملاّك العبيد واستولوا على أموالهم. يقول ايپور:

« ثار الناس على سلطة الفرعون التي شرعها الإله (رع)، واعتقل الثوار الملك، وقتلوا الموظفين، ولاذ الحكام بالفرار، وألقى المنتفضون بموميات الفراعنة خارج القبور، واحتلوا المعابد وألغوا الوظائف الدينية، واستولوا على مخازن الملك والاسياد والكهنة، وأعلنوا أن جميع ما فيها من قمح وغلال قد أصبح ملكية وطنية »[2]. « ونهبت سجلات قاعة العدل، ومزقت برديات القوانين في الشوارع. وهوجمت مراكز الإدارة الملكية، وأتلفت جميع سجلات المالية والمساحة ووثائق الملاكين، وديست الأنظمة الفرعونية »[3]. « ودخل الفقراء إلى قصور الأغنياء الكبيرة واستقروا فيها وجردوا أصحابها من جميع أموالهم وأجبروهم على العمل من أجلهم »[4]. « انظر! لقد أصبح الفقراء أغنياء والعبيد أسياداً ...

---

(٢) حسن، سليم: تاريخ الأدب المصري القديم. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٥. ١/ ٣٠٩، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٣.

(٣) المصدر ذاته ١ / ٣٠٨.

(٤) جماعة من المؤلفين السوفيات، تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص ١٥٧.

وفقد الملاكون جميع ما يملكون، وصاروا يعملون في الورشات وخدماً في المخازن »[٥].

« وشلت الحركة الاقتصادية، فأصحاب الحرف لا يقومون بأي عمل... والقوم لا يقلعون بسفنهم شمالاً إلى بيبلوس (جبيل)... وخزينة الملك خاوية والمعابد دون تقدمات، والبلاد أصبحت تدور على عقبيها كما تدور عجلة الفخار »[٦].

وتنتهي الوثيقة بالنصح والتحذير من الإهمال والاخذ بالإصلاح وباعلان مؤلفها عن تعاسته وحزنه على مصائب هذا الزمن. تلك هي الخطوط العريضة للثورة الشعبية. وإلى القارىء الكريم مقاطع واسعة من نص بردية سقارة.

كانت الثورة عامة اشتركت فيها مختلف الفئات الشعبية، حتى « أصحاب أهدأ الحرف كبائعي الحلوى وصانعي الجعة »[٧] على حد تعبير ايبور.

وما ان نقرأ بعض السطور حتى نعرف أن الحكومة قد انهارت بكل أجهزتها ودواوينها ومحاكمها، ونهب ما فيها من سجلات ووثائق، وديست مجموعات القوانين بالأقدام. يقول ايبور:

« لقد سلبت وثائق قاعة العدل الفاخرة، وأصبح المكان السري مكشوفاً... وطرحت سجلات المحاكم أرضاً، وصار الناس يطأونها في الطرقات ويمزقها الفقراء في الأزقة »[٨].

ولم تنج الإدارات العامة من هذا المصير، وأفشيت الاسرار المقدسة، وشملت حملة الانتقام أشخاص الموظفين أنفسهم. يقول الحكيم ايبور:

« وفي الحق لقد هوجمت الادارات العامة ونهبت قوائمها. وصار العبيد أصحاب عبيد... وأذيعت أسرار التعاويذ السحرية، وصارت لا أثر لها، لان القوم حفظوها في أذهانهم ».

وفي الحق لقد ذبح الموظفون، وسلبت دفاترهم... »[٩].

---

(٥) حسن، سليم: المصدر ذاته ١ / ٣٠٨، ٣١١. انظر أيضاً: جون ولسون: الحضارة المصرية. ترجمة أحمد فخري. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ١٨٩. سليم عادل عبد الحق: المصدر السابق.

(٦) حسن، سليم: المصدر ذاته ١ / ٣٠٥، ٣٠٤.

(٧) المصدر ذاته ١ / ٣٠٢.

(٨) المصدر ذاته ١ / ٣٠٨.

(٩) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

بل إن القصر الملكي نفسه لم ينج من هذا المصير، فانهارت الملكية، ونهبت قبور الملوك وحطمت تماثيلهم. يقول ايپور:

« انظر! إن النار قد اشتعلت عالياً، ويندلع شررها ضد أعداء البلاد ».

« انظر! لقد حدثت أمور لم تحدث منذ زمن بعيد مضى، إذ اختطف الفقراء الملك »

« انظر! لقد تجاسر بعض الثائرين فحرموا البلاد من الملكية ».

« انظر! لقد أصبح الناس يظهرون العداء للملك الذي جعل الأرض في سلام، فصار يرقد الآن على نعش، وما خبأته الأهرام أصبح خلواً ».

« انظر! إن سر الأرض الذي لا يعرف أحد حدوده (*) قد أفشي، وأصبح مقر الملك رأساً على عقب في لحظة »[١٠].

وترتب على انهيار الحكومة أن اختل الأمن وعمت الفوضى في البلاد، وذلك بسبب عدم وجود قيادة منظمة واعية للثورة تعمل وفق برنامج سياسي- اجتماعي واضح المبادىء والأهداف، وتتمكن من الضبط الثوري للجماهير. يقول ايپور:

« حقاً لقد امتلأت البلاد بالعصابات حتى ليذهب الرجل إلى الحرث ومعه درعه »

« حقاً لقد أصبح حامل القوس مستعداً، والمجرمون في كل مكان... »[١١].

« حقاً لقد أصبح الناس يختبئون في الاعشاب حتى يأتي المسافر في ظلام الليل ليسلبوا منه حمله، وما عليه يسرق، ويضرب بالعصا حتى ينقطع نفسه ثم يذبح ظلماً »[١٢].

« وأن الرجل ليذبح بجوار أخيه فيتركه وحيداً لينجو بنفسه »[١٣].

كما ترتب على انهيار الحكومة ان توقفت جباية الضرائب، وأفلست الخزانة العامة، ونهبت المخازن الملكية، واقفرت من الخيرات. يقول ايپور:

« وفي الحق لقد اتلفت دفاتر كتاب الحقيبة (جباة الضرائب). وأصبحت غلال مصر ملكاً مشاعاً »[١٤].

(*) الأمور السرية التي لا يعرفها أحد غير الملك.

(١٠) المصدر ذاته ١ / ٣٠٩.

(١١) المصدر ذاته ١ / ٣٠٣.

(١٢) المصدر ذاته ١ / ٣٠٧.

(١٣) المصدر ذاته ١ / ٣١٢.

(١٤) المصدر ذاته ١ / ٣٠٨.

« إن مخازن الملك أصبحت ملكاً مشاعاً لكل فرد ، ولا ضرائب تجبى للقصر كله ، ومع ذلك فإن له قانوناً شعيراً وقمحاً ودجاجاً وسمكاً ، يملك المنسوج الأبيض والتيل الجميل والنحاس والزيت ، ويملك الحصير والبسط ... ومحفة وكل المحاصيل الجميلة ... »[١٥].

« حقاً إن مقاطعتي (الفانتين وطينة وهي من ممتلكات الوجه القبلي) أصبحتا لا تـؤديـان الضرائب بسبب الحروب الداخلية . وهناك حاجة إلى الفاكهة والفحم وكل أنواع التجارة ، وكل ما ينتجه الصناع .. فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل ؟ »[١٦].

وتدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد ، فتوقف الأنتاج ، وبارت الزراعة ، وهجر النـاس الحرف والصناعة وعم الفقر والخراب . وتمتلىء بردية ايپور بوصف مظاهر هذا الخراب الاقتصادي . يقول ايپور :

« حقاً إن النيل في وقت الفيضان ، ومع ذلك لا يحرث أحد من أجلـه . وكل إنسان يقول : لا أعرف ما حدث في البلاد »[١٧]. مما يشير إلى حالة الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار ، حيث لم يعد للناس ثقة كافية لفلاحة الأرض في هذا الزمن العصيب ، فهجروا الأرض وتركوا المواشي تهيم على وجوهها ، ولم يعد للناس شيء .

« وفي الحق لقد نفذت الغلال في كل مكان ، وجرّد القوم من الملابس والعطر والزيت ، وصار كل إنسان يقول : لم يبق عندي شيء . وصار المخزن خلواً وحارسه ملقى على الأرض ، والماشية تركت تهيم على وجهها ، وليس هناك من يجمعها ويلم شعثها . فكل إنسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ما يريد ويسمها باسمه (أي يعلّمها)[١٨].

وتوقفت الصناعة :

« فلم يعد هناك صانع يعمل ، والعدو يحرم البلاد حرفها »[١٩].

وتعطلت التجارة الخارجية التي نشطت في عهد الدولة القديمة مع فينيقيا وغيرها من البلدان البحرية « وأصبح الناس اليوم لا يبحرون شمالاً إلى بيبلوس (جبيل) » . وهذا ما يثير ضيق الحكيم ايپور والوجهاء أشد الضيق « وإذن ماذا نصنع للحصول على خشب الأرز اللازم

---

(١٥) المصدر ذاته ١ / ٣١٣ .
(١٦) المصدر ذاته ١ / ٣٠٥ .
(١٧) المصدر ذاته ١ / ٣٠٣ .
(١٨) المصدر ذاته ١ / ٣٠٨ ، ٣١٢ .
(١٩) المصدر ذاته ١ / ٣١٣ .

للموميات ؟ » « ... والذهب قلّ والـ... الذي كان يستعمل في كل الحرف قد انتهى »[٢٠].

وأدى هذا الانهيار الاقتصادي إلى انتشار القحط والبؤس والمجاعة. يقول ايپوِر :

« وفي الحق لقد أصبح القوم يعيشون على الحشائش ويشربون الماء. وحتى الطيور لا تجد ما تأكله من فاكهة وأعشاب. وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير دون أن يقال هذا أحسن لك مما هو لي لان القوم صاروا جياعاً »(*)[٢١].

وانتشرت الأمراض والأوبئة بسبب انهيار الاقتصاد وتدهور الصحة العامة، وأدت القاذورات والمجاعة إلى هلاك خلق كثيرين، وكانت الجثث تلقى في النهر والشوارع لتعذّر دفنها بسبب كثرتها. يقو، الحكيم ايپور:

« حقاً إن القلب لثائر.. . والوباء قد انبث في كل الأرض، والدم صار في كل مكـان... ولفائف المومياء تتكلم، وان لم يقترب الإنسان منها »

« حقاً لقد أصبح منظر الناس كمنظر طير « جم »(**). والقاذورات منتشرة في كـل البلاد، ولا يوجد امرؤ بملابس بيضاء في هذا الوقت »[٢٢].

« حقاً لقد دفن رجال عديدون في النهر، فأصبح النهر قبراً »[٢٣].

« حقاً لقذ أصبحت التماسيح في تخمة بما قد سلبت، إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر. وحالة البلاد أصبحت سيئة... »[٢٤].

وقد دفعت هذه الأوضاع جماهير الشعب المستعبَدة والجائعة إلى مهاجمة قصور الحكام والأثرياء، وانزلت بهم أسوأ الانتقام. يقول ايپور :

« حقاً لقد أصبح الحزن يملأ قلوب أصحاب الأصل الرفيـع، أمـا الفقـراء فقـد امتلأوا سروراً وأضحت كل بلدة تقول: فلنقص أصحاب الجاه من بيننا »[٢٥].

---

(٢٠) المصدر ذاته ١ / ٣٠٥.

(*) أي أن القوم أصبحوا يأكلون ما كانوا يطعمون به الدجاج والخنازير.

(٢١) المصدر ذاته ١ / ٣٠٣.

(**) جم: طير مائي له سيقان طويلة ورقبة طويلة كذلك، ويعيش في القاذورات والمستنقعات، والأغلب أنه نوع من البجع.

(٢٢) المصدر ذاته ١ / ٣٠٣.

(٢٣) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

(٢٤) المصدر ذاته ١ / ٣٠٤.

(٢٥) المصدر ذاته ١ / ٣٠٣.

« حقاً لقد أصبح الحكام جياعاً ، وفي بؤس شديد ... » [٢٦] .

« وإن قضاة البلاد قد طردوا من طول الأرض ... طردوا من بيوت الملك » [٢٧]

« وإن رؤساء البلاد يهرولون دون أن يكون لهم أي عمل بسبب الحاجة » [٢٨] .

« حقا لقد أصبح أولاد الأمراء يضرب بهم الناس عرض الحائط ، والأطفال يلقون على قارعةالطريق » . وانتزعت موميات علية القوم من قبورها « والذين كانوا في المكان الطاهر قد ألقوا على قارعة الطريق ، وأصبح سر التحنيط جهراً » [٢٩] .

« انظر ! ان الأرض أصبحت ملأى بالعصابات ، والرجل الوجيه يغتصب التعساء متاعه » [٣٠]

« وصارت المخازن خاوية ، وحراسها يلقون على الأرض » [٣١] .

ونهب الناس ثروات الأغنياء ، فأصبح الذين يملكون لا يملكون ، والذين كانوا محرومين من كل شيء يتمتعون بجميل الاشياء . وقد أفاض الحكيم ايپور في وصف مظاهر الانقلاب الاجتماعي في مقارنات بديعة ساخرة بين ما كان وما هو كائن ، ولكن في لهجة تشوبها المرارة والحزن ، لا يشعر بها سوى من كان ينتمي إلى تلك الطبقة التي جردت من المال والسلطة والجاه والنفوذ . يقول ايپور :

« حقاً لقد أصبح المعوزون يملكون أشياء جميلة ، ومن كان يخصف نعليه فيما مضى أصبح صاحب ثروة » .

« انظر ! إن من كان لا يملك شيئاً أصبح ذا ثروة ، وصار الرجل العظيم (*) يمدحه » .

« انظر ! إن فقراء الأرض أصبحوا أغنياء ، ومن كان يملك متاعاً أصبح لا شيء عنده »

« انظر ! إن الذين كانوا يخدمون أصبح لهم طائفة من الخدم ، ومن كان رسولاً أضحى يرسل غيره »

« انظر ! إن من كان لا يملك الخبز أصبح يملك جريناً ، وما يملأ به مخزنه هو متاع غيره » [٣٢] .

---

(٢٦) المصدر ذاته ١ / ٣٠٧ .

(٢٧) المصدر ذاته ١ / ٣١٠ .

(٢٨) المصدر ذاته ١ / ٣١٢ .

(٢٩) المصدر ذاته ١ / ٣٠٦ .

(٣٠) المصدر ذاته ١ / ٣١٠ .

(٣١) المصدر ذاته ١ / ٣٠٨ .

(*) الرجل العظيم : الموظف الكبير .

(٣٢) المصدر ذاته ١ / ٣١١ .

« انظر ! إن من لم يكن في مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتاً أصبح يملك قبراً . ومن لم يكن في قدرته أن يقيم حجرة أضحى الآن يملك فناء مسوّراً »

« انظر ! إن الرجل الغني أصبح يمضي الليل وهو ظمآن ، ومن كان يستجدي منه الحثالة صار الآن يملك الجعة القوية » (★) .

« انظر ! إن أولئك الذين يملكون الملابس أصبحوا في خرق بالية ، ومن كان لا ينسج لنفسه أضحى الآن يملك الكتان الجميل »

« انظر ! إن الذي لم يكن يملك قارباً أصبح الآن يملك سفناً ، وأضحى صاحبها ينظر إليها كمداً بعد أن لم تعد ملكاً له » (٣٣) .

« انظر ! إن الذي لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس أصبح يملك ظلاً ، ومن كان لهم ما يؤويهم صاروا الآن عرضة لزعازع العاصفة » (٣٤) .

انظر ! إن من لم يكن يملك ثوراً للحرث أصبح يملك قطعاناً . ومن لم يكن يملك حفنة قمح أصبح يملك أجراناً . ومن كان يبحث لنفسه عن صدقات من القمح صار الآن يخرج من مخازنه الصدقات » .

« انظر ! إن من كان لا يملك اتباعاً أصبح رب عبيد . ومن كان من علية القوم أضحى الآن ينفذ أوامر غيره » (٣٥) .

« انظر ! إن الأصلع الذي كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أواني العطور الزكية . و من كانت لا تملك صندوقاً أصبحت تملك صواناً ، وتلك التي كانت تشاهد وجهها في الماء صارت تملك مرآة » .

« انظر ! إن من كان يجهل العزف على العود أصبح يملك قيثاراً . ومن كان لا يغني له أحد أصبح الآن يثني على آلهة الغناء » (٣٦) .

« انظر ! إن الذين كانوا ينامون على الأسرّة أصبحوا يرقدون على الأرض . وذلك الذي كان ينام في الأوساخ صار يملك سريراً » (٣٧) .

وينتقل الحكيم إلى لهجة أشد تأثيراً في آذان سامعيه ، فيمضي في تصوير ما آل إليه حال

(★) الجعة القوية : أي الجعة التي تسكر .

(٣٣) المصدر ذاته ١ / ٣١٠ .

(٣٤) المصدر ذاته ١ / ٣١١ .

(٣٥) المصدر ذاته ١ / ٣١٢ .

(٣٦) المصدر ذاته ١ / ٣١١ .

(٣٧) المصدر ذاته ١ / ٣١٢ .

السيدات النبيلات من ضعة وهوان بعد انقلاب الأوضاع الاجتماعية، فهن قد اضطررن إلى العمل بأيديهن أو التسول أو بيع أجسادهن ليحصلن على القوت، في الوقت الذي أصبحت فيه الفقيرات رافلات في الترف. يقول ايبور:

«حقاً إن الذهب واللازورد والفضة والكرنيليان والبرونز والمرمر و... أصبحت تحلي جيد الجواري، في حين أن السيدات النبيلات يجبن أرجاء البلاد متسولات يقلن: ليت عندنا بعض الشيء لنأكل»[٣٨].

«حقاً! لقد أصبحت ربات الخدور في حالة يرثى لها، يرتدين الخرق البالية، وقلوبهن تتفطر حين يُحيّين»[٣٩].

«حقاً إن اللواتي لم يشاهدن نور النهار (*) قد خرجن»[٤٠]. «والعقيلات النبيلات يرقدن على الفراش الخشن»[٤١].

«انظر! إن السيدات النبيلات اللاتي كن يملكن متاعاً حسناً، أصبحن الآن يقدمن أجسادهن في الفراش، والذي كان أعزب بسبب الحاجة صار الآن يجد السيدات...»[٤٢].

ودارت الدائرة أيضاً على أبناء الوجهاء، إذ تخلى عنهم آباؤهم وأمهاتهم. يقول ايبور: «انظر! إن السيدات النبيلات يهربن، ويلقين بأطفالهن خوفاً من الموت... وأن أولاد رجال البلاط أصبحوا في خرق بالية»[٤٣]. «وأولاد الحكام يلقون في الشوارع»[٤٤].

ويلخص الحكيم ايبور الموقف بقوله:

«حقاً لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة الفخار»[٤٥]. أي أن أوضاع المجتمع قد تبدلت، وأصبح من كان في الأعلى في أسفل، ومن كان في الأسفل في أعلى كما تدور عجلة صانع الفخار فيأتي عاليها بسافلها.

«حقاً لقد التهمت النيران البوابات والعمد والجدران ... ودمرت البلاد. وأصبحت

---

(٣٨) المصدر ذاته ١ / ٣٠٤.

(٣٩) المصدر ذاته ١ / ٣٠٥. المعنى أنهن يخجلن حينما يشاهدن في حالة بؤسهن.

(*) لعله يقصد أن سيدات الطبقة الارستقراطية الثرية الحاكمة اللواتي كن يسكن البيوت أصبحن مرغمات على العمل في خارجها.

(٤٠) المصدر ذاته ١ / ٣٠٦.

(٤١) المصدر ذاته ١ / ٣١٠.

(٤٢) المصدر ذاته ١ / ٣١١.

(٤٣) المصدر ذاته ١ / ٣١٢.

(٤٤) المصدر ذاته ١ / ٣٠٨.

(٤٥) المصدر ذاته ١ / ٣٠٤.

الأرض الحمراء منتشرة في كل البلاد، وخربت المنازل، وتكسرت صناديق الأبنوس، وتحطمت الأخشاب الثمينة »[٤٦]. « وصارت النساء عاقرات، وامتنع الحمل »[٤٧].

وانعكست هذه الاوضاع على نفسيات علية القوم، فحلت الآلام والأحزان محل البهجة. يقول ايپور :

« حقاً لقد قضي على الفرح، ولم يعد يقام، بل الحزن هو الذي يتمشى في طول البلاد ممزوجاً بالأسى »[٤٨].

« حقاً لقد أصبح الحزن يملأ (قلوب) أصحاب الأصل الرفيع (أي عِلية القوم) والعظماء لايقيمون أفراحاً »[٤٩].

« » .... وإن مغنيات الخدور أصبحت أغانيهن لإلهة الغناء أنشودة حزن. والذين كانوا يجلبون البهجة بأقاصيصهم أصبحوا يجلسون على أحجار الطواحين(*)[٥٠].

وحتى الماشية....!

« أصبحت قلوب الماشية تبكي، والقطعان تندب حالة البلاد »[٥١].

وشاعت في الناس موجة من الشك وعدم الخوف من الآلهة. يقول ايپور :

« حقاً فإن الرجل الأحمق يقول: إذا عرفت أين يوجد الإله فإني أقدم إليه القرابين ».

« انظر إن القصابين يذبحون الإوز الذي يقدم إلى الإله بدلاً من الثيران(**)[٥٢].

وأدت هذه الأحداث إلى اضعاف البلاد، فغزاها الأجانب وطمع في خيراتها الطامعون وساموا أهلها الذل والهوان. يقول ايپور :

« لقد نزل قوم أغراب من الخارج إلى مصر »[٥٣]. « لان الدلتا أصبحت بلا

---

(٤٦) المصدر ذاته ١ / ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٤٧) المصدر ذاته ١ / ٣٠٣.

(٤٨) المصدر ذاته ١ / ٣٠٥.

(٤٩) المصدر ذاته ١ / ٣٠٣.

(*) لعله يقصد أن القاصّين الذين يسلون الناس أصبحوا بلا عمل.

(٥٠) المصدر ذاته ١ / ٣٠٦.

(٥١) المصدر ذاته ١ / ٣١٢.

(**) لعله يقصد أن الأغنياء المحدثين يفضلون أن يقدموا الإوز قرباناً للآلهة بدلاً من الثيران التي يأكلونها هم.

(٥٢) المصدر ذاته ١ / ٣١٢.

(٥٣) المصدر ذاته ١ / ٣٠٤.

حماية »[٥٤].

وأوقف الأجانب عجلة الانتاج في البلاد أو سيطروا عليهاوانتزعوها من أيدي المصريين. يقول ايپور:

« انظر! لا صانع يعمل لان العدو حرم البلاد حرفها »[٥٥]. « وأصبح الأجانب مهرة في صناعات الدلتا »[٥٦].

وأصبحت مصر من الذل كالجارية التي تصب الماء على أيدي أسيادها. يقول ايپور:

« انظر! إن مصر قد أصبحت تصب الماء، ومن كان يصب الماء على الأرض ... قد قبض على الرجل القوي، وهو في بؤس(*) »[٥٧].

ويضيق ايپور بهذه الأوضاع والمآسي فيستمطر اللعنات على كل شيء، ويتمنى أن ينقرض الناس وتعقم النساء. يقول الحكيم:

« ليت آخر الناس يكون قد حلّ، فلا حمل ولا ولادة! ليت العالم يتخلص من الغوغاء وتنفض المشاحنات! »[٥٨].

ثم يمضي ايپور فيعنف نفسه ويلقي اللوم عليها لانه لم يحذر من هذه الأوضاع من قبل يقول الحكيم:

« ليتني كنت قد رفعت صوتي قبل الآن، لربما أنقذت نفسي مما أعانيه الآن. ما أشد حزني لشقاء هذا العصر »[٥٩].

وينتقل ايپور من تعنيف نفسه إلى شن الهجوم على الملك، فينحي باللائمة عليه لأنه يعتكف منعزلاً في قصره بينما تغذيه حاشيته بالأكاذيب. يقول الحكيم:

« إن القيادة والفطنة معك، غير ان ما تبثه في طول البلاد هو الفوضى. انظر! إن الفرد يرمي الآخر... وإذا سافر ثلاثة رجال على طريق واحد فلا يوجد منهم اثنان، إذ ان العدد الأكبر يذبح الأصغر...

(٥٤) المصدر ذاته ١ / ٣٠٦.
(٥٥) المصدر ذاته ١ / ٣١٣.
(٥٦) المصدر ذاته ١ / ٣٠٦.

(*) صب الماء كان يقوم به الفقراء من الناس.
(٥٧) المصدر ذاته ١ / ٣٠٧.
(٥٨) المصدر ذاته ١ / ٣٠٧.
(٥٩) المصدر ذاته ١ / ٣٠٨.

« ولكنك ستأمر أن تجاب... فالأكاذيب تتلى عليك، والبلاد قش ملتهب.. وكل هذه الأعوام ارتباك... ».

« ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك »[٦٠].

ولكن ايپور لا يلبث أن يعود إلى اللين فيأخذ في تذكير الملك (*) بما كانت عليه الأحوال قبل الثورة. يقول الحكيم:

« تذكر كيف كانت ترعى الأنظمة، ويعزل الكهنة الاشرار »

« تذكر كيف تجلب الإوز سمينة، ويقرب الإوز والبط والقربين إلى الآلهة »

« تذكر كيف تنصب الاعلام وتنقش ألواح القربان، وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد، ويبيض بيت الله كاللبن، وكيف كان يعطر الأفق (**) ويخلد القربان من الخبز »[٦١].

ويغيّر ايپور لهجته للمرة الثالثة فيمضي يحلم بعصر جديد تستقر فيه الاوضاع مرة أخرى، وتنتعش النفوس بالآمال، ويزول الغم عن البلاد. يقول الحكيم: انه من الخير أن تسير المراكب جنوباً... »

« إنه من الخير أن تنصب الشباك وتمسك الطيور... »

« إنه من الخير أن تشيّد أيدي الناس الاهرام، وتحفر البرك، وتنشيء للآلهة مزارع فيها أشجار.

« إنه من الخير أن يكون الناس فرحي القلب »

« إنه من الخير أن يكون السرور في أفواه القوم، وحكام الأقاليم يقفون، وينظرون إلى الأفراح المقامة في بيوتهم وهم يرتدون جميل الملابس... »

« إنه من الخير أن تكون الأسرَّة وثيرة، ووسادات العظماء محمية بالتعاويذ، ورغبة كل إنسان تحقق بسرير مظلل خلف باب مغلق ولا يضطر إلى النوم في الأعشاب »[٦٢]

---

(٦٠) المصدر ذاته ١ / ٣١٥.

(*) الملك الذي يحلم به ايپور لاستعادة وحدة البلاد واستقرارها.

(**) يعطر الأفق: المعبد.

(٦١) المصدر ذاته ١ / ٣١٤.

(٦٢) المصدر ذاته ١ / ٣١٦.

عثر الاستاذ غولتيشف(★) على بردية موجودة الآن في متحف لينينغراد . وهي تحتوي على نبوءة كاهن مرتل اسمه « نفر روهو » .

يخمن الأكاديمي السوفياتي ستروفيه بأن تاريخ الوثيقة يعود إلى حكم الأسرة الثامنة عشرة ، أي إلى نهاية الامبراطورية الوسطى حوالي عام ١٧٠٠ قبل الميلاد (٦٣) . غير أن عدداً آخر من الباحثين السوفيات والأجانب يشكون في ذلك ، ويفترضون بأن تاريخها أقدم من ذلك بكثير (٦٤) .

ويبدو أن هذه الوثيقة الأدبية وضعت أساساً لتمهيد الأذهان لظهور امنمحات الأول (١٩٩٢ ـ ١٩٦٢) قبل الميلاد في صورة « البطل المخلّص » ، إلا أنها تصور الحالة الاجتماعية التي كانت تحياها مصر القديمة في المرحلة التي تلت الثورة الشعبية التي هدمت نظام الحكم وأسسه السياسية ـ الاجتماعية ولم تنجح في ايجاد نظام الحكم البديل .

لقد أصبحت البلاد خراباً ، فلا من يهتم بها ، ولا من يذرف الدمع عليها . وكان من نتائج الغزو الأجنبي والاضطرابات الداخلية تعطيل نظام الري وتدهور الزراعة والحرفة ، مما انعكس آثار ذلك سلبياً على المنتجين الأساسيين للخيرات المادية وعلى الاقتصاد الوطني .

إن البلاد ممزقة ضعيفة متهالكة ، وحتى الشمس قد احتجبت ـ كناية عن الظلام المعنوي الذي يعيش فيه الناس ـ وكل ما هو طيّب ولى ، وأتى لغزاة الأجانب من الشرق والغرب ليسوموا مصر الخسف والهوان ، ويظهروا على أبنائها ، ويتمتعوا دونهم بخيراتها . أما أهل البلاد فقد هووا إلى الدرك الأسفل بسبب الفقر والحاجة ، فأصبح الابن يقتل أباه ، والأخ يخاصم أخاه ، ولا يهرع إلى نجدته إذا تعرض لخطر ... ان شبح المجاعة وظلم الحكام يطاردان الجميع ، فأصبحت الأفواه ملأى بعبارات الاستجداء ، وأصبح الناس لا يجدون كفايتهم من الخبز ولكن جامعي الضرائب لا يشفقون على حالهم ، وإنما يصرون على استخدام مكيال كبير ويستوفون الكيل رابياً . يقول نفر روهو :

« انتبه يا قلبي ، واذرف الدمع على هذه البلاد في كل نبضاتك ... »

« أصبحت البلاد خراباً فلا من يهتم بها ، ولا من يذرف الدمع عليها ... »

« كيف أضحت هذه البلاد وكيف أمست ؟ »

(★) غولتيشف : أحد علماء اللغة المصرية .

(٦٣) جماعة من المؤرخين السوفيات : تاريخ العصور القديمة باللغة الفرنسية ص ١٥٦ .

(٦٤) المصدر ذاته والصفحة ذاتها .

« إن الشمس قد احتجبت، ولم تعد تشرق لیری الناس »

« ونهر مصر (النيل) قد جف، حتى ليستطيع المرء أن يعبره ماشياً ... »

« ان كل ما هو طيب قد ولّى، والبلاد تحتضر ... »

« إن الأعداء قد ظهروا في مصر، والآسيويون قد نزلوا على برها... »

« سوف أريك هذه البلاد ذليلة بائسة، وما لم يكن يحدث أبداً قد حدث ... »

« سوف أريك الابن وقد أصبح عدواً، والأخ قد أصبح خصماً، والابن يقتل أباه، والأفواه ملأى بعبارات الاستجداء، وكل الأشياء الطيبة قد انقضت، والأرض يعمها الخراب، وأملاك المرء تنتزع منه وتعطى للغريب ».

« سوف أريك أن المالك صار في حاجة والأجنبي قد استولى على ماله وخيراته ».

« ... وأن الأرض قد نقصت وتضاعف حكامها، والقمح أصبح نادراً، ولكن المكيال كبير، وجامع الضرائب يصر على أن يجلعه رابياً ».

« سأريك البلاد، وقد صارت مغزوة تتألم (أي ترسف بأغلال العبودية)، ومنطقة هليوپوليس (عين شمس) لم تعد مستقراً للآلهة »(٦٥).

وبعدُ يتحول نفر روهو من غير تردد أو تشكك عن تلك الصورة التي يصف فيها آثار الخراب ويعلن قدوم الملك الذي سيخلص مصر مما حاق بها، إذ يقول:

« سيأتي ملك من الجنوب اسمه أميني (امنمحات)، وسيتسلم التاج الأبيض (رمز الجنوب)، ويلبس التاج الأحمر (رمز الشمال)، فيوحد مصر بذلك التاج المزدوج وينشر السلام في ربوعها على الوجه الذي يحبه أهلها ... »(٦٦).

« وسيفرح أهل زمانه، وسيجعل ابن الانسان اسمه باقياً أبد الآبدين. أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فقد أطبقوا أفواههم خشية منه، والآسيويون سيقتلون بسيفه، واللوبيون سيحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون لنصائحه، والعصاة لبطشه. وسيخضع المتمردون للصل(*) الذي على جبينه »(٦٧).

(٦٥) حسن، سليم: الأدب المصري القديم ص ٣٢١.

(٦٦) برستد، جيمس هنري: فجر الضمير. ترجمة الدكتور سليم حسن. دار مصر للطباعة ـ القاهرة ١٩٥٦ ص ٢١٦.

(*) صل الملك وإله الشمس (رع): هذا الثعبان الذي يوضع في مقدمة التاج الملكي لينفث السم في وجه كل من يريد أن يقترب من الملك بسوء وذلك لتخويف الناس من شخص الفرعون ونظامه المقدس الاستبدادي.

(٦٧) برستد: المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

« وسيقيمون (سور الحاكم)- أي إعادة بناء الحصون شرقي الدلتا- حتى لا يتمكن الآسيويون من غزو مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لكي تردها أنعامهم. والعدالة (ماعت) ستعود إلى مكانها، والظلم ينفى من الأرض. فهنيئاً لمن سيرى ذلك ومن سيكون من نصيبه خدمة ذلك الملك (*) (٦٨).

يمكن الاستنتاج، من سياق أحداث الثورة ونتائجها، أن الانتفاضة الجماهيرية الكبرى التي سجلت وقائعها وآثارها الوثيقتان الأدبيتان « نبوءة الحكيم ايبور » و« نبوءة الكاهن نفر روهو » كانت انتفاضة تلقائية طبقية، اشتركت فيها كافة الفئات المستعبدة والمظلومة التي تملك شيئاً ضد الطبقة الارستقراطية السائدة المالكة لوسائل الانتاج بما فيها العبيد.

وكانت انتفاضة الجماهير العاملة تعبيراً عفوياً عن استيائها ينقصه التنظيم والانضباط، شأن جميع الثورات الرقيقية التي حدثت في المجتمعات العبودية إبان العصور القديمة. فلم يكن للثوار برنامج اجتماعي محدد المبادىء والأهداف، كما لم يكن لهم حزب أو منظمة سياسية تقود المنتفضين لتحقيق المبادىء والأهداف المحددة في البرنامج. فالثوار بعد أن دمروا أجهزة الدولة العبودية وقتلوا الموظفين والأغنياء واستولوا على أموالهم، لم ينشئوا سلطة ما، ولم يلغوا النظام العبودي، ذلك لإنهم لم يكونوا يعرفون غيره، مما أتاح الفرصة لفصائل الارستقراطية لتوحيد قواها، وإعادة سلطة الفراعنة إلى مصر.

واشترك الفلاحون والكادحون الحرفيون في الحروب الأهلية التي مزقت النظام العبودي الفرعوني بعد انهيار الدولة الحديثة. وقام شعب طيبة بطرد الملك أوزوركون في القرن التاسع قبل الميلاد؛ واندلعت ثورات جماهيرية عديدة إبان الاحتلال الفارسي لمصر، ولكن الغزاة أخمدوها بشدة (٦٩).

(*) ذلك الملك: يقصد الملك المنشود. يتساءل الباحث الاستاذ جيمس هنري بريستد: هل تأكيد نفرر وهو أن بطله « امنمحات » سيوحد البلاد ويعيد الأمن والنظام إليها هو مجرد نبوءة بحادثة بعد وقوعها، أو كان ذلك اعلاناً ناجحاً عن بطل منتصر قد نجح في اصلاح مصر العليا حتى أن انتصاره النهائي، وإصلاحه كلَّ مصر كان حدوثها متوقَّعاً، أو هل كان نفرروهو مرسلاً من قبل « امنمحات » إلى مصر السفلى ليعلن قدومه إليها، أو هل كان من أنصار « امنمحات » يعظم اصلاحاته بتصويرها بجانب صورة ما آلت إليه البلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه؟ / المصدر ذاته ص ٢١٧.

(٦٨) المصدر ذاته ص ٢١٧.

(٦٩) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي - الاقتصادي ص، ٦٠.

إضافة إلى المقاومة الايجابية، لجأ الفلاحون المعدمون والحرفيون الكادحون والعبيد إلى وسائل المقاومة السلبية، وذلك بالامتناع عن العمل والفرار من الأرض أو الجندية.

اضراب العمال في عهد رمسيس الثالث

يمكن الباحث أن يستخلص بعض التفصيلات عن إضراب العمال أيام رمسيس الثالث من ورقة إضرابهم. وقد أرخت هذه الورقة التي يطلق عليها « ورقة الإضراب » بالسنة التاسعة والعشرين من حكم هذا الفرعون.

كان عمال قرية جبانة طيبة (*) يعملون في توريد الماء والخضر والسمك لحساب الدولة ويتلقون لقاء ذلك جرايات قليلة وغير منتظمة. وكانوا يعيشون حياة بائسة ويسكنون أكواخاً حقيرة.

وكانت طائفة عمال القرية تتألف على مايظهر من عشرين ومئة عامل في العادة، يقسمون إلى قسمين: قسم اليمين، وقسم الشمال. وكان لكل قسم رئيس عمال وكاتب. وكان للعمال مفتشون لهم عمل معين، إذ نجد في ورقة الإضراب عاملاً يقول لأحد الكتبة ولأحد رؤساء العمال: « إنكم رؤساؤنا، وأنتم مفتشو الجبّانة ». وكان بعض العمال يوصفون بالألقاب التي تدل على واجباتهم الخاصة، فمثلاً نجد من بينهم من يميزون أنهم نحاتون، أو حفارون، أو صنّاع، أو قاطعو أحجار، أو صنّاع جبس وهم الذين يعتبرون أحياناً بنائين أو صانعي فخار.

وكان يقوم بعمل الشرطة في الجبانة جنود المازوى على رأسهم ضابطان، وكانوا في قديم الزمان من النوبيين، غير أنهم في نهاية الأمر أصبحوا من المصريين.

وكانت وظيفة كل من رئيس العمال والكاتب من الأهمية بمكان في الجبانة، ولها ميزات خاصة. فمثلاً نجد في توزيع الجرايات أنه كان للواحد منها ضعف ما للعامل العادي

(*) لعبت جبانة طيبة دوراً هاماً في الأوراق البردية التي كشف عنها في عهد الاسرة العشرين، وهي الخاصة بأحوال معيشة الشعب وما كان يقوم به العمال من اضرابات وسير الأعمال، والمعتقدات الدينية الشعبية. وكانت جبانة طيبة تحتوي قبور الملوك العظماء ووجهاء القوم والقرى التي كان يسكن فيها العمال الذين يقومون بالعمل في وادي الملوك / حسن، سليم: مصر القديمة. مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ ـ ٧ / ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

أحياناً. ولدينا ورقة من الأوراق قد سجل فيها تقسيم الزيت، حيث تسلم رئيسان « ٥ هنا » لكل منهما، في حين أن سبعة عشر رجلاً كان نصيب الواحد منهم « $\frac{١}{٢}$ ٢ هنا » من الزيت، وثمانية آخرون كل واحد منهم تسلم « $\frac{١}{٢}$ ١ هنا ».

وكان العمال وقتئذ قد أظهروا سخطهم لقلة الجرايات التي تصرف لهم، وأنهم بسبب ذلك اخترقوا، في مناسبات عديدة، جدران الجبانة الخمسة واتجهوا نحو المعابد الجنازية الكبيرة احتجاجاً على سوء أوضاعهم، فذهبوا إلى معبد « تحتمس الثالث »، وإلى معبد « مرنبتاح ». وإلى معبد « رمسيس الثاني »، وفي مناسبة واحدة ذهبوا إلى معبد « رمسيس الثالث » (٧٠).

وفي السنة التاسعة والعشرين من حكم « رمسيس الثالث » أضرب عمال قرية جبانة « طيبة » عن العمل احتجاجاً على قلة الجرايات التي يعيشون عليها وعدم انتظام دفعها. فقد ترك العمال أعمالهم وتجمهروا على مقربة من المعابد الجنازية. وهاجموا مخازن معبد « الرمسيوم » وهم يصيحون: « نحن جائعون ». وتوقفوا عن العمل إلى أن صرفت لهم أنصبتهم المتأخرة من الغذاء (٧١).

ولجأ الفلاحون إلى الفرار من الزراعة وترك الأرض إلى خارج الحدود. وتكررت هذه الظاهرة، حتى نصت المعاهدة بين رمسيس الثاني، فرعون مصر، وحاتوشيل، ملك الحثيين، على إعادة الفارين إلى ملك مصر (٧٢). وكذلك اتسعت حركة فرار الفلاحين إلى المدن في العصر الصاوي، حيث كان حكام الأقاليم يقبضون عليهم ويعيدونهم إلى الريف قسراً (٧٣). وكان الفلاحون يفرون من التجنيد العسكري تعبيراً عن عدائهم للسلطة، مما حمل فراعنة مصر على الاعتماد على المرتزقة منذ وقت مبكر (٧٤).

---

(٧٠) حسن، سليم: مصر القديمة ٧ / ٥٧٧ - ٥٨٦.
(٧١) سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي - الاقتصادي ص ٦٠. أنظر أيضاً أحمد فخري مصر الفرعونية. دار ممفيس للطباعة - القاهرة ١٩٧١ ص ٣٧٦.
(٧٢) سعد، أحمد صادق: المصدر ذاته والصفحة ذاتها.
(٧٣) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.
(٧٤) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

ثقافة مصر

السمات العامة: أبدع الشعب المصري خلال تاريخه القديم انجازات ثقافية رائعة في ميادين الأدب والبناء والنحت والرسم نالت اعجاب وتقدير العالمين القديم والمعاصر. وكان لآداب مصر وفنونها تقاليد متينة راسخة. وقد احتفظ الشعب المصري دائماً بأصالته وسماته المميزة. وكانت الرحلات العديدة التي نظمها في النيل والبحر تخصب الخيال وتوسع الأفق وتحث الخطى في طريق تطور الأدب الدنيوي (العلماني). كما وان توافر احجار البناء والمواد الثمينة كالذهب والأبنوس والعاج قد يسر في الوقت نفسه هندسة البناء والنحت والفنون التطبيقية.

ومن الخطأ النظر إلى الثقافة المصرية على أنها نتاج الارستقراطية العبودية. فقد كانت الحكايات والأخبار وقصص المغامرات وقصائد الحب وغيرها من المآثر الأدبية ينبوعاً للفولكلور المصري الفني. وقامت الفنون التشكيلية، التي تصعد في قدمها إلى عصر المجتمع البدائي، على تقاليد الفن الشعبي، وكانت نماذج عديدة من هذه الفنون نتاج اساتذة انبثقوا من صميم الشعب.

إن المنجزات الثقافية لشعوب بلدان آسيا وأفريقيا، في العصور القديمة وفي طليعتها الشعب المصري، أثرت تأثيراً كبيراً في تطور الثقافة البشرية. لقد كانت شعوب بلدان القارتين المذكورتين، وفي مقدمتها الشعب المصري، بمثابة طلائع تطور الثقافة المادية والروحية في ظروف النظام العبودي، ولو أن هذه التطور سار بوتائر بطيئة. وفي الوقت نفسه، ساعدت تجارب الشعوب الآسيوية والافريقية على سرعة تطور القوى المنتجة في مجتمعي اليونان والرومان العبوديين.

الفصل الثاني عشر

الكتابة

الكتابة: في الألف الرابع قبل الميلاد ، كدس المصريون معارف كثيرة تعجز ذاكرة الانسان عن احتوائها. وكان من المستحيل نقل تلك المعارف شفهياً إلى أجيال أخرى. فبدأوا بعمل النقوش. وقد عنى اختراع الكتابة،حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، نهاية عصور ما قبل التاريخ وبداية العصور التاريخية.

في أول الأمر كان الكاتب إذا أراد كتابة كلمة ما يرسم صورة تعبر عنها ؛ ولنتذكر جيداً كيف أنه بمساعدة الرسوم، كالتي نقشت مثلاً على لوحتي العقرب ونارمو، أمكن للأجيال اللاحقة سرد الأحداث الهامسة التي جرت في مصر في عهد ما قبل الأسرات. فقد عبروا عن الماء برسم أمواج (ثلاثة خطوط متعرجة) وعن الجبل برسم هضبتين بينهما منخفض. ومن ثم أصبحت الصور لا ترمز فقط إلى الكلمات بأكملها وإنما أيضاً إلى المقاطع والأصوات. ومع الزمن تحولت الرموز التصويرية، المعبرة عن حكمة أو مقطع، إلى رموز أو حروف أبجدية. فالرمز التصويري الذي يشير إلى كلمة ماء الـتي تلفظ شاتحول تحول إلى حرف ش، والرمز الذي يشير إلى كلمة هضبة الـتي تلفظ كاتحول تحول إلى حرف ك. وهكذا نشأت في عهد الدولة القديمة أبجدية هيروغليفية من (٢٤) حرفاً، شكلت أساس الكتابة التي استخدمت في مصر حتى نهاية تاريخها القديم.

وقد تطور الخط الهيروغليفي وبسّط مع الزمن إلى الهيراطيقي (خط سريع) في عهد الامبراطورية القديمة ثم إلى الديموطيقي (كتابة شعبية دارجة) في القرن الثامن قبل الميلاد.

ويعود تعقيد الكتابة الهيروغليفية وبطء تطورها إلى كونها امتياز للكهنة الذين احتكروا

المعرفة وأحاطوا الكتابة بهالة دينية سرية، وزعموا أن تحوت إله الحكمة قد وهبها لهم.

كتبت الهيروغليفية بخطوط افقية تقرأ من اليمين إلى الشمال، وأحياناً كتبت على شكل مقاطع عمودية تقرأ من الأعلى إلى الأسفل. وكتب المصريون بالهيروغليفية على الحجر والخشب والرق والبردي.

واستخدموا في كتابتهم قلماً صنعوه من القصب ونوعاً من الحبر استخلصوه من نسغ بعض النباتات. وهكذا يعود إلى المصريين الفضل في إيجاد وسائل الكتابة: الورق والقلم والحبر. كما أن الكلمة الأجنبية للورق Paper - Papier مأخوذة من كلمة Papyrus المصرية التي تعني نبات البردي.

وقد أطلق اليونان على هذه الرموز ـ الصور اسم هيروغليف ومعنـاه النقش المقدس. لأن اليونان كانوا يرون في الكتابة المصرية تعبيراً عن الدين والسحر، بينما كانت تستعمل أيضاً لأغراض السياسة والإدارة والاقتصاد والثقافة.

وكان للكتابة المصرية قيمة تاريخية كبيرة. ففي النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، استخدمها الفينيقيون نموذجاً في كتابتهم الأبجدية. كما كان لها ولاختراع الورق أهمية بالغة في رفع المستوى الثقافي للبشرية.

الفصل الثالث عشر

الأدب

يمكن تقسيم الأدب المصري القديم إلى قسمين أساسيين:

أدب ديني وأدب دنيوي.

الأدب الديني: كان الأدب، شأن جميع الكتابات في عهد الامبراطورية القديمة، في جوهره أدباً دينيا عكس أفكار ومفاهيم الطبقة السائدة في المجتمع العبودي المصري. وقد أسهم رجال الدين بقسط وافر في نشر هذا النوع من الأدب بهدف تعزيز سلطة الفراعنة وإعاقة تطور الجماهير، وذلك بلجم طاقاتها الخلاقة وزجّها في متاهات الجهل وضلالات الأوهام والسحر. وكان الأدب الديني يحتوي على وجه الخصوص، نصوصاً سحرية نقشت على جدران الأهرام والمقابر والتوابيت. وخير ما يمثل الأدب الديني هي: الأساطير الدينية، والأناشيد والتراتيل الدينية.

الأساطير: تطورت الأساطير حسب تطور المجتمع. والأساطير بنوعيها الشعبي والرسمي تراث ثقافي تتشابك فيها العناصر الحقيقية، التي تعكس واقعاً تاريخياً محسوساً تشابكاً وثيقاً مع العناصر التي هي من اختراع خيال الانسان. ومن الأساطير الدينية التي حفظت وتناهت إلينا اسطورة «ايزيس أوزيريس» فقد دوّنها المؤرخ اليوناني بلوتارخ شبه تامة في كتابه، كما حُفظ بعض فصولها مكتوباً على جدران الاهرامات.

ارتبطت أسطورة «أوزيريس» ارتباطاً وثيقاً وواسعاً بالطابع الزراعي لعبادته. خلاصة الأسطورة: سيت إله الرياح الضارة والصحراء المجدبة يقتل أخاه أوزيريس إله النيل

المخصب والقوة الانباتية والقمح والشعير. وتنجح ايزيس من إعادة الحياة لزوجها المغدور. ثم يجعل الكهنة من أوزيريس ملكاً على مملكة الأموات وقاضيها. وإذا علمنا أن الملك كان يؤله أيضاً بعد وفاته ويأخذ اسم أوزيريس وأنه سوف يبعث كما بعث أوزيريس، تبين لنا إلى أي حد خدمت عبادة أوزيريس تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة العبودية.

الأناشيد والتراتيل الدينية: وضعت لتمجيد الآلهة والفراعنة. وبين أجمل الأناشيد: نشيد آتون ونشيد آمون. وضع أخناتون النشيد الأول ومن مقاطعه:

« بزوغك جميل في افق السماء يا آتون يا حي يا مبدىء الحياة!
إذا صعدت في افق السماء الشرقي أفضْتَ على الأرض جمالك.
أنت جميل عظيم، متلألىء في السموات العلى.
تسطع بأشعتك على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك.
أنت رع، أسَرتَهم وقيدتهم بحبك.
أنت في قلبي، لا يعرفك سوى ابنك أخناتون الذي جعلته عاقلاً بآرائك وقوتك.

لقد وهبت العالم منذ خلقته لابنك وسليلك الملك العائش في الحق سيد التيجان أخناتون طال أجله »[1].

هذا وجدير بنا أن نلفت الانتباه إلى أن كهنة المعابد الرئيسة ألفوا في عهد الامبراطورية الحديثة أبحاثاً لاهوتية تعرض المذاهب المتعلقة بنسب الآلهة ونشأة الكون لمختلف المدارس المتنازعة[2].

الأدب الدنيوي: أسهمت علاقات مصر السياسية والتجارية والنشيطة مع البلدان المجاورة في عهد الدولتين الوسطى والحديثة، في تطور الأدب باتجاه دنيوي، عاكساً بذلك التغيرات الاجتماعية العميقة التي حدثت في المجتمع المصري والشروط المزرية لحياة الفقراء والظلم الذي كانت تمارسه بحقهم طبقة ملاك العبيد.

ظهرت بذور الأدب الدنيوي منذ عهد الأمبراطورية القديمة، على شكل « سِيَر » تروي حياة بعض المتوفين من كبار موظفي الدولة: وظائفهم وأعمالهم، وفضائلهم، وأملاكهم. وخير مثال على ذلك سيرة السيد « اوني Ouni »:

---

(١) برستد: تاريخ مصر: ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٢٤٥ - ٢٤٩.
(٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧٣.

« .... وكنت رئيساً لبيت الزراعة وملأت مخازن فرعون وكنت كبيراً للأمناء في زمن پيپي (ثاني ملوك الأسرة السادسة). وقاد حملة ضد البدو الآسيويين « وعاقب جلالته أولئك البدو على رمال عامو، وكون جيشاً من عشرات الآلاف من كل مصر العليا، وأرسلني على رأسه.

... وفتحت لهذه الجيوش الطريق... وعاد هذا الجيش في سلام بعد أن حطم أرض البدو ووطىء أراضي سكان الرمل ودمر قلاعهم وقطع تينهم وكرومهم وأشعل النار في كل جيوشهم وضرب عشرات الآلاف وأحضر الأسرى الكثيرين، ومنحني الملك كثيراً من أجل ذلك ». ثم عينه الملك مرى أن رع (ثالث فراعنة الأسرة السادسة) أميراً وحاكماً على الجنوب « وقد عملت كحاكم للجنوب، وأديت كل الأعمال، وقمت بتعداد كل ما يحصى مرتين... ونفذت كل شيء طبقاً لأوامر روحه التي كانت تأمرني »(٣).

وتحتوي سيرة رخميره Rekhmiré، أحد كبار موظفي تحوتمس الثالث، عرضاً ممتازاً لحقوق وواجبات وطرائق حكم الوزير في عهد الامبراطورية الحديثة(٤).

ويدخل في ميدان الأدب الدنيوي مجموعة من القصص والأناشيد والحكم والنصائح.

القصص: كتبت في عهدي الدولتين الوسطى والحديثة قصص رائعة تعكس إلى حد كبير تطور علاقات مصر السياسية والتجارية، كما تعكس التغيرات الاجتماعية العميقة التي حدثت في المجتمع المصري والأوضاع الصعبة لجماهير الكادحين. أشهر هذه القصص:

قصة الفلاح الفصيح: تعود قصة الفلاح الفصيح إلى عهد الدولة الوسطى. وتصور حالة الفلاح البائسة وعسف الموظفين واعتداءاتهم عليه. تتحدث القصة عن فلاح من واحة النطرون اسمه « خونا نوب » جمع محاصيله وحملها على ظهور حميره وسار بها إلى الحاضرة ليبيعها ويشتري بقيمتها طعاماً وحاجات لعائلته. في الطريق يتعرضه « تحوتي نخت » موظف تابع لأمين من أمناء الملك، فيستولي على قافلة محاصيله يروح ينهال بعصاه بلا شفقة على كل أنحاء جسمه، ويتركه فاقد الحركة على الأرض. وبعد أن داوى « خونا نوب » جراحاته، قصد كبير الأمناء، وتقدم بتسع شكايات ثم رفعها إلى الملك. وتعبر هذه الشكاوى عن الظلم الاجتماعي الذي كانت تلاقيه طبقة الفلاحين من موظفي الإدارة والمالية بمن فيهم

---

(٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ١ ص ١٨٩.

(٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧٤.

القضاة. إنها صيحة المظلومين في سبيل العدالة والكرامة (٥).

قصة سنوحي: تعود قصة سنوحي إلى عهد الدولة الوسطى. وتبرز مرحلة من حياة المغامرات والخروج إلى ما وراء الحدود السياسية التقليدية ومدى علاقة مصر بسورية في هذه الحقبة التاريخية، كما تشير إلى حياة البلاط المصري وتتناول جانباً هاماً من العادات والتقاليد لإحدى القبائل السورية.

والقصة رواية مرحلة من حياة الأمير سنوحي « ... وكان يصحب ولي العهد سنوسرت الأول عند عودته من غزوة موفقة على الحدود الغربية حين ترامت إلى مسمعه في الليل أنباء وفاة الملك « امنمحي الأول » فطار قلبه شعاعاً ولاذ بالفرار إلى سورية حتى لا يتهم بمؤامرة حبكت ضد سنوسرت الأول. وتصف القصة ما تعرض له سنوحي من العطش والعذاب: « كنت صادياً وحنجرتي تحترق وقلت لنفسي... هذا هو طعم الموت ». ولكنه سمع ثغاء ماشية ورأى سكان بعض الصحراء وأعطوه ماء ولبناً. ثم يصل إلى سورية ويتعرف على أحد أمراء قبائلها ويتزوج من ابنته. ورزق منها أولاداً كبروا وأصبح كل منهم يحكم قبيلة...

وقام بأعمال غزو، فسلب المواشي واستولى على الأراضي فزادت ثروته وكثرت قطعانه. وعاد إلى مصر بعد أن عفا عنه الفرعون « فالتمست من الفرعون أن أعود إلى مصر، أرض الوطن، حتى يدفن جسدي فيها ». وعندما دخل إلى الملك وشاهده على عرشه، انبطح على بطنه يقبّل التراب أمامه فأمره بالوقوف وطمأنه. ثم « عينني الملك أميناً في القصر، ولبست أفخر الكتان. ودلكت بالزيت، وزيد في جرايتي من الطعام، وأمر جلالته بتشييد مقبرة فاخرة لي... » (٦). يمثل أسلوب قصة سنوحي لوناً من الوان الأدب الرفيع، فيه دقة في التعبير وخيال بارع، وفيها أمل بعدم الاستسلام لليأس.

قصة الملك سكن جن رع Seken Jen Râ: تعود قصة الملك سكن جن رع إلى عهد الدولة الوسطى أيضاً. موضوع القصة يعالج مرحلة من الكفاح الوطني الذي تزعمه الملك سكن جن رع لطرد الهيكسوس من مصر (٧).

قصة الأخوين: تعود قصة الأخوين إلى عهد الامبراطورية الحديثة. طابعها اسطوري.

(٥) برستد: فجر الضمير: ترجمة الدكتور سليم حسن ص ١٩٧ - ٢٠٧.

(٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ٤ ص ٤٩٢ - ٤٩٥. وسليم حسن: الأدب المصري القديم ج ١ ص ٣١ - ٤٦.

(٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧٤.

وهي قصة شعبية مليئة بألوان السحر، وتعكس عقيدة المصريين بالبعث. تعالج القصة أمر الزوجة الخائنة مرتين وتنتهي في الحالتين بأن يوقع الزوج على زوجته العقوبة المناسبة للجرم. أسلوب القصة ضعيف وإن وافقت الخيال الشعبي[٨].

قصة الأمير: تعود قصة الأمير إلى عهد الامبراطورية الحديثة. موضوعها مستوحى من التقاليد الشعبية. طابعها اسطوري. خلاصة القصة: «التمس ملك لم يرزق بنسل من الآلهة أن تهبه ولداً ففعلت وعند ولادته قرر مصيره... كتب عليه أن يموت بواسطة تمساح أو ثعبان أو كلب. وحزن الملك، وأمر ببناء بيت في الصحراء لا يغادره الصبي. وذات يوم شهد الصبي كلباً وراء صياد، فالتمس أن يكون له كلب، فجيء له بجرو صغير... ثم التمس حين كبر أن يمارس الوان الحياة المعتادة. سافر الشاب يصحبه كلبه إلى سورية. وكان لملكها ابنة وحيدة تسكن بيتاً عالياً. وكان أبوها قد أعلن أنه سيزوجها لمن يستطيع أن يتسلق إلى شرفتها. عرف الأمير قصة البنت، وطار إليها وأحبا بعضهما البعض ثم تزوجا... وبعد الزواج كشف الأمير لزوجته عن سر مصيره. فطلبت إليه أن يقتل كلبه فأبى... وحاول تمساح أن يقتله فحاربه ملاك الماء.. وخرجت حية لتقتله فاستطاعت الزوجة أن تقتلها بفأسها.. وجرى الكلب فقبض عليه التمساح وذهب به إلى حيث ملاك الماء... وهنا تضيع بقية القصة. ولكن يبدو أن الكلب هو الذي كان سبباً في نهاية الأمر بقتل الشاب[٩].

حوليات تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني: تروي حوليات تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني أخبار الحملات والانتصارات الحربية، والأعمال الكبرى للفراعنة.

الأناشيد والأغاني العاطفية: وتشمل الأناشيد السياسية والأناشيد ذات المغزى الاقتصادي والأهازيج العاطفية. من الأناشيد السياسية: «انشودتان لتحوتمس الثالث ورمسيس الثاني، تتضمن مدحاً لانتصاراتهما في المعارك الحربية على أعدائهما. ومن الأناشيد ذات المغزى الاقتصادي: نشيد النيل، وكان ينشد أثناء الاحتفالات بالفيضان ومن مقاطعه:

«المجد لك أيها النيل الذي ينبع من الأرض ويحمل الخير لمصر.
وعندما تفيض يعم الفرح البلاد.
أنت تطفح فتسقي الحقول وتنعش القطعان وتمد الناس بالقوة.
إذا تأخرت بنعمك توقف دولاب الحياة.

(٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ٢ ص ٥٠٤.
(٩) المصدر ذاته ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

وإذا غضبت حل الذعر في البلاد.
يا سيد الأسماك ومنبت القمح والشعير والذرة
أنت الذي يخلق كل جميل.
الشباب والأولاد فرحون جذلون
يحبونك، أيها الملك »[10]!

وقد انتشرت الأغاني العاطفية انتشاراً كبيراً، ومنها ما كان يردده الزُراع في الحقول، والرعاة عند سوق مواشيهم إلى مراعيها، والصيادون أثناء الصيد، وأغاني الشراب التي تردد مع الموسيقى في الحفلات. ومنها أيضاً أغاني الحب وأهازيج الغرام نذكر منها المقاطع التالية:

« يا حبيبي! إن قلبي مشوق لحبك.
أتيت لأصيد بفخي الذي أحمله بيدي.
وكل الطيور من پويني مضمخة بالمر.
ستحط أولاهـا على فخي لتلتقط الدودة.
ما أجمل أن نكون معاً حين نضع الفخاخ.
لا أعرف ماذا سأقول لأمي حين أعود إليها في المساء بغير صيد.
ستسألني ألم انصب شباكي؟ إن حبك قد انساني ذلك.
إن قلبي يوافق قلبك ولن أبعد عن مفاتنك.
أنفاسك وحدها هي التي تجعلني أعيش.
إن امنيتي أن احبك! أن أكون زوجتك في بيتك »[11].

نصوص فلسفية اجتماعية أو نبوءات وتحذيرات ونصائح وحكم: وجاءت في قالب نبوءات وتحذيرات أو نصائح وحكم تعرض ما عانته البلاد من كوارث الحروب الأهلية والغارات الأجنبية والبطالة والضائقات والأوبئة والانتفاضات الثورية، يتخللها تحذير من الاهمال، والأخذ بالإصلاح. ومما تناهى إلينا من نصوص أدبية حول هذه الموضوعات:

١ ـ **تحذير الحكيم ايپور:** تعود تحذيرات الحكيم ايپور إلى فترة التفتت التي تلت حكم الأسرة السادسة على ما يظن. وهي وصف حي لانتفاضة جماهيرية شاملة اشترك فيها الفلاحون والحرفيون والعبيد، أي أناس العمل الكادحون البؤساء الذين لا يملكون شيئاً.

(١٠) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ٨٧.
(١١) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٤ ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥.

« لقد اعتقل الثوار الملك، وقتلوا الموظفين، وفتحوا قبور الفراعنة وبعثروا أشلاءهم، واستولوا على المعابد ومخازن الملوك والأسياد والكهنة، وأعلنوا أن جميع ما فيها من قمح وغلال قد أصبح مشاعاً ـ ملكية وطنية. وطرد الثوار الأغنياء من قصورهم وجردوهم من جميع أموالهم وأجبروهم على العمل من أجلهم »[١٢].

« وهوجمت مراكز الإدارة الملكية، واتلفت جميع سجلات المالية والمساحة ووثائق الملاكين، ووضعت قوانين قصر العدل في البهو، وصار القوم يطأونها في الطرقات ويمزقها الفقراء في الأزقة. ولاذ الحكام بالفرار، وأصبحت خزينة الملك دون دخل والمعابد دون تقدمات وقرابين »[١٣].

« لقد أصبح الفقراء أغنياء والعبيد أسياداً »، « فمن لم يكن له جدار يأوي إلى ظله أصبح له مرير. ومن لم يكن له زوج من الثيران أصبح يملك قطيعاً، وأولئك الذين كانوا يلبسون الثياب الثمينة غدوا في أسمال بالية، وأصبح الذين كانوا ينسجون لأنفسهم يملكون الملابس الثمينة. وفي الحق ان البلاد كانت تدور على عقبها كما تدور عجلة الفخار »[١٤]. حسب تعبير ايبور.

وتنتهي وثيقة ايبور الأدبية بالنصح والتحذير من الاهمال والأخذ بالاصلاح[١٥].

٢ ـ **نبوءة نفر روهو**: وهي وثيقة أدبية هامة محفوظة اليوم بمتحف لينينغراد. ويخمن الأكاديمي ستروفيه أن تاريخها يعود إلى حكم الأسرة الثامنة عشرة، أي إلى نهاية الامبراطورية الوسطى[١٦]. غير أن عدداً من الباحثين السوفيات والأجانب يشكّون في ذلك، ويفترضون أن تاريخها أقدم من ذلك بكثير[١٧].

تصف الوثيقة النوائب التي أحاقت بمصر بسبب الغزو الأجنبي والاضطرابات الداخلية والآثار السلبية التي خلفتها من تعطيل نظام الري وتدهور الزراعة والحرفة والتجارة ونقصان موارد الخزينة وارهاق العاملين بالضرائب وانهيار الحكومة المركزية وتجزئة البلاد.

(١٢) انظر ص ١١١ ـ ١١٢.
(١٣) انظر ص ١١٣.
(١٤) انظر ص ١١٣.
(١٥) انظر ص ١١٣.
(١٦) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٥٦.
(١٧) نفس المصدر والصفحة.

« لقد اختلط الحابل بالنابل في هذه الأرض، ولا يعرف أحد ماذا ستكون النتيجة... إني أريك الأرض وقد انقلبت ظهراً على عقب »[18].

« لقد أصبحت البلاد خراباً فلا من يهتم بها... وتعطلت أعمال الري، وصارت مصر طريحة الشقاء بسبب طعام البدو والذين يغزون البلاد، وظهر الأعداء فيها، وانحدر الآسيويون إليها... واختفى كل شيء صالح. والبلاد تحتضر... وأملاك الرجل تغتصب منه وتعطى للغريب... إني أريك كيف يصبح المالك في حاجة والأجنبي في غنى... وإن الأرض قد نقصت، ولكن الموظفين الذين يديرونها كثيرون، وأصبحت الأرض عارية من الزرع، ولكن ضرائبها كثيرة وغلتها قليلة، وكيل الضرائب كبير يملؤونه حتى يطفح »[19].

وينتقل نفر روهو بعد ذلك إلى وصف القحط الذي وقعت فيه البلاد داعياً لظهور « ملك منقذ » **خلص مصر من محنتها، إذ يقول: « سيأتي ملك من الجنوب وسيتسلم** التاج الأبيض وسيلبس التاج الأحمر فيوحد مصر السفلى ومصر العليا... وسيفرح أهل **زمانه. أما الذين كانوا قد تآمروا بـ « الشر » ودبروا « الفتنة » فقد أخرسوا أفواههم** خوفاً منه. والآسيويون سيقتلون بسيفه، واللوبيون سيحرقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون لنصائحه، والعصاة إلى بطشه، وسيخضع المتمردون **لصلّ**[20] الذي على جبينه... وسيقيمون (سور الحاكم) ـ **أي إعادة بناء الحصون في شرقي الدلتا** ـ حتى لا يتمكن الآسيويون من أن يغزوا مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لأجل أن تردها أنعامهم »[21].

٣ ـ أمثال وحكم من تجارب الحياة: ويحتوي الأدب الدنيوي على مجموعات من النصائح **والحكم** تعبر عن خلاصة تجارب الحياة. ومما وصلنا في هذا الحقل « نصائح » الوزير « بتاح حوتب » زمن الأسرة الخامسة لابنه. وسواء **أصحّت** نسبة هذه الوثيقة إلى الوزير المذكور أو إلى غيره، فإنه من المؤكد أنها قديمة جداً.

---

(١٨) ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة أحمد فخري. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٥٥. ص ١٩٠.

(١٩) حسن، سليم: المصدر السابق ج ١ ص ٣٢١. ولسون، جون: المصدر السابق ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢٠) صلّ الملك وإله الشمس رع هو الثعبان الذي يوضع في مقدمة التاج الملكي لينفث السم في وجه كل من يريد أن يقترب من الملك بسوء، وذلك إمعاناً في نشر الخوف والرعب في أوساط الجماهير من شخص الفرعون ونظامه المقدس.

(٢١) حسن، سليم: المصدر السابق ص ٣٢٢.

ومهما يكن من أمر هذه النصائح والحكم فإن الغرض منها الارشاد والتعلم والإفادة من دروس الحياة. ومن هذه النصائح والحكم:

« لا **يداخلنّك** الغرور بسبب علمك، ولا تتثاقل لإنك رجل عالم. استشر الجاهل كما تستشير العالم، لأنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى آخر حدود العلم »[٢٢]. إن الحديث الممتع أشد ندرة من الحجر الأخضر، ومع ذلك قد تجده لدى الإماء اللاتي يعملن في إدارة الرحى »[٢٣].

« الصدق جميل وقيمته خالدة. إن كنت موضع ثقة وكلفت بإداء رسالة **فأدّها** على وجهها الصحيح. وإن كنت في منصب بحيث تقدم لك الشكايات فاستمع في رفق إلى **شكاية المتظلم، ولا تسيء معاملته، فالشاكي يجب من يستمع إلى شكايته. الجشع والنهم مرضان عسيرا الشفاء »**[٢٤].

« أقم العدل وعامل الجميع بالعدالة. إن **الرجل** الذي اتخذ العدالة معياراً له، وسار وفقاً لجادتها يكون ثابت المكانة »[٢٥].

وتناهت إلينا من الأدب الدنيوي قصائد شعرية من عهد الامبراطورية الحديثة، منها « أغنية الضارب على العود » التي تدعو إلى الاستمتاع بمسرات الحياة **ومباهجها**. فالمرء لا يحيا حياتين.

« إن الذين بنوا لأنفسهم قصوراً لم يبق شيء من بيوتهم، فما الذي حدث لهم؟ ولم يأت أحد من هناك فيقص علينا ما أصبحوا عليه ويخبرنا عن مصيرهم... فتمتع واجعل قلبك **ينسى** اليوم الذي **يضعونك** فيه في القبر لترتاح. ارم بكل الأحزان... وفكر في السرور.. اسكب العطور فوق رأسك، والبس أفضل أنواع ملابس الكتان ولا تشغل نفسك بشيء. استمع إليّ لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه، ولن يعود ثانية من يموت »[٢٦].

---

(٢٢) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٧٨. وسليم حسن. المصدر السابق ص ١٧٨. والدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم: المصدر السابق ج ١ ص ٥١٠ - ٥١١.

(٢٣) المصادر ذاتها.

(٢٤) المصادر ذاتها.

(٢٥) حسن، سليم: المصدر ذاته ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢٦) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٧٨. وسليم حسن. المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٤ - ٥. والدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم: المصدر السابق ج ٤ ص ٥٣٠..

ويبدو أن اخفاق الانتفاضات الجماهيرية وتنكيل السلطة بالمنتفضين تنكيلاً وحشياً، قد خلق لدى فئات عريضة من السكان أثراً سلبياً، وخلق في أوساطهم اتجاهاً فلسفياً يعكس التشاؤم والخنوع وخيبة الأمل في حياة أفضل على الأرض. ويمكن للمرء أن يتلمس مثل هذا الاتجاه في قصة «حوار رجل متعب من الحياة مع روحه». وهي وثيقة هامة محفوظة اليوم في متحف برلين.

تصف المقطوعة الأولى من المحاورة **مقت العالم بغير حق اسم ذلك التعس:**

«انظر. إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة اللحم النتن في أيام الصيف.
انظر. إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة السمك وأكثر من شواطىء المستنقعات عندما يصاد عليها.
انظر. إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة التماسيح»(٢٧).

وفي المقطوعة الثانية، يذكر أسباب تعاسته، فيعزوها إلى الظلم والنهب والرشوة، أي إلى النظام العبودي ذاته. فاسمعه يقول:

«لمن أتكلم اليوم؟ الناس شرهون. وكل انسان يغتال متاع جاره.
لمن أتكلم اليوم؟ الناس يسرقون **وكل انسان يغتصب متاع جاره.**
لمن أتكلم اليوم؟ **الأخوّة** شر، والإنسان صار يعامل كالعدو، رغم صدق ميوله.
لمن أتكلم اليوم؟ والقلوب شرهة والرجل الذي يعتمد عليه القوم لا قلب له.
لمن أتكلم اليوم؟ فإني مثقل بالشقاء وينقصني خلٌّ وفيٌّ.
لمن أتكلم اليوم؟ فالخطيئة التي تصيب الأرض لا حد لها»(٢٨).

والنظم الثالث أنشودة قصيرة في مدح الموت: «قدني إلى الموت وأجعل الغرب حبيباً إلى نفسي. إن الموت ليس مصيبة والحياة ما هي إلا تطور»(٢٩). الموت خلاص سارّ:

«إن الموت أمامي اليوم كرائحة بخور المر وكإنسان يقعد تحت الشراع في يوم شديد الريح.

إن الموت أمامي اليوم كرائحة زهرة السوسن.

---

(٢٧) حسن، سليم: المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥.
(٢٨) المصدر ذاته: ص ٢٨٥ - ٢٨٦.
(٢٩) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر ذاته.

إن الموت أمامي اليوم مثل مجرى النهر الصغير ومثل عودة الرجل من سفينة حربية إلى داره.

إن الموت أمامي اليوم كمثل رجل يتوق لرؤية منزله بعد أن أمضى سنين عدة في الأسر »[٣٠].

وموضوع النظم الرابع هو النظرة العاجلة إلى المستقبل النهائي:

« إن الذي هنالك سيقبض على المجرم كأنه إله ويوقع عقاب الإجرام على من اقترفه.
إن الذي هنالك سيكون رجلاً عاقلاً غير منبوذ مصلياً لرع حينما يتكلم »[٣١].

« وليطمئن البؤساء أن تـوت سيحاكمني وخونصو سيدافع عني ورع سيسمع كلماتي »[٣٢].

(٣٠) حسن، سليم: المصدر ذاته ج ١ ص ٢٨٧.

(٣١) المصدر ذاته: ص ٢٨٨.

(٣٢) عبد الحق ـ سليم عادل (الدكتور): المصدر ذاته.

الفصل الرابع عشر

الفن في مصر القديمة

إن الصروح العملاقة التي ما تزال قائمة في مصر تتحدى عاديات الزمن، وكذا تحف الفَنون الصغرى التي تزين متاحف العديد من بلدان العـالم تشهد على الجهد العظيم الذي بذله الحرفيون النشطاء والفنانون اللامعون والمهندسون العظماء، وعلى المستوى الرفيع المتقدم الذي بلغه هؤلاء جميعاً من حذق وخبرة وذوق وأصالة. وإذا كان الفن المصري قد تـأثـر بالعوامل الدينية، ذلك لأن الكهنة كانوا في واقع الأمر يوحون بأفكارهم إلى الفنانين ليأتي الفن خادماً لمصالح طبقة ملاك العبيد.

نشأ الفن المصري في عهد ما قبل الأسرات وتطور في عهد الأسرات، وأصبحت له قواعده وأساليبه ومدارسه المتعددة: التقليدية والواقعية والمختلطة (التي تجمع بين قواعد المدرستين السابقتين) والهيللنستية.

واعتباراً من تأسيس المملكة العبودية في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، استخدم ملاك العبيد الفن لخدمة مصالحهم الأنانية. فقد شيدت الأهرام لتمجيد الفراعنة. وكان كل أثر فني في المعبـد يوحي إلى الانسان بعقيدة قوة الآلهة والفراعنة والخوف منهم. وحتى في الرسوم التي يظهر فيها الفرعون، تشاهده مميزاً بحجم كبير إلى جانب قزمية أتباعه أو أعدائه. أما مقابر النبلاء والارستقراطيين الفخمة بالمقارنة مع مدافن أفراد الشعب البسيطة فهي تعكس، بشكل جلي، عدم المساواة في الثروة والشروط الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء.

ويمكن تقسيم الفن المصري إلى عدة أنواع هي:

١ ـ **فن البناء:** كانت المباني في عصر ما قبل الاسرات تستهدف بالدرجة الأولى الفائدة العملية للسكن واتقاء الحر والبرد. لذلك استخدمت المواد البسيطة السهلة المنال، كجذوع الاشجار وجريد النخل وسيقان البردي والطين واللبن في بناء مساكن بدائية بسيطة (نباتية طينية) بيضوية الشكل. وفي عهد الأسرات، تقدم فن البناء تقدماً مدهشاً، وذلك لتطور صنع الأدوات المعدنية والفؤوس والمقصات والمناشير والمخارز النحاسية والبرونزية. واصبح البناء بالحجر المنحوت مميزاً للمدينة المصرية. وأهم أنواع المباني هي: المقابر والمعابد والقصور.

المقابر: تطورت من الحفرة البسيطة إلى المصطبة فالهرم. وقد اعتنى الفراعنة والأثرياء المصريون عناية كبرى بمقابرهم، وصرفوا أموالاً طائلة نهبوها من شعبهم وشعوب البلدان المقهورة، لبناء مشاريع أنانية لا يرجى منها إلا أن تحفظ اجسادهم من الفناء اعتقاداً منهم بالبعث وبوجود حياة في الآخرة شبيهة بالحياة الدنيا.

وأول ما استعمل الحجر في بناء مقبرة الملك زوسر في سقارة دعيت بالهرم المدرج. وهو آبدة متوسطة بين المصطبة والهرم، تحوي سبع مصاطب مدرجة فوق بعضها ذات عرض متناقص كأنها جبل مخروطي بارتفاع (٦١) متراً.

وكانت المصطبة تضم بئراً عمودياً يقود إلى قبو يوضع فيه الميت وسرداب تحفظ فيه تماثيل الميت، وغرفة العبادة لوضع الهدايا. وقد عثر المنقبون عام ١٩٣٦ بسقارة على مصطبة حماكي (ارستقراطي وموظف كبير في زمن الملك ديمو من الأسرة الأولى) وهي عبارة عن مجموعة بنائية تتألف من خمسين حجرة، اكتشف فيها حوالي /٢٠٠٠/ حاجة من أثاث الميت ومتاعه (علماً بأن المقبرة المذكورة كانت قد تعرضت لأعمال النهب في العصور القديمة)[١].

ويحدثنا مانيتون ان المهندس ايمحتب Imhatep هو الذي اخترع فن البناء بالحجر المنحوت بدل الآجر في زمن الفرعون زوسر[٢]. ويوجد بين هرم سقارة المدرج والهرم الحقيقي مرحلة انتقالية تظهر لنا في هرم دهشور (المنسوب إلى الملك هوني) وذلك بملء فراغ الدرج[٣]. أما الأهرام الحقيقية فهي التي بناها خوفو (حنوبس) وخفرع (خفرن) ومنقرع (مكرينوس)

(١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤١.

(٢) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور) المصدر ذاته.

(٣) هامرتن: تاريخ العالم. اشرفت على ترجمته إدارة الثقافة في وزارة التربية، مكتبة النهضة المصرية لا تاريخ ١ / ٥٣١.

في الجيزة حيث تنتهي صخور الهضبة وتشرف على سهل الدلتا.

ويحوي داخل الهرم حجرة يوضع فيها مومياء الفرعون، وغرف أخرى ذات أبواب ليحفظ فيها الأثاث والأدوات الجنازية. وأعلى أهرام الجيزة هرم خبرني الكبير «آخت» أي افق خوفو المضيء الذي يبلغ طول ضلع قاعدته ٢٣٣ متراً وارتفاعه اليوم ١٣٧ متراً (وكان ارتفاعه الأصلي ١٤٥ متراً)[٤] وإن هذا التدرج في ضخامة بناء المقابر الملكية يعكس، إذا صح القول، القوة المتعاظمة لملوك مصر[٥].

ويتكون هرم خوفو من مليونين ونصف مليون من الكتل الحجرية، متوسط وزن الواحدة طنّان ونصف الطن، ويبلغ وزن بعضها مائة وخمسين طناً وحجارته مندمج بعضها في بعض ولم يترك بينها إلا موضع لبضع كتل ليكون طريقاً سرياً تنقل فيه جثة الملك. ولا يزال تابوت الملك المنحوت من الرخام مستقراً في مكانه: ولكنه محطم وفارغ، لأن تلك الحجارة على ضخامتها لم تنجّ الجثة من أيدي الثوار كما لم تنجها حماية الآلهة وجميع لعناتها.

يقول هيرودوت: إن فرعون كان عندما يهم ببناء له يأمر بايقاف كل ماعدا ذلك من الأعمال.. كي يتسنى له توجيه كل قوى الشعب نحو مشروعه العظيم[٦].وظل مائة ألف عامل من الفلاحين والعبيد يعملون في بناء الأهرام عشرين عاماً[٧].وكانوايستبدلون كل ثلاثة أشهر. وإن عمل المنحدر الذي مهد للبناء استغرق عشرة أعوام[٨].

وبامكاننا أن نتصور العمال وهم يقطعون الحجارة الضخمة في المقالع، والفَعَلة وهم ينقلونها إلى ورشات النحت والتسوية، والفلاحين والعبيد وهم يجرون الكتل الحجرية المنحوتة بواسطة زحافات خشبية تحت أشعة الشمس المحرقة والعطش والجوع، وسياط الجلادين تنهال عليهم فتتساقط جثثهم وتسيل دماؤهم ليشاد عليها قبر الفرعون.

وكان الهرم يجعل أولاً على شكل درجات ترفع عليها الأحجار بواسطة آلات خشبية وحبال ثم يسوّى بين الدرجات وتغطى هذه بأحجار منحوتة من الأعلى إلى الأسفل فتأخذ وجوهه الجانبية مظهرها الاملس النهائي.

---

(٤) برستد: انتصار الحضارة ترجمة الدكتور احمد فخري ص ٨٥.

(٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٤٨.

(٦) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر ذاته.

(٧) برستد: انتصار الحضارة ص ٨٥.

(٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ١ ص ١٦٩.

ولا ريب ان رجال الدين قد ساهموا في انشاء مفهوم الهرم الفني واعطوه معنى رمزياً. فالمثلثات الكبرى التي تؤلفها وجوهه تهبط إلى الأرض كأنها أشعة قرص الشمس التي تصل إليها. ووجود الفرعون المتوفى تحت الهرم يعني أنه في حماية الشمس، وأن هذا الهرم يرفعه إلى السماء، لأن طرفه المائل يمثل الدرج الذي ارتفع عليه آتوم لما انبثق من العدم، وكما صعد الآلهة إلى السماء فسيصعد إليها فرعون الذي هو إله أيضاً (٩).

استمر بناء الأهرام في عهد الامبراطورية المتوسطة، وانتهى عهد بنائها في مطلع عهد الامبراطورية الحديثة، حين قرر تحوتمس الأول ترك تقليد المقبرة الهرمية، وأمر أن يدفن في مكان مجهول عن الناس في باطن الأرض. فأصبح وادي الملوك، غربي طيبة، مدفناً لفراعنة الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشـرين الذين نحتت مقابرهم في صخر الجبل، وهي عبارة عن ممرات وغرف ودهاليز.

هكذا بنيت الاهرامات. وهكذا أيضاً استخدم ملاك العبيد الفن لتقديس السلطة الملكية وتخويف الشعب.

المعابد: المعابد بيوت الآلهة في مصر. كانت في بادىء الأمر أكواخاً بسيطة من الخشب، ثم ازداد الاعتناء في بنائها وتجميلها وتزيينها في عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة.

يتألف المعبد المصري في الغالب من الاجزاء التالية: بوابة أو مدخل له على جانبيه برجان منحرفان لهما شكل كتلة حجرية كبيرة تقف في مقدمة المعبد، وتحجب ساحته تماماً عن الداخل، ثم يلي البوابة ساحة مكشوفة (أغلب ساحات المعابد المصرية مكشوفة بسبب ندرة الأمطار وخاصة في الصعيد) تحيط بها الأعمدة، يقع خلفها دهليز يقود إلى قاعة (بهو) الاعمدة. وتكون هذه القاعة مسقوفة في العادة، و أما قسمها الأوسط أو الرئيسي فيكون محاطاً بأعمدة لها في أعاليها فتحات لتسمح بمرور النور. وبعد القاعة المسقوفة تقوم مقاصير الآلهة (قدس الأقداس) التي تحوي تماثيلها، وبجوارها بيوت لسكن رجال الدين وغرف المخازن والمهمات الخاصة بالمعبد والعبادة (١٠).

واعمدة المعابد المصرية على أنواع تختلف باختلاف أشكال تيجانها وقواعدها، منها ما هو من الغرانيت المدور وله شكل أشجار النخيل وقواعده تشبه حزم أوراق النخيل. ومنها

(٩) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر ذاته.

(١٠) المصدر ذاته ج ٤ ص ٤٠٦.

ما هو غرانيتي أيضاً ولكنها على شكل نبات البردي أو زهرة اللوتس (زهرة الزنبق) وقواعدها على شكل براعم.

ثم هناك العمود الحتحوري والأعمدة المضلعة التي تطورت فأصبحت مخططة. ولعل الأعمدة اليونانية الدُورية قد تأثرت بهذا النوع من الأعمدة المصرية.

والمعابد المصرية على نوعين هما:

١ ـ المعابد الجنازية: وفيها كانت تقام طقوس الجنازة والصلوات على الفرعون الراحل. ومن أشهر تلك المعابد: المعبد الذي بناه خفرع قرب هرمه الشهير «اور» أي المرتفع، ومعبد الوادي الذي يتصل بهرم منتوحب الثاني بطريق أقيمت على جانبيه جدران وتماثيل للملك، ومعبد الدير البحري، غربي طيبة، الذي أمرت حتشبسوت ببنائه والذي يشتهر بنقوشه التاريخية ومنها نقش يمثل القبة التجارية التي ارسلتها الملكة حتشبسوت إلى بلاد البونت (الصومال حالياً)، ومعبد سيتي الاول في أبيدوس، ومعبد الرمسيوم الذي بناه رمسيس الثاني قرب معبد الدير البحري والشهير بنقوشه التاريخية ومنها حروب رمسيس مع الحثيين وأخبار موقعة قادش فوقها صورة لمدينة قادش المسورة كما يحتوي أيضاً على نقوش فلكية بديعة.

٢ ـ معابد الآلهة: وهي المعابد الكبرى وأشهرها: معبد الكرنك للإله آمون في طيبة، وهو أكبر دار للعبادة على وجه الأرض. وأعظم ما فيه بهو الأعمدة الذي يمجد «قوة الإله آمون». مساحته أكثر من خمسة آلاف متر مربع، وسقفه محمول على (١٣٤) عموداً، قطر كل منها (٣,٣٧) أمتار وارتفاعه (٢٤) متراً، مرتبة في ستة عشر صفاً بحيث يخيل للناظر أنه أيكة من البردي. وكان السقف والأعمدة والجدران ملونة ومنقوشة بالرسوم والكتابات عن مناظر القرابين والاحتفالات الدينية. أما جدرانه الخارجية فعليها مناظر الوقائع الحربية التي خاضها سيتي الأول ورمسيس الثاني ضد الحثيين. ويقال إن فكرة هذا البهو بأعمدته التي صنعت على شكل نبات البردي واللوتس هي تمثيل مادة الخلق البدائية وهي الماء، تنبعث من لجة نباتات البردي واللوتس. ومعبد الاقصر في طيبة الذي بني ليكون بمثابة استراحة الهية لآمون. ويمتاز هذا المعبد بأعمدته المرتفعة الأربعة عشر وهي أطول أعمدة في معابد مصر، وتمثل تيجانها براعم البردي المفتحة. وجدران الاقصر مغطاة بالنقوش التي تمثل مناظر الشعوب التي قهرها رمسيس الثاني، ومنها مناظر موقعة قادش. كما نقشت على الجدران قصيدة جعل ناظمها من هزيمة رمسيس في قادش نصراً مؤزراً.

وإذا تجاوزنا القيمة الفنية والتاريخية للمعابد، فقد كانت الوظيفة الأساسية لهذه المؤسسات الدينية تعزيز السلطة الملكية المقدسة، وترويع الشعب واخضاعه لسيطرة ملاك العبيد.

لقد كان كل شيء في المعبد: مخططه وتقسيماته، والتماثيل الضخمة للآلهة والفراعنة ورسوم الملوك بأحجام كبيرة، وما كان يقوم به رجال الدين من صلوات وشعائر وتمثيل وأعمال سحرية وغيرها، تنصبّ حول هدف واحد هو الايحاء بعقيدة قوة الآلهة والفراعنة والخوف إزاءهم. وكان على الانسان، أمام هذه التماثيل والرسوم الكثيرة للآلهة، ذات الرؤوس الحيوانية، وللفراعنة، ان يدرك صغاره وشقاءه.

المسكن: كانت معظم مساكن أفراد الشعب، في مصر القديمة، مبنية من الطين واللبن ومطلية بالكلس الأبيض، ولا تزيد في ارتفاعها عن طبقة أو طبقتين. أما مساكن النبلاء والارستقراطيين وغيرهم من أفراد الطبقة العليا، فكانت أشبه بالڤيلات تحيط بها الحدائق المزروعة بالأشجار المثمرة، تزينها بحرات صناعية، وتبدو على مظهرها علامات الترف والرفاهية، ويقف على أبوابها الحراس والخدم.

وقد كشفت الحفريات التي أجراها «فلندرز بتري» قرب بحيرة موريس (منطقة الفيوم) عن أطلال مدينة أصبحت معروفة باسم «كاهون». وكان حي العمال في هذه المدينة حياً فقراً، يتألف من مساكن صغيرة من اللبن، يتوضع الواحد منها إلى جانب الآخر في مساحة صغيرة. إذ بني على مسطح يقرب من ٢٤٠ × ١٠٥ أمتار نحو ٢٠٠ - ٢٥٠ منزلاً صغيراً. في حين كانت «ڤيلات» النبلاء مساكن فخمة وواسعة، تتألف من قطع من الأرض تبلغ مساحتها نحو ٤٥ × ٦٥ متراً - أي أكبر بنحو خمسين ضعفاً من بيوت العمال الصغيرة[١١]. وتضم كل ڤيلا ما يقرب من سبعين غرفة ودهليزاً[١٢]. وكان حي الاغنياء ينفصل عن حي الحرفيين والشغيلة الفقراء بسور سميك تخفره فرقة عسكرية قوية[١٣].

وعلى الرغم مما أغدقه الأغنياء على مساكنهم من مظاهر الترف والرفاه فإنها لم تقاوم الزمن والحوادث، لانها بنيت بالطوب النيء. أما قبورهم ومعابدهم فكانت في نظرهم منازل الخلود، ولذا بنوها من الحجر فبقيت عبر الاجيال تشهد للفنانين والحرفيين

(١١) انظر ص ١١٠ - ١١١.
(١٢) انظر ص ١١٠ - ١١١.
(١٣) انظر ص ١١١ - ١١٢.

والمهندسين المصريين بالمهارة والذوق والأصالة، وتحظى بتقدير الناس وإعجابهم عبر الزمن.

القصور: أما القصور فكان أهمها القصور الملكية، بالإضافة إلى قصور حكام الأقاليم والامراء.

وكان الملك يقيم في قصر اسلافه من الملوك أو يبني لنفسه قصراً جديداً في عاصمة ملكه. وكان القصر الملكي يقام عادة على رابية عالية ويبنى بالحجارة الكبيرة المنحوتة، ويزين بالاعمدة الضخمة العديدة. ويحتوي القصر الملكي على قسمين: احدهما للحياة العامة الرسمية ويضم رجال البلاط، والآخر لحياة الملك الخاصة ويضم زوجاته واولاده. وكان كل قسم من القصر يحتوي على عدد من الأجنحة. وكان يطلق على القصر الملكي اسم «برعا» أي البيت الكبير (١٤).

بنيت قصور الامبراطورية القديمة بالاخشاب واللبن المجفف في الشمس. لهذا السبب انمحت آثارها ولم يبق منها إلا أسفل جدرها (١٥). وفي عهد الامبراطورية الوسطى، بنى امنمحت الثالث بالقرب من «سد الفيوم» قصراً عظيماً جعله مسكناً له ومقراً لحكومته ومعبداً. وكان في هذا القصر اثنتا عشرة ردهة، وثلاثة آلاف وخمسمائة حجرة لاجتماع حكام البلاد. وظل هذا القصر قائماً زمناً طويلاً، ورآه هيرودوت وديودور الصقلي وسترابون واعجبوا به أكثر من اعجابهم بالاهرام وسموه قصر «لابيرانت». وقد وصف سترابون متانة بنائه وطول بقائه فقال: «والغريب ان سقف كل حجرة من حجرات هذا القصر كان من حجر واحد وكذلك أرضها، ولم يستعمل في بناء هذا القصر خشب أو ما شاكله من مواد العمارة (١٦). وقد زال القصر ولم يبق من آثاره شيء.

أما قصور طيبة التي يرجع عهدها إلى الدولة الحديثة ففي معظم الحالات لا يوجد إلا ما يشير إلى المكان الذي كانت تقوم فيه. على أنه قد عثر على أطلال كثيرة من مقري أمنوفيس الثالث والرابع (١٧). وبينما كان الأول منهما يجري الكشف عنه كان العقد الكبير في تل العمارنـة الذي عثر في غرف سجلاته على رسائل تل العمارنة المشهورة، لا يزال ينتظر كشفاً

(١٤) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص ٨٤ – ٨٥.

(١٥) برستد: تاريخ مصر. ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٥٦.

(١٦) المصدر ذاته ص ١٢٥.

(١٧) إرمان، أدولف وهرمان رانكه: مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال. مطبعة مصر بالقاهرة. لا تاريخ. ص ٦١.

واسع المدى. وقد امدتنا هذه الحفائر بصورة جيدة عن قصر أمنوفيس الرابع ـ أخناتون. فقد بني باللبن المجفف في الهواء. ويتألف من بوابة وفناء أمامي وقاعات رئيسية للاستقبال والنوم والطعام والحريم وغرف مخازن الطعام. ويظهر مما عثر عليه «بتري» في حفائره أن بعض أرض قاعات القصر كانت تغطى بالجص، ورسم عليها بالألوان صور تمثل مشاهد طبيعية (١٨).

٢ ـ الفنون التشكيلية

النحت: منذ بداية العصر الحجري، نحت الفنان المصري من العاج والعظام والصلصال والخشب، تماثيل حيوانية (كالثيران والغنم والماعز والاسود والغزلان وافراس النهر) أو بشرية (لنساء ورجال) واخرى تمثل (بعض الصناعات والاعمال). وفي عهد الاسرات صنعت التماثيل من الحجارة المختلفة ومن العاج والخشب والطين الفخاري والنحاس والبرونز وغير ذلك.

وعلى الرغم من أن الكهنة هم الذين كانوا يقررون إلى حد كبير الانماط التي يلتزمها الفنان، وأن معظم التماثيل صنعت للهياكل أو المقابر، فإن فن النحت حقق تقدماً ملحوظاً في عهد الدولة القديمة. فقد بذل النحاتون جهوداً كبيرة في أعمالهم لاظهار الطبيعة والحياة، وسعوا باخلاص وثقة بالنفس للسيطرة على المادة الصلبة وإن ظلت نسبها وابعادها ثقيلة.

وتتصف تماثيل هذا العهد بكونها تمثل في أغلب الأحيان رجلاً جالساً على مقعد، على رأسه شعر مستعار ويداه منبسطتان على ركبتيه أو موضوعتان الواحدة فوق الأخرى كأنه في موقف خشوع في حضرة الإله أو الفرعون، وأنها صنعت وأجسامها وعيونها متجهة إلى الأمام، على حين أن الأيدي والأقدام قد رسمت من أحد الجانبين، وان الجسم لم يلق من الفنان عنايته بالوجه. أما تماثيل الملوك والوزراء فقد جاءت متناسبة جداً، لكل وجهه الحقيقي الذي يشبه تماماً النموذج، لكن أجسامها اتصفت بالجمود والتكلف. فتماثيل الملوك تظهرهم كلهم أقوياء، ولكن مهما يكن من الجمود والتماثل اللذين لحقا فن النحت وما فرضه عليه الكهنة من قيود، فإن هذا النقص قد عوضه عمق في التفكير وقوة ودقة في التنفيذ وما تمتاز به الصناعة من طابع خاص واتجاه وُصقل. إن تمثال شيخ البلد «كعبيرو» ليخرج على كل سلطان، وإن المرأة التي تطحن الحب لتقبل عليه بكل ما في نفسها من أحاسيس وما في جسمها من عضلات، وإن الكاتب المقرفص ليهم بالكتابة (١٩).

---

(١٨) المصدر ذاته ص ٦١ ـ ٦٥.

(١٩) ديورانت، ول: قصة الحضارة ١٣٣/٢.

ومن أحسن تماثيل هذا العهد: تمثال الفرعون خفرع المصنوع من حجر الديوريت في متحف القاهرة، يمثل صاحبه جالساً على عرش يحيط به من الجانبين أسدان. وقد صنع هذا التمثال من أصلب الحجارة ولكنه ينقل إلينا قوة الملك البدنية وسلطانه وعناده وصلابة رأيه. ولكن أشهرها تمثال الكاتب المصري المتربع المحفوظ في متحف اللوفر بباريس.

وفي عهد الامبراطورية المتوسطة، تابع فن النحت تطوره مكتسياً بمسحة واقعية. فلم نعد نشاهد التماثيل ذات التعبير الالهي القوي، وإنما انتشرت التماثيل التي تظهر العواطف النفسية على ملامحها والتي يسعى نحاتوها ان يقدموا صورة طبيعية عن اصحابها وان يمثلوا باخلاص الرجال الذين كانوا في ثياب الفراعنة لا أن يمثلوا كسابقيهم رجالاً دون أن يكون لهم نموذج طبيعي حقيقي[٢٠].

وقد أظهر النحاتون ما يعانيه فراعنة هذا العهد من قلق ومشاكل وهموم على شكل غضون أو تجاعيد قاسية حول الفم. وخير مثال على ذلك رأس سنوسرت الثالث الموجود في متحف القاهرة، وتمثال امنمحت الثالث الذي يمثله النحات بجسم أسد رابض ووجه إنسان عليه تعبير حزين وقاس.

وفي عهد الامبراطورية الحديثة، واصل فن النحت تطوره وحافظ على الصفات الواقعية من أزمنة الامبراطورية المتوسطة التي كانت تدفع النحاتين لان يجعلوا من تماثيل الفراعنة صورة حقيقية ونسخة كالأصل عن هيئاتهم. بيد أنه يلاحظ فيها الآن شيء من العذوبة والرقة يخالف ماعهد في زمن الامبراطورية القديمة من كبرياء وهدوء، وما عرف من رصانة حزينة في الامبراطورية المتوسطة[٢١].

وفي عهد الامبراطورية الحديثة، أصبح النحاتون يهتمون بتغيير نسب التماثيل. فبعد أن كانت التماثيل القديمة قصيرة، صارت تماثيل الامبراطورية الحديثة طويلة، وصار الفنان ينحت الأيدي والأرجل. ويمثل وجنات الوجه ممتلئة ومدورة[٢٢].

وأجمل تماثيل هذه الحقبة تمثال تحوتمس الثالث المحفوظ في متحف القاهرة.

وفي عصر تل العمارنة، اتجه الفن نحو الواقعية، وخلق لنا مجموعة من التماثيل فكّاها ناتئان وجمجمتها على شكل بيضوي. وقد انتشرت هذه الصفات خاصة في فن النحت. ومن أهم

(٢٠) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر ذاته.

(٢١) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر ذاته.

(٢٢) المصدر ذاته.

الأثار التي وصلتنا تمثال نصفي لأخناتون محفوظ في متحف اللوڤر، وتمثال نصفي لنفرتيتي (الحسناء آتية) زوجة أخناتون موجود في متحف برلين. وتأثير مدرسة تل العمارنة ظاهر. فعنقه طويل ونحيف وبارز إلى الامام، وذقنه ناتيء، وعلى رأسه قبعة مصنوعة برشاقةبحيث تمنح نفرتيتي شخصية قوية لا تتجاوز حد النزعة الطبيعية التي يقصدها المثالون. والتمثال ملون فيه حياة وروعة.

وعندما عاد توت عنخ آمون إلى طيبة وأرجع عبادة آمون صار النحاتون يستمدون من المفاهيم الفنية القديمة.

وكما نحت الفنانون تماثيل بشرية، نحتوا أيضاً تماثيل حيوانية من أحسنها تمثال كلب محفوظ في متحف اللوڤر، ويعود إلى عهد الامبراطورية الحديثة. وهو يمثل كلباً يتهيأ للوثوب، وبسط قائمتيه الاماميتين، ومال جسمه قليلاً إلى اليمين مما يدل على مهارة كبيرة وواقعية. وكان مدهوناً وزالت الآن ألوانه [٢٣].

وقد وجدت في مقابر الامبراطوريتين الوسطى والحديثة تماثيل صغيرة من الخشب والحجارة تمثل عبيداً، وزراعاً، ورعاة، وحرفيين ومحاربين. كما عثر أيضاً على تماثيل أخرى وضعت مع الميت في القبر، حسب تصورات المصريين الدينية، لتقوم بخدمته والعمل من أجله في الحياة الأخرى مثلما كانت تخدمه وتعمل من أجله في الحياة الدنيا.

انهار فن النحت في اعقاب الامبراطورية الحديثة. وعندما احتل الفرس مصر عام ٥٢٥ قبل الميلاد، أجهزوا على حياتها الفنية.

الخلاصة: نحت الفنانون تماثيلهم من مواد متنوعة وبأحجام وأوضاع مختلفة. وفشل الكهنة في إخضاع فن النحت لسلطانهم الكامل. وكانت التماثيل منها البشرية (مذكرة أو مؤنثة) ومنها البشرية والحيوانية معاً كتمثال أبي الهول، حامي المعابد والإله المحلي لمنطقة الأهرام والصحارى، ومنها الحيوانية.

الرسم والتصوير: نشأ فن الرسم والتصوير في عهد ما قبل الأسرات وتطور في عهد الأسرات. وانتشر انتشاراً كبيراً خاصة في المقابر. وتشمل الصور التي رسمت على جدران القبور مناظر عن حياة الميت والأعمال التي انجزها في أملاكه. وقد نسب إلى هذه الصور قوة سحرية تضمن للمتوف أن يعيش في الحياة الآخرة كما كان يعيش في الحياة الدنيا.

---

(٢٣) المصدر ذاته.

وفي عهد الامبراطورية القديمة كان فن التصوير مكملاً للنحت والعمارة وغير مستقل عنها . وكانت الألوان (تخلط الألوان بصفار البيض والغراء المخفف وبياض البيض لرسم الصور) تضاف إلى التماثيل واللوحات لتزيد في جمالها وتأثيرها . والمشاهد المصورة التي يرجع تاريخها إلى هذا العهد قليلة ولم تستخدم إلا لزخرفة الجدران المصنوعة من الطوب كجدران بعض القصور والمدافن . وأجمل النماذج التي تناهت إلينا صورة لست إوزات اخرجت من قبر في ميدوم وهي محفوظة في متحف القاهرة [٢٤] ،وتعطي من يتأملها لمحة صادقة عن دقة الملاحظة لدى مصوري ذلك العهد وعن وجدانهم الفني التأملي . فقد اتقن الرسام انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه وقت التقاطه دود الأرض بشكل يقرب جداً من الطبيعة . ولا شك في أن مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالمقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن في هذا الفن الجميل [٢٥] .

وفي عهد الامبراطورية الوسطى ،تطور فن التصويرواصبح فناً قائماً بذاته . وصار الرسام حراً في ان يستوحي ،وان يفصل الاشخاص عن بعضهم البعض جاعلاً لكل منهم شخصية تخالف شخصية الآخرين ،وان ينظم اشكالهم في مشاهده ويجمعها وينوعها دون أن يمثلهم وراء بعضهم بعضاً على شكل رتيب مُملّ واعتباطي [٢٦] .ففي مدافن بني حسن والبرشة صور تمثل افراد الشعب المصري وهم يقومون بالاعمال اليومية الزراعية والصناعية ، يرى من يتأملها مشاغل الناس وهم في الحقول والورشات والحوانيت والمكاتب ، أو يقومون بتمارينهم الرياضية وألعابهم وأعيادهم . وقد نشأ عن ذلك ان صارت تمثل التفاصيل الفنية والمضحكة وتنوع المواضيع وتتقن . فتصور كل الاوضاع ويرسم الفرح والمرح والخبث على الوجه [٢٧] . وفي صورة « الظباء والزراع » وصورة « القطة ترقب فريستها » تنبه الفنان فيهما أيضاً إلى العنصر الرئيس في الرسم ، وهو أن يجعل من رسومه كائنات حية تتحرك وتعيش [٢٨] .

وفي عهد الامبراطورية الحديثة ، ازدهر فن الرسم ، وفيه توصل الرسام إلى صنع كل لون من ألوان الطيف ، وتاقت نفسه إلى أن يظهر للناس حذقه في استخدامها ، فأخذ يحاول تصوير الحياة النشيطة في الحقول المشمسة على جدران المنازل والمعابد والقصور والمقابر وعلى

---

(٢٤) ديورانت ، ول : قصة الحضارة ١٤٢/٢ .

(٢٥) برستد : تاريخ مصر : ص ٦٩ .

(٢٦) عبد الحق ، سليم عادل (الدكتور) : المصدر ذاته .

(٢٧) المصدر ذاته .

(٢٨) ديورانت ،ول : قصة الحضارة ١٤٢/٢ .

سقوفها كلها. صور عليها طيوراً تطير في الهواء، وسمكاً يسبح في الماء، وحيواناً يعيش في الآجام، ورسمها كلها في بيئاتها التي تعيش فيها، وحاول ان يجعل السقف تضارع في بهائها ورونقها كواكب السماء. ومن أجمل الرسوم التي وصلت إلينا عن هذه الحقبة إضافة إلى ما ذكر: صورة «الفتاة الراقصة» المحفوظة في متحف تورينو في إيطاليا، وفيها أكبر قسط من قوة الابتداع وروح الفن [٢٩]. وتتميز بحرية أكثر في الحركات، وتظهر في ملابس شفافة شبه عارية [٣٠]. والصورة المرسومة بالمغرة التي تمثل الفتاة الجميلة الهيفاء العارية بين الموسيقيين في قبر نخت بطيبة [٣١].

والملاحظ في هذه الرسوم أن الخطوط جميلة، ولكن التركيب ضعيف، وان المشتركين في عمل واحد يمثلون متفرقين، ووضع اجزاء الصورة بعضها فوق بعض بدل مراعاة قواعد المنظور، وجدَّة في التفكير، ويسر في رسم الخطوط وفي التنفيذ، وإخلاص لحياة الكائنات الحية وحركاتها، وغزارة في اللون والزينة تبعث في النفوس البهجة، وتجعل الصور متعة للعين والروح [٣٢].

النقش: نشأ فن النقش منذ عهد ما قبل الأسرات، تؤكد ذلك آبدة «مدية جبل الارك» ولوحة «الملك العقرب». ثم تطور وانتشر انتشاراً واسعاً في عهد الأسرات وخاصة في عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة.

نقش الفنانون على الخشب والعاج، وعلى الحجارة بوجه خاص. والنقش نوعان بارز وغائر. فالأول يكون بتفريغ ما حول الصورة وابراز بعض تفصيلاتها. والثاني هو حفر الصورة في الأرضية.

وفي عهد الأمبراطورية الأول، توسع النقش على جدران المقابر فشاعت وتعددت مظاهر الحياة اليومية بمشاهدها المختلفة وتفصيلاتها الكثيرة، وظهرت المآدب التي تحفل بالشراب والطعام والغناء والموسيقى. ومن أجمل النقوش التي تعود إلى هذه الحقبة التاريخية، المناظر المحفورة على جدران مقصورة الأمير رع حوتيه التي تمثل مشاهد الحياة اليومية من

---

(٢٩) المصدر ذاته ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٣٠) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٨٠.

(٣١) ديورانت، ول: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران. مطبعة لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٥٠ ج ٢ ص ١٤٤.

(٣٢) نفس المصدر والصفحة.

صيد الطيور والسمك، والحيوانات وحرث الأرض وصناعة السفن. وكذلك المناظر المحفورة على جدران مقابر منكارا وتي وبتا حوتب في سقارة. والمتأمل في نقش هذه المشاهد يمكنه أن يستخلص جملة من العادات الابتدائية الفنية كفقدان المنظور perspective وثبات قانون الجبهة Ladela Frontalité وتمثيل بعض اعضاء الجسم من وجهها الجانبي وبعضها الآخر من وجهها الأمامي في صورة واحدة (٣٣).

وفي أخريات عهد الامبراطورية القديمة، أخذت النقوش الخطية تروي مغامرات أصحاب المقابر وتعدّد القابهم والمهام التي اوفدوا فيها وما نالوه من رعاية الملك والحاشية.

وفي عهد الامبراطورية الوسطى، انتشر فن النقش الغائر، تمثل ذلك المشاهد المحفورة في جدران مقابر بني حسن التي كانت من عمل فناني الأقاليم وتظهر فيها الدقة في التعبير، والتزام التقاليد الفنية الموروثة. وتعرض الرسوم الجدارية المنقوشة بمهارة فائقة في قبر من قبور الأسرة الحادية عشرة في بني حسن شتى نواحي الحياة المصرية في إحدى المزارع عرضاً شاملاً؛ فالغسالون يضربون ملابس التيل ويعصرونها ويجففونها، والفتيات يغزلن وينسجن، والرعاة يسوقون ماشيتهم إلى حظائرها، واللاعبون على الحبال يتدربون على تمارينهم، وكاتب جالس يتلقى الضرائب ويساق إليه اثنان قسرًا في الدفع، ومشاهد الصيد والمرح، وفتيات يرقصن ويلعبن بالأكر ويقمن بالعاب بهلوانية والعاب خفة، ويدل منظرهن على السرور والمرح (٣٤).

وفي عهد الامبراطورية الحديثة، توسعت الفتوحات والتجارة الخارجية وتدفقت الثروة والعبيد، فتلونت الحياة العامة، واستعاد فن النقش تـدده وانتشر، وتميز، كغيره من بقية الفنون، بطابع الاسلوب الواقعي، وجاء مرآة عصره، يعكس التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في مصر آنذاك فالنقوش الطويلة على جدران الكرنك والرمسيوم تقص علينا أخبار الحملات العسكرية والمعارك الحربية والغنائم في زمن تحوتمس الثالث ورمسيس الثاني. والنقوش المحفورة في جدران معبد الملكة حتشبسوت في الدير البحري، تروي أخبار البعثة التي أرسلتها هذه الملكة إلى بلاد البونت. وفي هذه النقوش نرى السفن الطويلة منشورة الشراع تدفعها إلى الجنوب مجاذيفها المصفوفة وتمخر

---

(٣٣) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور) المصدر ذاته.

(٣٤) هامرتن، ج ١٠ : تاريخ العالم، أشرفت على ترجمته إدارة الثقافة في وزارة التربية. مكتبة النهضة المصرية. لا تاريخ. المجلد الأول ص ٥٨٣.

مياه البحر الاحمر المملوءة بحيوان الاخطبوط والحيوانات القشرية وغيرها . ونرى الاسطول التجاري يصل إلى شواطىء پونت ويرحب به أهل البلاد ومليكها ، ثم تصحب السفن الموقرة بأحمالها وهي عائدة نحو الشمال ، ملقية مراسيها في أحواض طيبة ، وتفرغ عند قدمي الملكة ما تحمل من حاصلات پونت ومنتجاتها :صمغ المر وأشجار المر الخضراء ، وخشب الأبنوس والعاج النقي ،والذهب والفضة ،والطيوب وأنواع البخور ،ومواد تكحيل العيون ، وقردة ، كلاب صيد ،وعبيد (٣٥) .إن هذا بلا ريب لمن أعظم النقوش في تاريخ الفن (٣٦). وفي عصر العمارنة ، بلغت واقعية فن النقش درجة دخل فيها الفنانون إلى قصر الملك وصوروه في مجالسه العائلية مع زوجه وأولاده. فظهرت الاميرات والملكة بل الملك في أوضاع تتفق والواقع ، حتى لنشاهد ثوب الملك يتطاير مع الهواء ، وحتى لنرى الملكة تلاعب اطفالها ، والبنات يمثلن في أوضاع طبيعية ، وبعبارة أخرى نقش الفنان لوحات واقعية تظهر فيها الحركة والبساطة والمرونة والحرية من قيود القواعد الفنية التقليدية.

ومما تجدر ملاحظته أن النقوش كانت في الغالب مصورة. فقد عرف الحرفيون صناعة ألوان ثابتة جداً حافظت على لمعانها حتى أيامنا هذه.

وبعد حقبة العمارنة ، اختلطت الاساليب التقليدية بالواقعية كما يظهر ذلك في نقوش معبد الرمسيوم ، ثم تدهور فن النقش كغيره من بقية الفنون. وعندما احتل الفرس البلاد قضوا على حياتها الفنية.

٣ ـ **الفنون الصغرى:** كالصياغة وصناعة الحلي والمجوهرات والميناء والأثاث المنزلي وغير ذلك ، فلم تزدهر إلا في فترة متأخرة نسبياً وذلك زمن الأسرة الثانية عشرة. أما في الفترة السابقة فقد كان هناك صناعة فخارية متميزة (٣٧).

وفي عهد الامبراطورية الحديثة ، توسعت الفتوحات والتجارة الخارجية فتدفقت الثروات في خزائن الفرعون والنبلاء والارستقراطيين وكبار الموظفين وقادة الجيش. فاندفعوا لاقتناء الحلي والمجوهرات ، وتأثيث قصورهم ومنازلهم بأجل الأثاث ، مما ساعد بدوره على تطور الفنون الصغرى.

(٣٥) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٥٨٨ . ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٣٩ . ـ ١٤٢ . ود: نعيم فرح: المصدر السابق ص ٧٢. جماعة من المؤرخين السوفيات. المصدر السابق ص ١٦٣.

(٣٦) ديورانت: المصدر ذاته ج ٢ ص ١٤٢.

(٣٧) حاطوم ، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ١٣٦.

فقد صنع الصاغة الحلي والمجوهرات وطعموها بالأحجار الكريمة. وتزين متحف القاهرة تحف من مصوغات الألف الثاني قبل الميلاد، كالاساور، والخواتم، والقلائد، والتيجان، وحُلى الصدر، والسلاسل والرصائع، والمرايا. وصنع النساجون الطنافس والقماش المزركش الذي يزين الجدران، والوسائد الثمينة بألوانها والرقيقة في نسجها رقة لا يكاد يصدقها العقل.

وقد كشفت مخلفات توت عنخ آمون عما كان عليه أثاث الملوك والأثرياء من ترف عجيب، وعما بلغته صناعة الفنون الصغرى من تقدم وازدهار منذ الألف الثاني قبل الميلاد. من الأثاث الجنازي المكتشف في مقبرة توت عنخ امون: كراسي مكسوة بالذهب والفضة، وسرر ذات رسوم فخمة وصناعة دقيقة، وصناديق الجواهر، وعلب العطور الدقيقة الصنع الجميلة النقش والمزهريات، لكنها جميعاً لا تذكر إلى جانب العرش الضخم الذي يزين ظهره المكسو بصفائح الذهب والمصنوع من العقيق والزجاج الأزرق والقيشاني، توت عنخ آمون ومعه زوجه تمسح له جسمه بالدهان. ومن أفخر ما كشف من جهاز توت عنخ آمون الجنازي، صندوق خشبي ذو غطاء متحدب رسمت عليه فوق سطح مطلي رسوم دقيقة متشابكة تمثل مناظر صيد وحروب الملك مع الآسيويين. وقد بدا على نصف الغطاء هذا، فرعون راكباً مركبته وهو يصيد الأسود في الصحراء [38].

وكانت موائد الاثرياء تحمل آنية ثمينة من الفضة والذهب والبرونز، [illegible] من البلور. وان ما اشتملت عليه مخلفات توت عنخ آمون الجنازية من اوان [illegible] من [illegible] الأبيض، وما عثر عليه المنقبون في [illegible] الثالثة [illegible] على هيئة اللوتس، ومن طاسات الشراب، ليدل على ما بلغته صناعة الخزف من [illegible]

وكان لعهدي الامبراطورية [illegible] الوسطى [illegible] من الحلي [illegible] في جمال الشكل ودقة [illegible]. وتشمل المجاميع الباقية من [illegible] وخواتم، واساور، ومرايا، [illegible] الصدر، [illegible] وعقود [illegible] الذهب والفضة والعقيق [illegible] واللازورد، [illegible]

[illegible] المصريين [illegible]

[illegible] في [illegible]

(٣٨) [illegible] الأول، ص٣٢ [illegible]

(٣٩) ديورانت: قصة الحضارة، [illegible] ص١٤٦.

(٤٠) المصدر ذاته، ص[illegible].

الصغرى مع انحطاط الامبراطورية الحديثة والاحتلال الفارسي لمصر.

٤ ـ **الموسيقى والغناء والرقص:** استخدم المصريون آلات موسيقية متنوعة منها:

أ ـ آلات وترية: أهمها: الجنك، القيثارة، الكنارة، الطنبور، والمزهر (العود).

ب ـ آلات النفخ وأهمها: المزمار بشكليه المنفرد والمزدوج والأبواق.

ج ـ آلات الايقاع وأهمها: الصناجات، الصلاصل، المصفقات المعدنية والخشبية، الدفوف والطبول وغيرها.

وكانت مواد الادوات الموسيقية تؤخذ من البيئة المصرية، من الخشب والغاب والجلود والطمي. وكان الجنك في جميع العصور أحب آلات الموسيقى، يستخدمونه بمختلف الاحجام[٤١]. وكان المزمار أكثر الآلات انتشاراً إلى جانب الجنك منذ أقدم العصور[٤٢]. وفي الدولة الحديثة، غلب استعمال المزمار المزدوج[٤٣]. وقد بقي الجنك والمزمار في الدولة الوسطى أداتي الموسيقى الوحيدتين عند المصريين. ومنذ عهد الدولة الحديثة، نجد عدداً من الآلات الجديدة ادخل معظمه إلى مصر من البلاد الآسيوية مثل: الطنبور والجنك الصغير والكنارة[٤٤]. وكانت الفرقة الموسيقية تتكون عادة من عازفين على الجنك ونافخ مزمار طويل ونافخ مزمار قصير ومجموعة من المغنين والمصفقين[٤٥]، وكان للهياكل والقصور الملكية فرق من العازفين والمغنين[٤٦]. واستخدمت الموسيقى أثناء إقامة الطقوس والشعائر الدينية، وفي الجنازات والاعياد والحفلات العامة والحروب[٤٧].

وليس لدينا ما يدل على وجود علامات موسيقية أو معلومات عن طريقة العزف[٤٨]. بينما ترك لنا المصريون كثيراً من الأغاني المدونة، منها الشعبية وتتعلق بعمل العامل والفلاح، ومنها العاطفية وتتعلق بالحب والغزل، ومنها الدينية أو الجنازية، ومنها الحماسية كالأناشيد

---

(٤١) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٢٦٧.
(٤٢) نفس المصدر والصفحة.
(٤٣) المصدر ذاته.
(٤٤) المصدر ذاته ص٢٦٧ ـ ٢٦٨.
(٤٥) ابراهيم، لجيب ميخائيل (الدكتور) المصدر السابق ج ٤ ص ٧٥.
(٤٦) ديورانت: قصة الحضارة ١٤٦/٢.
(٤٧) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص ٨٥.
(٤٨) نفس المصدر والصفحة.

الوطنية والحربية [٤٩].

وكان الغناء والموسيقى لازمين في كل حفل [٥٠]. ونجد في الدولة القديمة رئيسة الغناء « حم رع » ورؤساء الأغاني الملكية منهم سنغرو ومري نباح ري نابغتا الغناء في أيامها [٥١]. كما نجد في الامبراطورية الحديثة مديراً لكل جماعات منشدي المعابد في مصر. وكان غناء النساء محبوباً عند المصريين وامتزجت اصواتهن بأصوات الرجال في مصاحبة جميع الآلات. وكانت اكثر الآلات شيوعاً في مصاحبة الغناء هي الجنك الكبير وطنبوران أو (طنبور وكناره) ومزمار مزدوج [٥٢].

أما الرقص فكان تعبيراً طبيعياً عن الفرح، كما كان أيضاً تعبيراً عن العبادة والشكر للإله. فعندما كان يتم جمع المحصول ويقدم الفلاح بواكيره إلى « مين » إله كبتوس فإنه كان يرقص اعترافاً بشكره المنطوي على البهجة والسرور للإله [٥٣]. وعندما كان يحتفل باعياد الهتي السرور « حتحور » و « باستت » فإن الرقص كان يعادل في أهميته التهليل وحمل أكاليل الزهور [٥٤].

وعلى العموم كان الرقص لوناً من ألوان الرياضة. وترينا احدى مقابر بني حسن مناظر راقصة تمثل ما يشبه اللوحات الفنية [٥٥].

وقد تنوع الرقص حسب المناسبات، فمنه الرقص الايقاعي مع التصفيق أو الصنوج، ومنه الرقص الرياضي وحركاته صعبة ومعقدة، وهناك رقص فيه محاكاة مظاهر الحياة العملية، والرقص الديني، والرقص الحربي [٥٦].

وكانت الراقصات في الدولتين القديمة والوسطى يضفرن شعرهن، ويرتدين السراويل الرجالية القصيرة ويتزيّن بشكل مستطرف وجميل عندما يقمن بالرقص. أما في عهد

---

(٤٩) نفس المصدر والصفحة.

(٥٠) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٢٦٦.

(٥١) ديورانت: قصة الحضارة ١٤٦/٢.

(٥٢) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٢٦٩.

(٥٣) المصدر ذاته ص٢٦٣.

(٥٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥٥) المصدر ذاته.

(٥٦) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٨٥.

الامبراطورية الحديثة فقد انصرفن عن تصفيف الشعر واستعضن عن السراويل بأردية كتانية شفافة طويلة [٥٧].

وتبعاً لما اصاب طريقة الحياة من تطور، اصبحت الرقصات في هذا العهد اكثر رقياً ورشاقة [٥٨]. وبينما كان موسيقيون خاصـون في الدولـة القـديمة والوسطى يـرافقـون دائماً الراقصات، اصبحت الفتيات في عهد الامبراطورية الحديثة يقرعن الدفوف والصنوج او يصفقن باليدين لضبط الايقاع [٥٩].

ولم يعرف المصريون التمثيـل إلا كطقس ديني، كتمثيليـة حـورس وسـت، وتمثيليـة آوزيريس [٦٠].

(٥٧) إرمان ورانكة: المصدر السابق ص ٢٦٤.

(٥٨) نفس المصدر والصفحة

(٥٩) المصدر ذاته ص ٢٦٦.

(٦٠) فرج، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٨٥.

المعارف العلمية

التكنيك وأجنّة العلم: نشأت المعارف العلمية لدى قدماء المصريين في سياق النشاط العملي وتكديس الخبرات ونقلها من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة. فالأهرامات والمعابد كانت قد بنيت بمساعدة تكنيك بدائي. وإن جميع الأعمال التي قام بها الفلاحون والعبيد كانت يدوية، ولكنها نفذت دوماً حسب مخططات وحساب المهندسين ورؤساء الورشات الآخرين. هؤلاء أسسوا معارفهم، بطبيعة الحال، بالاعتماد على الخبرة المتوارثة من جيل إلى آخر. لا على المبادىء النظرية للميكانيك[1]. وتكونت معارف الفلك العلمية من ملاحظة الفلاحين فيضانات النيل ومراقبتهم حركات الكواكب والنجوم. من أهم المعارف العلمية لدى قدماء المصريين:

الرياضيات: ساعد تطور الزراعة والبناء على تراكم المعارف العملية ونشوء الرياضيات التي كانت من أهم العلوم التطبيقية. فقد تطلب علو البناء حسابات مسبقة بأرقام مدورة، كما استدعى مسح الأراضي لتقرير مقدار الضريبة معرفة حساب المساحات أيضاً. والحساب كان ضرورياً في تقسيم المأكولات التي تعطى كمرتبات وأجور وفي أبسط العمليات التجارية.

لقد كانت جميع الأعمال الحسابية ترتكز على قاعدة العدد الذي توصل المصريون منذ أقدم العصور إلى علامات كتابية له تقابل أرقامنا الحالية. وانطلاقاً من نظام العد الطبيعي باليدين (الأصابع الخمسة أو العشرة) أنشأ المصريون النظام العشري واستخدموه في

---

(١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧٨.

الحساب. وكانت الأرقام سمجة متعبة[٢]. فالأرقام من واحد إلى تسعة كان يعبر عنها بشرط عمودية ١، وعشرة بصورة الأداة التي تربط بها الماشية التي ترعى ∩ ، والمائة بشريط القياس الذي يبلغ طوله مائة ذراع ، والألف بورقة اللوتس والعشرة آلاف بصورة الإصبع والمائة ألف بصورة الضفدع الصغير. وحتى رقم المليون عملوا له علامة كانت ترسم على شكل هيئة إنسان يرفع ذراعيه إلى السماء لدهشته من وجود مثل هذا العدد الكبير[٣]. ويجري ترتيب الأرقام منذ العصور الأولى من الأصغر إلى الأكبر. فقد ذكر في إحدى اللوحات الأثرية ١٢٣٤٤٠ رأساً من الماشية و ٢٢٣٤٠٠ حمار و ٢٣٢٤١٣ من الماعز و ٢٤٣٦٨٨ من الأغنام[٤].

عرف المصريون العمليات الحسابية الأربع (الجمع والطرح والضرب والقسمة)، إلا أنهم استعملوها حسب طرق تختلف بعض الاختلاف عن اساليبنا الحالية[٥]. فالضرب عبارة عن جمع المضاريب المؤدية إلى النتيجة. والقسمة عبارة عن مضاعفة المقسوم عليه ثم جمع الأرقام التي تعطى رقم المقسوم، ويكون حاصل القسمة نتيجة جمع الأرقام المقابلة للأرقام التي أعطى جمعها رقم المقسوم. وإليك مثلاً لحل مسألتين في الضرب والقسمة على الطريقة المصرية القديمة:

١ ـ حل عملية حسابية في الضرب ١٢ × ١٦

١	١٦	
٢	٣٢	
+ ٤	٦٤	
+ ٨	١٢٨	
١٢	١٩٢	حاصل الضرب وهو المطلوب

٢ ـ حل عملية حسابية في القسمة

٧٧ ÷	٧
+ ١	٧
+ ٢	١٤
٤	٢٨
+ ٨	٥٦

(٢) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١١٩.

(٣) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٤٠٣.

(٤) المصدر ذاته ص ٤٠٣، ٦٠٠.

(٥) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص ٩٠.

ففي هذه الحالة ٧ ، ١٤ ، ٥٦ ، هي الأرقام التي إذا جمعت انتجت الرقم ٧٧ ، ومعنى هذا أن الانسان يجب أن يضرب ٧ في ١ + ٢ + ٨ أي في ١١ لكي يجد ٧٧ أي أن ٧ تدخل إحدى عشرة مرة في ٧٧ [٦] .

وفي مسألة أخرى يتساءلون كم ثمانية تحوي ١٩ ؟ ، أو بعبارة أخرى ما هو الذي إذا ضرب في ٨ أنتج ١٩ ؟ . والمسألة تحل هكذا :

١	٨
+ ٢	١٦
$\frac{١}{٢}$	٤
+ $\frac{١}{٤}$	٢
+ $\frac{١}{٨}$	١

فيكون إذن ٢ ، $\frac{١}{٤}$ ، $\frac{١}{٨}$ هي الأرقام المطلوبة لأنها تساوي ١٦ ، ٢ ، ١ وهي الأرقام التي إذا جمعت أنتجت ١٩ . ولذا فإننا نقول :

١٩ على ٨ = ٢ $\frac{٣}{٨}$ [٧] وهو المطلوب.

وعرف المصريون أيضاً جداول الضرب والقسمة [٨] . كما عرفوا الكسور البسيطة ، ولكن صورة هذه الكسور كان رقم ١ على الدوام مثل $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٣}$ ، $\frac{١}{٤}$ ، $\frac{١}{٥}$ ، $\frac{١}{٦}$ وكانوا إذا أرادوا كتابة $\frac{٣}{٤}$ كتبوها $\frac{١}{٢}$ + $\frac{١}{٤}$ [٩].

بحث المصريون في الجبر وعرفوا مبادئه . فقد ورد في بردية أحمس (التي يرجع تاريخها إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد) حسابات سعة مخزن للغلال أو مساحة حقل وتضرب لهذا الحساب أمثلة ، ثم تنتقل من هذا إلى معادلات جبرية من الدرجة الأولى [١٠] .

---

(٦) إرمان ورانكه : المصدر السابق ص ٤٠٤ .

(٧) نفس المصدر والصفحة .

(٨) ديورانت : قصة الحضارة ج ٢ ص ١٢٠ .

(٩) نفس المصدر والصفحة .

(١٠) نفس المصدر والصفحة .

أما الهندسة (وتعني قياس الأرض) فكانت هي الأخرى متقدمة. وكانت فيضانات النيل وما تسببه من تغيير حدود كثير من الأراضي الزراعية تجبرهم سنوياً على مجابهة هذا العمل. ولم تقتصر الهندسة على قياس مساحة المثلثات والمربعات والدوائر والمكعبات، بل تجاوزتها إلى قياس احجام الاسطوانات والكرات. وقد توصل علماء الرياضيات المصريون الى تقدير النسبة التقريبية لـ π بـ ٣,١٦، بينما هي اليوم وبعد مرور أربعة آلاف سنة ٣,١٤.

واستخدم المصريون في قياس الأطوال الأصبع والشبر والقدم والخطوة والذراع التي أخذوها من الجسم البشري[١١]. وكانت وحدة قياس الأطوال هي الذراع الملكي وطوله سبع قبضات، كل قبضة أربعة أصابع أو ٥٢,٣ سنتمتراً[١٢]. أما المقاييس الطويلة فكان لها وحدة خاصة وهي مئة ذراع[١٣].

الفلك: كان من الضروري للزرّاع المصريين أن يعرفوا في وقت مبكر موعد فيضان النيل كي ينهيأوا له في حينه. وتبين لهم من ملاحظتهم الفيضانات خلال سنين عديدة، أن النجوم كانت تحتل على الدوام مكاناً معيناً قبل الطوفان. فشرعوا في دراسة حركة الكواكب والنجوم باهتمام بالغ. وقد مهدت مراقبة الفلاحين نجوم السماء لنشوء الفلك.

وقد ساعد تطور المعارف الفلكية المصريين على وضع تقويم شمسي خاص منذ عهد الأمبراطورية القديمة. واختاروا لبدء السنة الزراعية اليوم الذي تصل فيه مياه النيل الحمراء إلى خط عرض مدينة منف، وهو اليوم الموافق لظهور نجم الشعرى اليمانية (سيريوس - سوتيس) في أفق منف قبل الفجر[١٤]، أي يشرق مع الشمس في وقت واحد تقريباً. وتبين لهم، بعد سنوات عديدة من المراقبة، أن الأمر يتكرر كل ٣٦٥ يوماً، فأعطوا هذه المدة السنة وقسموها إلى ثلاثة فصول (الفيضان، والبذر، والحصاد)، وكل فصل إلى أربعة أشهر، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً. ثم أضافوا خمسة أيام عطلة أعياد إلى نهاية السنة لتصبح ٣٦٥ يوماً. ولما كان التقويم المصري يجعل السنة ٣٦٥ يوماً بدل $\frac{1}{4}$ ٣٦٥، فإن الفرق بين شروق الشعرى وشروق الشمس، وهو الذي كان في أول الأمر صغيراً لا يكاد

---

(١١) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٤٠٠.

(١٢) فرح، نعيم، (الدكتور): المصدر السابق ص ٩٠.

(١٣) نفس المصدر والصفحة.

(١٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٥٥.

يدرك، قد ازداد حتى بلغ يوماً كاملاً في كل أربع سنين. وبذلك كان التقويم المصري يختلف عن التقويم الشمسي بست ساعات في كل عام. ولم يصحح المصريون قط هذا الخطأ، حتى جاء فلكيو الاسكندرية اليونانيون فأصلحوه بأمر يوليوس قيصر عام ٤٦ قبل الميلاد، وذلك بإضافة يوم بعد كل أربع سنين. وهذا هو ما يسمونه «التقويم اليوليوسي»[١٥]. ثم صحح التقويم تصحيحاً أدق في عهد البابا غريغوري الثالث عشر عام ١٥٨٣ للميلاد، وذلك بحذف هذا اليوم الزائد (وهو اليوم التاسع والعشرون من شباط) من السنين المتممة للمئات التي لا تقبل القسمة على ٤٠٠، وهذا هو «التقويم الغريغوري» الذي يستخدم اليوم[١٦]. ولما كان شروق الشعرى منسوباً إلى الشمس يتأخر يوماً كاملاً في كل أربع سنوات عما يتطلبه التقويم المصري ليكون الشروقان متفقين على الدوام، فإن هذا الخطأ يبلغ ٣٦٥ يوماً كل ١٤٦٠ عاماً. وحين تكمل هذه الدورة السيريوسية (كما كان قدماء المصريين يسمونها) يعود التقويم المصري والتقويم الشمسي إلى الاتفاق[١٧]. وقد ورد ذكر التقويم المصري لأول مرة في النصوص الدينية المنقوشة في أهرام الأسرة الرابعة[١٨].

تتبع المصريون الكواكب وحركاتها، وميزوا الكواكب السيارة عن النجوم الثوابت، ورسموا خرائط فلكية (خرائط الأبراج وجداول مواقع بعض النجوم)، كان الغرض العملي منها هو تحديد الوقت أو بعبارة أدق، قياس الزمن[١٩]. فقد وجد في قبر الأمير سخوت (من زمن الأسرة الثامنة عشرة) مصوَّر فلكي تظهر في وسطه مجموعة الدب الأكبر والدب الأصغر ونجم البليار، وفي القسم الجنوبي من السماء يظهر نجم الأوريون ونجم الشعرى المسمى سيريوس[٢٠]. واستطاعوا معرفة كسوف الشمس وخسوف القمر. وقسموا كلاً من الليل والنهار اثنتي عشرة ساعة. واخترعوا آلات مختلفة (ساعات) لمعرفة الزمن ليلاً ونهاراً. فلتحديد ساعات النهار كانت تستخدم ساعات شمسية يقاس بها امتداد الظل سواء أكان على سطوح استقبال أفقية أم مائلة أم عمودية أم مدرجة بالاستعانة بمقياس مقسم إلى درجات[٢١]. أما لتحديد ساعات الليل فكانت تستخدم في بعض الأحيان ساعات مائية

(١٥) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٢٢.
(١٦) نفس المصدر والصفحة.
(١٧) المصدر ذاته. وجماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧٩.
(١٨) المصدر ذاته.
(١٩) كوروفكين: المصدر السابق ص ٥٤. إرمان ورانكه. المصدر السابق ص ٣٧٥.
(٢٠) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص ٩١.
(٢١) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

وفي أحيان أخرى ساعات النجوم (آلة فلكية خاصة). وساعات الماء هي أحواض حجرية كان ينقش على جدرانها الداخلية مقياس مدرج للساعات ويزدان خارجها بكتابات ورسوم « لآلهة » الساعات. وهناك نوعان من هذه الساعات، فبعضها كان يظهر التوقيت بتسرب المياه إلى الخارج، والبعض الآخر بتسربه إلى الداخل. ويظهر أن النوع الأول كان يحوي فتحات صغيرة لتسرب المياه إلى الخارج كانت تختلف في اتساعها حسب طول ساعات الليل وذلك تبعاً لفصول السنة المختلفة. والساعات المحفوظة لدينا الآن هي من النوع الأول الذي يظهر التوقيت بتسرب المياه إلى الخارج. ففي متحف القاهرة ساعة مائية صنعت من الحجر يعود تاريخها إلى عهد الأسرة الثامنة عشرة (٢٢). غير أن جميع الساعات التي استخدمت لم توصل إلى قياس الزمن إلا بصفة تقريبية.

ومع كل الانجازات الهامة، كان المصريون في علم الفلك أقل رقياً من معاصريهم البابليين (٢٣).

الطب: حقق الطب تقدماً كبيراً، وكان بحق مفخرة علمية للمصريين. وقد أتاح فتح الجثة لتحنيطها، حسب العادات الدينية، فرصاً لدراسة جسد الانسان، وهذا بدوره أدى إلى ظهور أجنة الفيسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) وعلم الطب (٢٤).

لقد بحث الأطباء المصريون سبب الأمراض في تعفن الأعضاء، غير أنهم لم يتمكنوا على الدوام من التخلص من السحر (٢٥). وتشير برديات يعود تاريخها إلى عهدي الامبراطوريتين القديمة والوسطى، إلى استخدام الوسائل العلمية إلى جانب السحر في معالجة المرض، وتعكس بعض الأساطير أيضاً نفس الاتجاه والممارسة.

ومرجعنا عن الطب المصري مجموعة من البرديات تناهت إلينا من مختلف عهود التاريخ المصري القديم، أعظمها قيمة برديتا جورج ايبرس (٢٦) وأدوين سميث (٢٧). فالأولى تقسم

---

(٢٢) المصدر ذاته ص٣٧٧ - ٣٧٨، ٣٨٤ - صورة رقم ٢.

(٢٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٧٩. ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص١٢٠.

(٢٤) نفس المصدر والصفحة.

(٢٥) المصدر ذاته ص١٨٠.

(٢٦) تضم بردية جورج ايبرس كتاباً تعليمياً للطب المصري يمكننا أن نتصور أنه كان محفوظاً بمكتبة مدرسة طبيه. وملف ايبرس الطبي موجود الآن في مكتبة جامعة لايبزيغ بالمانيا.

(٢٧) كتبت بردية إدوين سميث في عصر الهيكسوس، ولكنها تنبئنا بأن النص المشروح الذي لا شك =

إلى تسعة أقسام، تبدأ بالسحر والرُقى، ثم معلومات عن التشريح ووظائف الأعضاء، وأخيراً الأمراض الجراحية وطرق معالجتها (٢٨). أما بردية ادوين سميث فهي أقدم وثيقة علمية في التاريخ، يرجع تاريخها إلى حوالي ٦٠٠ قبل الميلاد وتعتمد على مراجع أقدم منها. وتتناول جراحة الإصابات كالجروح والكسور والخلوع. وهي تبدأ بالجمجمة ثم تسير نحو الأنف والفك والآذان والشفة والحنجرة والرقبة والترقوة والأكتاف والصدر وقفص الصدر حتى العمود الفقري. ولا شك في أن البطن والأطراف كانت تلي ذلك، غير أنه من المؤسف أن النص المحفوظ ينقطع عند إصابات السلسلة الفقرية عند منتصف الجملة (٢٩). وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثاً دقيقاً ومرتبة ترتيباً منطقياً من تشخيص العلة والاستدلال بأعراضها على عواقبها إلى طرق علاجها (٣٠).

يتبين من دراسة البردتين السابقتين وتحليل محتوياتها، أن الطبيب كان يفحص المريض فحصاً شاملاً ويقوم باستجوابه وملاحظة المظاهر الطبيعية عليه بهدف تشخيص المرض أولاً، ليقوم بعد ذلك بوصف العلاج اللازم حسب الحالة المرضية. وهو إما أن يكون علاجاً داخلياً يستهدف الشفاء من الأمراض الباطنية بواسطة العقاقير إلى جانب السحر، أو خارجياً بالجراحة وتعتمد على المهارة التي هي ثمرة التجربة والخبرة ودراسة وظائف الأعضاء والتشريح (٣١).

وكان من الأطباء المصريين، كما تشير برديتا ايبرس وادوين سميث، أخصائيون في الجراحة والتوليد وأمراض النساء والعيون واضطرابات المعدة. وهناك أيضاً أطباء القصور الملكية وأطباء الجيش وأطباء الشعب. أما الأطباء غير الاخصائيين فكانوا يقومون بمعالجة الفقراء. وكان من عملهم فوق هذا تحضير أدهان الوجه وصبغات الشعر، وتجميل الجلد وأعضاء الجسم، وتحضير مبيدات البراغيث (٣٢).

ويذكر هيرودوت حول هذا الموضوع: «إن المدارس الطبية (٣٣) في مصر القديمة كانت

= في أنه أقدم عهداً يرجع على الترجيح إلى الدولة القديمة. وبردية ادوين سميث الطبية محفوظة اليوم في متحف نيويورك.

(٢٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٤ ص ٤٦٤.

(٢٩) إرمان ورانكه: المصدر السابق ص٣٩٨.

(٣٠) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٢٤.

(٣١) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور) المصدر السابق ج ٤ ص٤٦٣.

(٣٢) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٢٤.

(٣٣) كالمدارس الطبية الشهيرة في هليوبوليس وسايس. وقد اتخذ ما خلفته هذه المدارس في المعارف

في منتهى الشهرة والسمعة الطيبة ، كما أن رجال الطب الذين تخصصوا في مختلف فروعه كان لهم صيت ذائع ، وإن الملوك والأمراء والعظماء في البلاد الأخرى يستدعونهم لعلاجهم »[٣٤].

لقد ساعد تحنيط الموتى الأطباء على الاطلاع على أعضاء الجسم الداخلية كالقلب والمعدة والأمعاء والرئة والكبد وغيرها[٣٥]. وعرفوا أن القلب هو القوة الدافعة في الكائنات الحية ، وأنه مركز الدورة الدموية. وقد جاء في بردية ايبرس: « إن أوعيته تتفرع إلى جميع أعضاء الجسد ، فسواء وضع الطبيب أصبعه على جبهة الانسان ، أو على مؤخر الرأس ، أو على اليدين... أو على القدمين فإنه يلتقي بالقلب في كل مكان »[٣٦]. كما توصل الأطباء المصريون ، حسبما ورد في بردية إدوين سميث ، نتيجة الخبرة والدراسة العملية إلى القول: « إن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن في المخ »[٣٧].

وكانت أكثر الأمراض انتشاراً في مصر هي: أمراض العيون (تستهلك عشر مجموع الأدوية كلها) وتليها الأمراض الباطنية فأمراض النساء. وقد نالت هذه الأنواع الكثير من عناية البرديات. ومن الأمراض التي مات بها المصريون من غير أن يعرفوا أسماءها اليونانية ، كما تحدثنا عن ذلك بردياتهم وأجسامهم المحنطة: تدرن النخاع الشوكي ، تصلب الشرايين ، الحصوات الصفراوية ، الجدري ، شلل الأطفال ، فقر الدم ، التهاب المفاصل ، الصرع ، النقرس ، التهاب الزائدة الدودية ، والتهاب النتوء الحلمي وغيرها[٣٨].

أما العقاقير فكانت تصنع من أصل نباتي وتشكل $\frac{5}{6}$ من مجموع الأدوية ، والباقي من أصل حيواني أو معدني. وقد عرف المصريون طرق تحضير الدواء واستعمالاته ، فنشأت بذلك مبادىء الصيدلة أو صنع الأدوية.

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من الأقراباذينات (دساتير الأدوية). ففي بردية ايبرس ثبتٌ بأسماء سبعمائة دواء لكل الأمراض المعروفة[٣٩]. وقد عثر في قبر إحدى

الطبية أساساً لطب العصور التالية: إرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٣٤) ابراهيم ، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ٤ ص ٤٥٨.

(٣٥) فرح ، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٩٢.

(٣٦) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٢٤. وإرمان ورانكه: المصدر السابق ص ٣٩٠.

(٣٧) نفس المصدر والصفحة.

(٣٨) المصدر ذاته ج ٢ ص ١٢٥.

(٣٩) نفس المصدر والصفحة.

ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوي على مزهريات، وملاعق، وعقاقير جافة، وجذور [٤٠].

وقد نقل اليونانيون كثيراً من المعلومات الطبية عن المصريين، وانتقلت منهم إلى اللغة اللاتينية والعربية والسريانية والفارسية. ويذكر المؤرخون أن الطب الشعبي في أوروبا والشرق يرجع إلى أصل مصري [٤١].

وكان من طرق معالجة الأمراض: وصف الدواء والغذاء حسب الحالة المرضية، الراحة، استعمال الضمادات، والتعاويذ السحرية. وقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة، وذلك باستخدام الملينات والحقن الشرجية وبالصوم وبختان الذكور وبالمقيئات وتطهير أجسامهم.

وقد كشفت الحفريات عن طرق كانت تتبع لجمع ماء المطر وتصريف الفضلات بأنابيب من النحاس [٤٢]. وعلينا بعد هذا كله، أن نصدق ما رواه هيرودوت عن المصريين: «أنهم كانوا بعد اللوبيين أصح شعوب العالم أجساماً» [٤٣].

---

(٤٠) المصدر ذاته.

(٤١) فريز، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص ٩٢.

(٤٢) ديورانت: قصة الحضارة: ج ٢ ص ١٢٦

(٤٣) نفس المصدر والصفحة.

الديانة

نشأت الديانة في مصر في عصر ما قبل الأسرات من تصورات الانسان الساذجة والغامضة عن العالم المحيط به ونتيجة لضعفه وعجزه عن تفسير ظاهرات الطبيعـة في ظروف تخلفه الاقتصادي والاجتماعي في مرحلة النظام العشائري ـ القبلي .ولم يكن للمصريين دين واحد ، كما لم تكن هناك وحدة زمانية أو مكانية للمعتقدات ، لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من قبيلة لقبيلة ومن مقاطعة لأخرى [(١)] . وقد أخذت تصورات المصريين تتطور في سياق النشاط العملي والنضال ضد الطبيعة .

لقد عكست ديانة المصريين القـدمـاء الطبيعـة المحيطـة بهم وجميـع أوجـه نشـاطـاتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية . وأياً كان الأمر ، فإن للديانة المصرية أهمية كبرى في فهم حضارتها . لذلك لابد لنا من أن نعيرها الأهمية التي تستحقها [(٢)] .

ففي مرحلة الجمع والصيد ، عبدوا الحيوانـات كـالأسـد ، واللبـوة ، والحيـة ، والثـور ، والبقرة ، والخروف ، والكلب ، والتمساح ، وجاموس البحر ، والثعبان السام ، والافعى ، وابن آوى الخ ..

وكان لكل عشيرة أو قبيلة حيوان معيّن تعبده ، ويعتقد أفرادها أنهم انحدروا منه جميعاً ، كما كانت القبيلة تحمل اسمه . عبدوا بعضها رهبـة وخـوفـاً كـالأسـد والتمسـاح وجاموس البحر والثعبان السام والافعى وابن آوى ، وعبدوا بعضها الآخر منفعة لأنها

(١) ديورانت : قصة الحضارة ج ٢ ص١٥٦ .

(٢) حاطوم ، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه : موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ١٢٠ .

كانت تعيلهم وتقدم لهم خدمات عظيمة كالثور والبقرة والتيس والكلب. وهذا التصور الخيالي عن الحيوان كسلف وحام للقبيلة اطلق عليه العلم اسم «مذهب الطواطم»[٣]. وفيما بعد لم يعد الحيوان وحده طوطماً وسلفاً وحامياً، وإنما اصبحت كذلك الأشجار والنباتات. وكان الطوطم حيواناً في (١٨) مقاطعة من مقاطعات مصر، ونباتاً في (٤) مقاطعات[٤].

ومما يؤكد تأكيداً قاطعاً أن المصريين القدماء عبدوا الحيوانات، وأنها لم تكن مجرد رموز أو اشارات للقبائل أو المقاطعات، ما عثر عليه في جبانة عصر البداري من الحيوانات التي عني بدفنها بعد تكفينها كما كان يحدث في العصر التاريخي. فمثلاً وجدت بنات اوى، وثيران، وكباش، وغزلان، ملفوفة في حصير أو نسيج من التيل، مما لايترك مجالاً للشك في أنها كانت تقدس وتعبد[٥].

ويذكر الدكتور سليم عادل عبد الحق: «أنه لا توجد رابطة ظاهرة بين الإله المعبود في المقاطعة وشارتها، أي أن الشارة ليست هي الشكل المرئي للإله، مما يدل على أنه يوجد إلهان عقب احدهما الآخر. إله جديد حل محل القديم وإله قديم كان الطوطم المحلي الذي أضاع مكانته وبقيت صورته كشارة للمقاطعة وذلك احتراماً لذكراه». ويتابع الدكتور سليم عادل عبد الحق قوله: «وكلما تقربنا من العصر التاريخي نجد أن هذه الطواطم تنزل من اعلامها لتأخذ اشكالاً فيها حياة، فنشاهدها متقلدة السلاح لتقاتل أعداء القبيلة وممسكة حبالاً لتصطاد الحيوانات أو لتقبض على الأسرى أو حاملة معاول لتهدم بها قرى الأعداء»[٦].

واستمرت عبادة الحيوانات عندما اتحدت القبائل وتشكلت المقاطعات. فكان لكل مقاطعة الهها الخاص، أو الاهاها وحتى ثالوثها الإلهي. وكان الإله المحلي للمقاطعة يمثل على صورة حيوان معين. وان كثيراً من المقاطعات كانت تحمل نفس اسماء معبوداتها الحيوانية كمقاطعة التمساح نسبة إلى المعبود التمساح، ومقاطعة الغزالة، ومقاطعة الكبش، ومقاطعة الصقر، ومقاطعة الارنب[٧]. الخ ..

وكانت عبادة الحيوانات تبقى، في الأغلب، على صورتها الخالصة: ففي ممفيس مثلاً،

---

(٣) الطوطم: حيوان أو كائن آخر تنتحل العشيرة أو القبيلة صورته شعاراً لها.

(٤) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر ذاته.

(٥) حسن، سليم: مصر القديمة. ج ١ ص ٩٣.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧١.

كان يعبد العجل آبيس تجسيداً للإله بتاح، وفي تينيس الصقر تجسيداً لحوروس [٨]. وقد اعتاد المصريون ان يمثلوا الآلهة والالهات على شكل حيوانات أو كائنات ذات جسم انسان ورأس حيوان. فبتاح كان يمثل بشكل ثور، وحوروس بشكل انسان له رأس صقر، وآمون ـرع بشكل كبش [٩]. وتحت هذه العلاقة، اتصلت الديانة الرسمية بالديانة الشعبية، إذ ان هيرودوت يذكر أن عبادة الحيوانات كانت عادة منتشرة في جميع انحاء مصر [١٠]..

ودامت هذه الاشكال البشرية الحيوانية لصورة مرئية تتقمص فيها الآلهة حتى آخر التاريخ المصري القديم [١١]. غير أن معبودات المقاطعات المصرية لم تكن تتمتع جميعها بنفس المكانة. فقط آلة المقاطعات الأوسع التي كان لها تأثير سياسي، يمكن أن تكون مؤهلة للزعامة الوطنية مثلما كان بتاح ممفيس، ورع عيونو (هليوبوليس)، وآمون طيبة [١٢]. الخ ... وان بعضاً من هذه المعبودات مثل رع إله الشمس، وأوزير إله النبات والخصب، كان له وظائف تعود إلى عصور موغلة في القدم، وحافظت أيضاً على مكانتها في الديانة الشعبية، وآخرون من الآلهة، اخذت خصائصها من اللاهوت ورجال الدين، فقد أعلن عن بتاح أنه خالق العالم والآلهة والناس [١٣].

وقد نشأ السحر متصلاً بالمعبودات المحلية. فمن أجل ضمان الحماية من الوحوش الضارية ومعيشة أفضل، والتوفيق في الصيد، اعتبر افراد القبيلة أنه من الضروري نيل المساعدة من الطوطم الذي اختلقه خيالهم. وكانوا يغمرونه باللطف والعطايا. وشيئاً فشيئاً اتخذت هذه التوجهات إلى الطواطم شكل عادات معينة تسمى سحر الصيد وشعوذته. ومن الإيمان بالقدرة السحرية الخارقة التي تستطيع التأثير في حياة الناس نشأت مختلف الرقى والحجب. فقد عثر المنقبون في مقابر البداري على تعويذات مصنوعة من العظم تمثل رؤوس غزلان وجاموس بحر [١٤]. كما عثر على بعض دمى لنساء وخدم وحراس نصبت خلف جدار القبر هذا إلى مراكب صغيرة معها شبكها ومعداتها وحيوانات متوحشة وأليفة. كل هذه الأشياء قد أهديت للمتوفى ووضعت معه في القبر ليستعملها في حياته الاخرى بوساطة رقى سحرية

(٨) نفس المصدر والصفحة.
(٩) باطر، م، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص ١٢١.
(١٠) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧١
(١١) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.
(١٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧١.
(١٣) نفس المصدر والصفحة.

ولا نزاع في أن مصري ما قبل التاريخ كان يستعين بالسحر لاستخدام هذه التماثيل الصغيرة فيقلبها إلى حقيقتها [١٥].

وانتشر أيضاً، في مرحلة الجمع والصيد، الايمان بـ « كائنات روحية » غير مرئية وغير مادية منسوبة إليها خصائص مافوق الطبيعة. ان هذا الايمان ينبع من عدم فهم المصري طابع ظاهراتُ الطـبيعة. « فاعتقد ان كل مكان في القطر المصري تسكنه ارواح معينة معروفة من السهل ارضاؤها والانتفاع بمساعدتها بطرق سهلة [١٦]. ولم يقتصر المصري على اعتقاده بوجود الأرواح على الأرض بل تخيلها أيضاً في السماء وفي الأرض [١٧].

ومع تطور القوى المنتجة وانتقال المصريين من مرحلة الجمع والصيد إلى مرحلة الزراعة وتربية المواشي، تطورت ديانتهم أيضاً، واخذوا يعبدون الشمس والمياه والأرض وغيرها من القوى والظاهرات الطبيعية. وحول هذه النقطة، يذكر برستد: « ان الزرع الأخضر الذي نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير في أصل الحياة، وكان لهذا التغيير في حياتهم من صيادين إلى زارعين في الأرض أثر في عقيدتهم الدينية » [١٨].

وفي هذه المرحلة تفسخت العشيرة ونظام الامومة، ونشأت المشاعة المتجاورة والأسرة الأبوية، وظهرت الفروق الاجتماعية في الثروة بين أعضاء القبيلة الواحدة. واصبح زعماء القبائل، رؤساء وملوكاً، يتمتعون بمزايا خاصة ويرثون الطوطم [١٩]. فـاتحدت القبائـل وتشكلت المقاطعات، ومن ثم نشأت مملكتا الدلتا (مصر السفلى) والوادي (مصر العليا) وقامت الدولة المركزية الموحدة في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد [٢٠].

وقد عكست الأساطير المتعلقة بالآلهة هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بصورة لا تخفى على أحد. وفي هذه المرحلة نشأ في مصر، على ما يبدو، دينان: الدين الرسمي والدين الشعبي. وغدا الطوطم طوطماً شخصياً للملك الذي هو ابنه ووريثه ويحمل اسمه،

---

(١٤) حسن، سليم: مصر القديمة ج ١ ص٩٣.
(١٥) المصدر ذاته ص٩٤.
(١٦) برستد: تاريخ مصر ص ٣٥.
(١٧) نفس المصدر والصفحة.
(١٨) برستد: انتصار الحضارة ترجمة الدكتور أحمد فخري ص٨٩.
(١٩) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور) المصدر السابق.
(٢٠) انظر ص ٤٩ ـ ٥٠.

حسبما ترويه الأساطير التي وضعها الكهنة لتعزيز سلطة الملك. وبعبارة أخرى أصبح الملك يحكم بدلاً من الإله، وفيه يتقمص.

وكان فرعون مصر يلقب بالصقر لانه وريث الإله (حوروس) الصقر الذي جمع في شخصه كل السلطات المنسوبة إلى الطواطم المحلية عندما قبلت بالسيادة كما تذكر الأساطير [٢١]. وكان لابد لتثبيت السيد الواحد على الأرض من أن يستتبع ظهور فكرة ملك الآلهة (ملك الملوك ورب الارباب) في التصورات الدينية.

عبادة الشمس: الشمس هي مصدر الحرارة والنور الضروريين لنمو النبات وجميع الكائنات الحية الأخرى. وقد عرف المصريون، منذ ان اكتشفوا الزراعة وغدت الشكل الأساسي لنشاطهم، أهمية الشمس بالنسبة إلى الزارعة فعبدوها وسموا إلها باسم «رع» وبنوا له معبداً في «عيونو» التي أطلق عليها اليونانيون اسم «هليوپوليس» أي مدينة الشمس.

وكان لعبادة الشمس مراكز عديدة واشكال متعددة. وعندما اتحدت مصر في دولة مركزية وغدت منف عاصمتها، أصبح لـ«رع» الهها المحلي أرجحية على غيره من بقية الآلهة، واتخذت عبادته ديناً رسمياً للدولة [٢٢].

وكانت الشمس تصور أحياناً على شكل عجل (حيوان)، أو على شكل صقر (طائر)، أو هي رجل برأس صقر [٢٣]. واعتقدوا، بسبب عجزهم عن تفسير أسباب شروق الشمس وغروبها، أن رع يقوم برحلة يومية، ويمخر عباب السماء في قارب ذهبي ثم ينحدر إلى الغرب (إلى الصحراء) في كل مساء [٢٤]. بعد ذلك تدخل الشمس الأقاليم السفلى فتخترقها لتشرق على الأرض ثانية، جالبة معها النور والفرح والسرور إلى سكان الدنيا. وأصبح اسم «رع» يدخل في تركيب اسماء فراعنة الدولة القديمة مثل نيب- رع أي (رع السيد) ونفر كارع أي (جميلة روح رع) وهما الملكان الثاني والرابع من الأسرة الثانية، وخفرع ومنكاو رع الخ ... وبنى فراعنة الأسرة الخامسة معبداً للشمس لتجري فيه طقوس عبادتها.

وعندما تفوقت طيبة وأصبحت عاصمة مصر في عهدي الأمبراطوريتين الوسطى

---

(٢١) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور) المصدر السابق.

(٢٢) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص٨٨.

(٢٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور) المصدر السابق ج ١ ص٨٠.

(٢٤) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص١٥٦.

والحديثة، أصبح إلهها المحلي «آمون» إلهاً رسمياً للدولة واتحد بـ «رع» ليشكلا إلهاً واحداً باسم «آمون ـ رع» وأصبحت الأناشيد التي تمجد الإله الجديد آمون ـ رع تصوره بأنه أول الآلهة وأعلاها مرتبة (الإله الأعظم، سيد الآلهة) وهو الذي خلق الكون بأكمله [٢٥].

ولما وصل امنحوتب (امنوفيس الرابع) إلى الحكم، الغى عبادة الإله آمون والآلهة التقليدية المتعددة، واستبدلها بعبادة قرص الشمس (آتون) الذي أصبح الإله الرسمي والوحيد للامبراطورية. وتفصيل ذلك، ان الدولة العسكرية المصرية تعرضت في عهد خلفاء تحوتمس الثالث إلى أزمة سياسية خارجية وداخلية. من الخارج، تعرضت لخطر الحثيين والخابيرو. ومن الداخل، تمرد عدد من الامراء السوريين على الحكم المصري واشتبكوا في حروب أهلية مع الامراء الموالين للفرعون. ولم يستطع حكام مصر في سورية صد الجيوش الحثية المتقدمة في سورية من جهة الشمال. ولا مصالحة الأمراء السوريين وتهدئتهم وذلك بسبب قلة الجيوش المصرية في سورية. كما أن الفراعنة لم يجرؤوا على ارسال الجيوش الموجودة في مصر إلى سورية خشية من ثورة الجماهير المستاءة. فمنذ أواخر حكم امنوفيس الثالث، أظهرت فئات عديدة من المجتمع المصري تذمّرها من كهنة آمون الذين وصل نفوذهم إلى القمة التي يمكن أن يبلغها [٢٦]. وأصبح الكاهن فتاح مس قابضاً على كل السلطات الدينية والسياسية ومحافظاً لطيبة ووزيراً للمنشآت [٢٧]. فانحاز امنوفيس الرابع إلى جانب حزب المعارضة. وسعى بمساعدتها لاستخلاص السلطة الملكية من سيطرة كهنة آمون والنبلاء القدامى [٢٨].

وكان أمنوفيس الرابع يطمح من جهته إلى السلطة المطلقة، ليس السياسية فقط بل الدينيـة أيضاً [٢٩]. وإن الوصول إلى هذا الهدف لم يكن من الممكن تحقيقه دون إصلاح ديني [٣٠]. وبعد محاولات غير ناجحة بمعارضة آمون بإله الشمس رع، ألغى امنوفيس الرابع عبادة الإله آمون والآلهة التقليدية المتعددة، وأوجد إلهاً وحيداً للامبراطورية بل إلهاً عالمياً هو قرص الشمس (آتون). وعلل الفرعون انشاء العبادة الجديدة بواقع ان الشمس تضيء

---

(٢٥) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص٨٨.

(٢٦) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور) المصدر السابق.

(٢٧) المصدر ذاته. أنظر أيضاً ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٦٥.

(٢٩) نفس المصدر والصفحة.

(٣٠) المصدر ذاته.

وتدفىء العالم كله[٣١]. ثم اختط مدينة جديدة، بين طيبة وممفيس لتكون مقراً لبلاطه ومركزاً للدين الجديد، اختار لها اسم «اخيتاتون» أي (أفق آتون)، وشاد فيها معبداً لآتون وقصوراً فخمة له وللملكة الحسناء نفرتيتي والحاشية[٣٢]. وتخلى أمنوفيس الرابع عن اسمه امنحوتب أو امنوفيس ومعناه (آمون راضي) واتخذ اسم اخناتون أي (آتـون راضي) واطلق على نفسه لقب «النبي» و«ناقل كلام آتون» و«الكاهن العظيم»[٣٣]. وأصدر أمراً بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم آتون، وحرم كل دين غير دينه، كما أمر أن تغلق جميع المعابد القديمة[٣٤]. وسخر الفن والأدب في خدمة مذهبه، ثم ترك طيبة وانتقل إلى عاصمته الجديدة اخيتاتون (تل العمارنة).. ولم تعد الصلوات الجنازية أو الأدعية ترفع إلى اوزيريس، بل اصبحت ترفع إلى اخناتون رأساً، أو عن طريقه إلى آتون[٣٥].

وتظهر لنا تعاليم ديانة اخناتون في أحد أجمل الأناشيد التي نظمت في الإله «آتون» وابنه الملك اخناتون. وهذه بعض مقاطعها: «بزوغك جميل في أفق السماء يا آتون يا حي يا مبدىء الحياة.

تسطع بأشعتك على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك.
أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه.
يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك.
وانشأت السماء البعيدة،وأشرقت فيها.
كل الأعين تراك أمامها.
لانك أنت آتون النهار فوق الأرض.
انك في قلبي.
وما من أحد يعرفك.
إلا ابنك اخناتون.
لقد جعلته حكيماً
بتدبيرك وقوتك

(٣١) المصدر ذاته.
(٣٢) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور) المصدر السابق.
(٣٣) المصدر ذاته.
(٣٤) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص١٧٦.
(٣٥) ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة الدكتور أحمد فخري ص ٢٥٨.

انت اوجدت العالم
واقمت كل مافيه لابنك
اخناتون، ذي العمر المديد
ولأجل كبرى الزوجات الملكية محبوبته
سيدة الأرضين « نفر » - « نفرو » - آتون » - « نفرتيتي »
عاشت وازدهرت أبد الآبدين »[٣٦].

يتبين من النشيد أن إله اخناتون كان إلهاً امبراطورياً بل إلهاً عالمياً، عنه صدر كل شيء وإليه يرجع كل شيء، وعبادته تجب على جميع المخلوقات. ورمز إلى الإله آتون بقرص تخرج منه أشعة متفرقة تنتشر فوق الأرض كما كان كل شعاع من أشعته ينتهي طرفه بهيئة يد بشرية.

وقد كان ذلك الرمز يدل على السيطرة القوية لاخناتون الملك الإله والخارجة من مصدرها السماوي.

لقد زال اصلاح اخناتون الديني بعد موته. واستطاع كهنة طيبة إعادة عبادة الإله آمون، كما عادت عبادة الحيوانات وعبادة الآلهة الأخرى المتعددة.

والسؤال الآن: لماذا فشل اصلاح اخناتون؟ فشل اصلاح اخناتون لانه كان اصلاحاً شكلياً لم تستفد منه أية فئة من فئات المجتمع المصري باستثناء الاوساط الغنية لكهنة آتون والارستقراطية الجديدة التي حصلت على جزء من الأراضي المصادرة[٣٧]. أما طبقة الفلاحين التي كانت قد أملت في تحسين ظروف حياتها، في ظل الإصلاح الجديد، فلم تستفد شيئاً، بل على العكس من ذلك ازدادت حياتها سوءاً على سوء واشتد استغلالها، فتخلت عن المصلح. وعندما ثار الشعب، قمع اخناتون، بمساعدة جنوده المرتزقة، الثورة بوحشية. ففقد الإصلاح دعامته وقاعدته العريضة - أعني جماهير الشعب - في الوقت الذي تعاظم فيه خطر الحثيين والخابيرو ومؤامرات كهنة آمون والنبلاء القدامى، ونضبت موارد الخزينة وغرقت البلاد في غمرة الفوضى والاضطرابات. وعندما توفي توت عنخ آمون، استلم الحكم الجنرال المصري حور محب بمساعدة كهنة آمون، فصفى نهائياً اصلاح اخناتون، واستعادت معابد آمون أملاكها، وعادت عبادة الآلهة القديمة المتعددة[٣٨]. ولكن

(٣٦) برستد: تاريخ مصر ص ٢٤٥ - ٢٤٩. وسليم حسن: مصر القديمة ج ٥ ص ٣٠١ - ٣٠٩.
(٣٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٦٦.
(٣٨) المصدر ذاته ص١٦٦ - ١٦٧.

عبادة الشمس ظلت لها مكانتها الهامة في الديانة المصرية حتى العهود المتأخرة[39].

الخلاصة: تطورت الديانة بتطور المجتمع المصري وقواه المنتجة. وقد عكست الديانة الطبيعة المحيطة بالمصريين وكذلك المتغيرات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية، ومنها ظهور التمايز الاجتماعي وعدم المساواة في الثروة وتشكيل الدولة العبودية المركزية الموحدة.

فكما كان للملك مصر السلطان المطلق على رعاياه، أصبح رع ممفيس وآمون طيبة فيما بعد الإلهين الشاملين اللذين يحكمان الآلهة الآخرين. وكانوا يسمون رع «ملك الآلهة» وآمون «الإله الأعظم أو سيد الآلهة». وكما كان الفرعون أكبر ملاكي الأراضي والعبيد، كذلك أصبح رع وآمون طيبة فيما بعد أغنى الآلهة. فقد كان آمون يملك (٨٦,٥٠٠) عبد يعملون في أراضيه من أصل (١٠٧) آلاف عبد يملكهم الآلهة الآخرون، ويملك ١٠ ٪ من أصل ١٥ ٪ من الأراضي التي تملكها الآلهة وثلثي الثروة التي يملكها الآلهة الآخرون. وهو أغنى بخمسين مرة من رع هليوپوليس وبتسع مرات من پتاح ممفيس[40].

إن التمايز الاجتماعي وعدم المساواة في الثروة بين الآلهة هما انعكاس حقيقي للوضع الاجتماعي الطبقي على النظام العبودي المصري.

عبادة النيل: عبد المصريون الشمس والنيل بدرجة متساوية. وكما كانت الشمس ضرورية لنمو النبات، كذلك كان النيل موئل الخصب والخير. فهو المصدر الوحيد تقريباً للرطوبة. يحمل الماء في صيف كل عام ويفيض وسط الاحتفالات الضخمة على الأرض العطشى ويغذيها بما يحمل. ويعود فينحسر تاركاً وراءه طبقة من الطمي تزيد الأرض غنى والمواسم وفرة وجودة. لذا كان طبيعياً أن يقدس المصريون نيلهم ويعتبروه إلهاً سموه «حيي» أي الإله المقدس. وقد انعكس فيضان النيل على ديانتهم أيضاً. فلم يصلوا أبداً إلى منابع «النهر العظيم» ولهذا السبب فقد جهلوا الأسباب الحقيقية لفيضان النيل. وكانوا يعتقدون أن إله النيل يسكن مغارة ويصب الماء من جرة وهو متربع، وأن حياتهم تتعلق بكمية الماء التي يصبها هذا الإله. فإذا جاء الفيضان أقل من المستوى الاعتيادي تحولت الحقول غير المروية إلى صحارى مسببة القحط والمجاعة.

وكان المصريون يصلّون ويبتهلون إلى النيل كي يصل إلى حقولهم. وكانت فترة الفيضان أيام أعياد واحتفالات وفاء له لما أنعم به عليهم من خصوبة ونماء، وشكراً وتمجيداً له، لأنه

(٣٩) فرح ـ نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص٨٨.
(٤٠) انظر ص ٦٨ ـ ٦٩.

استجاب لصلواتهم ورضي بإنقاذ حياتهم. ويظهر تقديس المصريين نيلهم واحترامهم إياه في ترنيمة تعرف باسم «أنشودة النيل» الفت بمناسبة احد الاحتفالات، وتعود إلى فترة سحيقة من تاريخهم القديم. تقول الترنيمة:

«المجد لك أيها النيل الذي ينبع من الأرض ويحمل الخير لمصر.
وعندما تفيض يعم الفرح في البلاد.
انت تطفح فتسقي الحقول وتنعش القطعان وتمد الناس بالقوة.
إذا تأخرت بنعمك توقف دولاب الحياة.
وإذا غضبت حل الذعر في البلاد.
ياسيد الاسماك ومنبت القمح والشعير والذرة.
أنت الذي يخلق كل جميل.
الشباب والاولاد فرحون جذلون
يحيونك، أيها الملك (٤١).

ولنتساءل الآن: ممّ استلهم المصريون اسطورة اوزير - إله الميت والمبعث؟

من المعلوم ان وادي النيل تكتنفه من الشرق والغرب صحارى شاسعة. ففي صيف كل عام، وقبل فيضان النيل، تهب على مصر ولمدة خمسين يوماً، رياح جافة وحارة، قادمة من الصحراء عرفها العرب باسم «السموم» أو «رياح الخماسين» تنفث اللهب وتحمل معها الرمال المحرقة، فتخنق الناس والحيوانات بحرارتها، وتعمي عيونهم برمالها. ويذبل النبات وتبدو الطبيعة ميتة. وأخيراً تنسحب الرياح الجهنمية ويحل محلها رياح خفيفة منعشة قادمة من البحر مترافقة مع فيضان النيل، فتولد الطبيعة من جديد - تبعث.

من الطبيعة إذن، من تجدد الحياة السنوي في النبات، من فيضان النيل وانحساره، استلهم المصريون اسطورة إله الميت والمبعث. وحسب هذه الاسطورة: قدم ست - إله الجفاف الخبيث الذي أيبس الزرع بأنفاسه المحرقة - مع خمسين من اتباعه وقتل اوزير (النيل) - إله الخصب لأنه يزيد بفيضه من خصوبة الأرض، ثم قطعه ارباً اربا ورمى كل قطعة في مكان. وظل الأمر كذلك حتى قام حوروس الباسل - ابن ايزيس الإلهة المحبوب التي عثرت على القمح والشعير فيما كانا ينموان برياً في أرض مصر، كشفت عنهما لأوزير - فغلب ست

(٤١) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص٨٧. كسروفكين المصدر السابق ص٤٤.

وطرده من مملكته ووضع يده على إرثه. وعاد أوزير بعدئذ إلى الحياة بفضل ما في حب إيزيس، الطبيبة الساحرة، من حرارة. لقد بعث أوزير تماماً كما عادت الحياة إلى الطبيعة ثانية.

إن موت اوزير يقابل الزمن الذي ينقص فيه النيل وتبدأ فيه ريح الصحراء بالهبوب، فيذبل النبات وتتعرى الاشجار من أوراقها. وبعث اوزير يقابل فترة فيضان النيل الذي يجلب الخصب والخير والفرح إلى البلاد كما تقول حقاً « أنشودة النيل »[٤٢]. هذا هو الجانب الشعبي من اسطورة اوزير الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطابع الزراعي لعبادته. ومن أجل ذلك كانت عبادة اوزير اكثر العبادات شعبية، واستمرت التقاليد الشعبية تمثله كإله للزراعة[٤٣].

أما الجانب الرسمي من الاسطورة فقد وضعه الكهنة. ففي مطلع عهد الامبراطورية الوسطى، عندما جعل رجال الدين من اوزير أيضاً ملكاً وقاضياً لمملكة الأموات، اصبحت عبادته أداة قوية في أيدي الكهنة والفئة العليا من الارستقراطية للاضطهاد الروحي لجماهير الشغيلة[٤٤].

لقد أشاع الكهنة ولقنوا الشعب المصري ومارسوا جلة من الطقوس السحرية حول ما يسمى بـ « يوم الحساب ومحكمة اوزيريس » خلاصتها كما تقول النقوش: « إن روح المتوفى تقف يوم الحساب أمام محكمة قوامها اثنان واربعون قاضياً يرأسهم اوزير، يسأل كل منهم الميت عن الأثام التي ارتكبها في دنياه ـ كذا، فيتبرأ منها جميعاً ـ وللتأكد من صدق الميت، يوضع قلبه في كفة ميزان ويوضع في الكفة المقابلة ريشة تمثل الصدق، فإن رجحت كفة الريشة، كان ذلك دليلاً على أن الرجل من البررة والاطهار، وإن ثقلت كفة القلب كان ذلك برهاناً على أن الرجل من الأشرار فيعاقبه اوزير دون شفقة ـ كذا. عندها يأمر « تحوت » وحشاً متربصاً أمام الميزان بأن يقطعه ارباً ارباً ـ كذا.

وكان الكهنة يقولون: إن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم[٤٥]. ومن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاج إليه الميت لغذائه من الطعام والشراب وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم

(٤٢) عبد الحق، سليم عادل (الدكتور): المصدر السابق.

(٤٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٧١.

(٤٤) المصدر ذاته ص ١٧٢.

(٤٥) ديوارنت: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٦٣.

« اوشابتي » . ومنها أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التي تحبها الآلهة . فإذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة ، أخافت كل معتد على الميت وقضت على كل شر (حسب زغمهم - الإضافة مني) . وكان خيراً من هذه وتلك أن يشترى « كتاب الموتى » واسمه المصري « الخروج من الموت بالنهار » (وهو قراطيس من البردي ملفوفة تحتوي على أكثر من مئة فصل وكثيراً من الصور بعضها ملون ، توضع مع الميت في قبره) أودع الكهنة فيها أدعية وصلوات وصيغاً وتعاويذ من شأنها (حسب زعهم - الاضافة مني) أن تقي الميت من أخطار ما وراء القبر (الحياة الآخرة) وتضمن له السعادة بعد الموت . ومن لم يقتن هذا الكتاب السحري الغالي الثمن ، وجب عليه أن يعيش حياة صالحة ، بمعنى أن يخضع للأقوياء [٤٦] .

يستبين مما تقدم ، ان العبادة الجنازية استخدمت أيضاً كأداة للاضطهاد الروحي لجماهير الشغيلة . لقد صرف الكهنة كل همّهم إلى بيع الرقى وغمغمة العزائم ، واداء المراسم الطقوس السحرية . بل ان كتاب الموتى نفسه ليعلم الناس أن الرقى التي باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه ان يعترض روح الميت من صعاب في طريقها إلى دار السلام - كذا ، ووضعت صيغ التمائم والرقى وبيعت لتخلص الناس من كثير من الذنوب [٤٧] . (على حد زعم الكهنة - الإضافة مني) .

وكان لدى الكهنة رقى ورقى . رقى تمنع الميت أن يفقد فمه أو رأسه أو قلبه ، ورقى يستطيع بها أن يذكر اسمه ، وان يتنفس ويأكل ويشرب . . . . ومنها ما يمنع الماء الذي يشربه ان يستحيل لهباً ، ومنها ما يجعل الظلام نوراً ، ومنها ما يرد عنه الافاعي وغيرها من الهولات المعادية [٤٨] . (حسب زعم الكهنة - الإضافة مني) . هذه بعض الاساليب التي لجأت إليها طائفة فاسدة من الكهنة حريصة كل الحرص على الكسب من أهون سبيل [٤٩] .

تأليه الفرعون: إن السمة الرئيسة المميزة لايديولوجية الدول الاستبدادية القديمة هي صبغتها الدينية ، وكان الكهنة يحاولون بمختلف الأساليب اقناع الجماهير الشعبية بأن سلطة

---

(٤٦) نفس المصدر والصفحة .
(٤٧) ديورانت : قصة الحضارة ج ٢ ص ١٦٥ .
(٤٨) المصدر ذاته ص١٦٦ .
(٤٩) المصدر ذاته ص١٦٧ .

الملاك هي سلطة منزلة من عند الله. وقد وجد هذا تعبيره الساطع على الأخص في تأليه الفرعون وتقديس دولته.

لقد أشاع الكهنة تعاليم ووضعوا أساطير خلاصتها، ان أول اسرة فرعونية سبقها في الحكم (٢٧) إلهاً ابرزهم: رع (إله الشمس)، واوزير (إله النيل)، وحوروس (إله السماء) الذي ورث مملكة أبيه اوزير على الأرض ثم انتقل ارث حوروس ومملكته إلى ابنه «فرعون». فالفرعون، حسب زعم تعاليم الكهنة، إله وأنه استلم السلطة من الآلهة، لذلك يجب عبادته كإله أرضي.

لقد انتحل الفراعنة جميعهم الصفة الإلهية. فالفرعون مرة هو حوروس إله السماء، ومرة هو رع إله الشمس أو ابنه، وتارة هو آمون رع، وتارةأخرى هو ابن آتون قرص الشمس إلخ... كما صورت الفنون والآداب الفراعنة كمخلوقات خارقة تلدها الآلهة. وكان لعبادة الفرعون وتقديس دولته مغزى سياسي كبير، يهدف إلى اخضاع جماهير الشغيلة لأصحاب السلطة. وأن أي احتجاج اجتماعي أو أي تمرد شعبي ضد سلطة الملك كان يعتبر تمرداً على إرادة الآلهة وجريمة ضد الدين، وبالتالي لابد من احباطه وقمعه. كما تشير تعاليم الكهنة إلى ان اوزيريس سوف يعاقب الناس الذين لا يحترمون ويمتثلون إلى الإرادة المقدسة. وقد جاء في نصوص متون الاهرام ان الفراعنة بعد الموت تستقبلهم الآلهة ليعيشوا بينها: «إنك أيها الملك تدخل ابواب السماء التي حرمت على المواطنين»[٥٠].

وعلى جدران المعابد كانت تصور مشاهد الحوادث الهامة من حياة الفراعنة المؤلهين، كولادتهم من زواج سري تم بين والدتهم والإله الأعلى، أو تغذيتهم من البقرة، الإلهة حتحور، أو تتويجهم من قبل الآلهة[٥١]. وجاء في النصوص الدينية القديمة المنقوشة على جدران الأهرام: «أن الفرعون المتوفى يأخذ اسم اوزير، وأنه كما قدر لاوزير أن يعيش ويموت ويبعث، فإن أحفاده الفراعنة سيمرون بنفس المصير، فهم سيعيشون ويموتون ويبعثون ثانية ويحكمون أرضهم من جديد[٥٢]. وهكذا استخدمت عبادة اوزيريس الفكرة السياسية الرئيسة للديانة المصرية: تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة العبودية[٥٣]..

---

(٥٠) فرح، نعيم (الدكتور) المصدر السابق ص٨٨.

(٥١) المصدر ذاته ص٨٩.

(٥٢) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص١٢٢.

(٥٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٧٢.

وعلى الرغم من أن الديانة لعبت دوراً كبيراً في حياة الشعب المصري، إلا أنها لم تستطع أن تلغي قوانين التطور الاجتماعي أو تمحو التناقضات الاجتماعية بين السادة والعبيد. لقد ثار الشعب على مضطهديه أكثر من مرة، وتمردت جماهير الشغيلة على سلطة الفراعنة والملاك مرات عديدة. وإن اعتقال الجماهير الثائرة للملك «المؤله» وإلقاء مومياء الفراعنة خارج القبور، واحتلالهم للمعابد وقتل الكتبة والملاكين والاستيلاء على أموالهم، وامتناع الشغيلة عن العمل والفرار من الزراعة أو الجندية، له أيضاً في نظر التاريخ مغزى وآثار وآفاق وأبعاد كبيرة وكبيرة.

إن عجز الشغيلة عن الصمود، في ظروف النظام العبودي، سواء أمام الطبيعة أو في وجه المستثمرين قد مهد التربة لترسيخ إيديولوجية الطبقة السائدة في وعي الجماهير الشعبية الواسعة. ومع ذلك ورغم مختلف المعوقات في ذلك الوقت، فإن تلك الإيديولوجية لم تكن كلية الجبروت، وإن في ما خلفه الأدب المصري القديم إشارات عديدة حول الشك في خلود تلك النظم والعدالة المزعومة التي تحدث عنها إيديولوجيو النظام العبودي. ففي «حوار رجل متعب من الحياة مع روحه» عدم الاعتقاد بوجود الآلهة. إذ جاء في النص العبارة الصريحة التالية: «لو عرفت أين يوجد الإله لقدمت إليه القرابين»[٥٤]. كما ورد في بعض القصائد الشعرية اشارات تفصح عن عدم الاعتقاد في الحياة الآخرة: «اقض يومك سعيداً... استمع إليّ: لا يستطيع أحد أن يأخذ أمواله معه، ولن يعود ثانية من يموت»[٥٥].

(٥٤) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ٨٩.

(٥٥) المصدر ذاته ص ٧٨. وسليم حسن: الأدب المصري القديم ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥، والدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم المصدر السابق ج ٤ ص ٥٣٠.

الفصل السابع عشر

بلاد ما بين النهرين - ميزوبوتاميا

الأحوال الطبيعية: أطلق العرب على القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين اسم « أرض السواد » أو العراق. أما القسم الشمالي فيعرف باسم « الجزيرة » وهي كلمة تطابق في معناها الاصطلاح الذي أطلقه اليونان عليها « ميزوپوتاميا » أي ما بين النهرين (دجلة والفرات). وهي تسمية أطلقت فيما بعد على العراق كله حتى صار اسم السواد والعراق مترادفين. أما كلمة ميزوپوتاميا فإنها تعني أصلاً بلاد بابل وآشور. ومهما يكن من أمر فإن « ميزوپوتاميا » أصبحت لا تعني ما بين النهرين، بل تضمنت البلاد كلها فغدت صنواً للعراق والسواد معاً [1].

يقع وادي الرافدين بين جبال زاغروس والهضبة الايرانية شرقاً والصحراء العربية السورية غرباً، وبين جبال كردستان شمالاً ومياه الخليج العربي جنوباً. وتنحدر الأرض شمالاً انحداراً تدريجياً من جبال أرمينية (اورارتو - ارارات) التي ينبع منها دجلة والفرات إلى السهل الذي يمتد من نقطة اتحادهما إلى حيث يصبان في الخليج العربي.

وتقسم بلاد ما بين النهرين إلى منطقتين جغرافيتين مختلفتين هما: ميزوپوتاميا السفلى، وميزوپوتاميا العليا.

تشكلت ميزوپوتاميا السفلى (السهل الأدنى أو القسم الجنوبي من بلاد النهرين) نتيجة امتلاء الطرف الشمالي من الخليج العربي برواسب دجلة والفرات حيث انحسرت مياه الخليج تاركة وراءها سهلاً طمياً مستنقعياً منخفضاً تتخلله مجارٍ بطيئة الجريان لم يتم غمرها

(١) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الادنى القديم ج ٥ ص ١١ - ١٢.

بالارساب بعد. فكلما انسحب البحر بتراكم الأتربة فيه، ترك وراءه بحيرات ومستنقعات وجزراً يكتنفها البردي والقصب، تجف البحيرات والمستنقعات بعد ذلك بحرارة الشمس فتتصل الجزائر بعضها ببعض، وتصبح الأرض التي خلفها البحر أرضاً مستوية (٢).

وظلت تلك المنطقة طوال العصر الحجري القديم عبارة عن مستنقع هائل تنتشر فوقه سحائب من البعوض والذباب. ولم تكن فيه الحياة مستطاعة للانسان (٣).

وفي زمن السومريين، كان البحر يغمر البقعة الواقعة في غرب الخط الذي يصل بندر ديلام بالاهواز وتمتد ضفته موازية للجبال بالاتجاه الشمال الغربي ويغمر مستنقعات الحويزة جميعها إلى أن يصل جوار قلعة صالح فينعطف الساحل نحو الجنوب الغربي فيقطع شط الفرات في جنوب الشطرة، ثم يغير اتجاهه نحو الجنوب تاركاً مدينة اور بعيدة عنه بضعة أميال ومارا بمدينة اريدو ويستمر على اتجاهه المذكور إلى منتهى خليج الكويت. وهكذا يظهر أن بلاد خوزستان وأراضي منطقتي البصرة والمنتفك كانت تحت مياه البحر (٤).

وقد تراجع ساحل الخليج بين الألف الرابع والأول قبل الميلاد مسافة حوالي (٢٥٠) كيلومتراً إلى الجنوب من موقعه الأصلي القديم. ثم أخذت الجزر تتكون في البحر قريباً من الضفاف وبينها الخلجان الصغيرة والبحيرات، فانسحب البحر إلى الجنوب. وبعد أن كان داخلاً في البلاد على شكل مثلث رأسه الأعلى قريباً من العمارة تراجع الساحل في القرن الرابع قبل الميلاد وامتد من شمال البصرة إلى جنوب الأهواز على خط افقي في شماله جزر وبحيرات ومستنقعات. ثم جفت البحيرات واتصلت الجزر بعضها ببعض فانسحب البحر حتى أخذت ضفافه شكلها الحالي (٥).

وأرض الطمي في ميزوبوتاميا السفلى سهلة ومستوية، يتفاوت ارتفاعها عن سطح البحر من (٥٠ ـ ١٠٠) متر. والميزة الواضحة للسهل الأدنى هي تنوع المستوى بين مجريي دجلة والفرات. وقد استغل هذا الوضع لمصلحة الري مدى قرون طوال (٦). ويشبه السهل الأدنى دلنا النيل، فهو هبة دجلة والفرات. وأرضه اللحقية شديدة الخصب، وهي صالحة للزراعة جداً إذا سقيت.

(٢) الهاشمي، طه: جغرافية العراق. مطبعة دار السلام. بغداد ١٩٣٠ ص ٤٥٠.
(٣) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٩٧.
(٤) الهاشمي، طه: المصدر السابق ص ٤٥١.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢١.

مناخ ميزوپوتاميا السفلى قاري، تتباين فيه الحرارة بين الشتاء البارد والصيف الحار وكذلك بين النهار والليل. تهطل الأمطار في هذه المنطقة شتاء لكنها قليلة، والصيف جاف. وكان جفاف الصيف الطويل وفيضانات الرافدين من المصاعب الرئيسة التي واجهت السكان الأوائل في هذه المنطقة.

وينمو في مناقع السهل الأدنى القصب والخوص الذي استعمل لبناء الملاجىء (الأكواخ) والسياجات والحصر أو لصنع القفف، وينبت في الأرض الأخرى الشعير والقمح والدخن والسمسم بحالتها البرية. كما تنمو أشجار النخيل الباسقة وهي الشجر الوحيد في هذا السهل الذي استخدم السكان ثمره غذاء وفي صناعة الخبز والخمر والعسل، وأليافه في صناعة أنواع خاصة من المنسوجات، ونواه للوقود، كما كان يدق وينقع ويقدم علفاً للماشية، واستعملت جذوعه في البناء وجريده في صناعة القفف والحصر.

وتخلو المنطقة من وجود خامات المعادن أو الحجارة، لكنها غنية بالغضار (الصلصال) الذي استخدم في بناء المساكن وإنشاء آكام تعلو مستوى الماء لدرء الفيضان، وفي صنع الخزف وعمل ألواح الكتابة (الرُقُم).

أما ميزوپوتاميا العليا أو (إقليم الجزيرة) فتقع في الشمال بين دجلة والفرات. تحدها من الشمال أطراف سلسلة جبال آسيا الصغرى (الأقواس الأناضولية أو جبال كردستان) ومن الجنوب ميزوپوتاميا السفلى، ومن الشرق جبال زاغروس ومن الغرب أراضي الجزيرة الفراتية السورية.

ومنطقة ميزوپوتاميا العليا أكثر تعقيداً، وتشمل حوضي النهرين ووديان روافدهما يفصل بينهما شريط هضبي، وفي الشمال والشرق تنهض جبال شاهقة تتخللها وديان ضيقة. فالأراضي الواقعة بين النهرين هي عبارة عن هضبة سهبية يتخللها عدد من الأحواض المقفلة كوادي الثرثار الذي غدا في العصر التاريخي الأول معبراً بين الشمال والجنوب. وإلى شمال غربي وادي الثرثار ينهض جبل سنجار (سنغارة) وهو امتداد للسلسلة السورية، وامطار منحدراته العليا غزيرة، ومن ثم يمكن قيام زراعة مستقرة فوقه.

ويعرف الإقليم على ضفة دجلة الشرقية باسم «آشور» وترتفع الأرض هنا على مراحل من دجلة إلى الشمال الشرقي وتميز كل مرحلة مرتفعات تتزايد كلما اتجهنا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وأولها جبل حمرين الذي يواجه دجلة في مرحلة من مجراه ويسيطر على سهول العراق من الشرق. وهناك روافد عديدة لدجلة تشق هذه المرتفعات وتجري بينها

وتبدو أحياناً على هيئة خوانق حتى ليكاد اقليم آشور يبدو مقطعاً أو مشققاً. وينتهي الأمر في الجنوب الغربي بسهل مفتوح عريض نوعاً ما تتخلله بعض المرتفعات من آن لآخر، وهو ينتهي من ناحية الشمال الشرقي ببلاد جبلية تنتشر فيها أحواض واطئة تدور من حولها التلال... وأخيراً تنهض في الشرق سلاسل زاغروس الرئيسية. وفي الشمال تقوم جبال كردستان [٧].

وتمتاز منطقة حوض دجلة الأوسط في إقليم الجزيرة بكثرة وديانها الخصبة ووفرة أنهارها وطيب هوائها وقرب الجبال الشامخة منها ووجود المعادن والرخام والأحجار الكلسية فيها.

مناخ ميزوبوتاميا العليا قاري، امطارها شتوية قليلة لكنها أكثر نسبياً منها في الجنوب وتكفي لقيام زراعة بدائية. تنمو في هذه المنطقة الحبوب نمواً برياً، كما تنمو الغابات على سفوح الجبال وفي وديان الأنهار. وعلى عكس الجنوب، تتوفر في هذه المنطقة الأحجار التي استعملت في صناعة الأدوات وبناء المساكن والقصور والمعابد، وخامات المعادن التي استغلت لصنع الأدوات والأسلحة ومادة للفن وغير ذلك من الاستعمالات.

وبلاد النهرين هي هبة دجلة والفرات وروافدهما. فهما يلعبان دوراً بالغ الأهمية في ري العراق وخصبه ومواصلاته وتجارته. ولا يقتصر الأمر على ذلك فإن الرافدين يكسبان للعراق أراضي جديدة. فالقسم الجنوبي منه (السهل الأدنى) دلتا غرينية كونتهاترسبات الغرين الذي حمله الرافدان منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ.

وقد عرف العراقيون القدامى فضل النهرين فألهوهما وجعلوهما من بين معبوداتهم التي تمثل قوى الطبيعة ولا سيما نهر الفرات. وجاء ذكر النهرين في المصادر المسمارية وقد نعتا بالنهرين الأخوين [٨].

ينبع النهران الأخوان من جبال أرمينية، حيث يكونان قريبين من بعضهما، ثم يبتعدان على مهل وينحدران ولا يتقاربان من جديد إلا عند بغداد الحالية حيث كان مصبّاهما المنفصلان والمختلفلان في الخليج العربي بين الألف العاشر والخامس قبل الميلاد [٩].

ينبع الفرات من جبال أرمينية ويجري من الشرق إلى الغرب ويمر بعدة مضايق بين جبال شاهقة، فتجري المياه بسرعة تحول دون الملاحة. ويتكون هذا القسم من «قره صو»

(٧) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٤.

(٨) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٣٢.

(٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ١٧.

و « مرادصو »[١٠]. وبعد أن يتصل فرعا الفرات قرب كيدوسيا يتجه النهر نحو الجنوب الغربي حتى يصبح قريباً من ساحل البحر المتوسط قرب كركميش (جرابلس الحالية)، ولكنه يغير اتجاهه فجأة نحو الجنوب ومن ثم نحو الجنوب الشرقي. وخلال اختراقه منطقة المراعي في بلاد العموريين يرفده عند ضفته اليسرى رافدان هامان وهما: الباليخ أو البليخ (واسمه القديم بليخو) الذي كان يروي اقليم أوديسا (الرها) وحران ويلتقي بالفرات أسفل الرقة بقليل، والخابور (واسمه القديم خبورو وسماه اليونان خابوراس) ويتصل بالفرات عند بلدة قرقيسيا (البُصَيرة حالياً). وكلا الرافدين ينبعان من تلال آسيا الصغرى... وليست هناك روافد تتصل به من ناحية الصحراء السورية والعربية... ولكن عدداً من الوديان الكبيرة الجافة تشير إلى أنه كانت هناك في العصور القديمة مداخل هامة من ناحية ضفته اليمنى. والخابور هو آخر رافد من أي نوع يتصل بالفرات ولذا فإن بقية مجراه عبر السهول الحارة يتعرض لبخر شديد.

ويلاحظ أنه كلما انبسطت الأرض تحولت الوديان إلى مراعٍ خصبة على الضفتين بينما يتحول السهل الأوسط إلى منطقة قاحلة جرداء تعج بحيوانات الصيد وتزخر بالرعاة[١١]. وهذه هي البقعة التي عرفت باسم بلاد ما بين النهرين أو « ميزوپوتاميا » التي تنتهي بسهل متسع من التربة السوداء قبل المصب بحوالي مائة ميل حيث يبلغ اقتراب النهرين أشده بحيث لا يزيد قرب بغداد على عشرين ميلاً[١٢]. ونصل هنا إلى الاقليم الذي كان يدعى فيما مضى ببلاد « أكاد » المشهورة بخصب سهلها وأهميته التاريخية. وقد شق القوم في هذه المنطقة أنهاراً عظمى من الفرات إلى دجلة مستغلين ظاهرة ارتفاع وادي الفرات بالنسبة لدجلة، كانت تروي أراضي واسعة[١٣].

وكان الفرات في عهد السومريين والأكاديين والبابليين يجري في شرق مجراه الحالي في تعبر شط النيل وشط الكار[١٤]. فأطلال أبو حبة (سيپار) وتل ابراهيم (كوثا) والأحيمر (كيش) ونفر (نيپور) كلها تقع على ضفة شط النيل. أما أطلال أبو حطب (كيسورة) وفارة (شوروپاك) واوروك (الوركاء) فتقع على ضفة شط الكار الذي هو امتداد لشط

---

(١٠) أرصاينا في المصادر المسمارية.

(١١) المصدر ذاته ص١٥.

(١٢) المصدر ذاته.

(١٣) باقر، طه: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة. تاريخ العراق القديم. شركة التجارة والطباعة المتحدة. بغداد ١٩٥٥ ٤٢٧/١.

(١٤) الهاشمي، طه: المصدر السابق ص٤٥٢.

النيل في جنوب عفك[١٥]. وفي الجنوب أيضاً نرى انقاض بسمايا (أدب) وتل جوخه (أومّا) وسنكرة (لارسا) واقعة في شرق المجرى الحالي. حتى أننا نرى اليوم خرائب مدينة بابل بعيدة عن مجرى الفرات الحديث. والمدينة الوحيدة التي كانت مشيدة على ضفاف المجرى الحالي هي أور وثراها اليوم بعيدة عنه بضعة أميال[١٦]. وليس من شك في أن أمكنة هذه المدائن وحدها الدليل القاطع على أن الفرات غيّر مجراه وكان واديه فيما مضى غير واديه اليوم[١٧]. ويعود السبب في تغيير الفرات لمجراه في ميزوپوتاميا السفلى إلى أن مياه الفيضان تنقل معها كميات كبيرة من الأتربة والرسوبات فتتركها في قعر المجرى، حيث يمتلىء بها الوادي فتحول دون مجرى الماء فيه، فتفتش المياه حينئذٍ عن أراضٍ منخفضة تجري فيها وتفتح مجرى جديداً. وهكذا يتبدل مجرى الماء من وقت لآخر في الجزء الأدنى من الفرات[١٨].

هذا وتجدر الملاحظة أن قدماء العراقيين آثروا السكن في وادي الفرات لأسباب واضحة منها أن الفرات أقل عنفاً وطوفاناً في فيضانه لقلة انحداره كما أن منابعه أبعد كثيراً من منابع دجلة مما كان يسهل الارواء بالسيح وكذلك وفرة المياه صيفاً في الفرات لأن فيضانه يتأخر عن فيضان دجلة بنحو شهر واحد[١٩]. بالإضافة إلى وجود المنخفضات الطبيعية في جوانب الفرات الغربية الصالحة لجعلها خزاناً لتصريف مياه الفيضان[٢٠].

ويكوّن الفرات، كدجلة، بحيرات ومستنقعات كثيرة على ضفتيه في قسمه الجنوبي. وسبب ذلك انخفاض سوية الأراضي في ضفافه وزيادة كمية المياه أثناء الفيضان وملء الأتربة والرواسب قعر بطن الوادي في بعض الأماكن، حيث تحول دون المجرى، فتفتش المياه وتملأ المنخفضات الطبيعية[٢١]. وتتضاءل المستنقعات (الاهوار) كلما اتجهنا شمالا. وتجف بعض المستنقعات في السنين التي تقل فيها الأمطار ولا يكثر الطوفان في الأنهر. اما البحيرات فهي من بقايا مياه البحر المتجمعة في الأماكن المنخفضة على ما يرجح.

---

(١٥) المصدر ذاته ص٤٥٣.

(١٦) المصدر ذاته.

(١٧) المصدر ذاته. وطه باقر: المصدر السابق ص٤٣٣.

(١٨) الهاشمي، طه: المصدر السابق ص١٤٦.

(١٩) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٣٣.

(٢٠) المصدر ذاته.

(٢١) الهاشمي، طه: المصدر السابق ص١٤٧.

والفرات كلمة سومرية عرفها البابليون في لغتهم السامية تحت اسم « پورتم » أو « پوراتي » أي الفرات. ولعل الاسم البابلي ومنه العربي « الفرات » مشتق من كلمة « فرع »[٢٢]. أو هي تعنيها.

أما دجلة، « أدقلات » أي السريع، فأمره يختلف عن الفرات لأنـه يتلقـى امدادات كثيرة من مياه الأنهار وتتصل به الروافد على طول مجراه من آسيا الصغرى إلى الخليج العربي، ومن ثم كانت فيضاناته المفاجئة مظهراً مميزاً له.

ينبع دجلة من مجموعة ينابيع تنحدر من حافات جبال ارمينية العالية. ويجتاز النهـر بين منبعه وجزيرة ابن عمر بأراض جبلية في واد ضيق بين ضفاف مرتفعة، وبين فيش خابور والمضيق الكائن بين جبال حمرين وجبل مكحول يجتاز بأراض متموجة مرتفعة في واد عريض تسيطر عليه الضفاف ولا خطر هناك من الطوفان على الأراضي المجاورة للضفاف لأن سوية الماء لا تتجاوز ارتفاع الضفاف كما يحدث في القسم الجنوبي، ولا يمكن تسليط مياه دجلة عليها بشق الجداول والترع[٢٣].

ويجتاز النهر بين تكريت وبغداد بأراض سهلة مفتوحة، تعلو سـوية الماء في البعض من القسم الواقع بين سامراء وبغداد سوية الضفاف في موسم الفيضان وتتسلط على الأراضي المجاورة فتغمرها المياه[٢٤].

وتتصل بدجلة روافد عديدة تنحدر إليه من جبال كردستان وزاغروس أهمها: الزاب الأعلى « زابو ايلو » في المصادر المسمارية الذي يصـب في نهر دجلـة جنـوب قـريـة نمرود، والزاب الأسفل « زابو شوبالو » (لدى الآشوريين) الذي ينحدر إليه من الجبال العالية الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية ويصب في نهر دجلة جنوب شرقاط. وإلى الشمال من مدينة بغداد بحوالي ستين ميلاً وعند بلد يتصل به نهر العظيم « ردانو لدى البابليين ». وأما ديـالة فأهم روافد دجلة القادمة من المرتفعات الشرقية وقد عرفه البابليون تحت اسم « ترناة » ويتصل بدجلة جنوب بغداد قرب « تل عمر »[٢٥]. ويكوّن ديالة مع دجلة مثلثاً من الأراضي الخصبة الواسعة اشتملت في العصور القديمة مملكة أشنونا (تل أسمر)[٢٦].

---

(٢٢) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٣٣ - ٤٣٤.

(٢٣) الهاشمي، طه: المصدر السابق ص١٢٩.

(٢٤) المصدر ذاته ص١٢٩.

(٢٥) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٣٤.

(٢٦) المصدر ذاته.

وقد سبقت الإشارة إلى أن كلاً من دجلة والفرات كان قد اتخذ له مجرى منفصلاً فيما بين الألف العاشر والخامس قبل الميلاد ودخلا إلى الخليج بمصبين مختلفين. وكان خط شاطىء الخليج في هذه الحقبة الزمنية يقع أبعد مما هو إلى الشمال الغربي على بعد بضعة أميال من بغداد. وقد كوّن كل من النهرين دلتا خاصة به امتدت كل منهما تدريجياً إلى الجنوب الشرقي في مياه الخليج... وهناك أنهار أخرى كان لكل منها دلتا خاصة إلى جانب دلتا دجلة ودلتا الفرات تكونت نتيجة الارساب الطمي الذي يأتي به نهرا « الكارون » و « الكرخه » في الشاطىء الشمالي للخليج العربي. وكان نمو كل منهما أسرع من نمو دلتا دجلة ودلتا الفرات في الشمال الغربي ومن ثم نشأ رصيف من مواد فيضية رسوبية في الجنوب عبر رأس الخليج مكوناً حاجزاً توقفت عنده أمواه دجلة والفرات في صورة سلسلة من المستنقعات (٢٧).

ومنذ ألفي عام اتصلت دلتا الكارون بدلتا الكرخه ووصلتا إلى شط العرب عند الجانب الجنوبي للخليج. وهكذ قطعتا جزئياً وصول مياه دجلة والفرات إلى البحر وكان يعني هذا اضطرار الأخرين إلى إنزال حولتهما من الطمي (الذي كان يفترض أن تحمله تيارات البحر) على الأرض الداخلية. وهكذا كانت المستنقعات الطمية التي تتخللها المصارف من المظاهر الجغرافية المميزة للأقليم لذي يمكن اعتباره كرصيف منخفض من الفيض نشأ بسبب تعدد الدلتات واختلاف سرعة جريان الماء وكميته (٢٨).

والخلاصة: تكونت دلتا الفرات ودجلة بانسحاب البحر وتراكم الأتربة والرسوبات. وأما شط العرب الذي تكوّن كنتيجة لالتقاء دجلة والفرات فعبارة عن مجرى ملاحي عريض يبدأ من جوار كرمة علي، وينتهي في الخليج العربي عند ميناء الفاو. وحول المجرى حزام من النخيل على مدى ميل أوميلين ومن خلفه أحراش من القصب. ويرفده نهر الكارون الذي ينحدر من الجبال البختيارية ويصب في شط العرب قرب المحمّرة (٢٩).

ونهر الفرات أطول من دجلة وأكثر تعرجاً. وهو يمتاز عنه باتساع واديه وعمقه وتعرضه في الأراضي العراقية لبخر شديد يقلل من كمية مائه. ولكن دجلة يمتاز بدوره بكثرة روافده وخاصة في الأراضي العراقية وبفيضاناته المفاجئة.

---

(٢٧) ابراهيم. نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص١٧ - ١٨.

(٢٨) المصدر ذاته ص١٨.

(٢٩) الهاشمي. طه: المصدر السابق ص١٥٣ - ١٥٦.

يفيض الفرات ودجلة في فصل الربيع بسبب سقوط الأمطار وذوبان الثلوج المتراكمة على الجبال التي ينبع منها النهران وروافدهما. وحينما تـرتفـع سـويـة الماء في النهـر وتصـل حدها الأقصى يكون زمـن الفيضـان، ويقـع ذلـك عـادة بعـد منتصـف شهـر آذار أو في بداية شهر نيسان. وتطفو الأنهار في هذا الزمن لأن الأمطار في الربيع تسقط بكثرة في جبال كردستان وأرمينية وتذوب الثلوج المتراكمة عليها.

وتكثر كمية المياه في نهر دجلة لقـرب منطقة الجبال من ضفافها ولانصبـاب الروافد فيها. أما نهر الفرات فتكون كمية المياه فيه قليلة حينما يدخل أرض العراق ويقطعها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، لأن منطقة الجبال التي يجتازها هذا النهر بعيدة عن أرض بلاد النهرين، فضلاً عن أن الروافد التي تصب فيه قبل أن يدخل الأراضي العراقية لا تمر بمناطق جبلية غزيرة الأمطار.

يفيض دجلة قبل الفرات بنحو اسبوعين أو شهر [٣٠]، وذلك لبعد منطقة الجبال التي يمر بها الفرات والتي تنزل عليها الأمطار. ولما كان الفرات يعتمد على ماء الأمطار الذي يأتي في مساحة واحدة مفردة محددة فإنه لا يفيض وفيراً بسرعة في مجراه الأوسط والأدنى [٣١]. بينما يستمد دجلة ماءه من منطقة أوسع تمتد من جنوب شرقي الأناضول حتى الشاطىء الشمالي من الخليج العربي فيؤثر المطر المحلي في ارتفاع ماء النهر ومن ثم كانت الفيضانات المفاجئة مظهراً مميزاً لدجلة [٣٢].

ويحمل الرافدان إلى الأراضي والحقول الماء والطمي المخصب. وقد عرف العراقيون القدامى فضل النهرين فألهوهما وجعلوهما من بين معبوداتهم التي تمثل قوى الطبيعة كما تقدم.

ويظهر الفيضان أكثر ما يكون في ميزوپوتاميا السفلى، حينما يمر النهران بالمنطقة الترابية، فتطفح مياه الفيضان على الضفاف وتنتشر على الأراضي المجاورة للمجرى، لأن الوادي لا يسع كمية المياه التي تجري فيه، لا سيما وأن الضفاف لا تعلو عن سوية القعر، فتنساب المياه

---

(٣٠) يفيض دجلة في شهر آذار ويبلغ حده الأقصى في شهر نيسان حيث تأخذ المياه في الهبوط. ولا يأتي منتصف حزيران إلا وترجع إلى حدها الأول.

(٣١) غير أنه يحتفظ بماء الفيضان إلى أمد أطول من أمد فيضان دجلة. فنرى فيه عند منتصف شهر تموز كمية كافية من الماء وقد يبقى محتفظاً بها إلى شهر ايلول وحينئذ ترجع المياه إلى حدها الأول.

(٣٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ١٦.

إلى اتجاهات مختلفة، وكثيرا ما تغير مجراها، فتتسلط على الأراضي المنخفضة وتغمرها بالمياه فتكون البحيرات والمستنقعات كما ترى آثار ذلك في العراق الأسفل (٣٣).

وقد يؤدي الفيضان إلى كوارث وأضرار جسيمة باغراق الناس والبساتين والمزارع وهدم المنازل وجرف المتاع. وقد أظهرت التنقيبات في أربع مدن قديمة في ميزوپوتاميا السفلى وهي: المقير (اور) والوركاء (اوروك) والأحيمر (كيش) وفاره (شوروباك) دليلاً على وجود طوفان يتكون من طبقات ثخينة من الطين الخالص، وبرهاناً على سُكنى بشرية فوق مستوى الطوفان وتحته، إلا أن ترتيب الطبقات أثبت أن هذا الطوفان يعود إلى ادوار متباعدة من الزمن. على أنه من الممكن أن نفترض أن واحداً من هذه الطوفانات امتاز بأنه سبّب خسائر فادحة في الانفس وتدميراً جسيماً في الأموال والممتلكات، وصار الموضوع الأساسي لقصة الطوفان السومرية.

وكان خطر الطوفان من المسائل التي شغلت اهتمام العراقيين القدامى. فأقاموا السدود الترابية والحواجز على طول الضفاف الواطئة لدرء الفيضان، وانشأوا المصارف لأخذ مياهه إلى الخزانات والمنخفضات الطبيعية للوقاية من أخطار الطغيان والاستفادة من المياه المخزونة عند الحاجة إليها.

يتبين مما تقدم أن الظروف الطبيعية كانت في ميزوپوتاميا العليا ملائمة لحياة الانسان، في حين كانت على العكس من ذلك في ميزوپوتاميا السفلى (القسم الجنوبي من العراق) الذي ظل مغطى بالمياه إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد، وبالتالي كانت حياة الانسان فيه غير ممكنة. وأياً كانت الأحوال فإن العراقيين الأوائل ناضلوا بدأب ضد الطبيعة، واستطاعوا بتعاونهم وبعملهم الجماعي أن يذللوا كثيراً من العوائق ويتغلبوا على جملة من المصاعب ويخطوا خطوات متقدمة في طريق الانعتاق من التبعية للطبيعة.

فطوال مرحلة الصيدوجمع الغذاء، كان العراقيون القدامى خاضعين لسيطرة الطبيعة متطفلين عليها مستنزفين بعض مواردها. ومع اختراع القوس والنشاب واكتشاف النار والزراعة وتدجين الحيوان وتحسين أدوات العمل أخذت ظروف حياتهم ووجودهم وأمنهم تتغير ايجابياً نحو الأفضل، فصاروا منتجين للغذاء بعد أن كانوا جامعين له.

إن الانتقال إلى تربية الماشية والزراعة جعلت الانسان يعتمد على الطبيعة بدرجة أقل من

(٣٣) الهاشمي، طه: المصدر السابق ص١٦٣ - ١٦٤.

ذي قبل، وبالتالي احرز خطوة جديدة في طريق تحرره من التبعية للطبيعة. ليس ذلك وحسب بل صار عاملاً مساهماً في اغناء الطبيعة لخيره وسعادته.

وعرف العراقيون القدامى أهمية الري، في بلاد أمطارها قليلة وغير منتظمة، فصار تنظيم الري والسيطرة على الأنهار من أبرز مقومات الحضارة في بلاد ما بين النهرين. وكان من بين العوامل الرئيسة لتوحيد البلاد وانشاء سلطة ممركزة العمل على تنظيم الري وتنفيذ مشروعات كبيرة على صعيد المملكة لتطوير الزراعة، ولتنشيط التجارة الخارجية من أجل تأمين المواد اللازمة كالخشب والحجارة والمعادن لبناء حضارة راقية.

وهكذا لم يقف العراقيون القدامى مكتوفي الأيدي أمام سيطرة الطبيعة وإنما ناضلوا بنشاط ودأب وأحرزوا انتصارات مدهشة ونجاحات هامة في مسيرة النضال الطويلة والشاقة في سبيل التقدم.

الفصل الثامن عشر

مصادر تاريخ حضارات العراق في العصور القديمة وما قبل التاريخ

أولاً: مصادر عصور ما قبل التاريخ وتشمل:

أ ـ الهياكل البشرية الثلاثة لإنسان نياندرتال التي عثرت عليها بعثة شانيدار الثالثة في كهف شانيدار (بلواء اربيل). وأصغر هذه البقايا هو شانيدار ـ ١ ـ الذي يرجع إلى (٤٦٠٠٠) عام، وأما الهيكلان الآخران فأقدم منه. واكتشاف هذه الهياكل البشرية يقدم الدليل على قدم الحضارة العراقية وعراقتها.

ب ـ مخلفات الرافدي الأول التي عثر عليها علماء الآثار في بردة بلكة وفي موقع كريم شاهر وفي موقع جرمو (بلواء كركوك) وفي تل حسونة (بلواء الموصل) وفي موقع سامراء الحالية (لواء الموصل أيضاً) وفي تل حلف (شمال سورية) وفي تل العبيد جنوب العراق (بلواء الناصرية على بعد ستة كيلو مترات غرب اور) وفي اوروك وغيرها من المواقع الاثرية. وتشمل هذه المخلفات أدوات حجرية ومعدنية وآنية فخارية ساذجة سمجة ومتقدمة رشيقة مصبوغة بعدة ألوان على بعضها رسوم تمثل أشكالاً هندسية ونباتية وحيوانية، تزودنا بمعلومات هامة عن ادوات العمل وأثرها في تطور حياة الانسان، كما تعطينا فكرة عن ظهور أجنة الفن في بلاد النهرين. كما اكتشفت مديرية الآثار العراقية العامة في تل حسونة قرية كبيرة من العصر الحجري الحديث يرقى تاريخها إلى حوالي ٤٨٠٠ قبل الميلاد، وجد فيها آثار متنوعة بينها ادوات من الحجر والابسيدي ومناجل من الصوان ودمى من الطين وآنية فخارية، تزودنا بمعلومات هامة عن تطور الزراعة والحرفة والسكن والفن وعن تصورات قدماء العراقيين الدينية.

ثانياً: مصادر العصر التاريخي وتشمل:

آ ـ مكتشفات تل جمدة نصر (شمال شرقي كيش) وهي تطلعنا على تقدم الكتابة وتطورها، وتحسن الصناعة وتقدمها، وتطور فن العمارة وتوسع المباني والمعابد، واستعمال الفسفيساء في تزيين واجهاتها.

ب ـ التقارير: التي عثر عليها في المدن السومرية مثل لاغاش واوما ولارسا وغيرها. وهذه التقارير عبارة عن عقود لبيع الأراضي أو تأجيرها، وعقود لاستخدام العبيد والعمال، بالإضافة إلى عقود تجارية وغير ذلك من الشؤون الاقتصادية. كما تعطينا قرارات اوروكاجينا ملك لاغاش صورة عن الصراع الاجتماعي ومحاولة الملك اجراء بعض الاصلاحات الاقتصادية ـ الاجتماعية في مدينة لاغاش. وتحتوي مراسلات حمورابي مع حكام مدينة لارسا على معلومات هامة عن نظام الري الاصطناعي والتنظيمات الادارية في عهد حمورابي.

جـ ـ القوانين السومرية (قانون أورنمو وقانون بيلالاما وقانون ليپيت عشتار) والبابلية (شريعة حمورابي بخاصة) والآشورية، تزودنا بمعلومات عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر السلطة المدنية والعسكرية والدينية والنظام القضائي والعقوبات وغير ذلك من أمور الحياة في كل من سومر وأكاد وبابل وأشور.

د ـ مجموعة النقوش التي تعطينا صورة عن التاريخ السياسي والحروب والعلاقات الديبلوماسية ومنها «لوحة العقبان» التي تصف انتصارات اياناتوم ملك لاغاش، وتزودنا بمعلومات هامة عن ادوات الحرب واسلحتها وطرق الدفن في ذلك العصر. وكذلك الأمر في «لوحة النصر» لزام سين التي تتحدث عن حروبه وانتصاراته على القبائل اللولبية وفي ماندا، وعيلام وفي هضبة ايران. وهناك الحوليات وهي النقوش والكتابات التاريخية التي دونت على الحجر والانصاب والتماثيل وألواح الطين لتخليد انتصارات الملوك وحروبهم واعمالهم ونشاطهم العمراني. واشهر الحوليات هي حوليات سلمنصر الثالث وتيغلات فلاسر الثالث وغيرهما من الملوك الأشوريين.

هـ ـ الرسائل الديبلوماسية المكتشفة في مدينة ماري (تل الحريري) وتعطينا صورة عن العلاقات السياسية في النصف الأول من الألف الثانية قبل الميلاد، وبصورة خاصة عن سياسة حمورابي التوسعية.

و ـ رسائل تل العمارنة: عثر في مدينة اخيتاتون (تل العمارنة) على رقائم من الوثائق بالخط المسماري وباللغة البابلية الآشورية، يضم مجموعة من رسائل الود والسياسة المتبادلة بين فراعنة مصر وحكام سورية وفلسطين وفينيقية وبلاد الرافدين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وتعتبر من الوثائق التاريخية التي أمكن على ضوئها رسم صورة لحياة الشرق العربي وسياسته في ذلك العصر.

ز ـ النصوص الأدبية والدينية: كقصة الخليقة وملحمة جلغامش، واسطورة صراع مردوخ مع تيامات، واسطورة الطوفان، وحوار السيد مع العبد، واسطورة هبوط عشتار إلى العالم السفلي وغيرها، تزوّدنا بمعلومات عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعقائد قدماء العراقيين الدينية ونضالهم ضد الطبيعة.

ح ـ مؤلفات المؤرخين القدماء: أمثال برعوشا (بيروسوس) المؤرخ الوطني الرئيس للعصر المتأخر من التاريخ البابلي، وهو كاهن كلداني عاش في عهد الاسكندر المكدوني واستطاع أن يطالع الوثائق القديمة لبلاده. ولم يصلنا الأصل المفقود لسوء الحظ، ولكن حفظت مقتبسات منه في المصادر اليونانية. أما مؤلفات ستسياس، وديودور الصقلي، وهيرودوت الهاليكارناسي، واسترابون، وابيدينيوس ففيها معلومات هامة ومفيدة.

وفي حقل الكتب الدينية كانت التوراة تحتل أهمية خاصة كمصدر يزودنا ببعض المعلومات عن تاريخ حضارات بلاد الرافدين وسورية وفينيقية وفلسطين إلى ما قبل المكتشفات الأثرية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين.

حضارة العراق في عصور ما قبل التاريخ أو ما قبل السلالات

ظل القسم الجنوبي من العراق القديم مغطى بالمياه، مما جعل حياة الناس فيه، بالتالي، غير ممكنة. إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد. أما شمال العراق فالوضع فيه مختلف: الجزء الغربي منه هضبة واسعة من السهوب المتموجة، والجزء الشرقي فيما وراء دجلة فيه كثير من التلال المليئة بالغابات والوديان التي تجري فيها أنهار مهمة كالكورنيب والزابين والنهر العظيم والأدهم.

لقد هيأت الطبيعة في ميزوبوتاميا العليا الشروط الملائمة لحياة الانسان لذا كان طبيعياً أيضاً أن يكون هذا الاقليم المهد الأول الذي نشأت فيه طلائع الحضارة العراقية القديمة.

ففي هذه المنطقة عاش العراقيون الأوائل على شكل جماعات كانت تسكن الكهوف وتعتمد في حياتها على الصيد وجمع الغذاء. ومع تطور القوى المنتجة، وبالدرجة الأولى أدوات العمل، انتقل العراقيون القدامى إلى ممارسة الزراعة المعزقية وتأهيل الحيوان وتربية المواشي إلى جانب الصيد. وبنيت القرى، وارتقت الثقافة ولكن رقياً بطيئاً، وظهرت بوادر التصورات الدينية.

ومن هذا الاقليم، نزح العراقيون القدامى إلى الجنوب، عندما تراجعت مياه الخليج وتشكل السهل الغريني الخصيب، حاملين معهم إلى ميزوبوتاميا السفلى تقاليدهم الحضارية. وشرعوا في تجفيف المستنقعات وتنظيم الري وحراثة الأرض وتربية المواشي وبناء القرى على تلال اصطناعية. وعندما وصل السومريون إلى هذه المنطقة انصهروا مع سكانها الأوائل وأخذوا حضارتهم وطوروها بفضل العمل الدؤوب والتعاون المشترك بين القادمين

والمستوطنين القدامى. يستدل على ما تقدم بالمكتشفات الأثرية التالية:

١ ـ وجدت مخلفات انسان العصر الحجري القديم في عدد من نواحي شمال العراق. فقد عثر في بردة بلكه (لواء كركوك) على أدوات وآلات حجرية من النوع الآشولي، يرقى تاريخها إلى ما قبل مائة ألف سنة، استعملها العراقي القديم حين كان يسكن المناطق الجبلية داخل الكهوف وعلى الهضاب وحين كان يعتمد في معيشته على ما يصطاده من حيوان أو يستجمعه من قوت. وقد وجدت في مناطق سكناه أدواته الحجرية التي كان يستعين بها للدفاع عن النفس ولصيد الحيوان وقطع الأشجار. وهي متخذة من الصوان وغيره من صنوف الحجر بهيئة فؤوس يدوية وسكاكين ومقاشط ومثاقب وغير ذلك من الآلات الجارحة[١]. ويليها قدماً آثار هزار مرد (لواء السليمانية) وكهف شانيدار في الزيبار (لواء إربيل) وهي في الغالب من النوع الموستيري بهيئة فؤوس وسكاكين كان يستعملها ذلك الانسان لصيد الحيوانات وقطع الأخشاب أو للدفاع عن النفس[٢]. كما عثر في كهف شانيدار على ثلاثة من الهياكل البشرية لانسان نياندرتال في الجزء العلوي من المخلفات الموستيرية بواسطة بعثة شانيدار لثالثة. وأصغر هذه البقايا هو «شانيدار ـ ١ ـ» الذي يرجع إلى (٤٦٠٠٠) عام، وأما لهيكلان الآخران فأقدم منه[٣].

وعثر في «بالي كورا» (لواء الموصل) على آلات من العصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) من النوع السلوتري[٤].

٢ ـ أما آثار العصر الحجري الحديث (النيوليتي) فوفيرة واضحة منتشرة في أماكن كثيرة من شمال العراق. ففي هذا العصر الذي يبدأ في العراق بالألف السادس قبل الميلاد، انتقل العراقيون القدامى من الصيد وجمع الغذاء إلى تعلم الزراعة فكانت من أهم أسباب تقدمهم، ثم سكنوا البيوت وكانت في بادىء أمرها من الطين والحصران ومنها تشكلت القرى، ثم دجنوا الحيوان وربوا الماشية، وصاروا بذلك منتجين لقوتهم بأيديهم، ورقيت حياتهم الاجتماعية[٥].

---

(١) بصمه جي، فرج (الدكتور): دليل المتحف العراقي. مطبعة الحكومة ـ بغداد ١٩٦٠ ص ٥٣.
(٢) المصدر ذاته ص٥٤.
(٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الادنى القديم. دار المعارف بمصر ١٩٦٣ ج ٥ ص٥٨.
(٤) بصمه جي، فرج (الدكتور) المصدر السابق ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٥) بصمه جي، فرج (الدكتور): المصدر السابق ص٧.

وكشفت الحفريات التي قامت بها مديرية الآثار العراقية عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ في « تل-حسونة » على بعد (٣٥) كيلومتراً جنوب الموصل عن أقدم قرية سكنها العراقيون الأوائل في هذه المنطقة والتي تعود بتاريخها إلى حوالي ٤٨٠٠ سنة قبل الميلاد . ففي هذا المكان ، حيث كانت كمية الأمطار تكفي لزراعة بدائية ، استقر الزرّاع والرعاة الأوائل [٦] . وإن الآلات التي خلفوها تكون عدة كاملة لممارسة الزراعة بمختلف وجوهها : كفؤوس يدوية من الحجر ومعازق من الصوان على بعضها بقايا من القير كانت تستخدم في حرث الأرض وقلبها ومناجل ذات أسنان صوانية ومقابض من الخشب [٧] ، وآلات لطحن الحبوب أو فركها ومجارش [٨] وخزنوا غلتهم في صوامع أو خواب من الفخار ، وبنوا بيوتهم من الطين ، وحسنوا صناعة أواني الفخار وصبغوها بالألوان ، وعرفوا استعمال السهام والحراب والمقاليع [٩] . كما عثر على أدوات بيتية صغيرة بينها سكاكين من الأبسيدين وأدوات من العظم واقراص مغازل ، ودمى طينية بهيئات مختلفة منها ما يمثل الإلهة الأم ومنها صور آدمية أو حيوانية كانت تستعمل في العبادة والتبرك [١٠] .

إن جميع الآثار التي سبق ذكرها هي من شمال العراق ولا نظير لها في جنوبه ، وذلك أن الشطر الجنوبي من وادي الرافدين لم يكن صالحاً للسكن . ويرتقي زمن أول معالم الاستيطان فيه إلى حوالي الألف الخامس قبل الميلاد حين نزحت إليه جماعات جاءت من شماله واستقرت في أماكن مختلفة تحول بعضها فيما بعد إلى المدن السومرية الرئيسية كأريدو وأور واوروك وغيرها .

٣ - وفي أواخر العصر الحجري الحديث ، حدث تطور ضخم في حياة العراقي القديم ، يتمثل باستخدامه المعادن إلى جانب الأحجار . وتسمى هذه المرحلة بالحضارة « الشالكوليتية » أي عصر النحاس - الحجر .

وفي هذا العصر وما بعده ، تقدمت الصناعات المختلفة ، وأخذ الرافدي يؤسس بداية الحضارة الناضجة ، ولا سيما عندما انتقلت موجة الحضارة من الشمال ومن الهضاب المرتفعة الشرقية إلى الجنوب بعد انحسار مياه البحر عنها وجفاف الأهوار ، لأن جنوب العراق كان

---

(٦) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ٩٢ .

(٧) بصمه جي ، فرج (الدكتور) : المصدر السابق ص ٥٥ .

(٨) المصدر ذاته .

(٩) لويد ، سيتون : الرافدان . ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس - بغداد ١٩٣٤ . ص ٢٤ .

(١٠) بصمه جي ، فرج (الدكتور) : المصدر ذاته ص ٥٥ .

إلى ذلك الوقت مغموراً بالمياه، وإن الغرين والرمال التي يسوقها دجلة والفرات وكارون والكرخا من ايران ترسبت في المصبات فتكونت على مر السنين أرض خصبة واسعة سهلت الزراعة وظهرت عليها مستوطنات عديدة كانت من أهم مراكز حضارة العراق القديم وصارت مدناً عامرة في العهد السومري (١١).

وتتميز الحضارة الشالكوليتية بنمو قوى الانتاج وتنظيم الري وتطور الزراعة وتربية الماشية إلى جانب الصيد. وظهر المنتوج الزائد (الإضافي). ونشأت علاقات تجارية بين بلاد ما بين النهرين والدول المجاورة. وعلى الصعيد الاجتماعي. تفسخت المشاعية البدائية وظهرت الفروق الاجتماعية وعدم المساواة في الثروة بين أعضاء العشيرة. وحلت الأسرة الأبوية تدريجياً محل الأسرة الأموية. وتشكلت الطبقات. وقامت الحروب بين القبائل أو بين المدن. وحوّل الأسرى إلى عبيد للعمل في اقتصاد النبلاء وفي مشاريع الري. وظهرت لأول مرة في تاريخ العالم المركبات ذات العجلات التي تجرها الحمير، واخترع دولاب الفخار. وبنيت القرى وظهرت عمارات مدرجة من الآجر اطلق عليها اسم «الزقورات». واخترعت الأختام الاسطوانية وظهرت الكتابة التصويرية وتطورت.

وإلى عصر الشالكوليتيك هذا تعود حضارة العُبيد ثم حضارة الوركاء فحضارة جمدة نصر.

حضارة العُبيد: حضارة عراقية متطورة عن غيرها من الحضارات المحلية التي سبقتها في ميزوپوتاميا العليا والسفلى.

سميت حضارة العُبيد بهذا الاسم نسبة إلى موقع تل العُبيد الذي جرت فيه الحفريات ويقع على بعد ستة كيلومترات من غرب اور (لواء الناصرية). وقد اكتشف خرائب العُبيد عام ١٩١٩ العالم الأثري البريطاني المستر هول Hall.وفي سنة ١٩٢٣ - ١٩٢٤ قامت بعثة أثرية مشتركة نظمها المتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانيا برئاسة ليونارد وولي بحفريات في هذا التل كشفت عن المساكن الابتدائية التي سكنها أول الوافدين إلى دلتا الفرات. وتعد حضارة العُبيد في الجنوب امتداداً وتطوراً لحضارة تل حسونة في الشمال.

امتازت حضارة العُبيد باستعمال الأدوات الحجرية بصورة رئيسية (فؤوساً وسكاكين واسنان مناجل وهراوات). وقد عثر في تل العُبيد على فؤوس وصنانير وسكاكين من

---

(١١) بصمه جي، فرج (الدكتور): المصدر السابق ص٩.

النحاس المطروق ولكن بكميات قليلة جداً [١٢]. وكان النحاس يطرق بارداً في أول الأمر إلا أنه سخن بعدئذٍ واستعملت طريقة الصب أيضاً فصنعت منه صنارات لصيد الأسماك ودبابيس وسكاكين وأسلحة [١٣].

ووجد في هذا التل فخار امتاز بشدة حرقه وصلابته يرقى تاريخه إلى حوالي ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، صنعت أكثر آنيته بمساعدة دولاب الفخار،وصبغ أكثرها بخطوط عريضة سود تمثل أشكالاً هندسية ونباتية وحيوانية [١٤].

وكان أناس حضارة العُبيد يعيشون على الصيد والزراعة بواسطة المعزقة وعلى تربية المواشي [١٥] أي أنهم كانوا في مرحلة انتقال من حياة الصيد إلى الزراعة البدائية وتربية الحيوان. وكانوا يسكنون أكواخاً بنيت من القصب المربوط ببعضه والمغطى بطبقة من الطين. وفيما بعد، استعمل الطوب المجفف بالشمس في بناء المنازل [١٦].

وكان أناس تلك الفترة لا يعرفون التمايز الاجتماعي وعدم المساواة في الثروة. يؤكد ذلك تشابه الأثاث الجنازي في مقابرهم [١٧]. وتدعو دمى النساء المصنوعة من الطين التي عثر عليها في الموقع المذكور إلى الافتراض بأن نظام الأمومة في سومر قد استمر حتى النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد [١٨].

وربما استمرت حضارة العُبيد أربعة قرون. ويعتبر أصحابها الاسلاف المباشرين لأوائل السومرين [١٩] وبالرغم من التقدم الذي أنجزه أهل العُبيد في المضمار الحضاري، فإنهم لم يعرفوا الكتابة أو التدوين [٢٠].

حضارة الوركاء: تقع مدينة الوركاء (اوروك قديماً) على بعد (٣٠) كيلومتراً

---

(١٢) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص١٠٢.

(١٣) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ١٠.

(١٤) نفس المصدر ص ٩.

(١٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٩٢.

(١٦) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص١٤٩.

(١٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٩٢.

(١٨) نفس المصدر والصفحة.

(١٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ٥ ص٦٥.

(٢٠) نفس المصدر والصفحة.

جنوب شرقي السماوه. نقبت فيها بعثة المانية وكشفت عن آثار تعود إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. وتتميز هذه المرحلة بتقدم واضح في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[٢١]. فقد تحسنت وسائل الري والصرف، وتطورت الزراعة وتربية الماشية، وارتقى فن البناء واخترعت الأختام الاسطوانية والكتابة التصويرية في أول مراحلها. وقد أدى التطور اللاحق للقوى المنتجة إلى تفسخ المشاعية البدائية وظهور الملكية الخاصة، يستدل على ذلك من العثور على الأختام الاسطوانية التي انما اخترعت بهدف تحديد الملكية الشخصية في المنقولات. فقد اكتشف هنا أقدم وأول زقورة بنيت في بلاد الرافدين. والزقورة عمارة مدرجة من الآجر، في أعلاها أقيم معبد طليت جدرانه بطلاء أبيض مما دعا الأثريين الألمان الذين اكتشفوه إلى تسميته بالمعبد الأبيض[٢٢]. وقد وجد في هذا المعبد لوحان صغيران مربعان من الجبس وعليها طبعات اختام اسطوانية. وكانت هذه الأختام تصنع من اسطوانات من الحجر، تدحرج فوق اللوحة فتترك صورتها مطبوعة عليها. وكان سطح الاسطوانة يحضر بشكل مجوف فعندما يدحرج فوق اللوحة الجصية تظهر الصورة عليها بشكل بارز[٢٣]. ومن المعلوم أن اختراع الأختام الاسطوانية قد سبق الكتابة، وأن الهدف الأساسي منه هو ايجاد طريقة لتثبيت الملكية الشخصية للحاجيات المختلفة[٢٤].

وفي مرحلة الوركاء ظهرت المركبات ذات العجلات التي تجرها الحمير. وتقدم البناء تقدماً ملحوظاً ولا سيما المباني العامة كالمعابد ـ الزقورات. وأصبحت الأواني الفخارية تصنع بكثرة بقصد التجارة. وتطور فن النحت الدقيق. ويعتبر العلماء أن النقوش على الختم الاسطواني هي أهم ما ساهمت به بلاد الرافدين في ميدان الفن وأن أثرها الفني انتقل إلى جميع ميادين الفن التزييني عندهم[٢٥]. وقد رسمت على الختم الاسطواني مشاهد تمثل الحياة اليومية وتشير إلى بعض الأساطير والعقائد الدينية[٢٦].

ويعود إلى عصر الوركاء أيضاً نشوء الكتابة التصويرية البدائية التي تبعت اختراع الأختام الاسطوانية. وتعتبر هذه الكتابة المرحلة الأولى من مراحل الكتابة البابلية التي سوف تتطور فيما بعد لتصبح الكتابة المسمارية (الاسفينية). وقد استعملت الكتابة التصويرية

(٢١) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ١٠.

(٢٢) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢٣) المصدر ذاته ص ١٥١.

(٢٤) نفس المصدر والصفحة. ود. نجيب ميخائيل ابراهيم: المصدر السابق ج ٥ ص ٦١.

(٢٥) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص ١٥٢.

(٢٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): المصدر السابق ج ٥ ص ٦٦.

في أول الأمر لتسجيل واردات المعابد [٢٧].

حضارة جمدة نصر: وهي المرحلة الحضارية الأخيرة لعصر ما قبل الأسرات. يقع تل جمدة نصر على بعد (٢٤) كيلومتراً شمال شرقي كيش غير بعيد عن الموقع الذي ستقوم عليه فيما بعد مدينة بابل. تحرّى فيه ستيفن لنكدن عن بعثة أميركية وكشف عن حضارة يعود تاريخها إلى ٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ قبل الميلاد [٢٨].

وتتميز هذه المرحلة الحضارية بتنظيم الري وتطور أكثر في الانتاج وتقدم الصناعة. وتدل مخلفات تلك الفترة (أسلحة وأدوات بيتية) على انتشار استعمال الأدوات النحاسية بشكل واسع، وعلى بناء المدن (شوروپاك وأشنونا وكيش) ووجود علاقات تجارية مع البلدان المجاورة كعيلام وشبه الجزيرة العربية وسورية. هذا بالإضافة إلى ازدياد استعمال الختوم (المسطحة والاسطوانية) وإتقان الكتابة التصويرية. كما تطور أيضاً فن العمارة وتوسعت المباني والمعابد توسعاً ملحوظاً وزينت واجهاتها بالفسيفساء [٢٩].

وتقدم أيضاً فن النحت وصناعة التماثيل. فقد وجدت كتلة من حجارة البازلت تعود إلى هذا العصر، نحت فيها بشكل بارز منظر من مناظر الصيد يمثل رجلين ملتحيين يصارعان ثلاثة أسود، كما وجد تمثال لخنزير بري جالساً القرفصاء من الحجر الرخو يدل على مهارة فنية فائقة. وقد حاول الفنان أن يُعبر مسألة التوازن اهتمامه البالغ، كما حاول أن يظهر الحيوان بشكله الحقيقي [٣٠].

وفي هذا العصر، استمرت المشاعية البدائية في عملية تفسخها، وتشكلت الطبقات الاجتماعية. وتمثل الأعمال الفنية للنصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، معارك، ومحاربين على عرباتهم وأسرى [٣١]. وحوّل الأسرى إلى عبيد، واستخدموا للعمل في اقتصاد النبلاء أو في انشاء مشاريع الري [٣٢].

إن المؤرخين البرجوازيين أمثال شپايزر Speiser وپارروت Parrot يربطون التقدم

---

(٢٧) بصمه جي، فرج (الدكتور): المصدر السابق ص ١٠.

(٢٨) المصدر ذاته ص ١١.

(٢٩) فرح، نعيم (الدكتور): المصدر السابق ص ١٠٢ ود. فرج بصمه جي المصدر السابق ص ١١.

(٣٠) حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: المصدر السابق ص ١٥٣.

(٣١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٩٣.

(٣٢) نفس المصدر والصفحة.

الاقتصادي والثقافي الذي حدث في ميزوپوتاميا بغزو مجموعات جنسية جديدة. وينسبون إلى تلك الفترة غارة السومريين الذين قدموا من الخارج يحملون، حسب زعمهم، الكتابة وفن النحت والأختام الاسطوانية وفن عمارة الصروح (٣٣).

إن هذه النظرية التي تنكر، في مجملها، فكرة التطور التقدمي وتستبدل بها نظرية هجرة الشعب، أقول هذه النظرية تبذها عدد من الأخصائيين الغربيين، وعلى وجه الخصوص الباحثان: فرنكفورت وشيلده اللذان اثبتا وجود استمرارية بين سكّان ميزوپوتاميا السفلى الزراعيين الابتدائيين وسومريي النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. ولهذا السبب فإن شيلده يدعو سكان هذه المنطقة القدامى بالأسلاف المباشرين لأوائل السومريين (٣٤).

---

(٣٣) المصدر ذاته ص٩٣ - ٩٤.

(٣٤) المصدر ذاته ص٩٤.

العصر التاريخي في بلاد ما بين النهرين

قامت في بداية الألف الثالث قبل الميلاد دويلات متفرقة في مدن مختلفة من جنوب العراق يحكم في كل منها سلالة مستقلة عن جاراتها. وتطورت الكتابة في ذلك الحين وأصبحت ملائمة للتدوين. فأخذ ملوك تلك السلالات وأمراؤها يصفون حروبهم وأعمالهم ويسطرون ذلك على الواح من الطين أو الحجر وبذلك انتقل الناس إلى عهد جديد سماه المؤرخون بالعصر التاريخي. ودعيت بداية هذه الفترة من الحكم في العراق بعصر « دويلات المدن » أو « فجر السلالات »[٣٥].

ويمتد هذا العصر من (٣٠٠٠ ـ ٢٣٥٠ ق.م). وهو من أغنى ادوار العراق من الوجهة الثقافية والحضارية. وقد وجدت معالم هذه الحضارة في أشهر المدن السومرية ـ الأكادية. وكانت هذه المدن عامرة بمبانيها ومعابدها واسوارها. وكان لكل منها مزارع عظيمة ترويها مياه الجداول والترع. وكانت المنازعات مستمرة بين هذه الدويلات للسيطرة على المزيد من الأرض[٣٦].

وكان سكان هذه المدن من السومريين ومن شعوب أخرى سكنت جنوبي العراق بظهور أراض جديدة فيه منذ الألف الخامس قبل الميلاد. وكوّن هؤلاء حضارة عصور ما قبل التاريخ. تلك الحضارة التي تطورت ونضجت في عصر فجر السلالات[٣٧].

---

(٣٥) بصمه جي، فرج (الدكتور): المصدر السابق ص١٢.

(٣٦) نفس المصدر والصفحة.

(٣٧) المصدر ذاته ص١٣.

الفصل العشرون

سومر واكاد

بالعمل الدؤوب وبالصراع المثمر لأجيال عديدة مع الطبيعة، حوّل قدماء العراقيين السهل المستنقعي الموبوء في ميزوپوتاميا السفلى إلى أرض صالحة لحياة الانسان ومنطقة خصبة تعطي المحاصيل الوفيرة.

يمتد العراق الأسفل من الخليج العربي جنوباً إلى الشمال حتى الخط المارّ بمدينة الحديثة على دجلة حيث تنتهي الأراضي الغرينية المستوية وتبدأ حزون المراعي في شمال العراق. وكان يدعى « سومر وأكاد ». واطلق اسم « أكاد » على الجزء الشمالي منه، واسم « كلم » أو « سومر » أي الأرض أو البلاد على الجزء الجنوبي منه. ولم يكن الحد الفاصل بين أرض أكاد وسومر ثابتاً واضحاً في زمن تفوّق السومريين. ولعل أول ظهور لأسمي سومر وأكاد معاً للدلالة على البلاد كان في عهد ملوك أور الذين وحدوا القسمين وأطلقوا على أنفسهم لقب « ملوك سومر وأكاد »(١).

والمعتقد أن سكان القسم الجنوبي من العراق، كانوا حينذاك خليطاً من شعوب مختلفة أكثرهم من السومريين الذي طغت لغتهم وعقائدهم على بقية سكان المدن والأرياف وأسسوا بعد قليل دولاً حاكمة في المدن الكبرى في جنوب العراق(٢).

عاش العراقيون الأوائل على الصيد ثم انتقلوا إلى ممارسة الزراعة المعزقية وتربية

---

(١) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٩١.

(٢) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ١١.

المواشي، وبنوا بيوتهم من القصب والطين على تلال اصطناعية لتحميهم من اخطار الفيضانات. وكانت وسائل الانتاج ملكاً مشتركاً للعشيرة، والانتاج يوزع بالتساوي على اعضاء العشيرة المتساوين في الحقوق.

وعندما زاد الانتاج نتيجة لتحسن وسائل الري والصرف ونمو القوى المنتجة، تفسخت المشاعية العشيرية إلى أسرات فلاحية كبيرة وصغيرة، وظهرت الملكية الخاصة وتشكلت الطبقات الاجتماعية، وحلت الاسرة الأبوية محل الأسرة الأموية، وتأسست الدولة لتثبيت سلطة الملاّك. وقد انعكست هذه التطورات الاقتصادية ـ الاجتماعية على الأساطير المتعلقة بالآلهة، كما اثبتتها أيضاً المكتشفات الأثرية والأعمال الفنية التي تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد [٣].

إن توحيد بلاد الرافدين وإقامة دولة ممركزة لم يتم فوراً أو دفعة واحدة. ففي مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، نشأت في العراق الأسفل بضع عشرات من دويلات المدن امثال: اريدو (ابو شهرين)، اور (المقيّر) شوروباك (فارا)، لارسا (سنكرة)، أومّا (تل جوخه)، لاغاش (شيربورلا)، كيش (الاحيمر)، ونيبور (نفر) السومرية. و«أغاده» (أكاد) و«سيبار» و«أوبس» و«كوتا» و«بورسيبا» الأكادية.

وكانت مدن تلك الفترة عبارة عن قرى أو قبائل اتحدت تحت زعامة رئيس القبيلة الأقوى والأكثر عدداً. وكانت المدينة تشمل الأراضي المنزرعة وأقنية الري والأراضي المخصصة للمراعي بالإضافة إلى بيوت السكن والمعابد. وكان للمدينة أسوار اقيمت من حولها. وقد ظلت التشكيلات الأولية لدويلات المدن تحافظ على التقاليد العشائرية ـ القبلية. وتدريجياً، اخذت تقوى سلطة الدولة والملوك الذين اعتمدوا على الأشراف والنبلاء، ولم يعودوا يحسبون حساباً للناس البسطاء، بل يدعونهم باستمرار للقيام بجميع الفروض والواجبات الممكنة [٤].

وعلى الرغم من أن سكان دويلات المدن السومرية والأكادية لم يكونوا متجانسين في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، إلا أنهم مع ذلك كانوا على مستوى متماثل من التطور الاقتصادي: فالسومريون والأكاديون شكلوا دولاً عبودية من المرحلة الأولى [٥].

(٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٩٢ - ٩٤ ود، نعيم. فرح: المصدر السابق ص ٩٩، ١٣٣ - ١٣٦.

(٤) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٠١.

(٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٩٤.

ومن أشهر المدن التي انشأها السومريون في الجزء الجنوبي من العراق الأسفل: اريدو، وأور، وأوروك، وشوروباك، وأشنونا، ولارسا، وأوما، ولاغاش، ونيبور وكيش. وقد تناوبت دويلات المدن هذه الحكم متعاصرة أحياناً ومتعاقبة أحياناً أخرى. واقتصرت على حدودها الضيقة في بعض الأحوال.. وتوسعت حتى اشتملت امبراطورية ضخمة، لكنها غير ثابتة، في أحوال أخرى.

وتشير النصوص إلى قيام حروب عديدة وتنافس شديد بين دويلات المدن السومرية، وخاصة بين أور وأوروك واوما ولاغاش وكيش نتيجة النزاع على توزيع مياه الارواء والسقي وفي سبيل السيطرة على مزيد من الأرض.

في أول الأمر بلغت مدينة كيش درجة كبيرة من القوة، ولكن في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، قام ضدها حاكم مدينة اوروك «جلغامش»، الذي أصبح فيما بعد بطلاً اسطورياً، فأحرز نصراً عظيماً على جيش مدينة كيش، ثم حقق لمدينته مكانة بارزة في البلاد [٦].

وفيما بعد، برزت مكانة مدينة اور لفترة وجيزة. ثم في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد برزت مدينة لاغاش. إذ سيطر حاكمها «ايانا توم» ابن اكورجال وحفيد اورنانشه على مدن المنطقة الجنوبية من بلاد الرافدين كاور واوروك، ثم دخل في صراع مع مدينة اوما فدعمتها مدينة كيش. ولكن اياناتوم اعتمد على الفرق الثقيلة المؤلفة من حملة الرماح التي يحميها حملة التروس، فاستطاع أن يحرز النصر على أعدائه وقتل منهم (٣٦٠٠) رجل. وبعد الانتصار في السهل تقدم نحو أسوار اوما فدكها، وسقطت المدينة تحت بأسه وأعمل السيف بسكانها في إبادة كاملة كالعاصفة المجتاحة [٧]. وقد أمر اياناتوم بتخليد انتصاره على لوحة تعرف باسم «نصب العقبان» الموجودة الآن في المتحف البريطاني إذ رسمت عليها أرض المعركة تتخللها جثث الاعداء تمزقها طيور العقبان الوحشية. ومن هنا جاءت تسمية اللوحة بـ «نصب العقبان» [٨].

وتشير لوحة العقبان إشارة غامضة إلى حرب شهرها اياناتوم على كيش وصور حاكمها أسيراً [٩]. وعندما حاول ملك أوپس ان يتقدم جنوباً لينتصر لـ «كيش» لقي

(٦) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٠٣.
(٧) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص١١٤.
(٨) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٠٣.
(٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ص١١٥.

نفس المصير أو طرد على الأقل وطورد حتى قضي عليه [10]. وتشير لوحة أخرى إلى انتصار اياناتوم على « اور » و« اوروك » مكملاً بذلك سيطرته على مدن الجنوب.

وكانت نتيجة الصراع مع اومّا والانتصار عليها ووقف اطماع عيلام تأسيس امبراطورية من العراق الجنوبي تحت زعامة لاغاش. ولكن هذه الامبراطورية لم تكن ثابتة. فقد كانت تمزقها التناقضات: تناقضات بين المدن وخاصة بين اومّا ولاغاش، وتناقضات بين النبلاء القدماء (نبلاء الولادة)، الأقوياء بأراضيهم الواسعة وامتيازاتهم في المعابد، والارستقراطية الجديدة التي أثرت مما أصابته من غنائم الحرب ومغانم الادارة. وهناك أخيراً التناقضات الطبقية الأساسية بين العبيد والسادة، وبين الناس الفقراء ونبلاء الولادة الذين مارسو العنف للسيطرة على الأرقاء والزراع الأحرار، مما أثار عليهم استياء ومقاومة المنتجين المباشرين [11]. لقد تفاقمت التناقضات واحتدمت الصراعات بين الكتل الاجتماعية في مدينة لاغاش في زمن خلفاء اياناتوم، حيث يحدثنا نقش الملك أوروكا جينا أن سلفه لوغال آندا حاكم لاغاش، تعدى على حقوق المشاعيات لمصلحة « الأقوياء » وحرق « المراسيم القديمة »، وفرض ضرائب غير شرعية لحسابه وحساب الكهنة، وعين المفتشين والموظفين لمباشرة مضاعفتها احياناً، وشرع الكهنة الذين لم يكتفوا بالضرائب المفروضة يسلبون السكان. فانتزعوا من الفلاحين مواشيهم ودواجنهم، والاشياء النحاسية، والملابس، وأجود أشجار البساتين وثمارها، وطلبوا رسوماً باهظة لدفن الموتى [12]. واحتكر لوغال آندا وكبار موظفيه أصواف أجود أنواع الاغنام، وفرضت ضريبة محددة (٥ سيكلات من الفضة) على كل رأس من الأنواع الأخرى، كما استحدثت رسوم وضرائب اخرى [13]. وهكذا ازداد الأغنياء (الأقوياء) غنى وتضاعف بؤس الفقراء حين كان القوي ينهب ثمار جهد الضعيف ويغتال حقوقه.

لقد أدت أعمال حكومة لوغال آندا، في مجال السياسة الداخلية، إلى استياء الجماهير الشعبية وقيامها بثورة توصل بنتيجتها إلى السلطة موظف يدعى أوروكاجينا الذي نصب نفسه حاكماً ثم ملكاً [14]. واعتمد اوروكاجينا في صراعه مع انصار السلالة المعزولة على

---

(١٠) المصدر ذاته ص١١٦.

(١١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٠٢.

(١٢) المصدر ذاته ص١٠٢.

(١٣) المصدر ذاته ص١٠٣.

(١٤) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٠٤.

الفرق الخفيفة من الجنود الفقراء، فتناقص جنود الفرق الثقيلة الذين يجمعون عادة من ابناء الطبقات الغنية إلى الثلث [١٥]. وألغى بعض الواجبات والضرائب الثقيلة، ومنع المظالم، وزاد حصة الفلاحين الذين يعملون في الأراضي التابعة للمعابد [١٦]. كما الغى أيضاً وظائف المفتشين في المشاعيات الريفية [١٧]. ونص احد هذه المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب ألا يدخل بعد هذا اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب او يستولي على ضريبة من الفاكهة [١٨]. وخفّض رسوم الدفن إلى أقل من النصف [١٩]. وسن قوانين لحماية الضعيف من طغيان القوي والفقير من أطماع الغني، وقرر أنه لا اكراه في الشراء ولا تهديد [٢٠]. وحرم على الكهنة وكبار الموظفين ان يقتسموا فيما بينهم ما يقدمه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية [٢١]. كما عالج أمر السخرة، وأوقف بعض قواعدها الوحشية [٢٢]. وكان مما يباهي به الملك أنه «وهب شعبه الحرية» [٢٣]. وتعد قوانين اوروكاجينا نواة لشريعة حمورابي فيما بعد [٢٤].

وعلى الرغم من أهمية هذه الاصلاحات، فإنها لم تغير أسس النظام العبودي، وظل الأشراف يحتفظون حتى بعد اصلاحات اوروكاجينا بسلطة اقتصادية كبرى لم يتجرأ المصلح المذكور على إلغائها. أما أوضاع العبيد فلم تتغير وظلوا كالسابق مجردين من الحقوق [٢٥]. وواصلت المشاعية المتجاورة تفسخها. وبعد فترة قليلة من الزمن فقدت لاغاش استقلالها، إذ استغل لوغال زاغيزي حاكم اومّا الاضطرابات التي حدثت في دولة لاغاش، فجدد الكفاح ضد اوروكاجينا وغلب جيشه وضم لاغاش إلى دولته وسيطر على جميع بلاد سومر واتخذ اوروك عاصمة لامبراطوريته التي لم تلبث بعد قليل ان سقطت بأيدي العرب الأكاديين.

---

(١٥) نفس المصدر والصفحة.
(١٦) نفس المصدر والصفحة.
(١٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٠٣.
(١٨) ديورانت ول: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٧.
(١٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٢٤.
(٢٠) نفس المصدر والصفحة.
(٢١) ديورانت ول: المصدر السابق ج٢ ص١٧.
(٢٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٢٤.
(٢٣) ديورانت ول: المصدر السابق ج٢ ص١٧.
(٢٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٢٥.
(٢٥) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٠٤.

الدولة الأكادية

تحقق توحيد بلاد ما بين النهرين

نشأتها وتوسعها: ينتمي الأكاديون إلى قبائل السهول العمورية التي استوطنت شمال سورية ووادي الفرات الأوسط بعد هجرتها من شبه الجزيرة العربية موطنها الأصلي حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، بسبب الجفاف وقلة موارد الرزق.

وكانت جماعات العموريين تنساح من الغرب وخاصة من ماري، على الفرات الأوسط، إلى ميزوپوتاميا وتستقر في الجزء الشمالي من السهل الجنوبي (أرض سومر وأكاد)، حيث انشأوا لهم مستوطنات عديدة، نمت واتسعت على مر الزمن مع ازدياد اعدادهم وتعاظم قوتهم فأصبحت مدناً مزدهرة أعظمها شأناً «أكاد» وإليها نسب الأكاديون.

يختلف الأكاديون عن جيرانهم السومريين من حيث الهيئة واللغة، وقد انشأوا عدة مدن من بينها بابل وسيپار وكيش (كانت مدينة سومرية ثم خضعت لسلطان الأكاديين) وأوپس وأكشاك وكوتا .. ثم أغاده (أكاد).

تقع مدينة أكاد (أكادو وهي النطق السامي لـ «أغاده» وهو الاسم القديم للمدينة) بين الفرات ودجلة، في المكان الذي يقترب فيه الرافدان أكثر ما يكون. وبالقرب منها، على نهر الفرات، وجدت مدينة سيپار التي أسسها السومريون واشتهرت بمعبد إله الشمس (شماش)، ثم احتلها الساميون ووسعوها. وتقع كيش، إحدى أقدم المدن في بلاد ما بين النهرين، على نهر الفرات إلى الجنوب من سيپار. ومن المدن الأكادية أيضاً كوتا على الفرات شمالي كيش، وأوپس على نهر دجلة وهي مركز مهمّ.

بين دجلة والفرات في منطقة أكاد، كان يمر طريق القوافل الذي يربط بالغرب طرق شبه الجزيرة العربية وبالشرق الطرق الذاهبة إلى جبال زاغروس موطن القبائل الغوطية واللولبية. ويمكن أن تقدم أكاد بموقعها المتوسط إلى ملكها مزايا كبيرة، إذا استطاع الاستيلاء على الأراضي المحصورة بين سيپار وأوپس. وهذا ما تحقق على يد سارغون حوالي عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد.

ولسنا نعلم بالتحقيق كيف وصل سارغون إلى الحكم. إذ من الصعب جداً استخلاص الحقيقة التاريخية من الأساطير التي اوحى بها، شأنه في ذلك شأن العديد من الفاتحين الآخرين في العصور القديمة. فاسطورة تمثله كأنما جاء إلى العالم سراً ... من أم فقيرة من مدينة «ازوپيرانو» على الفرات، حملت به من أب مجهول، وكان له خال من سكان الجبال.

وعند مولده أودع سلة من القصب دهنت بالقار وألقي بها في الفرات فانتشلها فلاح يدعى آكيAkki رباه كابن له ... ولما بلغ أشده أحبته الالهة عشتار فجعلت منه ملكاً [٢٦]. وجاء في اسطورة اخرى أنه نشأ بستانياً ثم أصبح ساقياً للملك «اور - زبابا» (ثاني ملوك أسرة كيش الرابعة) وأنه ثار ضد مولاه واستطاع أن يخلعه ويعتلي العرش من بعده [٢٧]. وأياً كان الأمر فهو لا ينحدر من سلالة الحكام الأكاديين.

أسس سارغون - شاروكين [٢٨] أسرة حاكمة جديدة حققت لأول مرة توحيد بلاد ما بين النهرين وانشاء الامبراطورية الأكادية ٢٣٥٠ - ٢١٥٠ ق.م.

وعندما أصبح سارغون ملكاً، اعتمد في حكمه على الجيش. فأنشأ جيشاً دائماً من ٥٤٠٠ محارب محترف. وعلى حين كانت كتائب المعابد السومرية تتألف من جنود مسلحين بأسلحة ثقيلة (كما تشاهد في نصب العقبان) من فؤوس ورماح طويلة، يختبئون خلف دروع طويلة ويقاتلون بصفوف متراصة ويضربون العدو برماحهم الطويلة، فقد سلح سارغون جنوده بالقوس والنشاب. واصبح رماة السهام يحتلون مركزاً هاماً في الجيش الأكادي الجديد [٢٩]. واستعاض سارغون عن الرماح الثقيلة برماح صغيرة يسهل قذفها في وجه العدو والابتعاد بسرعة [٣٠]. وقد أتاح ادخال السلاح الخفيف عدداً من المزايا التكتيكية والقتالية للجيش الأكادي فأصبح أسرع حركة وأكثر قدرة على المناورة من الجيش السومري. وكان معظم جنود الجيش السارغوني من الناس الذين انتزعت أراضيهم ووجدوا أنفسهم في وضع يضطرهم للعمل في خدمة الملك مقابل أجرهم [٣١].

في هذه الحقبة التاريخية، كانت ظروف توحيد البلاد ومركزة السلطة قد نضجت. فبدون الوحدة، فان الاقتصاد القائم على الري لا يمكنه ان يتطور، وبالتالي فإن تنفيذ مشاريع ري كبرى وتنظيم فيضانات الفرات ودجلة وتخزين مياه الفيضان لري الأراضي

---

(٢٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٣٣. ود. فرج بصمه جي: المصدر السابق ص١٧.

(٢٧) نفس المصدر والصفحة.

(٢٨) يعني اسم شاروكين الملك الصادق أو الشرعي أو الثابت.

(٢٩) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٠٤.

(٣٠) الصفدي، هشام (الدكتور): محاضرات في تاريخ الشرق الادنى القديم - دمش ١٩٦٦-١٩٦٧ ص٨٠.

(٣١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٠٤.

الزراعية في وقت الجفاف وتحقيق منتوج فائض أكبر يكـون متعـذراً، وكـانـت حـدود دويلات المدن تشكل عائقاً أمام التجارة. وكان لكل دويلة وحدة قياس تختلف عما تستعمله الأخرى. وأخيراً فإن تزايد عدد العبيدالمسـوقين من البلاد المفتوحة كان يفرض قيام تنظيم سياسي قوي للسيطرة على جماهير العبيد وإخضاعهم [٣٢].

بدأ سارغون بتوحيد البلاد، وقاد النضال ضد المحتلين السومرين. فأصبح ملكاً على كيش وأسس عاصمة جديدة وهي مدينة «أكاد» لتكون مركزاً لإقامته ومقراً لحكمه. وراح يجهز الجيوش للقضاء على السومريين. وقام بعدة حملات عسكرية مظفرة في الجنوب وانتصر في نهاية المطاف على لوغال زاغيزي. واحتـل الوركـاء (اوروك) واور ولاغـاش ووصل إلى شاطىء البحر أي إلى الخليج العربي، وأصبحت سومر تحت سلطة الأكاديين. ثم فتح عيلام ومنطقة الخليج [٣٣]. وهكذا استطاع سارغون لاول مرة انشاء مملكة موحدة تشمل جميع بلاد ما بين النهرين.

مارس سارغون سياسة خارجية نشيطة. إذ قام بحملات إلى البلاد الجبلية المجاورة الغنية بالمواد الخام كالمعادن والحجارة وخشب البناء [٣٤]. وتشير لوحة الفأل إلى توسع سارغون غرباً في بلاد العموريين (سورية)، فأخضع مدينة ماري العمورية على الفرات الأوسط، ومن هناك عبر إلى سورية ثم إلى الجبال الفضية (جبال طوروس). وكان امتداد نفوذ سارغون إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط يحمل معنى التوسع وليس مجرد غارات خاطفة. وفتح عيلام ومنطقة الخليج وشكل مـن ارض الرافـديـن والبلـدان الأخـرى التي فتحهـا امبراطورية مترامية الأطراف عاصمتها مدينة أكاد [٣٥].

وعلى صعيد السياسة الداخلية، وضع سارغون نظاماً موحداً للمقاييس والاوزان مما أدى إلى تنشيط العلاقات التجارية داخل البلاد. وتشير مجموعة من اللوحات عثر عليها في «تللو» إلى تبادل البضائع والمنتجات بين مختلف مدن الامبراطورية الأكادية وخاصة بين أكاد ولاغاش. فقطعان الثيران والماشية ومنتجات الحليب كانت ترسل من مدينة لاغاش إلى مدينة أكاد مقابل الحبوب والبلح والمنسوجات [٣٦]. وشرع سارغون بتنفيذ شبكة واسعة

(٣٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣٣) بصمه جي. فرج: المصدر السابق ص١٧.
(٣٤) فرج. نعيم: المصدر السابق ص١٠٦.
(٣٥) بصمه جي. فرج: المصدر السابق ص١٧.
(٣٦) ابراهيم. نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٣٦.

من أعمال الري. فحفر قناة واسعة لوصل دجلة بالفرات، واعاد بناء مدينة كيش وأصلح قصور أكاد، وشيد العديد من المعابد [٣٧]. واصطنع تقويماً موحداً بدلاً من التقاويم المختلفة للمدن [٣٨]. واخذت الكتابة الأكادية السامية تسود منذ عصره في تسجيل الوثائق التجارية والمكاتبات الرسمية [٣٩].

بلغت الامبراطورية الأكـاديـة اوج اتسـاعهـا وقمـة ازدهـارهـا في زمـن نارام سين (٢٥٠٧ ـ ٢٤٥٢ ق.م)، حفيد سارغون، الذي عرف بأنه أبرز افراد الأسرة الأكادية بعد سارغون من ناحية توسعه الخارجي. وكان على نارام سين أن يحافظ على أجزاء امبراطوريته المترامية الأطراف بالقوة ضد كل الثورات والفتن. وبذلك ترتب عليه أن يحارب في كل مقاطعة على حدة لاخضاع أهلها.

قام نارام سين بحملات ناجحة على بلاد عيلام، وصـد القبـائـل اللـولبيـة في جبـال زاغروس. وخلد انتصاراته على «لوحة النصر» التي أمر بنقشها واطلق عليها اسم «نصب نارام سين». وقد عثر على اللوحة العالم الأثري الفرنسي «دو مورغان» عام ١٨٩٧ ميلادية في سوزا عاصمة عيلام.وهي اليوم من كنوز متحف اللوفر في باريس. ولهذه اللوحة أهميتها الفنية والتاريخية. فقد مثل بها الملك وهو يهزم أصحاب البلاد الجبلية (القبائل اللولبية) وظهر في حجم أكبر بكثير من حجمه الطبيعي، وعلى رأسه خوذة لها قرون من النوع الذي كان يرتديه الآلهة، ويحمل بيده بلطة القتال وقوساً وسهماً. وعلى سفح الجبل وعلى ممرات بين الأشجار التي تغطيه يتسلق انصار الملك وجنوده من خلفه يحملون الألوية والاسلحة في أيديهم ... وتظهر جثث بعض القتلى من اعداء نارام سين تحت أقدامه وقد اخترقت حناجرها سهامه، كما يظهر جندي من اللولبيين وهو يمد يده إليه ضارعاً وطالباً الرحمة والابقاء على حياته. وتطل على هذا المنظر من خلفه جبال زاغروس [٤٠]. كما توسع شمالاً ووصل إلى هضاب ارمينيا.أما في الجنوب فقد وصل بحملاته إلى ماغان [٤١]. (موطن حجارة الديوريت) وميلوخا [٤٢] في الجزيرة العربية. وغزا آسيـا الصغـرى واستطـاع أن يـؤكـد سلطانه على سورية الشمالية. واتخذ نارام سين بعد هذه الانتصارات والفتوحات لقب «ملك

(٣٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٣٨.

(٣٩) المصدر ذاته ص١٤٦.

(٤٠) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج١ ص١٥٥.

(٤١) عُمان الحالية.

(٤٢) جنوب الجزيرة العربية.

الانحاء الأربعة » (شاركبرات أربعيم: سومر، أكاد، سوبارتو، عمورو) و« ملك العالم » (شار كبشاتيم)[٤٣].

إنهيار الدولة الأكادية: إن زيادة الأعباء، وحيازة أراضي المشاعيين، وحروب الفتح المنهكة، اثارت استياء الشعب. وتتحدث المصادر عن قيام انتفاضتين في نهاية حكم سارغون[٤٤]. كما حدث تمرد آخر في عهد نارام سين تزعمه النبلاء[٤٥]. وإذا كان نارام سين قد تمكن من إخماد الاضطرابات في حكمه، فإن خلفاءه لم ينجحوا في الحفاظ على وحدة « مملكة الأنحاء الأربعة »[٤٦] التي وجدت نفسها تسير في طريق التفكك والانهيار بسبب الاضطرابات السياسية الداخلية والتهديد الخارجي. ففي حوالي عام ٢١٥٠ قبل الميلاد سقطت الدولة الأكادية على يد محاربين جبليين أتوا من الشرق، من جبال زاغروس، هم الغوتيون (تنانين الجبال كما سماهم الميزوبوتاميون). لقد سحق الغوتيون مملكة أكاد، واجتاحوا مدنها (وخاصة مدن الشمال)، وفرضوا على السكان جزية ثقيلة[٤٧]. وتسمى ملوكهم باسم« ملوك الغوتيين وأطراف المعمورة الاربعة »[٤٨]. أما مدن الجنوب السومرية فقد كان تأثير الغزو الغوتي فيها أقل وطأة منه في الشمال. إذ اكتفى الغوتيون بالجزية يتسلمونها تاركين تسيير دفة الأمور للحكام المحليين[٤٩].

اتخذ الغوتيون أرانجا، مكان كركوك الحالية، في الشمال مركزاً لحكمهم[٥٠]. وأثناء وجود الغوتيين في العراق، اقتبسوا اصول الحضارة السومرية ـ الأكادية، وتكلموا اللغة الأكادية وكتبوا بها أخبارهم[٥١]. وقد ذكر ثبت الملوك واحداً وعشرين ملكاً غوتياً حكمواجميعاً (٩١) سنة، اشتهر منهم (لازيراب) وكان آخرهم (تريقان) الذي في زمنه استقل أمير اوروك السومري المدعو (اتوخيفال) وضم إليه كثيراً من المدن السومرية، ثم حارب تريقان وتغلب عليه وطرد الغوتيين من العراق[٥٢].

(٤٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٤٦.
(٤٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٠٥.
(٤٥) نفس المصدر والصفحة.
(٤٦) نفس المصدر والصفحة.
(٤٧) المصدر ذاته.
(٤٨) الصفدي، هشام (الدكتور): المصدر السابق ص٨٦.
(٤٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٤٩.
(٥٠) المصدر ذاته. ود فرج بصمه جي: المصدر السابق ص١٩.
(٥١) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص١٩.
(٥٢) نفس المصدر والصفحة.

الازدهار الثاني لمدينة لاغاش في ظل الأسرة الثانية: رزحت بلاد ما بين النهرين تحت حكم الغوتيين قرابة قرن من الزمان (٢١٥٠ - ٢٠٦١ ق.م). وقد عاصرت الأسرة الثانية في لاغاش اخريات الاحتلال الغوتي لبلاد الرافدين، واستطاعت أن تصون الحضارة من الانهيار. وكان أبرز حكامها غـوديا الذي حكم مدينة لاغاش في النصف الثاني من القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد تحت سيادة الغوتيين. وتميز عصرها بازدهار حضاري لمدينة لاغاش تمثل بامتداد نشاطها التجاري إلى سورية وعيلام وجنوب شرقي شبه الجزيرة العربية التي ورّدت لمدينة لاغاش الاخشاب والأحجار الصلبة واللازورد والنحاس (٥٣). واستقدم الفنيون الصناعيون من عيلام وسوزا لاستخدامهم في إعادة بناء المعبد الكبير (إي - نيننو) (٥٤). وقد انتقلت إلينا من عصره أكمل نماذج الأدب السومري وأطولها والاسطوانات المعروفة بـ « اسطوانات غـوديا المكتوبة » (٥٥).

وعلى أية حال فإن حكم غوديا يمثل مرحلة من انعاش الحيوية السومرية كأثر لانهيار النفوذ والقوة الأكادية السامية في الشمال. وفي نفس الوقت الذي ظل فيه حاكم مدينة لاغاش مخلصاً للغوتيين ونال منهم دعماً وامتيازات، فإن بعض المدن الأخرى الخاضعة للغوتيين أبدت مقاومة للمحتلين. وقد تزعم النضال ضد الغوتيين في نهاية القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد مدينتا اور واوروك (٥٦).

الانبعاث السومري وسيادة اور في ظل سلالتها الثالثة ٢١١٨ - ٢٠٠٧ ق.م: أعاد ملوك اور توحيد بلاد ما بين النهرين تحت سلطتهم، واطلقوا على أنفسهم لقب « ملوك سومر وأكاد »، وفيما بعد « ملوك الأنحاء الأربعة » وذلك بعد أن تم لهم اخضاع الوركاء ولاغاش ولارسا ونيبور وجانب من أكاد (٥٧). واشتهر من ملوك هذه السلالة: اورنامو وشولجي Shoulgi. فقد اخضع اورنامو بلاد سومر وقسماً من أكاد، وقام بحفر القنوات بقصد التقدم الزراعي وتيسير سبل المواصلات النهرية، وأعاد بناء معبد نانار، إله القمر، وزقورته، وعمل على جمع القوانين السابقة وتطويرها ومن ثم اصدارها باللغة السومرية. ولهذا الملك تماثيل من النحاس تمثله واقفاً وعلى رأسه سلة فيها التراب ليضع الحجر الاساسي

---

(٥٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٥٤) المصدر ذاته صفحة ١٥٤.

(٥٥) نفس المصدر والصفحة.

(٥٦) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٠٧.

(٥٧) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص١٦٣.

للمباني التي شيدها [٥٨].

خلف غوديا شولجي ابنه الذي حكم حوالي خمسين سنة، نجح خلالها في اخضاع بلاد آشور (على الوادي الاوسط لدجلة)، واحرز عدة انصارات على عيلام وارغمها على وضع مواردها من المحاجر والمناجم والغابات تحت رحمة اطماعه [٥٩]. كما قام بحملات عديدة من الغرب على سورية [٦٠]. وله كذلك تماثيل عديدة من النحاس. ووجد له في اور مرقد ضخم مبني بالآجرّ يتكون من عدة أقبية [٦١].

وفي عهد سلالة أور الثالثة، واصلت الزراعة المروية والحرفة تطورهما. فتعززت الملكية الخاصة، وأخذت الادوات البرونزية تحل محل الادوات الحجرية والنحاسية السابقة ـ وتطور الربا نتيجة نمو الانتاج البضاعي. وأدى توطد الاقتصاد الملكي والملكية العقارية للملك إلى المركزة السياسية للبلاد. فألّه شولجي وابنه من بعده. وتفاقمت التناقضات الاجتماعية والسياسية، وازدادت الفروق في الثروة بين الناس. ونمت عبودية الدين. وأخذ الفقراء يفقدون حريتهم جماعات ووحداناً، والآباء يبيعون أولادهم أو يقدمونهم رهينة مقابل الديون [٦٢].

ولكن التوسع غير المحدود للاقتصاد الملكي، وخراب جمهور غفير من المشاعيين، وتحول الشغيلة الاحرار إلى «غوروشي» محرومين من جميع الحقوق، وتطور الربا وعبودية الدين، قد أفضت في نهاية المطاف إلى حالة اجتماعية تفاقمت فيها التناقضات وتوترت العلاقات بين طبقات المجتمع مما اضعف الدولة ومهد لسقوطها لاحقاً.

وعلى الصعيد الخارجي، تعرضت مملكة اور لهجوم القبائل العمورية السامية الغربية القادمة من طريق ماري (تل الحريري) على الفرات الاوسط. واستقلت بلاد آشور وكانت الضربة القاضية من العيلاميين. إذ زحفوا بجيوشهم الجرارة إلى اور في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، وفتحوها وخربوها تخريباً كاملاً وأسروا ملكها [٦٣].

(٥٨) بصمه جي، فرج: المصدر ص ٢١.
(٥٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ١٦٨.
(٦٠) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٠٨.
(٦١) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٢١.
(٦٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ود. نعيم فرح: المصدر السابق ص ١٠٨.
(٦٣) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٢١ ـ ٢٢.

وبسقوط سلالة اور الثالثة تنتهي إلى الابد سلطة السومريين السياسية.وقد اطلق بعض المؤرخين على فترة حكم تلك السلالة اسم « عصر الانبعاث السومري » وذلك لما شهدته بلاد الرافدين من ازدهار اقتصادي ونهضة فنية وأدبية [٦٤].

(٦٤) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٠٨.

الفصل الواحد والعشرون

الدولة البابلية القديمة

نشأتها وتوسعها: بعد سقوط سلالة أور الثالثة: استقر العموريون (الساميون الغربيون) في ميزوپوتاميا. وأنشأوا دويلات عديدة برز من بينها مملكتان قويتان هما: ايسن ولارسا.

أسس أسرة ايسن «اشبي ايرا» وحكمت حوالي (٢٢٥) عاماً. واشتهر «لبيت عشتار» آخر افرادها بوضع شريعة عرفت باسمه والتي سبقت قوانين حورابي بقرن ونصف. وأما مؤسس أسرة لارسا فهو «نابلانو» وحكمت (٢٦٠) عاماً. واصطنع حكام هاتين الدولتين لقب «ملك سومر وأكاد» واتخذوا الصفات الإلهية. وقد نشب صراع بين هذه الدول من أجل السيادة على ميزوپوتاميا السفلى والوسطى. ولكن أياً منها لم ينجح في تحقيق أهدافه. وأخيراً تنهض بابل التي سيقيض لها في المستقبل أن توحد بلاد الرافدين وأن تكون موطن حضارة غنية قوية كادت أن تكون هي خالقة علم الفلك، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب، وانشأت علم اللغة، وأعدت أول كتب القانون الكبرى، وعلمت اليونان مبادىء الحساب وعلم الطبيعة والفلسفة، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم[1].

نشأت بابل (باب ايلو أي بوابة الإله) كمدينة في أخريات عصر فجر السلالات. وحتى القرن التاسع عشر قبل الميلاد لم تلعب بابل دوراً سياسياً مستقلاً ولم يكن لها وزن كبير. ولكن فيما بعد نمت قوتها الاقتصادية والسياسية على حساب انحطاط وتدهور المدن

(١) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٢ ص ١٨٧.

المجاورة بسبب منازعاتها مع بعضها أو لانشغالها في صد أطماع الآشوريين التوسعية من الشمال والعيلاميين من الشرق. وتزايد عدد سكانها نتيجة تدفق العموريين القادمين من الغرب من (سورية).

تقع بابل على ضفة الفرات اليسرى في منطقة اقتراب الرافدين وعلى رأس السهل الفيضي الذي تتخلله شبكة من القنوات وهي بهذا بمنأى عن هجمات قبائل الصحراء المفاجئة. ويزيد في أهمية هذا الموقع الجغرافي قيامها عند تقاطع الطرق التجارية في الشرق الأوسط فهي على الطريق إلى شمال سورية وإلى البحر الأبيض المتوسط وإلى مصر، وهي على الطريق كذلك إلى كبادوسيا عن طريق بوابات كيليكيا في جبال طوروس، وهي أيضاً على الطريق التجاري الذي يتجه إلى الشرق عن طريق بوابات زاغروس. وهكذا كان موقع بابل في مركز التجارة العالمية إذ ذاك، وعلى الطريق المباشر لأي غزو يستهدف السهول الجنوبية في الوقت نفسه [٢].

لقد أفاد ملوك بابل من مزايا موقع مدينتهم الممتاز واستوعبوا جميع المنجزات الحضارية التي تحققت في بلاد ما بين النهرين في سابق عصرهم. فتحولت بابل من مدينة صغيرة ليست ذات شأن، إلى مركز كبير تجاري وسياسي وثقافي، وتمكنت من أن تحافظ على دورها القيادي حتى العصر الهيللنيستي على الرغم من جميع الكوارث والمحن التي أصابتها.

أسس سومو ـ آبو العموري الدولة البابلية في مطلع القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وبدأ بحركة توحيد بلاد ما بين النهرين، وواصل خلفاؤه طريق الكفاح من بعده ولم تتحقق وحدة البلاد إلا في عهد الملك حمورابي العظيم (أمور أبي وتعني أبا العموريين).

تولى حمورابي (١٧٩٣ - ١٧٥٠ ق.م) عرش بابل في ظروف قاسية. فالعيلاميون يهددونها من الشرق، والأسرات الأخرى لم يقض على نفوذها. وكان حمورابي سياسياً محنكاً. عمل على تقوية جيشه وتدريبه، وعقد تحالفاً مع دولة ماري لتأمين حدوده الشمالية. ثم هاجم مدينتي أوروك وإيسن وانتزعها من سلطة ملك لارسا العيلامي. وبعد قتال عنيف مع العيلاميين، استولى حمورابي على مدينة لارسا ولاحق فلول العيلاميين حتى حدود بلادهم، ووحد الجنوب بأكمله.

وخلال كفاح حمورابي ضد العيلاميين، لم ينجده حليفه زيمريليم ملك ماري وذلك خشية أن تصبح بابل دولة قوية جداً. فبعد طرد العيلاميين من جنوب البلاد، قطع علاقاته

(٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص١٩٠.

مع ماري ثم هاجمها واحتلها ودمر القصر الملكي فيها [٣]. ثم واصل تقدمه في الشمال وأخضع مملكة آشور الصغيرة. وهكذا استطاع حمورابي خلال عشر سنوات أن يوحد بلاد ما بين النهرين مع قسم من سورية (أراضي ماري) في دولة مركزية واحدة عاصمتها مدينة بابل [٤].

وكانت تلك الوحدة حدثاً هاماً تغنى به شعراء العصر وكتابه ومجّدوا حمورابي البطل وبابل الباسلة [٥]. وبعد ذلك تفرغ حمورابي لتنظيم الإدارة والاقتصاد والمجتمع. وكانت دولة حمورابي استبدادية ممركزة على غرار الدولة المصرية التي تشكلت في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. وانشئت ايديولوجية جديدة لتبرير الدولة الاستبدادية، فأصبح مردوخ الإله الأعظم بعد أن كان في السابق إله مدينة بابل.

سقوط الامبراطورية البابلية: اضطربت أوضاع الامبراطورية، وضعفت السلطة المركزية في عهد خلفاء حمورابي، وتعرض النظام الاجتماعي لأزمات نتيجة التناقضات بين الأحرار والعبيد، والخلافات القائمة بين مختلف فئات الأحرار.

وفي هذه الفترة التاريخية، هاجم الدولة البابلية ساميو مناطق سومر البحرية، وحيثيو الأناضول، وكاشيو زاغروس. فقد استولت القبائل البحرية السامية، المقيمة حول الخليج العربي، بمساعدة بقايا السومريين على جنوب الامبراطورية وشكلت دولة القطر البحري المستقلة في شمال الخليج. وأسس زعيمهم «ايلوما» أسرة حاكمة عرفت بسلالة بابل الثانية [٦]. وانحدر الحيثيون من الأناضول وغزوا بابل من ناحية الشمال الغربي واجتاحوها واحتلوها فترة من الزمن ثم عادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم والكنوز [٧]. وأخيراً هاجمها مربّو الخيل الكاشيون الذين كانوا يعيشون في جبال زاغروس الوسطى إلى الشمال من

---

(٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١١٠ ود. نعيم فرح: المصدر السابق ص ١١٠.

(٤) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١١٠.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) حكمت بابل عشر أسر أو سلالات منها: سلالة بابل الأولى وعدد ملوكها احد عشر ملكاً حكموا نحو (٣٠٠) سنة (١٨٣٠ - ١٥٣٠ ق.م) منهم حمورابي الملك السادس. وتسمى سلالة القطر البحري الأولى أيضاً بسلالة بابل الثانية وعدد ملوكها أحد عشر ملكاً حكموا (٣٦٨) سنة في بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد / بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ١٧٨ /.

(٧) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

عيلام بقيادة زعيمهم « غنداش » فاحتلوا وسط الامبراطورية وشمالها ، واتخذوا بابل عاصمة لهم [٨] .

أنشأ « غنداش أسرة حاكمة [٩] في بابل ، وأخضع خلفاؤه الجزء الجنوبي من العراق [١٠] . وهكذا سيطر لكاشيون على معظم بلاد الرافدين ، معتمدين على كتابتهم الخاصة ، وعلى حلفاء لهم من بين كهنة بابل ، وخاصة كهنة المدينة المقدسة نيبور [١١] ، ودامت سيطرتهم إلى حوالي عام ١١٦٥ قبل الميلاد [١٢] .

أطلق الملوك الكاشيون على أنفسهم ألقاب الملك حمورابي (ملك بابل ، ملك سومر وأكاد ، ملك الانحاء الأربعة)[١٣] . ومن أشهرهم « غنداش » ، وآغوم الثاني الذي أعاد تماثيل الإله مردوخ وزوجته الإلهة سربانيت من بلاد الحيثيين ، كما مد نفوذه إلى بلاد آشور وبلاد الغوتيين [١٤] .

ويمكن تقسيم العهد الكاشي في بلاد ما بين النهرين إلى فترتين . ففي إبان الفترة الأولى التي تمتد إلى الربع الأخير من القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، واجهت البلاد تخريباً هائلاً وأضراراً اقتصادية بالغة . فشرعت الحكومة بتنفيذ أعمال كبرى لإصلاح شبكة الري ، وإعادة بناء السدود وتنظيم تخزين المياه [١٥] . وفي نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، تبدأ الفترة الثانية وفي خلالها تطورت الحياة الاقتصادية تطوراً كبيراً [١٦] .

لقد عاش الكاشيون في أول الأمر على شكل عشائر ، ثم انتقلوا بصورة سريعة إلى مزاولة الزراعة المستقرة بعد استيلائهم على أراض واسعة أخليت من سكانها بسبب الغارات

---

(٨) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق .

(٩) يقال للسلالة الكاشية أيضاً سلالة بابل الثالثة ، وعدد ملوكها ٣٦ ملكاً حكموا زهاء ٥٧٦ سنة إلا أن حكمهم في جنوبي العراق دام ٣٧٠ سنة (١٥٣٠ - ١١٦٥ ق.م)/بصمه جي ، فرج : المصدر السابق ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(١٠) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٢٢ .

(١١) نفس المصدر والصفحة .

(١٢) المصدر ذاته .

(١٣) فرح ، نعيم : المصدر السابق ص ١١١ .

(١٤) نفس المصدر والصفحة .

(١٥) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٢٢ .

(١٦) المصدر ذاته .

والحروب والحرائق والتخريب. واقتبسوا من البابليين طرائق الزراعة، بل تبنوا معظم التقاليد الحضارية السائدة سابقاً في بلاد ما بين النهرين، إذ عبدوا آلهتها إلى جانب آلهتهم، وتعلموا وكتبوا بلغتها، وبنوا المعابد والزقورات على الطراز السائد، وعاشوا بصورة عامة في بابل كما لو كانوا بابليين منذ البداية [١٧].

وبالمقابل فقد ادخل الكاشيون إلى بلاد ما بين النهرين تربية الخيول، واستخدموها في جر العربات الحربية ومركبات النقل، واستعملوا الحجارة المنقوشة (الكودورو - لوحات الحدود) لتعيين حدود الأراضي الزراعية الخاصة بكل شخص [١٨].

واعتباراً من أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تطور الاقتصاد، واقيمت علاقات تجارية منتظمة مع مصر وغيرها من البلدان، واصلحت طرق القوافل، واتخذت التدابير لتأمين سلامتها من اللصوص وقطاع الطرق [١٩] وفي نفس الوقت، أعيد العمل في بناء المعابد [٢٠].

وعلى الصعيد الاجتماعي، تفسخت المشاعيات الكاشية، وتعززت الملكية الخاصة كما يشهد على ذلك الكودورو - لوحات الحدود، وامعن المرابون في نهب السكان دون رحمة [٢١]. وتصاعد استياء الفقراء والمحرومين. ففي عام ١٣٤٥ قبل الميلاد، ثار الناس البسطاء من الكاشيين على الملك كرانيراش وقتلوه وعينوا مكانه رجلاً من أصل غامض [٢٢]. وعندما لم يتمكن كبار الموظفين والكهنة من القضاء على المتمردين بوسائلهم الخاصة، طلبوا مساعدة ملك الآشوريين الذي أغرق الثورة في بحر من الدماء، وأعاد تثبيت الأسرة الكاشية [٢٣]. لقد اضعفت هذه التناقضات الداخلية السلطة الملكية.

ففي منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد، غزا الآشوريون بقيادة «توكولتي نينورتا» الامبراطورية الكاشية، وسحقوا جيوشها، واجتاحوا بلاد بابل وسلبوا العاصمة. وعين

---

(١٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١١٢.
(١٨) نفس المصدر والصفحة.
(١٩) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٢٢.
(٢٠) المصدر ذاته.
(٢١) المصدر ذاته ص ١٢٣.
(٢٢) المصدر ذاته.
(٢٣) المصدر ذاته.

توكولتي حاكماً من قبله على بابـل (٢٤). ولكـن البـابليين استعـادوا استقلالهم بعـد قليـل مستفيدين من الفتنة التي نشبت في آشور وقتل فيها الملك وبدأ عهد اضطرابات وانحطاط وركود (٢٥).

وحوالي أواسط القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تعرضت بلاد بابل لغزو العيلاميين. ففي عام ١١٦٥ هجم الملك العيلامي «شوترك ناخونتي» على بابل، وسقطت الامبراطورية المخرّبة المنهكة تحت ضربات العيلاميين، وذبح الغزاة ملكها «زباباشوم ادن» وفتحوا المدن وخربوها ونهبوها وعادوا إلى عيلام محملين بـالاسلاب والغنـائـم. وتـذكـر النصوص أن «شوترك ناخونتي» عاد إلى بلاده وهو يزهو بأنه استولى على أكثر من (٨٠٠) قرية وبأنه حمل من اشنونا تمثال «ايشاج» المدينة وتمثال «مانشتوسو» كما حمل من سيبار «لوحة نصر نارام سين» و «نصب شريعة حمورابي» وبالقرب من كيش مسلة «مانشتوسو» وتمثالين للملك ثم لوحة «مليشباك»، ثم منح بـابـل ابنـه «كـوتير ناخونتي» الذي صحبه في حملته (٢٦). ويبدو أن الحكم العيلامي في بلاد بابل لم يعمر طويلاً. فقد تمكن «باشي» أحد امراء مدينة ايسن من الاستئثار بالسلطة في بابل وتأسيس الأسرة البابلية الرابعة (٢٧) التي طردت العيلاميين ووحدت أكثر المدن تحت امرتها (٢٨). ومنذ ذلك الوقت إلى سقوط الامبراطورية الآشورية مرت بابل بفترة طويلة من الانحطاط السياسي (٢٩).

---

(٢٤) المصدر ذاته.
(٢٥) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٣.
(٢٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٢٣.
(٢٧) تسمى سلالة باشي أيضاً بسلالة بابل الرابعة وعدد ملوكها احد عشر ملكاً حكموا زهاء ١٣٢ سنة / بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ١٨٠ / وقد تعاقب الملوك والأمراء الذين كانوا ينتمون إلى سلالات مختلفة على حكم بابل تارة تحت نفوذ ملوك آشور وتارة أخرى شبه مستقلين.
(٢٨) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٠.
(٢٩) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٢٣.

الفصل الثاني والعشرون

الاشوريون

الآشوريون من الأقوام العربية السامية، قدموا من سورية إلى شمال العراق واستقروا في منطقة حوض دجلة الأوسط حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد. وتتصف هذه المنطقة بطابعها الجبلي وكثرة وديانها النهرية ونمو الغابات وأشجار الفاكهة والمراعي الطبيعية. وهي غنية بأحجارها ومعادنها، خصبة في غلالها وثمرها.

وتشكل جبال كردستان من الشمال وزاغروس من الشرق حدودها الطبيعية. أما من الجنوب والغرب فالحدود مفتوحة نحو بلاد الهلال الخصيب. وقد أثر الطابع الجبلي لهذه المنطقة في اقتصاد آشور وتاريخها الاجتماعي والسياسي.

وقد عثر علماء الآثار في هذه المنطقة على مخلفات إنسان العصر الحجري القديم كأدوات الصيد وقطع الاشجار وغيرها من الآلات الجارحة يرقى تاريخها إلى ما قبل مائة ألف سنة. كما عثروا على ثلاثة من الهياكل البشرية لانسان «نياندرتال» يرجع تاريخ اصغرها إلى / ٤٦٠٠٠ /عام وفي العصر الحجري الحديث، نشأت في المنطقة ذاتها الحضارات الأولى في بلاد الرافدين كحضارة تل حسونة، وحضارة تل جرمو، وحضارة تل حلف التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد؛ ويرجح أنه نزحت من هذه المنطقة جماعات من سكانها إلى جنوبي العراق عندما تراجعت مياه البحر وأصبح السهل الغريني الخصيب صالحاً لحياة الانسان. وقد أطلق بعض المؤرخين على هذه الجماعات التي رحلت من الشمال إلى الجنوب اسم «اسلاف السومريين».

إذن لم يحل الآشوريون في أرض خالية ليس فيها بذور حضارية، بل سبقهم إلى سكن هذه

البقاع أقوام أخرى عرفنا منهم السوبارتو (السوباريون)، وليس السومريون إلا فريقاً ينتمي إلى نفس الأصل الذي ينتمي إليه السوباريون، وكانوا يعيشون في الشمال مع السوباريين قبل ارتحالهم إلى الجنوب وإستقرارهم فيه.

عاش الآشوريون في منطقة حوض دجلة الأوسط خلال الألف الثالث قبل الميلاد على شكل مشاعيات جبلية، تعتمد في حياتها على الصيد وتربية المواشي والزراعة[1]. وانشأوا عدداً من المدن كان أكبرها «آشور».

تقع مدينة آشور على الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى الأعلى دون ملتقاه بالزاب الأعلى: ففي شمالها سهل منخفض غريني كونته مياه دجلة، وتنحدر المدينة إلى الجنوب. أما من الغرب فهضاب صخرية، وأما إلى الشرق فسهل يعرف بسهل «مخمور». وسميت المدينة باسم آشور نسبة إلى القبيلة وإلهها آشور، كما سميت بلادهم ببلاد آشور. وتبعد آشور مسافة (٣٥٠) كيلومتراً إلى الشمال من بابل. واصبحت عاصمة للبلاد في عهد الدولة الآشورية القديمة. وقد نقبت في موقعها بعثة متحف برلين الالمانية خلال خمس عشرة سنة من بداية القرن العشرين وكشفت فيها عن معابدها وقصورها وقبور ملوكها وسائر معالمها ووجدت آثاراً كثيرة ترجع إلى العهود السومرية والأكادية فالآشورية[2].

مر الآشوريون بمرحلة مضطربة تقارب ألف عام قبل أن يؤسسوا دولتهم الموحدة الخاصة بهم. وفي البداية نشأت دويلات ـ مدن يحكمها أمراء محليون. وقد خضعت دويلات ـ المدن الآشورية للسيطرة السومرية ثم الأكادية وأصبح أمراؤها اتباعاً للملوك السومريين والأكاديين[3]. ثم استقل بعض امرائهم في العهد الغوتي وخضعوا ثانية لملوك سلالة اور الثالثة[4]. وفيما بعد ظهر فيهم ملوك أقوياء أصبحت مملكة آشور القديمة في زمنهم دولة مستقلة ذات كيان إلى أن ظهر حمورابي ملك بابل وقضى عليها[5].

ويسجل الباحثون لتاريخ آشور القديمة ثلاثة عصور متميزة هي: الدولة الآشورية القديمة أو (العهد الآشوري القديم) والدولة الآشورية الوسطى أو (العهد الآشوري الوسيط) والدولة الآشورية الحديثة أو (العهد الآشوري الحديث). وقسموا الدولة الحديثة إلى

(١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢٠٨.

(٢) بصمه جي، فرج (الدكتور): المصدر السابق ص ٣٢.

(٣) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤٩.

(٤) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣١.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

امبراطوريتين هما: الامبراطورية الآشورية الأولى والامبراطورية الآشورية الثانية.

الدولة الآشورية القديمة: وتبدأ من فجر التاريخ الآشوري إلى نهاية حكم سلالة بابل الأولى، ففي أثناء الألف الثالث قبل الميلاد، لم يكن للآشوريين كيان سياسي. وفي العهد الغوتي، استقل بعض أمرائهم.وقد وردت أسماء عدد منهم في الأخبار الآشورية القديمة من ذلك ما ذكر عن الأمير « كيكيا » أنه شيد أسوار مدينة آشور. وان الأمير « اوشبيا » بنى في آشور معبداً للإله آشور. وكلا الاسمين من الأسماء السوبرية[٦]. والسوبريون هم سكنة شمال شرقي بلاد الرافدين اختلط بهم الآشوريون وبغيرهم من القبائل الآسية والآرية فتشكل الشعب الآشوري الذي تكلم اللغة الآشورية السامية التي استوعبت مفردات من لغات مختلفة وخاصة من السوبارية والسومرية والأكادية[٧]. وبعد سقوط سلالة اور في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، أخذ الآشوريون بالتقدم نحو الاستقلال في مملكة خاصة بهم.

أسس الدولة الآشورية القديمة الملك بوزور آشور الاول حوالي سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، كما أسس الأسرة الآشورية الأولى التي استطاعت ان تحكم مستقلة. وكان بوزور حاكماً على مدينة آشور، ثم وسع حدود دويلته وضم إليها بعض المدن المجاورة. وفي زمن خليفته « ايلو شوما » الذي كان معاصراً لمؤسس سلالة بابل سوموآبو، مد نفوذ دولته نحو الجنوب. وبلغت مملكة آشور القديمة شأواً عظيماً من النفوذ في زمن « شمش حدد الأول » الذي فتح مدناً كثيرة في أواسط العراق وماري على الفرات الأوسط، وبنى بعض المعابد ونظم الحياة الاقتصادية. وفي أواخر عهده ظهر حمورابي وقضى على استقلال آشور وانتهى بذلك حكم الاسرة الآشورية الأولى.

خضع الآشوريون للحكم البابلي طوال عهد الدولة البابلية القديمة. وكان ملوكهم يحكمون كولاة للبابليين[٨]. وعندما سقطت بابل في أيدي الحيثيين في النصف الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد، استقل الآشوريون وأسس ملكهم « شمش حدد الثاني » الأسرة الآشورية الثانية. وفي زمنه امتدت حدود الدولة الآشورية غرباً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، ودخلت ارمينيا في الشمال ضمن نفوذها. وحارب الآشوريون الكاشيين

---

(٦) المصدر ذاته ص ٣٢.

(٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤٩.

(٨) المصدر ذاته ص ١٥٠.

الذين حكموا بابل بعد انسحاب الحيثيين. ثم ضعفت الدولة وخضعت للميتانيين[٩] ما بين (١٤٥٠ - ١٣٧٥ ق.م).

الدولة الآشورية الوسطى: امتد عهدها بين (١٣٧٥ - ٩١٣ ق.م) وكان يعاصرها في مصر: الدولة الحديثة، وفي الاناضول: دولة الحيثيين. وفي جنوب الرافدين: دولة الكاشيين، وفي شمال ما بين النهرين: مملكة الحوريين.

وعندما ضعف الحوريون وانقسموا إلى دولتين (الحورية والميتانية)، قام «أريبا حدد الأول الآشوري» بثورة ضد الميتانيين وحرر بلاده من حكمهم، وأسس الأسرة الآشورية الثالثة التي حكمت حتى نهاية الدولة الوسطى[١٠]. وبعد وفاة «اريبا» استلم الحكم ابنه «آشور اوباليط» فعقد اتفاقاً مع الحيثيين وهاجم الميتانيين وقضى على دولتهم حوالي عام ١٣٧٠ قبل الميلاد[١١]. وأصبحت المهمة السياسية والعسكرية لخلفاء آشور اوباليط تتركز دائماً على غزو وضم البلاد التي كانت خاضعة للميتانيين والكاشيين[١٢].

وفي هذه الحقبة التاريخية، كان الحيثيون مشغولين بالبلاد التي تتاخمهم مباشرة. وكانت مصر تعيش أزمة سياسية حادة خارجية وداخلية[١٣]. فاستغل ملوك آشور تلك الظروف، وحاربوا الكاشيين وانتصروا عليهم في بابل وأخضعوهم لنفوذهم. وفي زمن شلمنصّر الأول اتسع نفوذ الدولة الآشورية شرقاً لاسيما في المنطقة الجبلية فضلاً عن امتدادها إلى الجنوب وإلى الغرب حتى كركميش على الفرات (انتصر على تحالف الحيثيين مع الآراميين). واشتهر شلمنصّر ببنائه عاصمة جديدة «كلخ»[١٤]. (نمرود الحالية). وحكم بعده ابنه توكولتي نينورتا الذي حارب الكاشيين وفتح بابل ونقل تمثال الإله مردوخ إلى آشور، وهزم الحيثيين واحتل الأراضي الواقعة إلى الشمال من بلاده حتى بحيرة وان في هضبة ارمينيا. كما حارب

---

(٩) الميتانيون من الأقوام الحورية الآسية، ظهروا في الألف الثالث قبل الميلاد في سوبارتو. وحوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، انقسم الحوريون على أنفسهم وشكلوا مملكتين منفصلتين هما: مملكة الحوريين التي امتدت بين زاغروس والخابور، ومملكة الميتانيين التي امتدت بين الخابور والفرات. وفي عام ١٤٥٠ ق.م أخضع الميتانيون الآشوريين.

(١٠) المصدر ذاته ص ١٥١.

(١١) المصدر ذاته.

(١٢) المصدر ذاته.

(١٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية ص ١٨٤ - ١٨٦.

(١٤) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٣.

العيلاميين وهزمهم واوقف تقدمهم[١٥]. وسمى نفسه ملك الجميع وملك الأنحاء الأربعة وملك سومر وأكاد[١٦]..

ورغبة من نينورتا في تقليص نفوذ الأشراف السياسي، نقل العاصمة إلى مدينة جديدة اضفى عليها اسمه هي « كار ـ توكولتي ـ نينورتا »[١٧] (تل العفر) إلى الشمال قليلاً من آشور.

ولكن هذا المجد العسكري الأول لآشور لم يدم طويلاً.*فقد سقط توكولتي نينورتا ضحية مؤامرة، وشهدت آشور بعد موته مرحلة من التدهور[١٨].

وفي نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وجدت آشور نفسها وجهاً لوجه أمام تهديد الآراميين من الغرب وخطر قبائل الاورارتو الزاحفة من مواطنها في هضبة ارمينيا باتجاه آشور من الشمال. فتصدى « تغلات فلاسّر الأول » لتلك الأخطار بعزيمة وشجاعة. حارب في جبال ارمينيا الوعرة أقوام الاورارتو (الموشكيين، والحوريين) واضطرهم إلى قبول حماية آشور وتسليم ابنائهم كرهائن وتوريد (١٢٠٠) حصان و(٢٠٠٠) رأس من الماشية كجزية[١٩]. ووصل إلى البحر الأسود شمالاً. ثم اتجه غرباً نحو آسيا الصغرى وأجبر أهل ميليديا (ملاطية في الاناضول) على دفع الجزية[٢٠].

وفي هذه الفترة التاريخية كانت موجات شعوب البحر (البلاج) تقترب من سواحل آسيا الصغرى وسورية. فوجه تغلات فلاسّر الأول هجومه إلى بابل وأخضعها[٢١]. وغزا سورية. فهاجم آرامي « أخلامو » في أرام النهرين واخترق الفرات إلى كركميش وتابع تقدمه حتى شاطىء البحر المتوسط مقابل جزيرة ارواد[٢٢]. واضطر أمراء بلاد الشام إلى دفع الجزية له[٢٣]. وخاض معارك كثيرة ضد الآراميين واجتاز الفرات (٢٨) مرة

---

(١٥) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥١.

(١٦) المصدر ذاته.

(١٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(١٨) المصدر ذاته ص ٢١٢.

(١٩) ديلابورت، ل: بلاد ما بين النهرين. ترجمة محرم كمال و د. عبد المنعم أبو بكر ص ٣٠٠.

(٢٠) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٤٧.

(٢١) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٤.

(٢٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٥ ص ٢٤٧.

(٢٣) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥١

لمطاردتهم [٢٤]. وقد تجنب في هذه المرحلة الدخول في معركة ضد صوبا أو دمشق أوبيت رحوب التي كانت تستقر فيها قوى آرامية شديدة الوطأة [٢٥] رأى من التعقل ألا يحتك بها. كما رأى ألا يحارب صور أو صيدا [٢٦].

وهكذا استطاع تغلات فلاسّر الأول إعادة امبراطورية توكـولتي نينورتا إلى الوجود بل إلى أوسع من مما كانت. وتمكن بعد سنوات خمس من ولايته العـرش أن يفخر بأنه أخضع ٤٢ شعباً بملوكهم [٢٧]. وحقق فكرة الامبراطورية الآشورية العالمية التي ظلت تتجدد المرة تلو الاخرى من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع قبل الميلاد [٢٨]. وقد انتهت إلينا من هذا الملك كتابات كثيرة كانت خير مصدر لنا لمعـرفـة تاريخ العراق القديم سياسياً وحضارياً في تلك الفترة [٢٩].

وبعد وفاة تغلات فلاسّر الأول تدهورت أحوال الدّولـة. وحـدث في القـرنين الحادي عشر والعاشر أن تحركت القبائل الارامية باتجاه الشرق، وهاجمت ممتلكات آشور وتوغلت في بلاد ما بين النهرين وخاصة في الجنوب. وكانت هذه القبائل في تصادم مستمر مع الدولة الآشورية وعقبة كأداء دون توسع الآشوريين نحو الغرب وسبباً في ضعافهم [٣٠]. وظهر الكلدانيون على المسرح السياسي لبلاد ما بين النهرين، وتقلصت آشور إلى بلادها الأصلية.

الدولة الآشورية الحديثة: امتدت قرابة ثلاثة قرون، واشتملت على أمبراطوريتين كبيرتين استغرقت كل منهما حوالي قرن ونصف.

١ ـ **الامبراطورية الآشورية الأولى ٩١١ ـ ٧٤٥ ق.م**: بعد فترة الانحطاط، تسلم الحكم في آشور ملوك أقوياء، فقضوا على الدويلات الآرامية في سورية وأزالوا خطرها، واخضعوا بابل وفتحوا المناطق الجبلية في الشمال والشرق.

---

(٢٤) المصدر ذاته.

(٢٥) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٤٧.

(٢٦) المصدر ذاته.

(٢٧) ديلا بورت، ل: المصدر السابق ص ٣٠٠.

(٢٨) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥١.

(٢٩) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٤.

(٣٠) نفس المصدر والصفحة.

وفي نهاية القرن العاشر قبل الميلاد ،انتقل الآشوريون إلى الهجوم على الأورارتو والآراميين والأقوام الجبلية في الشرق[٣١]. وقام آشور دان الثاني مؤسس الأسرة الرابعة باعادة تنظيم البلاد، وفيما بعد هجم على بلاد الرافدين التي اصبحت آرامية تماماً. وقد نجح في كثير من المعارك ولقب نفسه بـ «ملك العالم»[٣٢]. واهتم حدد نيراري الثاني بتقوية الجيش الآشوري وأخضع بعض الأقاليم المجاورة وتحالف مع بابل[٣٣]. وابتداء من زمن حكم هذا الملك أرخ الآشوريون اخبارهم بالطريقة المعروفة «اثبات اللمو» فكانت كل سنة تحمل اسم موظف كبير من موظفي الدولة ابتداء من تبوأ الملك العرش[٣٤].

وفي زمن آشور ناصر بال الثاني توطدت سيطرة الآشوريين من جديد، فأخضع الممالك الآرامية والساحل السوري حتى صور، واعاد الامبراطورية الآشورية إلى سابق مجدها. وأدخل نظام الخيالة في جيشه على نطاق واسع كما اتخذ الدبابات للهجوم على القلاع[٣٥]. وسخّر أسرى حروبه في تجديد بناء «كلخ». وبنى له فيها قصراً فخماً وزينه بألوح كبيرة من الرخام نقشت نقشاً بارزاً بمناظر مختلفة من صيده وحروبه مع الامراء الذين أخضعهم وجاؤوه حاملين الهدايا والجزية[٣٦]. وهكذا وضع آشور ناصر بال الثاني الأسس المستقبلية لقوة آشور العسكرية[٣٧].

ورث شلمنصّر الثالث عن أبيه آشور ناصر بال امبراطورية شاسعة، ثم أضاف إليها ممتلكات جديدة. وقضى حكمه الذي دام خمسة وثلاثين عاماً في سلسلة من الحملات الحربية دوّن تفاصيلها على مسلة كبيرة من حجر أسود وعلى لوح كبير من الرخام. وتشير حولياته إلى أنه غزا بلاد عمورو (سورية) وعبر الفرات إلى كركميش حيث استلم الجزية من ملك الحيثيين. وغزا كيليكيا والأناضول. وانتصر في موقعة قرقر الشهيرة على العاصي عام ٨٥٣ قبل الميلاد على أحلاف الآراميين واليهود، وتلقى الجزية من مدن الساحل السوري الفينيقية. وهكذا ضم بلاد شمال عمورو إلى امبراطوريته. ولكنه لم ينجح في ضم جنوب سورية حيث اصطدم بحلف أقامه الملوك السوريون بزعامة ملك دمشق. كما حارب في هضبة إيران

---

(٣١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٢

(٣٢) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥٢.

(٣٣) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٥.

(٣٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٠.

(٣٥) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٥.

(٣٦) المصدر ذاته.

(٣٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٢.

الشمالية، وهاجم القبائل العربية في صحراء شبه الجزيرة[٣٨].

سبقت الإشارة إلى أن شلمنصّر الثالث دوّن أخبار حروبه على مسلة تعرف باسم «المسلة السوداء» وهي اليوم محفوظة في المتحف البريطاني. وهناك غير هذه المسلة نصوص أخرى نقش بعضها على البوابات البرونزية في «بلادات» أو على لوحات طينية عثر عليها المنقبون في آشور أو على تماثيل ثيران عثر عليها في «كالح» أو على تمثال من البازلت أو قطع من الرخام أو ألواح من الحجر[٢٩]. وبعض هذه النصوص مكرر في أكثر من مصدر وإليكم نصاً متكاملاً يجمع بين هذه المصادر جميعاً:

أنا شلمنصّر، الملك الشرعي، ملك العالم، الملك بغير منافس، التنين الأعظم، القوة الوحيدة في أنحاء المعمورة الأربعة، سيد الأمراء جميعاً، الذي حطم أعداءه كأنما هم من الأواني الفخارية، الرجل القوي الذي لا يعرف الرحمة في المعارك، ابن «آشور ناصر بال» ملك العالم، ملك آشور، وحفيد «توكولتي نينورتا» ملك العالم كذلك وملك آشور، الغازي من البحر الأعلى إلى البحر الأسفل فاتح بلاد حاتي ولوهوتي وأدري ولبنان وقي وتبالي وملاطيا (مليدي) الذي زار منابع دجلة والفرات.

لقد تحركت إلى أكد (بابل) لآخذ بثأر «مردوك شوم أدين» وأوقعت الهزيمة بـ«مردوك بالاصو» أخيه الأصغر ودخلت «كوتا» و«بابل» و«بور سيبا» وقدمت القرابين من الأضاحي إلى آلهة المدن المقدسة في «أكد» ثم نزلت إلى «كلديا» وتقبلت الجزى من كل ملوكها. في ذلك الوقت منحني «آشور» الصولج والعصا اللازمين لحكم الشعب وكنت أعمل طبقاً لوحي آشور الصادق، المولى العظيم سيدي الذي يحبني ويجعل مني كاهنه الأكبر ... أنا شلمنصر الغازي من بحر بلاد «نيرى» وبحر بلاد «زاموا» القريب من آشور حتى البحر الكبير لـ«عمورو» اجتحت «حاتي» في اتساعها كله حتى أصبحت كتلال الخرائب التي خلفها الفيضان ... وهكذا نشرت إشعاع حكمي الموحي بالفزع فوق حاتي» وفي سراي إلى البحر أقمت لوحة تمثلني كالحاكم الأعلى وأقمتها بجوار لوحة الإله «خربي» ثم تابعت تقدمي إلى البحر الكبير. وغسلت أسلحتي في البحر الكبير وقدمت قرابين الاضاحي هناك لآلهتي وتقبلت الجزى من كل ملوك شاطىء البحر وأقمت لوحة تمثلني

---

(٣٨) نصمه جي. فرج: المصدر السابق ص ٣٥.

(٣٩) ابراهيم. نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

كملك وكمحارب ونقشت بها كل الأعمال التي تمت على يدي في إقليم شاطىء البحر... أقمتها على البحر[٤٠].

ورغم هذه الانتصارات الواسعة التي حققها شلمنصّر الثالث، فقد ثار عليه أكبر أبنائه وسبب فتناً داخلية واضطرابات أدت إلى ضعف الدولة وفقدانها الكثير من ممتلكاتها. وقد حدثت تلك الاضطرابات الداخلية نتيجة استياء الارستقراطية الآشورية التي ارادت وضع الأراضي المفتوحة قيد الاستثمار المنظم بدل نهبها. وساندهم في موقفهم الجنود البسطاء، اعضاء المشاعيات الذين كانوا يعانون من نقصان الأراضي. أما كبار الموظفين وقادة الجيش الذين كانوا يحصلون من الملك على حصة كبرى من الغنائم، فقد فضلوا الغزو المتكرر لنفس البلد على سياسة توطيد الفتوحات. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تدمير القوى المنتجة تدميراً كاملاً. وقد افضت هذه التناقضات إلى ثورات القصر وإضعاف السلطة الملكية[٤١]. ومن جهة أخرى فقد سددت هجمات الأورارتو ضربة قاسية إلى القوة الآشورية[٤٢].

في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، تولت سمو رامات (سميراميس في المصادر الاغريقية) الوصاية على ابنها حدد نيراري الثالث. وفي النصف الأول من القرن الثامن تفشى الطاعون في بلاد آشور وفتك بالسكان. وأخذ أمر الدولة الآشورية في التدهور والضعف، ونشبت في مدينة كالح ثورة داخلية تولى بعدها تغلات فلاسر الثالث فانقذ المملكة من الدمار وأعاد إليها مجدها وكان ذلك بدء عهد الامبراطورية الثانية[٤٣].

٢ ـ الأمبراطورية الآشورية الثانية ٧٤٥ ـ ٦١٢ ق.م: وصل تغلات فلاسّر الثالث إلى العرش بالقوة وأسس الأسرة الآشورية الخامسة.

أعاد تغلات فلاسّر تنظيم الجيش، واتبع سياسة جديدة في الاحتلال ومعاملة الشعوب المغلوبة والحكام المهزومين تابعه فيها خلفاؤه من بعده. فقد كان يهجّر الجماعات ويشرد المواطنين من بلادهم، ويعزل حكاماً ويحل غيرهم محلهم أو يقر مكانهم بعض مواليه وبعد أن ثبت دعائم الحكم في بلاد آشور، اتجه جنوباً وحارب القبائل الآرامية والكلدانية

(٤٠) المصدر ذاته ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٤١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٢.
(٤٢) المصدر ذاته.
(٤٣) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٦.

والعيلاميين[٤٤]. وضم بلاد بابل واتخذ لقب ملك بابل[٤٥]. ودحر الأورارتو وارغمهم على العودة إلى أرمينيا. ثم التفت إلى الدويلات الآرامية في سورية وفتح دمشق عام ٧٣٢ قبل الميلاد، كما فتح المدن الساحلية الفينيقية واخضع مملكتي اسرائيل ويهوذا ووصل إلى الحدود المصرية[٤٦]. ثم حارب القبائل العربية في صحراء شبه الجزيرة العربية[٤٧].

وتعدّد حولياته الأقاليم التي أخضعها والشعوب التي رضخت لحكمه والجزى التي فرضها ... ويبدو في ثنايا هذه النصوص اهتمامه الشديد بتعيين حكام من قبله على البلدان المقهورة[٤٨].

وبعد موت تغلات فلاسّر الثالث خلفه ابنه شلمنصّر الخامس الذي وجه الجيوش لقتال المتمردين على سلطة آشور في سورية وفلسطين. وأخيراً قام ضده قائد عسكري قتله واستلم الحكم باسم سارغون الثاني - شاروكين الثاني (أي الملك الحقيقي أو الصادق) وأسس الأسرة الآشورية السادسة[٤٩]. سار سارغون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م) على نهج سياسة تغلات فلاسّر الثالث واعتمد على الجيش، وتعززت في زمنه الدولة العسكرية. فقد انتصر في معركة قرقر الثانية عام ٧٢٠ قبل الميلاد على جيوش الأحلاف السورية - المصرية وأخضع مرة ثانية ممالك سورية وفلسطين للحكم الآشوري، ولحق بالجيش المصري المتراجع وهزمه عند رفح[٥٠]. وفي الشمال هزم ملك شنوكتو في طوروس ومنح حاكم ميليديا (ملاطيه) اقليم كومانو[٥١] عام ٧١٨ قبل الميلاد. وفي العام التالي ضم كركميش[٥٢].

وبعد أن أمن جانب سورية وفلسطين، وجه جميع قواته ضد اورارتو (ارارات). وفي عام ٧١٤ قبل الميلاد، سحق جيش الملك روشا وفتح مدينة «موزازير» واستولى على كميات كبيرة من الغنائم[٥٣]. ولكنه لم ينجح في أخذ تورشوپا Tourshoupa والقضاء على

(٤٤) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٦.
(٤٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٤.
(٤٦) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٦.
(٤٧) المصدر ذاته ص ٣٧.
(٤٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٦٦ - ٢٦٨.
(٤٩) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥٣.
(٥٠) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧١.
(٥١) يقع في الأناضول بآسيا الصغرى إلى الشمال من مرعش.
(٥٢) نفس المصدر والصفحة.
(٥٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٥.

اورارتو [٥٤]. وقام سارغون بوضع خط تحصينات في كومانو وخيلاكو (كيليكيا) [٥٥].

وفي عام ٧١٠ قبل الميلاد ، توجه سارغون لينهي صراعه مع مروداخ بلادان.وكان مروداخ ، من مملكة بيت ياكين في أقصى الجنوب ، قد ثار في بداية حكم سارغون ، واستولى بالتعاون مع العيلاميين على بابل وعلى أكثر المدن الجنوبية ، فحاول سارغون تأديبه إلا أنه أخفق في المرة الأولى وترك بابل تحت حكمه أكثر من عشر سنوات [٥٦].

سار سارغون على رأس جيش قوي لم يتمكن مروداخ بلادان من الصمود أمامه،.ولم تأته المساعدة من العيلاميين فهرب إلى الجنوب ، ودخل سارغون بابل عام ٧٠٩ ، ولحق بمروداخ إلى مملكة بيت ياكين وفتحها .وهكذا استعاد الآشوريون فتح بابل والجنوب واخضاعها لسيطرتهم [٥٧]. وحصّن سارغون الحدود بينه وبين عيلام ، واضطر ملك « دلمون » (جزر البحرين) إلى أن يرسل بهداياه إلى سارغون اتقاء قوته وخشية عدوانه على بلاده [٥٨].

استقر سارغون في مطلع حكمه في مدينة « آشور » ثم انتقل منها إلى « كالح » ثم إلى « نينوى » ، وفي عام ٧١٣ ق.م بدأ بتشييد عاصمته الجديدة « دور شاروكين » أي مدينة سارغون وهي خرسباد الحالية على نحو (١٢) كيلومتراً إلى الشمال من نينوى [٥٩]. وقد زين سارغون مداخل المدينة الجديدة وقصره بالتماثيل [٦٠] وألواح كبيرة من الرخام نقشت نقشاً بارزاً بمناظر مختلفة [٦١]. ولم يتمتع سارغون بعاصمته الجديدة ، فقد توفي في إحدى غزواته في الشمال بعد سنة من انتقاله إلى دورشاروكين وتولى الحكم بعده ابنه سنحاريب [٦٢].

وقد عثر في « خرسباد » على بقايا جدران قصر سارغون وعلى حولياته منقوشة على

---

(٥٤) ذاته . ومع ان غارات سارغون قد أضعفت جداً اورارتو ، فإن هذه المملكة ظلت قائمة إلى القرن السادس قبل الميلاد حين قضى عليها الميديون / نفس المصدر والصفحة /.

(٥٥) ابراهيم ، نجيب ميخائيل: المصدر السابق مع ص ٢٧٣ .

(٥٦) بصمه جي ، فرج: المصدر السابق ص ٣٧ .

(٥٧) المصدر ذاته .

(٥٨) ابراهيم ، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ص ٢٧٢ .

(٥٩) المصدر ذاته ص ٢٦٩ .

(٦٠) كالثيران المجنحة .

(٦١) بصمه جي ، فرج: المصدر السابق ص ٣٧ - ٣٨ .

(٦٢) المصدر ذاته ص ٣٨ .

ألواح حجرية. وهذه النقوش، رغم مافيها من زهو ومبالغة، تكشف عن الكثير من أعماله الحربية التي شغلت طيلة مدة حكمه [٦٣].

خلف سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م) والده سارغون. ولم يسكن دور شاروكين بل تركها إلى نينوى جاعلاً منها عاصمة مُلكه، فجدد أبنيتها وجعلها فردوس الأرض بحدائقها الغناء ومجاري المياه التي تمر بها [٦٤].

جهد خلفاء سارغون بالاندفاع فقط نحو الجنوب الغربي من أجل الاستيلاء على مصر [٦٥].

كان سنحاريب حاكماً حازماً، استعمل القوة والشدة في حروبه ضد أعدائه، وأدخل كثيراً من الاختراعات في اساليب الحرب واسلحتها [٦٦].

في مطلع حكمه، ثارت بابل بقيادة «مروداخ بلادان الثاني»، يسنده العيلاميون وبعض امراء العرب في شبه الجزيرة. فجهز سنحاريب عام ٧٠٢ قبل الميلاد حملة قوية، وتغلب على المتمردين وعيّن على بابل حاكماً موالياً للآشوريين [٦٧].

وفي عام ٧٠٠ قبل الميلاد، توجه سنحاريب إلى ساحل فينيقية لمحاربة تحالف الدويلات المؤلف من صور، ويافا وعسقلون وعقرون وأورشليم بمساندة مصر. فهزم «لولي» ملك صور، واستولى على يافا وعسقلون وعقرون، ودحر الجيش المصري في موقع جنوب عقرون [٦٨]. وحاصر اورشليم فأكره ملكها حزقيا على دفع فدية حرب ضخمة [٦٩]. ويبدو أن مرض الطاعون قد تفشى في جيش سنحاريب مما اضطره إلى العودة إلى نينوى مصحوباً بالأسرى ومحملاً بالغنائم [٧٠].

شغل سنحاريب في الأعوام التالية بحروبه في كيليكيا، وفتح المستعمرات اليونانية في آسيا

---

(٦٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٣.

(٦٤) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٨.

(٦٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٦٦) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٨.

(٦٧) نفس المصدر والصفحة.

(٦٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٧.

(٦٩) المصدر ذاته.

(٧٠) المصدر ذاته.

الصغرى الساحلية [٧١]. ثم ثارت بابل مجدداً على الحكم الآشوري، فجهز سنحاريب حملة تأديبية قوية ضد الثوار، وافتتح بابل وعين عليها أحد أولاده. وأخذ يعد العدة للقضاء على دويلات أهل البحر في أقصى الجنوب لانهم كانوا على الدوام يحرضون على الفتنة في بلاد بابل. فأمر سنحاريب بصنع السفن الحربية وجلب لذلك صناعاً ماهرين من الفينيقيين واليونان. وانحدر باسطوله لحو الجنوب عابراً الأهوار حتى وصل إلى البحر وفتح جميع دويلات الخليج [٧٢].

انتهز العيلاميون فرصة انشغال سنحاريب في الجنوب فهاجموا أواسط العراق ومنطقة بابل مما اضطره إلى التراجع فحاصر بابل وفتحها عنوة عام ٦٨٩ قبل الميلاد. وكان غضبه شديداً عليها فدمرها وأحرق قصورها ودك أسوارها وفتح مياه الفرات حتى غمرتها [٧٣].

لقد اشتهر سنحاريب إلى جانب حروبه العديدة بأعماله العمرانية. وفي أواخر حكمه عيّن ابنه أسارحدون ولياً للعهد دون أخوته الذين يكبرونه. فثار عليه أحد أولاده بمساندة رجالات الدولة وقتلوه سنة ٦٨١ [٧٤].

خلف سنحاريب ابنه أسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) في ظروف كانت الحروب الأهلية تنهش فيها جسم آشور والثورات تشتعل في كل مكان. وكان أسرحدون عند مقتل والده في جبال ارمينيا، فتقدم لحو نينوى وقضى على حركة التمرد وتسلم الحكم [٧٥].

واتّبع أسرحدون مع بابل سياسة المصالحة لارضاء أهلها وتهدئة خواطرهم. فجدد بناء ما تخرب منها زمن والده وعين ابنه الأكبر «شمش شم اوكن» حاكماً عليها. وتوجه إلى الجنوب فأخمد ثورة كلدانية في مملكة بيت ياكين، ثم غزا سورية واستولى على صيدا واضطر ملك صور أن يعلن ولاءه وتقدم حتى وصل العريش، وانكفأ إلى الشمال فدحر الاسكيذيين والسميريين وتم له اخضاعهم، وأعاد اخضاع كيليكيا والأناضول. ثم عاد إلى سورية لقمع الثورات المتجددة بتأييد من مصر فأيقن أنه لا يستطيع الاحتفاظ بسورية الجنوبية إلا إذا أخضع مصر [٧٦].

---

(٧١) ذاته.

(٧٢) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٣٨.

(٧٣) المصدر ذاته ص ٣٨ - ٣٩.

(٧٤) المصدر ذاته ص ٣٩.

(٧٥) المصدر ذاته.

(٧٦) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥٤.

وجّه أسرحدون حملة قوية إلى مصر ، هزمت ملكها النوبي « طهارقا » واحتلت الدلتا ، ودخل الآشوريون العاصمة منف وسيطروا على مصر كلها وفرضوا عليها الجزية [٧٧] . وقسم أسرحدون مصر إلى ٢٢ مقاطعة ، وعيّن عليها ولاة مصريين ووضع إلى جانب كل منهم حاكماً آشورياً [٧٨] .

وعند عودة أسرحدون من حملة مصر ، أقام له نصباً على صخور نهر الكلب عند مصبه قرب بيروت نقشت عليه صورته تخليداً لهذا الانتصار الباهر .

وفي أثناء حكم أسرحدون ، كانت موجات الأقوام تزحف نحو آسيا الصغرى مرة من الشرق إلى الغرب وأخرى من الغرب إلى الشرق . وقد تشكلت حينذاك مملكة الميديين في شمال ايران [٧٩] .

ثار المصريون لخلع النير الآشوري ، فأرسل أسرحدون جيشاً لقمع الثورة ، ثم لحق بجيشه إلا أنه مات في الطريق عام ٦٦٩ فترك عبء ذلك لخلفه آشور بانيبال .

ورث آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) عرش أبيه . فقمع الثورة في مصر وفرض على أهلها الجزية . وعندما حاول نيخاو طرد الآشوريين سار إليه آشور بانيبال على رأس حملة فعزله ونهب طيبة ودمرها عام ٦٦٠ ، وولى على مصر بامتيك [٨٠] . وناضل بامتيك لتحرير بلاده فتحالف مع أمير ليديا ، وساعدته ظروف آشور وصراعها مع جيرانها على تخليص مصر وتحريرها من السيطرة الآشورية .

وفي سورية ، خاض آشور بانيبال حروباً عديدة ضد ملوكها واجبرهم على الخضوع ودفع الجزية .

وفي الشرق ، دحر العيلاميين واجبرهم على التراجع إلى بلادهم ، بعد أن حاولوا غزو جنوب بلاد الرافدين بمساعدة القبائل الآرامية المقيمة هناك [٨١] .

وفي بابل اندلعت الثورة بزعامة « شمش شم اوكين » الذي كان ملكاً عليها ،وساعدت

---

(٧٧) المصدر ذاته .

(٧٨) المصدر ذاته .

(٧٩) بصمه جي ، فرج : المصدر السابق ص ٤٠ .

(٨٠) فرح نعيم : المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٨١) المصدر ذاته .

القبائل الآرامية والعربية وغيرها ثورة بابل. فجرد آشور بانيبال حملة كبيرة ضد أخيه وحاصره في بابل وفتحها عنوة عام ٦٤٨ ودمرها وأحرق شقيقه وسط لهيب قصره [٨٢]. ثم زحف جنوباً وانتقم من القبائل التي ساعدت ثورة بابل واخضعها جميعاً. وهاجم العيلاميين في عقر دارهم وفتح عاصمتهم سوزا وخربها كما أخضع القبائل البدوية في شمال شبه الجزيرة العربية. وهكذا دان الشرق الاوسط للحكم الآشوري [٨٣].

اهتم آشور بانيبال بالعلوم والآداب والفنون الجميلة وانشأ المكتبة الشهيرة في نينوى وأمر بترجمة ألواح الطين المكتوبة بالسومرية والأكادية والبابلية التي حوت أكثر علوم وآداب الأقدمين واساطيرهم وكل ما يتعلق بحياتهم وحفظها في مكتبته التي عثر عليها في نينوى. ولعل أشهر حولياته تشير إلى حملاته ضد سورية وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى وبلاد العرب.

سقوط الامبراطورية الآشورية: كان فتح مصر آخر نجاح عسكري للآشوريين. وعلى الرغم من أن آشور بانيبال قد ترك امبراطورية مترامية الأطراف، إلا أنه فارق الحياة وأجيج الثورة كان يعتمل في كل ركن من أركانها، وكانت روح التمرد تعمر نفوس أبنائها. لذا ما لبثت أن انحلت نتيجة الأزمات الداخلية وانتفاضات شعوب البلدان المغلوبة.

لقد أعلنت شعوب البلدان المقهورة واعضاء المشاعيات الأهلية الثورة أكثر من مرة. وكان حكام آشور يلجأون لقمع انتفاضة الشعوب باعادة احتلال بلدانهم المرة تلو الاخرى. وفي أثناء حكم آشور بانيبال قادت امرأة عبدة انتفاضة الشعب في ارمينيا [٨٤]. وليس هناك من شك بأن الزراع الآشوريين الذين أفلسوا ولحق بهم الخراب من جراء التجنيد والعمل المضني والفرائض، قد تمردوا هم انفسهم أيضاً [٨٥]. وفي الوقت نفسه، ضعف السند العسكري للحاكم [٨٦]. كما أن توقف الحملات العسكرية أدى إلى انقطاع تدفق الغنائم، وعرّضت الثورات المتواصلة لشعوب البلدان المغلوبة جباية الجزية للخطر [٨٧]. ولم

---

(٨٢) بصمه جي، فرج: المصدر السابق ص ٤١.

(٨٣) المصدر ذاته.

(٨٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٩.

(٨٥) المصدر ذاته.

(٨٦) المصدر ذاته.

(٨٧) المصدر ذاته.

يعد بالامكان الاعتماد على المرتزقة، أما الجيوش الآشورية فكانت الثقة بها قليلة (٨٨).

لقد نخرت التناقضات ـ بين الغالبين والمغلوبين، وبين الأسياد والعبيد، وبين الفقراء والأغنياء ـ اسس الدولة العسكرية الآشورية. وفي مثل هذه الظروف كانت تكفي أول معركة خارجية تتصف ببعض الأهمية للقضاء عليها.

بعد وفاة آشور بانيبال حدثت منازعات على العرش الآشوري وضعفت المملكة وانسلخ عنها كثير من المقاطعات وانفصلت مدن عديدة في سورية وفلسطين وارمينيا.

وفي هذه الفترة التاريخية ظهر في بابل الامير الكلداني « نابو پالاصّر » فأسس فيها سلالة جديدة مستقلة عام ٦٢٦ قبل الميلاد، وبدأ يهاجم آشور من الجنوب. كما تأسست مملكة ميذيا الفارسية في إيران، وأخذ الميديون يهاجمون المملكة الآشورية من الشرق والشمال. وأخيراً تحالف الميديون والكلدانيون واستطاعوا احتلال مدينة آشور سنة ٦١٢ قبل الميلاد. وحرق « سن شر أشكن » آخر ملوك آشور نفسه مع اقربائه في قصره، كما دمرت مدينتا نينوى وكالح تدميراً كاملاً. وهرب أحد الامراء الآشوريين إلى حرّان، وجمع شتات الجيش الآشوري وسيطر على بعض المناطق الشمالية التي كان يسكنها الآشوريون، آملاً المحافظة على الدولة الآشورية بمساعدة مصر، إلا أن القوات المتحالفة سرعان ما زحفت إلى حران وقضت على فلول الجيش الآشوري واستولت على المدينة سنة ٦٠٩، فزال بذلك آخر معقل للآشوريين وسقطت دولتهم وزال الآشوريون من المسرح السياسي بعد ذلك الحين. واقتسم الميديون والكلدانيون تركة الآشوريين، فحصل الكلدانيون على جنوب بلاد ما بين النهرين.وقسم من شمالها، وأخذ الميديون الأجزاء الشمالية والشمالية الشرقية.

(٨٨) المصدر ذاته.

الدولة الكلدانية أو (الدولة البابلية الجديدة)

نشأتها وتوسعها: الكلدانيون من الآراميين الساميين، بدأوا يتسربون إلى بلاد بابل في القرن الثاني عشر قبل الميلاد من منطقة تعرف باسم بلاد البحر حول الخليج العربي. وهم قريبون من البابليين من حيث الأصل واللغة، لذلك انصهروا معهم بسرعة حتى أصبحت فيما بعد كلمتا: بابلي وكلداني مترادفتين [1].

عاش الكلدانيون على شكل مشاعيات عشيرية، تحول بعضها إلى أسرات فلاحية كبيرة وصغيرة (مشاعيات متجاورة) وكان هذان النوعان من المشاعيات لا يزالان موجودين عند قيام الامبراطورية الكلدانية كما تدل على ذلك وثائق العصر لملوك آشور: أسرحدون وآشور بانيبال [2].

أسس الأمير الكلداني «نابو بولاصّر» في مدينة بابل سلالة جديدة [3] مستقلة عام ٦٢٦ قبل الميلاد عرفت بالسلالة البابلية الأخيرة أو المملكة الكلدانية التي امتد حكمها حتى الغزو الفارسي لبابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد.

بعد القضاء على الدولة الآشورية، سيطرت بابل على جنوب بلاد الرافدين وقسم من شمالها، وفتحت أمامها الطريق عبر سورية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأقامت علاقات ودية مع دولة ليديا في غرب آسيا الصغرى ودولة كيليكيا في جنوبها. وشرع

(١) فرح. نعيم: المصدر السابق ص ١٦٨.

(٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢٢٦.

(٣) الأسرة البابلية الحادية عشرة أو العاشرة في بعض الآراء.

نابوپالاصّر في تعمير بلاده لا سيما العاصمة وقد حققت بابل، رغم ما لاقته من تدمير شامل على يد سنحاريب وآشور بانيبال في عهد الأسرة الكلدانية، ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً وغدت مركزاً دولياً رئيسياً في منطقة الشرق الأدنى.

وجه نابوپالاصّر ابنه نبوخذ نصرّ، بعد القضاء على فلول الجيش الآشوري في حـرّان، لمواجهة الجيش المصري بقيادة الفرعون نيخاو الثاني. وكان المصريون قد زحفوا إلى سورية لمساعدة الآشوريين أو من أجل الحصول على حصة من تركتهم والمحافظة على توازن القوى في منطقة الشرق الأدنى.

هزمت القوات الكلدانية بقيادة نبوخذ نصرّ الجيش المصري عند مدينة كركميش عام ٦٠٥ ق.م. وتقدمت في سورية وفلسطين ملاحقة الجيش المصري المهزوم. ولكن نبوخذ نصّر اضطر إلى العودة إلى بابل لوفاة والده عام ٦٠٥.

اعتلى نبوخذ نصّر (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) عرش بابل عام ٦٠٤ ق.م. وهو يعتبر أعظم ملوك السلالة الكلدانية. وقد اهتم بتعمير بابل وتجميلها وتجديد شبابها، مستعيناً في ذلك بالفنون التي انحدرت إليه، وبالمواد الأولية التي استطاع أن يستجلبها من مصادرها الرئيسية. وقد ساعده على تحقيق مشاريعه العمرانية ما حصل عليه من الغنائم والجزى والكثير من أسرى الحرب.

ذكرنا أن نبوخذ نصّر أخضع في زمن والده جميع الدويلات في سورية وفلسطين. ولكن عندما كان منشغلاً في تعمير بابل، ثارت عليه الدويلات الصغيرة في غربي آسيا وخاصة المملكة اليهودية ودولة صور بتحريض من فرعون مصر.

والواقع أن مصر الفرعونية كانت العدو الأكبر للكلدانية إذ أنها لن تتنازل بسهولة عن نفوذها ومصالحها في سورية وفلسطين. وبالمقابل فإن الكلدانيين، وبيوتاتهم التجارية المالية على وجه الخصوص، الذين دخلوا إلى مسرح التجارة العالمية كانوا بحاجة إلى مراكز لهم على البحر المتوسط ولن يتنازلوا عنها لمصر. فعندما تمردت الدولة اليهودية وامتنعت عن دفع الجزية، رغم تحذيرات النبي ارميا السلطات اليهودية بعدم مقارعة الكلدانيين، جرد نبوخذ نصر حملة على مملكة يهوذا فدخل اورشليم عام ٥٩٦ ق.م، وسبى قسماً من سكانها (من رؤساء وجبابرة بأس وجميع الصناع والأقيان) إلى بابل وهذا هو السبي الأول. وعزل ملكها يهو ياقين وعين مكانه عمه صدقيا [٤]. ولكن صدقيا، بتحريض من فراعنة مصر

(٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٥ ص ٣١٧.

وتحت ضغط الأمراء اليهود المؤيدين لهم، تمرد أيضاً على سيطرة الكلدانيين رغم تكرار تحذيرات النبي ارميا، فعاود نبوخذ نصّر الهجوم على اورشليم وفتحها سنة ٥٨٦ قبل الميلاد والقى القبض على صدقيا، وسبى سكان المدينة إلى بابل وكيش ونيپور. وهذا هو السبي الثاني. أما سكان الأرياف اليهود فقد فر معظمهم إلى مصر فخلت فلسطين من اليهود تقريباً. وزالت مملكة يهوذا (٥). واقتصرت فلسطين على سكانها الأصليين من العرب الكنعانيين.

التفت نبوخذ نصّر لاخضاع المدن الفينيقية على الساحل السوري. وتطلب منه ذلك جهداً ووقتاً. وكان الاسطول المصري يقدم المساعدة والدعم للمدن الفينيقية الثائرة. وقد صمدت صور لحصار طويل استغرق ثلاث عشرة سنة. وأخيراً تم الاتفاق عام ٥٧٣ ق.م بين بنوخذ نصر وملك صور بموجبه تعترف صور بالسلطة العليا للكلدانيين على أن تحتفظ باستقلالها الذاتي. واضطر فراعنة مصر إلى التراجع عن محاولاتهم فرض سيطرتهم على سورية وفلسطين (٦).

سقوط الامبراطورية الكلدانية: سقطت الأمبراطورية البابلية الجديدة وانتهى حكم الكلدانيين بعد فترة وجيزة من وفاة نبوخذ نصّر عام ٥٦٢. فقد دبت الفوضى في البلاد ونشبت اضطرابات في بابل نتيجة الصراع الذي دار بين الكهنة والأمراء العسكريين. ففي عام ٥٥٥ قبل الميلاد عين الكهنة نابونير وكان آخر ملوك الكلدانيين.

قدم نابونير الآراميين في الحكم والإدارة. وغزا سورية ثم حارب أمير واحة تيماء واستولى عليها واتخذها مقر إقامته تاركاً ابنه بلشاصّر (بلتازار) ممثلاً له في بابل ولم يعد إليها إلا في أواخر حكمه (٧).

في هذه الفترة التاريخية، نشأت في ايران امبراطورية فارسية قوية. واستطاع ملكها كورش أن يخضع خلال فترة قصيرة من الزمن بلاداً أكثر مدنية من فارس، لكنها كانت موهنة نتيجة الحروب الخارجية المتواصلة والصراعات الاجتماعية. كما أن أوساط التجار والمرابين في بابل وفينيقيا وغيرهما من البلدان كان لها مصلحة في أن يبقى الشرق الأدنى

---

(٥) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٦) المصدر ذاته ص ١٧٠.

(٧) المصدر ذاته ص ١٧١. يبدو أن نابونير اتخذ «تيماء» مركزاً سياسياً يدير منه دفة الحكم في الشطر الغربي من دولته بينما كان بلشاصّر يباشر شؤون الدولة في بابل نيابة عن والده.

امبراطورية واحدة على رأسها حكومة لديها من القوة ما يكفي لقمع الثورات الشعبية، وتعزيز الاقتصاد وتطوير التجارة الدولية.

احتل كورش مملكة ميديا والحقها بفارس ثم اخضع آسيا الصغرى. وعاد إلى ايران ومد حدود امبراطوريته إلى الشرق والشمال الشرقي. وتفرغ للمملكة الكلدانية بعد أن أحاط بها من الشرق والشمال والغرب، وحاصر جميع الطرق التجارية المؤدية إليها. فوجه إليها قواته ودخلت بابل عام ٥٣٩ قبل الميلاد دون مقاومة، بل بالعكس كان الدخول مبيّتاً مع بعض القادة العسكريين والكهنة من الكلدانيين المتواطئين مع الفرس[٨]. وفتح الكهنة والتجار والمرابون الأبواب في بابل للجيش الفارسي، آملين أن تتوسع عملياتهم التجارية والمالية في ظل امبراطورية جديدة أكثر اتساعاً من امبراطوريتهم. والقي القبض على نابونير وقتل بلشاصر وانتهى حكم الكلدانيين. ودخلت بابل والبلاد الخاضعة لها تحت سيادة الفرس الأخيمينيين.

(٨) المصدر ذاته ص ١٧٢.

الفصل الرابع والعشرون

النظام السياسي - الجيش والاسطول

النظام السياسي:

عاش قدماء العراقيين على شكل عشائر وقبائل في ظل المشاعية البدائية. وكان جميع أعضاء العشيرة متساوين في الحقوق. وكانوا يجهلون الفروق الاجتماعية وعدم المساواة في الثروة. وكان جميع الأعضاء البالغين في العشيرة من الذكور والإناث يشتركون على حد سواء في مجلس العشيرة. ولم يكن لشيخ القبيلة أية حقوق خاصة أو امتيازات تميزه من غيره وقد تأكدت هذه المساواة الاجتماعية بين أفراد العشيرة في تشابه الأثاث الجنائزي الذي عثر عليه علماء الآثار في المقابر السومرية التي يعود تاريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد [١].

وبالنظر لدور النساء الهام في الانتاج، فقد تمتعن باحترام كبير وشاركن في اجتماعات العشائر والقبائل. وقد عكست الأساطير المتعلقة بالآلهة والمواد الأثرية المكتشفة ما يثبت مكانة المرأة المرموقة في المشاعية العشيرية. تقول الأساطير: كانت الآلهة والالهات يناقشون الأمور معاً في المجلس السماوي. وهذه الأساطير عن علاقة الآلهة في السماء كانت تعكس ما كان يجري على الأرض بين الناس [٢]. كما أن تماثيل الدمى الطينية الصغيرة للنساء والتي عثر عليها المنقبون تحمل على الافتراض بأن « نظام الأمومة » قد استمر حتى النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد [٣].

---

(١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٩٢.

(٢) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ٩٩.

(٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٩٢.

وعندما زاد الانتاج نتيجة لتحسن وسائل الري ونمو القوى المنتجة، تفسخت المشاعية العشيرية إلى اسرات فلاحية كبيرة وصغيرة، وظهرت الملكية الخاصة وتشكلت الطبقات الاجتماعية، وحلت الأسرة الأبوية محل الأسرة الأموية، وتأسست الدولة لتثبيت سلطة ملاك العبيد والأراضي من النبلاء والاشراف، ولقمع انتفاضات الأرقاء والفقراء، وللاهتمام بمشروعات الري الكبرى. وقد انعكست هذه التطورات الاقتصادية ـ الاجتماعية على الأساطير المتعلقة بالآلهة، كما أيدتها أيضاً المكتشفات الأثرية والأعمال الفنية التي يرقى تاريخها إلى النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد (كالأختام الاسطوانية والتمايز في حجم المقابر والأثاث الجنائزي) (٤).

وكانت دويلات المدن أول اشكال الحكومات في بلاد ما بين النهرين. وفيما بعد تشكلت الدولة الموحدة المركزة الاستبدادية. فقد انشأ السومريون والأكاديون في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، بضع عشرات من دويلات المدن. وكان على رأس دولة المدينة حاكم يدعى باتيزي Patési أو آنسي Ensi ينتخب من بين الأسر النبيلة (٥). وكان يعتبر في نفس الوقت القائد العسكري والكاهن الأعلى، مما يدل على أن نظام الحكم كان وثيق الاتصال بالدين (٦). وعندما كانت تزداد قوة مدينة ما وتخضع لسلطتها بعض المدن الأخرى كان حاكم تلك المدينة ينال لقب «لوغال ـ أي الملك» (٧).

وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد لم يكن الباتيزي يعد المالك المطلق لجميع أراضي الدولة، فهناك حالات معروفة يجد الملك نفسه مضطراً لشراء أراضٍ من الأسرة الكبيرة أو من المشاعيات (٨). كما أنه لم يكن في استطاعته أن يملك لحسابه حتى أملاك المعابد (٩).

وكان في المدن مجالس شعبية ومجالس شيوخ تتمتع بحقوق انتخاب الحاكم وربما عزله، واقرار العدل، واتخاذ اجراءات إدارية، ومناقشة قضايا السياسة الرئيسية مع الباتيزي كإعلان الحرب على سبيل المثال. كل ذلك يسمح لنا من التأكد أن بقايا هامة من

---

(٤) المصدر ذاته ص ٩٢ ـ ٩٤ ود.نعيم فرح: المصدر السابق ص ١٣٣ ـ ١٣٦.
(٥) المصدر ذاته ص ١٠١.
(٦) ديورانت: ول: قصة الحضارة: ج ٢ ص ٢٦.
(٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٠١.
(٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٠١.
(٩) المصدر ذاته.

الديمقراطية العسكرية كانت لا تزال موجودة في ميـزوپـوتـاميـا السفلى ، على الأقـل حتى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد [١٠].

إن الحاجة لاستخدام الري استخداماً عقلانياً ، وتعزيز العلاقات الاقتصادية بين المناطق قد حفزا الاتجاه إلى التوحيد السياسي لبلاد سومر. كما أن ضرورة توطيد السلطة على العبيد قد شدد بدوره حركة المركزة.

وتشير الألواح إلى أن الملك - الكاهن كان له ، في الفترة ما قبل السارغونية ، وظيفتان أساسيتان : الأولى وظيفة حاكم المدينة. والثانية وظيفته كممثل الإله أو ككاهن أعظم. فعليه بحكم وظيفته الأولى حماية مدينته وتوسيع حدودها واقرار العدل وشق القنوات وإقامة السدود وتنمية الزراعة. كما هو بحكم كونه نائباً عن الإله أو ممثلاً له مسؤول عن الشؤون الدينية في مملكته . فهو الذي يرعى شؤون المعبود الرئيسي والمعبودات الأخـرى ويشرف على المعابد ويهتم باصلاحها وبناء الجديد منها ويعين لها الكهان ورجال الدين. وكثيراً ما كان يعهد بالوظائف الدينية الهامة لاشخاص من أسرته.

وفي النصف الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد ، كانت الظروف قد نضجت لتوحيد البلاد وإقامة سلطة ممركزة. فقد استطاع سارغون وخلفاؤه من بعده لأول مرة في تاريخ بلاد الرافدين ، توحيد شمال وجنوب بلاد ما بين النهرين في دولة واحدة هي الدولة الأكادية.

كان اتحاد شمال وجنوب بلاد الرافدين تحت سلطة سارغون في صالح الأشراف والنبلاء ملاك العبيد .كان كلا القسمين من البلاد ، حيث أن السلطة المركزية المستبدة التي أصبحت تملك قوة عسكرية كبيرة تستطيع بسهولة توطيد سلطتها وفرض سيطرتها على الجماهير الشغيلة [١١]. غير أن توحيد البلاد وانشاء سلطة ممركزة كانا ضروريين أيضاً من أجل تنظيم الري وتنفيذ مشروعات كبيرة في طول البلاد وعرضها لتطوير الزراعة ، ولتنشيط التجارة وتوحيد المقاييس والأوزان.

وقد اصطنع الملوك حين اتسعت حدود بلادهم القاباً جديدة. فقد اتخذ ملوك أسرة أور الثالثة لقب « ملك سومر وأكاد » واتخذ الملوك الأكاديون لقب « ملك المناطق الأربع » واستحدث الآشوريون لقب « ملك العالم ». وانتحل الملوك المستبدون البارزون الصفة

(١٠) المصدر ذاته ص ١٠٢.

(١١) فرح ، نعيم : المصدر السابق ص ١٠٥.

الالهية امعاناً منهم في تنظيم السلطة الملكية وتقديس شخصية الحاكم بقصد تخويف الشعب واخضاع جماهير الشغيلة. وأقدم شاهد على تأليه الملك ما هو مدون على مسلة مانيشتوسو حيث تقرأ « شاروكين ايلي » أي « صارغون هو إلهي » ، كما سمى الملك نارام سين نفسه باسم « إله اغاده » (أكاد) ، وتلقب حورابي بلقب « إله الملوك » (١٢). أما الملك الآشوري فقد اعتبر نفسه نائب الإله آشور والمنفذ لرغباته ، يتلقى منه الأوامر ، ويقدم إليه الحساب ، ومهمته اخضاع شعوب العالم لهذا الإله (١٣).

ومنذ أن نشأت دويلات المدن في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وأخذت تتعزز فيما بعد السلطة الملكية الاستبدادية التي تعتبر مملكة بابل في عهد حورابي شكلاً نموذجياً لها ، اعتمد الملك في حكم البلاد على جهاز أخذ يتسع ويتشعب ويتعقد لايجاد أفضل السبل لملء خزائن القصر والمعبد وكبار الملاك ، على حساب نهب جماهير الكادحين بمختلف أنواع الضرائب والفروض والسخرة. وحتى الكهنة ، فإنهم لم يكتفوا بما كان يغدقه الملوك عليهم من غنائم الفتوحات وما كان يقدمه أفراد الشعب إليهم من المنح والهدايا والقرابين وما فرض لهم من ضرائب.. أقول لم يكتفوا بمثل هذا القدر الضخم من الثروات التي كانوا يتنعمون بها على حساب معاناة الشعب وجوعه وبؤسه ، وإنما شرعوا يسلبون السكان. فانتزعوا من الفلاحين مواشيهم ودواجنهم ، والأشياء النحاسية ، والملابس ، واجود أشجار البساتين وثمارها. وطلبوا رسوماً باهظة لدفن الموتى (١٤).

وكان يساعد الملك في الحكم زوجته الملكة التي كان لها قصرها الخاص وأملاكها الواسعة ونفوذها الكبير في تصريف شؤون الدولة (١٥).

وكان يلي الملك وزوجته في السلم الوظيفي الـ « نوباندا » وهو بمثابة وزير المالية أو وزير القصر ، ويعتبر أهم موظفي الدولة. وتشبه وظيفته وظيفة المشرف العام فهو « منظم مشروعات المنافع العامة والشؤون الزراعية وأمين خزانة الملك وناظر الري ومسجل عقود البيع وحاجب القصر » (١٦). وتشير الألواح إلى وجود عدد من الـ « نوباندا » (نُظّاراً أو

---

(١٢) ديلابورت. ل: بلاد ما بين النهرين. ص ٧٧ - ٧٨.

(١٣) فرح. نعيم: المصدر السابق ص ١٥٦.

(١٤) انظر ص ٢١٤ - ٢١٥.

(١٥) ديلابورت. ل: المصدر السابق ص ٧٨.

(١٦) نفس المصدر والصفحة.

وزراء) يختص كل منهم بقطاع من قطاعات الدولة. ويتبع النوباندا عدد من الموظفين من بينهم القضاة والكهان وامناء مخازن الغلال والكتّاب والملاحظون وغيرهم من الموظفين (١٧).
ويلي الوزراء في الأهمية قواد الجيش. وقد أصبح للارستقراطية العسكرية نفوذ كبير عند تشكل الدولة العسكرية الآشورية.

وكان الملك يعين من قبله حكام الأقاليم ويختارهم من طبقة النبلاء، وكانوا يتوارثون مناصبهم في أول الأمر ثم أصبحوا موظفين منذ زمن الأسرة الأكادية.

وقد تحولت المشاعية في ظروف نشأة الدولة الاستبدادية المركزة إلى موضوع للاستثمار من جانب الدولة العبودية. وكما في السابق، كان المشاعيون يصونون السدود والحواجز والأقنية التي كانت تتطلب بذل العمل من جانب عدد كبير من الناس. وكان المشاعيون يبذرون ويحصدون، ولكن حصة الأسد من المحصول أصبحت تذهب الآن لتكون في تصرف الملك والكهنة والموظفين، ولإعالة الجيش. وكان مفتشو الملك يبذلون قصارى الجهد لمراقبة حالة منظومات الري باستمرار، أو لإلزام المشاعيين بدفع المكوس والضرائب بكل دقة، منتزعين بذلك من المنتجين المباشرين قسماً كبيراً من المنتوج الذي قاموا بانتاجه.

وكان تحت تصرف الموظفين الكبار في دولة حورابي «سوكلالو Souklalou»، أي وكلاء لجباية الضرائب وارسال السكان للعمل في الورشات الملكية. وهكذا تتجلى بكل وضوح الوظيفة الأولى في الدولة الاستبدادية وهي نهب السكان.

وقد قسمت البلاد إدارياً إلى أقاليم أو ولايات ومناطق. وكان يتوجب على جميع الشعوب الخاضعة دفع الجزية والقيام بأعمال السخرة وتلبية دعوة الملك إلى الحرب عند الحاجة.

وكانت المصادر الأساسية لدخل الدولة تتكون من الضرائب التي تجبى عيناً ومن الفضة وتختزن في المخازن الملكية وتؤدى منها مرتبات موظفي الدولة وعمالها.

الجيش والاسطول: إن الوظيفة الأساسية الثانية للدولة العبودية هي نهب الشعوب الأجنبية بواسطة الجيش.

بدأ إعداد الجيوش في بلاد ما بين النهرين منذ تأسيس دويلات المدن في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. وكان الجيش يتألف من كتائب مدنية تجند فقط أثناء الحرب ويقودها

---

(١٧) المصدر ذاته.

الملك. ويعتبر سارغون الأكادي أول من بدأ باصلاح الجيش اصلاحاً جذرياً: فعندما أصبح ملكاً، اعتمد في حكمه على الجيش. فأنشأ جيشاً دائماً من ٥٤٠٠ محارب محترف. وعلى حين كانت كتائب المعابد السومرية تتألف من جنود مسلحين بأسلحة ثقيلة، كما يشاهد في «نصب العقبان»، من فؤوس ورماح طويلة، ويختبئون خلف دروع طويلة ويقاتلون بصفوف متراصة ويضربون برماحهم الطويلة، فقد سلح سارغون جنوده بالقسي والنشاب، وأصبح رماة السهام يحتلون دوراً هاماً في الجيش الأكادي الجديد. واستعاض سارغون عن الرماح الثقيلة برماح صغيرة يسهل قذفها في وجه العدو والابتعاد بسرعة. وقد اتاح ادخال السلاح الخفيف عدداً من المزايا التكتيكية والقتالية للجيش الأكادي فأصبح أسرع حركة وأكثر قدرة على المناورة من الجيش السومري. وكان معظم جنود الجيش السارغوني من الفلاحين الذين انتزعت أراضيهم ووجدوا أنفسهم في خدمة الملك لقاء أجر يدفعه اليهم.

وتظهر الأسلحة الخفيفة التي أدخلها سارغون إلى جيشه في «لوحة النصر» للملك نارام سين. ومن عصر «أور»، نجد أن الـ «نوباندا» يقودون الجند. وقد وصلتنا من ذلك العصر نماذج لأدوات الحرب كالخنجر والخوذة، كما ظهرت صور العجلات التي تجرها الحمير [18].

وقد نظم قانون حمورابي أمر الخدمة العسكرية. وكانت الدولة تمنح الأراضي الزراعية من أملاكها الخاصة للجنود مقابل الخدمة العسكرية. وتلك الأراضي لا يجوز بيعها أو رهنها أو تأجيرها، وإنما يسمح للابن أو لشخص آخر باستثمارها مقابل تأدية الخدمة العسكرية في حال غياب أو وفاة المستثمر السابق [19].

وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش يقوده بنفسه في المعارك أحياناً، أو يسند قيادته إلى أحد كبار الضباط (نوباند) في أحيان أخرى. وتسمي قوانين حمورابي نوعين من الضباط هما: ديكوم (يحتمل أن يكون للفرق الخفيفة) ولوبيتوم (للفرق الثقيلة). كما تشير إلى أحكام خاصة بنوعين من الجنود هما: الريدوم (يحتمل أن يكونوا جنود الفرق الخفيفة) والبيروم (جنود الفرق الثقيلة) [20] وألزم القانون معبد المدينة أو القرية التي ينتسب إليها الريدوم، أو البيروم بدفع الفدية في حالة أسرهما وعدم تمكنهما من افتداء نفسيهما. وقد فرض على الأهلين

---

(١٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥.

(١٩) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١١٧.

(٢٠) المصدر ذاته ص ١١٥.

في العهد البابلي الأخير ضرائب خصصت للانفاق على المحاربين أو للمساهمة في تكاليف الجنود [٢١].

وفي العهد الآشوري كان الجيش عماد الدولة، قامت على يديه ودامت بقوته وحكمت الشعوب بواسطته. لذلك أولاه الحكام عناية شديدة وعملوا على تقويته وتسليحه بأحسن الأسلحة. وكان الملك هو القائد الأعلى للجيش يخرج على رأس الحملة وإن لم يستطع قاده الـ «تورتان» نائب القائد الأعلى[٢٢]. وعند عودة الملك من الحرب كان عليه أن يقدم إلى الإله آشور تقريراً مفصلاً عن حملته الحربية[٢٣].

وكان الجيش يتألف من العناصر الآشورية بصورة رئيسية وأحياناً يستعين الملك بفرق مرتزقة من شعوب البلدان المغلوبة. وقد ازداد هؤلاء المرتزقة مع الزمن وخاصة في عهد تدهور الدولة حين أصبح الحكام يتوجسون خيفة من فرق الجنود الآشوريين. وفي النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد، وضع آشور بانيبال الأسس المستقبلية لقوة آشور العسكرية التي تعززت في زمن تغلات فلاسّر الثالث وسارغون الثاني. وقد أصبح الجيش الآشوري بعد اصلاحه في النصف الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد يتألف من الفرق التالية:

١ ـ فرق الخيالة (الفرسان) وسلاحهم يتألف من الأقواس والرماح. وكانوا يركبون الخيل دون سرج أو لجام ويصحب كل فارس منهم خادم يركب على حصان مثله ليقود له حصانه أثناء المعركة، ثم اسرجت واختفى الخادم في زمن آشور بانيبال نتيجة لتقدم فن الفروسية[٢٤]. وتشكلت فرق الفرسان من أبناء الطبقات الغنية[٢٥].

٢ ـ فرق عربات القتال: تتألف عربة القتال من صندوق كبير مركب فوق عجلتين ضخمتين عاليتين يجرها حصانان. ويركب هذه العربة ثلاثة أشخاص: سائق إلى اليسار لقيادتها، ومحارب مسلح بالحربة أو القوس وخادم يحميها بترس[٢٦]. وكان راكبو العربات يؤخذون أيضاً من أبناء الطبقات الغنية.

(٢١) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥.
(٢٢) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٣٣٧.
(٢٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧.
(٢٤) ديلاپورت، ل: المصدر السابق ص ٣٣٩.
(٢٥) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥٦.
(٢٦) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٣٣٩.

٣ - فرق المشاة بنوعيها الثقيلة والخفيفة: فالمشاة الثقيلة تسلحت بالرماح الطويلة والسيوف القصيرة وارتدت دروعاً معدنية وخوذاً مخروطية مزودة بقطع جانبية لحماية الأذنين. وتسلحت المشاة الخفيفة بالأقواس والسهام القصيرة ولبست دروعاً معدنية وخوذاً مخروطية تتدلى منها قطع جانبية لحماية الأذنين. وتشكلت فرق المشاة من الناس البسطاء (٢٧).

٤ - فرق أخرى مهمتها القيام بالحصار واقتحام الحصون بواسطة ابراج من الحديد المصفح يكمن فيها رماة السهام والمهاجمون وفي مقدمتها اعمدة من الحديد لدك الأسوار (٢٨). وجماعات لشق الطرق ونصب الجسور (٢٩) (سلاح الهندسة) وفرق الكشافة (سلاح الاستطلاع) التي كانت تسبق الجيش لجمع المعلومات عن قوة العدو وتحركاته وخططه. كما استخدم الآشوريون الجواسيس لأغراض عسكرية (٣٠).

وكان الجيش يقسم عادة إلى مجموعات تتشكل من ألف، ومائة، وخمسين وعشرة (٣١). ومما ساعد على نجاح عمليات الجيش الآشوري السرعة والمفاجأة في مهاجمة العدو واستخدام الأسلحة الحديدية وشجاعة الجنود وصلابتهم والتدريب المتواصل والانضباط التام (٣٢).

وكانت المعركة تبدأ بهجوم العربات يتبعها المشاة الذين يضربون صفوف العدو المتفككة ثم يتقدم الفرسان لملاحقة العدو المتقهقر أو المهزوم (٣٣). وإذا كانت المعركة تستدعي حصار سور المدينة فإن الجنود العمال يعملون معاولهم في السور ويحاولون هدمه، بينما يرقى فريق آخر من الجند برجاً له عجلات ويرشقون الأعداء الواقفين في أعلى السور بالسهام - ومتى استطاع الجنود العمال إحداث ثغرة في السور نفذ المحاربون منها إلى داخل المدينة وأعملوا القتل في الجنود المدافعين عنها حتى يبيدوهم ويحققوا النصر على خصومهم (٣٤).

وجرت عادة الملوك أن يدخلوا المعركة وهم راكبون عرباتهم ومتقدمون الصفوف.

---

(٢٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥٦.
(٢٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧.
(٢٩) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥٦.
(٣٠) نفس المصدر والصفحة.
(٣١) المصدر ذاته ص ١٥٧.
(٣٢) المصدر ذاته.
(٣٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٢١٤.
(٣٤) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ٢١٦.

وكثيراً ما كان الملك يترك عربته ويقاتل في صف جنوده [٣٥]. وكانت حصة الإله من الغنائم تقدم إلى المعابد ،وحصة الأسد للملك وقادة الجيش ،وما تبقى يوزع على الجنود. ثم يفرض الملك الجزية إذا استسلمت المدينة وإلا أحرقها وأضرم النار في بيوتها ومحصولاتها وصادر أموالها وسبى نساءها وأطفالها وقتل مقاتليها واقتاد اسراها [٣٦]. وتمثل بعض النقوش التي يعود تاريخها إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ، اقتياد الأسرى إلى العبودية وهم عراة وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم وأعناقهم في أطواق من الخشب [٣٧].

الاسطول: أولى الآشوريون اهتمامهم انشاء اسطول بحري لاستخدامه في التوسع عبر الخليج العربي وفي البحر الأبيض المتوسط، وساعدهم على ذلك خبرة الفينيقيين وأخشاب بلادهم الجيدة. وقد استخدم الآشوريون الأساطيل في حروبهم ضد العيلاميين ودويلات أهل البحر وفي فتح جزيرة قبرص. وسبقت الإشارة إلى أن سنحاريب أمر بصنع السفن الحربية للقضاء على دويلات أهل البحر في أقصى جنوب بلاد الرافدين، وجلب لذلك صناعاً ماهرين من الفينيقيين واليونان وانحدر باسطوله نحو الجنوب عابراً الأهوار حتى وصل إلى البحر وفتح جميع دويلات الخليج [٣٨]. وقد عثر على صور لتلك السفن منقوشة على جدران قصر سارغون الثاني ونقلت إلى متحف اللوفر في باريس. ويبدو من الصور أن مؤخرة السفن الآشورية كانت مرتفعة ومقدمتها على شكل رأس حيوان كالمراكب الفينيقية [٣٩]

---

(٣٥) نفس المصدر والصفحة.

(٣٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩ - ٤٠.

(٣٧) المصدر ذاته وجماعة من المؤرخين السوفيات، المصدر السابق ص ٢١٥.

(٣٨) انظر ص ٢٤٢.

(٣٩) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٥٧.

الفصل الخامس والعشرون

البنية الاقتصادية

مع نمو القوى المنتجة وتقدم المعارف التقنية والتوسع في انشاء منظومات الري الاصطناعي وخاصة عند توحيد البلاد وقيام الدولة المركزية، تطور الانتاج الزراعي وتكوّن فائض للتصدير، واهتمت القوانين بتنظيم العلاقات الزراعية بين المالك والمستأجر، وتطورت الحرفة بتطور الزراعة وتربية الماشية ولا سيما نشاط التجارة التي أمنت لها الخامات الضرورية وخاصة المعادن التي كان العراق فقيراً بها، وظهر الحرفيون في المدن وتعددت المهن ونظمت. وساعد توحيد البلاد والاهتمام بتنظيم المواصلات والحاجة إلى المواد الأولية للصناعة والبناء وتصريف فائض الانتاج على تنشيط الحركة التجارية واتساعها. وأغنى العراقيون القدماء التراث الحضاري بكثير من المصطلحات التجارية. وتعطي دراسة قطاعات الزراعة والحرفة والتجارة فكرة واضحة عن البنية الاقتصادية والمتغيرات التي طرأت عليها.

الزراعة: كان للزراعة مكانة هامة في الحياة الاقتصادية لبلاد الرافدين. وكان يعمل بها ويعيش منها غالبية السكان. وقد هيأت الطبيعة الأرض الغرينية الخصيبة والمياه الوفيرة، وخاصة في المنطقة الوسطى والجنوبية من البلاد. وقد شبه كثير من كتاب الاغريق والرومان بلاد ما بين النهرين بأنها «ألدرادو» أي بلاد الذهب والخير في الزراعة. وبالغ بعضهم في تقدير المحصور الزراعي الناتج، حتى أن هيرودوت قدره بمائة أو مائتي مرة[1]. وهذا يذكرنا بتسمية العرب أرض العراق «بالسواد» لكثرة زرعها وخضرتها. ولكن الشيء المهم هو أن هذه الشهرة لم تكن لتحصل إلا بعمل الانسان وجهده ولا سيما في تنظيم الري الذي هو أساس الزراعة.

---

(١) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: القسم الأول: تاريخ العراق القديم ص ٤١٥.

ومنذ أقدم العصور جرت عمليات مسح الأراضي وتقسيمها وتثبيت ملكيتها. كما شقت الدولة الأقنية وحفرت الترع للري، وأقامت المكاتب وفيها المهندسون المسؤولون عن العناية بالشبكات المائية عموماً.

اكتشف العراقيون الأوائل الزراعة ومارسوها منذ العصر الحجري الحديث (النيوليتي) في ميزوپوتاميا العليا، حيث كانت كمية الأمطار تكفي لزراعة بدائية. يؤكد ذلك الآلات الزراعية التي عثر عليها علماء الآثار في «تل حسونة» والتي يعود تاريخها إلى حوالي ٤٨٠٠ ق.م.

وعندما تراجعت مياه الخليج العربي وتشكل السهل الغريني الخصيب في ميزوپوتاميا السفلى، نزحت إليه، في الألف الخامس قبل الميلاد، جماعات من شمال العراق، حاملة معها كل ما تراكم لديها من تقاليد حضارية زراعية، وشرعت تعمل بدأب في تجفيف المستنقعات وشق الأقنية وحفر الترع وانشاء الخزانات وبناء السدود والحواجز وغيرها من أعمال الري والصرف. فبالعمل الدؤوب والجهد الجماعي تمكن العراقيون القدامى من تحويل السهل المستنقعي الموبوء إلى أرض صالحة للزراعة ولحياة الانسان.

والأرض الفيضية التي تكون سهول دجلة والفرات خصبة بطبيعتها، ولكن رغم صلاحية التربة فإن ندرة الأمطار جعلت حوالي نصف ما يصلح من أراضيها الزراعية أرضاً قاحلة. وقد عوضت الأنهار وشبكة الري الواسعة من الأقنية والترع الصناعية هذا النقص جزئياً حتى غدا للانتاج الزراعي فائض يصلح للتصدير والتبادل التجاري. وهكذا أيضاً أصبح الري الدعامة الأساسية لحياة البلاد الاقتصادية.

لقد قامت المشاعيات بالأعمال الأولى لتنظيم الري والصرف. ولكن المشاريع الكبرى تعود بالتأكيد إلى الدولة. وجدير بالملاحظة أن أعمال الري والصرف قد تركزت في المنطقة الوسطى من العراق ولا سيما في حوض الفرات، وذلك لخصب التربة، وشح المطر، ووفرة المياه، وقلة انحدار الفرات. ومما كان يسهل الري بالسيح وفرة مياهه في الصيف، وارتفاع مجرى الفرات عن دجلة مما ساعد على شق القنوات بين النهرين ويسّر عملية الري وبالتالي زراعة الوادي بطريقة منظمة، ولوجود المنخفضات الطبيعية في جوانب الفرات الغربية وهي صالحة لجعلها خزانات لتصريف مياه الفيضان. أما دجلة فيجري بين ضفتين عاليتين مما دعا إلى انشاء السدود لتحويل جزء من مياهه إلى الأراضي المجاورة. وقد أدرك قدماء العراقيين أهمية الرافدين الخالدين وأثرهما في حياتهم فألّهوهما كما ألّه المصريون نيلهم.

وقد استلزم شق القنوات وإقامة الخزانات والسدود ومصارف المياه سلسلة من

المعلومات والدراسات والمسح والمخططات القائمة على الفن الهندسي. يشهد على ذلك صور مخططات الجداول والانهار على الواح الطين التي تناهت إلينا من عصر فجر السلالات ومنها مثلاً قطعة من لوحة مثلت عليها قناة شقت بأمر من أيانا توم حاكم لاغاش ألحق بها خزان تزيد سعته على الألف هكتوليتر [٢].

وفصّلت لوحة أخرى أعمال السخرة، وتبين أن تنفيذ القناة قد تم وفقاً لخطة موضوعة [٣]. وقد طغت اخبار شق الأنهار والجداول على غيرها من أخبار الملوك وأعمالهم. وكان حفر نهر جديد حدثاً هاماً يؤرخون به الحوادث. ونصّت شريعة حمورابي في المواد (٥٣ ـ ٥٦) على عقوبة الفلاح الذي يتسبب في حدوث أضرار تلحق بحقول جيرانه نتيجة اهماله صيانة الجداول الموجودة في أرضه.

وكان من بين الأقنية الهامة التي شقت من الفرات إلى دجلة: قناة انليل (نهر عيسى في العصر العباسي) وقناة ثانية عرفت في زمن العباسيين بنهر صرصر، ونهر «نارشاري» أي نهر الملك، ونهر كوثي [٤].

وكان يتفرع من الفرات فوق بابل بقليل شط النيل العظيم ويمر بمدينة كيش [٥]. وكان نهر الدجيل أيضاً يربط دجلة بالفرات [٦]. وقد تفرعت من هذه الجداول الكبرى أقنية فرعية كثيرة جعلت السهل الجنوبي شبكة من الأنهار تروي مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية.

وبعد أن حقق حمورابي وحدة الامبراطورية شرع في تنفيذ مشروعات هامة، فشق «نهر حمورابي» ودعاه «ثروة الشعب التي تجلب ماء وفيراً لسومر وأكاد» [٧]. وكان نهر حمورابي نهراً عظيماً يخرج من الفرات بالقرب من بورسيبا ماراً بـ «أومّا» و «لارسا» حيث ينعطف منها نحو الخليج العربي [٨]. كما أن في رسائله الشيء الكثير مما كان يصدره من الأوامر إلى ولاته

---

(٢) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص١٢٨.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٢٨.
(٥) المصدر ذاته ص٤٢٩.
(٦) المصدر ذاته.
(٧) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص١٢٩.
(٨) المصدر ذاته.

وعماله يأمرهم فيها بكري الأنهار وصيانتها والمحافظة على الآلات المستعملة في الري [٩].

ولما كان دجلة يجري معظم أوقات السنة بين شواطىء عالية دعت الحاجة إلى انشاء السدود لتحويل قسم من مياهه إلى الأراضي المجاورة، كما شقت في كلتا ضفتيه أنهار فرعية كالدجيل والنهروان [١٠].

وواصل الملوك الكلدانيون، شأن أسلافهم من ملوك الدولة البابلية الأولى، الاهتمام بالري. وتذكر الوثائق أن نبوخذ نصّر، باني الجنائن المعلقة في بابل، يفاخر بتلقيب نفسه بـ « راوي الحقول وفلاح بابل » [١١].

ولم يكن الغرض من شق القنوات أن تستخدم في الري فقط بل استخدمت أيضاً كوسائل للنقل والمواصلات وللتخفيف من وطأة الفيضان ولا سيما فيضان الفرات.

ومما لا شك فيه أنهم استغلوا بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من الضفاف الغربية من الفرات وجعلوها خزانات ومصاريف للمياه، كما استفادوا، في الوقت نفسه، من هذه الخزانات لأغراض الدفاع [١٢].

وكانت القنوات الأقل أهمية تحمل الماء إلى أطراف الحقول والمراعي ومن هناك تسحب عن طريق أدوات رافعة تديرها ثيران أو بواسطة دلاء رافعة وذلك منذ عصر فجر السلالات [١٣]. وقد مثلت هذه الأدوات في منظر للحياة الزراعية على ختم اسطواني [١٤].

استخدم العراقيون القدماء أدوات زراعية صنعوها من الحجارة والفخار والخشب والمعدن. ويعد المحراث في مقدمة الأدوات الزراعية. وكان آلة ساذجة في عصور ما قبل التاريخ تستهدف حرث قطعة صغيرة من الأرض وتقليبها، يتألف من قطعة من الحجر يثبتونها بمقبض خشبي، وطور فيما بعد حيث أدخلت إليه بعض التحسينات واضيفت إليه

---

(٩) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٢٩.
(١٠) المصدر ذاته ص٤٢٨.
(١١) نفس المصدر والصفحة.
(١٢) المصد ذاته ص٤٣٠.
(١٣) ديلاپوُرت، ل: المصدر السابق ص ١٣٠.
(١٤) نفس المصدر والصفحة.

أجزاء هامة ومنها أداة لبذر البذور على هيئة قمع تعمل أثناء جر المحراث، فأصبح المحراث البسيط آلة مركبة [١٥] تحرث وتبذر في الوقت نفسه. واستخدمت الحمير والثيران لجر المحراث. وظهر على إحدى الاسطوانات القديمة منظر للحرث يظهر فيه الحراث ممسكاً بالمحراث من الخلف بكلتا يديه ورجال مزودون بالعصا والسياط يدفعون بها الحيوانات [١٦].

ويلي المحراث في الأهمية من ناحية تقليب الأرض أنواع من الفؤوس تختلف حجماً باختلاف الغرض من استعمالها في الحقول أو البساتين. ومن آلات الحصاد التي تناهت إلينا من المواقع القديمة في العراق نماذج مختلفة من المناجل، منها: منجل من الصوان ثبت بالقير مع مقبض خشبي، ومنجل آخر مصنوع من الفخار (من عهد العبيد)، ومناجل مصنوعة من النحاس والبرونز. وقد كثر استعمال المناجل المعدنية في العصور التاريخية عندما عرف العراقيون المعادن واستخدموها في صناعة أدواتهم.

تبدأ عملية زراعة الحقل بالحراثة والبذر، وحين يحل موسم حصاد الحبوب تقطع السيقان بالمناجل ثم توطأ باقدام الحيوانات وتجمع الحبوب على شكل اكوام ثم تذرى بالمذراة وتنقل لتخبأ في الأنبار [١٧] وقد حددت قوانين حورابي في المواد (٢٦٨ - ٢٧٠) أجور حيوانات الحرث والدرس.

وكان العراقيون يفرقون بين الحقل والبستان: أما الحقل فيقصد به الأرض التي تزرع حبوباً وتحرث بالمحراث. وأما البستان فهو الذي تزرع فيه الأشجار: أشجار الفاكهة والنخيل ويعزق بالفأس [١٨]. وهناك كذلك المرعى، وهو لا يحتاج لعناية أكثر من سقيه وقطع كلئه. وكانت تطلق فيه الحمير والثيران والأغنام لترعى [١٩].

وأهم المحاصيل الزراعية الحقلية: الشعير والقمح والذرة والدخن والسمسم، وأدخل الرز إلى العراق في العهد الآشوري المتأخر عن طريق ايران وكثر استعماله في العهد الفارسي

---

(١٥) تناهت إلينا صور لهذه الآلة «الحارثة الباذرة» منقوشة على الألواح بعضها يعود تاريخه إلى العهد الكاشي.

(١٦) المصدر ذاته ص١٣٢.

(١٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٩٦.

(١٨) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٦ ص١٨٥.

(١٩) نفس المصدر والصفحه.

الأخميني[٢٠].

وأهم أشجار البساتين: النخيل والتين والعنب والرمان والتفاح والكمثرى واللوز والفستق والزيتون. واهتدى العراقيون إلى زراعة القطن (شجرة الصوف حسب وصف سنحاريب وهيرودوت) ويرجح أنه جلب من الهند[٢١].

وكانت النخلة أقدم شجرة وأهم شجرة في العراق. وقد بدأت زراعة النخيل في القسم الجنوبي من العراق منذ بداية استيطانه حوالي سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد. ومن المحتمل أن يكون موطن النخل الأصلي في الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية أو أنه من أفريقيا أو الهند[٢٢]. ولا يزال السهل الجنوبي إلى يومنا هذا المنطقة الرئيسية التي تتركز فيها زراعة النخيل. وتشير الوثائق إلى أنهم قاموا بدراسات واسعة لاستثماره على الوجه الصحيح. فكانوا يحفرون تربة البستان ويقلبونها، كما حددوا المسافة بين نخلة وأخرى بحوالي عشرة أمتار، ولجأوا إلى التلقيح الصناعي وإلى زرعه فسائل لانهم أدركوا أن زرع النوى إن أثمر فإنما يثمر ثمراً رديئاً[٢٣]. وقد أشارت شريعة حمورابي إلى زراعة النخيل وحددت طرق التعامل بين مستأجر البستان وصاحبه وفرضت عقوبات على من يقطع نخلة بدون إذن صاحبها[٢٤] (المادة ٥٩).

وللنخيل أهمية اقتصادية كبيرة. فثمرته طعام فيه كثير من العناصر الغذائية (كالبروتين والشحوم والاملاح والكاربوهيدرات). والشجرة نفسها مأوى وملبس ووقود ومادة للبناء. ويستخرج من ثمرها منتجات كثيرة كالدبس (دشبوه في اللغة البابلية) وأنواع الشراب والخمور[٢٥]. وقد وصفها الكاتب الروماني «استرابون» قائلاً: «إن شجرة النخيل تزود البابليين بجميع حاجياتهم باستثناء الحبوب[٢٦].

ملكية الأرض والعلاقات الزراعية: منذ تفسخ المشاعية البدائية أخذت ملكية

---

(٢٠) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٢٠.
(٢١) المصدر ذاته ص ٤٢١.
(٢٢) المصدر ذاته ص ٤٢٢.
(٢٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٨٦.
(٢٤) المصدر ذاته.
(٢٥) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٢٤.
(٢٦) المصدر ذاته.

الأراضي تتحول تدريجياً إلى أيدي الأفراد والقصور (الملك والطبقة الحاكمة) والمعابد. ففي عهد أسرة أور الثالثة تشكلت في بلاد سومر ملكيات كبيرة (لاتيفونديا) ذات مساحة تتراوح بين (١٠٠ ـ ٣٠٠ هكتار). وفي عهد الدولة الأولى، كان الملك يعتبر إسمياً المالك المطلق لجميع أراضي الامبراطورية (٢٧). وكان لزوجة الملك وأولادها ولموظفي الدولة أملاك خاصة بهم. كما كانت المعابد تستأثر بأملاك شاسعة. فقد قدرت مساحة الأراضي العائدة ملكيتها إلى معابد لاغاش، حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، بما يقارب نصف الأراضي المنزرعة في المملكة (٢٨). وجاءت جميع التشريعات، سواء منها شريعة حمورابي أو القوانين السومرية ـ الأكادية التي سبقتها والشرائع الآشورية والكلدانية التي تلتها، مدافعة الملكية العقارية الخاصة ومكرّسة إياها.

وكانت المساحة المملوكة ملكية خاصة توضع لها حدود ثابتة تعيّن مساحتها. وأما ملكيتها فتثبّت بواسطة الوثائق.. وكانت علامات الحدود الـ «كودورو» عبارة عن ألواح حجرية تحفر فيها علامات ونقوش تبين اسم المالك وحدود الأرض ثم تحفظ في المعابد. وقد ورد في النقوش المحفورة في هذه الوثائق ما يضفي الصفة القدسية على الأملاك الخاصة (٢٩). والملكية العقارية ثلاثة أنواع هي: أملاك دولة، وأملاك معابد، وأملاك خاصة.

أملاك الدولة: وكان الملك يوزع منها بموجب عقد على محاربيه وموظفيه مقابل قيامهم بخدمات عامة، أو على الزُرّاع مقابل دفع ضريبة عينية. وهذه الأراضي لا تباع ولا ترهن. كما كان يقطع منها أحياناً بعض الأمراء ورجال الدولة اقطاعيات كملكية خاصة يحق توريثها وبيعها وتخضع لالتزامات الضرائب إلا إذا اعفيت بمرسوم ملكي خاص. من ذلك أن الملك «مليشيباك» أقطع ابنه اقطاعية وذكر في مرسومه الالتزامات التي اعفاه منها على الصورة التالية: «لا تؤخذ ضريبة على باكورة ثمار أرضه ولا العشور ولا يستدعى رجال إقطاعيته ضمن الفرق التي تشكل في مدن ناحية نينا أغاده للسخرة أو للعمل أو للتوقي من الفيضان أو لصيانة وتدعيم الجسور للقنوات الملكية أو حماية مدن بيت سيكاميدو وداميك أداد وهم ليسوا ملزمين بأن يسخروا للعمل في سدّ القناة الملكية وإقامة الجسور وإغلاق قاع القناة أو تطهيره. ولا يستطيع أي حاكم لـ «بيت بير شادو رابو - Bit - Pir -

(٢٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١١٤.
(٢٨) المصدر ذاته ص ١٠٠.
(٢٩) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص١٢٤.

«Shadourabou» أن يخرج مزارعاً أجنبياً كان أو مواطناً، ولا يجوز الاستيلاء ـ عن طريق أمر ملكي أو أمر من الحاكم أو أمر أيّ انسان كائناً من يكون ـ على أخشاب أو حشائش أو هشيم أو شعير أو أي محصول آخر أو عجلان وكدنها أو حمار أو رجل. كما لا يجوز سحب الماء من ترعة الري عند عدم وجود الماء الكافي في القناة الموصلة بين راتي أنزانيم وقناة الإقليم الملكي. كما لا يجوز أخذ مياه من جدول خزّانه أو تقسيم الري إلى قسمين ومدّ أملاك أخرى بالمياه منه بقصد الري أو الزراعة، ولا يجوز قطع الحشائش من أرضه كما لا يجوز أن تساق حيوانات الملك أو الحاكم إليها أو جمع حشائشها للعلف. وليسوا ملزمين بتعبيد أي طريق أو جسر سواء أكان ذلك للملك أم للحاكم أو بتنفيذ أية سخرة جديدة يفرضها ملك أو حاكم في المستقبل أو أية سخرة زالت وأُريد العودة إليها [٣٠].

٢ ـ **أملاك المعابد**: وكانت تستثمر بطريقتين: في الأولى تؤجر من المزارعين الأحرار الذين يتلقون أيضاً في الغالب حيوانات الزراعة وحبوب البذار، على أن يدفع هؤلاء للمعبد المؤجر حصة من الانتاج لقاء انتفاعهم من هذه الحصص [٣١]. وفي الطريقة الثانية يجري استثمارها مباشرة من قبل المعبد، ويقوم بالعمل فيها عبيد ومزارعون أحرار «شوبلوغالي»، يتوجب عليهم أن يصبوا المحصول كله في أنبار المعبد، ويتلقون مقابل جهودهم مقداراً من القمح وأحياناً مواد أخرى [٣٢].

وكان المصدر الرئيس لملكية المعابد من الأراضي هو غنائم الحرب، حيث كان الفاتحون يهبون المعابد الكبرى حصة من الأراضي والأسرى وغير ذلك من المغانم والاسلاب كما استولت المعابد على جزء من أراضي المشاعيات. وتذكر النصوص أن معابد لاغاش كانت تملك، حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ما يقرب من نصف الأراضي المنزرعة في المملكة [٣٣].

وقد أغدق الملوك المنح والهدايا السخية على المعابد، بهدف استخدامها للدفاع عن السلطة الملكية الارستقراطية بما لها من تأثير ايديولوجي في الجماهير الشعبية.

وكانت الفئة العليا من رجال الدين تتألف من النبلاء. وقد عاش ارستقراطيو الكهنة في يسر ورفاه على حساب استغلال الجماهير العاملة (من الزراع والحرفيين والعبيد) وبؤسها. ولم

(٣٠) المصدر ذاته ص ١٢٧.

(٣١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٠٠.

(٣٢) المصدر ذاته.

(٣٣) انظر ص ٢٦٦.

يكن لجشعهم حدود. واتبعوا مختلف الأساليب في نهب الجماهير الشعبية ومن ضمنها ممارسة الأعمال الربوية وزيادة الرسوم على دفن الموتى، بل إنهم وقفوا دائماً في الصف المناوىء للحركات الشعبية، ولم يتورعوا من التآمر مع الأجانب على حرية واستقلال وطنهم في سبيل الحفاظ على مصالحهم الأنانية الضيقة وتوسيعها.

٣ ـ الأملاك الخاصة: صغيرة ومتوسطة وكبيرة. وتشير الحسابات التقديرية إلى أن حوالي ٩٠٪ من الملكية الخاصة في عهد الدولة البابلية الأولى، كان على شكل ملكيات متواضعة لا تتجاوز مساحة الواحدة (٨,٥) هكتارات، وأكبرها مساحة في ذلك العصر لا تزيد على (٣١,٥) هكتاراً [٣٤]. وكانت أراضي الملاكين الافراد تستثمر مباشرة أو تؤجر حصصاً.

واهتمت القوانين بتنظيم العلاقات الزراعية بين المالك والمستأجر. فقد نظمت شريعة حورابي شروط إيجار الحقول والبساتين. فمستأجر الحقل المهمل الذي لا يحرث الأرض أو لا يهتم بالمحصول عليه أن يدفع إلى مالك الأرض الأصلي حصته حتى ولو لم يكن هناك محصول، كما عليه أن يحرث الحقل ويعيده إلى صاحبه (المواد: ٤٢، ٤٣، ٤٤). والفلاح مالكاً أو مستأجراً عليه أن يعوض كل عطل أو ضرر يسببه لأرض جيرانه إذا أهمل اصلاح السدود أو السواقي الموجودة في أرضه فتسربت المياه إلى الأرض المجاورة المنزرعة وأضرت بها (المادة ٥٣). وإذا لم يكن قادراً على التعويض يباع هو نفسه كما يباع متاعه ويقسم المال بين المتضررين (المادة ٥٤). وإذا أعطى ملاك أرضه لبستاني كي يحولها إلى بستان مشجر بالاشجار المثمرة تقاسم الطرفان المحصول مناصفة اعتباراً من العام الخامس، ولصاحب البستان حق الحصول على النصيب الأفضل (المادة ٦٠). وإذا لم يشجر قسماً منها اعتبر ذلك القسم في حصة البستاني المستأجر (المادة ٦١). أما إذا لم يشجرها مطلقاً فعليه أن يعوض صاحبها الأصلي حصة تقاس على أساس انتاج أرض مجاورة عن كل سنة خلال مدة استلامها، ومن ثم عليه أن يحرثها ويعيدها للمالك الأصلي (المادة ٦٢). وإذا أجر رجل بستانه لبستاني لاستغلاله ينال المؤجر ثلثي المحصول والمستأجر ثلثه الآخر (المادة ٦٤). وأما إذا لم يقم البستاني بتلقيح الأشجار ومن ثم هزل المحصول فإن البستاني يدفع ايجار البستان بما يعادل ايجار المثل المجاور (المادة ٦٥). وإذا قطع رجل شجرة من بستان رجل آخر دون موافقة صاحبه عليه أن يدفع نصف منيا من الفضة عن الشجرة الواحدة (المادة ٥٩).

(٣٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١١٥.

وقد حمت قوانين حمورابي صغار الزراع من جشع المرابين. فإذا استدان فلاح أموالاً بالفائدة لتأمين البذار وحدث قحط أو فيضان أو غير ذلك وتلف المحصول، فإن الفلاح يُعفى من دفع الفائدة إلى المرابي عن تلك السنة (المادة ٤٨).

ونظمت شريعة حمورابي أيضاً شروط استئجار العمال الزراعيين والحيوانات المستخدمة في حراثة الحقل ودراسة المحصول أو نقله. فمن يستأجر عاملاً زراعياً لمدة سنة عليه أن يدفع له (٦) شي من الفضة في اليوم الواحد (المادة ٢٧٣). وكانت أجرة الثور لدرس المحصول عشرين وزنة من الحبوب في اليوم (المادة ٢٦٨) وأجرة الحمار (١٠) وزنات من الحبوب (المادة ٢٦٩). وأجرة الغنمة أو العنزة وزنة واحدة (المادة ٢٧٠).

يتضح مما تقدم أن القوانين في العراق القديم عبّرت بكل سطوع عن مصالح ملاك الأراضي وكرست نظام الاستغلال العبودي، واستغلال المالكين غير المالكين استغلال المالكين للمستأجرين وصغار المزارعين، استغلال السادة للعبيد.

تربية المواشي:

اهتم العراقيون القدماء بتربية الأغنام والماعز والأبقار والحمير والخيل ومختلف الدواجن باستثناء الدجاج الذي يرجح أنه أدخل إلى العراق من الهند في العهد الكلداني أو ما قبل ذلك بقليل[٣٥]. وغدت هذه الحيوانات إلى جانب الزراعة مورد حياتهم الرئيس، فضلاً عن فوائدها الجلى في الأعمال الزراعية وفي النقل.

وقد تركزت مناطق التربية في المروج المستنقعية في بلاد سومر وأكاد وعلى سفوح الجبال، وأحياناً كانت تربى في الحظائر وتعلف بالحبوب. ولم تكن المراعي في حاجة إلى عناية أكثر من سقيها وقطع كلئها. وتقدم المناظر الخاصة بالمراعي والمنقوشة على الأختام الاسطوانية أمثلة عديدة على ذلك[٣٦].

وقد نظمت القوانين العلاقة بين أصحاب القطعان والرعاة. وكان الرعاة يتقاضون عادة أجراً سنوياً مقداره (٨) «كورا» من الحبوب (المادة ٢٦١ من قانون حمورابي). وعلى الراعي مراقبة القطيع جيداً، فإن ضاع منه شيء عليه أن يعوض صاحبه منه (المادة ٢٦٣ من القانون نفسه). وإن هو غيّر عامداً من علامات الماشية أو باع واحدة منها لمصلحته فإنه يعرض نفسه إلى أن يدفع تعويضاً قد يبلغ عشرة أمثال قيمة ما سرق (المادة ٢٦٥). وإذا

(٣٥) باقر، طه: المصدر السابق ص٤١٨ - ٤١٩.

(٣٦) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص ١٣١.

حل بالقطيع ضرر كمهاجمة الوحوش مثلاً فعليه تعويض الخسارة لصاحب القطيع ما لم يستطع أن يبرىء نفسه بحلف اليمين لاثبات الظروف القاهرة الخارجة عن إرادته التي أدت إلى الخسارة (المادة ٢٦٦). وفي المتحف العراقي إفريز بناء وجد في معبد تل العبيد زين بمشاهد منها منظر جميل يمثل بعض الشؤون الزراعية كحلب الأبقار وخض الحليب في زق كبير [٣٧] (صناعة اللبن ومشتقاته).

الحرفة:

تدل مخلفات الانسان التي عثر عليها علماء الآثار في تل حسونة وتل العبيد والوركاء وجمدة نصر على مدى التقدم الذي حققه قدماء العراقيين في عصر فجر السلالات وما قبله في حقل الصناعة اليدوية ولا سيا الحفر في الآبنوس وأنواع المعادن المختلفة الذي يقود لنهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد. وقد وجدت بين هذه المخلفات تحف فنية مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص. وقد استدل العلماء من دراستها أن الصناع الذين قاموا بعملها كانوا يعرفون عمليات خلط المعان ولحامها وصقلها وطرقها وترصيعها وتطعيمها أو تكفيتها [٣٨]. هذا فضلاً عن الأدوات والأواني التي صنعوها من الحجارة والفخار والخشب والعظم وغير ذلك.

وقد تطورت الحرفة بتطور الزراعة وتربية الماشية ولا سيا نشاط التجارة التي أمنت للحرفة المواد الخام الضرورية وخاصة المعادن التي كان العراق فقيراً إليها.

وكان يعمل في الحرفة الأحرار والعبيد. ومن بين الصناعات السومرية ـ الأكادية التي تشير إليها الألواح: الفخار، والنجارة، والأثاث، وحياكة النسيج، وورشات النحاس والبرونز لصنع الأسلحة (كالمدى والرماح وغيرها) وصناعة الحلي [٣٩].

وفي عهد الدولة البابلية الأولى، تقدمت الصناعة وظهر الحرفيون في المدن وأصبحوا يعيشون مما تدره عليه مهنهم. وتعددت المهن ونظمت، وتألفت من الصنّاع في زمن حمورابي نقابات تسمى (القبائل). ووجدت أيضاً ورشات صناعية خاصة وورشات ملحقة بالمعابد والقصور الملكية تضم صنّاعاً ماهرين وآخرين متدربين يتعلمون أسرار المهنة [٤٠].

---

(٣٧) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤١٨.

(٣٨) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ١٨٤

(٣٩) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ٩٧.

(٤٠) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٢٨.

واستخدم البابليون في الصناعة المعادن المختلفة كالنحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب استوردوها من بلاد آشور وفارس وآسيا الصغرى وقبرص ومصر [٤١]. واشتهرت بلاد الرافدين في عهد البابليين بصناعة الأقمشة وأثاث المنازل والأدوات المنزلية والأسلحة ودبغ الجلود والأحذية والزيت من السمسم والمشروبات المخمرة كنبيذ البلح والجعة وتحسنت أيضاً صناعة الآجرّ المستخدم في البناء، كما تطورت صناعة السفن والقوارب النهرية المستخدمة في النقل والتجارة.

وقد نظمت قوانين حمورابي الحرفة والعلاقة بين الصانع الماهر (المعلم) والمتدرب (الأجير). وحددت أجور الصناع ومسؤولياتهم المدنية. وبموجب القوانين المذكورة: « إذا تبنى عضو من فئة الصناع ولداً وعلمه حرفته فله الحق ألا يرده إذا طالب به أهله الأصليون (المادة ١٨٨). أما إذا لم يكن قد علمه حرفته فيستطيع أن يعود إلى بيت أبيه (المادة ١٩٠). وإذا استأجر رجل صانعاً يجب أن يدفع له (٥) « شي » من الفضة في اليوم ولصانع الطوب كذا... وللحائك (النساج) كذا... وللحداد كذا.. ولصانع الجلود كذا.. وللبناء كذا... وللنجار كذا.. ولصانع المعادن كذا... (نص المادة ٢٧٤ التي تحدد أجور الصناع مشوه على نصب حمورابي).

وتطالب قوانين حمورابي الحرفيين باتقان صناعاتهم. فصانع المركب الذي أساء صنعه وظهر فيه عطل خلال عام عليه أن يصلحه ويسلمه إلى صاحبه (المادة ٢٣٥). والمعماري الذي يبني بيتاً لرجل وتتزعزع جدرانه عليه أن يدعم الحائط على نفقته (المادة ٢٣٣). أما إذا انهار البيت وقتل أحد الأشخاص داخله أو تسبب في اتلاف المتاع فعلى البنّاء أن يعوض الخسارة على مبدأ (العين بالعين والسن بالسن)، فإذا قتل صاحب البيت يقتل البنّاء (المادة ٢٢٩). وإذا قتل ابن صاحب البيت يقتل ابن البنّاء (المادة ٢٣٠).

وفي عهد الدولة الكلدانية (البابلية الجديدة) كان السادة يبعثون بعبيدهم إلى الصنّاع المختصين لتعليمهم حرفهم مقابل هدية يتقاضاها المعلم. وإلا فإنه يدفع تعويضاً إن أهمل تعليمه، وأما الهدية فتقدم عرفاناً بالجميل أكثر منها أجراً، ذلك لأن المعلم يفيد من عمل الصبي أثناء تدريبه [٤٢]. ويحدث أيضاً أن المرابي كان يعلم عبده صنعة ما، ويساعده بعد ذلك على فتح ورشة، فيعمل فيها الصانع العبد على أن يقدم لسيده « مانداتو » من الفضة سنوياً [٤٣].

(٤١) نفس المصدر والصفحة.

(٤٢) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص١٣٦ - ١٣٧.

(٤٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٢٢٨.

التجارة والمواصلات:

لقد ساعد توحيد البلاد وانشاء امبراطورية واسعة والموقع الجغرافي الممتاز للعراق وحاجته إلى جلب المواد الخام الضرورية وتصريف فائض الانتاج ساعد كل ذلك على تنشيط التجارة في مختلف العهود التاريخية القديمة. وتشير الألواح أن السومريين استوردوا، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، المعادن والحجارة وأخشاب الأرز والخمور من خارج العراق[٤٤].

وقد وضع سارغون الأكادي نظاماً موحداً للمقاييس والاوزان فساعد ذلك على تنشيط العلاقات التجارية داخل البلاد. وتشير مجموعة الألواح التي عثر عليها في «تلّو» إلى تبادل البضائع والمنتجات بين مختلف مدن الامبراطورية الأكادية وخاصة بين أكاد ولاغاش. وفي عهد سلالة أور الثالثة نما الإنتاج البضاعي (انتاج منتجات غير معدة للاستهلاك الشخصي بل للبيع، للمبادلة في السوق) وتطورت التجارة والربا.

وفي زمن حمورابي حدث توسع هائل في التجارة مع الشمال والغرب نتيجة للتوسع السياسي لبابل المتحدة. وكانت العاصمة الجديدة المركز الحقيقي لتجارة الشرق بفضل مركزها الجغرافي بين آسيا العليا والدنيا حيث يتقارب الرافدان[٤٥]. وقد خصص قانون حمورابي (١٢٠) مادة من مجموع مواده البالغة (٢٨٢) للمعاملات والشؤون التجارية. ونستدل من شريعة حمورابي أن التجار البابليين كانوا يعرضون بضائعهم في أمكنة خاصة، وكان لهم وكلاء في بعض فروع المحلات التجارية، ويشكلون أحياناً شركات مساهمة[٤٦]. وكان التاجر الكبير الممول (تامكاروم) يستثمر التاجر الصغير (شامالوم) الذي يرتحل مع البضاعة إلى المدن والمناطق البعيدة ليبيعها مقابل حصة من الربح. وكان الأمر يتطلب أن يكون هناك عقد مختوم وموقع من الطرفين يحدد فيه بدقة المال أو البضاعة (كميتها ونوعها) والشروط المتفق عليها من حيث الربح وغير ذلك. وكان على الوكيل أن يمسك حساباً دقيقاً عن عملياته ويسجل كل ما حصل عليه من أرباح[٤٧]. كما كان عليه عند عودته أن يقدم كل رأس المال إلى موكله مقابل ايصال بذلك ثم يأخذ من الأرباح النصيب الذي كان قد اتفق عليه قبل الارتحال (المادتان ١٠٤، ١٠٥). وإذا لم يحقق

---

(٤٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٩٧.

(٤٥) ديلابورت: المصدر السابق ص١٣٩.

(٤٦) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٢٦.

(٤٧) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص١٤٠.

التاجر المتجول (الوكيل) ربحاً عليه أن يعيد رأس المال فقط إلى التاجر الممول مضاعفاً (المادة ١٠١). أما إذا استطاع أن يبرر أسباب الخسارة فعليه أن يعيد رأس المال فقط إلى التاجر الممول (المادة ١٠٢). كما أنه يُعفى من دفع أي شيء إذا سرقت البضاعة أو ضاعت لقلة الأمن في الطرق أو لأسباب قاهرة لا ذنب له فيها ويشترط أن يؤيد ذلك بالقسم (المادة ١٠٣). وإذا حدث بينهما خلاف رفع إلى المحكمة للفصل فيه. فإذا كان الذنب على الوكيل (التاجر المتجول) عليه أن يدفع ثلاثة أمثال المبلغ إلى التاجر الممول، وإذا كان الذنب على التاجر الممول عليه أن يدفع ستة أمثال المبلغ المختلف عليه (المادة ١٠٧).

وقد نظمت قوانين حمورابي التعامل بالربا وأمور الايداع والرهن والضمان والشراكة والمضاربة والعمولة والسمسرة وغير ذلك من المعاملات (المواد: ١١٢ - ١٢٦). وكان يجب أن تتم جميع المعاملات بموجب عقود موقعة ومختومة من قبل أصحاب العلاقة والشهود. وكان سعر الفائدة (سيبتو) لقروض الحبوب ٣٣,٣ ٪ (ثلث رأس المال) وسعر الفائدة لقروض الفضة ٢٠ ٪ (خمس رأس المال) في السنة. وسمح القانون بتحصيل الديون مع فائدتها عند أجلها حتى ولو اضطر المدين أن يقدم نفسه (غالباً زوجته أو أولاده) للعمل لدى الدائن مدة ثلاث سنوات لتسديد الدين (المادة ١١٧).

وكان يزاول الربا مرابون من «التامكاروم». ولم يحرم رجال الدين الربا أو على الأقل لم يستنكروه أو يزدروه، بل على العكس فإن العديد من الكهان والكاهنات كانوا يزاولونه. ولحماية المدين من المرابي أمر حمورابي أن يكتب عقد القرض ذي الفائدة في حضور موظف كان مكلفاً منذ عهد أور بمعرفة ما يسلم من أموال وحبوب وحيوانات وسلع من مختلف الأنواع[٤٨]. ومع ذلك كان المرابون يتجاوزون هذين السعرين الرسميين للفائدة، ويستأجرون مهرة الكتاب ليخادعوا الموكلين بتنفيذ القانون[٤٩]. وفي عداد أساليب تحايلهم على القانون، أنهم كانوا يلجأون إلى عدم ذكر الفائدة التي يتسلمها المرابي ويضيفها في الصك الجديد إلى رأس المال وبذا يحصل عليها مضاعفة[٥٠].

وفي عهد الآشوريين، كان قلما يرد في العقود سعر الفائدة التي ان حددت فإنما تحدد لأجل يمتد على أساس الشهر أو السنة. أما إذا كان القرض بدون فائدة فإنه في حالة عدم

---

(٤٨) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص ١٥٤.
(٤٩) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٠٤.
(٥٠) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٠١.

سداد الدين في التاريخ المحدد تقدر فائدة تتراوح بين ٤٠ ٪ـ ١٤٠ ٪[٥١]. وأحياناً يشار إلى الفائدة بعبارة يزيد بمقدار الربع أو الثلث أو النصف أي أن الفائدة ٢٥ ٪ أو ٣٣,٣ ٪ أو ٥٠ ٪[٥٢]. وقد حددت بعض العقود أن ثمن ما أقرض يجب أن يسدد فإن لم يسدد تسري عليه فائدة بواقع ١٠٠ ٪[٥٣].

وكان كهنة بابل يدعمون اتجاهات الملوك الكلدانيين إلى إنشاء امبراطورية واسعة وسلطة قوية، لانهم كانوا، على غرار المرابين المدنيين، قد اغتنوا في زمن الدولة العسكرية الآشورية، وأنهم أملوا منذ سقوطها أن يروا قيام دولة مماثلة في ظل الملوك الكلدانيين[٥٤]. وكان الممثل الرئيس للرأسمال الربوي آنذاك بيت اجيبي في بابل.

وفي عهد آشور واصلت التجارة نشاطها وتوسعها. وقد اكتشف المنقبون عام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ موضعاً اثرياً وسط الأناضول اسمه «كول تبه» جنوب شرقي انقرة، عثروا فيه على عدد كبير من الواح الطين مكتوبة بالخط المسماري، والختوم الاسطوانية المستعملة في المعاملات التجارية مما يجده الأثريون في مدن العراق القديم[٥٥]. وظهر من التحريات أن تلك المدينة كان يتبعها مراكز أخرى في الأناضول وأنها كانت مرتبطة بمدينة آشور (الوطن الأم). وقد ثبت من دراسة الوثائق المذكورة معرفتهم بالحوالات التجارية عن طريق التبادل ومعرفتهم بكتب الاعتماد.

وفي زمن الامبراطورية الآشورية الثانية (القرن ٨ - ٧ ق.م) تطورت التجارة تطوراً شديداً. ولم يكن مرد هذا التطور إلى نمو القوى المنتجة في البلاد، وإنما سببته الفتوحات. فقد اغتنى قادة الجيش والكهنة والموظفون والجنود من غنائم الحرب. وكانت الجزية تمر أيضاً بين أيادي العسكريين والموظفين الجشعين قبل أن تصل إلى خزينة الملك. وقد كدّس الجنود ومنتفعون آخرون كثيراً من القيم الفائضة وباعوها في السوق. ونشأ سوق تجاري في مدينة انينوى، وازداد عدد التجار. وتتندر الوثائق حين تذكر أن عددهم هناك في هذه الحقبة التاريخية فاق نجوم السماء[٥٦].

---

(٥١) ديلاپورت، ل: المصدر السابق ص٣٧٦.

(٥٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٦ ص٢٠٢.

(٥٣) نفس المصدر والصفحة.

(٥٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٢٢٧.

(٥٥) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٤١.

(٥٦) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٢١٧.

استخدم العراقيون القدماء المقايضة كأول وأقدم شكل لتبادل السلع. ثم استعملوا المعادن (النحاس والفضة والذهب) واسطة للتعامل لقياس قيمة المواد الأخرى عليها. فاستعملوا الفضة مثلاً على صورة صفائح صغيرة أو حلقات أو أقراص مثقوبة ذات وزن محدد وتدفع لضمان نوعها وعيارها ووزنها [٥٧]. وكانت هذه هي الخطوة الأولى للتطور نحو استخدام النقود. وتذكر المصادر القديمة أن قطعاً معدنية ذات أوزان معلومة مقدار كل منها نصف شاقل كانت متداولة في زمن الملك الآشوري سنحاريب تسمى « رؤوس عشتار » [٥٨]. وكانت المدفوعات تتم بواسطة وزن الفضة أو المعادن الأخرى التي تتخذ أساساً للتبادل. وكانت هناك إدارة خاصة بشؤون الموازين والمكاييل. وكانت وحدات الموازين تصنع على صورة البط أو الأسود. وفي المتحف العراقي نماذج من هذه الأوزان الرسمية وهي منقوشة بالكتابة الرسمية التي تبين مقدار الوزن القياسي [٥٩]. ولئن لما يعثر بين الآثار على ميزان إلا أنه لا بد أنهم عرفوا الميزان ذا الكفتين واستعملوه. فالكلمة مثناة في اللغة مما يشير إلى كفتي الميزان والفعل « وزن يزن » (شقالو ومنه كلمة شيقل) موجودة في اللغة [٦٠]. وقد وجدت فعلاً صور رجل يحمل ميزاناً في يمناه ويلف آخر بيسراه [٦١].

وكانت الموازين تتبع نظام العد الستيني، ووحدة الوزن كانت تدعى « مينا » وتزن (٥٠٥) غرامات وهي تقسم إلى (٦٠) شاقلاً ويزن الشاقل (٨,٤١٦) غرامات... وكانت كل (٦٠) مينا تعدل « وزنة » و « الوزنة » تزن (٣٠,٥٠٥) كيلوغراماً [٦٢].

استخدم العراقيون القدامى الطرق النهرية والبحرية والبرية في نقل تجارتهم. ومنذ عصر فجر السلالات كان الفرات ودجلة والقنوات النهرية السبل الطبيعية للمواصلات بين مختلف مناطق سومر وأكاد. وقد عرفوا القوارب منذ الألف الرابع قبل الميلاد وصنعوها من الخشب ومن القصب ومن الجلود (القربة)، وتوسعوا في أشكالها. فقد عثرت مديرية الآثار العراقية حديثاً في تنقيباتها في أريدو (أبو شهرين) على نموذج قارب يعد أقدم ما صنعه الانسان إذ يرجع تاريخه إلى عهد العبيد (حوالي ٤٠٠٠ سنة ق.م) [٦٣]. وتطلعنا النقوش

---

(٥٧) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٣٨.
(٥٨) نفس المصدر والصفحة.
(٥٩) المصدر ذاته ص ٤٣٧.
(٦٠) نفس المصدر والصفحة.
(٦١) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص١٩٥.
(٦٢) المصدر ذاته ص١٩٦.
(٦٣) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٣٩.

الأثرية على صور مراكب ذات المجاديف من عهد أور ومراكب ذات ثلاثة طوابق ومراكب ضخمة لنقل الأخشاب (نقوش خرسباد) ثم مراكب للحمولة الثقيلة[٦٤] . وقد نقل الملك « أورنينا » الأخشاب اللازمة لتشييد معابد لاغاش بطريق الماء . كما استجلب « غوديا » ملك لاغاش الأخشاب والحجارة والمعادن الثمينة عن طريق الأنهر أيضاً[٦٥] . وتحمل بعض الاسطوانات القديمة صور قوارب بلغت حمولة بعضها في عهد أور (٩٠) « كورا » من الشعير[٦٦] . وكانت المراكب تستعمل لنقل الركاب والبضائع معاً . ولم تكن السفرة من لاغاش إلى سوزا عاصمة عيلام تستغرق بالمراكب أقل من شهرين بالطريق النهري[٦٧] .

وقد حددت قوانين حمورابي ثمن السفن التجارية واجورها واجور الملاحين وشروط الملاحة والأضرار الناجمة عنها . فكان ثمن المركب الذي سعته (٦٠) « كورا » من الحبوب شاقلان من الفضة (المادة ٢٣٤) . وإذا حدث عطل في المركب خلال عام من شرائه فعلى صانعه أن يصلحه على نفقته ويعيده إلى المشتري (المادة ٢٣٥) . وإذا استأجر مراكبي (ملاح) سفينة وغرقت نتيجة اهماله يدفع ثمنها (المادة ٢٣٦) . وإذا استأجر رجل سفينة وحملها بضائع من حبوب وصوف وزيت وغير ذلك وغرقت نتيجة اهمال المراكبي عليه أن يعوض أصحاب البضاعة وصاحب السفينة مما فقدوا (المادة ٢٣٧) . أما إذا استأجر ملاح سفينة وغرقت ولكنه استطاع انتشالها فإنه يدفع نصف قيمتها فضة إلى صاحبها (المادة ٢٣٨) . وكانت أجرة القارب الطويل (٣) « شي » من الفضة في اليوم الواحد (المادة ٢٧٥) . وأجرة قارب التجديف (٢ ½) « شي » من الفضة في اليوم (المادة ٢٧٦) . وأجرة السفينة التي تسع (٦٠) « كورا » من الحبوب سدس شاقل من الفضة في اليوم (المادة ٢٧٧) .

ولم تقل حركة الملاحة النهرية في العهد الكلداني : ففي زمن نابونيد دفع (١ ¼) شاقل من الفضة لقاء استئجار مركب لنقل ثلاثة ثيران وأربعة وثلاثين رأساً من الماشية الصغيرة قدمها الأمير الملكي إلى شماش والآلهة الآخرين في سيبار . هذا وقد ارتفعت التعرفة المعتادة لاستئجار القوارب منذ زمن حمورابي وبلغت في المتوسط شاقلاً في اليوم[٦٨] . ومما يجدر

---

(٦٤) ابراهيم ، نجيب ميخائيل : المصدر السابق ج ٦ ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٦٥) ديلابورت ، ل : المصدر السابق ص ١٣٨ .

(٦٦) نفس المصدر والصفحة .

(٦٧) المصدر ذاته .

(٦٨) ديلابورت ، ل : المصدر السابق ص ١٣٨ - ١٣٩ .

ذكره أن كلمة « ملاح » المستعملة في جميع الأقطار العربية أصلها سومري. واسم الملاح بالسومري يتألف من علامتين مسماريتين تدل الأولى (ما) على القارب والثانية (لاخ) بمعنى ذهب وجاء ولعل ذلك من حقيقة استعمال (المروي)[٦٩].

واهتمت الحكومات بتعبيد الطرق التجارية البرية وبنوا فيها القلاع والحصون لتأمين سير القوافل وسلامتها. وأنشأوا نظام البريد لنقل الرسائل والأخبار. وقد عثر المنقبون حديثاً في منطقة الخابور شمالي سورية على حصنين بناهما الملوك الأكاديون في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد للمحافظة على الطريق المهمة التي كانت تربط العراق بسورية[٧٠] وكان سارغون الأكادي قد جرد حملة حربية على الأناضول لحماية مستوطنة تجارية أكادية في كپاروسيا للتجارة بالصوف والفضة[٧١].

واستخدم العراقيون العربات وحيوانات الجر والركوب، الحمار والبغل والجمل، في تنقلاتهم البرية. أما الحصان الذي أدخله الكاشيون إلى بلاد الرافدين فكان يستعمل في الحرب أكثر من استعماله كوسيلة مواصلات.

وكانت الحاجة إلى عدد من المواد الخام الضرورية للصناعة والبناء قد حملت حكومات بلاد ما بين النهرين على تنمية التجارة الخارجية مع البلدان المجاورة وخاصة مع عيلام في الشرق، وآسيا الصغرى في الشمال الغربي، وسورية في الغرب، والجزيرة العربية وبلدان الخليج في الجنوب. فكانت عيلام تورد للعراق المعادن والحجارة، وآسيا الصغرى الفضة والمعادن، وسورية أخشاب الأرز والخمور، والجزيرة العربية الأخشاب والحجارة الصلبة واللازورد والنحاس، وبلدان الخليج الصدف، والهند العاج والأحجار الكريمة، والقوقاز القصدير. وتشير الألواح القديمة المتبقية من أيام بابل إلى أنهم كانوا يصدرون إلى الخارج الأقمشة والأشياء المصنوعة والحمير. وليس هناك ما يدل على أنهم كانوا يصدرون المواد الغذائية رغم وفرتها عندهم. ولعل السبب في ذلك صعوبة المواصلات وتعرض هذه المواد إلى التلف لطول الوقت الذي يستغرقه نقلها[٧٢].

وقد اغنى العراقيون القدماء، وخاصة البابليون، تراث البشرية التجاري بكثير من مصطلحات البيع والشراء والمعاملات التجارية وكذا بعض أسماء المكاييل والموازين التي انتقلت إلى الشعوب الأخرى.

---

(٦٩) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٣٩.

(٧٠) نفس المصدر والصفحة.

(٧١) المصدر ذاته.

(٧٢) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص١٨٥.

الفصل السادس والعشرون

المجتمع العبودي في العراق القديم

عاش قدماء العراقيين حياتهم الاجتماعية الأولى على شكل عشائر وقبائل. وكان جميع أعضاء العشيرة متساوين في الحقوق الاجتماعية، يعمل الفرد لخير الجميع والجميع لخير الفرد. وكان للمرأة مكانة مرموقة بالنظر لدورها النشيط في الحياة الاقتصادية مما جعل بعض العلماء يسمون مشاعية العشيرة هذه بـ « مشاعة الأمومة » والنظام الاجتماعي بـ « نظام الأمومة ».

ومع تطور وسائل الري ونمو القوى المنتجة، وبالدرجة الأولى الادوات الزراعية، انقسمت المشاعة العشيرية إلى مجموعة من الأسرات الفلاحية الكبيرة والصغيرة، وأخذت تبرز تدريجياً عائلات قوية تستأثر بأحسن الغنائم، وحلت الأسرة الأبوية محل الأسرة الأموية ونشأت الطبقات الاجتماعية المتمايزة: طبقة النبلاء والأشراف استولت على السلطة والثروة وطبقة الناس البسطاء الفقراء الذين كان عليهم أن يخضعوا لحكم الأقوياء الاغنياء ويعملوا من أجلهم. وفيما بعد نشأت طبقة العبيد وتشكل المجتمع العبودي.

وقد تناهت إلينا مجموعة هامة من القوانين تساعدنا، بصورة جيدة، على دراسة المجتمع العراقي القديم وتطوره. أهم تلك القوانين:

١ ـ قوانين المصلح الاجتماعي اورو كاجينا ملك لاغاش.
٢ ـ شريعة اور نامو مؤسس سلالة اور الثالثة.
٣ ـ قانون بلالاما ملك اشنونا.
٤ ـ شريعة لبيت عشتار ملك ايسن.

٥ ـ قوانين حمورابي ملك بابل.
٦ ـ الشرائع الآشورية.

لقد جمع حمورابي القوانين والاعراف السومرية ـ الأكادية وعدّل بعضها بما يتلاءم مع تطورات عصره، وأصدرها في مجموعة قانونية شاملة تحتوي على (٢٨٢) مادة بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة. وقد نقشت شريعة حمورابي باللغة البابلية والخط المسماري على نصب من البازلت على شكل أعمدة يبلغ عددها (٥١) عموداً، محيت منه خمسة أعمدة تحتوي على (٣٣) مادة (من المادة ٦٦ ـ ٩٩) ولكن هذه الفجوة تعوضها بعض الأجزاء من نسخ قديمة محفورة في لوحات الطين وهي من الآثار الآشورية للعصر السارغوني أو تسد فراغها بعض المواد المتصلة بالقرض ذي الفائدة وعقود التوكيلات التي عثر عليها في خرائب نيپور. وقد عثر على نسخة من قانون حمورابي عالم الآثار الفرنسي دومورغان عام ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ بين خرائب سوزا عاصمة دولة عيلام. والنصب البازلتي الذي نقش عليه قانون حمورابي محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس[١].

يبلغ طول النصب ٢,٢٥ مترين ومحيطه عند القاعدة ١,٩ متراً وفي اعلاه نقش بارز يمثل حمورابي واقفاً أمام إله الشمس والحقيقة والعدالة ـ الإله شاماش الجالس على عرشه وبيده اليمنى القضيب والخاتم شعارا السلطة القضائية العليا.

لقد أخذت تتوضح معالم المجتمع الطبقي منذ أن تأسست دويلات المدن، وتبلورت بوضوح في عهد تشكل الدولة الاستبدادية المركزة (البابلية والآشورية والكلدانية). ولما كانت شريعة حمورابي تمكّن الباحث من توضيح وضع الطبقات وعلاقاتها الاجتماعية. لذا فإننا نعتمدها أساساً لدراسة المجتمع العبودي الطبقي في العراق القديم.

كان المجتمع العبودي البابلي زمن حمورابي مجتمعاً طبقياً يتألف من طبقات ثلاث غير متساوية في الحقوق والواجبات. وهذه الطبقات هي:

١ ـ الطبقة العليا من الاحرار (الاميلو أو أمار اميلو ـ أي الانسان أو ابن الانسان: وهي الطبقة التي ولد أفرادها أحراراً من أبوين من طبقة الاحرار أو من حرة. وكان «الاميلو» يتمتعون بكافة الحقوق ولهم السيادة في المجتمع. فهم اصحاب العبيد وملاك الأراضي، ومنهم تتشكل المجالس المحلية ويؤخذ الموظفون والكهنة. وكانت هذه

(١) ديلاپورت، ل: المصدر السابق ص١٠٩.

الطبقة ذات الامتيازات، في عهد الامبراطورية الآشورية، لا تستغلّ العبيد فقط، بل أيضاً الزراع المستعبدين والسكان المهجرين من البلدان المغلوبة[2].

٢ ـ الطبقة العامة (الموشكينو): وتتألف من فقراء الاحرار ومن الارقاء الذين تحرروا وابناء الرجال الاحرار الذين تزوجوا بإماء إذ أنهم يتحررون من العبودية بعد وفاة والدهم الحر. وكان الموشكينو يمارسون مختلف المهن ولهم الحق في التملك، وهم كالاميلو أصحاب عبيد وملاك أراض، ولكنها غير متساويين في الحقوق المدنية. فلقاء التشويه الذي يسبب لشخص من «الاميلو» كان المذنب يعاقب بتشويه مماثل (العين بالعين والسن بالسن) حسب المادة ١٩٦ من القانون. أما لقاء التشويه المسبب «لموشكينو» فكانت العقوبة تقتصر على دفع غرامة واحدة (مينا من الفضة) حسب المادة ١٩٨ من القانون. وإذا قام شخص ينتسب إلى الموشكينو بسرقة ما فإنه يدفع غرامة تزيد عدة أضعاف على مقدار الغرامة التي يدفعها الانسان «الاميلو» في حالة مماثلة. وفقط في حالة سرقة العبد، الأمر الذي كان يعتبر تطاولاً على أسس المجتمع ذاتها، كان الحكم بالموت يهدد المذنب بدرجة واحدة حسب المادة ١٩ من القانون.

وكان الموشكينو الفقير، من أجل الحفاظ على حياته، يضطر إلى استدانة أدوات الانتاج والبذار والفضة وغيرها من الاغنياء بفائدة سنوية تتراوح بين (٢٠ - ٣٣,٣)بالمائة. وكان عدم الدفع يستتبع فقدان الممتلكات بما في ذلك قطعة الأرض، إذا كان المدين يملكها. وكان الموشكينو المفلس (وعادة اعضاء أسرته) يقع في عبودية الدين لمدة ثلاث سنوات كما جاء في المادة ١١٧ من قانون حمورابي ونصها: «إذا حل أجل التزام على رجل (العامي من الاحرار) ثم باع خدمات زوجته أو أبنته أو ابنه أو سخر للخدمة فإنهم يعملون في بيت مشتريهم أو ملتزمهم مدة ثلاث سنوات وتعاد إليهم حريتهم في السنة الرابعة»[3].

بِمَ يفسر هذا التمايز في الحقوق المدنية بين الاميلو والموشكينو؟ لقد وضعت في تفسير ذلك افتراضات عديدة. فالأكاديمي ستروڤيه Strouvé يقدر بأن «الاميلو» مواطني بلاد بابل المتمتعين بجميع الحقوق المدنية، كانوا الفاتحين العموريين. وأن كلمة «موشكينو» كانت تعني السكان الاحرار لسومر وأكاد الذين خضعوا لهم[4]. وفي رأي دياكونوف

(٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص٢١٨.

(٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٦ ص٦٧.

(٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١١٦.

Diakonov الاميلو هو عضـو المشـاعيـة، في حين أن الموشكينـو مـزارع في أرض الملـك، استعبد نتيجة الفرائض والاتاوات[٥] . هذا ويمكن أن تدرج في طبقتي الاميلو والموشكينو فئات عديدة من المواطنين الاحرار منها: اعضاء المشاعيات، والزراع الملكيون الذين يدفعون الضريبة العينية، والمحاربون الذين يستلمون من الملـك أراضي غير قـابلـة للبيـع مقـابـل خدماتهم العسكرية، والحرفيون، والتامكاروم الذين كانوا تجاراً ومرابين وجباة معاً، وأخيراً الكهنة والارستقراطية العليا[٦] .

٣ ـ **طبقة العبيد (أردو)**: اخذ عدد العبيد يتزايد منذ تأسيس دويلات المدن في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. وحسب تقديرات دياكونوف كان عدد العبيد في لاغاش، حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، نحو ربع سكان المملكة وان عدد الإماء منهم كان يتجاوز عدد الأرقاء الذكور[٧] . وقدر عدد العبيد في قصور سارغون الثاني بما لا يقل عن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف[٨] . فما بالك باعداد العاملين منهم في أراضي الملك والمعابد والارستقراطية وغير ذلك من قطاعات الانتاج والخدمات المنزلية والعسكرية.

وكانت الحروب وتجارة الرقيق (النخاسة) واستعباد اعضاء المشاعيات لقاء ما عليهم من ديون هي المصادر الأساسية لزيادة عـدد العبيـد. وفي عهـد الامبراطـوريتين الآشـوريـة والكلدانية تطور الرق وازداد عدد الأيدي العاملة الرقيقية في القطاعات الانتاجية والبناء والخدمات زيادة كبيرة بسبب التوسع في الفتوحات، بحيث يصح القول ان العبيد كانوا من أهم مصادر ثروة الأمبراطوريتين الآشورية والبابلية[٩] .

وقد مثل الأسرى ـ العبيد في نقوش قصور الملوك الآشوريين على شكل صفوف طويلة يسوقهم الجيش النظامي وهم عراة وأياديهم مقيدة من خلف ظهورهم ووراءهم نساؤهم واطفالهم[١٠] . كما نجد اخبار ذلك مدونة في حوليات الملوك[١١] .

وهكذا تشكلت طريقة الانتاج العبودية. وأصبح العبيد يشكلون القوة العاملة الـرئيسة

---

(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) المصدر ذاته ص١١٧ .
(٧) المصدر ذاته ص٩٨ .
(٨) المصدر ذاته ص٢٦٨ .
(٩) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٠٦ .
(١٠) نفس المصدر والصفحة.
(١١) المصدر ذاته.

في استشارات الملك والمعابد وفي ممتلكات نبلاء البلاط والأرستقراطيتين المدنية والعسكرية، وغدا من ثم وجود المجتمع الرافدي يرتكز على عمل العبيد.

ولم يكن لدى العبيد أي وسائل للانتاج وليس هذا وحسب، بل كانوا انفسهم مملوكين ومحرومين من ابسط الحقوق الانسانية. وكانوا يبيعون العبيد دون أية تحديدات ودون أي اعتبار لوضع العبد العائلي، ويقدمونهم هدايا، ويتوارثونهم ويقتلونهم إذا ظن أسيادهم أن قتلهم أعود عليهم بالفائدة من حياتهم [١٢].

وكان العبيد يقومون بأصعب الأعمال لأسيادهم، كما كانت الدولة (البابلية أو الآشورية أو الكلدانية) تجندهم أحياناً للخدمة العسكرية أو تسخرهم للقيام ببعض الأعمال العامة كحفر أقنية الري وبناء السدود وشق الطرقات [١٣].

وكان عدد كبير من العبيد ملكية للدولة والمعابد. وكان الاغنياء ومتوسطو الملاك وصغارهم يملكون أعداداً منهم. وكان لكل عبد رسم خاص يدل على مالكه. ولقاء محو هذا الرسم كانت تهدد الانسان الحر كذلك عقوبات قاسية (المادتان ٢٢٦ و٢٢٧ من قانون حمورابي). وبموجب القانون نفسه لم تكن تؤخذ لقاء الضرر الذي يلحق بعبد الغير إلا غرامة قليلة (نصف مينا) كتعويض عن خسارة المالك شأنها شأن الغرامة لقاء الضرر الذي يلحق بالماشية (المادة ١٩٩ من القانون). وفي حالة قتل عبد الغير كان المذنب يقدم لمالكه عبداً من عنده (المادة ٢٣١). وكان يعاقب العبد بصلم أذنه إذا رفض طاعة سيده وقال له «لست سيدي» (المادة ٢٨٢).

أما بالنسبة للذين يناهضون حقوق الملكية التي أقامها مالكو العبيد، فكانت تطبق أقسى العقوبات. وكان الحكم بالموت يهدد كل من يسرق عبداً أو يحميه. وتوقع عقوبة الموت قتلاً أيضاً بكل من يؤوي عبداً آبقاً ـ أي يقتل من يساعد عبداً على التحرر (المادة ١٦ من القانون).

وقد اتسع في بلاد ما بين النهرين استعباد أعضاء المشاعية الاحرار المعدمين مما الحق الخراب بالاقتصاد الفلاحي الصغير. قبل زمن حمورابي كان المدين الذي يعجز عن تسديد دينه وفوائده العالية يصبح عبداً لدائنه. أما في قوانين حمورابي فأصبح يقدم زوجته وأولاده

---

(١٢) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٢ ص٢٠٦.

(١٣) نفس المصدر والصفحة.

ليعملوا لدي الدائن مدة ثلاث سنوات من أجل تسديد الدين وتعاد إليهم حريتهم في السنة الرابعة كما تقدم.

وكان السيد يعتق أحياناً أحد عبيده إذا أدى له خدمة جلى أو دفع إليه مبلغاً من المال. ويستلزم تحرر العبد كتابة وثيقة رسمية يسمى فيها العبد عادة باسمه فقط بينما يكتب الحر اسمه واسم والده في الوثيقة[١٤]. ويحق للعبد حسب قوانين حورابي الزواج من امرأة حرة، أولادهما في هذه الحالة يعتبرون أحراراً - أي أنه ليس لسيد العبد حق الخدمة على أطفال العبد من امرأة حرة (المادة ١٧٥). أما إذا تزوجت الأمة (المرأة من الرقيق) برجل حر فيبقى أولادها عبيداً حتى يتوفى زوجها فيصبحون أحراراً (المادة ١٧١) ولكنهم لا يرثون والدهم إلا إذا ثبّت بنوتهم في حياته كأن يقول «أطفالي» لمن ولدتهم الجارية (المادة ١٧١). ولا يستطيع الرجل الحر الذي تزوج من عبدة أن يبيعها (المادة ١٤٦). وهذا يدل على أن الزوجات الإماء كان لهن مكانة خاصة في المشاعة العائلية.

وهكذا، كان جوهر علاقات الانتاج العبودية هو ملكية مالكي العبيد التامة لجميع وسائل الانتاج وشغيلة الانتاج انفسهم - أي العبيد.

وهكذا أيضاً، كرست القوانين نظام العبودية في العراق القديم، وجاءت تعبيراً للدفاع عن حقوق ومصالح قمة المجتمع الرقي مجتمع الأسياد مالكي العبيد.

الأسرة:

عند تفسخ المشاعية البدائية في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد إلى عائلات كبيرة وصغيرة، أخذت الأسرة الأبوية تحل تدريجياً محل الأسرة الأموية في بلاد ما بين النهرين. وكانت السيادة في الأسرة الأبوية العراقية القديمة للأب، ونادراً ما تنتقل الرئاسة إلى الأم عند وفاته. وكانت العائلة الأبوية تتألف من الرجل وزوجته أو زوجاته ومن الاولاد وأحياناً الاحفاد، وكان البيت يسمى باسم «بيت الأب» أو «البيت الأبوي»، ومال الأب يسمى «مال البيت الأبوي». ويتألف «مال البيت الأبوي» من الأراضي وأبنية الاستثمار، والماشية، والعبيد، ونتاج الأرض، والبيت وأثاثه، والنحاس والفضة والذهب[١٥]. وقد اعتمدت سيادة الأب في أسرته على دوره الأساسي في الاقتصاد وفي إعالته لجميع أفراد أسرته. وتتجلى هذه السيادة المطلقة بحق الرجل ان يقدم زوجته واولاده

(١٤) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٢٠.

(١٥) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١١٨.

الذكور والاناث مهما كانت سنهم كرهينة لدائنه مدة ثلاث سنوات (المادة ١١٧ من قانون حمورابي). وله أيضاً الحق الكامل في التصرف بأملاكه بيعاً أو شراء أو هبة؛ ولا تقبل أية اعتراضات قد يثيرها الاولاد بالنسبة لاملاك أبيهم الموهوبة أو المبيعة ما دامت عملية الهبة أو البيع قد تمت وفق القانون «وكان يستطيع في الفترة السارغونية ان يبيع اطفاله أو يقتلهم أحياناً»(١٦).

وكان الزواج هو دعامة الحياة العائلية في بلاد ما بين النهرين. وجرت العادة في زمن حمورابي أن يختار والد الشاب خطيبة ابنه. وعندما تتفق العائلتان على الزيجة يشرع في اعداد الخطبة وذلك بتقديم العريس بعض الهدايا للعروس. فإذا فسخ الخطوبة تنازل عن الهدية (المادة ١٥٩). أما إذا فسخ والد الفتاة المخطوبة رد الهدية مضاعفة (المادة ١٦٠) وإذا تم دفع المهر ثم عدل الخطيب عن الزواج فلا يكون له الحق في استرجاعه. أما إذا رفض والد الخطيبة زواج ابنته فعليه ان يرد جميع ما حصل عليه من الخطيب(١٧).

وعند الزواج يقدم أهل العروس لابنتهم بائنة(شريقتو ـ الهدايا والأموال التي قدمها أهل العروس لابنتهم عند ألزواج) تعتبر ملكاً لها في حياتها، وتصبح ارثاً لاولادها بعد وفاتها (المادة ١٦٢). أما إذا توفيت الزوجة دون أن يكون لها اولاد فعلى الزوج أن يعيد البائنة إذا أعاد إليه حموه ثمن الزواج (المادة ١٦٣) وإذا لم يرد إليه حموه ثمن الزواج فإنه يقتطعه بأكمله من بائنتها ويرد الباقي إلى بيت أبيها (المادة ١٦٤).

ويستند الزواج في جوهره إلى عقد يحدّد فيه كافة الشروط المتفق عليها ويوقعه الزوج من طرف واحد. وإذا تزوج رجل من إمرأة ولم يكتب معها عقداً فتلك المرأة لا تعتبر زوجه بحكم القانون (المادة ٢٧ من قانون بلالاما ملك اشنونا والمادة ١٢٨ من قانون حمورابي).

وكانت القوانين تسمح للرجل بالزواج من زوجة شرعية واحدة فقط، ولكنها أباحت له أن يتزوج بامرأة أخرى ان اصيبت زوجته الأولى بمرض مزمن يعوقها عن اداء وظيفتها الزوجية (المادة ١٤٨)، أو كانت عاقراً (المادة ١٤٥) أو أهملت شؤون بيتها وحقوق زوجها (المادة ١٤١) كما يحق له أن يتخذ محظيّة أو أكثر (المادة ١٤٤ و١٧٠).

ولم يكن أي من الزوجين مسؤولاً عن التزامات الطرف الأخر المادية قبل الزواج. أما

(١٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٥.
(١٧) باقر، طه: المصدر السابق ص٤٠٩.

الديون التي كانت تتم بعد الزواج فهما مسؤولان عنها متضامنين حتى ليحق للزوج أن يجعل زوجته رهينة بيد الدائن لمدة ثلاث سنوات تعاد إليها حريتها في السنة الرابعة (المادة ١١٧).

وقد سمحت قوانين حورابي للزوج والزوجة بالطلاق، وحددت شروطه. فيستطيع الزوج مثلاً أن يطلق زوجته إذا لم تنجب له أولاداً (المادة ١٣٨) أو أهملت واجباتها البيتية (المادة ١٤١). وفي جميع الاحوال يحق للزوج طلاق زوجته ولو كانت غير مذنبة. ولكن الزوجة في هذه الحالة تستعيد بائنتها وتأخذ نصف حقول وبستان ومتاع زوجها لتصرف على اولادها حتى بلوغهم سن الرشد، وعندها يحق لها أن تتزوج من رجل آخر بعد أن ترث من زوجها السابق حصة تعادل حصة احد أولادها (المادة ١٣٧). في حين نصت المادة (٥٩) من قانون بلالاما ملك اشنونا: «إذا طلق رجل زوجته بعد أن رزق منها بأطفال ثم اتخذ زوجة اخرى طرد من بيته ومن كل ما يملك. وفي اللوحة الاولى من الشرائع الآشورية: «إذا طلق الزوج زوجته بمحض رغبته عليه ان يعوضها. وليس للزوج الذي تصاب زوجته بمرض أو بعاهة حق طلاقها ولكن له ان يتزوج بامرأة حرة اخرى، على أن تظل الزوجة الأولى في البيت ويستمر في إعالتها طيلة حياتها (المادة ١٤٨). أما إذا أرادت تركه إلى بيت أهلها فلها الحق في أن تأخذ بائنتها التي جاءت بها من بيت أبيها كاملة (المادة ١٤٩). ويحق للزوجة الطلاق من زوجها، إذا اثبتت في المحكمة سوء تصرف زوجها أو أهماله لها، وفي هذه الحالة تسترد بائنتها وتعود إلى بيت والدها (المادة ١٤٢).

وعلى العموم، في الأسرة الأبوية تتمتع المرأة بامتيازات أقل مما يتمتع به الرجل. والطلاق صعب بناء على طلبها [١٨].

وإذا أسر الزوج وكان في بيته مايكفي اسرته فعلى الزوجة أن تظل وفية لا تتزوج بغيره (المادة ١٣٣). وإذا لم يكن في بيت الزوج الأسير ما يكفي للانفاق على أسرته فيحق لها الزواج بآخر إن شاءت (المادة ١٣٥). أما إذا عاد زوجها السابق من الأسر فيجب أن تعود إليه، ويبقى أولادها من الزوج الثاني لوالدهم (المادة ١٣٥). وإذا تزوجت عند أسر زوجها وكان في بيته ما يكفي لاعالتها أُلقيّ بها في النهر (المادة ١٣٤).

وتظهر التغيرات في وضع الأسرة العراقية القديمة في تعزيز الملكية الخاصة واتجاه النشء الجديد إلى اضعاف القيود التقليدية التي كانت تعرقل الاغتناء الشخصي لأعضاء الأسرة. قد عاضدت قوانين حورابي هذه الاتجاهات وأتت بتغييرات في العادات العائلية. وقسمت

---

(١٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١١٩.

ثروة الأب المتوفى حسب القواعد التالية:

١ - تنال الزوجة والاولاد الذكور حصصاً متساوية من التركة. ويحتفظ الولدُ البكر بما منحه إياه والده في حياته إذا كان قد كتب له وثيقة مختومة (المادة ١٦٥).

٢ - للبنت غير المتزوجة حق الانتفاع من حصة تعادل حصة الذكر، وبعد زواجها توزع حصتها بين أخوتها الذكور على أن تأخذ منها بائنتها. أما البنت المتزوجة فليس لها نصيب من ميراث والدها باعتبار أنها قد أخذت بائنتها في حياة والدها [١٩].

٣ - يرث ابن الأمَة كأخوته من الأم الحرة إذا كان والده قد اعترف به ابناً شرعياً قبل وفاته، أما إذا لم يكن قد اعترف به فلا يرث والده، وإنما يطلق وأمه على الحرية [٢٠].

٤ - البنت المولودة من أمة إذا توفى أبوها قبل زواجها على اخوتها أن يقتطعوا من مال ابيهم مبلغاً ويحتجزوه مقابل بائنتها [٢١].

٥ - الاولاد الاحرار من زوجتين حرتين يتقاسمون تركة الأب بالتساوي (المادة ١٦٧).

٦ - حصة الابن الذي توفي قبل وفاة والده تعود لاولاده وإذا لم يكن له أولاد فإلى إخوته [٢٢].

٧ - تركة الزوج الذي ليس له اولاد لاخوته ومن بعدهم لأقربائه المقربين [٢٣].

ويطبق النظام الخاص بتركة الزوج المتوفى على تركة الزوجة المتوفاة إذا كان لها أولاد. وإذا لم يكن لها أولاد فثروتها الخاصة تعود لأهلها بعد أن يخصم منها الزوج التير هاتو. وإذا كانت قد تزوجت مرتين فثروتها الخاصة توزع بين أولادها من الزوجين حصصاً متساوية.

أما التركة عند الآشوريين فكانت تقسم أحياناً، بينما كانت تترك على المشاع أحياناً أخرى. وليس لأبناء المحظيّة شيء من الميراث إلا إذا لم يكن هناك غيرهم [٢٤]. أما الممتلكات التي تأتي بها الزوجة التي تنتقل إلى بيت زوجها وكذا كل ما أعطاه إياها حموها

(١٩) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ١٨١.

(٢٠) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢١) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ١٨١.

(٢٢) نفس المصدر والصفحة.

(٢٣) المصدر ذاته.

(٢٤) ديلابورت، ل: المصدر السابق ص ٣٥٧.

فإنه يؤول إلى ابنائها [٢٥]. وتنتقل أملاك الأرملة وكل ما أعطاه إياه حموها إلى ابنائهـا إذا ذهبت إلى زوج آخر [٢٦].

وقد نظمت قوانين حمورابي الزنى والعهر المقدس. فعقوبة الزاني والزانية في حالة التلبس هي القتل رمياً في ماء النهر. أما إذا عفـا الزوج عن زوجته الزانية فللملك أن يعفو عن الشريك (المادة ١٢٩). وأما في غير حالة التلبس فقسم المرأة بالإله يبرئها (المادة ١٣١). والمرأة التي تغتصب كرهاً لا عقوبة عليها أما المغتصب فيقتل (المادة ١٣٠). والزانيـة التي تزور عشيقها في منزله يقتلان معاً [٢٧]. أما الزانية في مكان عام أو في ماخور فلا تعفى من العقوبة وقد يعفى شريكها إن أثبت جهله بأنها زوجة [٢٨]. والزنى في منزل إمرأة أخرى يعرض المرأة والزانية وشريكها لنفس العقوبة إن كان الزنا قد تم برضى الزوجة. أما إذا كان اغتصاباً فيقتل الزاني وصاحبة البيت ولا توقـع العقـوبـة بـالـزانيـة إن صـارحـت زوجها [٢٩]. وإذا ضاجع رجل ابنته يطرد من بلده (المادة ١٥٣). وإن ضاجع انسان أمه بعد وفاة والده يحرق كلاهما (المادة ١٥٧) وإذا ضاجع انسان زوجة أبيه بعد وفاة والده وكان لها اولاد حرم من ميراث أبيه [٣٠].

وفي الشرائع الآشورية ـ اللوحة الأولى: المرأة التي تغتصب كرهاً لا عقوبة عليها أما المغتصب فيعدم (المادة ١٢). وإذا ترددت زوجة على بيت رجل آخر وضاجعها مع علمه بأنها زوجة رجل آخر يقتلان كلاهما (المادة ١٣). وإذا ضاجع إنسان زوجة رجل دون أن يعلم أنها زوجة رجل آخر فلا عقوبة على الزاني وللرجل أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها مناسبة (المادة ١٤). وإذا ضاجع رجل زوجة آخر برضاها فلا عقوبة عليه. وللزوج أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها مناسبة (المادة ١٦). والزنى في منزل امرأة أخرى يعرض المرأة والزانية وشريكها لنفس العقوبة. وإذا لم يوقع الزوج عقوبة بزوجته الزانية فلا عقوبة على الزاني أو صاحبة البيت. أما إذا كان اغتصاباً فيقتل الزاني وصاحبة البيت ولا عقوبة على الزانية (المادة ٢٣).

---

(٢٥) نفس المصدر والصفحة.

(٢٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٣.

(٢٧) المصدر ذاته ص ١٠.

(٢٨) المصدر ذاته.

(٢٩) المصدر ذاته.

(٣٠) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٢٣.

وقد أطلقت قوانين حمورابي أحياناً على صنف من العذارى اللواتي كرسن انفسهن لخدمة الآلهة في المعابد لقب « العاهرات المقدسات » (المادة ١٨١). وتذكر القوانين ثلاثة أنواع منهن : الكيزريت والسانهات ، والحريمات [٣١] . ولم يكن يسمح للعاهر أن تربي أولادها بل كان يعهد بتربيتهم إلى أبوين يتبنيانهم [٣٢] .وإذا حاول المتبنى أن يعود إلى بيته الأصلي سملت عيناه (المادة ١٩٣). وللعاهرة المقدسة بائنتها تنتقل إليها ملكيتها أو تمنح حق الائتفاع بريعها ولكن ليس لها التصرف فيها بالبيع [٣٣] .

وقد ظهر العهر المقدس منذ العهد السومري كما تشير إلى ذلك بعض الاساطير [٣٤] . ويبدو أن القوانين كانت تسمح للعاهرات المقدسات بممارسة الدعارة الدينية في المعابد [٣٥] وعقوبة التشهير بواحدة ممن نذرت نفسها لخدمة الآلهة الوسم على الجبهة [٣٦] . وكان لهن مركز مرموق ومن بينهن من كن من طبقة الاشراف وبنات الملوك [٣٧] .

ويبدو أن القوانين قد سمحت لاصناف من البنات اللواتي نذرن أنفسهن لخدمة الآلهة بممارسة الاعمال التجارية بما فيها الربا وتنظيم العقود واقتناء الأموال والممتلكات. فقد حدث في زمن حمورابي أن اشترت الكاهنة ريبا توم « سار » من أرض مبنية كانت مملوكة للكاهنة أياأنيل رشيتيم بثمن قدره ثلث مينا من الفضة [٣٨] . ويكون ربع ما يمتلكن لهن خالصاً ويؤول جانب منه عند موت إحداهن إلى أهلها ما لم يمنحها أبوها حق التنازل عنه [٣٩] .

(٣١) حاطوم ، نور الدين وزملاؤه ، موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص ١٨٢ .
(٣٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣٣) ابراهيم ، نجيب ميخائيل : المصدر السابق ج ٦ ص ١٤ .
(٣٤) نفس المصدر والصفحة .
(٣٥) فرح ، نعيم : المصدر السابق ص ١٢٤ .
(٣٦) ابراهيم ، نجيب ميخائيل : المصدر السابق ج ٦ ص ١٣ .
(٣٧) المصدر ذاته .
(٣٨) ديلابورت : المصدر السابق ص ١٠٥ .
(٣٩) ابراهيم ، نجيب ميخائيل : المصدر السابق ج ٦ ص ١٣ .

الفصل السابع والعشرون

الحركات الشعبية

أثار النظام العبودي في بلاد ما بين النهرين، باستغلاله الوحشي واضطهاده البربري للعبيد وجماهير الشغيلة الفقراء من أحرار السكان المحليين وشعوب البلدان المغلوبة إلى جانب الأزمات والتناقضات السياسية والاجتماعية، موجة عارمة من الثورات والانتفاضات كانت أحد العوامل الرئيسة في اضعاف الدولة والتمهيد لسقوطها وتعريض البلاد لأخطار الاحتلال الأجنبي. وتذكر الألواح أن ثورة جماهيرية شعبية نشبت في مدينة لاغاش ضد الظلم والاستبداد اللذين كانت الطبقة الحاكمة تمارسهما في مملكة المدينة، توصل بنتيجتها المصلح الاجتماعي اورو كاجينا إلى السلطة. فألغى بعض الواجبات والضرائب الثقيلة، ومنع المظالم، وزاد حصة الفلاحين الذين يعملون في الأراضي التابعة للمعابد، كما ألغى وظائف المفتشين في المشاعيات الريفية. وخفض رسوم الدفن إلى أقل من النصف. وسن قوانين لحماية الضعيف من طغيان القوي والفقير من أطماع الغني. وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقتسموا بينهم ما يقدمه الناس قرباناً إلى الآلهة من أموال وماشية. وعالج أمر السخرة، وأوقف بعض قواعدها الوحشية. غير أن هذه الاصلاحات، على أهميتها، لم تغير اسس النظام العبودي وظل الاشراف يحتفظون حتى بعد اصلاحات اورو كاجينا بسلطة اقتصادية كبرى. كما لم تتغير أوضاع العبيد وظلوا كالسابق مجردين من الحقوق (١).

وقد نشبت في أواخر حكم سارغون الأكادي ثورتان شعبيتان بسبب استياء السكان من زيادة الأعباء، وحيازة أراضي المشاعيين وحروب الفتح المنهكة (٢). وحدثت انتفاضة هامة

(١) انظر ص ٢١٥.

(٢) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٠٥.

في عهد نارام سين[٣]. وإذا استطاع نارام سين أن يقضي على الانتفاضة، إلا أن خلفاءه لم ينجحوا في الحفاظ على وحدة مملكة المناطق الاربع. وأخيراً وقعت سومر وأكاد في أيدي الغوتيين عام ٢٢٠٠ قبل الميلاد.

وقد سعى حمورابي لأن يخفف قليلاً من تحكم التجار المرابين (التامكاروم): فحدد عبودية الدين بثلاث سنوات، ومنع المرابي من حق الدخول إلى بيت المدين ليأخذ منه بالقوة مبلغ الدين. كما أخضع «التامكاروم» لعقوبة الغرامة في الحالات التي يثبت فيها خداعه... الخ[٤].

وقد هدفت هذه التدابير إلى توطيد وحدة طبقة الأحرار (الأميلو والموشكينو) وجمع مختلف فئاتها ضد العبيد[٥]. غير أن مساعي حمورابي لم تكلل بالنجاح. فقد حفظت لنا وثائق العصر حالات تجاوز «التامكاروم» لقوانين حمورابي، وخاصة وضع اليد على أراضي زراع الملك[٦]. وهكذا يتبين بأن التناقضات في المجتمع البابلي لم تنحصر فقط بين الاحرار والعبيد، وإنما كانت موجودة أيضاً بين مختلف شرائح الناس الاحرار[٧].

وفي أثناء الحكم الكاشي بلاد الرافدين، تعاظم تذمر أعضاء المشاعيات واتجه عام ١٣٤٥ قبل الميلاد إلى الثورة. واندلعت الثورة ضد الملك كاراهنداش (كارا يندااش). وقتل الملك وعينوا مكانه رجلاً من أصل غامض[٨]. وعندما لم يتمكن كبار الموظفين والكهنة من القضاء على الثورة بوسائلهم الخاصة، طلبوا المساعدة من ملك آشور الذي أغرق الثورة في بحر من الدماء وأعاد تثبيت الأسرة الكاشية في حكم البلاد[٩].

وفي البلدان المغلوبة، أثارت السياسة العدوانية للفاتحين، والآشوريين منهم بخاصة، وجشعهم في نهب ثرواتها وارغامها على دفع جزى باهظة وتخريب المدن والقرى أو حرقها وقسوتهم في معاملة شعوبها، أثارت هذه الاعمال سلسلة من الثورات والانتفاضات في طول الامبراطورية وعرضها. فقد ثار الأهالي الآراميون في سورية الداخلية، والأهالي الفينيقيون

(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) المصدر ذاته ص ١٢١.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) المصدر ذاته.
(٧) المصدر ذاته.
(٨) المصدر ذاته ص١٢٣.
(٩) نفس المصدر والصفحة.

في المدن الساحلية السورية ، كما انتفض السكان في فلسطين ومصر ، مما اضطر الآشوريين إلى ارسال الحملة تلو الأخرى لقمع المتمردين وإعادة احتلال البلدان المتمردة من جديد ومعاقبة المنتفضين بالتعذيب والتنكيل والقتل الجماعي والتهجير والأسر . وترينا النقوش المحفورة في قصور الملوك الآشوريين، ويرجع تاريخها إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد ، صوراً لتعذيب المتمردين واقتياد الأسرى كعبيد على شكل صفوف طويلة يسوقهم الجيش النظامي وهم عراة وأياديهم مقيدة من خلف ظهورهم ووراءهم نساؤهم وأطفالهم[10] .

لقد اضعفت الازمات الداخلية والتناقضات وانتفاضات السكان في البلدان المفتوحة الدولة ومهدت لسقوطها .

إن اتساع العبودية لم يستطع أن يخفف من حدة الصراع الطبقي. وإذا كنا لا نملك معلومات مباشرة عن ثورات العبيد ، إلا أننا نعرف بأن عادة تقييد العبيد المتمردين كانت قد أصبحت شائعة[11]. وفي زمن حكم آشور بانيبال، تزعمت عبدة ثورة الأرمن في أورارتو. وليس هناك من شك بأن الزراع الآشوريين، الذين أفلسوا والحق بهم الخراب من جراء التجنيد والعمل الشاق والفرائض، قد تمردوا هم أنفسهم أيضاً[12]. وهكذا اكتملت الصورة لمختلف التناقضات السياسية والاجتماعية في الامبراطورية الآشورية: تناقضات بين الغالبين والمغلوبين، وتناقضات بين السادة والعبيد ، وتناقضات بين الأحرار الأغنياء الآشوريين والفقراء والمعدمين منهم بخاصة، وتناقضات بين أجنحة الطبقة الحاكمة ذاتها. وقد أفضت هذه التناقضات إلى إضعاف الامبراطورية وساعدت على انهيارها وسقوطها. ولم تتغير هذه التناقضات في خطوطها العريضة في عهد الكلدانيين، اللهم إلا فيما يتعلق بتعاظم استبداد البيوتات التجارية ـ الربوية وجشعها الذي لا حدود له في نهب السكان مما أثار نقمتهم عليها. وازدادت أفواج عبيد أسرى الحرب، غير أن طريقة استغلالهم اختلفت عما كانت عليه في السابق. ففي عهد الكلدانيين ،استخدم العبيد للعمل في ممتلكات الملك، وفي بناء القصور والمعابد. أما في اقتصاد الافراد ، فقد سمح ملاك العبيد لرقيقهم بالعمل لحسابهم الخاص (في الحرفة وأحياناً في الزراعة) شريطة أن يدفعوا لأسيادهم أتاوة سنوية من الفضة تسمى « مانداتو » .

---

(١٠) انظر ص٢٥٨ .

(١١) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص٢١٩ .

(١٢) نفس المصدر والصفحة .

وبمقدار ما كان عدد العبيد ينمو ، كان نضالهم في سبيل الحرية يشتد . وقد تكاثر عـدد الآبقين منهم، وطالب مشترو العبيد من النخاسين ضماناً ضد الثورة وعصيان هؤلاء الذين يشترونهم.

هذا وتجدر الملاحظة أن ثـورات العبيـد وانتفـاضـات المشـاعيين الأحـرار المعـدمين والكادحين الحرفيين في العراق القديم كانت تنتهي غالباً إلى الفشل، وذلك بسبب عفويتها ومحليتها وعدم قيام تعاون شامل بين هذه الفئات في المدن والارياف على صعيد الدولة ضد عدوها الطبقي الواحد ، مما يسر لآلة الدولة العسكرية أن تقمع بوحشية انتفاضات الشغيلـة الاحرار والعبيد ، غير أن هذه الحركات الشعبية، وإن انتهت إلى الاخفاق، أدت إلى إضعاف الدولة الاستبدادية العبودية وساعدت على سقوطها .

الثقافة في العراق القديم

تشكلت حضارة العراق القديم في سياق تطوره التاريخي من الألف الرابع قبل الميلاد إلى نهاية الامبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية). وقد اشترك في انتاج هذه الحضارة شعوب عديدة، اغنى كل منها الآخر بما توصل إليه من انجازات ثقافية.

وتعود العناصر الرئيسة في هذه الحضارة الطليعية العملاقة إلى السومريين، ثم جاء الأكاديون ومن بعدهم البابليون، فاعتمدوا على ما أنجزه السومريون وساهموا بدورهم في اغناء تلك المنجزات الثقافية وتطويرها. وهكذا تكوّن مركب حضاري سومري ـ أكادي ـ بابلي. وقد استخدمت هذه الحضارة أساساً لحضارات الآشوريين والكلدانيين الذين خلفوا البابلين في حكم بلاد ما بين النهرين.

وقد مارست الحضارة البابلية منذ الألف الثاني قبل الميلاد تأثيراً عظيماً في البلدان المجاورة: سورية وفينيقيا وفلسطين، وكذلك في الحوريين والحيثيين. وفي العهدين الآشوري والكلداني، امتد تأثيرها نحو الشمال الغربي إلى سواحل آسيا الصغرى الايجية، وشمالاً إلى اورارتو، وشرقاً إلى إيران. كما اقتبس العبرانيون والاغريق والرومان عناصر هامة من تلك الحضارة.

وكان العراقيون القدامى أول من اخترع الكتابة ووضعوا الشرائع ودوّنوها في تأريخ الحضارات البشرية. وهم أول من اخترع الارقام واهتدوا إلى العمليات الحسابية، وأول من أسس علم الفلك. كما أنهم ساهموا في تقدم العلوم والفن.

هذا وسوف نعرض في الفصول القادمة أهم مظاهر الثقافة في بلاد الرافدين.

الفصل الثامن والعشرون

الكتابة

يعد نجاح العلماء في فك رموز الكتابة المسمارية المعقدة عملاً هاماً في تاريخ الثقافة. وتفصيل ذلك أن الألماني جورج غروتفند، أستاذ اللغة اليونانية في جامعة غوتنغن، أبلغ المجمع العلمي في تلك المدينة عام ١٨٠٢ أنه استطاع أن يتعرف على ثمانية من الاثنين والاربعين حرفاً المستعملة في نقوش مخطوطات مسمارية وصلت إليه من بلاد الفرس القديمة، وأنه ميز ثلاثة من أسماء الملوك المدونة فيها. وبقيت الحال كذلك حتى عام ١٨٣٥ حين نجح هنري رولنسن، أحد موظفي السلك السياسي البريطاني في إيران، في قراءة ثلاثة أسماء هي: هيستسبس، ودارا، واكزركس في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية، وأمكنه بفضل هذه الأسماء أن يقرأ الوثيقة كلها في آخر الأمر. لكن هذه الكتابة وإن كانت مشتقة من الكتابة البابلية لم تكن البابلية نفسها. وقد بقي على رولنسن أن يعثر على نص واحد باللغتين الفارسية القديمة والبابلية. وهذا ما تحقق له حين عثر على نقش محفور في صخرة يتعذر الوصول إليها عند بهستون في جبال ميديا، حيث أمر دارا الأول (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م) النقاشين أن يسجلوا عليها حروبه وانتصاراته بثلاث لغات: الفارسية القديمة، والآشورية، والبابلية. وبعد جهد دام أثنتي عشرة سنة نجح رولنسن عام ١٨٤٧ في ترجمة النصين البابلي والآشوري. واللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكاد. وكانت تكتب بحروف سومرية الأصل.

اخترع السومريون الكتابة في عصر الوركاء حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. وكان اختراع الكتابة قد استلزمته حاجات التطور الحضاري في بلاد الرافدين في أواخر عصر ما قبل السلالات، كالحاجة إلى تدوين الواردات وضبط الحياة الاقتصادية في

المؤسسات المدنية والدينية.

وقد عثر بين آثار كيش على لوح صغير من الحجر نقشت عليه أقدم كتابة عرفت في العراق القديم إلى الآن. وكانت العلامات المحفورة فيه رسوماً لأشياء مختلفة واخرى لقدم ويد وما شاكلها. وهي تطلعنا على ان الكتابة في بلاد ما بين النهرين كانت في أول أطوارها تصويريه تدل كل صورة على ما تمثله. وكانت هذه الصور العلامات كثيرة، نحو (٢٠٠٠) علامة، ولكنها اختزلت واختصرت بمرور الزمن، حتى أصبح عددها في عهد جمدة نصر زهاء (٦٠٠ علامة)[1]. وقد استطاع الكتبة الاقدمون أن يدونوا بهذه الكتابة التصويرية الأشياء المادية. أما المعاني المجردة فكان يصعب عليهم التعبير عنها بالطريقة التصويرية المحضة. فاهتدوا بمرور الزمن إلى ابتكار الطريقة الرمزية أي طريقة التعبير عن الأفكار والمعاني المجردة بالصور بأن يرسموا الصورة المادية بهيئة مختصرة، ولا يريدون بها صوزة الشيء المادي وإنما المعاني والأفكار المشتقة منه أو المتعلقة به. فمثلاً أصبحت صورة القدم، بحسب الطريقة الرمزية، لا تستخدم لتدوين القدم أو الرجل بل للتعبير عن المعاني المتعلقة بعضو القدم مثل: القيام والمشي والوقوف والدخول والخروج؛ وصارت صورة الشمس لا تعني كوكب الشمس وإنما المعاني المشتقة منها كالحرارة والضوء[2]. وبجمع الطريقة التصويرية المحضة والطريقة الرمزية صار بالامكان التعبير عن معان وجمل كثيرة. ولكن مع ذلك ظلت الكتابة ناقصة لا يمكن التعبير بها عن المعاني المضبوطة لاحتمال التفسيرات وقراءتها وتأويلها بحسب القراء. فمثلاً رسمة العين لم تعن فقط جهاز البصر، وإنما تعني أيضاً مفاهيم اشتقاقية أخرى مثل وجه وامام وامامي وسابق[3]. وقد أدى تعدد المعاني للرمز الكتابي الواحد إلى صعوبات كبيرة. فقراءة نص ما كانت كحلّ أحجية من الاحاجي، لذلك لم يستطع القراءة والكتابة بشكل صحيح إلا الكاتب الخبير الذي قضى سنين عديدة في المدرسة. فدعت الحاجة إلى تطوير الكتابة وتبسيطها وذلك باستخدام أصوات الأشياء المادية المكتوبة بالصور لكتابة الكلمات المختلفة وهذه هي الطريقة الصوتية[4]. فقد استخدم السومريون الاوائل الصور وأصواتها لا لتدل على الاشياء المادية التي تمثلها تلك الصور، كما في المرحلة التصويرية، ولا على الأراء والافكار المشتقة منها، كما في مرحلة الرمزية، بل لإستخدامها في كتابة الكلمات والجمل على هيئة أصوات وجمع

(١) باقر، طه: المصدر السابق؛ القسم الأول: تاريخ العراق القديم ص٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) المصدر ذاته ص٣٠٨.

(٣) فرح، نعيم؛ المصدر السابق ص ١٣١.

(٤) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٠٨.

عدة أصوات يكوّن كل منها مقطعاً وليس حرفاً (٥). فإذا ارادوا مثلاً أن يكتبوا اسم شخص مثل « كوراكا » فإنهم يرسمون صورة مختصرة للجبل ولفظه بالسومرية « كور » ثم يرسمون بجنبها صورة مختصرة من خطين تمثل موجات الماء للتعبير عن صوت « آ » وهو الماء باللغة السومرية ، ثم صورة مختصرة للفم ولفظه بالسومرية « كا » فيحصلون بذلك على كلمة « كور ـ آ ـ كا » (٦).

ولقد وصل قدماء العراقيين إلى الطور الصوتي في الكتابة في عهد جمدة نصر حوالي ٣٢٠٠ قبل الميلاد. واستمرت الكتابة في التطور والتحسن حتى استطاعوا أن يدونوا بها جميع شؤون الحياة الاقتصادية (٧).

وفي الطور الصوتي بَعُد الشبه بمرور الزمن بين أشكال العلامات وأشكال الأشياء التي كانت تمثلها ، ودخلت في الكتابة علامات اصطلح عليها للتعبير عن أصوات خاصة ، كما أنهم ركبوا عدة علامات للتعبير عن معان وأصوات مركبة. وقد احدثت طبيعة المادة التي كتبوا عليها وهي الطين بالدرجة الأولى تغييرات أخرى في شكل الكتابة إذ يصعب رسم الخطوط المنحنية على الطين، وباستخدامهم قلماً مثلثاً أصبحت العلامات تنتهي بما يشبه المسامير أو الأسافين (٨).

ولم تتطور الكتابة المسمارية قط فتصبح احرفاً هجائية بل ظلت إلى النهاية مؤلفة من مقاطع ، واستمرت بعض علاماتها صوراً رمزية أيضاً تدل على الشيء الذي كانت تمثله في الأصل (٩).

وبوجه الاجمال كان الخط المسماري خليطاً بين الطريقة الصوتية المقطعية وبين الطريقة الرمزية. وقد استعمل من ال (٦٠٠ علامة) نحو (١٠٠ ـ ١٥٠ علامة) استعمالاً صوتياً صرفاً أي بهيئة مقاطع صوتية ، والباقي من العلامات اقتصر في استعماله على الطريقة الرمزية.

ولما كان الحجر نادراً وإذا وجد فإن من الصعب النقش عليه ، ولما كان الورق غير

---

(٥) المصدر ذاته ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٦) المصدر ذاته ص ٣٠٩.
(٧) المصدر ذاته.
(٨) المصدر ذاته.
(٩) هامرتن : تاريخ العالم : المجلد الاول ص٥٤٥ ـ ٥٤٦.

معروف في بلاد الرافدين ، فقد استخدم الكتاب الطين (الصلصال) من أجل اعداد ألواح الكتابة. وكان إعداد الألواح يتطلب طمياً ناعماً ثم عجنه مدة طويلة يوضع في شكل قوالب تختلف حجماً ولوناً وشكلاً باختلاف المكان والزمان[10]. وأقدم ألواح لاغاش قبل عهد أورنينا مصنوعة من الطمي الذي لم يدخل النار ، وهي مستديرة. وهناك ألواح أخرى تعادلها في القدم مستديرة مثلها ولكنها شويت في النار ومصدرها شوروبساك ووجهها مستو بينها الوجه الآخر مقبب. وقد حدث تغيير واضح فيما بعد فأصبحت الوثائق المعاصرة للملوك أكاد تختلف اختلافاً بيناً عن سابقتها : فالطين لم يعرف النار وفيما عدا النصوص المتصلة بالمساحة نجد الألواح مستطيلة وهو الشكل الذي سيحتفظ به منذ هذا الوقت[11].

وكان الكاتب يرسم علاماته والطين لا يزال طرياً وذلك بواسطة قلم من القصب على شكل مثلث موشوري يمسك به مائلاً ويضغط على الطين ضغطاً خفيفاً فيترك عليه شكلاً يشبه المسمار أو الإسفين ومن هنا جاءت التسمية الاصطلاحية « المسمارية أو الاسفينية » التي اطلقها المحدثون على الكتابة السومرية والأكادية. ويرجع شكل عناصر العلامات إلى استعمال القلم والطين. ولقد سرى استعماله بعد ذلك في الكتابة على الأحجار كنصب العقبان ولوحة النصر ومسلة مانشيتوسو ومسلة حمورابي.

وكانت كل العلامات المنقوشة مستقيمة رأسية أو افقية[12]. وكانت العلامات ترتب في خطوط رأسية في العصور القديمة كما هي الحال بالنسبة لقانون حمورابي ومسلة مانشيتوسو ولوحة العقبان[13]. وكانوا يكتبون النص من اليسار إلى اليمين ، وبعد أن يملأوا الوجه الأول يقلبون اللوح من أسفل إلى أعلى ويستمرون في الكتابة على الوجه الآخر من اليمين إلى اليسار[14].

وحين الفراغ من اللوحة كانت تسلم نسخة منها لكل من يهمه الاحتفاظ بواحدة. وغالباً ما كانت تودع نسخة أخرى في محفوظات المعبد أو القصر. وكان أمين المحفوظات يخزنها في سلال عليها بطاقات وضعت بعناية. وكانت البطاقات من الطين كذلك[15].

---

(١٠) ديلابورت ، ل : المصدر السابق ص ٢٣٨.
(١١) المصدر ذاته ص ٢٣٩.
(١٢) المصدر ذاته.
(١٣) المصدر ذاته ص ٢٤٠.
(١٤) المصدر ذاته ص ٢٤١.
(١٥) المصدر ذاته ص ٢٤١ - ٢٤٢.

وإذا كانت الوثيقة المكتوبة عبارة عن عقد ويحتاج إلى شهود فإن الشهود يمهرون اسفل اللوحة باختامهم ويكتبون اسماءهم بعد ذلك زيادة في الاحتياط. وكانت الرسائل التي يريد اصحابها ان يرسلوها من بلد إلى آخر توضع في سلال وتغطى السلة بالطين وتمهر بخاتم المرسل ويكتب عليها اسم المرسل إليه. وكانت اللوحة الطينية المرسلة إلى شخص بعيد تلفّ في بعض الاحيان بغلاف من القماش عليه قطعة من الطين تحمل ختم المرسل وعنوان المرسل إليه. وتفصح هذه المراسلات الحكومية منها والخاصة، عن التنظيم الإداري والقضائي والعسكري والمالي للدولة، كما تفصح عن علاقات الافراد بعضهم ببعض وأنواع تعاملهم وعاداتهم الاجتماعية [١٦].

وقد اشتق من الخط المسماري الخطوط الأكادية والبابلية والآشورية في إطار بلاد الرافدين.. أما خارجها فقد انتشر في اقطار كثيرة من الشرق الأدنى، فاتخذه العيلاميون والحيثيون واستخدمه الفينيقيون من أجل وضع أبجديتهم واقتبسته أقوام الاورارتو والميتانيون والحوريون والفرس الاخيمينيون [١٧].

أخذت اللغة السومرية التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً تتقلص بعد قدوم الموجات العربية السامية إلى بلاد ما بين النهرين. وحلت محل السومرية لغة من أصل سامي هي اللغة الأكادية. ومن اللغة الأكادية تفرعت اللغة الآشورية. ولما جاء الألف الأول قبل الميلاد وظهرت إلى حيز الوجود اللغة الآرامية التي ما لبثت أن انتشرت مع التجارة في بقاع عديدة من الشرق الاوسط الآسيوي ومنها بابل الامبراطورية الجديدة (الكلدانية). وقد انتشرت أيضاً كتابة الآراميين في هذه العوالم كما انتشرت لغتهم. ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد اخذت تظهر على الألواح المسمارية خلاصات باللغة الآرامية توضح مضمون الوثيقة المسمارية. وكان هذا من عمل الكتاب الذين يتقنون اللغتين معاً. ولقد كان ذلك أمراً له قيمته في أكثر من ناحية وأعان على تحديد نطق بعض حروف اللغة البابلية في العصر المذكور [١٨].

---

(١٦) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة ج ١ ص٢٠٢.

(١٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص١٢٦.

(١٨) ديلابورت: المصدر السابق ص٢٤٣.

الفصل التاسع والعشرون

المدارس والمكتبات

كانت حاجة ملاكات المعابد ودوائر الدولة إلى عناصر متعلمة تتقن الكتابة وتلم بالمعارف الرياضية أحد العوامل الأساسية في نشر المدارس في بلاد الرافدين. وقد كشفت بعض أعمال الحفر عن حجرة دراسية قديمة يعود تاريخها إلى حوالي (٢٠٠٠سنة قبل الميلاد) وجدت على أرضها ألواح طينية لبنين وبنات فيها حكم أخلاقية تحث على الفضيلة [١].

وكانت المدارس ملحقة بالمعابد والقصور. ويبدو أنها كانت خاصة [٢]. وكان التعليم فيها لقاء أجر عدا الهدايا الإضافية إلى المعلمين [٣].

وكان مدير المدرسة السومرية يدعى «أومّيا» أي الخبير أو الاستاذ ومن ألقابه أبو المدرسة. ووجد بالمدرسة موظفون منهم: الأخ الكبير الذي يكتب الألواح للتلاميذ كي ينسخوها، والمشرف على الرسم، والمشرف على اللغة السومرية، والمراقب الموكل بالسوط [٤].

وكانت المناهج المقررة في هذه المدارس تشمل تعلم الكتابة المسمارية واللغتين البابلية السامية

---

(١) ديورانت، ول: قصة الحضارة ٢/ ٢٣٨.

(٢) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. القسم الاول تاريخ العراق القديم، شركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد ١٩٥٥ ص٣٠٢.

(٣) فرح، نعيم الدكتور): تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ. دمشق ١٩٧٥ ص١٣٢.

(٤) المصدر ذاته والصفحة ذاتها.

والسومرية. وكان التعليم العالي يشمل المعارف الرياضية والموسيقى والفلك والطب وشؤون القانون. وكانت هذه المواد على الأكثر فروعاً للاختصاص يتفرغ لها جماعة خاصة من المتعلمين، وكانوا يتلقون مثل هذه الدروس العالية في معاهد خاصة [٥]. ويكشف عدد من الألـواح التي يعود تاريخها إلى عصر حمورابي، مناهج التعليم المقررة وهي: قراءة وكتابة العلامات البسيطة أولاً مع دراسة قيمتها الصوتية ثم تعلم التلاميذ تدريجياً استعمال مجاميع العلامات والإشارات ثم الصيغ المتداولة. وكان التلميذ يعطى بعد ذلك دروساً في النحو في صورة الصيغ المختلفة من تصريف الأسماء والأفعال وينهي تعليمه في آخر الأمر بدراسة الرياضيات: قواعدها الأربـع والموازين والمقاييس والمعايير والمسكوكات [٦].

ولما كانت المدارس خاصة والتعليم فيها لقاء أجر، فقد اقتصرت معرفة القراءة والكتابة في بلاد الرافدين على اقلية محدودة من ابناء الكهنة وكبار الشخصيات المدنية والعسكرية من أبناء الطبقة السائدة في مجتمع العراق القديم، وظل ابناء غالبية الشعب من الاحرار الفقراء وكذا أبناء العبيد أميين محرومين من ارتياد المدارس.

وكانت المناهج تحث الطلبة على التعلم. ومن الحكم البابلية في تشجيع التلاميـذ على التعلم «من يتفوق في كتابة الرقم سيضيء كالشمس» [٧]. وكان التلاميذ الكسالى يتعرضون لعقاب جسدي من قبل المراقب الذي يحمل سوطاً لهذا الغرض [٨]. ولكن الطلبة كانوا معفيين من الجهود الفصلية وكانوا يتقلدون الوظائف عند انتهاء دراستهم [٩].

وكان الكاتب يفخر بعلمه. وكانت الدراية بالقراءة والكتابة لقباً يعدل لقب مدير المعبد أو القاضي [١٠]. وكان تمرين الكتاب يتم تحت اشراف المعابد ولهذا نراهم يكونون تدريجياً طائفة معنية متصلة بمديري المعابد حتى أن الوظيفتين اختلطتا ببعضهما في عهد البابلية الجديدة في بعض المدن وخاصة سيبار. فهناك كان يذكر اسم الشانجو (مدير المعبد) في غالب الأحيان على الألواح بينما قلما يظهر لقب دوبشار (الكاتب) [١١].

---

(٥) باقر، طه: المصدر السابق ص٣١٢ - ٣١٣.

(٦) ديلاپورت: المصدر السابق ص٢٣٧ - ٢٣٨.

(٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص١٣٢.

(٨) المصدر ذاته.

(٩) المصدر ذاته.

(١٠) ديلاپورت: المصدر السابق ص٢٣٨.

(١١) المصدر ذاته.

وكان في بلاد ما بين النهرين مؤسسات خاصة بالبحث العالي (بيت ـ مومي في البابلية) يقابلها اليوم الاكاديمية أو معهد الدراسات العليا. ومن المؤسسات العالية الخاصة بالجمع والتأليف خزانات الكتب ويسمونها بيت الألواح أو الرقم (أي ـ دبا بالسومرية). وكانت للمعابد الشهيرة ولقصور الملوك مكتبات ملحقة بها. مثل خزانة الكتب الملكية الشهيرة التي وجدت في قصر الملك «آشور بانيبال». وقد عثر فيها المنقبون على مئات الالوف من ألواح الطين. ويرجع الفضل إلى هذه المكتبة في معرفتنا بنواح مهمة من حضارة العراق القديم وتاريخه. فقد جمع «آشور بانيبال» مكتبته من مختلف المدن البابلية وجمع النصوص القديمة واستنسخ كثيراً منها واودعها مكتبته[١٢].

(١٢) باقر، طه: المصدر السابق ص٣١٢.

الفصل الثلاثون

الادب

يمثل النتاج الأدبي في العراق القديم أولى محاولات الانسان للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها بأسلوب الخيال والفن. وقد تناهت إلينا مجموعة كبيرة من الأعمال الأدبية السومرية والبابلية يرقى تاريخها إلى الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. وهي في مضمونها تتعلق بشكل أو بآخر بالدين. أما النصوص التي كرست إلى غير ذلك من الموضوعات فهي استثنائية. وقد سعى كتاب المعابد والقصور لأن ينحوا بالأدب العراقي القديم منحى طبقياً هادفاً إلى تمجيد الآلهة وتقديس السلطة الملكية وشل إرادة الجماهير وكبح محاولاتها من أجل تحسين ظروف حياتها وارغامها على الاعتقاد بعجزها ودفعها إلى الخنوع والاستسلام: «أوامر القصر مثل أمر آنو لا يمكن أن ترد. كلمة الملك هي الحق الصحيح. وكلمته مثل كلمة الإله لا يمكن تحديها»[1].

وقد تطور الأدب السومري ـ الأكادي وأضيف إليه الشيء الكثير زمن البابليين والآشوريين والكلدان.

هذا ويتميز أدب العراق القديم بالميزات العامة التالية:

١ ـ هو أقدم أدب عرفه العالم القديم وذلك بالمقارنة مع آداب الحضارات القديمة المشهورة كالمصرية والكنعانية والاغريقية والهندية والفارسية وغيرها.

٢ ـ تأثره بالدين سواء كان ذلك في اشراك الآلهة في حوادث الملاحم والأساطير

(١) باقر، طه: المصدر السابق ص٢٤٠.

والقصص أو في المواضيع والأغراض الدينية كالصلوات والتراتيل والأدعية وغيرها.

٣ ـ وصوله إلينا على هيئته الأصلية غير محوّر، أي كُتِبَ ودُوِّنَ بأيدي السومريين والبابليين قبل ٤٠٠٠ سنة [٢].

٤ ـ كثرة التكرار والإعادة.

٥ ـ كثرة نسخ القطع الشهيرة التي وضعها الكتّاب في الأزمان المختلفة، وانتشار هذه النسخ في معظم أرجاء العراق القديم وبين غالبية الأقوام القديمة. فقد وجدت نسخ لبعض القطع الأدبية الشهيرة مثل ملحمة جلغامش في المآثر الحثية في الأناضول وفي بلاد الشام وفي عيلام وحتى في الأدب المصري القديم مثل قصة «أدابا» [٣].

والشعر في العراق القديم يُعَدّ أقدم نتاج أدبي. وقد نشأ من الغناء والقصائد الشعبية. وأفاد الشعراء البابليون من الأساطير السومرية من أجل خلق أعمال أدبية جيدة.

وحاول شعراء العراق الأقدمون أن يفسروا في شعرهم مظاهر الحياة عن طريق القصة والأسطورة. وقد لعب الخيال الشعري والخيال الأسطوري دوريهما معاً فكانت من ثمارهما تلك الملاحم الخالدة مع الزمن.

وكان الشعر في بلاد الرافدين يخضع لفن خاص من النظم والتأليف. فهو يتألف من أبيات قوام كل بيت من مصراعين، الصدر والعجز. وكان موزوناً، ولكنه غير مقفى، أي أنه على غرار ذلك النوع من الشعر الانكليزي المعروف «بالشعر المرسل» [٤].

والعادة في الشعر البابلي، كما في اسطورة الخليقة وملحمة جلغامش، أن القصيدة فيه تنقسم إلى وحدات تتكون الوحدة منها من بيتين من الشعر (دوبيت) والأعم في البيت الثاني أن يكون معناه مكملاً لمعنى البيت الأول أو مشابهاً له أو مخالفاً. وقد تتفق كل أربعة أبيات معاً فتتكون القصيدة من رباعيات [٥]. وقد تفنن الشعراء في صياغة الشعر في العهود المتأخرة. ومن أشهر ما كتب شعراً، بخلاف الملاحم، التراتيل الدينية والأدعية للآلهة والصلوات.

---

(٢) باقر، طه: ملحمة جلغامش ص ٥.

(٣) المصدر ذاته ص ٩.

(٤) المصدر ذاته ص ٧.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

أما النثر فقد استعملوه في تدوين الحوادث والتاريخ وفي الرسائل الملوكية وفي تدوين أعمال الملوك وتخليدها وفي الحكم والأمثال والمواعظ. وكان هذا النوع من النثر الأدبي يخضع أيضاً إلى أصول خاصة من التأليف والتركيب.

وتناهت إلينا من بلاد الرافدين مدوّنات أدبية نثرية ذات موضوعات سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية.

ومما يستحق الذكر يدعو إلى الاعجاب، أن الأدباء والكتاب العراقيين القدماء لم يتركوا ضرباً من ضروب الأدب إلا وطرقوه. فقد ألفوا القصص والأساطير والملاحم، وكتبوا الصلوات والأدعية والترانيم، وجمعوا الأمثال والحكم والنصائح، ونظموا قصائد الغزل والمناجاة وغير ذلك.. وبالإضافة إلى أهمية هذه المؤلفات من وجهة النظر الأدبية والدينية والتاريخية فإن بعضها يعتبر بحق من أقدم المحاولات المدونة لبحث ومناقشة مسائل فلسفية أساسية كالحياة والموت، وخلق الكون والانسان، والخير والشر والثواب والعقاب. وقد وصلتنا نماذج مختلفة من مؤلفاتهم مدونة على رقم الطين التي اكتشفت في المدن القديمة داخل العراق وخارجه. وكانت مكتبة آشور بانيبال في تل قوينجق من أكثر المواقع شهرة في هذا المضمار، إذ عثر فيها على أبرز التآليف مما اكتسب شهرة واسعة بين الأقدمين والمعاصرين على حد سواء.

هذا ويمكننا تصنيف القطع الأدبية حسب الموضوعات التي عالجتها كما يلي:

١ ـ مجموعات كثيرة من الأساطير السومرية والبابلية تدور حول الخليقة وأصل الوجود والكون والآلهة والعمران البشري مثل اسطورة الخليقة البابلية.

٢ ـ مجموعات تدور حول أعمال الأبطال كملحمة جلغامش وقصة ايتانا الراعي وقصة أدابا وقصة النزاع بين الوركاء وكيش المتمثلة بقصة أكا Agga وجلغامش.

٣ ـ مجموعات تدور حول أساطير العالم الأسفل وعالم الأموات مثل أسطورة نزول عشتار إلى ذلك العالم.

٤ ـ قطع نثرية تضمنت الرسائل وأعمال الملوك والأخبار التاريخية والحكم والأمثال والمواعظ.

٥ ـ مجموعة كبرى تتضمن التراتيل والأغاني الدينية والصلوات والأدعية المخصصة للآلهة في الأعياد الدينية.

قصة الخليقة البابلية (إنوما - إليش)

شغل أصل الوجود والأشياء اهتمام المفكرين العراقيين القدماء، فنشأ عنهم آراء مختلفة حول موضوع الخليقة خلفوها لنا في عدد من الملاحم والأساطير دونوها على الواح الطين بالشعر القصصي. وكانت هذه الأساطير متعددة تختلف من حيث المادة والعهد. وقد تناهت إلينا من السومريين نماذج من هذه القصص إلا أنها لم تأتنا سالمة محفوظة ولكن البابـليين الذين أخذوا تراثاً كبيراً عن السومريين، خلقوا لنا نموذجاً آخر من أساطير الخليقة. ويعد هذا النموذج أكمل وأطول قصة عن موضوع الخليقة.

وتعرف هذه الأسطورة عند علماء الآشوريات باسم «رقم الخليقة السبعة» أو كما سماها البابليون أنفسهم «إنوما - إليش» (حينما في العلى) لأن أول بيت من الشعر فيها يبدأ بهذه العبارة. وقد أُلّفت بالشعر البابلي ودونت على سبعة ألواح من الطين. أما زمن الألواح التي جاءتنا من خزانة الملك الآشوري «آشور بانيبال» فيرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد (وهي نسخة من قصة انحدرت إلى بابل وآشور من بلاد سومر). غير أننا لو دققنا في غرض قصة الخليقة البابلية (إنوما - إليش) وهو تمجيد الإله مردوخ(*)، إله بابل، وبالتالي تعظيم مدينة بابل وإعلاء شأنها على البلاد الأخرى، وإذا تذكـرنـا أن مثـل هـذا الغرض قد ذكره حورابي في مقدمة شريعته استنتجنا أن زمن وضع القصة يرجع إلى عصر حورابي الذي وحد البلاد وعظّم شأن بابـل وغـدت عـاصمـة بلاد الرافـديـن الموحـدة وميتروبول امبراطورية واسعة في الشرق الأدنى.

وقد ألفت هذه القصة بالشعر البابلي ودونت على سبعة ألواح من الطين بمجموع ما فيها ألف سطر تقريباً. وكانت تتلى في اليوم الرابع من عيد العام الجديد في مدينة بابل.

وتشير أسطورة الخليقة إلى تكون المادة الأولى من هيولى مائية تولدت منها الآلهة وجميع الأشياء. وكانت هذه الهيولى المائية عنصرين مختلطين أحدهما مذكر وهو «الأبسو» عنصر الماء العذب والآخر مؤنث وهو «تيامة» عنصر الماء المالح. وبعد الصراع بينهما يحل النظام

(*) كان بطل القصة الإله آنليل، ولكن الكهنة البابليين أحلّوا الإله مردوخ محله بعد أن عظم شأن بابل وتحولت في عهد حورابي من مجرد مدينة إلى عاصمة للأمبراطورية التي أنشأها ذلك الملك. وتبعاً لهذا التحول السياسي تغير مركز الإله مردوخ من مجرد إله محلي غير ذي شأن إلى سيد الالهة وملكها على صعيد الأمبراطورية. وقد أفاد الشعراء البابليون من الأساطير السومرية من أجل خلق أعمال أدبية ممتازة. وتعد قصة «حينما في العلى» أشدّها اعتباراً.

في الكون. وقد جسم البابليون هذين العنصرين من الماء وجعلوهما إلهاً «أبسو» وإلهة «تيامة» وعدّوهما أصل الآلهة الأخرى وأصل جميع الأشياء.

وقد سبق قدماء العراقيين فلاسفة الاغريق بقولهم بمبدأ العناصر الأربعة الأولية التي عدت أصل جميع الأشياء. فقد تصوروا أنه:

١ ـ كان في البدء عنصر الماء الذي كان أزلياً لم يخلق.
٢ ـ تولد من عنصر الماء عنصر آخر هو الأرض والسماء متحدتين.
٣ ـ وتولد من السماء والأرض المتحدتين عنصر غازي هو الهواء المتمدّد الذي فصل بتمدده السماء عن الأرض.
٤ ـ تولد من الهواء القمر ومن القمر تولدت الشمس.
٥ ـ وبعد انفصال الأرض عن السماء نشأت أنواع الحياة من نبات وحيوان وإنسان على الأرض.
٦ ـ تكونت الحياة والأشياء من اتحاد الهواء والتراب (الأرض) والماء بمساعدة الشمس. وهذه هي نظرية العناصر الأربعة.

ولكن إذا رددنا هذه الآراء إلى غلافها الأسطوري السومري وعبرنا عنها بلغة الأساطير كما وردت إلينا منهم فيكون التعبير عنها على الوجه التالي:

١ ـ كان في البدء الإلهة «نمو» (أو الإله «أبسو») بحسب القصة البابلية «أنوما ـ إليش» وتمثل كل منهما مياه البحر الأولى.
٢ ـ ولدت الإلهة «نمو» الإله «آن» إله السماء و «كي» إلهة الأرض.
٣ ـ تولد من اجتماع «آن» إله السماء و «كي» إلهة الأرض «آنليل» إله الهواء الذي فصل أباه «آن» إله السماء عن أمه «كي» إلهة الأرض.

٤ ـ ووجد آنليل بعد ذلك نفسه يعيش في كون مظلم حالك فأوى إلى القمر «ننار»(*) لينيرله بيته في المساء. وخلق إله القمر بدوره ولدين: أحدهما أصبح إله الشمس(**) والثاني أصبح إلهة كوكب الزهرة.

٥ ـ ثم اتحد إله الهواء آنليل بأمه الأرض فتولدت من هذا الاتحاد، وبمساعدة الإله

(*) ننار لدى السومريين وسين لدى الاكاديين.
(**) سمى السومريون إله الشمس «اوتو» وسماه الأكاديون شماش.

« انكي » إله الماء وإله الشمس، حياة النبات والحيوان على الأرض. أما الانسان فقد اشتركت في خلقه الإلهة « نمو » أم الآلهة والإلهة ننماخ (من أسماء إلهة الأرض). وبعد اتحاد إله الهواء بإلهة الأرض ابتدأت عمليات الخلق الأخرى ومنها: تنظيم الكون، وخلق الانسان، وتكوين الحضارة والعمران البشري.

وبوسع القارىء أيضاً أن يستشف من وراء الغلاف الاسطوري لقصة الخليقة أموراً أخرى تتعلق بالأحوال الجغرافية وتطور الديانة في العراق القديم. فالمياه الأولى والصراع بين الإله مردوخ وتيامة وأبسو (وهما الإلهان اللذان يمثلان المياه الأولى) وتغلب مردوخ عليهما ثم احلال النظام بدل الفوضى وخلق الكون وتكوين العمران البشري كل هذا وغيره يعكس لنا صراع الانسان العراقي الأول مع بيئته الطبيعية وانتصاره على هذه البيئة وذلك بإبداعه أولى الحضارات البشرية (٦). وتعكس لنا الأسطورة أيضاً صدى جوانب من الحياة الاجتماعية والسياسية في أول مراحل التكوين الحضاري في العراق القديم، حين كانت إدارة العشيرة والقبيلة تبنى حسب مبدأ الديمقراطية العشيرية، أي مبدأ اشتراك جميع أعضاء مجتمع العشيرة البالغين من الذكور والإناث، على قدم المساواة في تصريف شؤون الجماعة. وكان رئيس العشيرة ينتخب في الاجتماع العام لجميع البالغين من الرجال والنساء. « اجتمع الآلهة، الذكور منهم والإناث في مجلس الشورى المقدس (ندوة الأقدار)، وانتخبوا الإله مردوخ وجعلوه ملكاً عليهم » (٧). وإليكم مقاطع من قصة الخليقة البابلية (إنوما ـ إليش):

« حينما في العلى لم يكن للسماء اسم
وفي الدنى لم تكن الأرض شيئاً مذكوراً
ولما لم يكن في البدء غير ابسو أبيهم
والأم تيامة التي ولدتهم جميعاً
وكان ماءاهما ممتزجين معاً
ولم تكن اليابسة، بل ولا ضحضاح يرى (*).
ولم يكن أي من الآلهة قد ولد بعد
ثم خلقت الآلهة في وسطهما (**).

(٦) سومر المجلد الخامس ١٩٤٩ ص ١٠ ـ ١١.

(٧) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: القسم الأول: تاريخ العراق القديم ص ٤٥٨.

(*) أي لم تكن قد تكونت الاهوار التي هي المرحلة الأولى في تكوين القسم الجنوبي من العراق حين كانت تغمره مياه البحر.

(**) أي وسط المائين أبسو وتيامة.

لقد ولدا « لخمو » و « لخامو » وسميا باسمهما
ثم مرت الدهور وتتابعت السنون
فخلق بعدهما « أنشار » و « كيشار » فبذاهما
وتوالت الأيام الطويلة وتتابعت السنون
فولد ابنهما « آنو » غريم آبائه
فصار آنو ، بكر أنشار ، نداً له
وولد آنو « نوديمود (*) NUDIMMUD » على صورته ومثاله
وصار نوديمود سيد آبائه .
متحلياً بالحكمة والمعرفة والقوة
أقوى بكثير من جده أنشار
لم يكن له ند بين الآلهة إخوته
وصار الآلهة الأحداث حزباً واحداً
واساءوا إلى تيامة واعتدوا على حاميهم أبسو
ورضخت تيامة لفعالهم.
ولكن سلوكهم آذى أبسو »

وينادي أبسو وزيره « ممّو MUMMU » للتشاور ويقول له على مسمع من تيامة : « لأبيدنّهم جميعاً » . ولكن تيامة تنهر زوجها على حين يشجعه ممّو على تنفيذ ما انتوى فعله . ونقل ما دبرا من خطط في ندوتهما إلى الآلهة أبنائهم فاضطربوا . وأنعم « أيا » ، أحكم الآلهة وأبدعهم ، النظر في احباط نيتهما ، فحزم أمره ودبر سحره . أنامَ أبسو ثم كبّله وذبحه ، وأسرَ ممّو . وبعد أن انتصر أيا على أعدائه عاد إلى قصره ونعم بالراحة ، وسمى مسكنه أبسو وخصصه للمعابد . وفي أبسو المقدس ولدَ أيا وزوجته دمكينا DAMKINA « مردوخ » . وقد فضّل أيا مردوخا على غيره ، وانعم عليه صفة مضاعفة من الألوهية فعلا قدره وبذ الآلهة في كل شيء . وأولد آنو الرياح الأربع لتكبح التنين ، فاضطربت تيامة واستشاط الآلهة معها غضباً واتحدوا وتحفزوا جميعاً للحرب ، وأعدوا جيشاً أمّرت تيامة عليه « كينغو Kingu » ومنحته السلطة على جميع الآلهة . ولما سمع أيا بما أنتوته تيامة ذهب إلى أنشار جده وقال له :

« أبي إن تيامة ، امنا ، تبغضنا

(*) اسم من اسماء الإله أيا .

لقد أعدت جيشاً وهي تتلظى بنار الحقد
وانضم إليها جميع الآلهة.
سلحتهم أيضاً بأسلحة لا تقهر، تولد ثعابين مخيفة»

وعندما سمع أنشار أن تيامة قد اهتاجت ضرب على فخذه وعض شفتيه واضطرب عقله وقال لأيا: انهض يا بني واذهب للحرب. ويظهر من سياق القصة أن أيا يفشل في مهمته مع أنه غلب أبسو وممّو. ثم يلتفت أنشار إلى ابنه آنو قائلاً:

«يا بكري، إياك اعني، يا بطلي القديم
اذهب وامثل أمام تيامة
قل لها كلمتنا، عساها تهدأ
فلما اقترب آنو منها ورأى ما وطدت عليه تياما عزمها
لم يستطع الوقوف أمامها وكر راجعاً
وذهب خائفاً إلى ابيه، أنشار
ولم يحر أنشار نطقاً وأطرق
ثم عبس وهز رأسه نحو «أيا».
وتجمع كل «الأنوناكي»(*) في ذلك المكان
وجلسوا صامتين، لا ينبسون ببنت شفة
نهض الرب أنشار، أبو الآلهة يحفه الجلال
وبعد أن تدبر الأمر في نفسه قال للأنوناكي:
إن من كانت قوته فعالة سيكون المنتقم لنا..
ذلك البارع في القتال.. مردوخ البطل
فدعا أيا مردوخ إلى مقامه الخاص
وأشار عليه موضحاً ما نواه في قلبه
أي مردوخ. تدبر نصحي، واصغ إلى ابيك
لأنك أنت ابني الذي يريح قلبي
هلم واقترب من حضرة أنشار، وأنت مستعد للقتال
تكلم وانهض، فإنه إذ رآك وجد الراحة
وفرح الإله مردوخ من كلام أبيه

(*) الانوناكي في هذه الملحمة مجمع الآلهة (آلهة السماء وآلهة الأرض).

اقترب ووقف أمام أنشار
ولما رآه أنشار امتلأ قلبه فرحاً
فقبل شفتيه وزال عنه الخوف
أنشار ! لا تبكم! بل افتح شفتيك
إنني سأذهب وألبي رغبة قلبك !
من يكن ذلك الذي يشن الحرب عليك
... أتيامة، وهي امرأة، هي القادمة عليك بالسلاح !
يا ابي، ابي الخالق، افرح وتهلل
انك ستطأ عن قريب عنق تيامة
أي بني: يا من تعرف الحكمة كلها !
هدىء تيامة بسحرك المقدس.
تقدم على عربة العاصفة بكل سرعة!
فلن يعيقك اعوانها من الدنو، فترجع سالماً
وفرح مردوخ وتهلل بكلمات ابيه
ابتهج قلبه وقال لأبيه
يا خالق الآلهة، ومقدر اقدار الآلهة الكبار
إذا قدر لي أن أصير بطلك
فأنتصر على تيامة، وابقيك حياً
فلتجمع المجمع وتعلن قدري سامياً
وعندما تجلسون معاً فرحين في ندوة الأقدار
ليكن بوسعي أن أقدر الأقدار بدلاً منكم بكلمة تخرج من فمي
فما أخلقه يبقى لا يأتيه التغيير والتحوير ».

طلب أنشار من وزيره « كاكا » أن يذعو الآلهة جميعاً للتشاور. وعندما اجتمع الآلهة في مجلس الشورى (ندوة الأقدار) وجلسوا للوليمة فأكلوا واحتسوا خمراً، قرروا انتخاب بطلهم الإله مردوخ لينتقم لهم وجعلوه ملكاً عليهم وفوّضوه السلطة المطلقة على جميع الكون وزودوه بالأسرار الإلهية الكامنة في أسمائهم والخاصة بهم وزودوه بالصولجان والتاج وأعطوه سلاحاً لا نظير له في حربه مع تيامة. وصنع هو قوساً وسهماً عجيبين وصنع شبكة وأمر الرياح الأربع أن تسكن في مواضعها وركب عربته المرعبة تجرها مخلوقات مدمرة. ولما تقابل الإله مع تيامة بدأت هذه تتلو سحرها ولكن لم تؤثر في مردوخ. وبعد تبادل كلمات السباب نشر

الإله شبكته واصطادها فيها، وأطلق الرياح الشريرة فدخلت في جوفها فانتفخ بطنها فبقره وذبحها. وحاولت جموعها أن تهرب ولكن مردوخ لم يدع أحداً يفلت من يده فجمعهم في شبكته ومعهم قائدهم كنكو فأخذ منه ألواح القدر وختمها بختمه واحتفظ بها في صدره. ثم رجع إلى تيامة فقسم جسمها قسمين جعل النصف الأعلى منه سماء ومن نصفه الأسفل أرضاً.

« صنع مقراً للآلهة العظام
ووضع كواكبها، وهي أبراج لوماشي (الأبراج السبعة) على مثالهم
وعيّن لكل من الأشهر الاثني عشر ثلاثة كواكب
وبعد أن عين أيام السنة بالكواكب
فتح مردوخ فاه وقال لأيا:
أجل لأخلق لولو الانسان
ولأفرض عليه عبادة الآلهة حتى يستريحوا
ويستدرك مردوخ مخاطباً الآلهة قائلاً:
والآن ينبغي لكم أن تقولوا الحق
من ذا الذي خلق النزاع
وحرض تيامة على الثورة وهيأها للحرب
فليسلّم من سبّب النزاع
ولأحملنّه جريرة ما ارتكب، فتعيشوا بسلام.
فأجابه الآلهة:
إنه كنكو الذي خلق النزاع
وحرض تيامة على الثورة، وهيأها للحرب
فكبلوه، واودعوه السجن أمام أيا
وعاقبوه بقطع عروق دمه
ومن دمه خلقوا البشر
وفرض أيا عليهم عبادة الآلهة.
وصفح عن الآلهة الأخرى
فتح الأنوناكي أفواههم
وقالوا لمردوخ، سيدهم
ماذا نصنع لندل على شكرنا لك؟
لنبنينّ معبداً يكون قصراً لك

فنأوي إليه يوم نحج إليك(*).
لما سمع مردوخ هذا
طفح وجهه بشراً، وتألق مثل النهار
وقال:
هكذا لتكن بابل التي اردتم بناءها
لتبن مدينة، وليقم معبد منيع التحصين
فتناول الأنوناكي الفأس
وصنعوا لبناً يكفي سنة
فلما بدأت السنة الثانية
رفعوا رأس إيساكلا (**)عالياً على آبسو

وبعد أن أتموا بناء معبد الإله مردوخ اجتمعوا فيه في حفل مقدس ورتلوا مجد مردوخ ومنحوه أهم ألقابهم وأسمائهم المقدسة، فصار يجمع في شخصه أكثر صفاتهم. وتنتهي قصة الخليقة في الرقيم السابع الذي خصص ليكون ترتيلاً وصلاة لمردوخ(***).

اسطورة جلغامش:

ملحمة شعرية سومرية الأصل بابلية النتاج. وهي تصنف من حيث أفكارها وصفاتها الشعرية بين شوامخ الأدب العالمي.

ومع أن هذه الملحمة قد دونت في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وترجع حقبة حوادثها إلى زمن أقدم، فإنها ما تزال خالدة وذات جاذبية انسانية عامة. وعلى الرغم من أن الملحمة قد جاءتنا من ناحية الفن القصصي على هيئة متكاملة في آخر نسخة لها من القرن السابع قبل الميلاد، وهي النسخة الآشورية(****) من خزانة الملك آشور بانيبال، إلا أنها كانت أقرب ما تكون إلى الجمع الأدبي، أي أنها مؤلفة من عدة قطع وأجزاء تتعلق بحوادث وأعمال مختلفة. فمن هذه الأجزاء المهمة القصص، الدائرة حول أعمال جلغامش البطولية ومغامراته

(*) اشارة بذلك إلى عيد رأس السنة البابلي الواقع في اول نيسان يوم تحج الآلهة إلى معبد مردوخ في بابل باحتفال مهيب.

(**) اسم معبد مردوخ في بابل.

(***) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: القسم الاول،تاريخ العراق القديم ص٤٥٧.

(****) موجودة الآن في المتحف البريطاني.

مع صديقه ورفيق السلاح أنكيدو. وجزء آخر يدور حول رواية الطوفان الذي يؤلف بنفسه موضوعاً مستقلاً من الناحية الفنية. وهناك جزء ثالث يصف العالم الأسفل أو عالم الأرواح كما شاهده أنكيدو، وهذا الجزء يكوّن بنفسه قصة لا علاقة لها بسياق حوادث الملحمة ولا بموضوعها العام.

عالجت ملحمة جلغامش فكرة أساسية وهي مسألة الحياة والموت، كما تطرقت إلى قضايا انسانية أخرى مثل الصداقة والحب والبغض والأماني والحنين إلى الذكريات والحرب والمغامرات والرثاء. والملحمة فوق ذلك كله تصور جوانب مهمة من حضارة بلاد الرافدين قبل أربعة آلاف عام. إذ يقف فيها القارىء على عقائد قدماء العراقيين الدينية وآرائهم وأفكارهم في الحياة والكون وأحوالهم الاجتماعية والجوانب المثيرة من حياتهم العاطفية والعقلية وعلاقاتهم الاجتماعية وتركيب أقدم مجتمع متحضر في تاريخ العمران البشري، كما يجد فيها صورة رائعة عن الحياة البدائية وكيفية تدرجها إلى طور الحضارة.

لقد شغلت مسألة الحياة والموت المجتمع السومري ـ البابلي منذ مدة طويلة. فهناك أساطير سعت لتفسير: لماذا كان الآلهة خالدين يعيشون حياة أبدية والبشر يفارقونها؟. وقد أغرت واحدة منها كسبب لموت البشر جنون الانسان الأول، أدابا، الابن المحبوب جداً من الإله أيا الذي كان قد منحه الحكمة الكبرى، ولكن لم يمنحه الحياة الأبدية. وفي أحد الأيام عرضت على أدابا فرصة الحصول على الخلود، غير أنه رفضه. واستدعي للمثول أمام الإله أنوم، إله السماء السومري وكان مقر عبادته في أوروك ـ الوركاء، لمحاكمته بسبب كسوه جناحي الريح الجنوبية. وقد أعلمه أيا، إله الماء، بأنه إذا قدم إليه الإله آنو شيئاً ليأكل أو يشرب فعليه أن يرفض لأن ما سيقدم إليه إنما هو «طعام الموت وشرابه». ولما مثل أدابا أمام آنو وَجَده يعرف أكثر مما ينبغي لبشر مثله أن يعرف. ولأسباب مجهولة قرر الإله آنو أن يكمل هذا الانسان فيطعمه طعام الحياة ويسقيه شرابها أي أنه عزم على أن يجعله خالداً. فأصر أحد خدمه على أن يحضر أمام أدابا طعام الحياة وماءها ليأخذ منها. ولما احضرا أمامه رفض أن يأكل ويشرب متذكراً تحذير إلهه أيا قبل أن يصعد إلى السماء. فتعجب آنو وغضب لأن أدابا رفض أن يأكل من طعام الحياة ويشرب من مائها، فيئس آنو وأمر أدابا أن يرجع إلى الأرض فيموت مثل البشر [٨].

إن هذه الأسطورة التي يحتمل أنها من اختراع الكهنة، تسعى لجعل الناس يذعنون لمصيرهم وتحملهم على التسليم بعجزهم أمام الآلهة. غير أن تفسيراً مماثلاً لفناء البشر لم

(٨) سومر المجلد السادس ١٩٥٠/٢/١٨٦ ـ ١٨٦.

يستطع أن يقنع الرجال المفكرين في المجتمع البابلي. فقد طرحت ملحمة جلغامش القضية من جديد، دون أن تعطي مع ذلك جواباً شافياً.

كان جلغامش حاكماً لمدينة اوروك السومرية أواخر عهد جمدة نصر أو في مطلع عصر فجر السلالات [٩]. فقد ورد اسمه في اثبات الملوك السومريين من سلالة الوركاء الأولى وهي السلالة الثانية التي حكمت بعد الطوفان. وكانت سلالة كيش اول سلالة حكمت بعد حادثة الطوفان مباشرة. ويأتي ترتيب حكمه في سلالة الوركاء الأولى خامس ملك [١٠]. أُلّه بعد وفاته. واقيمت على شرفه عبادة له في مدينة اوروك [١١]. ولعل أقدم كتابة ذكرت اسم جلغامش ولوغال بصفتهما اسمين مؤلهين الألواح الصورية التي وجدت في فارة (شروپاك القديمة) ويرجع زمنها على الأرجح إلى أواخر عهد جمدة نصر ٣٢٠٠ ق.م [١٢].

تمثل الأسطورة جلغامش على شكل عملاق قوي، طويل القامة، ضخم الجسم، مفتول العضلات، جميل وحكيم، ثلثان منه إله وثلثه الباقي بشر. قام مع أنكيدو، صديقه ورفيق السلاح، بأسفار ومغامرات خارقة أثارت اعجاب عشتار، فعرضت عليه أن يكون عريسها أو زوجها أو حبيبها، ولكنه رفض عروضها. وشعرت عشتار بالذلة والمهانة فذهبت غاضبة إلى أبيها آنو لتستعديه على جلغامش. فخلق لها آنو ثور السماء (لعله يرمز إلى الجفاف أو انحباس الماء) لتقضي به عشتار على جلغامش. فانبرى له البطلان يصارعانه وقتلاه. وحينئذ وبناء على طلب عشتار أصاب الآلهة انكيدو بمرض مميت. فحزن عليه جلغامش ورثاه اروع رثاء وظل الحزن يلازمه، واستبد به القلق من الموت... وفكر كيف السبيل إلى اجتنابه؟. وإليكم بعض مقاطع الأسطورة:

« هو الذي رأى كل شيء إلى أقاصي الأرض.
وهو الذي خبر جميع الأشياء وأفاد من عبرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء
لقد أوغل في الأسفار البعيدة حتى حل به الضنى والتعب
فنقش في نصب من الحجر كل ما عاناه وما خبره

(٩) باقر، طه: ملحمة جلغامش ص ١٨.
(١٠) المصدر ذاته ص ١٧.
(١١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٠.
(١٢) باقر، طه: ملحمة جلغامش ص ١٨.

بنى اسوار « اوروك » وحرم « أي - أنا » (*) المقدس، والمستودع الطاهر
بعد أن خُلق جلغامش، وأحسن الإله العظيم خلقه
حباه شماش (**) السماوي بالحسن، وخصه أدد (***) بالبطولة
وكان طوله أحد عشر ذراعاً وعرض صدره تسعة أشبار
ثلثان منه إله، وثلثه الباقي بشر.
وهيئة جسمه لا نظير لها ».

ويشكوه أهالي اوروك إلى الآلهة قائلين: « إنه يخرج أبناءهم من دورهم ليكدحوا في بناء الأسوار بالنهار والليل. وانه لم يترك عذراء لحبيبها ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل ». ولما استمع آنو الجليل إلى شكواهم، دعا « ارورو » عرابة جلغامش ورجاها أن تخلق الآن غريماً له قادراً على أن يشغله في نزاع بينهما « لتنال اوروك السلام والراحة ».

« وغسلت ارورو (****) يديها وأخذت قبضة طين ورمتها في البرية.
خلقت في البرية « انكيدو » الصنديد نسل « نينورتا » (*****) القوي
يكسو جسمه الشعر، وشعر رأسه كشعر المرأة
لا يعرف الناس ولا البلاد، ولباس جسمه مثل « سوموقان » (******)
ومع الظباء يأكل العشب، ويسقى مع الحيوان من موارد الماء ».

ويحاول أحد الصيادين أن يقتنصه بالشباك والفخاخ ولكنه يعجز، فيذهب إلى جلغامش ويرجوه أن يعيره كاهنة توقع انكيدو في شراك حبها. فيقول له جلغامش: « اذهب أيها الصياد وخذ لك كاهنة، فإذا جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقي فلتكشف عن جمالها، فإذا رآها انفضت من حوله الوحوش ». وينطلق الصياد والكاهنة ويلتقيان بأنكيدو.

« هذا هو يا بغي فاكشفي عن نهديك
اكشفي عن عورتك لكي يتمتع بمفاتن جسمك

(*) أشهر معابد الوركاء المقدسة. وقد خصص لعبادة الإلهة « آنو » والإله « عشتار ».
(**) إله الشمس وكان عندهم إله العدل والشرائع.
(***) إله الرعد والعواصف والأمطار.
(****) ارورو: إحدى الآلهات الخالقات.
(*****) نينورتا: إله الحرب.
(******) إله الماشية.

لا تحجمي، بل راوديه وابعثي فيه الهيام
فإنه متى رآك وقع في حبائلك
انضي عنك ثيابك، لينجذب إليك
وأثيري شهوته، كما تفعل النساء
ستنكره حيواناته التي ربيت معه في البرية
إذا انعطف إليك وتعلق بك
فأسفرت البغي عن صدرها وكشفت عن عورتها
فتمتع بمفاتن جسمها
نضت ثيابها فوقع عليها
وأثارت شهوته كما تفعل النساء
والتصق صدره بصدرها.
فنسي انكيدو أين ولد.

ولبث انكيدو مع البغي ستة أيام وسبع ليال، يعب فيها السعادة عباً. وبعد أن قضى وطره منها رأى أصدقاءه من الحيوانات قد فارقوه، فلم يلحق بهم ولكن شل جسمه. عندها كلمته البغي قائلة:

«إنك حكيم يا انكيدو، وأنت مثل إله. تعال آخذك إلى اوروك، حيث يعيش جلغامش الذي لا يدانيه أحد في جبروته. ووقع انكيدو في شرك الكاهنة العاهرة، فسار وراءها إلى أوروك وهو يقول: «أريني المكان الذي فيه جلغامش، أقاتله وأظهر له قوتي». وفي شارع أوروك، في موضع السوق تلاقيا. «وظل جلغامش وانكيدو يتصارعان كالثورين الوحشيين» حتى اهتزت الأسوار وغلب جلغامش انكيدو وأقر انكيدو بتفوق جلغامش. وانتهت المصارعة بين البطلين بأن انعقدت أواصر الصداقة بينهما وصارا خلّين حميمين يلازم احدهما الآخر. وشرعا بالقيام بسفر طويل في مغامرة إلى «غابة الأرز المسحورة» سعياً وراء الشهرة والمجد. ووصلا بعد سفر شاق إلى مدخل الغابة التي يحرسها الغول «خُمْبَابَا»(*) (خوواوا في النصين السومري والبابلي وخمبابا في النص الآشوري) فذعر جلغامش واستغاث شماش الذي أرسل ريحاً سلطها على خمبابا فمسكته وشلت حركته. فاستسلم لهما وأخذ يتضرع أن يبقيا على حياته فرق قلب جلغامش. ولكن صديقه انكيدو

(*) خُمْبَابَا: العفريت الذي يحرس غابة الارز وقد ورد اسمه في نصوص الألواح البابلية القديمة بهيئة «خواوا».

حرضه على قتله فقتلاه وقطعا رأسه. وتنتهي المغامرة بنجاح البطلين وعودتهما سالمين إلى اوروك وهناك تهيآ للاحتفال بالنصر.

غسل جلغامش شعره الأشعث الطويل وصقل سلاحه
وأرسل جدائل شعره على كتفيه
وخلع لباسه الوسخ واكتسى حللاً نظيفة
ولما أن لبس جلغامش تاجه
رفعت عشتار الجليلة عينيها ورمقت جمال جلغامش فنادته:
تعالَ يا جلغامش وكن عريسي
وهبني ثمرتك اتمتع بها
كن زوجي واكون زوجك
سأعِدُّ لك مركبة من حجر اللازورد والذهب
وعندما تدخل بيتنا ستجد شذى الأرز يعبق فيه
سينحني لك الملوك والحكام والأمراء
وسيقدمون لك الأتاوة من نتاج الجبل والسهل».

رفض جلغامش عروض عشتار فحز ذلك في نفسها وخاصة بعد أن عرّض بعلاقاتها السابقة مع عشاقها الذين جلب حبها لهم الوبال... «وتموز حبيب صباك مات بسبب حبك له! طير الشقراق(*) المرقش ضربته بعصاك وكسرت جناحيه ولا يزال يندبها! أحببت الأسد ولكنكِ حفرت له للإيقاع به! أحببت بستاني أبيك ولكنك مسخته ضفدعاً!

شعرت عشتار بالذلة والمهانة فذهبت غاضبة إلى أبيها آنو لتستعديه على جلغامش. فخلق لها ثور السماء وأنزله إلى اوروك فنشر الرعب والفزع فيها وقتل بعض أهاليها فانبرى له البطلان يصارعانه حتى غلباه. وحزنت عشتار على موت الثور وأقامت المناحة عليه وشاركتها نسوة المعبد... ومر موكب جلغامش في زهو يسأل العذارى: مَنْ الممجد بين الأبطال؟ فيجبنه: جلغامش.

وكان لا بد بعد ذلك أن يحل العقاب بالبطلين... فانكيدو قتل «خمبابا» و«ثور السماء». ووقع حكم الآلهة عليه بالموت، وذلك بأن أصابوه بمرض عضال وهو في عنفوان

(*) الشقراق: ترجم بعضهم هذا الطائر بطير الراعي. ويلاحظ أن الشقراق الذي يكثر في العراق يخرج في أثناء موسم التلاقح.

مجده وريعان شبابه. ومات انكيدو وحزن عليه جلغامش وندبه ورثاه:

« على فراش المجد أضجعتك
واجلستك على كرسي الراحة إلى يساري
كيما يقبّل امراء الأرض قدميك
سأجعل أهل اوروك يبكون عليك ويندبونك
وسيحزن عليك أهل الفرح والموسرون وسأجعلهم يقربون إليك
وأنا نفسي بعد أن توسد في الثرى سأطلق شعري
وسألبس جلد الأسد وأهيم على وجهي في البراري ».

من أجل انكيدو بكى جلغامش بكاء مراً، وهام على وجهه في البراري وتملّكه الحزن والأسى وأخذ يخاف هو نفسه الموت.. وفكر: كيف السبيل إلى اجتنابه؟ هنا تذكر قصة جده « أوتنا بيشتيم » الذي يعيش في بقعة نائية في البحار البعيدة والذي استطاع أن يحصل على الخلود. فعزم على التوجه إليه ليسأله عن لغز الحياة والموت وكيف أصبح خالداً. وبدأ بسفرة طويلة... وصل أولاً إلى جبل « ماشو » الذي يحرس مدخله « البشر العقارب ». فسأل « الرجل العقرب » جلغامش عن أهدافه فأخبره أنه يسعى وراء الوصول إلى أوتنا بيشتيم فسمح له بالمرور وظل يسير في ظلام حتى جاء بستاناً عجيباً تحمل أشجاره الجواهر اللامعة، ووصل أخيراً إلى شاطىء واستقر عند حافة تقيم فيها « سابيبو » إلهة البحار وشكا إليها حاله وطلب مساعدتها للوصول إلى أوتنا بيشتيم فأجابته قائلة:

إيه جلغامش! لماذا أنت تهيم على وجهك
إن الحياة التي تبغي لن تجد
فحين خلقت الآلهة البشر قدرت عليهم الموت
واستأثرت هي بالحياة
أما أنت يا جلغامش فاملأ بطنك بالطعام
وكن فرحاً مبتهجاً ليل نهار، واخلق لنفسك مسرة كل يوم
واجعل ثيابك نظيفة زاهية واغسل رأسك واستحم بالماء
وهذا هو نصيب البشر ».

غير أن هذه الحكمة المنتشرة جداً في أوساط الارستقراطية البابلية، لم تقنع أبداً

جلغامش(١٣)، وألح جلغامش في سؤاله فأرشدته إلى ملاّح «أوتنا بيشتيم» الذي نقله بسفينة إلى الجزيرة السعيدة التي يعيش فيها اوتنا بيشتيم المحتد أمين الدهر.

سأل جلغامش «اوتنا بيشتيم»: قل لي كيف دخلت في مجمع الآلهة ونلتَ الحياة الخالدة؟. فبدأ أوتنا بيشتيم يقص عليه قصة الطوفان الذي حصل من بعده على الخلود (*). قال اوتنا بيشتيم مخاطباً جلغامش:

«سأطلعك على سر من أسرار الآلهة.

كنت أعيش في «شروپاك» الراكبة على شاطىء نهر الفرات
وعوّل الآلهة على أحداث الطوفان
كان أيا في مجلسهم
فنقل الحديث إلى كوخ القصب مسكني وخاطبه!
اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط(**)
يا رجل «شروپاك»، يا ابن «اوبارا - توتو»!
قوّض بيتك وابنِ سفينة وانجُ بحياتك
واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة
ولما وعيت ذلك قلت لربي، أيا
سمعاً يا ربي ساصدع بما أمرتني به
ولكن ما عساني أقول لأهل المدينة؟
قال لي: قل لهم إني علمت أن آنليل يبغضني

---

(١٣) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر ص ١٣١.

(*) بسبب عجز الانسان أمام الطبيعة فسر قدماء العراقيين الحوادث الطبيعية الكبرى الضارة على أنها من صنع الآلهة الغاضبة على الناس الشريرة، واعتبروها عقاباً للبشر لمخالفتهم ارادة الآلهة. وقد انعكس هذا المفهوم على الأسطورة البابلية عن الطوفان. ففي بلاد النهرين غالباً ما كانت تحدث طوفانات نتيجة فيضانات دجلة والفرات التي يسببها سقوط الأمطار وذوبان الثلوج على جبل أورارتو (ارمينيا) فتغمر ساحات واسعة حتى ظن سكان المنطقة في ذلك العصر ان الفيضانات تغمر العالم بأجمعه. لذا نسجوا اسطورة الطوفان وقالوا إنه باقتراح من الإله آنليل بعثت الالهة إلى الأرض بوابل من المطر الغزير فأهلك الناس وحول الخليقة إلى طين ما عدا الانسان الطاهر أوتنا بيشتيم (زيوسودرا في الاسطورة السومرية) الذي صنع بناء على نصيحة الإله أيا سفينة ونجا مع عائلته.

(**) الخطاب موجه بطريق المجاز إلى صاحب الكوخ أوتنا بيشتيم.

فلن أعيش في مدينتكم بعد اليوم
سأنزل إلى أبسو (*) وأعيش مع أيا إلهي
وعليكم سينزل وابلاً من المطر غزيراً
وصنعت السفينة وانشأتها من ست طبقات بالإضافة إلى أصلها فصارت سبع طبقات
ووضعت فيها المراوي وجهزتها بالمؤن
ثم حملت فيها كل ما املك ووضعت فيها بذرة كل كائن حي
اركبت في السفينة جميع أهلي وذوي قرباي
واركبت فيها حيوان الحقل والبر وجميع الصنّاع
وحل أجل الموعد المعين
وفي المساء انزل الموكل بالعاصفة مطراً مهلكاً
وتطلعت إلى الجو فكان مكفهراً مخيفاً
فولجت في السفينة واغلقت بابها
وارعد الإله أدد وانقلب النور ظلمة
وهبت العواصف وانكسرت السدود
وظلت زوابع الريح الجنوبية تهب يوماً كاملاً
وازدادت شدة في مهبها حتى غمرت الجبال
وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان
وصار الأخ لا يبصر أخاه
وحتى الآلهة ذعروا وخافوا من عباب الطوفان
فانهزموا وعرجوا إلى سماء آنو
وصرخت عشتار كالمرأة في ساعة مخاضها
انتحبت سيدة الآلهة وناحت بصوتها الشجي نادبة
واحسرتاه لقد تحولت الخليقة إلى طين
وصار البشر الذين ولدتهم يملأون المياه كصغار السمك
ومضت ستة أيام وسبع ليال
ولم تزل الزوابع تعصف وقد غطى عباب الطوفان الأرض
وفي اليوم السابع خفت حدة الطوفان
وهدأ اليم وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان

(*) يرجح ان المقصود هنا الاهوار الممتدة في رأس الخليج.

وتطلعت إلى الجو ، فرأيت السكون عاماً
فتحت كوة فسقط النور على وجهي
ورأيت البشر قد استحالوا إلى طين
واستقرت السفينة على جبل « نصير » مدى سبعة أيام
وأطلقت حمامة لم تجد مستقراً فعادت
وأطلقت سنونوة فعادت كذلك
ثم أطلقت غراباً ولما رأى المياه قد انحسرت
أكل وحام وحط ولم يعد
وعند ذلك أطلقت كل شيء إلى الجهات الأربع وقربت قرباناً للآلهة اجتمعوا حوله كالذباب
ولما جاء انليل وشهد السفينة غضب لأن بعض البشر نجوا
ولامه ايا لأنه تسرع فأحدث الطوفان
ثم صعد « انليل » إلى السفينة
وأخذ بيدي وأخرجني مع زوجتي
فسجدنا له ثم باركنا وقال
لم يكن « اوتنا بيشتيم » قبل الآن سوى بشر
ولكن منذ الآن سيكون وزوجه إلهين مثلنا
وسيعيش « اوتنا بيشتيم » بعيداً
فأخذوني واسكنوني هنا
وأنت يا جلغامش : من سيجمع الآلهة من أجلك
وتوسل جلغامش إلى اوتنابيشتيم أن يدله على ما يفعله
وأسرّ أوتنا بيشتيم إلى جلغامش بسرّ خفي
أجل سأبوح لك بسر من أسرار الآلهة
يوجد نبات ينمو في غور البحر يجدد الشباب والحياة (*)
فربط جلغامش حجراً في قدمه وغاص في الأعماق
ووجد النبات وأخذه وفكر في استنباته في بلاده
وسيكون اسمه « يعود الشيخ إلى صباه كالشباب »
وأنا سآكله في آخر أيامي حتى يعود شبابي

(*) أرشده للتغلب على الموت بطرق سحرية .

وفي طريق عودته ابصر جلغامش بركة ماء
فنزل فيها ليستحم
وشمت حية شذى النبات
وخرجت من الماء واختطفت النبات
وحصلت على وسيلة تجديد الشباب والحياة
فجلس جلغامش يبكي
وخاطب ملاح اوتنابيشتيم قائلاً :
لم أحقق لنفسي مغنماً (★)
أجل! لقد حققت المغنم لـ «أسد التراب» (★★)

إن نهاية الملحمة مفقودة. ويعتقد أن جلغامش قد مات دون أن يحل قضية الحياة والموت. وكان كفاح جلغامش الجريء ومثابرته الصامدة لمعرفة أسرار الحياة والموت جديران، بالاعتبار والتقدير. ففيها يجد القارىء أول محاولة لنقد الديانة فقد تجرأ جلغامش على تحدي الآلهة، واتخذ أحياناً حتى موقف الاستعلاء عليها وارغمها على طلب العفو عن ثورتها. وكان لملحمة جلغامش تأثير كبير في أدب العديد من شعوب العالم القديم [١٤].

قصة نزول أنكيدو إلى العالم الأسفل

إن اللوح الثاني عشر من مجموعة الواح جلغامش لا يمت في حوادثه بصلة قصصية فنية إلى مادة الملحمة ولكنه دُمج فيها دمجاً اصطناعياً. ولعل مناسبة ذلك أو مبرره أنه بعد أن عاد جلغامش خائباً من نوال الخلود شغله التفكير بمصيره في عالم ما بعد الموت فجاء وصف ذلك العالم وحال الموتى فيه باستعادة حادثة نزول صديقه انكيدو إلى ذلك العالم.

ومما يقال بوجه الاجمال إن هذا اللوح يكاد يكون ترجمة أكدية حرفية لأصل سومري يدور حول الأعمال البطولية المنسوبة إلى جلغامش وصديقه ولا سيما قصة نزول انكيدو إلى العالم الأسفل (عالم الأموات). ولكن ينخرم زهاء اثني عشر سطراً من أول اللوح الثاني عشر ويرجح أنها تحتوي نفس المادة الموجودة في الأصل السومري الذي تبدأ حوادثه من ازمان الخليقة بعد انفصال السماء عن الأرض وخلق البشر. وبعد أن تقاسم الآلهة العظام

(★) أي أنه فشل في نيل الخلود حتى بالطرق السحرية.

(★★) من نعوت الحية عند قدماء العراقيين.

(١٤) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٢.

مسؤوليات الكون واختص كل منهم بجزء منه، حدث في تلك الأزمان أن شجرة ـ لعلها شجرة الصفصاف ـ قد اقتلعتها الريح الجنوبية وجرفها نهر الفرات، وحين اقتربت من مدينة أوروك رأتها الإلهة «أنانا» (عشتار) حينما كانت تتمشى على ضفاف النهر فانتشلتها من الماء وأخذتها إلى بستانها المقدس في اوروك وتعهدتها بالرعاية لتصنع من خشبها سريراً وكرسياً لها. ولكن لما كبرت الشجرة لم تستطع أنانا أن تحقق ذلك الغرض لأن ثعباناً اتخذ اسفلها مأوى له كما اتخذ اعلاها طير الصاعقة «زو» عشاً لصغاره واتخذت وسطها الشيطانة «ليلث» مأوى لها. فحزنت عشتار لما حل بشجرتها. ولكن لما سمع جلغامش بمحنتها خف لنجدتها وهجم على الثعبان وذبحه ففر طير الصاعقة وهرب تاركاً الشجرة. ومثل ذلك فعلت الشيطانة ليلث. ثم عمد جلغامش ومعه رجال اوروك إلى قص الشجرة وسلمها إلى عشتار لتصنع منها سريراً وكرسياً، فصنعت عشتار من أسفلها ومن أعلاها آلتين غريبتين أولاهما بكو (الطبل) والثانية ميكو (مدق الطبل) وأهدتها إلى جلغامش. ولكن حدث لسوء حظ جلغامش أن هاتين الآلتين سقطتا في أحد الأيام في العالم الأسفل واخفق في جلبهما من ذلك العالم فحزن حزناً عظيماً وصار يندبها. وإلى هنا ينتهي تقريباً النص السومري. ولكن يبدأ نص اللوح الثاني عشر من ملحمة جلغامش فنجد أن هذا اللوح يبدأ بحزن جلغامش على ضياع آلتيه فخف إليه انكيدو وتطوع أن ينزل إلى العالم الأسفل ليجلب له تينك الآلتين. وعند ذلك أخذ جلغامش يحاور انكيدو ويرشده كيف ينبغي له أن يسلك في ذلك العالم:

«إذا اعتزمت النزول إلى العالم الأسفل هذا اليوم
فسأقول لك كلمة فاتبع كلمتي
لا تكتسِ بالحلة النظيفة الزاهية وإلا هَبّ بوجهك الأموات
لأنك تبدو غريباً عن عالمهم
لا تمسح جسمك بالزيت الفاخر لئلا يتجمعوا حولك بسبب عطره
لا ترم رمحاً في العالم الأسفل مخافة أن تصيب بعضهم فيحيطوا بك
لا تأخذ بيدك عصا وإلا فإن الأرواح سترتجف منك
لا تلبس نعلاً في قدميك ولا تحدث صوتاً في العالم الأسفل
وإذا وجدت الزوجة التي تحب فلا تقبلها
وإذا صادفت الزوجة التي تبغض فلا تضربها
ولا تقبل الابن الذي تحبه ولا تضرب الابن الذي تكرهه
وإلا فإن صراخ العالم الأسفل سيغلبك».

ولكن انكيدو لم يأخذ بنصح سيده بل سلك عكس الوصايا التي أوصاه بها... فغلبه صراخ العالم الأسفل. ولذلك قررت ملكة العالم الأسفل أن لا يخرج انكيدو من ذلك العالم لأن سننه أن من يدخله لا يرجع منه. ولما لم يعد من العالم الأسفل أخذ صاحبه جلغامش يندبه ويبكيه. فقصد جلغامش معبد الإله آنليل في نفر، وشكا إلى آنليل اختفاء آلتيه في العالم الأسفل وأن ذلك العالم أمسك بصديقه انكيدو الذي نزل إليه. ولكن انليل لم يسعفه. وكذلك فعل الإله سين. فقصد جلغامش معبد الإله أيا في اريدو وطلب منه العون فاستجاب هذا لاستغاثته وخاطب إله العالم الأسفل نرجال وطلب منه أن يحدث فتحة صغيرة في العالم الأسفل حتى تخرج منه روح انكيذو وتخبر صديقه بأحوال ذلك العالم. فاستجاب نرجال لطلب الإله ايا واحدث ثقباً خرجت منه روح انكيدو فتعانقا وأخذ جلغامش يسأل شبح صديقه:

« أخبرني يا صديقي عن أحوال العالم الأسفل الذي رأيته

فأجابه صديقه: لن أقص عليك أخبار العالم الأسفل يا صديقي

وإذا كان لا بد من اخبارك بها فسيحتم عليك أن تحكي وتبكي. فأجابه جلغامش:

سأجلس وابكي. فأخذ انكيدو يصور تلك الصور القاتمة التي رآها في عالم الأموات!

إن جسمي الذي كنت تلمسه يوم كان قلبك تغمره الأفراح، تلتهمه الديدان الآن كما لو كان لباساً خلقاً، وقد امتلأ بالتراب. فصاح جلغامش ويلاه ثم ألقى بنفسه في التراب وخاطب شبح أنكيدو: وهل رأيت الذي لا ولد له؟

أجل لقد رأيته.

هل رأيت الذي خلّف وراءه ابناً واحداً؟

أجل لقد رأيته وهو ممدد أسفل الجُدر ويبكي بكاء مراً.

والذي خلّف ابنين هل رأيته؟

أجل لقد رأيته، إنه يطبخ في إناء من الآجر ويأكل الخبز

هل أبصرت الذي خلف ثلاثة أبناء؟

أجل رأيته، إنه يسقى الماء من زقاق ماء العمق

والذي له أربعة أولاد هل رأيته؟

أجل رأيته وهو فرح القلب

والذي له خمسة أولاد هل رأيته؟

نعم رأيته وهو كالكاتب الطيب ويده مبسوطة

يسمح له بدخول القصر
هل رأيت الذي له ستة أولاد ؟
نعم رأيته ».

ثم يسأل عن الذي خلّف سبعة وثمانية ولكن النص ينخرم في الجواب... وأوضح حالة سؤاله عن ذلك الذي قتل في المعركة حيث شاهده بصحبة ابيه وأمه ولكن زوجته تبكي. وسأله عن ذلك الذي لم يدفن بل ظل في العراء فأجابه بأن روحه لا قرار لها في العالم الأسفل. وسأله عن ذلك الذي لا يقرب إليه أحد من الأحياء من بعد موته فأجابه بأنه يأكل الفضلات التي ترمى في المزابل (١٥).

الأدب التاريخي: كان الكتاب يجمعون الأحداث ويضعونها في سلسلة متصلة ويؤرخون بها للملوك منذ توليهم العروش. ولم تكن الأحداث تشتمل أخبار الحملات الحربية ونشاط الملوك العمراني وحسب بل تضمنت كذلك بعض الحوادث الهامة كالكسوف والخسوف. والمدونات التاريخية مهمّة لا من حيث ذكر الحوادث وحسب بل من حيث تتابع الملوك وتحديد سني الحكم (١٦).

وكانت النقوش البابلية تشير خاصة إلى مآثر الملوك وأعمالهم وحروبهم ومنشآتهم أما النقوش الآشورية التي اتصف اسلوبها بالأبهة والمبالغة المفرطة، فقد أضفت على الأدب التاريخي لوناً حربياً لا مثيل له في أدب بابل إلا في القليل النادر. فالملوك الآشوريون الفاتحون كانوا يشجعون الأدب الذي يُشيد بأمجادهم ويتحدث عن انتصاراتهم. وقلما كانوا يسمحون بذكر شيء عن الكوارث والانتفاضات أو الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي كانت تنتاب البلاد أثناء حكمهم. ويقسم ديلاپورت الوثائق التاريخية الآشورية إلى أربعة أنواع هي:

١ ـ الحوليات: وفيها كانت تسرد الأحداث عاماً بعد عام في ترتيب تاريخي منسّق.
٢ ـ تاريخ الحروب: ويشار فيها إلى ما قام به الملك من حملات.
٣ ـ التقاويم: وتجمع فيها الوقائع حسب الأقاليم التي حدثت فيها.
٤ ـ التقارير: وهي الكتب والوثائق والألواح الموجهة إلى الإله آشور عند العودة من

---

(١٥) باقر، طه: ملحمة جلغامش ص ١٠٥ ـ ١٠٨.
(١٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

كل حملة كتقرير عنها [١٧].

ويتضح من الشرح الذي يعطيه ديلاپورت لكل نوع من أنواع هذه الوثائق أن محتواها لا يعدو أن يكون سجلاً للأعمال الحربية التي قام بها الملوك. وفيما عدا التقارير فإن الأنواع الثلاثة الأولى من الوثائق التاريخية الآشورية كانت تنقش على جدران القصر الملكي أو على اسطوانات ودائع الأساس. وتتألف كل كتابة من ثلاثة أقسام رئيسية: الأولى تقريظ للملك يقدم ملخصاً لأعماله وغالباً سلسلة نسبه، وأما الثاني فيقص احداث الحكم من حروب ومنشآت. وأما الثالث فهو عبارة عن لعنات تصب على من يحطم هذه الكتابة وأحياناً دعوات لمن يعاملها باحترام [١٨].

وقد تطورت الحوليات الملكية في العهد الآشوري تطوراً واسعاً. فهي من حيث سردها للأحداث عاماً بعد عام في ترتيب تاريخي منسق تشكل بالنسبة لنا المصدر الرئيس لتاريخ الدولة العسكرية الآشورية، كما تقدم لنا أحياناً وضعاً جغرافياً لبلدان أخرى في الشرق القديم. وأشهر الحوليات الخالدة «حوليات شلمنصّر الثالث» على مسلته المشهورة التي تضمنت أحداث واحد وثلاثين عاماً من حكمه [١٩]. ومن أهم النماذج التي نستطيع تقديمها ما ورد على اسطوانة «تغلات فلاسّر الأول»:

«آشور» السيد العظيم الذي يحكم مجموعة الآلهة، الذي يمنح الصولجان والتاج، الذي يدعم الملكية.

«إيلليل» ملك ال «أنوناكي» أبو الآلهة سيد الأقطار.

«سين» العاقل سيد التاج الممجد في فخاره.

«شماش» قاضي السماء والأرض الذي ينهي بالعدم محاولات العدو ويساعد العدالة.

«أدد» القوي الذي يحطم الأقاليم المعادية والأراضي والبيوت.

«إينورتا» البطل الذي يحطم الأشرار والمعادين ويشبع رغبة القلب.

«عشتار» الأولى بين الآلهة سيدة الصراع التي تفض المعارك العنيفة.

.... الآلهة العظام الذين يحكمون السماء والأرض والذين يعني هجومهم المعارك والهلاك والذين عظموا مليكة «تغلات فلاسّر»: الأمير المحبوب المفضل في قلوبكم... البطل الرائع

(١٧) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٤١٦.

(١٨) نفس المصدر والصفحة.

(١٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤٦.

الذي اختارته قلوبكم العطوفة. ذلك الذي توجتموه بالتـاج العظيم. ذلـك الذي عينتمـوه في وقار ملكاً على أرض « إيلليل » وأعطيتموه الحكم والمجد والقوة، ورسمتم له إلى الأبد مصيره الملكي لتمام القوة ولذريته الكهنوتية مكاناً في « أي هارساج كور كورا »... تغلات فلاسّر الملك القوي ملك (العالم) كله الذي لا منافس له، ملك الأقاليم الأربعة، ملك الأمراء جميعاً، سيد السادة، ملك الملوك القوي، الكاهن الأعظـم الذي أعطي له بأمر « شماش » صولجان باهر، ذلك الذي حكم الأمم رعايا « إيلليل » في جموعهم. الراعي الشرعي الذي مجد اسمه فوق أسماء كل الأمراء. القاضي العظيم الذي قاد « آشور » ذراعيه والذي أعلن اسمه إلى الأبد ليكون راعياً للأقاليم الأربعة. غازي الأقاليم البعيدة على حدود مملكته في الأقاليم العليا والسفلى. الشعلة القوية التي تسقط على الأرض المعادية مثل العاصفة الراعدة.. ذلك الذي بأمر « ايلليل » ليس له منافس والذي جندل وصرع أعداء آشور.

إن « آشور » والآلهة العظام الذين جعلوا ملكي عظيماً قد منحوني القوة والنفوذ وأمروني أن أمد حدود أراضيهم. لقد وضعوا في يدي أسلحتهم القوية « اعصار المعارك ».

الأراضي والجبال والمدن والأمراء أعداء آشور قد هـزمتهـم وأخضعـت بلادهـم. لقـد حاربت بشجاعة ستين ملكاً وكسبت النصر عليهم في الصراع. لم يكـن هنـاك ضـدي نـد في حرب أو منافس في معركة. لقد أضفت إلى بلاد آشور أراضي أخرى ولأهلها أهلين آخرين. لقد وسعت حدود بلادي وغزوت كل بلادهم أي (بلاد الستين ملكاً)[٢٠].

ويشير « آشور بانيبال » إلى نهب سوزا عاصمة عيلام بواسطة جيوشه في النقش التالي:

« لقد استوليت على سوزا العاصمة مقر آلهتهم ومكان عرافتهم. ودخلت بناء على أمر آشور وعشتار إلى مخابىء قصورهم ومكثت هناك في ابتهاج وفتحت خزائنهم المكدسة بالذهب والفضة والأموال والثروات التي جمعها وكومها ملوك عيلام من أقدمهم حتى معاصري والتي لم يضع عدو من قبلي يده عليها. لقد استخرجتها وعددتها غنيمة. وأخذت إلى آشور كغنيمة الفضة والذهـب والأمـوال والثروات مـن سـومـر وأكـاد وكـذا مـن « كاردونياش » وكل ما كان قد أخذه ملوك عيلام الأقدمون في حملات عديدة وحملوه معهم إلى عيلام من « تساريرو » براق و « أشارو » لامع وأحجار كريمة وأشياء ذات قيمة وحلي ملكية كان قد اعطاها ملوك أكاد الأقدمون و « شماش شوم أوكين » كحلفاء إلى عيلام، والملابس القيمة والحلى الملكية والأسلحة الخاصة بالاحتفالات والحروب وحلي أيـدي المحاربين وكل أثاث قصورهم الذي كانوا يجلسون أو يضطجعون عليه، والأواني التي كانـوا

(٢٠) ديلابورت: المصدر السابق ص ٤١٦ – ٤١٨.

يستعملونها للطعام والشراب والغسيل والتضميخ والعربات والمركبات والـ « تسـومبي » (*) المزين بالـ « تساريرو » والـ « زاهالو » والخيل والبغال الكبيرة بأطقمها الذهبيـة والفضيـة أخذتها كغنيمة وحملتها إلى آشور. وقد حطمت زقـورة سوزا بواجهتيها من اللازورد وكسرت قمتها المحـلاة بالبرونز اللامع. أما « شوشيناك » إله عرافتهم الذي كان يسكن مكاناً خضباً والذي لم يشهد عملـه الإلهي أحـد، وكـذا « شـومـودو » و « لاجـامـارو » و « بارتكيرا » و « امان كاسيبار » و « ادوران سباك » الذي كان ملوك عيلام يحترمون الوهيته و « راجيا » و « سونجور سـارا » و « كـارسـا » و « كيرسـامـاس » و « شـودانـو » و « ايباكسينا » و « بيلالا » و « بانينمري » و « نابيرتو » و « كندا كاربو » و « سيلاجارا » و « نابسا »... كـل هـؤلاء الآلهة والإلهات بكـل مـا يملكـون مـن ثمين وغـال وثـرواتهم وأثاثهم... وحتى كهنتهم والـ « بوهلالي »... حملتها جميعاً إلى آشور كغنيمة كما حملت إلى آشور (٣٢) تمثالاً مـن الذهـب والفضـة والبرونـز والحجـر الجيري للمـلوك مـدن سـوزا « ماداكتو » و « هورادي » وتمثال « اوما نيجاس بن امبادارا » وتمثال « عشتار ناهونتي » وتمثال « هلوسي » وتمثال « تماريتو الثاني » الذي اخضعته بناء على أمر آشور وعشتار. وقد حطمت الـ « شيدو » والـ « لاماسو » (**) حراس المعابد بقدر ما يوجد فيها وألقيت الثيران المتوحشة زينة البوابات، وجعلت معابـد عيلام تختفـي تمامـاً وذهـب مـع الريـح كـل إلـه وإلهة. وقد دخلت جيوشي الصاعقة إلى الأحراش المقدسة حيث لم يكن يسمح لغريب أن يدخلها أو يعبر حدودها وكشفوا عن سرها وأسلموها إلى النار. وفتحت توابيت ملوكهـم الأقدمين والمحدثين الذين لم يعبدوا آشور والذين كان الملوك آبائي قد تركوهم في سلام وحطمتها وأخرجتها وأخذت عظامهم إلى آشور وأقررت القلق على أرواحهم وحرمتهم من التقدمات الجنازية وسكب الماء.

ولمسيرة شهر وخمسة وعشرين يوماً اجتحت أقاليم عيلام ونثرت الملح وأشجار الشوك هناك وحملت معي كغنيمة إلى آشور أبناء الملوك وأخواتهم وأعضاء الأسرة المالكة في عيلام صغاراً وكباراً والحكام ورؤساء المدن ورؤساء حملة الأقـواس والقـادة وراكبي العـربـات والفرسان وحملة الأقواس وحملة الدروع والفنانين على كثرتهم والسكان ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً والخيل والبغال والحمير وقطعان الماشية الكثيرة أكثر من أرجال الجراد.

وحملت تراب سوزا و « ماداكتو » و « هلتماش » ومدنهم الأخرى... التراب الذي كنت

(*) نوع من العربات العيلامية.

(**) الجنيات الحارسة (الحافظة) وثيران وسباع مجنحة ذات رؤوس بشرية.

أريده حملته إلى آشور .

وفي خلال شهر اخضعت عيلام بكل اتساعها واسكت صوت الانسان وخطى الماشية والقطعان وتركت حقولها للحمير والغزلان وكل الحيوانات البرية (٢١) .

أما صيغة البركات واللعنات فنستعيرها من النص الختامي لاسطوانة « آشور بانيبال » التي كتبت في العام ٦٣٩ قبل الميلاد ... ذلك أنه بعد أن يشير إلى إصلاح القصر المسمى « بيت ريدوتي » ينهي الملك قصته قائلاً : « أما الكتابة التي فيها اسمي واسم أبي واسم أبي أبي العنصر الملكي العتيد ... ليقرأه وليضمخه بالزيت وليقدم التضحيات ويضعها بجانب النص الذي يحمل اسمه . ألا فلتمنحه الآلهة بقدر كثرتهم المذكورة في هذا النص ، لتمنحه كما تمنحني القوة والسلطان » (٢٢) .

أما من يحطم الكتابة التي تحمل اسمي واسم أبي واسم أبي أبي ولا يضعها بجانب الكتابة التي تحمل اسمه ... ألا فلينتقم « آشور » و « سين » و « شماش » و « ادد » و « بعل » و « نابو » و « عشتار نينوى ملكة كدموري » و « عشتار اربيلا » و « إينورتا » و « نرجال » و « نوسكو » لينتقموا منه جميعاً لعدم ذكر اسمي (٢٣) .

الأدب الديني : سبق أن ذكرنا بأن القطع الأدبية السومرية ـ البابلية التي تناهت إلينا هي في مضمونها تتعلق بشكل أو بآخر بالدين . والكثير منها يدعو إلى تمجيد الآلهة والخوف منها والدعاء أو الصلاة والتضحية لها :

« قدم الخضوع كل يوم إلى إلهك
التضحيات والصلوات والبخور الواجب
ليكن قلبك نقياً أمام ربك !
إن هذا ما يرضي المعبود
إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح
فإنه سوف يمنحك كل الكنوز
وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك .
الخوف يولد الرفق أو العاطفة

(٢١) المصدر ذاته ص ٤١٩ ـ ٤٢٢ .
(٢٢) المصدر ذاته ص ٤٢٢ .
(٢٣) المصدر ذاته .

والتضحية تطيل العمر
والصلاة تخلص من الأثم[٢٤].

ومن الأدعية التي وصلتنا، دعاء إلى الإلهة عشتار، وفيه تخاطب عشتار بصفتها إلهة الشجاعة والحرب كأعظم إلهة بين الإلهات. ويصف المتوسل غمته المريرة ويصلي لإعادة رخائه. وقد كتب النص الذي بين أيدينا في العهد البابلي الحديث كما كان الحال بالنسبة إلى النص الأقدم الذي استنسخ منه:

« إنني أصلي لك، يا سيدة السيدات، وإلهة الآلهات.
أيا عشتار، ملكة كل الشعوب، التي تقود البشرية باستقامة
انت حقاً نور السماء والأرض، أيا ابنة « سين » المقدامة
أيا معضدة السلاح التي تنهي المعركة
أيا مالكة كل القوة الإلهية التي تلبس تاج السلطان
أيا نجمة النواح التي تجعل الأخوة المسالمين يتقاتلون
والتي مع ذلك تهب الصداقة على الدوام.
لقد بقيت لك، متوجعاً ومنهكاً ومحزوناً، كخادم لك
انظري إليّ أيا « سيدتي »، اقبلي صلواتي
انظري إليّ باخلاص واسمعي توسلي
عدي بعفوي، ولتلطف روحك
رأفة! بجسمي التعيس المملوء بالارتباك والانزعاج
رأفة! بقلبي العليل المملوء بالدموع والعذاب
رأفة! بمشاعري المشبعة بالدموع والعذاب
رأفة! ببيتي المكروب الذي ينتحب بمرارة
أيا أرنيني(*) الممجدة، أسد كاسر، ليكن قلبك مرتاحاً
ليكن احسان عينيك إليّ
بصفاتك المشرقة انظري إليّ باخلاص
اطردي تعويذات جسمي الشريرة، ودعيني أرى نورك المشع
حتى متى، يا « سيدتي » سيبقى أعدائي ينظرون إليّ

(٢٤) المصدر ذاته ص ١٩٦.
(*) اسم آخر للإلهة عشتار.

لك قد صليت اغفري خطيئتي
تجاوزي عن أفعالي المخجلة، تقبلي صلاتي
سددي خطاي باستقامة، مبتهجاً كبطل دعيني ادخل الطرقات مع الاحياء.
تكلمي كي يصير الإله الحانق بأمرك ودوداً
وعين الإله الحانقة عليّ تتجه مرة أخرى نحوي
عسى أن تتأجج مجمرتي (التي هي الآن) مظلمة ومدخنة
وعسى أن يشتعل مشعلي (وهو الآن) خامد
ودعي عائلتي المشتتة تجتمع
عسى أن تتسع حظيرتي، وعسى أن يوسع اصطبلي
انظري إليّ باخلاص واقبلي توسلي.
حتى متى، أيا «سيدتي» ستبقين غاضبة فيتحول عني وجهك؟
حتى متى، أيا «سيدتي» ستبقين ساخطة فتبقى روحك هائجة؟
دعيني أطأ أعدائي كالأرض
اخضعي كارهيّ، واجعليهم يجثون أمامي.
ودعي صلواتي، وتوسلاتي تصل إليك.
لتحل رحمتك العظيمة عليّ
دعي أولئك الذي يرونني في الطريق يمجدون اسمك
أما أنا فدعيني امجد الوهيتك وجبروتك أمامّ ذوي الرؤوس السوداء قائلاً:
إن عشتار حقاً مبجلة، إن عشتار حقاً ملكة
«السيدة» حقاً مبجلة، «السيدة» حقاً ملكة
«أرنيني» ابنة «سين» المقدامة، ليس لها ند [٢٥].

ومن الأساطير الدينية التي وصلتنا: اسطورة الطوفان وأسطورة صراع الإله مردوخ مع تيامة [٢٦] واسطورة نزول الإلهة إنبانا السومرية (عشتار البابلية) إلى العالم السفلي [٢٧].

نصوص فلسفية واجتماعية: شغلت قضايا أصل الوجود والأشياء ومسألة الحياة والموت وأصل الخير والشر اهتمام المفكرين العراقيين القدماء. وكانت لهم آراء مختلفة حول تلك

---

(٢٥) سومر المجلد العشرون. دار الجمهورية - بغداد ١٩٦٤ ص ٦٩ - ٧٤.
(٢٦) انظر قصة الخليفة ص ٣٠٥ - ٣١٠.
(٢٧) انظر موضوع الديانة ص ٣٨١ - ٣٨٢.

الموضوعات. فقد سبق رجال الفكر العراقيون فلاسفة الاغريق بقولهم بنظرية العناصر الأربعة الأولية التي عدت أصل جميع الأشياء. وطرحت ملحمة جلغامش مسألة الحياة والموت من جديد بعد أن كانت قد سبقتها في معالجة الموضوع نفسه قصة آدابا. كما أبدى المفكرون العراقيون الأقدمون شكهم في عدد من المفاهيم والقيم الرسمية الدينية والاجتماعية الراهنة. فقد رفض جلغامش عروض عشتار وتصدى، مع انكيدو رفيقه في السلاح، لمجابهة الآلهة وانتصر. ولم يقتنع جلغامش أبداً بما قالته «سابينو» إلهة البحار عن مقولة «خلود الآلهة وفناء البشر». ويمضي جلغامش خطوة أبعد في جرأته على التصدي للآلهة فيأخذ أحياناً حتى موقف الاستعلاء وتضطر الآلهة إلى التسامح على هذا التمرد[28] وإذا كانت ملحمة جلغامش لم توفق التوفيق كله في الجواب على أصل الخير والشر ونوع السلوك الفردي، فإن قطعاً أدبية أخرى من بعدها عالجت الموضوع نفسه ووجدت له حلولاً مختلفة. ففي قطعة أدبية بعنوان «لأمجدنّ رب الحكمة» صورة لانسان صالح أطاع الآلهة والسلطة ولم يذنب ومع ذلك فقد حلت به المصائب وخذلته الآلهة ولم تأت لمساعدته كما جاء على لسانه:

«لم اعرف سوى الصلاة والعبادة. وكانت أفكاري مشغولة بالتضرع إلى الآلهة والتضحية لها. وكانت أيام عبادة الآلهة أيام سرور قلبي، والأيام التي أسير فيها في مواكب الآلهة أيام نصري وكسبي في الحياة. وكان تمجيد الملك سروراً لقلبي، والموسيقى التي تعزف له مصدر حبوري وغبطتي. وأوصيت أهلي وتبعي أن يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها وعلمت الجند ليطيعوا القصر، عارفاً بذلك أن هذه الأشياء مما تسر الآلهة[29].

ولكن على الرغم من صلاحه وتقواه يجد نفسه وقد حلت بساحته المصائب والشرور إذ يقول: «لقد أتى مرض «آنو» على جسمي وغطاه كالرداء. وأصبح النوم كالشبكة التي تصطادني. اذناي مفتوحتان ولكنهما لا تسمعان. لقد استولى على جسمي الضعف... لقد خذلني الإله. لم يأت إله لمساعدتي. ولم تعطف عليّ إلهتي فتخلّصني من مصائبي». وقد حسبه الجميع أنه ميت فأخذ المتملصون يعملون بموجب ذلك «كأن القبر مفتوح حين نهبوا كنوزي، وحينما لم أكن قد مت فإنهم انقطعوا عن البكاء، وفرح بي حسادي ومبغضيّ»[30].

(٢٨) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٢.

(٢٩) باقر، طه: المصدر السابق: القسم الأول ص ٢٤٢.

(٣٠) المصدر ذاته ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

فهذه حالة واضحة عن إنسان صالح، ولكنه يقاسي العذاب والآلام مما يناقض تعاليم الكهنة بأن العبد الصالح تحسن إليه الآلهة[٣١].

وتعكس قطعة أدبية أخرى بعنوان « حوار بين سيد وعبده » مذهب الشك في إرادة الآلهة نفسها وفي أعمالها كما تعكس أيضاً فساد الأخلاق المستشري في أوساط قمة المجتمع العبودي في بلاد الرافدين. ويتلخص الحوار: « بأن أحد الأمراء غضب عليه الملك فتشاور مع عبده وسأله النصحية ولكنه لم يجد مخرجاً من ذلك المأزق، حيث لا يأمل رحمة من الملك، والتمرد ضده دون جدوى. ولكنه يستطيع أن يتمتع بمسرات الحياة قبل فوات الآوان، كما يستطيع أن يقيم الولائم ويحب النساء. ولكن لا فائدة له في هذا. فالاتخام يعود بالألم، والمرأة في تصوره خبيثة وسكين حديدي قاطع يجز رقبة الانسان. وقد أكد له عبده أن لا فائدة ترجى من الإله الذي لا تهمه أمور الانسان ومصائبه، وهو أصم لا يستجيب للدعاء والتعاويذ السحرية. وفي نهاية الحوار يهدد الأمير الساخط بقتل عبده الماكر الذي لا يرغب في تهدئة روعه[٣٢].

وهذه مقاطع من الحوار:

السيد: يأيها العبد اتفق معي
العبد: أجل يا سيدي، أجل!
السيد: اريد أن احب امرأة
العبد: أجل حب يا سيدي، حب. فإن الرجل الذي يحب امرأة ينسى العوز والشقاء
السيد: لا، أيها العبد، سوف لا احب امرأة
العبد: لا تحب يا سيدي، لا تحب
فالمرأة شرك وفخ، إنها وجوه (للاصطياد)
المرأة سيف حديدي قاطع حاد
يقطع رقبة الرجل الشاب
السيد: عجل لي وأحضر الماء ليدي
واجلبه لي أريد أن أقوم بسكب الماء المقدس لإلهي
العبد: افعل يا سيدي، افعل، فإن الرجل الذي يسكب الماء المقدس لإلهه يصير قلبه في سلام وطمأنينة، إنه يضيف ديناً إلى دين

(٣١) المصدر ذاته ص ٢٤٣.
(٣٢) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤٠.

السيد : لا ، أيها العبد ، لن أقوم بسكب الماء لإلهي
العبد : لا تفعله يا سيدي ، لا تفعله
علّم الإله أن يركض وراءك كالكلب ... إلخ
السيد : اتفق معي أيها العبد
العبد : أجل يا سيدي ، أجل !
السيد : أقول اريد أن أتصدق عن أرضي .
العبد : افعل ذلك يا سيدي ، افعل ذلك . لأن الرجل الذي يدفع الصدقات عن أرضه فإنه صدقاته توضع في راحة (كف) الإله مردوخ نفسه
السيد : لا ، يا أيها العبد ، سوف لا ادفع صدقة من أجل أرضي
العبد : لا تفعل ذلك يا سيدي ، لا تفعله ! ارتق إلى أطلال خرائب المدن القديمة وتمشّى فوقها ، وانظر إلى جاجم أهل العصور القديمة والمتأخرة ، فمن هم الأشرار ومن هم الصالحون [٣٣] .

ويبلغ الحال بالسيد أن يقول لعبده « اتفق معي أيها العبد ، أي شيء صالح ؟ لم يبق شيء سوى أن أدق عنقي وعنقك ونرمي بأنفسنا إلى النهر . وهذا هو الشيء الصالح » . وهنا نجد السيد يبدل رأيه في الموقف الأخير فيقول لعبده : « لا يا أيها العبد سوف اقتلك وحدك وادعك تسبقني » فيجيبه العبد : « وهل يرغب سيدي في أن يعيش من بعدي حتى لمدة ثلاثة أيام ؟ » [٣٤] .

وقد وصلتنا مجموعة من الحكم والقواعد الأخلاقية ، يعود تاريخ قسم منها إلى العهد البابلي القديم . وهذه التعاليم الموجهة دون شك إلى أعضاء المشاعيات تنتهي بنصيحة معبرة : « التضحية تطيل العمر ، والصلاة تخلص من الألم » [٣٥] .

أدب الأمثال: الأمثال هي محصّل تجارب الانسان مع مجتمعه . وتختلف تبعاً لذلك بشكل نسبي زمانياً ومكانياً . فالمجتمعات الانسانية تعمل على استخلاص التجارب والعبر من خلال المعاناة اليومية لمشاكل الحياة وآلامها في صراع دائم ، وعبر مسيرة طويلة ، من أجل التغلب على مصاعبها .

---

(٣٣) باقر ، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : القسم الاول : تاريخ العراق القديم ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣٤) المصدر ذاته ص ٢٤٦ .

(٣٥) جماعة من المؤرخين السوفيات : المصدر السابق ص ١٣٢ .

ومن خلال تلك العملية الاجتماعية تتولد قيم ومثل. ويقوم الناس بالعمل على صياغة تلك المثل والقيم والتجارب والأفكار المستخلصة في جمل وعبارات قصيرة ذات اسلوب معبر لاذع تسمى « مثلاً » أو « قولاً سائراً » أو « كلاماً مأثوراً ».

نشأ أدب الأمثال من أقوال وعبارات سائرة جرت على السن الناس خلال حياتهم اليومية وتناقلوها جيلاً بعد جيل قبل تدوينها. وقد تناهت إلينا من الفترة الممتدة بين العهد البابلي القديم والعهد البابلي الجديد مجموعات من الأمثال معظمها باللغة السومرية وقسم آخر باللغة الأكادية.

وهذه طائفة من الأمثال تعبر عن بعض الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في العراق القديم خلال مرحلة تاريخية معينة:

« أولى للفقير أن يموت، فإنه إن ملك الخبز عدم الملجأ، وإذا كان عنده ملح عدم الخبز، وإذا كان لديه بيت فلا يكون عنده فراش »[٣٦].

« الفقير ليست له قوة »
« الفقير قلق على ما قد استدان »
« الفقير قلق دائم على ما سيأكل »
« الجائع يقتحم البناية حتى ولو كانت مبنية من الطابوق المفخور ».
« انت كالكلب ليس لك مكان تنام فيه »[٣٧].
« دع ما هو لي يبقى كما هو، دعني آكل ما هو لك، فهل أن هذا يعزز المرء في مجتمع أصدقائه؟ »
« الذي يبني كالسيد يعيش كالعبد، والذي يبني كالعبد يعيش كالسيد »
« السماوات محملة فوقه، الأرض معلقة من بين يديه »
« لا تعمل الشر، وعندئذٍ لن تقاسي الماً دائماً »
« عندما تعمل بجد، فإن إلهك لك، وعندما لا تعمل بجد فإلهك ليس لك »
« لا كسب بلا تعب »
« في المدينة المهملة المتهاونة يصير الجابي تاجراً »
« أنا كالحمار للركوب ومع ذلك فإنني مربوط إلى حجش، انني اجر عربة واعاني من

(٣٦) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: القسم الاول: تاريخ العراق القديم ص ٤٧٦.
(٣٧) مجلة سومر المجلد التاسع والعشرون ١٩٧٣ ص ٨٣ - ١٠٤.

عصا الضرب » (تصوير للاستغلال الاجتماعي الناجم عن التمايز الطبقي).

« عندما تضاف يد إلى يد فإن بيت الانسان يبنى، وإذا اضيف فم إلى فم فإن بيت الانسان يحطم ».

« ذهبت ونهبت مقاطعة عدوك، العدو جاء ونهب مقاطعتك » (إدانة لحروب العدوان والنهب).

« الزوجة المبذرة التي تعيش في بيت هي أسوأ من جميع الأشرار ».
« المرأة المتبرمة في البيت تضيف عذاباً إلى عذاب »
« الطفل العاق، ليت امه لم تلده، وليت ربه لم يخلقه »(٣٨).
« ايحدث حمل بدون جماع »(٣٩)؟

القصص على ألسنة الحيوانات: وصلنا من بلاد الرافدين نوع جديد من الأدب هو القصص على ألسنة الحيوانات كقصة النسر والحية والثعلب المغرور والحصان والحمارة والأسد السهم وغيرها.

١ ـ قصة النسر والحية: تتلخص القصة في أنه تعاهد النسر مع الحية على أن يتصادقا وأن يتقاسما ما يحصلان عليه وحلفا من أجل ذلك بالإله الشمس وظلا على ذلك متضامنين حافظين للعهد. ولكن النسر سوّلت له نفسه أن يخون العهد طمعاً في صغار الحية. وعلى الرغم من تحذير أبنائه له مغبة خيانة العهد والحنث بالقسم إلا أنه ركب رأسه وسطا على فراخ الحية وأكلها. وعندما عادت الحية إلى حجرها وجدته مخرباً لا أثر فيه لصغارها فبكت وعرفت الفاعل فتوجهت إلى الإله الشمس تشكو النسر وغدره فحكم لها الإله، ودلها على طريقة لعقاب النسر بأن تذهب إلى موضع في الجبل وستجد هناك ثوراً وحشياً مربوطاً أعده لها الإله، وعليها أن تبقر بطنه وتختبىء فيه، وستأتي الطيور لتأكل من الرمة ومعها النسر. ففعلت الحية ذلك واختبأت في جوف الثور. وجاء النسر وحط ليأكل. فما كاد ينقر نقرة حتى مسكته الحية، ولكن هذا بدأ يبكي ويستعطفها أن ترحمه فتطلقه ولكن الحية لم تسمع له لأن شماش هو الذي أوقع به العقاب، ولكنها لم تقتله بل نتفت ريشه وكسرت جناحيه ومخالبه ورمته في حفرة ليموت جوعاً وعطشاً.

(٣٨) المصدر ذاته ص ٨٣ ـ ١٠٤.
(٣٩) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤١.

وبعد حين سمع الإله شماش لاستعطافه وأخبره بأنه سيرسل إليه رجلاً يخلصه وهو « إيتانا » (أحد ملوك أسرة كيش الأولى وكان عقيماً لم ينجب ولداً يخلفه في الملـك) الذي جاء إليه وخلصه واشترط عليه في ذلك أن يصعده إلى السماء ليجلب (نبات الولادة). فركب على ظهره وبدأ بالصعود إلى السماء حتى كادا يبلغان سماء « آنو ». ويبدو أن النسر وإيتانا خافا من التحليق علواً أبعد فهبطا مسرعين. ولا يعلم مصير « إيتانا ». ولكن يبدو أنه وصـل إلى الأرض سالماً وأنه أنجب خليفة له في الحكم[٤٠].

إن هذه القصة فضلاً عن كونها قد جاءت على ألسنة الحيوانات فهي أقدم محاولة في أحلام الانسان بالطيران.

٢ ـ قصة الثعلب المغرور: تبول الثعلب يوماً في البحر، وبعد أن انتهى فكر برهة وقال: « تأمل أن كل هذا البحر من بولي ».

٣ ـ قصة الحصان والحمارة: همس الحصان في إذن الحمارة وهو على وشك أن يتزوجها فقال: « عسى أن تلدي مهراً عدّاء سريعاً مثلي. وعساه لا يكون كالحمار يعاني من حمل الأثقال » « الحمار رمز للشقاء والمعاناة في الحياة »[٤١].

---

(٤٠) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٤١) مجلة سومر المجلد السادس والعشرون ١٩٧٠ ص ٨٩.

التاريخ والجغرافيا

انطلق كتاب الأدبيات في العراق القديم في تصورهم الكون والتاريخ من منطلقات غيبية أو مثالية. فقد اعتقدوا أن أسباب التحولات التاريخية إنما تعود إلى ارادة الآلهة أو إلى نشاطات الملوك والحكام والقادة. فخلق الكون والبشر وتقرير مصائرهم وإحداث الفيضانات والاوبئة والزلازل والبروق وثورانات البراكين والزوابع والمجاعات والحرب والسلم والنصر والهزيمة وتسيير التاريخ هي من صنع الآلهة[1]. وجاء في مقدمة شريعة حمورابي: « .... أنا حمورابي الملك الذي اختارتني الآلهة نيابة عنها لحكم البشر وإسعادهم ونشر العدل بين الناس. ثم يعدد الأقاليم والمدن التي فتحها وطرفاً من أعماله كالرخاء الذي أحله بالبلاد وتجديده المعابد الرئيسة في المملكة ». وورد في الخاتمة: « أنا حمورابي الملك العادل والكامل ... أنا حمورابي الذي تسلم القوانين من شماش ـ إله الشمس والعدالة. كلماتي منتقاة وقدرتي لا نظير لها .. بأمر مردوخ لِتَسُدْ عدالتي الأرض » ..[2].

بدأ الكتّاب يجمعون الأحداث ويضعونها في سلسلة متصلة ويؤرخون بها للملوك منذ تقلدهم السلطة. ولم تكن الأحداث تشتمل أخبار الحملات الحربية ونشاط الملوك العمراني وحسب، بل تضمنت كذلك تعليقات وحوادث مهمة ومفيدة[3].

والمدوّنات التاريخية مهمّة لا من حيث ذكر الحوادث فحسب بل من حيث تتابع الملوك

(١) انظر قصة الخليقة وملحمة جلغامش

(٢) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٩٣. ود. نجيب ميخائيل ابراهيم: المصدر السابق ج ٦ ص ٨٠ - ٨١.

(٣) المصدر ذاته ص ٣٢٠ - ٣٢٢.

وتحديد عدد السنين التي حكم فيها الملك ثم عدد السنين التي حكمت فيها الأسرة المالكة (سلالة هذا الملك)، وبجمع كل ذلك يكون عندهم اثبات (قوائم أو جداول) الملوك والسلالات[٤]. وقد تناهت إلينا من هذا الاثبات نماذج مهمة، من بينها جداول مطولة باسماء السلالات وملوكها الذين حكموا في العراق منذ ما قبل الطوفان حتى زمن تأليفها. ولعل ذلك كان في بداية سلالة أور الثالثة[٥]. وجروا في هذا الاثبات على تقسيم تاريخ العراق إلى عهدين هما: التاريخ العتيق وهو ما سبق الطوفان، والتاريخ القديم ويبدأ عندهم بعد الطوفان[٦].

وبالاضافة إلى قوائم الملوك والسلالات. خلّف لنا الأكاديون والبابليون نماذج أخرى من التدوين التاريخي هي «النقوش والكتابات التاريخية» التي هدف منها تمجيد مآثر الملوك والامراء وتخليد اعمالهم وحروبهم ونشاطهم العمراني، دونوها على الحجر والانصاب والتماثيل والواح الطين[٧]. وقد بدأت هذه السجلات منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وتناهت إلينا من ذلك نماذج كثيرة متنوعة تعد من المصادر الأساسية في معرفة تاريخ العراق القديم.

وتتميز النصوص التاريخية الآشورية بتركيزها على الفتوحات الخارجية وما قام به الملوك من حروب وما شنوه من حملات وما حكموه من بلدان وما غنموه من غنائم وكنوز وهي محشوة بالافتخارات والادعاءات والتخيلات الخرافية والتفسيرات الدينية المزيفة والتهويلات والمبالغات الكثيرة المختلفة مع الحقائق[٨]. ومما لا شك فيه أنه كان يصحب الملوك في حملاتهم الحربية مؤرخون رسميون لتدوين أخبار تلك الحملات الرسمية. وكان الغرض من تدوينها تمجيد الملك والإشادة بذكره.

ويمكن تحديد أربعة أنواع من المدونات التاريخية الآشورية:

١ - **الحوليات:** وفيها رتبوا الأحداث عاماً بعد عام إما بترتيب سني الملوك وإما بترتيب نظام التاريخ الدوري «اللمو» وتعد الحوليات ذات قيمة تاريخية وجغرافية. وأشهر الحوليات الخالدة «حوليات» شلمنصر الثالث» على مسلته المشهورة التي نقشت بأخبار واحد وثلاثين عاماً من حكمه ولا سيما فتوحاته في أنحاء الشرق الادنى القديم.

---

(٤) المصدر ذاته ص ٣٢١.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) المصدر ذاته ص ٣٢٢.

(٨) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٦٤.

٢ ـ **مدونات تاريخية حربية**: ويشار فيها إلى ما قام به الملك من حملات حربية وما حصل عليه من جزى.

٣ ـ **التقاويم**: وتجمع فيها الاحداث طبقاً للاقاليم التي تمت فيها.

٤ ـ **التقارير**: وهي الكتب والوثائق والألواح الموجهة إلى الإله آشور بعد العودة من الحملات كتقرير عنها.

وتعد المدونات التاريخية البابلية أقرب إلى طرق التدوين التاريخي الحاضرة، ذلك لأن كَتَبَتَها لم يقتصروا على تدوين الحوادث المعاصرة فحسب، وإنما بحثوا أيضاً في حوادث الماضي وأخبار العلاقات بين بابل وآشور، وألفوا في التاريخ البابلي تأليفاً بالغ الأهمية يشتمل على الحوادث التاريخية في بلاد بابل وآشور وعيلام في زمن الملك الآشوري «آشور بانيبال» (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م) ويرقى حتى زمن الملك البابلي نبونصّر[٩]. (٧٤٧ ـ ٧٣٤ ق.م).

وفي العهود المتأخرة، اشتهر المؤرخ البابلي برعوشا[*] (بيروسوس) الذي كتب تاريخ البلاد باللغة الاغريقية في القرن الثالث قبل الميلاد. ولم يصلنا الأصل المفقود لسوء الحظ ولكن حفظت مقتبسات منه في المصادر اليونانية[١٠].

وكان النبلاء الكلدانيون يسرون بسماع قصص الماضي الذي أرادوا إحياءه فأصبحت دراسة التاريخ عندهم من سمات الانتماء إلى المجتمع الارستقراطي[١١].

الجغرافية: ساعد توسع التجارة والفتوحات الخارجية وعمليات مسح الأراضي على تنمية المعارف الجغرافية لدى قدماء العراقيين. فقد ألف كتّاب الجغرافية جداول مطولة باسماء البلدان والمدن والأنهار في العراق والبلدان المجاورة. فمن ذلك جدول مطوّل عثرت عليه مديرية الآثار العراقية أثناء تنقيباتها في «تل حرمل» يرقى عهده إلى الزمن البابلي القديم[١٢]. وتناهت إلينا نماذج أخرى من هذه الجداول من العهد الآشوري المتأخر وكذلك من العهد الكلداني، وفيها اضافات بأسماء المعابد وتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن

---

(٩) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٢٤.

(*) كاهن كلداني كان يعيش في عهد الاسكندر المكدوني، استطاع أن يطالع الوثائق القديمة لبلاده.

(١٠) المصدر ذاته ص ٣٢٥.

(١١) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٧٥.

(١٢) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٢٧.

وهي مدونة باللغتين السومرية والبابلية. وهناك أيضاً جداول قديمة نظمت لأغراض إدارية ومالية أي تعداد المدن والمواضع بقصد جمع الضرائب والإدارة (١٣).

ورسموا خرائط للمدن والقنوات وللعالم المعروف لديهم. ولعل أقدم خريطة تناهت الينا من هذا النوع خريطة مدينة نفر (نيپور) التي يعود تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد (١٤). ومن ذلك مصور لمدينة سيپار وآخر لمدينة بابل (١٥). ووصلتنا خريطة مفردة للعالم الذي يمثل على شكل دائرة مسطحة في وسطها نهر الفرات آتياً من الجبال الشمالية ويصب في منطقة الاهوار في الجنوب. ووضعت قرب المركز مدينة بابل وفي جانب منها بلاد آشور، وعلّمت مواضع المدن بدوائر ووضعت في وسطها أو بقربها اسماء تلك المدن. أما المثلثات المستقرة خارج محيط الخارطة فتشير إلى الأقاليم الاجنبية. أما التاج الدائري فيمثل النهر أو البحر الملح الذي يحيط بالعالم حيث يمتد النفوذ البابلي. ومن بين الأراضي الواقعة فيما وراء المحيط واحدة في الشمال «حيث لا ترى الشمس». ويعلق ديلاپـورت على ذلك قائلاً: «أفنستطيع من وراء ذلك أن نقرر أن البابليين، والخريطة المذكورة من العهد البابلي الأخير، عرفوا الأقاليم القطبية (١٦)».

ولعل هذه الخريطة تعكس اعتقادات العراقيين القدامى بأن الأرض إله مولود من المحيط الأزلي، لذلك تصوروا أن اليابسة تحيط بها المياه من جميع الجهات، واعتقدوا أن البحار ناتجة من تدفق المحيط الكبير الذي يلف الأرض النافرة بأكملها (١٧). كما تصـوروا الجهات الأربع عبارة عن فضاء خارجي فسيح (١٨).

---

(١٣) نفس المصدر والصفحة.

(١٤) المصدر ذاته.

(١٥) المصدر ذاته.

(١٦) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٢٨٦.

(١٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤٦.

(١٨) نفس المصدر والصفحة.

العلوم الفلكية والرياضية

الفلك:

إن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك، وهو الذي امتازوا به وذاع فيه صيتهم في العالم القديم كله. وقد عرف الاغريق مشاهير الفلكيين البابليين وترجموا لهم واقتبسوا عنهم كما اقتبس عنهم فيما بعد الفلكيون العرب. ويعود الفلك الاوربي بأصوله إلى الفلك البابلي. وينظر علم الفلك الحديث إلى الفلك البابلي بمثابة نقطة انطلاقه (١).

اهتم العراقيون القدماء بملاحظة الاجرام السماوية، في سماء بلاد الرافدين الصافية، منذ أقدم الازمان. وعندما بدأوا يدونون ملاحظاتهم وارصادهم وحساباتهم منذ العهد الأكادي والعهد البابلي القديم انتقلوا من طور المعرفة العملية إلى طور علم الفلك الحقيقي.

نشأ الفلك من الحاجة لضبط الفصول والزمن والتقويم. وقد ساعدتهم الأسس الرياضية التي وضعوها على تقدم الفلك حتى أنهم كثيراً ما استبدلوا الملاحظة المباشرة والارصاد بالحساب ويصدق هذا بالدرجة الاولى على العهود المتأخرة حين نشأ الفلك الرياضي (٢).

وكانت أرصاد العراقيين هي الأساس الذي استندت إليه القواعد العامة لعلم الفلك. وقد استعملوا في ارصادهم الفلكية طرقاً فنية من ذلك نوع من الآلة التي نسميها بآلة «ترانزيت». وجاء في الوثائق أن الملك الآشوري توكولتي نينورتا الأول (١٢٦٠ - ١٢٣٢

---

(١) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٣٣.

(٢) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٥٧.

ق.م) استعمل مثل هذه الآلة عند بناء قصره في آشور [٣]. ومع أن البرج المدرج والزقورة قد بنيا لأغراض دينية بالدرجة الأولى إلا أنه بالامكان استعمالها أيضاً لرصد الاجرام السماوية، فاستفادوا منها للأغراض الفلكية [٤].

ففي مجال التقويم اعتمد البابليون، ومن قبلهم السومريون والأكاديون، على الشهر القمري في حسابهم للزمن، واعتبروا بدء الشهر ظهور الهلال في السماء ونهايته ظهور الهلال الجديد الذي يعني بدء شهر جديد. وميزوا بين الشهور القمرية المؤلفة من ٢٩ يوماً ومن ٣٠ يوماً بصورة متعاقبة. وكان معدل مدة اثني عشر شهراً قمرياً ٣٥٤ يوماً أي أقل من السنة الشمسية بنحو ١١ يوماً. ورأوا أنه من الضروري إيجاد عدد ثابت من الشهور تتفق ودورة الفصول، غير أنهم لم يستطيعوا أن يوجدوا العلاقة بين الدورة الشمسية التي تحدد الفصول والدورة القمرية التي اتخذوها أساساً لتحديد الشهور فاضطربت حساباتهم.

وكانت أسماء الشهور في عصر ما قبل السارغونية تختلف من مدينة إلى أخرى. ولم ينجح ملوك أور في فرض قائمة واحدة لهذه الأسماء في كل انحاء امبراطوريتهم، إذ أن كل مدينة كانت لا تزال لديها طريقتها الخاصة للحساب والعد. ليس هذا وحسب بل إن بدء السنة كذلك كان مختلفاً [٥]. وكانت السنة عند بعضهم ١٣ شهراً وعند بعضهم الآخر ١٤ شهراً وذلك من أجل تلافي الخلاف بين دورات الفصول والاشهر القمرية. وقد ضمن حمورابي اصلاحاته واحداً خاصاً بالتقويم. فقد جعل من حقه ان يقرر شخصياً متى يحين الوقت لاستبدال السنة العامة بسنة اعتراضية يكون فيها عدد الشهور أكثر من السنة العامة وذلك من أجل إيجاد توافق بين الفصول والاشهر. كما وحّد أسماء الشهور في جميع أرجاء الامبراطورية [٦].

وهكذا قسم الفلكيون العراقيون السنة إلى اثني عشر شهراً قمرياً والشهر إلى أربعة أسابيع تتفق مع أوجه القمر الاربعة واليوم إلى اثنتي عشرة ساعة، في كل ساعة منها ثلاثون دقيقة، وبذلك كان طول الدقيقة البابلية أضعاف ما قد يوحي إلينا اسمها. وإذن فتقسيم الشهر عندنا إلى أربعة أسابيع، وتقسيم أوجه ساعاتنا إلى اثنتي عشرة ساعة وتقسيم الساعة إلى

---

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) ديلابورت: المصدر السابق ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٦) المصدر ذاته ص ٢٨٣.

ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية،كل هذه آثار بابلية لاشك فيها باقية من أيامهم إلى عهدنا الحاضر [٧].

لقد استطاع الفلكيون العراقيون منذ عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد أن يسجلوا بالدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس، وحددوا مواضع عدة نجوم، واخذوا يصورون السماء على مهل. فلما فتح الكاشيون بلاد بابل توقف هذا التقدم نحو ألف عام. ثم واصلوه من جديد في عهد نبوخذ نصّر، فصور العلماء الكهنة مسارات الشمس والقمر، ولاحظوا اقترانهما كما لاحظوا الخسوف والكسوف، وعينوا مسارات الكواكب. وكانوا أول من ميز النجوم الثوابت من الكواكب السيارة تمييزاً دقيقاً، وحددوا تاريخ الانقلابين الشتوي والصيفي، وتاريخ الاعتدالين الربيعي والخريفي، وقسموا دائرة فلك البروج (أي مسار الأرض حول الشمس) بين الابراج الاثني عشر. وبموجب هذا النظام قسم البابليون السنة الشمسية إلى اثني عشر قسماً يقابل كل قسم شهراً. وقسموا الدائرة إلى ٣٦٠ درجة والدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية. وكانوا يقدرون الزمن بالساعات المائية لقياس أجزاء الليل والساعات الشمسية أو المزاول لقياس ساعات النهار. ولعل هيرودوت أصاب الحقيقة عندما قال: «تعلم الاغريق ال «نومون» (المزولة) و«البولوس» [٨] وتقسيم اليوم إلى اثني عشر قسماً من البابليين [٩]. وقد استخدم بعض فلاسفة اليونان وعلمائهم جداول الارصاد البابلية لمعرفة الكسوف والخسوف قبل حدوثها، وقد أثر ذلك تأثيراً بالغاً في الاتجاه العلمي عند اليونان وغيّر من عقائدهم بالنسبة إلى الظواهر الكونية. فقد استخدم طاليس الارصاد الفلكية البابلية وتنبأ لاهل مدينته بحدوث الخسوف والكسوف قبل وقوعها فاستطاع أن يبرهن لهم ان مثل هذه الظواهر تحدث بموجب قوانين طبيعية لا بتأثير الشياطين والارواح أو القوى العلوية [١٠].

الرياضيات:

إن أقدم الأرقام والحساب في تاريخ الحضارات البشرية نشأ في بلاد الرافدين. وكانت

---

(٧) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٨) البولوس: من الساعات الشمسية لقياس الزمن نهاراً. وكانت هذه عبارة عن نصف كرة يثبت في مركز جوفها ساق (ميل) رسم نهايته ظلها على الجوانب الداخلية المدرجة لنصف الكرة بحسب سير الشمس.

(٩) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٦٠.

(١٠) نفس المصدر والصفحة.

حاجات الحياة في العراق القديم هي التي قادت إلى نشوء الرياضيات ومن هذه الحاجات:

١ ـ الحاجة إلى التقويم بالنظر إلى اعتماد العراق على الزراعة وضبط الفصول.

٢ ـ الحاجة إلى الرياضيات لتلبية متطلبات العمليات التجارية المتسعة.

٣ ـ الحاجة إلى الرياضيات لتلبية متطلبات الاعمال الهندسية العمرانية كالابنية والطرق وشق الاقنية.

تصنف النصوص والمؤلفات الرياضية التي تناهت إلينا إلى صنفين: يشمل الصنف الاول الجداول أو الأثبات الرياضية كجداول الضرب وجداول معكوس الاعداد ورفع الاعداد إلى القوى المختلفة وجداول بجذور الأعداد. ويتضمن الصنف الثاني قضايا ومسائل رياضية وضعت لتحل بموجب القواعد الرياضية، وقد وصلت إلى طور العلم النظري تقريباً.

الحساب:

صحب ظهور الكتابة معرفة الارقام وتسجيلها. وكانت معرفة الارقام واستخدامها أمراً مهماً بالنسبة إلى التطور الحضاري. وقد توصل السومريون إلى اختراع الطريقة الستينية للعد والحساب. فهم من أول الأمر لاحظوا الأصابع الخمسة لليد وبدأوا في العدد:

آش	١
مِنْ	٢
إش	٣
لِمّو	٤
إي أويا [١١]	٥

ولما كان العدد (٥) غير كاف كما هو واضح فإنهم اضافوا «أي» إلى الارقام السابقة ليضاعفوها وهذا يعطينا:

آش (ياشي)	٦
إيمين (إي-مين)	٧
اوشّو (اي-إش)	٨
إلّمو (اي-لمو) [١٢]	٩.

(١١) ديلابورت: المصدر السابق ص ٢٧٦.

(١٢) نفس المصدر والصفحة.

أما رقم (١٠) فكان له اسم آخر هو (أو) وضعفه (٢٠) هو «نِش» ومن العشرة ومضاعفاتها جاءت مركبات هي:

اوشو (اوشي أو ثلاث عشرات = ٣٠

نيش مين = عشرونان ٢×٢٠ = ٤٠

نينو[١٣]. (نين او = عشرونان + عشرة = ٥٠.

أما (٦٠) فلها اسم خاص وليست مركبة كغيرها فهي «جش» وهي اساس النظام العددي كذلك وكان مربعها هو «سار» (٣٦٠٠). وإلى هذا النظام يعود تقسيم اليوم إلى (٢٤) ساعة والساعة إلى (٦٠) دقيقة، والدائرة إلى (٣٦٠) درجة، والسنة إلى ٣٦٠ يوماً[١٤].

ومن الانجازات الهامة لدى السومريين والبابليين كان انشاء النظام الموقعي الذي يتبدل فيه معنى الارقام حسب موقعها في الاعداد المركبة. فالاسفين العمودي عادة يشير إلى الرقم واحد، ولكنه إذا وقع امام الرقم عشرة فيشير إلى العدد (٦٠). وفي مركبات اخرى يشير إلى العدد (٣٦٠٠)[١٥].

أما النقص الكبير في مجال الحساب فهو عدم وجود علامة الصفر الذي لم يعرف إلا في العهد السلوقي، واستخدم لحفظ المرتبة العددية الخالية من العدد[١٦]. وقد توصل البابليون إلى معرفة جداول الضرب المطوّلة. وكان لهم جداول لرفع الاعداد إلى القوى المختلفة وجداول للجذور وجداول تبين معكوس العدد وهو الرقم الذي إذا ضرب فيه العدد كان حاصل الضرب ٦٠ (لان رقم ٦٠ هو أساس العد في الطريقة الستينية). وقد استعملت هذه الجداول الاخيرة نفسها للقسمة وذلك بضرب العدد المراد قسمته بمعكوس العدد المراد القسمة عليه أي — = — ويؤخذ معكوس العدد المراد من الجداول، ويؤخذ حاصل ضرب العدد في معكوس العدد الثاني من جداول الضرب كذلك[١٧]. وقد مكنت هذه الجداول الرياضيين من توفير الجهد والوقت في الحساب والانصراف إلى القضايا الرياضية[١٨].

(١٣) المصدر ذاته.

(١٤) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤٤.

(١٥) المصدر ذاته.

(١٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٦ ص ٢٢٩.

(١٧) المصدر ذاته.

(١٨) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٣٦.

واستطاع البابليون بهذه الجداول اجراء عمليات الضرب والقسمة في الاعداد الكبيرة [١٩].

ويبدو أنهم اهتدوا إلى اساس اللوغاريتم رغم أنهم لم تكن لديهم قاعدة عامة مشتركة يرتبون بموجبها الجداول لاستعمالها في الحسابات العملية. فقد جاء في بعض الألواح من العهد البابلي القديم سؤال رياضي يطلب فيه: إلى أي قوة يجب رفع عدد معين حتى تكون النتيجة عدداً معيناً آخر؟ ومعنى هذا ايجاد لوغاريتم عدد معين من قاعدة أو أساس معين [٢٠].

ولعل منشأ اللوغاريتم عند البابليين من حساب الربح والمسائل المتعلقة به. وعلى كل حال فإنه كان نتيجة منطقية لمعرفتهم الواسعة بضرب الأعداد ورفعها إلى القوى وأخذ جذورها [٢١]. وهكذا عرف قدماء العراقيين الارقام واستخدموها في العمليات الحسابية الاربعة.

الجبر:

بلغ الجبر مرحلة متقدمة في بلاد الرافدين. ويقول بعض المؤرخين « إن العرب اعتمدوا على المعلومات الرياضية التي توصل إليها البابليون أكثر من اعتمادهم على اليونانيين في هذا المجال [٢٢]. ويعتبر الجبر الحديث تطوراً للجبر البابلي الذي تعثر لدى الاغريق [٢٣].

لم يستعمل البابليون الرموز في الجبر ومع ذلك فقد توصلوا إلى أسس هامة في خصائص الأعداد كما عرفوا المعادلات الجبرية الاساسية من الدرجات الأولى والثانية والثالثة واتبعوا في حلها طرقاً عملية تبعث على الإعجاب وبعضها يتضمن مبدأ المتواليات. ففي المتحف البريطاني لوح يحتوي مسائل تحل بمعادلات الدرجة الثانية ومنها المسألة التالية: لو أضفت مساحة مربع إلى طول ضلعه كان الناتج $\frac{3}{4}$ فما هو طول الضلع؟ وقد حلها الرياضي البابلي بطريقة إكمال المربع للوصول إلى المجهول (س) الذي يرى انه يساوي:

$$\sqrt{\left(\frac{1}{2}\right)^2 + \frac{3}{4}} - \frac{1}{2} = \frac{1}{2}$$

وذلك لإنه إذا اضفنا $\left(\frac{1}{2}\right)^2$ إلى طرفي المعادلة لإكمال المربع يحدث عندنا

(١٩) نفس المصدر والصفحة.

(٢٠) المصدر ذاته ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢١) المصدر ذاته ص ٣٣٨.

(٢٢) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤٤.

(٢٣) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٠.

$$س^{٢} + س + (\frac{١}{٢})^{٢} = \frac{٣}{٤} + (\frac{١}{٢})^{٢}$$ أي $$(س + \frac{١}{٢})^{٢} = \frac{٤}{٤}$$ أي $$س + \frac{١}{٢} = ١$$ ومنه $$س = \frac{١}{٢}$$

وتحل بالطريقة الحديثة على الوجه التالي: إذا فرضنا ان طول الضلع (س) فإن المسألـة بالمعادلة تصبح:

$$س^{٢} + س = \frac{٣}{٤}$$

ومن طريقة الحل البابلي في هذه المسألة وامثالها نستطيع ان ندرك إلمامهم بقواعد مجموع عددين ومربع الفرق بينهما رغم عدم اعتمادهم على الرموز [٢٤].

ورغم انتفاء الرموز فقد تمكنوا من القيام بعمليات في الجبر تدعو إلى الاعجاب، فعرفوا اختزال الحدود المتماثلة وحذف المجهول بالتعويض وإدخال كمية مجهولة مساعدة [٢٥].

ومع ذلك فلم توجد لديهم قواعد عامة ثابتة، فليس هناك برهان واثبات دائماً بل إن المسألة رغم هذا التقدم كانت تعتمد على التمرين [٢٦].

الهندسة:

. كانت الهندسة تطبيقاً للجبر كما كان الجبر اساساً للهندسة وكلاهما يرتبطان معاً بالحساب، ذلك لان الحياة العملية كانت تقتضي هذين الربط والاتصال.

لقد عرفوا خصائص بعض الأشكال الهندسية ومساحتها كما عرفوا حجوم بعض الأشكال المجسمة مثل حجم متوازي المستطيلات القائـم والاسطـوانـة والمخـروط المقطـوع والهرم الرباعي المقطوع. وحسبوا محيط الدائرة ومساحتها، وعرفـوا مـن الدائـرة قطعـة الدائـرة ومساحتها بعد معرفة قوسها ووترها [٢٧]. وعرف البابليون نظرية فيثاغورس قبل ظهوره بزمن طويل. وهناك عدد من المسائل حلت بها فيما وصلنا من نصوص. من ذلك المسألة التالية:

باب مستطيل عرضه ١٠ وطوله ٤٠ فما هو قطره؟ ومسألة أخرى تخص مساحة حقل

---

(٢٤) المصدر ذاته ص ٢٣١.

(٢٥) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٥٥.

(٢٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٦ ص ٢٣٢.

(٢٧) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٤١.

على هيئة شبه منحرف يطلب فيه ايجاد المساحة بعد حساب الارتفاع من المعلومات المعطاة بالفرض(٢٨).

وقد عثر بين مكتشفات تل حرمل على مسألة هندسية ـ جبرية يعود تاريخها إلى حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أي قبل زمن إقليدس بـ ١٧٠٠ عام، تتضمن معرفة بخصائص المثلث القائم الزاوية (نظرية فيثاغورس) ومعرفة نظرية تشابه المثلثات (نظرية إقليدس) وإلى ذلك فإن هذه المسألة حالة خاصة من حالات تشابه المثلثات فيكون المثلثان المحدثان على جانبي العمود متشابهين ويشابه كل منهما المثلث الأصلي(٢٩). بل إنهم عرفوا مساحة شبه المنحرف وهي حاصل ضرب الارتفاع بنصف مجموع الضلعين المتوازيين. وتوصلوا إلى معرفة المتواليات الهندسية التي تعزى إلى ارخميدس واستخدموها في حساباتهم الفلكية.

---

(٢٨) المصدر ذاته. انظر طريقة الحل على الصفحة ٣٤٢ من المصدر ذاته.

(٢٩) المصدر ذاته ص ٣٤٣ ـ ٣٤٥.

العلوم الطبية والطبيعية

الكيمياء: كان اكتشاف المعادن واستخدامها أحد العوامل التي ساعدت على ظهور الكيمياء وتقدمها في بلاد ما بين النهرين. فقد صنعوا البرونز منذ عهد جمدة نصر. وتشير المكتشفات التي عثر عليها في مقابر أور إلى معرفتهم مزج المعادن؛ فهناك مركبات الالكتروم (مزج الذهب والفضة) في بعض القطع الفنية المكتشفة. وقد مزجوا النحاس بالقصدير أولاً ثم بالرصاص فيما بعد. أما الحديد فلم يتسع استعماله إلا منذ الألف الأول قبل الميلاد وشاع كثيراً في العهد الآشوري الحديث. فقد عثر في قصر سارغون الثاني الآشوري (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) في خرسباد على كتلة من الحديد الممتاز المصنوع تقدر بـ « (١٦٠,٠٠٠) كيلو غرام [1]. وقد حاولوا صنع المعادن الثمينة من المعادن الخسيسة ووصلوا بمحاولاتهم إلى معلومات هامة عن خصائص المعادن وبعض الطرق الكيماوية [2]. كما توصلوا إلى صنع الاصباغ (*) والعطور والعقاقير والصابون والجعة والمشروبات والمينا المزججة واستخدام ذلك في الصبغ والرسم وتزجيج الآجر والفخار [3].

---

(١) المصدر ذاته ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) المصدر ذاته ص ٣٦٤.

(*) كان قدماء العراقيين قبل تعدين المعادن قد بدأوا يجمعون معارفهم العملية الكيماوية. فمن صنع الفخار تعلموا خصائص الطين وتأثير الحرارة وغير ذلك. وعندما بدأوا يصنعون الفخار زادت معرفتهم ببعض المواد الكيماوية أيضاً، وكذلك عرفوا طريقة التزجيج وصنع الخرز من العجائن واللدائن الكيماوية.

(٣) المصدر ذاته.

وقد اكتشف المنقبون أجهزة كيماوية أثرية كالدوارق والطواحين ومصافي للترشيح وجهاز للتقطير والتصعيد وافران ومواقد متعددة الانواع واجهزة قياس الحجوم والاوزان والمعايير كان يستخدمها قدماء العراقيين في عملياتهم الكيماوية (٤).

وقد اختلطت الكيمياء بالسحر والدين مما عرقل سيرها وتقدمها. ورغم ذلك فقد عرفوا التصعيد ومزج بعض المواد الكيماوية ببعضها الآخر، كما استخدموا الذهب لاستخراج الزجاج الأرجواني، وتوصلوا إلى معرفة المادة التي تذيب الذهب وهي المعروفة بـ «الماء الملكي» أو (التيزاب). وجاءنا من مؤلفاتهم المتأخرة أنهم كانوا يحصلون على النار بطريق القدح بالصوان. ولكن خصائص الكبريت الطبيعي كانت معروفة لديهم (٥).

ومع ان معظم هذه الصناعات الكيماوية عملية، فقد تناهت إلينا بعض المؤلفات والكتابات في الكيمياء عثر عليها في خزينة الملك الآشوري «آشور بانيبال» وهي لا شك نسخ عن أصل أقدم (٦).

الطب: نشأ الطب تجريبياً، وتولدت أصوله من المعارف العملية والمعلومات الشعبية عند الناس وكذلك من السحرة الذين لم يقتصروا في طرد الارواح على الرقى بل استعملوا العقاقير لأنهم كانوا يرون أن الأدوية تقتل الشياطين أو تضطرها على الأقل إلى مغادرة الجسم.

وجاء في احدى الوثائق السومرية أن الطب كان يمارس في مدينة اور حوالي ٢٧٠٠ سنة قبل الميلاد (٧). وكان السومريون يسمون الطبيب «آزو» (ومعناها العارف بالماء. وكان إله الطب والاطباء إيا سيد الماء. ولهذا السبب ولانهم استعملوا المياه في الطب فقد سموا الطبيب بكلمة «آزو»). وسماه البابليون «آسو» (التي استعملت في معظم اللغات السامية ومنها الكلمة العربية «الآسي») (٨).

وكانت الامراض في اعتقادهم من عمل الشياطين والارواح التي لا تعالج بغير السحر. أما الادوية فكان لها دور إضافي. ويمكننا حصر طرق العلاج والتداوي عندهم بثلاث وسائل هي:

---

(٤) سومر: المجلد الخامس والعشرون. مطبعة الجمهورية. بغداد ١٩٦٩ ص ٩٣ - ٩٤.
(٥) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٦٥.
(٦) المصدر ذاته ص ٣٦٤.
(٧) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٤٥.
(٨) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٦٦.

١ ـ العلاج الطبي وما يتعلق به من عقاقير وتمريض.
٢ ـ العمليات الجراحية.
٣ ـ الرقى والتعزيم لطرد الارواح والشياطين التي تسبب الامراض حسب اعتقادهم (٩).

ويستدل من المصادر التي خلفها لنا قدماء العراقيين على أنه ظهر عندهم اصناف من الاطباء، منهم الاطباء المختصون بمعالجة الامراض بالادوية ومنهم الجراحون والبياطرة. وقد خص قانون حمورابي مهنة الطب بجملة من مواده يتعلق بعضها بتحديد الاجور الخاصة بالاطباء والجراحين والبياطرة وبعضها الآخر بتحديد العقوبات بحق الجراح أو البيطري إن أخطأ في إجراء عملية ما. فقد نصت المادة ٢١٨ من القانون: «إذا باشر طبيب عملية لرجل وتسبب في موته أو فتح خراجاً بعينه فاتلفها تقطع يده».

وإذا كان تنظيم الطب يكشف لنا عن المكانة الهامة التي بلغتها المهنة في بلاد ما بين النهرين، فإن استدعاء الأطباء العراقيين لمعالجة المرضى الاجانب في بلدانهم يؤكد تلك المكانة والشهرة العالمية لأطباء الرافدين. وتذكر الوثائق أن ملوك الحيثيين في الألف الثاني قبل الميلاد كانوا يطلبون إلى ملك بابل أن يرسل إليهم الأطباء إذا مرضوا هم أو مرض أحد أقاربهم مرضاً خطيراً (١٠).

وقد عرف الاطباء العراقيون جملة من الامراض والاوبئة وصنّفوها بحسب أجزاء الجسم فهناك:

١ ـ امراض الرأس عامة (كأمراض العيون والاذن والانف والفم والإسنان والحنجرة).
٢ ـ امراض الصدر (كالسل الرئوي وذات الرئة أو ذات الجنب وأمراض القلب).
٣ ـ امراض الجهاز الهضمي (كالتهاب المعدة وسرطانها والاسهال والامساك ومرض الأمعاء ودودة الإسكارس واوجاع الكبد ومرض المرارة واليرقان والامراض الخاصة بالشرج ولا سيما البواسير والتهاب البروستات)
٤ ـ الامراض الجلدية (كالجرب والجذام)
٥ ـ الرضوض والاورام (الناتجة عن دمامل أو حمى روماتيزمية أو سرطان)
٦ ـ الجراحة
٧ ـ امراض القدم

---

(٩) المصدر ذاته ص ٣٦٧.
(١٠) ديلابورت: المصدر السابق ص ٢٨٤.

٨ ـ الامراض النسائية والولادة
٩ ـ التسمم الذي يسببه مثلا لدغ العقرب أو الحية.
١٠ ـ امراض الجهاز البولي والتناسلي (كبول الدم وانحباس الدم والسيلان والتهاب الكلية).
١١ ـ امراض عصبية ونفسية (كالصرع وفقدان الهمة والخور والخرع والتشنجات العصبية الهستيرية).
١٢ ـ امراض أخرى كالتيفوئيد والملاريا [١١].

وكان تشخيص المرض اولاً أمراً هاماً، وطريقتهم في التشخيص هي وصف اعراض المرض ويتبع ذلك مايلزم للعلاج من وصفات طبية وعقاقير ومواعيد تناولها.

لقد وردت الامراض في المؤلفات الطبية التي خلفها لنا الأطباء الأقدمون ووجدالكثير منها في مكتبة «آشور بانيبال». ومن طرائف هذه المؤلفات جداول مقسمة إلى ثلاثة حقول ذكروا في الحقل الاول الدواء وفي الحقل الثاني اسم المرض وفي الثالث ارشادات بكيفية الاستعمال حسب المثال التالي:

الدواء	المرض	كيفية الاستعمال
عرق السوس	دواء للسعال	يسحق ويشرب مع الزيت والخمر
عرق ورد الشمس	دواء لوجع الاسنان	يوضع على الاسنان [١٢]
صبر	دواء لمعالجة المرارة	يفتت ويدق ويسحق ويوضع في الجعة ويشرب [١٣]

وكانت مصادر الادوية عندهم ثلاثة هي:
١ ـ الادوية النباتية المستخرجة من النباتات والاعشاب كالحبوب والخضراوات والفواكه والزعتر وأشجار التين والسيدر.

---

(١١) سومر، المجلد الثلاثون. دار الحرية ـ بغداد ١٩٧٤ ص٩٤ ـ ١١٩. انظر ديلابورت: المصدر السابق ص ٣٧٠.
(١٢) باقر، طه: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة. شركة التجارة والطباعة ـ الجزء الأول تاريخ العراق القديم ـ بغداد ١٩٥٦ص ٣٧١.
(١٣) سومر، المجلد الرابع والعشرون ـ مطبعة الجمهورية ـ بغداد ١٩٦٨ ص ١٩٩.

٢ ـ الأدوية الحيوانية المأخوذة من نتاج الحيوانات كالعظام والشحم واللسان والحليب ومشتقاته.

٣ ـ الادوية المعدنية المستخرجة من المعادن والاحجار كملح الطعام ونترات البوتاسيوم وكاربونات الصوديوم والجبس الخ...

وتأتي الادوية النباتية على رأس العقاقير لدى الأطباء العراقيين تليها في الأهمية الادوية الحيوانية. أما الأدوية المعدنية فكانت تسحق وتذاب أحياناً. وفرقوا بين نوعين من استعمال الادوية: نوع يستعمل استعمالاً داخلياً (يشرب)، ونوع يستعمل استعمالاً خارجياً (يدهن أو يمسح)[١٤].

وكانت الجراحة أكثر العلوم تحرراً من السحر، لإنها تقوم على معالجة ظواهر واضحة للعيان. وتشير النصوص الطبية من العراق القديم إلى اجراء العمليات الجراحية للمريض في حالة النخر الحاد وإجراء شق الخراج الكبدي ونقب غشاء الجنب المتقيح[١٥].

وقد تجرأ الجراحون البابليون في عهد حمورابي ان يقوموا بعمليات معقدة في العين كإزالة الماء الأزرق بواسطة سكين من البرونز ـ المبضع[١٦]. كما قاموا بعملية فتح الجمجمة[١٧] وكان الأكاديون قبلهم متمرسين في العمليات الجراحية لتجبير الكسور وعمليات العين[١٨].

وقد ظلت لغة النصوص الطبية اللغة السومرية التي لم يكن يفهمها المرضى. وتناهت إلينا مجموعات كثيرة من الوثائق واللوحات تشير بعضها إلى طرائق العلاج وهي أحياناً عبارة عن تقارير لرجال الحكم.

وقد عرفوا بعض الشيء عن تشريح جسم الانسان، وإن كانت معرفتهم بالتشريح ووظائف الأعضاء معرفة بدائية. فقد استفادوا من تشريح الحيوان وتقطيعه كما ان ما كان يصيب الافراد من اصابات في الحرب جعلتهم يقفون على أهم أعضاء جسم الانسان وخاصة

---

(١٤) باقر، طه: المصدر ذاته ١/ ٣٧٢ - ٣٧٣.

(١٥) سومر، المجلد الثلاثون ص ١١٧.

(١٦) فرح، نعيم: تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ ص ١٤٦.

(١٧) سومر، المجلد الثلاثون ص ١١٧.

(١٨) سومر، المجلد الثلاثون ص ١٧.

الكبد الذي عدوه مستودع الحياة والطحال والمعدة والكليتين والقلب والرئتين وكتبوا اثباتاً باسماء الأعضاء والاحشاء [١٩] .

وكانت دراسة الطب تتم في المعابد . ولا نعرف أي نص يذكر لنا تعليمات بموجبها كان يتم تدريب وتعليم الكهنة الأطباء في تلك العصور ولو أن هناك بعض الاشارات إلى طبيب تحت التدريب (آسو أكاشكو) مما يدل على أنه كان يتحتم على الطبيب أن يمر بفترة تدريبية [٢٠] . وكانت أشهر مدارس الطب تقع في نيبور ويور وإيسن وپورسيبا [٢١] .

علم الحيوان: تدل المكتشفات الأثرية على أن انسان عصر العبيد بدأ ولأول مرة يدرس بامعان نماذج الحياة التي تدور في دائرتها مختلف الحيوانات أي أنه بدأ بدرس بيئتها الطبيعية . وبما أن الكتابة لم تكن قد اكتملت لديه بشكلها الكامل الذى يساعده على ترجمة افكاره البيئية فقد استمر على اسلوب التعبير الفني بالرّسم .

ومن رسوم انسان عصر العبيد ما نجده على أوانيه الفخارية الملونة . كأن يرسم لوحة واحدة يظهر فيها ثور مع سلحفاة وأسماك تعبيراً عن بيئة الاهوار التي كان يعيش قربها . وصورة أخرى لقطيع من الابقار متجمعة في وضعية اعطاء الحليب وبعض العجول وهي ترضع الحليب . وصورة لصقر مفتوح الجناحين ينهش بمخالبه حيواناً من الأيل . فانسان عصر العبيد إذاً بدأ يتأمل حياة الحيوان بامعان .

ولقد ظل هذا الاسلوب في دراسة بيئة الحيوان مستمراً عند السومريين بل حتى الأكاديين فيما بعد . غير ان السومريين بدأوا دراسة تصنيفية للحيوان اكثر مما كان لدى انسان العبيد . فقد صنفوا الحيوانات التي عرفوها بمجموعات نظمت بشكل قوائم . فقائمة الكلاب مثلاً ضمت حيوانات مثل الأسد والضبع والذئب . وقائمة الاسماك ضمت الحيوانات المائية وقائمة الحمار ضمت الحصان والجمل أيضاً . ورغم ان ذلك التصنيف لم يكن علمياً إلا أنه يعتبر اول محاولة بدائية للتصنيف الحيواني تستحق الذكر في طريق منهج البحث العلمي .

ولئن كان السومريون قد استمروا على نفس عصر العبيد في رسومهم دون تطوير كبير

---

(١٩) باقر ، طه : المصدر ذاته ١/ ٣٧٢ .

(٢٠) سومر ، المجلد الثلاثون ص ٨٦ .

(٢١) سومر . المجلد الرابع والعشرون . مطبعة الجمهورية ـ بغداد ١٩٦٨ ص ١٩٤ .

للدراسات الحيوانية فيما عدا تنظيمهم للقوائم التصنيفية فإن البابليين بعدهم ساروا شوطاً أبعد مما يمكن اعتباره بداية الدراسة العلمية الحقيقية للحيوان. على أن هذا التطوير البابلي للدراسات الحيوانية جاء بصورة غير مباشرة عن طريق العرافة.

ويبدو أن العرافة كانت ذات تأثير كبير في حياة البابليين اليومية. وكان يمارسها طبقة من رجال الدين كمهنة. وكان أولئك العرافـون الذين يسمون « بارو Baru » يمتلكون مؤهلات علمية وثقافية عالية. وكانت عرافتهم مبنية على قراءة الأعضاء الحيوانية المختلفة بعد تشريحها واستنبـاط المستقبل منها. وفي ذلك يقول تاتون Taton : لم يكن الـ « بارو » يعرفون شكل الاعضاء الحيوانية المختلفة ومواقعها فقط بل كانوا يعرفون أيضاً علاقة بعضها بالبعض الآخر وقياساتها والتشابه والاختلاف فيما بينها بل كانوا يجرون عليها التجارب ويستخلصون منها البراهين. وكانت لـديهم حـوالي عشرة آلاف ملاحظـة عـن الحيوانات. ويمكن القول بأن استنتاجـات أولئك البابليين قد هيأت ولادة الروح العلمية لأول مرة في التاريخ [٢٢].

إن القصص الخرافية التي كان البابليون يتداولونها فيما بينهم تدل على معرفة واضحة بسيكـولـوجيـة الحيـوانـات. كما أن رسـوم الخيـل والغـزلان التي خلّفـوهـا تـدل على معرفة ظاهرة وبينة بتشريح هذه الحيوانات وتركيب عضلاتها اضافة إلى معرفتهم بتشريحها الداخلي.

ولقد اهتم الآشوريون أيضاً بدراسة سيكولوجية الحيوان. وكان لملكهم سنحاريب حديقـة كبيرة في قصره. وكان رجال الدين أيضاً يدرسون تلك الحيوانات الوحشية والأليفة معاً من حيث سلوكيتها [٢٣]. ووضع الآشوريون، مقتدين بالسومريين والبابليين، قوائم تصنيفية بأسماء الحيوانات. بيد أن تصنيفهم كان هو الآخر بسيطاً وساذجاً.

علم النبات: سبقت الإشارة إلى أن بدايات علمي الحيوان والنبات ترقى إلى مرحلة الصيد والجمع حين بدأ الانسان البدائي يميز الحيوانات والنباتات الصالحة وغير الصالحة للأكل، وتعرف تدريجياً على خصائص كل منها.

وبعد أن اكتشف العراقيون الأوائل الزراعة، نمت معارفهم عن النباتات وذلك بالنظر لأهميتها كمصدر للغذاء والدواء وكمادة اولية للعديد من الصناعات الحرفية.

(٢٢) سومر، المجلد الثلاثون ١٩٧٤ ص ١٧.

(٢٣) نفس المصدر والصفحة.

وفي الألف الثالث قبل الميلاد ، وضع باللغة السومرية بحث في علم الزراعة درست فيه خصائص التربة والنباتات الزارعية [٢٤] . وشرع العراقيون القدماء في تصنيف النباتات مجموعات متشابهة في أشكالها وأثمارها ، وميزوا في بعض الأشجار جنس الذكر من الأنثى مثل النخيل [٢٥] .

واستخدم النبات كمصدر للأدوية النباتية . وخلّف لنا أطباء العراق القديم مجموعات كثيرة بأسماء الاعشاب والنبات والأزهار التي استعملوها أدوية . والعادة في استعمال النباتات والاعشاب انهم يضعون شروطاً لاستعمالها منها المكان الذي تنبت فيه واوقات قطفها [٢٦] .

لقد سبق العراقيون القدماء الاغريق بما حققوه من انجازات في طريق وضع اللبنات الأولى لعلم النبات . واخطأ هيرودوت في عد أصل هذه المعرفة من الاغريق [٢٧] . وقد أثبتت البحوث الحديثة أن أسماء جملة من النباتات بالانجليزية أصلها من الأسماء البابلية [٢٨] .

---

(٢٤) فرح ، نعيم : المصدر السابق ص ١٤٥ .
(٢٥) باقر ، طه : مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة . القسم الاول تاريخ العراق القديم ص ٣٦٣ .
(٢٦) المصدر ذاته ص ٣٧٢ .
(٢٧) المصدر ذاته ص ٣٦٣ .
(٢٨) المصدر ذاته ص ٣٦٢ .

الفصل الرابع والثلاثون

الفن

وضع السومريون واسلافهم اسس الفن في بلاد الرافدين وطورها من بعدهم الساميون والأكاديون والبابليون والآشوريون. وقد تميز فن العراق القديم بصفات خاصة حددتها طبيعة الظروف المحلية بالإضافة إلى تأثره بالعوامل السياسية والدينية. وحاول الفنان التوفيق بين التقاليد الفنية المقيدة وبين الحرية الفنية. واستخدم الحكام والكهنة الفن بهدف تمجيد الآلهة وتقديس السلطة الملكية وترويع الناس واخضاعهم.

ويمكن تقسيم الفن العراقي إلى عدة أنواع هي: فن البناء، والفنون التشكيلية، والفنون الصغرى، والموسيقى والغناء.

١ ـ **فن البناء**: ويشمل المسكن والقصور والمعابد.

المسكن: تشير مخلفات حضارة العبيد إلى أن قدماء العراقيين كانوا يسكنون أكواخاً من القصب المربوط بعضه بالبعض الآخر والمغطى بطبقة من الطين. والقصب والطين هما المادتان المتوافرتان في بيئة ميزوبوتاميا السفلى. والواقع أن أسلاف السومريين كانوا قد بدأوا بإقامة مساكنهم في ميزوبوتاميا السفلى بعد انحسار مياه البحر وجفاف الأهوار. وقد تطور المسكن في بلاد ما بين النهرين من كوخ مصنوع من سيقان القصب ومطلي بالطين إلى بيت مبني بالطوب أو قوالب اللبن المجفف بالشمس أو الآجرّ المشوي بالنار.

وكانت المساكن الأولى لسكان سومر وأكاد أكواخاً من القصب، وكان القصب يغرس في الارض على شكل دائري أو في صفين متوازيين ثم تثنى أطرافه من أعلى بحيث تصبح على شكل مجموعة من الأقواس (القباب). يؤيد ذلك بعض المناظر المرسومة على الاختام

الاسطوانية [1]. ولما لم يكن في هذه المنطقة أحجار فإن المباني كانت تغطى بطبقة من الطين (طمي مختلط بقش) وسرعان ما لوحظ أن الطين يكتسب من حرارة الشمس في الصيف صلابة. وقد أدى ذلك إلى تشكيله في صورة مكعبات تترك لتجف: ومن هنا كانت قوالب اللبن المجفف في الشمس [2]. وقد استطاعوا أن يبنوا مساكن سريعة الإنشاء صغيرة الحجم من اللبن المجفف صنعت سقوفها من القصب المغطى بالطين وترتكز على ركائز من أخشاب النخيل؛ وأما النوافذ ففتحات صغيرة في أعلى الجدران. ثم اخترع الآجرّ المشوي بالنار الذي يسجل خطوة متقدمة عن اللبن المجفف بالشمس. واخترع الفرن المغلق لشيِّ الآجرّ فساعد كثيراً على نشر عادة استعمال الآجر في البناء.

وفي عهد الامبراطورية البابلية الجديدة اخترع القاشاني، فساد استعماله في تغطية جدران القصور [3]. واستعمل الحجر في البناء في الفترات المتأخرة من تاريخ بلاد الرافدين، وكان استعماله مقصوراً على تغطية الدعائم، وسند روافد الخشب [4].

ولقد ظل طراز المباني لا يكاد يتغير على مر العصور من حيث التصميم. فالمبنى عادة على شكل مستطيل متوازي الأضلاع سواء أكان مسكناً عادياً أم قصراً أم معبداً يرتكز على مرتفع (تمنو) على شكل مصطبة مفتوحة تتخللها مجار بقصد حمايته وتجنباً لتجمع ماء المطر [5].

وللبيت حوش مكشوف تدور حوله غرف فيها أنابيت من الفخار للتهوية [6]. ومعظم المنازل من طابق واحد، ومن النادر ان ترتفع إلى طابقين، وتكاد تكون متلاصقة ليس بينها سوى ممرات ضيقة [7]. وهي مدهونة من الداخل وأحياناً من الخارج كذلك. وأما الأرضية فمن بلاط من الاسفلت المختلط بالطين والقش. وكان يستخدم في إضاءة المساكن ليلاً المسارج التي تملأ بالزيت أو بالنفط وقد اهتدوا إلى المشاعل وإلى مواقد النار [8].

---

(١) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٢٠٨.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) المصدر ذاته ص ٢٠٩.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) المصدر ذاته.
(٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٦.
(٧) المصدر ذاته.
(٨) المصدر ذاته.

القصور : مساكن الملوك والأرستقراطية وعنوان القوة والعظمة . كانت تشيّد على الرُبى ، وكانوا يجعلونها منيعة . استخدم الآجر في بنائها ، كما استعملت الحجارة أحياناً إلى جانب الطوب مادة البناء الأساسية .

وكانت القصور تتألف من ثلاثة طوابق أو أربع . ومع اتساع الامبراطورية وتدفق الاسلاب والجزى زادت مساحة وضخامة ومنعة وزخرفة . ولم يستعملوا النوافذ في قصورهم ، بل استعاضوا عنها بألابواب العريضة كوسيلة للتنوير والتهوية ، وأقاموا في أعلى الجدران قرب السقوف فتحات صغيرة للغرض نفسه .

وفي العهد الآشوري ، حيث تأسست الدولة العسكرية ، اصطبغت العمارة بالصبغة العسكرية ، وكانت قصور الملوك أشبه بقلاع تحيط بها الأسوار . وقد سخر الملوك الفاتحون الأسرى في بناء قصورهم ، وجاءوا بالرخام واللازورد والبرونز والفضة والذهب من أجل تجميلها ، وملأوها بالتحف التي غنموها في حروبهم .

ومن بين أفخم القصور التي كشف عنها المنقبون هو قصر دور شاروكين الذي بناه سارغون الثاني في خورسباد على بعد حوالي (١٦) كيلومتراً إلى شمال شرق نينوى . وبنى سارغون الثاني مدينته دور شاروكين وقصره العتيد في الوقت نفسه من نهاية القرن الثامن قبل الميلاد . وقد شيد قصره على مرتفع من الأرض على شكل قلعة حصينة يحيط بها سور عريض لحمايتها .

ويضم قصر سارغون حوالي (٢٠٠) غرفة تطل على أكثر من (٢٠) باحة . وفي الجانب المواجه للمدينة كانت توجد واجهة تتخللها ثلاث بوابات فخمة تحيط بها أبراج مربعة ، وكان يحرس البوابة الوسطى الرئيسية ثلاثة أزواج من الثيران المجنحة وصورة كبيرة الحجم لجلغامش يخنق أسداً . أما البوابتان الأخريان فعلى جانب كل منهما زوج من الثيران المجنحة كحراس .

وتؤدي البوابة الرئيسة إلى مساكن خاصة مرتبة حول جوانب ثلاثة من بهو مربع كبير الحجم يقود إلى جناحين لا يتصلان ببعضهما هما المعبد وقاعات الاستقبال . وقد الحقت بالمساكن الخاصة مخازن المؤونة والمطابخ والحظائر ودورات المياه . وفي وسط هذه المباني ممر يؤدي إلى المعبد[٩] . وكانت المباني المخصصة للاستقبال تشتمل على حوالي (٦٠) غرفة وتنقسم إلى مجموعتين متميزتين : إحداهما تعرف بالقسم المنقوش وهو قاعات الاحتفالات ،

---

(٩) ديلاپورت : المصدر السابق ص ٣٩٠ .

والأخرى أقل زخرفة وهي قاعات المكاتب [١٠].

وقد صمم المدخل بحيث يحجب أية رؤية مباشرة من الخارج. وكان المرء يدخل اولاً إلى بهو صغير يخرج منه إلى دهليز ضيق طويل يؤدي إلى البهو الرئيس ومساحته (٩٧٦) متراً مربعاً. وعند الدخول إلى هذا البهو كان الزائر يجد أمامه ثلاث بوابات جميلة مقببة واثنتين أخريين على كل جانب تؤدي كلّها إلى غرف الاستقبال الرئيسة السبع وكلها مزينة ببلاط منقوش وطوب زخرفي. وكان البهو نفسه مزيناً بنفس الطراز. وتحرس الأبواب الرئيسة ثيران مجنحة [١١]. وكان أسفل الأفاريز العالية مقسماً بانتظام قسمين: فالجزء العلوي مغطى بكتابات طويلة تتكرر في عدة قاعات. وبينما نجد في أحد الأجزاء أحداث الحكم تذكر في ترتيب تاريخي وهو الحوليات نجد في آخر الاعمال البارزة للخمس عشرة حملة الأولى تنجمع في ترتيب جغرافي وهي تكون « فخر الملك وتقاويمه. وفي الجزء السفلي نحتت ونقشت نقوش بارزة ملونة تروي بالصور ماتقصه علينا النصوص المكتوبة فوقها [١٢].

أما مكاتب الدولة فتشغل (٤٩) غرفة متجمعة حول خمسة أبهاء وقلما كانت جدرانها مزينة بالنقوش ولكن كانت تغطيها طبقة من الملاط ملونة أو مصوّرة [١٣].

وإلى الجنوب الغربي من البهو الكبير للحي المشترك يقوم المعبد. وهناك مبنيان آخران على الجانب الجنوبي الغربي من القصر أحدهما « الزقورة » والآخر كان مبنياً من الحجر الجيري ومزيناً بنقوش من البازلت بمناظر الصيد والحرب والجزية [١٤].

ويشير سارغون إلى أنه استخدم في تزيين قصره الفضة والذهب والنحاس والحجر الرملي الأحمر والرخام والعاج وخشب الاسفندان والبقس والتوت والارز والصنوبر والبلوط والزيتون، وزينه من الداخل بالمينا الزاهية المموهة بها ألواح الآجر المزججة وأن السقوف طليت بطلاء من البورق. وقرب الأبواب وضعت تماثيل ضخمة من المرمر والعاج تمثل أبقاراً تحمل ما يشبه كؤوس الأزهار التي تستند إليها الأعمدة [١٥]. وكانت بوابات القصر

---

(١٠) المصدر ذاته ص ٣٩٠ - ٣٩١.

(١١) المصدر ذاته ص ٣٩١.

(١٢) المصدر ذاته ص ٣٩١ - ٣٩٢.

(١٣) المصدر ذاته ص ٣٩٢.

(١٤) المصدر ذاته ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(١٥) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٠٩.

مغطاة بالمعادن الثمينة[١٦].

وقد استعمل اللبن في جدران القصر قبل أن يتم تجفيفه حتى ترتبط طبقاته المتتالية بعضها ببعض دون استعمال الملاط او المونة. أما بالنسبة للقباب فقد استعمل الطوب التام التجفيف وكانت الفجوات تملأ بالطين[١٧]. ولم تقتصر مادة البناء على الطوب بل استخدمت الاحجار التي استخدمت أيضاً في بناء السور. ففي القصر استخدمت في تكسية واجهات الجدران وللأرضية ولتيجان الأعمدة ولسند شرفة القصر. وفي الأسوار استخدمت كأساس ارتفاعه ١,١٠ متر[١٨].

وشاد سنحريب في نينوى قصراً ملكياً سماه « المنقطع النظير » يفوق في ضخامته كل القصور القديمة[١٩]. وكانت جدرانه وأرضه تتلألا فيها نفائس المعادن والأخشاب والحجارة، وصب له صناع المعادن آساداً وثيراناً ضخمة من النحاس، ونحت له المثالون ثيراناً مجنحة من حجر الجير والمرمر[٢٠].

وقد نهج ملوك الكلدانيين نهج ملوك الآشوريين في تجميل المدن وبناء القصور. ولعل قصر نبوخذ نصّر الثاني في بابل يعد أروع مثال لفن العمارة في المرحلة الأخيرة من تاريخ العراق القديم وهو تقليد للفن الآشوري المطعّم بالفن الحثي ونقل عنه.

وكان القصر مكوناً من مبان موزعة حول أربعة أفنية رئيسية. أما قاعة العرش ومساحتها (٨٨٤) متراً مربعاً فتقوم في ثالث الافنية وأوسعها، وزينتها الوحيدة مشكاة ضخمة فيها عرش الملك ويمكن رؤيتها من الفناء. وكانت الجدران مطلية باللون الأبيض، وسمك الجدار خمسة أمتار. وأما حوائط البهو فيغطيها طوب خزفي بالميناء وبها أعمدة مغطاة بالفسيفساء الصفراء على أرضية زرقاء تزينها ورود ملونة[٢١].

ووجد في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الجنوبي بناء ضخم قوامه أربع عشرة غرفة معقود، كل سبع منها على جانب من رواق بين الصفين من هذه الغرف. ووجدت في هذا

---

(١٦) ديلابورت: المصدر السابق ص ٣٩٤.

(١٧) المصدر ذاته.

(١٨) المصدر ذاته ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

(١٩) ديورانت، ول: قصة الحضارة ج ٦ ص ٢٩٤.

(٢٠) المصدر ذاته.

(٢١) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢١٢.

البناء آثار آبار. ويرجح أن يكون هذا البناء موضع «الجنائن المعلقة» التي عدها الاغريق من عجائب الدنيا السبع (٢٢).

وكان يحيط بالقلعة التي يشغل القصر معظمها سور مزدوج. وقد جهز السور بأبراج. ولعل أجمل ما فيه بوابة عشتار التي أعاد نبوخذ نصر بناءها وتقع عند النقطة التي يبدأ منها الطريق المقدس دخول المدينة القديمة.

وقد عثر المنقبون في قصر «نبوخذ نصر الثاني» على صفائح كتب عليها: «أنا نبوخذ نصر ملك بابل» عندما اختارني مردوخ ملكاً شرعياً وأمرني بتجديد المدن أظهرت له الطاعة والخضوع، فبنيت اسوار بابل عاصمة ملكي، وأقمت على أبوابها الثيران العظيمة والتنينات المرعبة، وانزلت اسسها حتى عالم ما تحت الأرض، ورفعت أبراجها إلى علو الجبال، وجعلت من معبد الاياجيل قصر السماء والأرض ومقراً لنعيم الأرباب وكسوته بالذهب وقمت بتجديد زقورته (٢٣).

المعابد: المعابد بيوت الآلهة وسند قوي للنظام العبودي. ولم يكن المعبد في العراق القديم مكاناً للعبادة والصلاة فحسب بل كان كذلك عنصراً هاماً للإدارة المدنية والحياة الاقتصادية والثقافية.

ومنذ عصور ما قبل الاسرات كان المعبد مبنى عاماً... هو مقر الإله يعيش فيه مع زوجته وأولاده وحاشيته وخدمه. وكان يبنى من الآجر والقار أحياناً ومن اللبن أحياناً أخرى، وقديغطى اللبن بالآجر (٢٤). وبعد أن كانت صغيرة بسيطة في عصور فجر السلالات، اتسعت في العصور التالية وتعقدت وأصبحت مكونة من مرافق كثيرة معقدة والحقت بها بنايات خاصة مقدسة للكهنة والكاهنات ولحفظ السجلات وللتدريس والتدوين (٢٥).

وهناك نوعان من المعابد: المعبد الأرضي والمعبد العالي الذي يعرف بالزقورة أو الصرح المدرج. فالمعبد الأرضي شيد ليعيش فيه الإله بين الناس يستمع إلى شكاواهم وينصت إلى صلواتهم ويتقبل قرابينهم ومنحهم وهداياهم. أما المعبد العالي أو «الزقورة» فهو مقر يستريح

(٢٢) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٩٧.

(٢٣) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٧٣.

(٢٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٤.

(٢٥) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٩٣.

فيه الإله عند نزوله من السماء إلى الأرض [٢٦]. وقد ظهرت الزقورة للمرة الأولى في عهد الوركاء ثم عمّ بناؤها بلاد الرافدين واصبح المثل الهندسي الذي يحتذى في الكثير من الأبنية. وبعد أن كانت هذه العمارات بسيطة مكونة من طبقتين فوقها معبد صغير في أواخر عصور ما قبل التاريخ، أصبحت في العصورالتالية مكونة من عدة طبقات ضخمة واتسع حجمها وزاد ارتفاعها وكثر عددها في المدن المهمة [٢٧].

والزقورة مبنى أصم مكون من موشورات، مصاطب، على شكل مربع أو مستطيل يتراوح عددها بين ثلاثة وثمانية مبنية فوق بعضها البعض وتقل حجماً كلما ارتفعت. وقد مثلت صورة هذا الجبل الاصطناعي على كودورو لـ «امروداش بالادان الأول» [٢٨]. وهناك لوحة في اللوفر من القرن الثالث قبل الميلاد (٢٢٩ ق.م) تقدم وصفاً هندسياً لهذا الأثر الضخم، وتشير إلى أن الزقورة مبنى مستطيل طوله ٦٦٠ متراً وعرضه ٣٦٥ متراً. وكان المدخل الرئيس إلى الشرق، على الطريق المقدس، يؤدي إلى شرفتين متتاليتين تسبقان الفناء المربع الذي كان شرفة كذلك، تقوما فوق البرج. ويبلغ طول قاعدة البرج (١٨٥) متراً ويرتكز الطابق التالي على الجانب الغربي للقاعدة وطول ضلعه (٩٥) متراً وبه مزارات لعدد من الآلهة وفناء به أربع بوابات وتقوم عليه خمسة طوابق متعاقبة يتوجها المزار الأخير [٢٩].

ويقدم هيرودوت وصفاً لزقورة أخرى مربعة يقول عنها: «هي مربع منتظم طول ضلعه (٣٧٠,٦) متراً، وله بوابات من النحاس وفي الوسط بدا برج ضخم يبلغ كل من طوله وعرضه (١٨٥,٣) متراً. وفوق هذا البرج يقوم آخر ثم ثالث وهكذا إلى أن يبلغ عددها ثمانية أبراج. والصعود إليها من الخارج عن طريق منحدر يدور تباعاً حول جميع الطوابق. وفي منتصف الطريق المنحدر تقريباً توجد غرفة ومقاعد يجلس ليستريح عليها اولئك الذين يرغبون في الصعود إلى القمة. وفي أعلى الطوابق هيكل به سرير مزخرف بزينة رائعة تقوم إلى جانبه مائدة من الذهب. ولا يسكن هذا الهيكل أحد إلا أنه كانت تأوي إليه في كل ليلة امرأة يختارها الإله بنفسه ويقضي ليلته معها» [٣٠].

ويحيط بالزقورة عادة سور مقدس وبالقرب من قاعدته يوجد محراب. أما المزار الرئيس أو المعبد الصغير ففي الطبقة العليا وهو مخصص لنزول الإله وقضاء بعض الوقت فيه قبل

(٢٦) المصدر ذاته ص ٢٧٧.
(٢٧) المصدر ذاته ص ٤٩٢.
(٢٨) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٧٨.
(٢٩) المصدر ذاته ص ١٧٨ - ١٧٩.
(٣٠) المصدر ذاته ص ١٧٩.

حلوله على الأرض. وقد استخدم الفلكيون الكهنة الزقورة أيضاً لاغراض فلكية.

ولسنا نملك معلومات كافية عن التصميم الكامل للمعبد العراقي القديم قبل عهد الكلدانيين. وقد كشفت الحفريات الأثرية في انقاض مدينة بابل عن اربعة معابد تعود كلها إلى عصر الامبراطورية البابلية الجديد، وقد أمكن نتيجة دراسة هذه الانقاض الكشف عن التصميم الكامل والقواعد العامة التي كان المعماريون يتبعونها في بناء المعابد.

لقد كانت المعابد تبنى على شكل مستطيل له زوايا، ويستعمل في بنائها الآجر والقار احياناً والآجر وحده أحياناً أخرى. وكانت الجدران تقسم من الخارج وعلى مسافات متقاربة ومتساوية بواسطة أعمدة مربعة أو مستطيلة أو دائرية. وللمعبد ساحة داخلية تتوسطه يوصل إليها بمدخل واحد أو عدة مداخل أو ببوابات مزدوجة مغطاة بالبرونز ومرتكزة على دعامات حجرية. وكما هي الحال بالنسبة للفناء الخارجي فقد كانت الساحة الداخلية مزينة بأعمدة مربعة أيضاً. وكان البناء الرئيس في المعبد وأقدس ما فيه هو الهيكل (أي غال = البيت العظيم) وبه مقصورة يوضع فيها تمثال الإله وأمامه غرفة تحتوي على المتاع المقدس الذي يعود إليه. وكثيراً ما كانت جدران هذه المقصورة تغطى بالذهب واللازورد والرخام. أما سقفها فمن خشب أرز لبنان مغطى برقائق الذهب (٣١). وتكون حجرة الهيكل في المعابد الآشورية في الجانب وليس باتجاه المدخل (٣٢).

وقد صمم بناء المعبد بحيث لا يرى تمثال المعبود من الشارع الخارجي، وإنما يمكن للداخل، بعد ولوجه الساحة، أن يشهد تمثال المعبود في أقصى المبنى. ولا يستطيع الدخول إلى قدس الأقداس والمثول أمام الإله إلا الملك والكهنة (٣٣).

وتتوزع الغرف الأخرى الملحقة بالمعبد حول الهيكل. ولسنا نعرف على وجه التحديد الاغراض التي كانت تستعمل هذه الغرف من أجلها ولربما كانت لسكن الكهنة أو لاداء طقوس العبادة.

ولم يكشف عن أي مذبح داخل معابد بابل، إلا أنه قد وجدت بعض المذابح خارج

---

(٣١) المصدر ذاته ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٣٢) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٧٨.

(٣٣) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٧٨. و د. نجيب ميخائيل ابراهيم: المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٦.

مدخل بعض المعابد. وقد استدل من هذا على أن الاضاحي كانت تقدم خارج المعبد [٣٤]. ويؤيد هذا الرأي ما يذكره هيرودوت من أنه كان « يُرى خارج قدس الاقداس (بالاياجيل) مذبح ذهبي وآخر كبير جداً لذبح الماشية » [٣٥].

وسميت المعابد بنوعيها، الزقورة والمعبد الأرضي، باسماء خاصة بها. وكان لكل مدينة مهما صغرت معبد. وأما المدن الكبرى فكان لكل منها أكثر من معبد إضافة إلى الزقورة [٣٦]. وأهم ما تتميز به هذه المعابد كثرة الحدائق المحيطة بها، وحتى ساحة المعبد كانت تغرس بالأزهار والأشجار النضرة [٣٧].

٢ ـ الفنون التشكيلية

النحت والنقش: ظهرت طلائع فن النحت في الحجر في أواخر عصر الوركاء، فقد وصلتنا منه ومن عهد جدة نصر الذي أعقبه نماذج جميلة، من بينها قطعة من البازلت تمثل صيد الاسود في العراق القديم. ومع قدم هذا النحت واتصافه بالسماجة بوجه عام فإن فيه قوة في التعبير. ويمكننا أن نتتبع فيه وفي القطع المنحوتة الأخرى، الخطوط الأساسية لفن النحت الراقي الذي ظهر في عهد ازدهار الحضارة السومرية في عصر فجر السلالات.

ومن القطع الفنية النفيسة التي وجدت في الوركاء إناء من حجر المرمر كبير الحجم (محفوظ الآن في المتحف العراقي). وقد زين هذا الإناء من الخارج بمشاهد منحوتة بالنحت البارز تمثل موكباً من الكهنة العراة يحملون سلال القرابين إلى معبد « إي ـ أنا » في الوركاء كما ظهر فيه بعض الآلهة. وقد نحتت هذه الأشكال بمهارة فنية فيها واقعية التعبير [٣٨].

ووجد المنقبون في الوركاء من طور جدة نصر رأساً منحوتاً نحتاً مجسماً من الرخام يمثل فتاة هو الآن من الآثار النفيسة في المتحف العراقي لا لأنه أقدم نحت مجسم في تاريخ الفن، بل لما يتصف به من الجمال الفني ودقة التعبير في الملامح البشرية [٣٩]. كما وصلتنا من عهد جدة نصر مجموعة من الأحجار الصغيرة المنحوتة بهيئة حيوانات وطيور مختلفة يشير نحتها والدقة في

---

(٣٤) المصدر ذاته.
(٣٥) المصدر ذاته.
(٣٦) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٧٨.
(٣٧) المصدر ذاته ص ٢٧٩.
(٣٨) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٨١.
(٣٩) نفس المصدر والصفحة.

التعبير والتمثيل إلى مهارة فنية وصحة في المشاهدة وتناسب في الأعضاء [٤٠].

وقبل أن يبدأ العراقيون الأقدمون بفن النحت في الحجر أو المعدن كانوا يستخدمون الطين لتمثيل الصور البشرية والحيوانية. وهذه هي دمى الطين التي كانوا يفخرونها بعد أن يضعوها في قوالب [٤١]. وقد بدأت صور الطين منذ أواخر العصر الحجري، وظلت مستعملة إلى أواخر أيام الحضارات القديمة في بلاد الرافدين [٤٢]. وكانت، مثل الاختام الاسطوانية، متنوعة الاشكال والمواضيع، بعضها يمثل الآلهة، وبعضها صور للشياطين والعفاريت. كما أنهم صوروا الحيوانات المختلفة والطيور والأسماك. وهي إلى أهميتها الفنية ذات قيمة خاصة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والدينية.

وفي عصر الحضارة السومرية نضجت الفنون عامة وفن النحت بخاصة وكثرت مقوماتها وتباينت عناصرها. وكثرت التماثيل التي تمثل الآلهة والملوك والكهنة كما كثرت المنحوتات البارزة التي كانت تنحت في ألواح من الحجر لتزين جدران المعابد. وكان نحت التماثيل يقوم على أسس ثابتة. ففي تماثيل الآلهة نلحظ مبالغة في تصوير بعض الاعضاء كالعيون مثلاً، وأما في تماثيل الأفراد فكانوا يتوخون الدقة بحيث تبدو وكأنما تمثل الأشخاص على طبيعتهم. وكانت تماثيل الآلهة والملوك ثمينة يسرفون في تزيينها بالذهب والاحجار الكريمة. ومعظم ما بقي من هذه التماثيل يمثل الملك غوديا. في متحف اللوفر ثمانية من الديوريت كان قد وضعها غوديا في معابد لاغاش وكلها تمثل الايشاكو في مظهر الولاء أمام المعبود ويداه معقودتان وهو إما واقف وإما جالس ولكنها كلها مقطوعة الرأس [٤٣].

وتسمح لنا مجموعة النقوش البارزة، وهي اكثر كمالاً من مجموعة نحت التماثيل، بأن نتتبع التطور الفني في تمثيل الشكل الانساني ابتداء من الصورة ذات الريش حتى لوحات غوديا مارين فيما بين هاتين المرحلتين بالنقش البارز الدائري وصورة أسرة أورنينا ولوحة العقبان والنقش البارز لـ « دودو » ولوحات سارغون ونارام سين [٤٤]. ـ وفي لوحة العقبان ـ وهي لوحة أقامها إيانا توم في لاغاش تخليداً لانتصاره على أومّا، ونرى العقبان مقسمة إلى صفوفة متعاقبة وهي تُظهر (تبرز) في وجهيها التاريخي والأسطوري تنفيذاً أكثر حرية من نقوش أرنينا [٤٥].

(٤٠) المصدر ذاته.
(٤١) المصدر ذاته.
(٤٢) المصدر ذاته ص ٤٨٢.
(٤٣) ديلابورت: المصدر السابق ص ٢١٥.
(٤٤) المصدر ذاته ص ٢١٧.
(٤٥) نفس المصدر والصفحة.

ولم يكتف النحاتون السومريون بتمثيل الآلهة والبشر بل مثلوا الحيوانات أيضاً بأشكالها وأحجامها الطبيعية أو بأشكال وأحجام صغيرة. فقد أمر غوديا بنحت أسود بالحجم الطبيعي[٤٦]. وفي النقش البارز لـ« دودو » نرى ثوراً مضطجعاً وفي لوحة العقبان نشاهد ثوراً مهيئاً للتضحية به وهو مربوط إلى وتد.

وكانت مادة التماثيل الكبيرة من الحجر الصلب الصخري، أما الصغيرة فقد صنعوها في الغالب من حجر ليّن أو من المرمر او الاونيكس[٤٧]. وكانوا يطعّمون هذه التماثيل بالاحجارة الثمنية أو المعادن أو يلبسونها الاساور والاقراط ويصنعون لها عيوناً من الحجر الملون لجعلها طبيعية تنبض بالحياة[٤٨].

ولم يلجأ النحاتون إلى الحجر وحده كمادة لصنع التماثيل والنقوش بل إنهم مهروا منذ عصر ممعن في القدم في استعمال المعادن وخاصة النحاس. فقد اكتشفت في تللو تماثيل نحاسية كما اكتشف قرن ثور بالحجم الطبيعي مصنوع من صفيحة نحاسية ملفوفة حول قالب خشبي وملصقة به بواسطة مسامير صغيرة[٤٩]. وصنع بعض الملوك تماثيل من الذهب والفضة تمثلهم باوضاع مختلفة وبحجوم مصغرة أو صنعوا تماثيل معدنية لبعض الحيوانات ورصعوها بالاحجار الكريمة وصنعوا لها عيوناً من حجارة ملونة لاعطائها قيمة جمالية.

وكانت التماثيل المعدنية الأكبر حجماً تصب جوفاء. وهناك رأسان لثورين هما نموذج جيد لعصر ما قبل السارغونية[٥٠]. وكانت هذه التماثيل الحيوانية المصنوعة من المعدن تستعمل لأغراض تزينية عند مداخل القصور أو في ساحاتها أو قرب المعابد أو عند البوابات الكبيرة[٥١].

ويعد العصر الأكادي متابعة لتطور الفن في العصور السابقة. ودخلت فن النحت نزعات جديدة ابرزها التمثيل الحيوي القوي، وكذلك النزعات الدنيوية والروعة الفنية مما لم يكن موجوداً في عصور فجر السلالات. وأبرز مثل للنحت في هذا العصر « لوحة النصر » للملك الأكادي « نارام سين » يلاحظ فيها النقش البارز للتحرر من قيود الفن السابقة

(٤٦) المصدر ذاته ص ٢١٨.
(٤٧) المصدر ذاته ص ٢١٦.
(٤٨) نفس المصدر والصفحة.
(٤٩) المصدر ذاته ص ٢٢٠.
(٥٠) المصدر ذاته ص ٢٢٢.
(٥١) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق ص ٢٠٩.

ومحاولة التعبير عن المنظور ومراعاة بُعد الشيء أو قربه من المشاهد ثم قوة وحيوية التعبير في نحت الأشخاص (٥٢).

وقد عني الفن السومري ـ الأكادي بتمثيل الطبيعة في التماثيل ونجح في إبراز النواحي التي كان يستهدف في إبرازها تمثيل العضلات أو ثنيات الثياب. وكان الفنانون السومريون الأكاديون شديدي الميل إلى اختراع مخلوقات مختلفة غير متجانسة الأجزاء معتمدين في ذلك على تشابه معين قلّ أو كثر بين الانسان والحيوان. فالنسر برأس أسد والثور برأس انسان (٥٣).

ولجأ الفن السومري إلى التطعيم والتكفيت اللذين عرفا منذ عهد جمدة نصر ولكن الفن السومري ـ الأكادي أرسى قواعدهما. وكان التطعيم في الخشب بالمحار والأصداف والبلّور، واللازورد على هيئة أشكال هندسية لمناظر حربية وحفلات دينية ومشاهد اسطورية، أما التكفيت فظهر في قطع جميلة الصنع من بينها وعاء فضي من عهد انتمينا فيه نسر ناشر جناحيه (٥٤).

واستمر فن النحت والنقش في تقدم مطرد حتى عصر «غوديا» وملوك اور. ويبدو ذلك خاصة في قطعة حجر منحوتة بشكل ديني تمثل مؤسس الأسرة يسكب الماء المقدس أمام «سين» إله القمر في اور ويتسلم منه الاوامر المقدسة لبناء زقورة اور. وحفر النقاشون في الصدف واللؤلؤ والمعدن. وكانوا يفصلون الصدف إلى صفائح رقيقة يحفرون فيها المناظر المختلفة والأشكال البشرية والحيوانية. كما استعملوا المعادن المطروقة بشكل صفائح والمصنوعة على شكل آنية. ومزهريات ونقشوا عليها مناظر من حياتهم اليومية أو مشاهد دينية وحربية. وقد بدأ اللؤلؤ يحل محل الأصداف. وانحدر الحفر في هذه المادة السريعة القصف إلى تخطيط مستقيم (٥٥).

وقد صحب توحيد بلاد الرافدين في ظل الاسرة البابلية واختفاء السومريين عن المسرح السياسي عهد انحطاط بالنسبة إلى الفن. ولم يعثر المنقبون حتى الآن من زمن الدولة البابلية القديمة إلا على منحوتات قليلة يأتي في مقدمتها «مسلة شريعة حورابي» والرأس المنحوت من

---

(٥٢) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٨٩.

(٥٣) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٢١٩.

(٥٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢١٧.

(٥٥) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٢٢٤.

حجر الغرانيت الذي يظهر أنه يمثل حمورابي نفسه (٥٦).

وإذا وصلنا إلى العهد الكاشي فلا نجد طرازاً فنياً مميزاً خاصاً بالكاشيين، إذ الواقع أن هؤلاء ساروا على التقاليد الفنية القديمة وكذلك تأثروا بفنون البلدان المجاورة. فقد عثر المنقبون عام ١٩٥٥ في الوركاء على نصب منحوت من الحجر يمثل الهة وفيه كتابة سومرية تذكر اسم الملك «نازي مركاش» (٥٧). واشتهر العهد الكاشي بالنقش البارز على احجار الحدود التي تكاد أن تكون المثال الوحيد على فن النحت الكاشي.

وقد اقتبس الآشوريون مقومات الفن البابلي في الفترة الكاشية وطوروها وطبعوها بطابعهم الخاص. وتطور فن النقش في العهد الآشوري تطوراً سريعاً حتى بلغ الذروة فيما يتصل بتمثيل الحيوانات. وقد اتصف فن النقش الآشوري بأنه فن حربي يهتم اولاً وقبل كل شيء بتمثيل المشاهد الحربية والانتصارات العسكرية التي حققها الملوك الفاتحون على أعدائهم. والنقوش العديدة التي خلفوها لنا على جدران قصورهم عن حملاتهم العسكرية ودكهم الحصون والمدن وسوقهم الأسرى خير مثال على ذلك.

ولم يكتف الفنانون بالنقش على ألواح الجص والمرمر بل نقشوا أيضاً على المعادن. ولعل أهم النقوش البارزة المعدنية هي الواجهات البرونزية للقصر الذي بناه شلمنصّر الثالث في أمجور إيلليل (بلاوات) في القرن التاسع قبل الميلاد ومثل فيها أهم أحداث حكمه (٥٨).

وبدأ فن النقش بمزج الصور بالكتابة وانتهى بعزلها عن بعضها، ورغم ذلك ظل الضعف من سماته البارزة وظلت الدقة أبعد ما تكون من أن تتوخى، ولم يراع رسم المنظور، ولم تلاحظ الابعاد كما لم يهتم بترتيب المناظر طبقاً لأهميتها الفعلية أو بتناسبها من ناحية الحجم مع بعضها البعض (٥٩). وكان الاهتمام بابراز صورة الملك يدفع إلى التغاضي عن قاعدة المنظور، فهو يبدو بصدره كاملاً حين يجب ألا يبدو إلا من ظهره، وهو يبدو بذراعيه حين يجب ان يختفي أحدهما طبقاً لقواعد المنظور. أما الأقدام فتمثل دائماً منظورة من الجانب (بروفيل). أما العين فتظهر كأنما ترى من الامام حتى لو كان منظر الرأس من الجانب (٦٠). ورسم الأشخاص ليس من الضروري أن تظهر فيه الملامح المميزة للجنس أو

(٥٦) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٩٠.
(٥٧) المصدر ذاته ص ٤٩١.
(٥٨) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٤٠٨.
(٥٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ٢١٩.
(٦٠) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٤٠٢.

الشخصية، ولا يمكن التعرف على الأعداء الذين يقدمون الخضوع ويأتون بالجزية أو يؤخذون أسرى إلا بواسطة زيهم الذي يختلف عن زي الآشوريين، أي أن الزي وحده أو الزي واللحية هما اللذان يميزان الناس (٦١).

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لتمثيل الحيوانات. وهو عمل بلغ فيه الآشوريون حد الكمال وكأنما الفنان الآشوري الذي حرم عليه أن يصور سادته في حقيقتهم وفرديتهم قد وظف حريته ووهب كل فنه وحذقه لتصوير الحيوانات. وهو يصور منها أنواعاً جمة، أسوداً وخيلاً، وحميراً، ومعزاً، وكلاباً، ودببة، وظباء، وطيوراً، وجنادب، يصورها في كل وضع من أوضاعها، وما أكثر ما يمثلها وهي جرحى تعاني سكرات الموت، ولكنه حتى في هذه الحال يجعلها مركز الحياة في لوحاته وفنه (٦٢).

وهل هناك ما هو أروع من خيل سارغون الثاني في نقوش خرسباد، أو اللبؤة الجريحة التي عثر عليها المنقبون في قصر سنحاريب في نينوى، أو اللبؤة المحتضرة المنقوشة على حجر المرمر التي استخرجت من قصر آشور بانيبال، أو منظر اللبؤة المستريحة، أو الأسد الذي أطلق من الشرك، أو القطعة التي تمثل الأسد والسهم يخترق جسمه، أو القطعة التي نقش عليها أسد ولبوءة يستظلان بالأشجار، أو مناظر صيد الأسود الذي أغرم به الملوك الآشوريون ومشاهد الخيل والحمر الوحشية التي صورت بحركة وعنف وبمهارة بحيث يحق لنا أن نضعها في مصاف فنون العالم الممتازة (٦٣).

وقد ولع الآشوريون بنحت التماثيل الضخمة من الحجر، بعضها يمثل أشخاصاً من بينهم الملوك انفسهم وبعضها يمثل الحيوانات الضخمة ولا سيا الثيران المجنحة التي ترى مليئة بالحياة والجلال (٦٤).

وكانت هذه حيوانات مركبة رؤوسها رؤوس بشر وأجسامها أجسام ثيران أو أسود لمداخل القصور والمدن. وقد وجدت منها نماذج كثيرة في نينوى في مداخل المدينة المقدسة وفي خرسباد. أما تماثيل الأشخاص والآلهة فهي خشنة ثقيلة بدائية، مزينة ولكنها لا فروق بينها، منتصبة ولكنها ميتة. ولعل من الجائز أن نستثني من هذا الوصف تمثال آشور ناصر بال الثاني الضخم المحفوظ في المتحف البريطاني. ولعل مظهر القوة هو أول ما توخى المثال في

(٦١) المصدر ذاته ص ٤٠٢.

(٦٢) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٩٠.

(٦٣) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٨٤.

(٦٤) ديورانت: المصدر السابق ص ٢٩٢.

إبرازه « ذلك أن في وسع الناظر إليه أن يرى الصولجان الملكي وقد قبض عليه قبضة قوية، والشفتين الغليظتين تنمان عن قوة العزيمة، والعينين القاسيتين اليقيظتين، ويرى عنقاً كعنق الثور ينذر الاعداء بالشر المستطير [٦٥].

وقد استخدم الآشوريون المعادن ايضاً في صناعة التماثيل. فقد عثر على تمثال أسد من البرونز في قصر دور شاروكين كما وجدت سباع برونزية أخرى في غرؤد [٦٦].

واستعمل الفن الآشوري كذلك عملية في النحت تتوسط بين النقش البارز والمجسم، ولجأ إلى هذا الطراز في اسفل الجدران في الأماكن الواجب أن تكون أكبر سمكاً لتعرضها أكثر من غيرها للصدم، أي لوجودها عند مدخل القاعات والممرات. وفيها نرى أن مقدم العفاريت التي لها أجسام الأسود والثيران ذات الاحجام الضخمة احياناً نراها منفصلة تبرز من الحائط بروزاً شديداً كما لو كانت تماثيل [٦٧].

ومن ناحية أخرى نجد أن المخلوقات المركبة التي تتكون من جسم انسان يرتبط بأعضاء أو رأس حيوانات معينة منقولة عن مصر عن طريق الحيثيين لأن البابليين ظلوا يجهلون تقريباً مثل هذه الكائنات التي يندر جداً ظهورها في آثارهم [٦٨].

الأختام الأسطوانية: اخترعت الاختام الاسطوانية في النصف الثاني من عهد الوركاء بهدف تحديد الملكية الشخصية للحاجيات المختلفة. وكان النقش على الحجر يمارس في بلاد ما بين النهرين منذ عهود سحيقة في القدم. وقد حفظت خرائب نيبور ولاغاش على لوحات كبيرة الحجم. وتطور النقش على الاختام الاسطوانية التي ظل استعمالها شائعاً حتى العصر الفارسي كوسيلة لختم المستندات والوثائق [٦٩].

وكانت الأختام منبسطة عبارة عن أقراص دائرية أو مستطيلة، أما الأختام الاسطوانية فكانت نادرة ولم يتسع استعمالها إلاّ في أزمنة متأخرة نسبياً.

---

(٦٥) المصدر ذاته ص ٢٩٣.
(٦٦) ديلاپورت: المصدر السابق ص ٤٠٨.
(٦٧) المصدر ذاته ص ٤٠٤.
(٦٨) نفس المصدر والصفحة.
(٦٩) المصدر ذاته ص ٢٢٥.

وقد صنعت الاختام في العصور الأولى من الحجر الجيري والحجر الأخضر وغير ذلك، ومن ثم استعمل اليشب والبلور الصخري وحجر الحديد « هياتيت » والعقيق. وكانت لحجر الحديد السيادة في عصر غوديا وملوك اور، وظلت له المكانة الأولى في زمن الأسرة العمورية في بابل[٧٠]. ولكن في عصر الكاشيين كثر استعمال اليشب. أما العقيق الأبيض فقد استعمل في العصور المتأخرة وخاصة في صنع الاختام المسطحة[٧١].

وتختلف الاختام باختلاف المراحل التاريخية. وهي مصدر هام لمعرفة المعتقدات الدينية والأساطير، وبعضها مناظر للحياة اليومية. وقد بلغت القمة في العهد الأكادي[٧٢].

وكانت الأشكال البشرية والحيوانية والنباتية تمثل بشكل خطوط هندسية على الأختام في اول الأمر، ثم تظهر على الاختام مناظر عراك الحيوانات مع بعضها البعض أو مع الابطال مثل جلغامش وصاحبه الوفي انكيدو. ويستمر من خلال حكم « نارام سين » و « شورغا ليشاري » ظهور صراع جلغامش وأنكيدو مع الأسد والثور[٧٣]. وتمتاز احدى الاسطوانات من تللو بعمق النقش وبراعة تصوير الوجوه. ولعل هذه هي أروع فترات صناعة النقش على الأحجار الكريمة حين يبذل الفنان قصارى عبقريته في تنويع الموضوعات المشتقة من الاساطير القديمة الهامة[٧٤].

وفي عصر غوديا وملوك اور كانت تفضل المناظر الدينية التي كانت يمثل فيها المرء يتعبد أمام المعبود عن طريق إله الخاص الحارس[٧٥]. وظلت الحال كذلك خلال حكم ملوك الأسرة البابلية الأولى. ولكن في اثناء الفترة الكاشية نرى الموضوع يقتصر في كثير من الاحيان على تصوير شخص واحد فقط أو بضعة رموز مقدسة. وتغلب الكتابة على الرسم وتتضمن عادة دعاء للمعبود التماساً لعونه وحمايته ودعاء له ليمد في عمر صاحب الختم[٧٦].

وبعد هذه المرحلة نرى الختم الاسطواني يفسح الطريق من جديد للختم المسطح الصغير

(٧٠) المصدر ذاته ص ٢٢٦.

(٧١) المصدر ذاته.

(٧٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦. ص ٢٢٢.

(٧٣) ديلابورت: المصدر السابق ص ٢٢٧.

(٧٤) المصدر ذاته ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٧٥) المصدر ذاته ص ٢٢٩.

(٧٦) المصدر ذاته ص ٢٣٠.

الذي ظهرت فيه المناظر المميزة للبابلية الجديدة، ومنها صورة كاهن يقوم بشعائر الصلاة ويداه مرفوعتان أمام المذبح الذي توضع فوقه رموز مقدسة.

ولم تنتشر عادة استعمال الاختام الاسطوانية في عهد الآشوريين كما انتشرت في عهد البابليين. ولعل مرجع ذلك يعود إلى عدم ضرورة وجود الشهود للشهادة على العقد. والاختام الاسطوانية المتبقية من هذه الفترة قليلة، والموضوعات المحفورة فيها دينية في أغلب الاحيان، الا أنه وجدت بعض الاختام وعليها موضوعات من الحياة كالصيد الملكي أو الحروب (٧٧). وهنا مناظر أسطورية تمثل الصراع بين الجن وحيوانات حقيقية أو خرافية. وقد عاد الختم المسطح للظهور كذلك في آشور في الألف الاول قبل الميلاد، ثم أصبح استعماله في الدولة البابلية الجديدة واجباً حتى استطاع في عهد السلوقيين أن يطرد الاختام الاسطوانية من الشرق كله. وكان هذا الختم يصنع عادة على شكل مخروط ناقص بقاعدة اهليليجية واستدارة عند القمة (٧٨).

٣ ـ الفنون الصغرى:

عثر المنقبون في مقابر أور الملكية على كنوز لا تثمن من الفنون الصغرى السومرية في عصر فجر السلالات. ونخص بالذكر منها النفائس الفنية من أواني الذهب وخناجر الذهب والخوذ المصنوعة من الذهب وأشهرها الخوذة الذهبية العائدة إلى الأمير السومري «مس كلام دك» المعروضة في المتحف العراقي وكذلك القيثارة الذهبية ورؤوس الحيوانات المسبوكة من النحاس والبرونز، وكل ذلك يدل على ما وصل إليه فن الصياغة وسبك المعادن من تقدم (٧٩).

وبرعوا في فن التخريم براعة مدهشة كما يشاهد في غمد الخنجر الذهبي المعروض في المتحف العراقي ومقبضه من حجر اللازورد، وقد عثر عليه في مقابر اور الملكية ويعود تاريخه إلى فجر السلالات الثالث ٢٦٠٠ قبل الميلاد (٨٠).

ومن الصناعات الدقيقة التي برع بها السومريون في عصور فجر السلالات فن التطعيم أو التكفيت، وقد بدأ هذا الفن الجميل في طور جدة نصر. فكانوا يطعّمون الحجر

---

(٧٧) المصدر ذاته ص ٤١١.

(٧٨) المصدر ذاته ص ٤١٢.

(٧٩) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٨٤.

(٨٠) المصدر ذاته ص ٤٨٤ و٥١٠.

والاخشاب وغيرها بمواد أخرى جميلة كالمحار والصدف وحجر اللازورد والبلـور بألوان مختلفة. وكان الفنان يؤلف من هذه الاحجار التي يطعّم بها المواد الأخرى أطرزة وأشكالاً بديعـة ، كالأشكال الهندسية ، ومناظر الحرب والحوادث الاسطورية والحفلات الدينية ، كما يشاهد في مقدم القيثارة الذهبية المعروضة في المتحف العراقي (٨١).

وتدل مخلفات البابلين من الفنون الصغرى على أنهم قد اوتو قسطاً موفوراً من الاحساس بالجمال. وإن قطع القرميد التي طليت وصقلت بأعظم عناية ، والحجارة البراقة ، وأدوات البرونز الدقيقة الصنع ، والحديد ، والفضة ، والذهب ، والتطـريـز الجميـل ، والسجـاجيـد الوثيرة ، والثياب ذات الصبغات الجميلة والأقمشة المزركشة المعلقة على الجدران ، والمناضد المرتكزة على القواعد والسرر والكراسي ، إن هذه المخلفات كلها تخلع على الحضارة البابلية ثوباً قشيباً من الجمال والرونق. والحلي التي عثر عليها كثيرة ولكنها تنقصها الدقة الفنية التي نشاهدها في حلي المصريين الأقدمين ، وكان أكبر ما يقصد بها أن تعرض المعـدن الأصفـر أكثر مما تعرض الفن الجميل ويظن صانعوها أن من جمال الفن ان تصنع تماثيل كاملة من الذهب (٨٢).

وقد حفز تدفق اسلاب الحروب والجزى على آشور وكالح ونينوى الفنانين والصناع الآشوريين إلى أن يخرجوا للأشراف ونسائهم وللملوك وقصورهم حلياً مختلفة الاشكال. وإلى جانب الحلي المصنوعة من المعادن الثمينة كان الآشوريون يستعملون الخرز والحجارة الملونة والفصوص الثمينة ويصوغونها بشكل جميل ويلبسونها في آذانهم ورقابهم ومعاصمهم أو يزينون بها صدورهم وملابسهم. وقد عرفوا أنواع الطيوب والعطور والزيوت واستخدمها الاغنياء منهم بكثرة كما تدل على ذلك مخلفاتهم.

وكان الأثاث في القصور على درجة عالية من الفخامة ، لا سيما إذا قورن بالأثـاث الذي كان مستعملاً في القصور البابلية.

وقد عرف الآشـوريـون العـروش الضخمـة والكـراسي المحفـورة والمزينـة بـرؤوس الحيوانات ، والأسرّة الناعمة الوثيرة ، والمقاعد ذات الاذرع والوسادات. وكانت بعض قطع الاثاث تحلى بالذهب أو تطعّم بالفضة والبرونز والاحجار الكريمة. ومن بين المخلفات الآشورية أيضاً آنية جميلة جداً مصنوعة من الزجاج أو المعدن أو الفخار ، وهي مزينة

---

(٨١) المصدر ذاته ص ٤٨٤.

(٨٢) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٤٤.

بنقوش جميلة أو ملونة بالألوان الزاهية [٨٣]

٤ ـ الموسيقى:

تدل صور الطبول والأبواق والصنوج والآلات التي عثر عليها المنقبون ان قدماء العراقيين عرفوا الموسيقى واستخدموها في شؤونهم الدينية والاجتماعية. فهناك مثلاً صورة عازف على القيثار في معبد تعود إلى زمن غوديا، وصورة أخرى مرسومة على شَقَفة مزهرية تمثل كاهناً يقرع طبلاً ترجع إلى ما بعد زمن غوديا بقليل [٨٤].

وتشير بعض الألواح ان حفيدة نارام سين المدعوة «ليبوش ياد» كانت عازفة على القيثارة للإله سين [٨٥].

وكان لدى البابليين آلات طرب كثيرة: ناي، وطبول، وقرون، ومزامير من القصب، وأبواق، وصنوج، ودفوف [٨٦]. وكان لهم فرق موسيقية ومغنون يعزفون ويغنون فرادى ومجتمعين في الهياكل والقصور وفي حفلات الأثرياء [٨٧].

ومن العصر الكاشي مُثّلت على كودورو امرأة تحمل جعبة وقوساً في موكب من الكهنة الموسيقيين وهي تضرب على طبلة [٨٨].

وعرف الكلدانيون الموسيقى وطوروها حتى اصبحت علماً له أصوله وقواعده [٨٩].

ولسنا نعلم كيف كانت الانغام الموسيقية ولكن وجدت ألواح من الطين بعضها بهيئة اسطوانات مثقوبة فيها بعض الرموز الغريبة رأى بعض الباحثين أنها «نوطة» موسيقية وان احداها تمثل ترتيلة سومرية خاصة بخلق الانسان [٩٠].

وكان في المعابد نوع من الكهنة هم المغنون والمرتلون الذين ينشدون التراتيل الدينية.

---

(٨٣) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق ص ٢٣٢.

(٨٤) هامرتن: تاريخ العالم. المجلد الأول ص ٦١٤.

(٨٥) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٩١.

(٨٦) ديورانت: المصدر السابق ص ٢٤٤.

(٨٧) المصدر ذاته.

(٨٨) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٩١.

(٨٩) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٧٥.

(٩٠) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٨٥.

ويعرف الكاهن الذي يناط به تخفيف الغضب عن قلوب الآلهة بغنائه باسم « كالو ». ويدعى كبير كهنة الكالو باسم « كلاماه ». وكان يصحب الغناء والترتيل الضرب على الطبول والادوات النحاسية. وهناك في المعبد كـاهنـات مغنيـات وعـازفـات في جـوقـة المعبـد الموسيقية (٩١).

وكانت في المعابد غرف خاصة تغلم فيها الكاهنات الموسيقى للفتيات الراغبات في احترافها (٩٢).

---

(٩١) انظر موضوع الديانة في بلاد مابين النهرين ص ٣٨٩.

(٩٢) هامرتن: المصدر السابق ص ٥٦٧.

الفصل الخامس والثلاثون

الديانة

بدات التصورات الدينية تتكون في بلاد ما بين النهرين في عصر ما قبل الأسرات، العصر الحجري الحديث (النيوليتي). وقد حافظ قدماء العراقيين حتى في عهودهم التاريخية على معتقدات حيوية يرقى تاريخها إلى عصر المجتمع البدائي وفيها عبادة ارواح خيرة أو خبيثة تحكم الظواهر الطبيعية وترسل الأمراض والموت وتساعد في عملهم وفي حياتهم.

ومن بين المكتشفات الأثرية الهامة التي عثرت عليها مديرية الأثار العراقية عام ١٩٤٣ - ١٩٤٤ في «تل حسونة» دمى طينية بهيئات مختلفة منها صور حيوانية كانت تستعمل في العبادة والتبرك [١].

والديانة في بلاد الرافدين، كما تظهر في نصوص الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد، تركيب من عناصر سومرية وسامية. وقد تطورت المفاهيم الدينية تحت تأثير التحولات الاقتصادية - الاجتماعية والتبدلات السياسية. فمع الانتقال من مرحلة الصيد وجمع القوت إلى مزاولة الزراعة وتدجين الحيوان (تربية الماشية) تطورت الديانة من الطوطمية فالحيوية إلى عبادة القوى الطبيعية ومن ثم إلى مبدأ التفريد أي خص إله ما بالتعظيم والعبادة وجعله سيد الآلهة. وصارت الآلهة بشراً تصور على شكل إنسان بعد أن كانت في السابق تصور على شكل حيوان.

ويرجح كثيراً أن عبادة الشمس بسبب أثرها في الزراعة قد بدأت على هيئة إلهة بعد عبادة «الأم الأرض» إلهة الزراعة ورمز الخصب كما تدل على ذلك دمى الطين التي وجدت

(١) بصمه جي، فرج (الدكتور): دليل المتحف العراقي ص ٥٥.

في «جرمو» و«حسونة» وكثير من مستوطنات العصر الحجري الحديث وهي تمثل امرأة بدينة مبالغ في حجم ثدييها [٢].

ومع إنتاج القوت فإن الانسان لم ينبذ السحر كما تدل على ذلك التعاويذ المصنوعة من الحجر. والواقع أنه ظل يمارسه حتى في عهوده التاريخية. فإنه إذا كان بحاجة إليه لضمان جمع قوته بالصيد في طور جمع القوت فإنه وجده ضرورياً أيضاً لضمان انتاج قوته باسترضاء القوى الطبيعية والعلوية التي صار يجسّمها على هيئة آلهة [٣].

لقد عكست ديانة قدماء العراقيين الطبيعة المحيطة بهم ومختلف جوانب حياتهم. فبوسع الكاتب أن يستشف من الغلاف الأسطوري لقصة الخليقة البابلية أموراً تتعلق بالأحوال الجغرافية لبلاد ما بين النهرين. فالمياه الأولى التي كانت تغمر القسم الجنوبي من العراق والصراع بين بطل الآلهة الجديد «مردوخ» وآلهة الماء العتيقة وعلى رأسها «تيامة» إنما تعكس في واقع الحال صراع العراقيين القدماء مع بيئتهم الطبيعية وتغلبهم عليها بإنشاء اولى الحضارات البشرية. وفي ملحمة جلغامش، خصصت اللوحة الحادية عشرة لذكر حادثة الطوفان الكبير المخرب، كما يجد المرء في الاسطورة صورة رائعة عن الحياة البدائية وكيفية تدرجها إلى طور الحضارة [٤]. وترمز اسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلي (عالم الأموات) بحثاً عن زوجها الميت تموز ثم بعثه وعودة ظهوره على الأرض إلى تبدل الربيع بالشتاء ونمو الحبوب المزروعة بعد ان دفنت في الأرض. وهذا يعني انتصار الحياة على الموت. وبوسع القارىء أن يستشف أيضاً من الأطر الاسطورية الدينية أموراً تتعلق بنظام الأمومة والانتقال منه إلى نظام الأبوة عندما أصبح الرجل يلعب الدور الرئيس في الزراعة بعد أن كانت المرأة تقوم بذلك في بدء مرحلة الانتقال من حياة الصيد إلى الزراعة. وقد عكست الديانة تفسخ المشاعة العشيرية وظهور التمايز بين الأفراد في الثروة والحقوق ونشوء المجتمع الطبقي وتأسيس دويلات ـ المدن العبودية فالدولة العبودية المركزية الموحدة. فعندما كان نظام الديموقراطية العشيرية لا يزال سائداً في سومر وأكاد، ظل كذلك معمولاً به في المجال السماوي بين الآلهة. فمثلاً كان على الإله آنليل أن يحصل على موافقة الآلهة الاخرى من أعضاء المرتبة الأولى لاقرار فكرته حول الانتقام من الشر بالطوفان. ومع ازدياد الفوارق في الثروة بين أعضاء القبيلة وظهور الطبقات الاجتماعية المتناحرة وتأسيس الدولة العبودية،

---

(٢) باقر، طه: المصدر السابق ص ٤٤.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) انظر ملحمة جلغامش ص ٣١٣. وما بعدها.

تحل علاقات الاستغلال والاضطهاد محل علاقات المساواة والتضامن، ويركز الملك جميع السلطات السياسية والاقتصادية والدينية في يده. هذه النظم والعلاقات الجديدة تنتقل إلى المجال السماوي أيضاً، فلم يعد الإله الأعظم يشبه رئيس القبيلة، إنما أصبح سيداً مطلقاً يملك سلطة غير محدودة. فالإله «آنليل» صار يسمى الأن سيد الارباب الرهيب الذي لا يجرؤ أحد من الآلهة على أن ينظر إليه ويخالف أمره[٥]. وحل الإله مردوخ في عهد الأمبراطورية البابلية القديمة والإله آشور في عهد الأمبراطورية الآشورية مكان آنليل السومري ـ الأكادي في مرتبة السيادة على الآلهة الآخرين.

وقد وضع السومريون ـ الأكاديون نظرية اسطورية حول نشوء الكون، اقتبسها عنهم فيما بعد البابليون والأشوريون والكلدانيون مع بعض التعديلات التي حتمتها التبدلات السياسية. فعندما عظمت مكانة بابل في زمن حمورابي وأصبحت عاصمة الامبراطورية البابلية رفع حمورابي مردوخ إله بابل المحلي إلى المرتبة الأولى بين الآلهة، وتألفت أناشيد جديدة من القصص القديمة تتفق والوضع الجديد، وعدّل الكهنة قصة الخليقة السومرية[٦] وجعلوا مؤداها أن مردوخاً هو الذي هزم تيامة فكافأته الآلهة بالسلطة المطلقة على جميع الكون وجعلوه ملكاً عليهم، وحصل مردوخ على لقب «بعل» الذي كان حتى ذلك الوقت للإله آنليل، أي سيد وملك الآلهة... كل الآلهة.. كل آلهة السماء والأرض.. وكلمته تخلق الخلق أو تمحوهم. وقد عممت السلطة المركزية في بابل عبادته في جميع أنحاء الامبراطورية لما في ذلك من دعم لها. والإله مردوخ هو، بعد ذلك، الذي يمنح العرش والصولجان للملوك كرب للعالم وكإله وطني. ومنحه أبوه «أيا» اسمه آلا فليسمّ «أيا» مثلي. وكانت له بالإضافة إلى ذلك كل الحكمة بدليل أن أيا قال له: «أي بنيّ! ماذا هناك لا تعرفه واستطيع أن اعلمك إياه؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت أيضاً». وهذا هو السبب الذي اعتبر من أجله، مثل أبيه، ساحر الآلهة وإله الكهنوت وخالق البشر. وكان يمثل بأذنين كبيرتين ترمزان إلى فهمه الكبير ويحمل السلاح المقدس الذي قهر به تيامة وتحت قدميه الوحش الذي أخضعه. وكانت الحربة رمزاً له على كودورو العصر الكاشي والاختام البابلية الجديدة[٧]. ومن أجله، بني ال «ايساكل» (معبد الإله مردوخ في بابل). وكان آلهة بابل وبورسيبا يأتون سنوياً في يوم عيد السنة الجديدة ليقدموا إليه ولاءهم. وفي اليومين الثامن والحادي عشر من الاحتفالات كان الآلهة يجتمعون ويحيّون مردوخ في رهبة ويركعون

(٥) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٣٧.

(٦) انظر قصة الخليقة ص ٣٠٣ ـ ٣١٠.

(٧) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٧٢.

أمامه ويمنحونه السلطات في تقدير مصائر الكون والناس للعام الجديد.

وزوجة مردوخ هي « ساربانيتو » ولها في « إيساكل » هيكل خاص. وتبدو كـ « سيدتي » في عيد رأس السنة. وهي تدعى مع زوجها للخروج في رأس السنة من قدس الأقداس، ليتقدما موكب الآلهة الذين يؤتى بهم لتقديم الولاء ولتحديد المصائر والاقدار كما تقدم.

وفي عهد الأسرة البابلية الجديدة بلغت عبادة مردوخ الذروة. فقد ظل يمثل السلطة الإلهية العليا التي تحكم العالم وتتحكم بمصير البشر وتتوج الملوك وتسير التاريخ. وهو الإله الأكبر للدولة والشعب يحتفل بعيده في رأس السنة البابلية حيث يجدد سنوياً مآسيه وانتصاره في النضال من أجل بعث الطبيعة والحياة في الكون. وقد اقيمت أو جنّدت لتمجيده المعابد وكثرت لخدمته كهنتها واملاكها المهداة من أفراد الشعب والملك على حد سواء.

وعندما سيطر الأشوريون على بلاد ما بين النهرين وأنشأوا دولتهم العسكرية وضعوا إلهم آشور في مرتبة السيادة وأصبح إله الحرب والنصر بعد أن كانت وظائفه زراعية.

كان الإله آشور مثل الإله مردوخ في أول أمره إلهاً محلياً لمدينة آشور أقدم العواصم الآشورية. وعندما أسس الآشوريون مملكة قوية سيطرت على رقعة واسعة من منطقة الشرق الأوسط، عظم شأن إلهم آشور وصار على رأس الآلهة البابلية والأشورية. وفي النص الآشوري لقصة الخليقة السومرية القديمة نجد الإله آشور قد استأثر بصفة خلق الكون والانسان ثم أصبح إله العالم بعد أن انتصر على آلهة الشعوب الأخرى المغلوبة. ولكن الصفة الحربية القاسية تغلب عليه نظراً لطبيعة بلادهم الجبلية القاسية، والطابع المميز للدولة العسكرية التي أنشأهـا الملوك الفاتحون بالقوة والعنف بالاعتماد على الجيش والارستقراطية العسكرية.

وكان يمثل دائماً مسلحاً بقوس في وسطه سهم كدليل على قوته وجبروته. وكانت زوجته عشتار الآشورية محاربة كزوجها. ويسميها آشور « ريش - إيشي » (بطلة المعارك التي لا تبقي على واحد من أعداء آشور). وآشور مثل مردوخ، يرأس مجمع الآلهة ليحدد مصائر البشر.

وكان الملوك الآشوريون يقدمون عند العودة من كل حملة « تقارير » في صورة خطابات موجهة إلى الإله آشور لابلاغه النجاح الذي تم على العدو، كما كانوا يخصصون له

جزءاً من غنائم الحرب ويقطعون الأراضي للمعابد ويقدمون لها الأموال[٨].

وأسبغ الآشوريون على آلهتهم صفات ومزايا إنسانية كما فعل من قبلهم السومريون والبابليون. فهم يتزوجون وينجبون ويعقدون الاجتماعات ويحاربون ويرضون ويغضبون. وصوروهم على شكل الإنسان وهم يحملون أسلحة وادوات مختلفة[٩]

كان عدد الآلهة المعبودة في بلاد الرافدين كبيراً جداً ،لان الأهلين كان لهم في خلقها خيال واسع لا ينضب معينه[١٠] .وقد احصي عدد الآلهة احصاء رسمياً في القرن التاسع قبل الميلاد فكانوا حوالي (٦٥,٠٠٠)[١١]. فلكل مدينة أو قرية أو حي إله أو إلهة تحميها. وبعض الآلهة كانت تعبد في جميع انحاء البلاد، وبعضها كانت آلهة محلية.

وقسم الكهنة الآلهة إلى مراتب، فوضعوا في المكانة الأولى «الآلهة العظام» الذين كانوا في السابق المعبودات المحلية لمدن سومر وأكاد. وفي الألف الثالث قبل الميلاد جمعوها في الثالوث الأعظم: أنو، وأنليل، وأيا. وقد خصوا الأول بمملكة السموات والثاني بمملكة الأرض والثالث بمملكة البحار ومياه العالم السفلي.

وإلى جانب هذا الثالوث، كان لديهم مجموعة أخرى من المعبودات معترف بها في جميع أنحاء البلاد مثل: إله الشمس ـ شماش (إله مدينة سيبار)، وإله القمر ـ سين (إله مدينة أور)، وإلهي الزراعة: دوموزي (تموز) وزوجته عشتار.

يعتبر دوموزي أشهر آلهة الزراعة ويمثل حياة الربيع والخصب ويعرف خاصة باسم تموز. واسمه البدائي لدى السومريين «دوموزي ـ زي ـ آبزو» أي ابن آبزو الحقيقي أو الإبن الحقيقي. وله معابد وتماثيل منتشرة في أماكن متعددة. وكانت تقدم له تقدمات من حيوانات وزبد وعسل وبلح وزيت ونبيذ وأسماك ودقيق إلخ.. ويحمل اسمه سادس الشهور في تقويم لاغاش والثاني عشر في تقويم اومّا. وأما إذا بدأت السنة بشهر نيسان فترتيب شهره هو الرابع[١٢].

ويبدو في قوائم الأسرات الاركية كإله للصيد. وقد ورد ذكره في اللوحة السادسة من

(٨) انظر الأدب التاريخي ص ٣٢٣ ـ ٣٢٧.
(٩) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٦٠.
(١٠) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٢١٣.
(١١) نفس المصدر والصفحة.
(١٢) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٤٣.

ملحمة جلغامش حين كان هذا يعيّر عشتار بكثرة عشاقها... « الإله تموز... حبيب شبابك... عاماً بعد عام... قدرت له الندب والبكاء »[١٣].

وفي نصوص دوموزي المتصلة بالبكاء عليه ورثائه نلتقي بما يشير إلى نزوله إلى « أرض الموت ». وتشير اسطورة « نزول عشتار إلى الجحيم » إلى أن الاحتفال بعيد شهر تموز كان يتفق وموعد الرحلة إلى العالم السفلي[١٤].

وقد حفظت لنا مجموعة ضخمة من أصل سومري لتراتيل كانت تنشد لذكرى موت دوموزي. وفي صلته بالحقول والمراعي نلتقي بلقبه « راعي » فهو « سيد سكن المراعي » هو « سيد البساتين ». ومنذ ذهابه إلى الأرض التي لا رجعة منها « تصبح الحملان والماعز وغيرها عرضة للنهب، ويسود القحط الحقول، لان نزوله يوقف الانتاج الزراعي »[١٥].

وكان دوموزي يولد من جديد في ربيع كل عام « هو يستقر صغيراً في إناء يغوص ثم ينام كبيراً في حصاد المحصول ويظل راقداً فيه »[١٦]. ففي شهر الصيف المكرس له حين يلقي الحاصد آلة حصاده ويجمع السنابل في الحزم يطعن خنزير بري تموز طعنة قاتلة فيهوي كما يهوي جميع الموتى إلى الجحيم المظلم تحت الأرض. واسمه « آراللو » عند البابليين، وكانت تحكمه « إرشكيفال » اخت عشتار التي كانت تغار منها وتحسدها. وتحزن عليه عشتار، وتكرر النساء الولولة السنوية:

إلى متى ستظل الحبة أسيرة؟
إلى متى ستظل الخضرة مقيدة بالسلاسل؟

ويبرّح الحزن بعشتار، فتتقدم للنزول إلى « آراللو » الأرض التي لا رجعة منها، لتعيد الحياة إلى تموز، وذلك بأن تغسل جروحه في مياه إحدى العيون الشافية. وسرعان ما تظهر عند باب الجحيم في جمالها الرائع وتطلب أن يؤذن لها بالدخول:

---

(١٣) يشير هذا إلى العيد السنوي الخاص بالنوح على تموز إله الخضار والنبات والربيع. وقد اعتقدوا فيه أنه ينزل إلى عالم الأموات في كل خريف ويظل هناك حيث يقوم ويرجع إلى الحياة مع بشائر الربيع. وتصف قصة بابلية نزول عشتار إلى العالم الأسفل لارجاع حبيبها تموز الذي مات بسبب حبها / باقر طه: المصدر السابق ص ٤٦٣.

(١٤) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج٦ ص ١٤٤.

(١٥) المصدر ذاته ص ١٤٤ - ١٤٥.

(١٦) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٧٤.

فلما سمعت إرشكيفال هذا
كانت كمن يقطع الطرفاء ارتجفت
وكما يقطع الانسان قصبة اضطربت
إذهب أيها الخازن، وافتح لها الباب
وعاملها بمقتضى القرار القديم.

وهذا القرار القديم يقضي بألا يدخل «آرللو» إلا العراة. وعلى هذا فإن الخازن يخلع عن عشتار ثوباً من ثيابها أو حلية من حليها عند كل باب يتحتم عليها أن تجتازه. فيخلع عنها أولاً تاجها، ثم قرطيها، ثم عقدها، ثم حلية صدرها، ثم منطقتها ذات الجواهر الكثيرة، ثم الزركشة البراقة التي في يديها وقدميها، ثم يخلع عنها آخر الأمر منطقة حقويها، وتمانع عشتار في رقة، ثم تخضع:

فلما نزلت عشتار إلى الأرض التي لا يعود منها من يدخلها
أبصرتها إرشكيفال وأغضبها مجيئها
وألقت عشتار بنفسها عليها من غير تفكير،
وفتحت إرشكيفال فاها وتحدثت
إلى نمتار رسولها
اذهب يا نمتار، واسجنها في قصري،
وسلط عليها ستين مرضاً،
مرض العيون على عينيها،
ومرض الجنب على جنبيها،
ومرض الأقدام على قدميها
ومرض الرأس على رأسها،
على جميع جسدها (١٧).

وبينا كانت عشتار حبيسة في الجحيم، شعرت الأرض بأنها فقدت ما كان يوحي به إليها وجودها على ظهرها. فلم يعد النبت يلقح النبت وذبلت الخضر، ولم تشعر الحيوانات بحرارة، وأخذ السكان يتناقصون، وارتاعت الآلهة حين رأت نقص ما ترسله الأرض من القرابين، واستولى عليها الذعر، فأمرت إرشكيفال أن يطلق سراح عشتار، وتصدع إرشكيفال بأمر الآلهة، ولكن عشتار تأبى أن تعود إلى ظهر الأرض إلا إذا سمح لها أن تأخذ

(١٧) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

معها زوجها تموز. وتجاب إلى طلبها. وتجتاز وهي ظافرة الأبواب السبعة، وتتسلم منطقة حقويها ثم الزركشة البراقة التي كانت على يديها وقدميها، ثم منطقتها ثم حلي صدرها، وعقدها وقرطيها، وتاجها. فلما ظهرت وتموز على الأرض نما النبات وأينع من جديد. إن قصة موت تموز وبعثه ترمز إلى تجدد الحياة في النبات، وهذا يعني انتصار الحياة على الموت[١٨].

وعلى الرغم من أن عبادة تموز لم يكن لها محل كبير في العبادات الرسمية، إلا أنها كانت منتشرة بين الشعب، وترجع في أصلها إلى عهد قديم في حضارة وادي الرافدين، وكانت مقرونة في أغلب الأحيان بعبادة الإلهة عشتار[١٩].

أما عشتار فهي إلهة الحب والنبات والخصب في الميتولوجيا الشعبية، وكوكب الزهرة في الميتولوجيا الرسمية. عرفها السومريون باسم «إنينا» أو «إرنينا» (سيدة السماء). وعرفها الساميون الأكاديون تحت اسم «عشتار» وهي ابنة سين وأخت شماش. ورقمها (١٥) فهي تلي شماش مباشرة. وهي الشجاعة بين الآلهة والإلهات، وهي سيدة المعارك عند غوديا وحورابي. وهي في بابل ملكة لها بابها التذكاري وشارعها ومعبدها. وخصها الآشوريون بالتقديس ولا سيما بصفتها الحربية لأنها إلهة الحرب والطعان. وكانت محاربة كزوجها آشور يسميها آشور «ريش إيشي» (بطلة المعارك تلك التي لا تبقي على واحد من أعداء آشور)[٢٠]. وذكر بعض ملوك آشور أنها سارت معهم في طليعة جيوشهم وحققت لهم النصر[٢١]. وتمثلها النقوش وهي تحمل قوساً بيد وسيفاً بيد أخرى وعلى كتفيها جعاب تحوي السهام[٢٢]. وكان الأسد حيوانها المقدس بصفتها إلهة حرب كما نعتوها «باللبوة الضارية»[٢٣]. وكانت تسمى في معظم الأحيان «بعليت» (السيدة أو الملكة) وتحتل بعد آشور أهم مكانة في مجمع الآلهة الآشورية[٢٤]. وهي ربة العشق ملكة اللذة... السيدة... خالقة البشر... مؤلفة العالم والبشرية. ولقد استطاعت أن تطغى على اختصاصات غيرها من المعبودات في سومر وأكاد وآشور، وهي زوجة وعشيقة لكبار الآلهة: آنوم وآنليل وآشور، وهي التي تحدد مصائر البشر[٢٥].

---

(١٨) المصدر ذاته ص ٢٢١.

(١٩) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٥٣.

(٢٠) ديلابورت: المصدر السابق ص ٣٨٢.

(٢١) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٥٣.

(٢٢) حاطوم، نور الدين وزملاؤه: المصدر السابق ص ٢٢٥.

(٢٣) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٥٣.

(٢٤) ديلابورت: المصدر السابق ص ٣٨٢.

(٢٥) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٣٣.

وقد صحبت الأكاديين والبابليين والآشوريين في توسعهم الامبراطوري [٢٦]

وخلاصة القول ان تموز وعشتار كانا إلهي النبات والخصب. وفي كل سنة كان يحتفل بأعياد موت تموز وبعثه. وكان يصحب هذه الاحتفالات طقوس وأسرار تصور بكاء عشتار على زوجها ونزولها إلى الأرض التي لا رجعة منها وكفاحها ضد إرشكيفال إلهة مملكة الظلام ثم عودة تموز وعشتار إلى الأرض.

وفي المشاعيات المتجاورة، كانت هذه الأعياد تشير إلى بدء الأعمال الحقلية ونهايتها. وكانت الشعائر الدرامية التي يقوم بها جميع المشاعيون تحت إشراف الكهنة إنما تهدف، حسب اعتقادهم، إلى ضمان نجاح الزرع وجني محصول جيد. وأما في المدن الكبرى، فكانت الاحتفالات الشعبية تنتهي بأبهة عظيمة وتقديم قرابين كثيرة [٢٧].

وكانت عبادة القمر والشمس في الريف العراقي القديم تتصل أيضاً بالانتاج الحيواني والزراعي: عبادة القمر للرعي والشمس للزراعة. أما في مجمع الآلهة الرسمي فكان شماش يمارس وظائف العدالة.

عرف السومريون والبابليون إلـه القمر تحت اسم سين وسموه أيضاً «ننار» أو «ننا» ومعناه «رجل السماء». وكان يقيس الزمن ورقمه الحسابي (٣٠) فهو يلي «أنكي، أيا» في ترتيب المعبودات، والرقم (٣٠) يعني تمثيل الشهر تمثيلاً كاملاً فهو بذلك «سيد الشهر». وخص إله القمر بمدينة اور منذ أقدم الأزمان، وشيد له فيها معبد شهير ولا تزال بقايا الصرح المدرج (الزقورة) باقية. واشتهر الإله القمر بالحكمة ويشترك مع إله الشمس شماش في شؤون العدالة. وكان خسوف القمر من الحوادث المهمة التي تطيّر منها البابليون. وجاء في بعض الكتابات السحرية أن خسوف القمر يحدث بهجوم سبعة شياطين أو أرواح شريرة على القمر. وكانوا يصلون للإله عند الخسوف ويقدمون القرابين حتى يظهر مضيئاً مرة أخرى بعد أن يقهر الشياطين والظلام أي الموت [٢٨].

ويمثل الإله القمر بهلال وحده أو بهلال مع صورة هيئة البشر. وخصصوا له زوجة هي «ننغال» (السيدة العظمى) وعبدت معه في معبد أور وقد ولدلها شماش (الشمس) وعشتار (الزهرة).

---

(٢٦) المصدر ذاته ص ١٣٤.
(٢٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٢٧.
(٢٨) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٥١.

انتشرت عبادة سين من أور إلى كل كلديا وإلى حاران السورية ومنها إلى فينيقية. وقدس البدو الآراميون والبدو العرب كوكب الليل الذي يحدد لهم الزمن. وليس ببعيد أن تكون كلمة سينا مشتقة من اسمه سين.

أما إله الشمس شماش فيلي القمر في المنزلة، وقيمته العددية (٢٠). وقد ولدت الشمس من القمر بحسب العقائد البابلية. عرفه السومريون تحت اسم «أوتو» ومعناه (الضوء والنور واليوم) ودعوه كذلك «يبار» أي النيّر وسماه الساميون باسم الشمس أي «شماش»[٢٩].

عُبِد شماش بوجه خاص في مدينتي لارسا (سنكره) وسيبار (أبو حبة). وقدسه الأشوريون وشيدوا له بعض المعابد، وعُبِدت معه زوجته «العزيزة» (آي)[٣٠] وأفضل أسمائها هو «العروس» فهي عروس شماش[٣١].

وكان شماش فوق كل شيء القاضي الأعظم وسيد الكهانة والعرافة... وكان له طفلان هما «كِتّو» و «ميشار» أي العدالة والحق. وخلال الاسبوع المكرس لمعبد لاغاش نرى غوديا يشير إلى أن الشمس «تضيء على العدالة والإله أوتو يطأ بقدميه الظلم»[٣٢]. ولقد أملى شخصياً قوانين العدالة على أورانجور وحمورابي[٣٣]. وكثيراً ما كان يمثل برمز قرص ذي أربعة خطوط تنبعث منها حزم الأشعة ومثلوه أيضاً بهيئة آدمية كما صُوِّر في أعلى مسلة حمورابي على هيئة ملك جالس على عرشه وفي يمناه عصاً وحلقة (رمزا الملكية) وتاجه مزين بأربعة أزواج من القرون وتنبعث من كتفيه حزم الأشعة وله لحية تتدلى على صدره[٣٤] وينعت بأنه مضيء البلاد.. هو ضوء العالم.. ضوء الأعالي والأعماق. وهو الذي يولّد النهار من الليل ويجلو الدجى ويهب الحياة ويحيي الموتى[٣٥] ولأنه ينير بضوئه الظلمات فهو إله العدل والحق والشرائع[٣٦]

وإذا ما عرفنا أن الإلهة عشتار هي كوكب الزهرة (فينوس) في الميتولوجيا الرسمية، فإن

---

(٢٩) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٥١.

(٣٠) المصدر ذاته ص ٢٥٢.

(٣١) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٢٩.

(٣٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣٣) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٧٠.

(٣٤) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٣٥) المصدر ذاته.

(٣٦) المصدر ذاته.

الكهنة أنشأوا بهذا الشكل المجموعة الأولى من الآلهة الفلكية: سين، وشماش، وعشتار [٣٧].

وإلى هذه الأجرام وغيرها، كانت تنسب الأحداث السعيدة أو السيئة التي تحصل بالبلاد: مثل الحملات الحربية والغزوات ومرض الأمير أو موته والقحط والفيضان الخ [٣٨]. وقد أضيفت إليها الظواهر الجوية كالزوابع والامطار والبروق والزلازل كظواهر للإله «أدد» سيد العاصفة [٣٩].

ولم تكن الديانة في بلاد الرافدين محدودة في إطار عبادة «الآلهة العظام» والمعبودات الزراعية فحسب، فقد عبد الشعب ومُلّاك العبيد أرواحاً كثيرة: أرواحاً خيرة وأرواحاً شريرة، اعتقدوا أنها تحكم ظواهر الطبيعة، وتبعث الأمراض والموت، وتساعد الناس في عملهم وفي حياتهم. وبين هذه الأرواح، نشير إلى أرواح الانهار والقنوات، حيث كانت عبادتها تمارس على حد سواء في المشاعيات وفي الديانة الرسمية. وهناك الأرواح المستأنسة حارسات المحرق، وأرواح الموتى التي فارقت أجسادها بعد الموت وخرجت من عالم الأرواح فصارت نوعاً من الشياطين يؤذي البشر. ومن أسباب ظهورها عدم دفن الميت أو دفنه على غير السُنَّة المتَّبَعَة أو عدم تقديم القرابين له أو نبش قبره وإخراج جثته فتخرج الأرواح على هيئة أشباح تحدث بالاحياء الأذى والضرر.

وأخيراً كان كل المجتمع في بلاد ما بين النهرين يعلق أهمية كبيرة على السحر الذي ارتبط بالدين منذ أقدم الأزمان. وكان السحرة يلتمسون في تعاويذهم «أيا» ثم «مردوخ» فيما بعد، وكانت التعاويذ تتلى خاصة لطرد الأرواح الشريرة [٤٠].

وكان في كل مدينة معبود لمعبودها، وأما المدن الكبرى فكان في كل منها أكثر من معبد بالإضافة إلى الزقورة. ويخصص المعبد لمعبود المدينة الرسمي. وقد تضاف حجرات توضع بها تماثيل لمعبودات أخرى أقل أهمية بالنسبة إلى المعبود الرئيسي.

وكانت المعابد غنية تمتلك الأراضي الواسعة التي لا يجوز بيعها أو رهنها أو اغتصابها وإنما يمكن تأجير قسم منها لصالح المعبد، والقسم الآخر يستثمر مباشرة من قبل المشرفين

(٣٧) جماعة من المؤرخين السوفيات: المصدر السابق ص ١٢٧.

(٣٨) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٨٩.

(٣٩) المصدر ذاته.

(٤٠) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ص ١٧٠.

على المعبد لتأمين حاجات ساكنيه (٤١).

وازدادت ثروة المعابد جيلاً بعد جيل كما اقتسم الأثرياء المذنبون أرباحهم مع الآلهة (٤٢). ووقف الملوك على المعابد مساحات واسعة من الأرض، وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد، وخصوها بقسط من إيراد الدولة يؤدونه اليها في كل عام (٤٣). وكان يفرض على بعض الأراضي أن تؤدي للمعابد ضريبة سنوية من التمر والحب والفاكهة، فإذا لم تؤدها نزعت المعابد ملكيتها، وانتقلت هذه الملكية إليها في أغلب الأحوال (٤٤). وكان الأغنياء والفقراء على السواء يخصصون للمعابد من مكاسبهم الدنيوية القدر الذي يظنون أنه يتفق ومصلحتهم الخاصة، وبذلك تكدس في خزائن المعابد الذهب، والفضة، والنحاس، واللازورد، والجواهر، والاخشاب الثمينة (٤٥).

وإذا لم يكن في مقدور الكهنة أن يستخدموا هذه الثروة كلها أو يستنفدوها فقد حولوها إلى رأسمال منتج أو مثمر وأصبحوا بذلك أعظم القوّامين على الشؤون الزراعية والصناعية والمالية. ولم يكن الكهنة يملكون مساحات واسعة من الأراضي فحسب، بل كانوا يملكون فوق ذلك عدداً عظيماً من العبيد ويسيطرون على مئات من العمال، يؤجرونهم لغيرهم من أصحاب الأعمال أو يسخرونهم لخدمة المعابد بالعمل في حرف لا حصر لها، تختلف ما بين عزف على الآلات الموسيقية إلى عصر الخمور (٤٦).

كذلك كان الكهنة أعظم تجار بابل ورجال المال فيها، وكانوا يبيعون ما في حوانيت المعابد من سلع مختلفة ويساهمون بقسط موفور في تجارة البلاد. ولم يتورعوا من ممارسة الربا والتفنن في أساليب ابتزاز أموال الناس. وكانوا إلى هذا كله يؤدون بعض الأعمال العامة، فكانوا يعملون في توثيق العقود، ويشهدون عليها، ويوقعونها بأسمائهم، ويكتبون الوصايا، ويستمعون إلى القضايا والمحاكمات (٤٧).

وقد ساهمت المعابد أحياناً في دفع فديات الأسرى الذين لا يملكون الفدية اللازمة

(٤١) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٣٧.
(٤٢) ديورانت: قصة الحضارة ج ٢ ص ٢١١.
(٤٣) المصدر ذاته ص ٢١٢.
(٤٤) المصدر ذاته.
(٤٥) المصدر ذاته.
(٤٦) المصدر ذاته.
(٤٧) المصدر ذاته ص ٢١٣.

لإسترداد حريتهم، أو قدمت مساعدات للناس في سني القحط والمجاعات والمصائب الكبرى [٤٨].

وكان الملك يعتبر الكاهن الأكبر أو رئيس الكهنة في البلاد، وهو نائب الإله على الأرض. وكان كبار كهنة المعابد الهامة شخصيات لها قدرها فكان يتطلع إلى شغل مراكزهم أبناء الامراء. وكان رجال الكهنوت ينقسمون حسب مراتبهم ودرجاتهم إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ **السحرة**: ومهمتهم استعطاف الآلهة وطرد الأرواح الشريرة وشفاء المرض عن طريق الرقى والسحر. وكان السحرة يلتمسون في تعاويذهم «أيا»، ثم «مردوخ» فيما بعد [٤٩]. والأمراض عادة ليست في اعتقادهم بسبب عضوي بل هي من فعل أرواح خبيثة يجب القضاء عليها عن طريق تلاوة التعاويذ [٥٠]. وكان الساحر يستخدم إلى جانب التعاويذ أدوات أخرى معنوية يستعين بها على الاشفاء، منها تقديم الصلوات للمعبودات وسكب السكائب وتقديم التضحيات، أو أدوات مادية كدمية تكسر أو تحرق فيكسر أو يحرق نظيرها مما يراد عمل السحر ضده، أو يحرق [٥١].

٢ ـ **المنجمون والعرافون**: ومهمتهم التنبؤ بالمستقبل وقراءة البخت بواسطة مراقبة النجوم والظواهر الطبيعية، أو النظر في أكباد الحيوانات (يعتبر كبد الحيوان في اعتقادهم مقر الحياة فهو يسمح للمرء أن يرى فيه نوايا الإله الذي تقبل الحيوان المضحى كتقدمة)، أو دراسة انتشار نقطة من الزيت على سطح الماء [٥٢].

وكانت معرفة الغيب أمراً مهماً لا في حياة الأفراد فقط بل في الأمور العامة كذلك، فلم يكن الملك يقبل على أمر مهمّ دون استخارة المعبود [٥٣]. وكانت مهام المنجم وراثية ويجب ألاّ يكون فيه عيب جسماني [٥٤].

---

(٤٨) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٤٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٠.

(٥٠) المصدر ذاته.

(٥١) المصدر ذاته ص ١٧١.

(٥٢) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٥٣) المصدر ذاته ص ١٨٤.

(٥٤) المصدر ذاته ص ١٨٥.

٣ - المغنون او المرتّلون: الذين ينشدون التراتيل الدينية. ويعرف الكاهن الذي يناط به أن يخفف الغضب عن قلوب الآلهة الغضبى بغنائه باسم « كالو » ويدعى كبير كهنة الكالو باسم « كلاماه »[٥٥]. وكان يصحب الغناء والترتيل الضرب على الطبول والأدوات النحاسية. وكان من اختصاصات كهنة الكالو ممارسة طقوس التضحية عقب اعلان الفأل[٥٦]. وهناك كاهنات من النساء ساحرات وعرافات ومغنيات وعازفات في جوقة المعبد الموسيقية.

والكاهنات في المعبد على درجات مختلفة أيضا: « كالناديتو » و« الزيكروم » و« القادشتو »(العاهرات المقدسات) وتعرف الواحدة منهن في العهد الآشوري باسم « قادلتو » و « العشتاريتو » (بنات الهوى) و « شركاتو » المنذورات[٥٧].

وكان للكاهنة مكانها الملحوظ في المعبد وملحقاته. وقد حددت القوانين أوضاعهن وحقوقهن.

وكان الكهنة يتمتعون بنفوذ واسع في المجتمع، إذ أنهم كانوا يملكون السلاح الماضي، سلاح العرافة في الحياة الدينية. والموارد المدرارة للمعابد كانت تتضخم بصورة دائمة بواسطة العمليات الربوية.

وكانت الضحايا والقرابين تقدم على شرف الآلهة وخاصة في أيام الأعياد. وتوضع ضحايا المؤمنين عادة على مذبح القرابين، فيأكل الكهنة وخدام المعبد القسم الأكبر من اللحم أو الخبز أو غيره من المنتوجات المقدمة للآلهة. أما الضحايا البشرية فاعتباراً من الألف الثالث قبل الميلاد حل محلها ذبح الخراف[٥٨].

وكانت القرابين المنتظمة العامة تختلف بالضرورة تبعاً للموارد التي كانت تحت تصرف كل معبد وحسب مكانة المعبود أو المعبودة. وكانت الصحاف الرئيسة تقتضي وجود (٢١) خروفاً عمر الواحد منها سنتان، وأربع نعاج أطعمت باللبن و (٢٥) نعجة من المرتبة الثانية، وثورين وعجل رضيع و (٨) حملان و (٦٠) طيراً من نوعين مختلفين و (٣) دجاجات و (٧) بطات و (٤) خنازير من المستنقعات و (٣) بيضات لورمو و (٣) بيضات من بيض البط. وكانت وجبات الصباح هي الأكثر أهمية فكان لإفطار الصباح (١٨) نعجة وثور واحد

(٥٥) المصدر ذاته ص ١٨٢.

(٥٦) ابراهيم، نجيب ميخائيل: المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٣.

(٦٧) المصدر ذاته ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٥٨) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٣٧.

وعجل رضيع. وللغداء (٦) نعاج والثور الآخر والحملان ومعظم الدواجن والبيض. وأما وجبة العشاء فعشر من النعاج ومثلها من الطيور [٥٩].

وقد ورد في نص محفور في الصخر في وادي باريشا بلبنان يرجع تاريخه إلى عهد البابلية الجديدة ما يلي: يقول نبوخذ نصر: «لقد أمرت بأن يحضر كل يوم على مائدة مردوخ والساربانيتو حيوانان سمينان، ثور كبير ملىء الجوانب كامل الأعضاء ذو جسم نقي لإقامة الطقوس الدينية، أربع وعشرون نعجة سمينة، حيوانات نقية للتضحية تكريماً لآلهة بابل، أربعة ديوك، عشر حمامات، ثلاثة رؤوس من الثوم، كمية من سمك المياه العذبة، كميات كبيرة من الخضر، محاصيل الحقول، فواكه تلمع كالذهب من أجود ما في البساتين (الحدائق)، بلح وصبار من دلمون، تين أبيض، عسل مصفى بيرة خفيفة، زبدة وقشدة وحليب، أصفى أنواع الزيوت، دقيق أسمر ذهبي، عصير السمسم، نبيذ مشع، كل ذلك أمرت بإحضاره كل يوم على مائدة مردوخ والساربانيتو أكثر من أي وقت مضى [٦٠].

القصائد الدينية: تتشابه العقائد والتصورات الدينية لدى السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين مع بعض الفروق البسيطة. فقد عزا قدماء العراقيين خلق الكون والانسان وجميع الإنجازات التي حققوها في صراعهم مع الطبيعة إلى الارادة الإلهية. أما دور البشر فكان فقط تنفيذ ما يخطط في السماء من قبل [٦١].

وكان الموت عندهم من طبيعة الإنسان وتركيبه أي أنه خلق ومعه حياته وموته. وتشير بعض النصوص في ملحمة جلغامش أنه حين سعى جلغامش للخلود واستّهُ صاحبة الحانة المقدسة ونصحت له أن يكف عن طلب الخلود لان «الآلهة عندما خلقت البشر قدرت عليهم الموت واستأثرت هي بالحياة» [٦٢].

فالموت في تصورهم لا يعني الفناء وإنما يعني انفصال الجسد عن الروح. ومقر الجسد القبر حيث يوسد هناك ويرقد رقدته الأخيرة. أما الروح فتنتقل إلى عالم الأرواح وهو العالم السفلي تخلد فيه حيث لا قيامة عندهم ولا رجعة [٦٣]. ومع هذا الانفصال بين الجسد والروح

---

(٥٩) ديلابورت: المصدر السابق ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٦٠) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٧٤.

(٦١) انظر قصة الخليقة ص ٣٠٥ - ٣١٠.

(٦٢) انظر ملحمة جلغامش ص ٣١٠ - ٣٢٠.

(٦٣) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٣٣.

تبقى الصلة بين الاثنين بعد الموت. فمثلاً تتوقف راحة الروح في عالم الأرواح على العناية التي يبذلها الأحياء في دفن الجسم وفق الطرق والسنن الدينية وعلى ما يودع في القبر من زاد وأثاث وعلى ما يقرب إلى الميت بمناسبات مختلفة (٦٤). ويمكن تفسير طرق الدفن وما نجده في قبورهم من الأثاث الجنازي منذ أقدم العهود بأنهم اعتقدوا برجوع الروح إلى الجسد وهو في القبر (٦٥). وإذا أهمل الأحياء العناية بدفن الميت وفق السنن الدينية أو لم يدفن أو نُبش قبره فإن روحه لا تستقر في عالم الأموات وإنما تخرج بهيئة شبح يحدث بالأحياء الأذى والضرر (٦٦).

وقد تصوروا موطن الأرواح الذي تذهب إليه بعد الموت أنه يقع في العالم السفلي تحت الأرض مباشرة، وهو عالم مخيف بهيئة مدينة ذات سبعة أسوار يحرسها حشد من المردة والشياطين. هو «الأرض التي لا رجعة منها» تجلس على عرشها وتحكمها إلهة شريرة قاسية هي إرشكيفال، يساعدها في حكمها الأموات مجموعة من الآلهة والشياطين والكتاب لتسجيل الموتى. ويتساوى الموتى في العالم. ولا قيامة أو رجعة منه. أي أنهم لم يعتقدوا بعالم آخر للثواب والعقاب أي لا جنة ولا نار عندهم (٦٧). وتشير مآثرهم إلى أنهم اعتقدوا بنوع من الحساب عندما تدخل الأرواح في عالم الأموات (٦٨). فإذا كان الأمر كذلك فالحياة الدنيا في اعتقادهم هي موطن الراحة والمتاعب، فالصالح تكافئه الآلهة بالحياة الطويلة السعيدة، والطالح تعاقبه بحياة سيئة ومعيشة ضنكة. وهكذا ينال كل واحد ما يستحقه في الحياة الدنيا.

العبادات والشعائر الدينية: الشعائر الدينية كثيرة ومتنوعة منها الصلوات والقرابين والأعياد الدينية ومنها ما يتخذ لمعرفة طالع الانسان والوقوف على المستقبل عن طريق العرافة والكهانة، ومنها ما يتخذ لطرد الشياطين عن جسم الانسان وشفاء المرضى بواسطة السحر.

ومن العبادات العامة الأعياد والمهرجانات الدينية التي كانت تقام في المدن المختلفة كالأعياد السنوية التي يحتفل بها في رأس كل سنة لتمجيد إله المدينة. وقد اشتهر بخاصة في بابل عيدها السنوي. ويصادف زمنه في الربيع بين آذار ونيسان ويستغرق نحو اثني عشر

---

(٦٤) نفس المصدر والصفحة.

(٦٥) المصدر ذاته.

(٦٦) المصدر ذاته.

(٦٧) المصدر ذاته ص ٢٣٤.

(٦٨) انظر اسطورة نزول عشتار إلى الجحيم ص ٣٧٩ - ٣٨٥.

يوماً. وكانت تجري فيه أنواع العبادات والطقوس الدينية من قبل كهنة بابل. وكان الآلهة يقومون بالأدوار الدينية فيه. ويعد اشتراك الملك في إحياء العيد أمراً أساسياً. ويعكس الاحتفال بالعيد أصل كثير من الرسوم الدينية المتعلقة بالزراعة وتبدل المواسم الخاصة بها. ويرمز بوجه عام إلى الصراع بين قوى الطبيعة ثم انتصار العناصر الخالقة المولدة التي تمثلها ظهور حياة النبات والخضرة في بداية الربيع، وكذلك انتصار الآلهة التي نظمت الكون على آلهة التدمير والتخريب فيه.

يسمي السومريون العيد باسم «زكموك Zagmuk» أي (رأس السنة) وسماه البابليون باسم «أكيتو» أي (عيد رأس السنة) وكذا كان اسمه لدى الآشوريين.

وما دام الأمر يتصل بإحياء الطبيعة فإن دور موت «تموز» وبعثه من أهم الأدوار إلى جانب الاحتفال بإحياء انتصار مردوخ على تيامة، وخلق الكون والإنسان وغير ذلك من العبادات العامة والطقوس الدينية الرسمية والشعبية.

وبالنظر لأهمية هذه الرسوم في عقائد العراقيين القدماء نذكر بشيء من التفصيل بعض طقوسه الهامة. ففي الأيام الأربعة الأولى من العيد، تجري التطهيرات الدينية في معبد مردوخ «إيساكلا» في كل صباح قبل شروق الشمس حيث يدخل الكاهن الأعلى بعد التطهير فيصلي لمردوخ وللآلهة الأخرى، وبعد ذلك يقوم الكهنة الآخرون بالأعمال الطقسية المقررة. وفي مساء اليوم الرابع تتلى اسطورة الخليقة «حينما في العلى» في المعبد، لان رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق جديد. وفي اليوم الخامس من نيسان وهو يوم توبة الملك أو الكفارة عنه يقوم الملك بالدور الرئيس من الطقوس. ففي الصباح يصلي الكاهن الأعلى لمردوخ ابتغاء مرضاته، ثم يطهر المعبد وتقدم القرابين وتقرأ التعاويذ، ويقوم النجارون التابعون لمعبد «نبو» في بورسيبا بصنع منضدة للقرابين ومظلة من الذهب يقدمها ابن مردوخ هدية لأبيه. وبينما هم يجرون هذه الاستعدادات يدخل الملك إلى مزار مردوخ ومعه الكهنة. وحين يصل إلى ساحة المعبد يتركه الكهنة فيظهر الكاهن الأعلى من حجرة «قدس الأقداس» وفيها تمثال الإله مردوخ فيأخذ من الملك شارات الملك (الصولجان والحلقة والقامة والتاج) ويضعها على منضدة إزاء تمثال الإله ثم يعود إلى الملك فيلطمه على وجهه ويجعله يسجد أمام الإله معترفاً بعدم ذنبه أو اهماله ثم يعيد الكاهن الأعلى شارات الملوكية إلى الملك بعد أن يلطمه مرة أخرى، ويستحسن أن تكون لطمة شديدة بحيث إذا دمعت عينا الملك فتلك علامة فأل حسن على السنة الجديدة. وحين يكون الملك قرب تمثال الإله يكون الناس في الخارج في هلع وخوف يبكون الإله الذي يعتقدون

أنه أسر في العالم السفلي (عالم الأموات). وتهيج المدينة باحثة عن معبودها مردوخ الذي هو كـ «تموز» يمثل إحياء الطبيعة. وفي اليوم السادس يقصد مدينة بابل مجاميع الآلهة تتقدم في قارب في نهر الفرات ومن بينهم «نبو» إله مدينة بورسيبا وابن مردوخ الذي يأخذ بثأر أبيه ويعيده من الأسر. وفي اليوم السابع يصل «نبو» إلى هدفه من تحرير مردوخ بمساعدة الآلهة الآخرين. وفي اليوم الثامن تجتمع الآلهة وتمنح مردوخ السلطان فيشرع في ممارسة اختصاصاته في تحديد مصائر الناس للعام الجديد. وفي اليوم التاسع يسير موكب مهيب يمثل انتصار مردوخ على تيامة متجهاً إلى معبد رأس السنة (بيت أكيتو) وعلى رأسه الملك. وفي اليوم العاشر يحتفل الإله مردوخ بانتصاره مع الآلهة الأخرى في وليمة تقام في معبد رأس السنة ثم يعود إلى بابل «للدخول بعروسه في تلك الليلة» حيث تنطلق القوى المولـدة في الطبيعة والحياة وهو ما يعني ضمان خصب الأرض. وفي اليوم الحادي عـشر تقرر الآلهة مرة أخرى مصائر الناس. وفي اليوم الثاني عشر، اليوم الأخير من العيد، ينتهي الاحتفال ويعود الآلهة كل إلى موضعه ومعبده الخاص[٦٩].

---

(٦٩) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. الجزء الأول تاريخ العراق القديم. شركة التجارة والطباعة بغداد ١٩٥٦. ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

الفصل السادس والثلاثون

القوانين والشرائع

القانون هو تحويل ارادة الطبقة المسيطرة إلى تشريع. وتحدد محتوى هذه الإرادة ظروف الحياة المادية للمجتمع الطبقي.

والقانون لا شيء بحد ذاته بدون جهاز يمكن أن يكره الناس على مراعاة قواعده وحدوده. ولم يكن الناس في ظل النظام البدائي يعرفون ما هو القانون. وكانت الأخلاق والعادات تنظم العلاقات الاجتماعية.

ونتيجة لانحلال النظام البدائي وظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمع إلى فقراء وأغنياء، إلى عبيد وملاك عبيد، وضعت الطبقة المسيطرة بدلاً من العادات والأعراف القديمة قواعد تعبر عن إرادتها فقط وليس عن مصالح المجتمع كله. وقد فرضت الدولة على الجماهير العاملة جميع الالتزامات المرهقة ووضعت للمستغلين الحقوق والامتيازات.

وهكذا كان الهدف الأول والرئيسي من وضع القوانين والشرائع في بلاد ما بين النهرين (قانون أورنمو وقانون بلالاما وقانون ليبيت عشتار وشريعة حمورابي والقوانين الآشورية الخ..) حماية حياة وأموال قمة المجتمع العبودي,وتعزيز سلطتهم على جماهير الكادحين من العبيد والفلاحين المعدمين والحرفيين الفقراء.

وقد لعب الدين دوراً هاماً ليس في بلاد الرافدين فحسب بل وفي جميع بلدان الشرق القديم. وفي سبيل تخليد الدولة العبودية وتقديسها وحمل الجميع أن يخضعوا لقوانينها، انتحل الملوك والأمراء الصفة الإلهية وزعموا أن القوانين والشرائع التي وضعوها مستمدة من الآلهة لان الملك يمثل الإله في الأرض فأحكامه موحى بها من الآلهة. وهذا يعني أن

انتهاكها وعدم الخضوع لها هو عصيان لأوامر الآلهة وأحكامها وتمرد على سلطتها.

والقوانين في العراق هي أقدم شرائع مدونة في تاريخ الحضارات البشرية. وهي كقوانين مدونة خطوة متقدمة بالنسبة إلى العادات والأعراف القبلية، وكان لها تأثير واضح في العديد من شرائع البلدان المجاورة. وباعتبار أنها وضعت لتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية فهي أحد مصادرنا الأساسية لتاريخ العراق القديم.

وتدل الاكتشافات الأثرية الحديثة على وجود مجموعات قانونية متعددة وضعت في مختلف عهود العصر التاريخي للعراق القديم. فهناك القوانين السومرية وقانون حمورابي والقوانين الآشورية بالإضافة إلى مئات الألوف من العقود والمستندات القانونية والتجارية والإدارية مما يشكل مع القوانين المدونة أحد المصادر الهامة لدراسة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر السلطة المدنية والعسكرية والدينية والنظام القضائي والعقوبات وغير ذلك من امور الحياة في كل من سومر وأكاد وبابل وآشور.

وتتشابه القوانين والشرائع في العراق القديم من حيث أسلوب تبويبها الى مقدمة ثم مواد الأحكام (النص) والخاتمة.

وإليكم أهم القوانين والشرائع الوضعية في العراق القديم.

قانون أورنمو: اكتشف المنقبون حديثاً بين رقم الطين التي وجدت في نفر (نيبور) شريعة جديدة ثبت أنها تعود إلى الملك أورنمو مؤسس أسرة أور الثالثة حوالي عام ٢٠٥٠ قبل الميلاد[1]. ومن المؤسف أن ما عثر عليه من الشريعة ناقص لم يبق منه سوى المقدمة وبضع مواد قانونية كثيرة الشبه بشريعة لبيت عشتار وشريعة أشنونا من حيث الأخذ بمبدأ الدية والتعويض بدلاً من القصاص كما في شريعة حمورابي.

وجاء في مقدمة قانون أورنمو: «إن تقرير مصير سومر بيد الآلهة التي اختارت أورنمو ليحكم البلاد نيابة عنها (لاحظ أثر الدين: إضفاء صفة القداسة على السلطة الملكية). ثم يعدد الملك أعماله من توطيد الحالة السياسية في المملكة وتغلبه على بعض المدن ولا سيما لاغاش واصلاحاته الداخلية وإزالة المظالم ونشر العدل[2].

---

(١) باقر، طه: المصدر السابق ص ٢٨٧.

(٢) المصدر ذاته ص ٢٨٨. كثيراً ما تتكرر مثل هذه العبارات الطنانة: إزالة المظالم ونشر العدل وإسعاد الناس في مقدمة القوانين والشرائع في بلاد ما بين النهرين وخاتمتها. وهي شكل من =

وقد سبق قانون أورنمو حورابي بنحو ثلاثة قرون، وشريعة أشنونا بنحو قرن، وشريعة لبيت عشتار بحوالي قرن ونصف من الزمان.

قانون أشنونا: عثر عليه أثناء تنقيبات مديرية الآثار العراقية في « تل حرمل » بالقرب من بغداد. ويرجح أن هذه الشريعة ل« بلالاما » أحد ملوك أشنونا[3]. وقد سبق قانون أشنونا شريعة حورابي بنحو قرنين من الزمان وشريعة لبيت عشتار ملك إيسن بحوالي نصف قرن، فهو أقدم شريعة كبيرة معروفة في تاريخ الحضارات البشرية بعد قانون أورنمو.

وقد أصدر بلالاما هذا القانون لتنظيم شؤون المملكة عندما استقلت زمناً طويلاً بعد سقوط سلالة أور الثالثة[4]. وهو بوضعه الراهن يتألف من مقدمة قصيرة كتابتها غير واضحة، يليها مواد الأحكام (٦١ مادة) تعالج تحديد الأسعار والأجور (المواد ١ ـ ١١) ثم يذكر القانون الأحكام المختلفة مما يتعلق بالسرقات والاعتداءات والأضرار الواقعة على الأعضاء وديات الأعضاء والاضرار المسببة عن سقوط جدار متداع وجنايات الحيوانات والديون والبيع والشراء ومواد مختلفة في الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وزنا وعقوبات[5]. وحول حماية حياة وأموال الأغنياء جاء في المادة (١٣) من القانون: « من يقبض عليه في بيت موشكينو (عضو في هيئة أشنونا تتصل اتصالاً وثيقاً بالقصر أو المعبد) خلال النهار يدفع عشرة شواقل ومن يمسك به ليلاً هناك يقتل ولا يخرج حياً. وورد في المادة (١٢) من القانون: « من يقبض عليه في حقل موشكينوم أثناء المحصول خلال النهار يدفع عشرة شواقل من الفضة غرامة. ومن يمسك به ليلاً هناك يقتل ولا يخرج حياً.

وعن وضع العبيد الاجتماعي والحقوقي خصص القانون جملة من المواد منها: « لا يجوز للتاجر أو بائعة الخمر أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوباً أو زيتاً كرأس مال للمتاجرة (المادة ١٥). والسبب في ذلك أن العبيد بحكم القانون لا يستطيعون أن يملكوا شيئاً لأنهم

= أشكال الديماغوجية كان يقصد منها امتصاص نقمة الجماهير العاملة وتضليلها وتمويه الطابع الطبقي الاستغلالي للدولة العبودية وقوانينها وإخفاؤه إذ يستحيل إزالة المظالم وتحقيق العدالة الاجتماعية وإسعاد الناس في مجتمع طبقي تتملك فئة قليلة منه وسائل الانتاج الأساسية ويسمح فيه باستغلال الانسان للإنسان.

(٣) باقر، طه المصدر السابق ص ٢٨٨.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) المصدر ذاته ص ٢٨٩.

هم أنفسهم وما يملكون ملكٌ لأسيادهم. وإذا اشترى رجل عبداً أو أمة أو ثوراً أو بضاعة ثمينة ولكن لا يستطيع أن يبين قانوناً من البائع فهو لص (المادة ٤٠ من القانون). وإذا قبض حاكم أو ملاحظ نهر أو أي موظف آخر مهما يكن على عبد مفقود أو حمار مفقود يخص القصر أو موشكينوم ولا يسلمه إلى « أشنونا » بل يحتفظ به في بيته حتى ولو لم تمض سوى سبعة أيام فإن القصر يحاكمه كسارق (المادة ٥٠ من القانون). والعبد أو الجارية في أشنونا الذي عليه علامة لا يغادر بوابة أشنونا بدون إذن صاحبه (المادة ٥١ من القانون). العبد أو الجارية ممن يدخلون بوابة أشنونا في موكب سفارة أجنبية توضع عليهم علامة(٦). ولكن يظلون في موكب مولاهم (المادة ٥٢ من القانون).

وقد دُوِّنَ هذا القانون على لوحين من الطين باللغة البابلية(٧).

قانون ليپيت عشتار: عثر عليه حديثاً في نفر ـ وضعه ليپيت عشتار الملك الخامس من سلالة إيسن الذي حكم في بداية العهد البابلي القديم(٨).

وقد دوّن ليپيت عشتار قانونه باللغة السومرية. وهو بوضعه الراهن يتألف من مقدمة و(٣٨ مادة من أصل نيف ومائة) وخاتمة. وجاء في مقدمة القانون: « ان الآلهة اختارت ليپيت عشتار ليحكم البلاد نيابة عنها وليقر العدل وليحرر أبناء وبنات نيپور واور وإيسن وسومر من العبودية التي كانت قد فرضت عليهم.

وورد في خاتمة القانون أن ليپيت عشتار بالاتفاق مع كلمة الحق لـ « أوتو » أحل العدل والحق وأقر الخير لسومر وأكاد وأرسى أسس الثروة فيها. وأما من يرتكب شراً قبلي ومن يشوه صنع يدي ومن يدخل المخزن ويغير في القاعدة ويمحو النقوش ويكتب اسمه عليها.. ألا فليقوّض « أوتو » قاضي السماء والأرض من أساسه.

بعد وضع القوانين الآنفة الذكر، حدثت في بلاد ما بين النهرين متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية. فقد وَحَّدَ حمورابي العراق وأنشأ امبراطورية مترامية الأطراف، وتوسعت الملكية الخاصة وازدهرت الزراعة والتجارة والحرفة، وازداد التمايز الاجتماعي والفروق في الثروة بين الأفراد، ونما الرق وازداد عدد العبيد. وبمعنى آخر فإن القوانين

(٦) باقر، طه: سومر: المجلد الرابع. الجزء الثاني ـ بغداد (١٩٤٨ ص ١٧٢).

(٧) المصدر ذاته ص ٢٨٨. انظرّ طه باقر: سومر: المجلد الرابع ج ٢٢ ص ١٥٨ ـ ١٥٩. قانون مملكة أشنونا.

(٨) المصدر ذاته ص ٢٩٠.

السومرية وقانون ليپيت عشتار لم تعد تتلاءم والشروط الاقتصادية والاجتماعية المستجدة في الامبراطورية البابلية. ومن جهة أخرى فإن هذه القوانين كانت قد دُوِّنت باللغة السومريـة التي لا يفهمها سكان البلاد. ولهذه الأسباب أقدم حمورابي على وضع قانون جديد يأخذ بعين الاعتبار التطورات والمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المستجدة.

شريعة حمورابي(*): اكتشف قانون حمورابي عالم الأثار الفـرنسي دومـورغـان عـام ١٩٠١ - ١٩٠٢ في خرائب مدينة سوزا عاصمة دولة عيلام. وهو اليوم محفوظ في متحف اللوڤر بباريس. وقد دو ت شريعة حمورابي باللغة البابلية والخط المسماري على حجر من الديوريت على شكل أعمدة يبلغ عددها (٥١) عموداً، محيت منه خمسة أعمدة تحتوي على (٣٣) مادة (من المادة ٦٦ - ٩٩). ولكن هذه الفجوة تعوضها بعض الأجزاء من نسخ قديمة محفورة في لوحات الطين وهي من الآثار الآشورية للعصر السارغوني أو تسد فراغهـا بعض المواد المتصلة بالقرض ذي الفائدة وعقود التوكيلات التي عثر عليها في خرائب نيپور[٩].

يبلغ ارتفاع النصب ٢,٢٥ م ومحيطه عند القاعدة ١,٩ متـر. وفي أعلاه نقش بارز يمثل حمورابي واقفاً أمام شماش، إله الشمس والحقيقة والعدالة الجالس على عرشه وبيده اليمنى القضيب والخاتم شعارا السلطة القضائية العليا، يتسلم منه الشرائع المقدسة.

لقد جمع حمورابي القوانين والأعراف السومرية - الاكادية وطورها بما يتلاءم والمتغيرات الاقتصادية - الاجتماعية والسياسية المستجدة في عصره، واصدرها في مجموعة قانونية شاملة تحتوي على (٢٨٢) مادة بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة.

وجاء في المقدمة: أنـا حمورابي الملـك الذي اختـارتني الآلهة نيـابـة عنهـا لحكـم البشر واسعادهم ونشر العدل بين الناس والقضاء على الشر والسوء حتى لا يطغى القوي على الضعيف. أنا حمورابي ملك الملوك... ثم يعدد الأقاليم والمدن التي فتحها وطرفاً من أعماله كالرخاء الذي أحلّه بالبلاد وتجديده المعابـد الرئيسة في المملكة.

(*) حمورابي (١٧٢٨ -١٦٨٦ ق.م): سادس ملوك الأسرة البابليةالقديمة (الأمورية). حكم حوالي (٤٣) سنة. ويشير العام الثاني من حكمه إلى أنه العام الذي أصدر فيه قانونه.(٩)

(٩) ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء السادس. حضارة العراق القديم. دار المعارف - القاهرة ١٩٦١. ٥٤/٦ - ٥٨. أنظر مقدمة قانون حمورابي في ملاحق الكتاب.

وورد في الخاتمة: « أنا حمورابي الملك العادل والكامل... أنا حمورابي الذي تسلم القوانين من شماش، إله الشمس والحقيقة والعدالة، كلماتي منتقاة وقدرتي لا نظير لها... بأمر مردوخ لِتَسُدْ عدالتي الأرض. ثم تلي ذلك دعوات ضد من يجرؤ على تدمير لوحته التي نقش عليها شريعته(١٠).

ومن خلال قوانين حمورابي نستطيع التعرف على مختلف جوانب الحياة في العراق القديم، إذ تتناول تلك القوانين السلطة والادارة والقضاء والجيش والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور.

وتكشف لنا قوانين حمورابي عن بنية المجتمع البابلي في ذلك العصر، وتطلعنا على أي الفئات الاجتماعية كان يعتمد الملوك في حكم البلاد، وعن مصالح أي الطبقات كانوا يدافعون بالدرجة الأولى.

ومن خلال قوانين حمورابي نستطيع التعرف على الطبقات والفئات الاجتماعية للمجتمع البابلي وعلاقاتها الحقوقية.

فكان أفراد الطبقة العليا من الاحرار (الاميلو) يتمتعون بكافة الحقوق ولهم السيادة في المجتمع، ومنهم اصحاب العبيد وملاك الأراضي. ومنهم تتشكل المجالس المحلية ويؤخذ الموظفون والكهنة. وهم بالتالي اصحاب الحقوق والامتيازات.

وتتألف الطبقة العامة (الموشكينو) من فقراء الاحرار ومن الارقاء الذين تحرروا وابناء الرجال الأحرار الذين تزوجوا بإماء، وكان الموشكينو يمارسون مختلف المهن ولهم الحق في التملك. وهم كالاميلو أصحاب عبيد وملاك الأراضي. ولكنهم غير متساوين في الحقوق المدنية. فلقاء التشويه الذي يسبب لشخص من الاميلو كان المذنب يعاقب بتشويه مماثل (العين بالعين والسن بالسن) حسب المادة ١٩٦ من القانون. أما لقاء التشويه المسبب لموشكينو فكانت العقوبة تقتصر على دفع غرامة واحدة (مينا من الفضة) حسب المادة ١٩٨ من القانون. وإذا قام شخص ينتسب إلى موشكينو بسرقة فإنه يدفع غرامة تزيد عدة أضعاف على مقدار الغرامة التي يدفعها الانسان الأميلو في حالة مماثلة. وفقط في حالة سرقة العبد، الأمر الذي كان يعتبر تطاولاً على اسس المجتمع ذاتها، كان الحكم بالموت يهدد المذنب بدرجة واحدة حسب المادة(١٩) من القانون.

---

(١٠) المصدر ذاته ٦/٨٠ - ٨١. انظر خاتمة قانون حمورابي في ملاحق الكتاب.

وكان الموشكينو الفقير من أجل الحفاظ على حياته يضطر إلى استدانة ادوات الانتاج والبذار والفضة وغيرها من الأغنياء بفائدة عالية [11]. وكان عدم الدفع يستتبع فقدان الممتلكات بما في ذلك قطعة الأرض، إذا كان المدين يملكها. وكان الموشكينو المفلس (وعادة أعضاء أسرته) يقع في عبودية الدين لمدة ثلاث سنوات كما جاء في المادة ١١٧ من القانون.

ويمكن أن تدرج في طبقتي الاميلو والموشكينو فئات عديدة من المواطنين الأحرار كأعضاء المشاعيات، والزراع الملكيين الذين يدفعون الضريبة العينية، والمحاربين الذين يتسلمون من الملك أراضي غير قابلة للبيع مقابل خدماتهم العسكرية، والحرفيين، والتامكاروم الذين كانوا تجاراً ومرابين معاً، وأخيراً الكهنة والارستقراطية العليا [12].

وأما طبقة العبيد (أردو) فقد ازداد عددها نتيجة لتوسع الفتوحات وتجارة الرقيق واستعباد أعضاء المشاعيات [13]. وأصبح العبيد يشكلون القوة العاملة الرئيسة في استثمارات الملك والمعابد في ممتلكات نبلاء البلاط والارستقراطية المدنية والعسكرية. وغدا من ثم وجود المجتمع الرافدي يرتكز على عمل العبيد. وقد خص قانون حمورابي الرقيق بجملة من مواده (١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢)

وكان لكل عبد وسم خاص يدل على مالكه. ولقاء محو هذا الوسم كانت تهدد الانسان الحر كذلك عقوبات قاسية (المادتان ٢٢٦، ٢٢٧ من القانون). وبموجب القانون نفسه لم تكن تؤخذ لقاء الضرر الذي يلحق بعبد الغير الا غرامة قليلة (نصف مينا) كتعويض عن خسارة المالك شأنها شأن الغرامة لقاء الضرر الذي يلحق بالماشية (المادة ١٩٩ من القانون). وفي حالة قتل عبد الغير كان المذنب يقدم لمالكه عبداً من عنده (المادة ٢٣١). وكان يعاقب العبد بصلم أذنه إذا رفض طاعة سيده وقال له: «لست سيدي» (المادة ٢٨٢). أما بالنسبة إلى الذين يناهضون حقوق الملكية التي أقامها مالكو العبيد، فكانت تطبق أقسى العقوبات. وكان الحكم بالموت يهدد كل من يسرق عبداً أو يحميه، وتوقع عقوبة الموت قتلاً أيضاً بكل من يؤوي عبداً آبقاً ـ أي يقتل من يساعد عبداً على التحرر (المادة ١٦ من القانون). وقد خصص القانون عدداً من مواده لحماية الملكية والدفاع عن مصالح الملاكين

---

(١١) انظر ص ٢٧٩.

(١٢) انظر ص ٢٨٠.

(١٣) انظر ص ٢٨٠.

والاغنياء . فإذا سرق رجل مالاً يخص معبداً أو الملك فإنه يقتل وكل من وضع يده على المال المسروق أو قَبِلَه يقتل أيضاً (المادة ٨ من القانون) .

واهتمت قوانين حمورابي بتنظيم العلاقات الزراعية لصالح الملاكين العقاريين بين مالك الأرض والمستأجرين أو العمال الزراعيين . فمستأجر الحقل المهمل الذي لا يحرث الأرض أو لا يهتم بالمحصول عليه أن يدفع إلى مالك الأرض الأصلي حصته حتى ولو لم يكن هناك محصول ، كما عليه أن يحرث الحقل ويعيده إلى صاحبه (المواد ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) . وعلى الفلاح المستأجر أن يعوض كل عطل أو ضرر يسببه لأرض جيرانه إذا أهمل بإصلاح السدود أو السواقي في أرضه فتسربت المياه إلى الأرض المجاورة المنزرعة وأضرت بها (المادة ٥٣) وإذا لم يكن قادراً على التعويض يباع هو نفسه كما يباع متاعه ويقسم المال بين المتضررين (المادة ٥٤) . وإذا أعطى ملاك أرضه لبستاني كي يحولها إلى بستان مشجر بالأشجار المثمرة تقاسم الطرفان المحصول مناصفة اعتباراً من العام الخامس ، ولصاحب البستان حق الحصول على النصيب الأفضل (المادة ٦٠) . أما إذا لم يشجرها مطلقاً فعليه أن يعوض على صاحبها الأصلي حصته وتقاس على أساس انتاج أرض مجاورة عن كل سنة خلال مدة استلامها ، ومن ثم عليه أن يحرثها ويعيدها للمالك الأصلي (المادة ٦٢) . وإذا أجر رجل بستانه لبستاني لاستغلاله ينال المؤجر ثلثي المحصول والمستأجر ثلثه الآخر (المادة ٦٤) . وأما إذا لم يقم البستاني بتلقيح الأشجار ومن ثم هزل المحصول فإن البستاني يدفع إيجار البستان بما يعادل إيجار المثل المجاور (المادة ٦٥) .

لقد بحث قانون حمورابي في الجرائم ، والأسرة ، والملكية ، والإرث ، والالتزامات ، وحقوق المشاعيين ، والرق وغير ذلك من الأمور الاجتماعية والاقتصادية . وجاء القانون تعبيراً عن الدفاع عن حقوق ومصالح قمة المجتمع الرقي ، حقوق الملاكين العقاريين ، والكهنة ، والتجار والمرابين ، وخاصة حقهم في ملكية العبيد . أما ما ورد في مقدمة القانون من عبارات وجمل طنانة من أمثال : نشر العدالة واسعاد الناس فهي شكل من أشكال الديماغوجية قصد منها امتصاص نقمة الجماهير وتضليلها وتمويه وإخفاء الطابع الطبقي الاستغلالي للقانون . إذ يستحيل تحقيق عدالة اجتماعية واسعاد الناس في ظل مجتمع طبقي تكون فيه وسائل الانتاج ملكاً بيد أقلية من أفراد المجتمع ويسمح باستغلال الإنسان للإنسان . فاية عدالة اجتماعية هذه وقوانين حمورابي تقسم المجتمع البابلي إلى طبقات مستغِلة ومستغَلة ، وإلى أحرار وعبيد وأغنياء وفقراء يختلفون عن بعضهم البعض في الحقوق والواجبات والوضع الاجتماعي والاقتصادي ؟ .

القوانين الآشورية: عُثِر عليها مدونة على لوحات طينية في التنقيبات التي أجرتها بعثة المانية في آشور القديمة (قلعة شرقاطا حالياً) ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤، يعود تاريخها إلى العهد الآشوري الوسيط(١٤). وهي لا تؤلف في الحال الذي تناهت فيه إلينا قانوناً كاملاً أو وحدة قانونية مثل قانون حمورابي، والمواد التي فيها لا يتمم بعضها بعضاً وخصص جزء كبير منها للأحكام الخاصة بالوضع الحقوقي للنساء وتبعيتهن بشكل مطلق مع أولادهن للرجال(١٥). وهناك بعض الألواح التي تبحث في المعاملات التجارية والرهونات والديون والسرقة والغش وكلها تتميز بالقوة والشدة في فرض الأحكام وعدم الدقة في التعابير الحقوقية وشرح الأوضاع القانونية(١٦).

والقوانين الآشورية في هيكلها العام وفي محتواها تدافع، كالقوانين التي سبقتها، عن مصالح الطبقة السائدة، مصالح ملاك الأراضي والعبيد والتجار والمرابين. فالغرامات كانت تفرض، بموجب القوانين الآشورية، أضعافاً مضاعفة ولا سيما في حالة التعويض عن الشيء المسروق، فإذا كانت السرقة من المعبد أو القصر فالغرامة تكون (٣٠) مرة بقدر المال المسروق وعشرة أمثاله إذا كانت السرقة من أفراد الطبقة الوسطى(١٧).

---

(١٤) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٠٠.

(١٥) فرح، نعيم: المصدر السابق ص ١٦١.

(١٦) المصدر ذاته ص ١٦٢.

(١٧) باقر، طه: المصدر السابق ص ٣٠٦.

شريعة أشنونا[1]

المقدمة [2]

.... في الشهر ....

اليوم الواحد والعشرون ....

.... بلالاما

.... مملكة [3] « أشنونا »

.... (مدينة) « ظفر ـ شمس »

.... نهر دجلة

في تلك السنة التي أدخل فيها السلاح العظيم [4].

---

(١) في متحف العراق تحت رقمي (٥٢٦١٤) و (٥١٠٥٩). وقد عثر عليها في تل حَرْمَل بالقرب من بغداد على بعد نحو من ستة أميال إلى الشرق من مركز المدينة. أصدرها « بلالاما » رابع ملوك أشنونا لتنظيم شؤون مملكته عند استقلالها بعد سقوط أسرة أور الثالثة في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، أي قبل زمن إصدار قانون حمورابي بحوالي قرنين. وتعد شريعة أشنونا أقدم الشرائع المدونة التي تناهت إلينا من العراق القديم. وقانون بلالاما بحاله الحاضرة يحتوي على (٦١) مادة. وهو أوسع قانون بعد شريعة حمورابي. / سومر. المجلد الرابع (الجزء الثاني). طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد ١٩٤٨ ص ١٥٣، ١٥٨ ـ ١٦١.

(٢) الرقيم أ، العمود الأول، الأسطر ١ ـ ٦ منه مخرومة.

(٣) أو « ملوكية ».

(٤) هذا هو تاريخ إصدار القانون، أي قانون بلالاما في مملكة أشنونا. وهذه حادثة وقعت في عهد =

مواد القانون

المادة الأولى: في تحديد الأسعار (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٨ ـ ١٧).

كور [٥] ـ Kùr » واحد من الحب يعادل « شيقلاً [٦] ـ Shekel » واحداً من الفضة.

٣ « قا [٧] ـ qa » من السمن الجيد تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

« سوت [٨] ـ Sút » و ٢ « قا » من زيت الزيتون يعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

« سوت » واحد و ٥ « قا » من الشحم تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

٤ « سوت » من زيت النهر [٩] (القير) تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

٦ « مينا ـ Minas » من الصوف تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

٢ « كور » من الملح تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

« كور » واحد من الـ ... يعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

٣ « مينا » من النحاس تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

٢ « مينا » من النحاس الخالص تعادل شيقلاً واحداً من الفضة.

المادة الثانية: أسعار بعض المواد (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ١٨ ـ ٢٠).

« قا » واحد من زيت النبات « شانشخاتم [١٠] Va - ni - is - ha - tim » قيمته من الحب ٣ « سوت ».

الملك واتخذت تاريخاً لتقويم الحوادث، ولكن لم يأت ذكرها في موضع آخر غير هذا القانون. كما أننا لا نعرف في أي سنة من سني حكم بلالاما حدثت تلك الحادثة. وقد اتخذ هذا النظام من تقويم الحوادث منذ أقدم العهود السومرية حتى العهد الكاشي الذي أدخل فيه الملوك الكاشيون نظاماً جديداً وذلك بتأريخ الحوادث بالنسبة إلى سني حكم الملوك.

(٥) الكور يساوي (٣٠٠) قا. والكور كيل يسع ما زنته (٥٠٠) رطل إنجليزي وسعته (٣٠٠) لتر.

(٦) الشيقل: وزن يساوي ١/٦٠ من « المينا »، والمينا نحو نصف كيلوغرام فيكون الشيقل نحو (٨) غرامات.

(٧) قا: كيل وهو جزء من الكور ١/٣٠٠ من الكور) وسعته لتر واحد ويزن حوالي (٩٩٠) غراماً.

(٨) السوت: كيل يساوي ١/٣٠ من الكور أو (١٠) قا أي يساوي (١٠) لترات.

(٩) زيت النهر: لا يعلم المقصود من هذا التعبير بوجه التأكيد.

(١٠) شانشخاتم: لا يعلم معنى هذا التعبير بوجه التأكيد. ولعله مصطلح يشير إلى أن سعر المواد المذكورة قد خفض ربما بسبب الضرائب على المواد التي عدلت قيمتها بالحب. فيكون المصطلح على ما يخمن نوعاً من الضريبة.

« قا » واحد من الشحم « شانشخاتم » قيمته من الحب ٢ « سوت » و ٥ « قا ».

« قا » واحد من زيت النهر « شانشخاتم » قيمته من الحب ٨ « قا ».

المادة الثالثة: أجرة عربة (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٢١ ـ ٢٣).

« أجرة العربة مع ثيرانها وسائقها « ماسكتم [١١] ـ Massiktum » واحد و ٤ « سوت » من الحب. وإذا دفعت الأجرة بالفضة فتكون أجرتها ثلث « الشيقل ». وعلى السائق أن يسوقها اليوم كله »

المادة الرابعة: أجرة سفينة (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٢٣ ـ ٢٤).

« أجرة السفينة ٢ « قا » و ٤ « ماسكتم » للـ « كور » الواحد [١٢]. وأجرة الملاح « قـا » واحد وعليه أن يقودها اليوم كله ».

المادة الخامسة: إهمال الملاّح (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٢٥ ـ ٢٦).

إذا أهمل الملاّح وسبّب غرق السفينة فإنه يعوض تعويضاً كاملاً عن كل شيء أغرقه ».

المادة السادسة: سرقة سفينة (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٢٧ ـ ٢٨).

« إذا وضع رجل يده على سفينة في مرساها لا تعود إليه فإنه يدفع عشرة « شيقلات » من الفضة » (غرامة).

المادة السابعة: أجرة الحاصد (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٢٨ ـ ٢٩)

« أجرة الحاصد ٢ « سوت » من الحب. وبالفضة اثنتا عشرة حبة [١٣] ».

المادة الثامنة: أجرة الذاري (الرقيم آ، العمود الأول، السطر ٢٩).

« أجرة الذاري [١٤] « سوت » واحد من الحب ».

المادة التاسعة: إهمال الحاصد (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٣٠ ـ ٣٤).

« إذا دفع رجل « شيقلاً » واحداً من الفضة لرجل استأجره للحصد. فإذا لم يحقق التزامه ولم يحصد له بالتمام فعليه أن يدفع (غرامة) عشرة « شيقلات » من الفضة. وسوف يقبض « سوتاً » واحداً و ٥ « قا » من الحب أجرة له ويترك (العمل) وتعاد جرايته من الحب والزيت واللباس ».

المادة العاشرة: أجرة حمار (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٣٤ ـ ٣٥).

« أجرة الحمار « سوت » واحد من الحب وأجرة سائقه « سوت » واحد من الحب وعليه

---

(١١) الماسكتم: يساوي (٦٠) قا، أي (٦٠) لتراً. ويسمى هذا الكيل « بي » أيضاً.

(١٢) السفينة التي سعتها (٦٠) كوراً تعادل سفينة حمولتها زهاء (١٥) طناً.

(١٣) « الشي » من الفضة أي الحبة. تعادل ١/١٨٠ من الشيقل.

(١٤) الذاري أو المذري الذي يذري (يذرو) الحنطة أو الشعير بالهواء لتنقيتها وفصل التبن عنها.

أن يسوقه طوال اليوم ».

المادة الحادية عشرة: أجرة أجير (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٣٦ - ٣٧).

« أجرة الأجير « شيقل » واحد من الفضة و « حبة » واحدة من الفضة لأكله وذلك لشغل شهر واحد ».

المادة الثانية عشرة: سرقة من حقل (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٣٧ - ٤٠. والرقيم ب، العمود الأول، الأسطر ١ - ٣).

« من يقبض عليه في حقل « موشكينوم[١٥] - Muskènum » أثناء المحصول نهاراً يدفع عشرة « شيقلات » من الفضة (غرامة). ومن يقبض عليه ليلاً هناك يقتل ولا يخرج حياً ».

المادة الثالثة عشرة: سرقة من بيت (الرقيم آ، العمود الأول، الأسطر ٤١ - ٤٢. والرقيم ب، العمود الأول، الأسطر ٤ - ٧).

« من يقبض عليه في بيت « موشكينوم » خلال النهار يدفع (غرامة) عشرة « شيقلات » من الفضة. ومن يقبض عليه ليلاً وهو في البيت يقتل ولا يخرج حياً ».

المادة الرابعة عشرة: أجرة عامل (الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر ٨ - ٩).

« أجرة.... « شيقل » واحد من الفضة إذا جلب خمسة « شيقلات » من الفضة، وإذا جلب عشرة « شيقلات » من الفضة فتكون أجرته « شيقلين » من الفضة »[١٦].

المادة الخامسة عشرة: بطلان المتاجرة مع الرقيق (الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر ١٠ - ١١).

« لا يجوز للتاجر أو بائعة الخمرة (سابيتوم) أن يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوباً أو صوفاً أو زيتاً كرأس مال للمتاجرة[١٧] ».

المادة السادسة عشرة: رهن باطل (الرقيم آ، العمود الثاني السطر ١، الرقيم ب، العمود الثاني، السطر ١٢).

« لا يصح الارتهان من شريك بالإرث أو من عبد[١٨] ».

المادة السابعة عشرة: موت الخاطب أو المخطوبة بعد دفع المهر (الرقيم آ، العمود

---

(١٥) موشكينوم: فئة من الناس تشغل مركزاً وسطاً بين العبيد والطبقات الدنيا وبين الطبقة العليا.

(١٦) لا يعرف نوع العامل أو الأجير المراد في هذه المادة وذلك لأن العلامات المسمارية التي تعين صنف العامل ساقطة. والمادة تبين الأجرة التي يستحقها لما ينتجه من عمل متقوّم بالمال.

(١٧) والسبب في ذلك أنه لا يجوز للرقيق بحكم القانون أن يملك وإنما هو وما ملك ملك سيده. والمقصود بالمتاجرة تشغيل رأس المال قصد الربح.

(١٨) حصة الوريث مشاعة مع الورثاء ولذلك لا يصح له أن يرهنها، وكذلك مال العبد لأنه لا يملك إذ هو وماله ملك سيده.

الثاني، الأسطر ٢ ـ ٤، الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر ١٣ ـ ١٥).

« إذا قدم رجل إلى بيت أبي مخطوبته مهر الزواج، فمات أحد الاثنين[١٩] من بعد ذلك فيرجع المال إلى صاحبه ».

المادة الثامنة عشرة: إرث الزوجة المتوفاة (الرقيم آ، العمود الثاني، الأسطر ٤ ـ ٧، الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر ١٦ ـ ٢٠).

« إذا دخل بها وعاشت في بيته ثم توفيت من بعد ذلك، فإنه (أي أبوها) يسترجع ما قدمته من مال[٢٠]، ويحصل كذلك على الفائدة المترتبة على ذلك بنسبة ١/٦ شاقل و (٦) حبات من الفضة « للشيقل » الواحد و « ماسكتم » واحد و (٤) « سوت » للكور الواحد ».

المادة التاسعة عشرة: استئداء الدين (الرقيم آ، العمود الثاني، الأسطر ٨ ـ ٩، الرقيم ب، العمود الأول، الأسطر ٢١ ـ ٢٢).

« الرجل الذي يقرض بشرط إيفائه بالمثل (عيناً) له أن يستأدي المدين وقت الحصد (بالمثل كذلك[٢١]).

المادة العشرون: قرض مال ونسبة فائدته (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر ١٠ـ ١٣).

إذا أقرض رجل وعادل قيمة الفضة بالحب فإنه يقبض وقت جني الغلة (الحصاد) الحبوب والفائدة بنسبة « ماسكتم » واحد و ٤ « سوت » للكور الواحد من الحب ».

المادة الواحدة والعشرون: قرض مال من الفضة (الرقيم آ، العمود الثاني، الأسطر ١٣ ـ ١٥).

« إذا أقرض رجل رأس مال من الفضة، فسوف يقبض ماله وفائدته بنسبة ١/٦ « شيقل » وست حبات للشيقل الواحد من الفضة ».

المادة الثانية والعشرون: الاستيلاء على أمة رجل (الرقيم آ، العمود الثاني، الأسطر ١٥ ـ ١٨).

« إذا لم يكن لرجل على آخر حق ما ولكنه مع ذلك وضع يده على أمة الرجل الآخر

---

(١٩) في المادة بعض الغموض. والمرجح أن يكون المقصود من أحد الاثنين، الخاطب أو المخطوبة.

(٢٠) المعتاد في زواج العراقيين القدامى، ومنه البابلي، أنه يتم انعقاده الشرعي بدفع بعض المال من جانب الزوج والزوجة. مبلغ يقدمه الزوج وهو « المهر » ومبلغ تجلبه الزوجة من بيت أبيها يكون وديعة عند الزوج لا يحق له التصرف به وإنما يعود بعد وفاة الزوجة إلى بيت أبيها.

(٢١) معنى المادة أنه إذا أقرض رجل آخر مالاً وكتب في العقد شرط تسلم الدين بنفس العين التي تم فيها القرض وجب الإيفاء وقت جني الغلة حفظاً للسعر بدون معادلة سعر الحب بالفضة أو بالعكس كما في المادة العشرين من قانون أشنونا.

وحبسها عنده رهينة، فعلى صاحب الأمة أن يقسم بالإله معلناً «ليس لك حق عليّ» فيدفع الحابس تعويضاً كاملاً عن حبس الأمة[٢٢]».

المادة الثالثة والعشرون: اغتصاب أمة رجل وموتها (الرقيم آ، العمود الثاني، الأسطر ١٩ - ٢١).

«إذا لم يكن لرجل على آخر حق ما ولكنه مع ذلك وضع يده على أمة الرجل الآخر وحبسها رهينة في بيته وسبّب موتها فعليه أن يعوض صاحب الأمة أمتين».

المادة الرابعة والعشرون: حبس زوجة رجل وموتها (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر ٢٢ - ٢٥).

«إذا لم يكن له حق عليه ومع ذلك وضع يده على زوجة «موشكينوم» أو على ابنه كرهينة وحبس الرهينة في بيته وسبّب موتها. فهذه قضية قتل النفس. فيقتل الذي حبس الرهينة».

المادة الخامسة والعشرون: فسخ الخطبة بعد دفع المهر (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر ٢٦ - ٢٨).

«إذا خطب رجل من أبي المخطوبة ابنته (ودفع له المهر) وقبله أبو المخطوبة ولكنه (من بعد ذلك) أعطى ابنته إلى شخص آخر فعلى أبي البنت أن يرجع إلى الخاطب المهر الذي قبضه مضاعفاً».

المادة السادسة والعشرون: غصب المخطوبة غير المدخول بها (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر ٢٩ - ٣١).

«إذا سلم رجل لابنة رجل مهراً ولكن رجلاً آخر خطفها ودخل بها (اغتصبها) بدون موافقة أبيها وأمها. فهذه جريمة كبرى وعقوبتها الموت».

المادة السابعة والعشرون: الزنا بامرأة أو (الزواج الفاسد) (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر ٣١ - ٣٤).

«إذا دخل رجل بابنة رجل آخر بدون إذن أبيها وأمها ولم يعقد عقداً بالزواج مع أبيها وأمها فلا تكون هذه زوجة (شرعية) حتى لو عاشت في بيته سنة واحدة[٢٣]».

المادة الثامنة والعشرون: الزواج الشرعي وزنا الزوجة (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر ٣٤ - ٣٧، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ١ - ٢).

(٢٢) لعل ذلك من قبيل الغرامة على مدة بقاء الأمة في بيت الغاصب.

(٢٣) اقتصر حكم هذه المادة على إبطال الزواج وعده فاسداً غير شرعي. ولم يبين عقوبة الجاني على غرار المادة (٢٦) من قانون «بلالاما». ولعل سبب ذلك أن الرجل لم يقسر المرأة بل زنا بها برضاها.

« ولكن إذا عقد مع أبيها وأمها عقداً بالزواج ودخل بها فإنها زوجة شرعية، فإذا قبض عليها مضاجعة لرجل آخر تقتل ولا تخرج حية ».

المادة التاسعة والعشرون: غياب الزوج عن زوجته (الرقيم أ، العمود الثاني، الأسطر ٣٨ ـ ٤٥، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ٣ ـ ٧).

« إذا فقد رجل في أثناء حرب أو غارة أو أنه أخذ أسيراً وبقي في بلد غريب زمناً طويلاً، فإذا أخذ رجل آخر زوجته (أي تزوجها) وولدت له طفلاً، ثم رجع (الزوج الأول) كان له الحق في استرجاع زوجته ».

المادة الثلاثون: غياب الزوج بهجر وطنه (الرقيم أ، العمود الثاني، السطر ٤٨ والعمود الثالث السطر ٢، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ٨ ـ ١٠).

إذا كره رجل مدينته وملكه (سيده) فهرب ثم أخذ زوجته رجل آخر، فإذا رجع الرجل فلن يكون له حق بزوجته ».

المادة الواحدة والثلاثون: الزنا بأمة رجل (الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ١١ ـ ١٢).

« إذا افتض رجل بكارة أمة رجل آخر فيدفع (تعويضاً) ثلثي « المينا » من الفضة. أما الأمة فترجع لسيدها.

المادة الثانية والثلاثون: أجرة رضاعة صبي (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٣ ـ ٥. والرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ١٣ ـ ١٥).

« إذا سلّم رجل ابنه للرضاعة والتربية، ولم يعط الحاضنة تمويناً من الحب والزيت والصوف مدى ثلاث سنوات فإنه يدفع ١٠ مينا من الفضة مقابل تربية ابنه حتى يمكن رده إليه ».

المادة الثالثة والثلاثون: ملكية ولد الأمة (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٦ ـ ٩، الرقيم ب، العمود الثاني الأسطر ١٦ ـ ١٨).

« إذا عصت أمة وسلمت ابنها إلى ابنة رجل (امرأة حرة) وكبر الولد ورآه سيده فله الحق في استرجاعه ولكن عليه أن يعنى به ».

المادة الرابعة والثلاثون: ملكية أبناء أمة القصر (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٩ ـ ١٢، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ١٩ ـ ٢١).

« إذا سلّمت جارية من القصر ابنها أو ابنتها إلى « موشكينوم » للتربية، فللقصر الحق في استرجاع الولد أو البنت (بعد تربيته أو تربيتها) ».

المادة الخامسة والثلاثون: تملّك ابن الأمة (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ١٢ ـ ١٣، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ٢٢ ـ ٢٣).

« إن شاء من أخذ طفل أمة القصر أن يحتفظ به فعليه أن يدفع ثمنه ».

المادة السادسة والثلاثون: تعويض الوديعة المسروقة (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ١٤ ـ ١٧، الرقيم ب، العمود الثاني، الأسطر ٢٤ ـ ٢٨).

« إذا أودع رجل مالاً له وديعة للمحافظة عليه. فإذا لم يسرق البيت (المودع فيه) ولم تكسر جبهته أو تحطم نوافذه، ومع ذلك فقد المال المودع فإنه (المؤتمن) سوف يعوضه المال المفقود ».

المادة السابعة والثلاثون: تلف الوديعة قضاء وقدراً (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر ١ ـ ٦، الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ١٨ ـ ٢٣).

« إذا سقط بيت الرجل (المودع عنده) حقاً وتلفت الوديعة التي أودعها مع ماله، فإن صاحب المنزل يقسم في معبد الإله « تشباك[٢٤] » قائلاً: « لقد تلف متاعي مع متاعك ولم يتسبب ذلك مني عن عمد أو إهمال ». وبعد أداء القسم لا يكون عليه أي وزر ».

المادة الثامنة والثلاثون: حق الشفعة بحصة أحد الورثة (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر ٧ ـ ٩، الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٢٣ ـ ٢٥).

« إذا أراد أخ من بين الإخوة أن يبيع حصته من الإرث أو (المال المشترك) وكان أحد الإخوة راغباً في شرائها فبوسعه أن يدفع الثمن بمقدار نصف (ما يدفعه) أجنبي ».

المادة التاسعة والثلاثون: تسليم البيت بتخليته في يوم دفع الثمن (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر ١٠ ـ ١١، الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٢٥ ـ ٢٧).

« إذا احتاج رجل وأراد بيع بيته، فعليه أن يخلي البيت في اليوم الذي يدفع فيه المشتري الثمن ».

المادة الأربعون: شراء مال بلا شهود (الرقيم ب، العموذ الثالث، الأسطر ١٢ ـ ١٣، الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٢٨ ـ ٢٩).

« إذا اشترى رجل عبداً أو أمة أو ثوراً أو أي شيء ثمين آخر ولكنه لم يستطع أن يعين البائع (أي أن يثبت صحة الشراء) فإنه سارق ».

المادة الواحدة والأربعون: سعر الأشربة (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر ١٤ ـ ١٦، الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٣٠ ـ ٣١).

« إذا أراد « أوبـــاروم ـ ubàrum » أو « نفطـــاروم ـ naptarum » أو مـــــودوم ـ

---

(٢٤) تشباك: كبير الآلهة في مملكة أشنونا. وهذا يؤكد أن القوانين المكتشفة في تل حرمل تعود إلى مملكة أشنونا.

mudûm[٢٥] » أن يبيع حصته فإن الـ « سابيتوم ـ sabitum[٢٦] » تبتاع حصته بالسعر الجاري للأشربة ».

المادة الثانية والأربعون: ديات الأعضاء (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر ١٧ ـ ٢٠ ، الرقيم أ ،العمود الثالث، الأسطر ٣٢ ـ ٣٤).

« إذا عضّ إنسان أنف آخر وقطعه فيؤدي مينا من الفضة، ودِيَة العين مينا واحد من الفضة، وللسن نصف مينا من الفضة، وللأذن نصف مينا من الفضة، وللّطمة على الوجه عشرة شيقلات من الفضة ».

المادة الثالثة والأربعون: دِيَة بعض الأعضاء (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر ٢١ ـ ٢٢ . الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٣٥ ـ ٣٦).

« إذا قطع إنسان إصبع آخر فإنه يؤدي ثلثي مينا من الفضة ».

المادة الرابعة والأربعون: دِيَة بعض الأعضاء (الرقيم ب، العمود الثالث، الأسطر ٢٣ ـ ٢٤ . الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٣٦ ـ ٣٧).

« إذا رمى إنسان بآخر على الأرض في خصام فكسر يده فإنه يؤدي نصف مينا من الفضة ».

المادة الخامسة والأربعون: دِيَة بعض الأعضاء (الرقيم أ، العمود الثالث، السطر ٣٨ . الرقيم ب، العمود الثالث، السطر ٢٥).

« وإذا كسر قدمه فإنه يؤدي نصف مينا من الفضة »

المادة السادسة والأربعون: دية بعض الأعضاء (الرقيم أ، العمود الثالث، السطر ٣٩ ـ ٤٠).

« إذا ضرب رجل رجلاً آخر فكسر له.. فإنه يؤدي ثلثي المينا من الفضة[٢٧] ».

المادة السابعة والأربعون: ضربُ رجلٍ (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٤٠ ـ ٤١).

« إذا ضرب رجل آخر عن غير قصد فإنه يدفع عشرة شيقلات من الفضة ».

المادة الثامنة والأربعون: أحكام أخرى جزائية أو جنائية (الرقيم أ، العمود الثالث، الأسطر ٤٢ ـ ٤٤ . الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر ١ ـ ٣).

---

(٢٥) أوباروم ونفظاروم ومودوم: ثلاثة مصطلحات تطلق على ثلاثة أشخاص ممن يتعاطون تجارة الخمور.

(٢٦) سابيتوم: المرأة التي يعهد إليها بتجارة الخمور.

(٢٧) لم تبق من العلامات التي تعبر عن العضو المكسور إلا الضمير المتصل المذكر الغائب.

« إضافة إلى ما سبق ففي قضايا تتضمن جزاء من ثلثي المينا إلى المينا الواحد من الفضة فسوف يحاكمون الرجل (المعتدي) محاكمة رسمية. أما القضية التي تتعلق بالنفس أي (القتل) فيعود أمر البت بها إلى الملك ».

المادة التاسعة والأربعون: سرقة عبد أو أمة (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر ٤ - ٥).

« إذا قبض على رجل ومعه عبد مسروق أو أمة مسروقة، فعليه أن يعوض عبداً بعبد وأمة بأمة ».

المادة الخمسون: الاحتفاظ بعبد وأمة آبقين (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر ٦ - ١٠. الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ١ - ٧).

« إذا قبض حاكم أو ملاحظ نهر أو أي موظف آخر على عبد آبق أو أمة آبقة أو ثور مفقود أو حمار مفقود يعود إلى القصر أو إلى موشكينوم ولم يسلمه إلى « أشنونا » بل حبسه واحتفظ به في بيته، وحتى ولو كان ذلك مدة سبعة أيام من شهر واحد، فللقصر الحق في أن يحاكم ذلك الموظف كسارق ».

المادة الواحدة والخمسون: بعض القيود على الرقيق (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر ١١ - ١٣. الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ٧ - ٩).

« ليس للعبد أو الأمة العائدين إلى أشنونا والمعلَّمَيْن بعلامة « كانوم - Kannum » أو « ماشكانوم - maskanum » أو « أباتوم - abbattum » أن يغادرا بوابة أشنونا بدون إذن سيدهما ».

المادة الثانية والخمسون: وَسْم الرقيق الداخلين إلى أشنونا (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر ١٤ - ١٦. الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ١٠ - ١٣).

« العبد أو الأمة ممن يدخلون بوابة أشنونا بمعيّة سفير أجنبي توضع عليها علامة « كانوم » أو « ماشكانوم » أو « أباتوم » وسوف يبقيان بمعيّة سيدهما ».

المادة الثالثة والخمسون: تناطح ثورين (الرقيم ب، العمود الرابع، الأسطر ١٧ - ١٩. الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ١٣ - ١٥).

« إذا نطح ثور آخر فقتله فإن صاحبي الثورين يقتسمان فيما بينهما قيمة الثور الحي وما يعادل ثمن الثور المقتول ».

المادة الرابعة والخمسون: ثور ينطح شخصاً فيقتله (الرقيم ب، العمود الرابع، السطر ٢٠. الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ١٥ - ١٨).

« إذا كان لشخص ثور نطّاح وحذرت سلطة المحلة صاحب الثور، ولكنه (مع ذلك)

لم يحجز ثوره أو لم يقطع قرنيه فنطح رجلاً وقتله فعلى صاحب الثور أن يؤدي ثلثي المينا من الفضة ».

المادة الخامسة والخمسون: ثور ينطح عبداً فيقتله (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ١٨ - ١٩).

المادة السادسة والخمسون: كلب يعض رجلاً فيميته (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ٢٠ - ٢٣).

« وإذا نطح الثور عبداً وقتله فعلى صاحبه أن يؤدي خمسة عشر « شيقلاً من الفضة ».

« إذا كان لشخص كلب شرس وأعلمت سلطة المحلة صاحبه بالأمر ولكنه (مع ذلك) لم يحبسه فعض رجلاً وأماته. فعلى صاحبه أن يؤدي ثلثي المينا من الفضة ».

المادة السابعة والخمسون: كلب يعض عبداً فيميته (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ٢٣ - ٢٤).

« وإذا عض الكلب عبداً وأماته فإن صاحبه يؤدي خمسة عشر « شيقلاً » من الفضة ».

المادة الثامنة والخمسون: سقوط جدار على شخص وموته (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ٢٥ - ٢٨).

« إذا كان لأحد جدار متداع وأخبرت سلطة المحلة صاحب الجدار ولكنه لم يقم بتدعيمه، فسقط الجدار وأمات رجلاً من طبقة الأحرار، فإن هذه جريمة كبرى يفصل بها الملك ».

المادة التاسعة والخمسون: طلاق زوجة بعد أن تلد أولاداً (الرقيم أ، العمود الرابع، الأسطر ٢٩ - ٣٢).

« إذا طلّق رجل امرأته بعد أن ولدت منه أولاداً وأخذ زوجة ثانية فسوف يطرد من بيته ويحرم من جميع ما يملك ومن بعد ذلك يذهب (٢٨)... ».

المادتان ٦٠ و ٦١: مما يؤسف له أن الكتابة التي تتضمن هاتين المادتين مشوهة ولم يبق من العلامات المسمارية شيء واضح، ومن بعد ذلك تكون نهاية ما كتب له البقاء من هذا القانون (٢٩).

---

(٢٨) علامات غير واضحة.

(٢٩) سومر. مجلة تبحث في آثار العراق القديمة. المجلد الرابع (الجزء الثاني). طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة - بغداد ١٩٤٨. قانون مملكة أشنونا المكتشف في تل حرمل ص ١٥٣ - ١٧٣ بقلم الباحث طه باقر.

شريعة ليبيت عشتار[1]

المقدمة

حين... «أنو» أب الآلهة العظيم و«آنليل» ملك الأراضي والسيد الآمر... إلى «نيني سنا» (ابنة أنو)... والبهجة... لجبهتها اللامعة، حين عهد إليها بالحكم في «سومر وأكاد» حكماً صالحاً في مدينتها «إيسن»... التي أسسها «أنو». وحين دعا الإله أنو والإله آنليل ليبيت عشتار الراعي العاقل الذي نطق اسمه نونا منير[2] إلى ولاية إمارة الأرض ليقر العدل فيها، ويمنع الشكايات، وليرد العداوة والعصيان بقوة السلاح، وليصلح من أمر السومريين والأكاديين عندئذٍ، أنا، ليبيت عشتار، الراعي المتواضع لمدينة نيبور، ومزارع مدينة أور الذي لا يهجر أبداً مدينة أريدو، والإله الحق لمدينة الوركاء، ملك إيسن، ملك سومر وأكاد، الصالح القلب «إينانا»... أقررت العدالة في سومر وأكاد طبقاً لكلمة «آنليل»... حقاً إنني في تلك الأيام حررت أبناء نيبور وبناتها وأبناء أور وبناتها وأبناء

---

(١) أصدرها ليبيت عشتار خامس ملوك أسرة إيسن الذي حكم في النصف الأول من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ومن ثم فهي تسبق قانون حمورابي بقرن على الأقل. وقد وصلنا من شريعة ليبيت عشتار (٣٨) مادة مكتوبة على سبعة ألواح من الطين اكتشفت في مدينة نيبور (نفر حالياً). لكن معظم هذه الألواح مشوّه، إذا لا يمكننا قراءة النصوص بشكل كامل. قام بترجمة شريعة ليبيت عشتار من اللغة السومرية إلى الإنجليزية صموئيل كريمر العالم الأميركي بقراءة الخطوط المسمارية. ونقلها من الإنجليزية إلى العربية الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم في كتابه «مصر والشرق الأدنى القديم». وتتألف شريعة ليبيت عشتار من: مقدمة والقانون وخاتمة. أنظر ص ٤٤٤.

(٢) نونا منير: اسم آخر للإله آنليل.

إيسن وبناتها وأبناء سومر وبناتها الذين كانت قد فرضت عليهم العبودية. حقاً إنني وفقاً لـ... جعلت الأب يسند بنيه والأبناء يسندون أباهم. جعلت الأب يقف إلى جانب أولاده وجعلت الأولاد يقفون إلى جانب أبيهم.. في بيت الأب وفي بيت الأخ... حقاً.. أنا ليبيت عشتار بن آنليل جئت بسبعين إلى بيت الأب وبيت الأخ وأتيت إلى بيت العازب.... مدة عشرة شهور... عشرة... زوجة الرجل... ابن الرجل [٣].

القانون

١ ـ .... التي أقيمت....

٢ ـ .... أملاك بيت الأب من....

٣ ـ .... ابن موظف الدولة....... ابن موظف القصر.....ابن المشرف....

٤ ـ .... قارب.... قارباً سوف.....

٥ ـ إذا استأجر إنسان قارباً وخرج به في رحلة.....

٦ ـ المنحة..... سوف

٧ ـ إذا أعطى بستاناً لبستاني ليرعى... فالبستاني... لصاحب البستان [٤].

٨ ـ إذا سلّم رجل أرضاً غير مزروعة إلى آخر ليحوّلها إلى بستان. ولم يكمل المستلم إصلاح الأرض البور وغرسها كلها بالأثمار فيجب أن تكون الأرض البور غير المشجرة من نصيب الفلاح المستلم بسبب إهماله.

٩ ـ إذا دخل رجل بستان رجل آخر وقبض عليه كاللص فإنه يدفع عشرة شواقل من الفضة.

١٠ ـ إذا قطع رجل شجرة من حديقة رجل آخر دفع نصف مينا من الفضة.

١١ ـ إذا كانت هناك أرض فضاء مجاورة لمنزل رجل تخص آخر وأهملها وكان صاحب البيت قد قال للرجل الآخر «لأن الأرض مهجورة وقد يتسلل رجل إلى بيتي، فدعّم بيتي» ووافق الرجل الآخر على ذلك فإن صاحب الأرض الفضاء مسؤول أمام صاحب المنزل عما يضيع من مقتنياته.

١٢ ـ إن هربت أمة أو عبد إلى قلب المدينة وثبت أنها (أو أنه) تعيش في بيت رجل آخر مدى شهر من الزمان، فإن ذلك الرجل يعيد إلى صاحب العبد عبداً آخر إضافة إلى عبده (عقوبة على إيواء العبد الهارب عنده).

١٣ ـ وإذا لم يكن له عبيد فإنه يدفع ١٥ شاقلاً من الفضة.

---

(٣) هناك كسر كبير يعوق تفهم النص ويلي ذلك القانون نفسه.

(٤) المواد الأولى (١ ـ ٧) من القانون ناقصة وغير واضحة.

١٤ ـ إذا عوّض عبد عبوديته لمولاه وثبت أنه عوض تعويضاً مضاعفاً فإنه يعتق.
١٥ ـ إذا كان (مقتوم) هبة من الملك فإنه لا يؤخذ.
١٦ ـ إذا سلم إنسان «مقتوم» برضائه فإن «مقتوم» لا يربطه.... إنه يترك لمن يشاء صاحبه.
١٧ ـ إذا كان رجل يربط آخر بغير سلطان بأمر لا علم للأخير به فإن الأخير غير ملزم وأما الأول فإنه تقع عليه طائلة العقوبة فيما يتصل بما ربطه به.
١٨ ـ إذا تأخر صاحب ضيعة (أو صاحبة ضيعة) عن الوفاء بضريبة الضيعة، ثم نقلت ملكية تلك الضيعة إلى شخص آخر غريب، فإن صاحب الضيعة الأول يظل فيها ثلاث سنوات دون أن يطرد، وبعد ذلك يمتلكها من تحمّل دفع ضريبتها، وليس لصاحبها الأول دعوى بذلك.
١٩ ـ إذا كان رب ضيعة...
٢٠ ـ إذا أخذ واحد من الورثة...
٢١ ـ ... بيت الأب... تزوج... يأخذ هبة البيت لأبيها التي قدمت إليها كوريثة...
٢٢ ـ إذا كان الأب حياً فإن ابنته سواء كانت «أنتو» (طبقة من الكاهنات) أو «ناتيتو» (طبقة من الكاهنات) فإنها تعيش في بيته كوريثة له.
٢٣ ـ إذا كانت الابنة في بيت أبيها الحي...
٢٤ ـ إذا حملت زوجة الرجل الثانية بأطفال، فإن البائنة التي أتت بها من بيت أبيها تكون إرثاً لأطفالها، لكن أطفال الزوجة الأولى وأطفال الزوجة الثانية يرثون بالتساوي أنصبتهم من ممتلكات والدهم.
٢٥ ـ إذا تزوج رجل ورزقت زوجته بأطفال وكانوا أحياء، ثم رزق من أمة له بأطفال، فإن الأمة وأطفالها يحررون، لكن أطفال الأمة لا يشاركون أطفال أبيهم من زوجته الحرة في وراثة ممتلكاته.
٢٦ ـ إذا ماتت الزوجة الأولى واتخذ أمة بعدها كزوجة فإن ورثته هم أبناء الزوجة الأولى ويكون أبناء الأمة كـ.... وبيته يكون كـ....
٢٧ ـ إذا لم يرزق رجل من زوجته بأطفال، وتحمل منه عاهرة في الطريق بطفل أو أطفال، فعليه أن يقدم الحبوب والزيت والملابس إلى العاهرة ويكون أبناؤها منه ورثة له... ولكن العاهرة لا تعيش في بيته ما دامت زوجته حية.
٢٨ ـ إذا أدار رجل وجهه عن زوجته الأولى ولكنها لم تغادر البيت. فإن الزوجة التي يتزوجها كأثيرة ومفضلة لديه تصبح زوجته الثانية، ويظل مع ذلك يرعى زوجته الأولى.
٢٩ ـ إذا دخل خطيب الابنة بيت حميه المقبل وقام بمراسم الخطبة، ثم طردوه بعد ذلك

وأعطوا خطيبته رجلاً آخر رفيقه، فإن جميع هدايا الخطوبة ترد إلى الخطيب الأول.

٣٠ - إذا تزوج شاب من عاهرة من الطريق وأمره القاضي ألا يزورها، ثم طلق زوجته بعد ذلك فإنه.... مبلغ.

٣١ - ... الذي أعطاه إياه بعد موت أبيهم فإن الورثة يقسمون ضيعة أبيهم، ولكن ميراث الضيعة لا يقسم... إنهم «لا يطبخون كلمة أبيهم في الماء».

٣٢ - إذا احتجز أب خلال حياته هدية خطوبة ابنه الأكبر.... وتزوج الابن خلال حياة أبيه فإن الورثة عند موت الأب...

٣٣ - إذا ثبت أنه.... لم يقسم الضيعة... فإنه يدفع عشرة شواقل من الفضة.

٣٤ - إذا أجر رجل ثوراً وجرح جلده عند خزامة الأنف فإنه يدفع ثلث ثمنه.

٣٥ - إذا أجر رجل ثوراً وفقأ عينه أو أصابها فإنه يدفع نصف ثمنه..

٣٦ - إذا أجر رجل ثوراً وكسر قرنه فإنه يدفع ربع ثمنه.

٣٧ - إذا أجر رجل ثوراً وأصاب ذيله فإنه يدفع ربع ثمنه.

٣٨ - .... فإنه يدفع.....

خاتمة

الحق أنني بالاتفاق مع كلمة الحق للإله «آنو» جعلت سومر وأكاد تتمسكان بالعدالة الحقة. الحق أنني وفقاً لما نطق به آنليل، أنا ليبيت عشتار بن آنليل محوت العداوة والعصيان وأوقفت النواح والنحيب والصراخ والحرمان..... كما أحللت العدل والحق، وأقررت العدالة والخير للسومريين والأكاديين.

الحق أنني حين أرسيت أسس الثروة في سومر وأكاد أقمت هذه اللوحة... كل من لا يرتكب شراً قبلها وكل من لا يشوه كتابتي وكل من لا يمحو نقوشي وكل من لا يكتب عليها... الا ليمنح الحياة والعمر الطويل. وليعلِ مركزه في «إكور»[5]. ألا فلتطلّ عليه جبهة «آنليل» اللامعة.... وأما من يرتكب شراً قبلي ومن يشوه صنع يدي ومن يدخل المخزن ويغير في القاعدة ومن يمحو النقوش ومن يكتب اسمه عليها.... فإنه سوف.... سواء أكان... ألا فلتنزع عنه وليحدث له.... ألا فليأخذ منه «أشنان» و«سوموجان» سادة الاكثار... ـه. ألا فليقوّض «أوتو» قاضي السماء والأرض...ـه... من أساسه... ألا لا تثبت أرضه... ليصّب «نينورتا» البطل القوي ابن آنليل[6]...

---

(٥) إكور: معبد «آنليل» الرئيس في «نيبور».

(٦) ابرا يم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديمة ٤١/٦ - ٥٣.

قانون حمورابي[1]

المقدمة:

١ ـ حين حدد «أنوم»[2] المتعالي ملك «أنوناكي»[3] و «آنليل»[4] سيد السماء والأرض ومحدد أقدار البلاد ... لـ «مردوك»[5] بكر «أنكي»[6] وظائف «آنليل» على البشر جميعاً ... جعلاه سيداً على الـ «أجيجي» وسميت بابل باسمها المبجل وجعلت أعظم ما في العالم .. أسست له في وسطها ملكية خالدة أسسها ثابتة ثبات السماء والأرض .. في ذلك الوقت عينني «أنوم» و «آنليل» لأعمل على إسعاد الناس .. أنا حمورابي ... المكرس ... الأمير الذي يخاف الله .. لأقيم العدل حتى يسود الأرض ولأقضي على الشر والسوء حتى لا يطغى القوي على الضعيف ولأرتفع كالشمس فوق الأقوام ذوي الرؤوس السوداء ولأضيء الأرض .. أنا حمورابي ... الراعي ... الذي عينه «آنليل»، أنا من أعمل على الاكثار وأنمي

---

(١) انظر ص ٤٤٥ ـ ٤٤٩.

(٢) «أنوم» رب السماء، ويعبد في معبد «إيانا» مع المعبودة ـ إينانا ـ في الوركاء.

(٣) الـ «أنوناكي» في هذا النص هم الآلهة الصغرى في خدمة «أنوم» والـ ـ أجيجي ـ هم الآلهة الصغرى في خدمة ـ آنليل ـ.

(٤) «آنليل» رب العاصفة وله معبد هو ـ إيكور ـ في ـ نيبور ـ وسط بابل ـ نوفر حالياً ـ.

(٥) «مردوك» هو ابن ـ أنكي ـ وزوج ـ سارپانيت ـ وهو إله بابل ثم إله الأمبراطورية في عهد حمورابي.

(٦) «أنكي» رب الأرض وكتلة المياه التي تسبب الحياة فيها وهو أب ـ مردوك ـ. ومعبده هو ـ إيابزو ـ في ـ أريدو ـ جنوب بابل ـ أبو شهرين حالياً ـ.

في وفرة كل مال « نيبور ـ دورانكي »[٧] الحامي الوفي المكرس لـ « إيكور » الملك الكفء الذي أصلح « أريدو » وأعادها إلى مكانها.

٣ ـ أنا من طهر عبادة « إيابزو »، من يركض في أنحاء العالم الأربعة، من يجعل اسم بابل عظيماً، من يسعد قلب « مردوك » مولاه، من ظل طوال حياته يعد نفسه مسؤولاً عن « إيساجيل » سلالة الملكية، من ذرأه « سن »[٨] ذلك الذي دفع « أور » إلى التقدم.. التقي.. المرتجى.. من وفر الثراء لـ « إجيش شرجال » المالك العاقل المطيع لـ « شمش »[٩] القوي، من أعاد وضع أسس « سيبار »، من زيّن بالخضرة هياكل « أيا »، مصمم معبد « إيبابار » الذي يشبه المسكن السماوي.. الجندي.. حامي « لارسا »[١٠] من أعاد بناء « إيبابار » لـ « شمش »، معاونه.. السيد المولى الذي أحيا « الوركاء »[١١] ووفر الماء كثيراً لشعبها ورفع عالياً رأس « أيانا » ومن زاد في ثراء « أنوم » و « إينانا »، ملجأ البلاد الذي جمع شمل قوم « إيسن »[١٢]، الذي أثرى معبد « إيجالما »، حاكم الملوك الأخ الحق لـ « زابابا »[١٣] معيد تأسيس قاعدة « كيش » الذي أحاط « إيميت أورساج » بالأبهة والفخار، الذي أمن الهياكل الكبرى لـ « إينانا » راعي معبد « هورساج كالاما »[١٤] رعب الأعداء.

---

(٧) « دورانكي » رباط السماء والأرض وهو اسم سومري لـ نيبور » يشير إلى تمجيدها. وهي مركز عبادة « آنليل » صاحب معبد « إيكور ».

(٨) « سن » هو إله القمر وهو ابن « آنليل » آب « شمش »، وزوج « تنجال ». وعبادته في معبد « إيجيش شرجال » في أور في جنوب بابل (المقير حالياً).

(٩) « شمش » إله الشمس ورب العدالة، زوج « أيا ». ومعبده « أبابار » يقع في « سيبار » شمالي بابل (أبو حبة حالياً).

(١٠) « لارسا » مقر آخر لعبادة « شمش » وهي إلى جنوب بابل (سنكرة حالياً) ومعبدها يدعى كذلك « إيبابار » وقد تم استيلاء حورابي عليها في العام الثلاثين من حكمه بعد أن قضى على آخر ملوكها « رم سن ».

(١١) « الوركاء » (أوروك) مدينة مهمة في جنوب بابل، فتحها حورابي في العام السادس من حكمه هي مقر عبادة « انوم » و « إينانا » ويعرف معبدها باسم « أيانا ».

(١٢) « إيسن »، مدينة في جنوب نيبور فتحها « رم سن » في العام التاسع والعشرين من حكمه ثم فتحها حورابي في العام السادس من حكمه، وهي مقر عبادة « نن كاراك » واسم معبدها « إيجالما ».

(١٣) « زابابا » صورة أخرى لـ « نينورتا » ويعبد بخاصة في « إيميتي أورساج » في « كيش » شمال شرقي بابل (تل الأحيمر حالياً).

(١٤) « هورساج كلاما » معبد « إينانا » في « كيش » حيث كانت تعبد كزوجة لـ « زبابا ».

٣ ـ ذلك الذي جعله « إيررا »[١٥] رفيقه يحقق أطاعه والذي جعل « كوثة » متعالية والذي يسّر كل شيء لـ « مسلام »، الثور البري المتوقد الذي يناطح العدو. محبوب « توتو »[١٦] من يجلب السرور لـ « بورسيبا » المكرس الذي لم يقف عائقاً أمام « إيزيدا »، الإله بين الملوك المعروف بالحكمة، ومن وسّع الأراضي الزراعية الخاصة بـ « دلبات »[١٧] الذي يقوم بخزن الحبوب لـ « أوراش » القوي. السيد المولى حامل الصولج والتاج الذي أوصله الحكيم « ماما »[١٨] إلى الكمال والذي وضع تصميم « كش »... الذي يجعل ولائم « ننتو » فاخرة... الكامل الذي يحدد المراعي وأماكن الري لـ « لجش » و « جرسو »[١٩] والذي يكثر من التضحيات لـ « أنينو » من يقبض على العدو... المقرب لدى « تليتوم »[٢٠] ومن ينفّذ وحي « حلاب »[٢١] الذي يسعد قلب « عشتار »[٢٢] الأمير الفاخر الذي يعرف « أدد » أدعيته وصلواته... ذلك الذي يهدىء قلب « أدد »[٢٣] المحارب في « بيت كركار » الذي أعاد تأسيس التعيينات في « إيود جلجال » الملك الذي منح « أداب »[٢٤] الحياة، مدير معبد « إيماه » رئيس الملوك.. المحارب بغير نظير..

٤ ـ من منح الحياة « ماشكان شبرم »[٢٥] من يوفر الشراب لـ « مسلام »، العاقل،.. الإداري الذي غاص في أعماق الحكمة. منقذ قوم « مالكا »[٢٦] من الشقاء.. مؤسس أماكن

---

(١٥) « إيررا » رب الحرب، ويقرن كثيراً بـ « نرجال » وله معبد في « كوثة » شمال بابل هو « مسلام » (تل ابراهيم حالياً).

(١٦) « توتو » لقب من ألقاب « مردوك » أصلاً، وهو هنا لقب ابنه « نابوم » إله الكتابة ومقر عبادته « بورسيبا » قرب « بابل » بمعبدها « إيزيدا ».

(١٧) « دلبات » مدينة لا تبعد كثيراً عن بورسيبا وهي مقر عبادة « أوراش ».

(١٨) « ماما » ربة تعبد في « كش » قرب « لجش » في وسط بابل وهي تعرف كذلك باسم « ننتو ».

(١٩) « جرسو » وهي « لجش » (تللو حالياً) مدينتان توأمان في وسط بابل، وإله المدينة هو « ننجرسو » ومعبده « أنينو ».

(٢٠) « تليتوم » لقب « إينانا ».

(٢١) « حلاب » مدينة في بابل هي مقر عبادة عشتار ومكانها الحالي مجهول.

(٢٢) « عشتار » الاسم السامي للمعبودة « إينانا ».

(٢٣) « أدد » رب الجو ومعبده « أيود جلجال » في بيت كاركار (ومكانها غير معروف).

(٢٤) « أداب » مدينة على الفرات في وسط بابل (بسمايا حالياً) ومعبودتها « ماه » ومعبدها « إي ماه ».

(٢٥) « مشكان شبرم » مدينة لا تبعد كثيراً عن « أداب ».

(٢٦) « مالكا » مدينة في أواسط الفرات، غزاها حمورابي في السنة التاسعة، وأخمد ثورة لها في العام الرابع والثلاثين، وهي مقر عبادة « أنكي » وزوجته « دامجال نونا » التي تعرف كذلك باسم « دامكينا » وهي أم « مردوك ».

السكنى لهم في وفرة من أجل « أنكي » و « داجال نـونـا »، مـوسـع مملكتـه، الذي قـدم التضحيات الفاخرة كل الوقت. أول الملوك مخضع الأقاليم على طول الفرات بفضل قوة خالقه « داجان »(٢٧) من أنقذ قوم « ميرا » و « توتول »(٢٨) الأمير الورع الذي يجعل وجه « إينانا » وضاء، المكثّر من الولائم لـ« نينازو »(٢٩) منقذ قومه من البلاء.. من يدعم في أمان نصيبهم في وسط بابل.. راعي الناس، ذلك الذي ترضي أعماله عشتار.. الذي أحلّ « عشتار » في « إيولماش » في وسط ميدان « أكد »(٣٠)، الذي يجعل القانون نافذاً والذي يقود قومه في الطريق الحق.. ذلك الذي أعاد إلى « أشور »(٣١) عبقريتها الحامية العطوفة والذي غلب المهتاجين... الملك الذي جعـل اسم « إينـانـا » ممجـداً في « نينـوى »(٣٢) في « اميش ميش » الورع الذي يدعو في حرارة الآلهة الكبرى.. سليل « سيومولا إيل »(٣٣) الابن القوي، وريث سن موبا لليت.

٥ ـ البذرة العتيدة للملكية.. الملك القوي.. شمس بابل الذي يجعل الضوء يندفع فوق أراضي سومر وأكد(٣٤)، الملك الذي أخضع أنحاء المعمورة الأربع...

أنا... محبوب إينانا.

حين أرسلني مردوك لأقود الشعب في طريق الحق.

ولأدير البلاد.

وضعت أسس القانون والعدالة في لغة الأرض.

مستهدفاً صالح الشعب.

في ذلك الوقت.

قررت:

(٢٧) « داجان » إله حبوب سامي، أصله سامي غربي، نقلت عبادته إلى « ميزوبوتاميا » وعبد بخاصة في أواسط الفرات.

(٢٨) « ميرا » و « توتول » مدينتان في وسط الفرات، وربما كانت « ميرا » هي « ماري » (تل الحريري حالياً) التي غزاها حمورابي في العام الثاني والثلاثين.

(٢٩) « نينازو » إله الطب ومقر عبادته بخاصة هي « أشنونا » في معبده « إيسيكيل ».

(٣٠) « أكد » مدينة قديمة في شمال بابل اسسها سرجون العظيم وجعل منها عاصمة له، وهي مقر عبادة « عشتار » ومعبدها « يولماش ».

(٣١) « أشور » العاصمة القديمة على الدجلة الأعلى (قلعة شرجات حالياً).

(٣٢) « نينوى » عاصمة أشور فيما بعد على الدجلة الأعلى وهي مقر عبادة « إينانا » ومعبدها « يميش ميش ».

(٣٣) « سومولا إيل » الملك الثاني للأسرة البابلية.

(٣٤) « سومر » و « أكد »، سومر الاسم القديم لجنوبي بابل، وأكد الاسم القديم لشمالها، والاسمان معاً اسم عام للإقليم جميعه.

القانون [٣٥]

١ ـ إذا اتّهم رجل آخر بجريمة قتل لم يستطع إقامة الدليل عليها، قتل.

٢ ـ إذا اتّهم رجل آخر بالسحر ولم يستطع إقامة الدليل اختبر بامتحان النهر فيرمي نفسه فيه فإنْ غلبه النهر على أمره استولى خصمه على ضيعته وإن أظهر النهر أنه بريء وخرج سالماً فإن المدعي يقتل ويأخذ المدعى عليه ضيعته.

٣ ـ إذا شهد شاهدٌ بشهادة زور في قضية ولم يستطع إثبات قوله وكانت القضية تتصل بالحياة، يقتل.

٤ ـ إذا كانت شهادة الزور تتصل بالحبوب أو المال، أوقعت به العقوبة.

٥ ـ إذا حكم قاض حكماً وأصدر قراراً وأبرز وثيقة مختومة ثم عدل في الحكم وأمكن إثبات أن القاضي غيّر في الحكم الذي أصدره، دفع ١٢ ضعف الدعوى موضوع القضية ثم عزل عن كرسي القضاء وطرد من الجماعة ولا يجلس مرة أخرى مع القضاة أثناء النظر في القضايا.

٦ ـ إذا سرق رجل متاع معبد أو متاع الدولة فإنه يقتل. وكل من وضع يده على متاع مسروق يقتل.

٧ ـ إذا اشترى رجل أو أخذ كأمانة ذهباً أو عبداً أو جارية أو ثوراً أو نعجة أو جحشاً أو أي شيء آخر من يد ابن رجل آخر أو عبده بغير شهود أو عقود.... فهو لص.... ويقتل.

٨ ـ إذا سرق رجل ثوراً أو نعجة أو جحشاً أو خنزيراً أو قارباً... إن كانت للمعبد أو للدولة يدفع ثلاثين ضعفاً. وإن كانت لمواطن يدفع عشرة أمثال وإن لم يكن لديه ما يكفي لدفع التعويض، يقتل.

٩ ـ إن عثر على بضاعة مسروقة من رجل في حيازة آخر وأقسم هذا الأخير أن بائعاً باعني إياها وقمت بالشراء في حضرة شهود وأعلن صاحب المسروقات « سأقدم الشهود على بضاعتي المسروقة » فإن المشتري ما دام قد قدم البائع والشهود الذين تمت الصفقة بحضورهم كما قدم صاحب البضاعة الشهود على ملكيته لها فإن القضاة يفصلون في النزاع.... الشهود الذين تم الشراء بحضورهم والشهود الذين يشهدون بملكيتها لصاحبها يشهدون بذلك في حضرة الإله.... فإذا ثبت أن البائع لص فإنه يقتل. أما صاحب البضاعة المسروقة فيستردها وأما المشتري فيأخذ من أملاك البائع المال الذي دفعه.

١٠ ـ إذا لم يرشد المشتري إلى البائع الذي باعه البضاعة والشهود الذين تم الشراء

(٣٥) الرجل يقصد به دائماً المواطن من طبقة الأحرار.

بحضورهم ولكن صاحب البضاعة قدم شهوده.... فالمشتري لص... يقتل، وصاحب المتاع يسترد متاعه.

١١ ـ إذا لم يقدم صاحب البضاعة المسروقة شهوده على ملكيته للبضاعة المسروقة فهو مخادع غشاش.... يقتل.

١٢ ـ إذا كان البائع قد مات فإن المشتري يأخذ من ضيعته خمسة أمثال قيمة الدعوى في القضية.

١٣ ـ إذا لم يكن من الميسور وجود شهود الرجل فإن القاضي يمنحه أجلاً قدره ستة شهور فإذا لم يقدم الشهود خلالها فهو مخادع وينال الجزاء.

١٤ ـ إذا سرق رجل ابناً صغيراً لآخر حكم عليه بالموت.

١٥ ـ إذا عاون رجل عبداً للدولة أو جارية للدولة أو عبداً لمواطن أو جارية لمواطن على الهرب من بوابة المدينة، قتل.

١٦ ـ إذا آوى رجل في بيته عبداً هارباً أو جارية هاربة ممن يمتّون إلى الدولة أو إلى المواطنين ولم يقدمهم عند استدعاء الشرطة فإن صاحب البيت يقتل.

١٧ ـ إذا أمسك رجل بعبد هارب أو جارية هاربة في العراء وأخذه كملك له فإن صاحب العبد يدفع له عشرة شواقل من الفضة.

١٨ ـ إذا لم يعين العبد اسم صاحبه يأخذه إلى القصر حتى يتم التحري عنه ثم يعاد إلى صاحبه.

١٩ ـ إذا احتفظ بهذا العبد في بيته... أو اتضح فيما بعد أن العبد بقي في حوزته، قتل ذلك الرجل.

٢٠ ـ إذا هرب العبد من يد آسره يؤيد الرجل ذلك بِقَسَم أمام الإله لصاحب العبد وعندئذ يطلق سراحه.

٢١ ـ إذا أحدث رجل صدعاً في منزل قتل امام الصدع وحشر بداخله وسُدّ عليه.

٢٢ ـ إذا ضُبط رجل متلبساً بسرقة، قتل.

٢٣ ـ إذا لم يضبط السارق فإن صاحب المتاع المسروق يقدم تفصيلات المسروقات بحضرة الإله وعندئذ تعوضه المدينة، التي وقعت السرقة في ناحيتها وحاكمها، من متاعه المسروق.

٢٤ ـ إذا كان ما سرق «حياة» دفعت المدينة إلى الحاكم مينا من الفضة تعويضاً لأهلها.

٢٥ ـ إذا شبت نار في بيت رجل وذهب رجل لإطفائها ثم رنا بعينه إلى متاع صاحب البيت وحاول اختلاسه، قتل بإلقائه في النار.

٢٦ ـ إذا كُلّف جندي خاص أو مبعوث بمهمة للملك ولم يذهب أو استأجر بديلاً له

قتل ذلك الجندي أو المبعوث ثم تسلم أملاكه إلى بديله.

٢٧ ـ إذا أسر جندي خاص أو مبعوث وهو في الخدمة العامة للملك وكانت حقوله وبساتينه قد أعطيت بعد اختفائه لآخر ارتبط بالتزاماته الاقطاعية فإنه في حالة العودة والرجوع إلى المدينة يُعاد إليه حقله وبستانه ويرعى بنفسه التزاماته الإقطاعية.

٢٨ ـ إذا كان للجندي الخاص أو المبعوث الذي أسر وهو في الخدمة العاملة للملك ابن يستطيع أن يرعى التزاماته الإقطاعية أُعطي الحقل والبساتين ليرعى الالتزامات الاقطاعية لأبيه.

٢٩ ـ إذا كان الابن صغيراً بحيث لا يستطيع رعاية الالتزامات الاقطاعية لأبيه أُعطيت الأم ثلث الحقل والبستان حتى تقوم بتربيته.

٣٠ ـ إذا سلّم جندي خاص أو مبعوث حقله وبستانه وبيته بسبب الالتزام الاقطاعي ثم غاب وبعد رحيله أخذ آخر حقله وبستانه وبيته ورعى الالتزامات الاقطاعية مدى ثلاث سنوات... فإن عاد وطالب بحقله وبستانه وبيته لا يُعطاها... إن من أخذها ورعى التزاماتها الاقطاعية تصبح من حقه الاقطاعي.

٣١ ـ إذا غاب لمدة سنة واحدة فقط ثم عاد فإن البستان والبيت يُرَدان إليه ويرعى الالتزام الاقطاعي.

٣٢ ـ إذا دفع تاجر فدية جندي خاص أو مبعوث أسر في حملة للملك ومكّنه من الوصول إلى مدينته فإن المفتدى يدفع فديته عن نفسه إن كان لديه ما يكفي في بيته، أما إذا لم يكن لديه ما يكفي في بيته فيفتدى من أملاك إله المدينة فإذا لم يكن هناك ما يكفي من أملاك إله المدينة فإن الدولة تفتديه. وأما حقله وبستانه وبيته فلا تصفى مقابل الفدية.

٣٣ ـ إذا تملّك «روكوم» أو «لوبوتوم» (منصبان عسكريان يعادلان شاويشاً وضابطاً) جندياً وقبل أن يذهب مستأجراً كبديل في حملة للملك فإنهما يقتلان.

٣٤ ـ إذا اغتصب «روكوم» أو «لوبوتوم» متاع جندي أو أساء أحدهما إلى جندي أو استأجر أحدهما جندياً أو أصدر حكماً ضده ظلماً لمصلحة من هو أعلى منه رتبة أو اغتصب منحة منحه إياها الملك فإن الـ «روكوم» أو الـ «لوبوتوم» يعاقب بالموت.

٣٥ ـ إذا اشترى رجل من جندي ماشية أو غنماً كان الملك قد أعطاها الجندي فإنه يدفع ماله غرامة.

٣٦ ـ حقل الجندي أو بستانه أو متعلقات بيته... هو أو المبعوث أو الاقطاعي.. لا تباع بحال من الأحوال.

٣٧ ـ إذا اشترى رجل حقلاً أو بستاناً أو شيئاً من متعلقات بيت جندي أو مبعوث أو

إقطاعي فإن لوحة التعاقد تكسر ثم يدفع ماله غرامة مع إعادة الحقل والبستان والبيت إلى صاحبها.

٣٨ ـ ليس من حق جندي أو مبعوث أو اقطاعي أن يتخلى عن حقله أو بستانه أو بيت إقطاعيته لزوجته أو ابنته وليس له بأي حال من الأحوال أن يتنازل عنها مقابل التزام عليه.

٣٩ ـ يجوز له أن يتنازل لزوجته أو ابنته عن أي حقل أو بستان أو بيت اشتراه ثم تملكه كنتيجة لذلك وهو يستطيع أن يعينها لالتزام خاص به.

٤٠ ـ « الناديتوم » (طبقة كهنوتية) أو التاجر أو الإقطاعي الخاص يستطيع أن يبيع حقله أو بستانه أو بيته على أن يتقبل الشاري التزام ما اشتراه.

٤١ ـ إذا تملك رجل عن طريق المقايضة حقلاً أو بستاناً أو بيتاً خاصاً بجندي أو مبعوث أو اقطاعي ثم قام بدفع ثمن إضافي فإن الجندي أو المبعوث أو الاقطاعي يعاود تملك حقله أو بستانه أو بيته، كما يحتفظ بما دفع إضافياً.

٤٢ ـ إذا استأجر رجل حقلاً للزراعة ثم لم ينتج حبوباً في الحقل فإن هذا يشير إلى أنه لم يقم بعمل في الحقل ومن ثم يدفع إلى مالك الحقل حبوباً على أساس الأرض المجاورة.

٤٣ ـ إذا لم يزرع الحقل بل أهمله فإنه يدفع حبوباً إلى صاحب الحقل على أساس ما يجاوره بل إنه يقوم بحرث الحقل الذي أهمله ويُعاد إلى صاحبه.

٤٤ ـ إذا استأجر رجلا حقلاً بوراً لمدى ثلاث سنوات لتحسينه ولكن كسله أدى إلى أنه لم يقم بتحسينه فإنه يحرث أرضه في السنة الرابعة ويكسر كتله ويعيده إلى صاحبه بل ـ أكثر من ذلك ـ يكيل عشرة « كور » من الحبوب لكل ١٨ « إيكو ».

٤٥ ـ إذا أجر مالك حقله لمستأجر وتسلم إيجار حقله ثم أغرق « أدد » فيما بعد الحقل أو اجتاحه فيضان فإن الخسارة تقع على المستأجر.

٤٦ ـ إذا لم يكن قد تسلم الإيجار سواء كان أجر الحقل لنصف « المحصول » أو ثلثه فإن مستأجر الحقل ومالكه يقتسمان ما ينتجه الحقل من حبوب.

٤٧ ـ إذا كان المستأجر قد طلب من آخر أن يزرع الحقل لأنه لم يستطع استغلاله في السنة السابقة فإن مالك الأرض ليس له أن يعترض ولمستأجره الجديد أن يزرع حقله وفي موسم الحصاد يأخذ الحبوب بما يتفق والعقود.

٤٨ ـ إذا كان هناك دين في ذمة رجل ثم أغرق « أدد » حقله أو اجتاحه فيضان أو لم تنمُ الحبوب بسبب الماء في الحقل فليس له أن يعيد شيئاً من الحبوب إلى دائنه في هذه السنة بل يلغي لوحة العقد ولا يدفع فائدة عن تلك السنة.

٤٩ ـ إذا اقترض رجل مالاً من تاجر ورهن عند التاجر حقلاً معداً للحبوب أو

السمسم وقال له « ازرع الحقل ثم اجمع المحصول وخذ الحبوب أو السمسم الذي تنتجه »....
وإذا كان المستأجر أنتج حبوباً أو سمسماً من الحقل فإن صاحب الحقل نفسه يأخذ في موسم الحصاد الحبوب أو السمسم التي انتجها الحقل ويعطي تاجر الحبوب مقابل ماله الذي استدانه منه مع الفوائد وكذا ما يقابل تكاليف الزراعة.

٥٠ ـ إذا رهن حقلاً مزروعاً بالحبوب أو حقلاً استنبت به السمسم فإن صاحب الحقل نفسه يأخذ الحبوب أو السمسم الذي أنتجه الحقل ثم يرد المال وأرباحه إلى التاجر.

٥١ ـ إذا لم يكن لديه المال ليرده فإنه يعطي التاجر مقابل ماله حبوباً أو سمسماً بسعر السوق الذي يحدده الملك، ذلك المال الذي استدانه التاجر مع فائدته.

٥٢ ـ إذا كان المستأجر لم ينتج حبوباً أو سمسماً في الحقل فله أن لا يغير عقده.

٥٣ ـ إذا تكاسل رجل عن أن يقوّي سد حقله ولم يصنعه قويًّا وحدث به صدع ثم كان من أثر ذلك أن اجتاح الماء الأرض المنزرعة فإن الرجل الذي انصدع السد في أرضه يأخذ مقابل الحبوب التي أصابها الخسار.

٥٤ ـ إذا لم يكن قادراً على التعويض بالحبوب يباع كما يباع متاعه ويقتسم الزارعون الذين أتلف الماء محصولهم ماله.

٥٥ ـ إذا حدث أن تكاسل رجل عند فتح قناته للري بحيث اجتاح الماء حقلاً مجاوراً لحقله فإنه يكيل تعويضاً بمقدار ما أصابه الخسار.

٥٦ ـ إذا فتح رجل الماء ثم تركه يغتال ما تم من عمل في حقل مجاور يدفع ١٠ « كور » مقابل كل ١٨ « إيكو ».

٥٧ ـ إذا لم يتفق راع مع صاحب حقل لترعى أغنامه الحشائش بل تركها ترعى الحقل دون موافقة صاحبه فإنه حين يجمع صاحب الحقل المحصول فإن الراعي الذي رعى غنمه في الحقل دون موافقة صاحب الحقل يدفع بالإضافة ٢٠ « كور » من الحبوب لكل ١٨ « إيكو » إلى صاحب الحقل.

٥٨ ـ إذا حدث بعد أن تركت الأغنام المرعى بعد أن احتجز القطيع كله داخل بوابة المدينة ـ أن ساق الراعي الأغنام إلى حقل ثم رعت فيه فإن الراعي ملزم بأن يرعى الحقل الذي رعت فيه الأغنام ثم إنه في موسم الحصاد يدفع ٦٠ « كور » لكل ١٨ « إيكو » إلى صاحب الحقل.

٥٩ ـ إذا قطع رجل شجرة من بستان رجل آخر دون موافقة صاحبه دفع نصف مينا من الفضة.

٦٠ ـ إذا حدث أنه عندما يسلم رجل الحقل إلى بستاني ليصنع بستاناً فإن البستاني حين يفعل ذلك يجب عليه أن يرعاه لمدة أربع سنوات وفي السنة الخامسة يتقاسمه مناصفة مع

صاحب الأرض. ولصاحب البستان حق الحصول على النصيب الأفضل.

٦١ - إذا لم يقم البستاني برعاية الحقل كله بل ترك جزءاً منه بوراً كان هذا الجزء من نصيبه.

٦٢ - إذا لم يقم بتحويل ما أعطيَه من أرض إلى بستان في حالة كونها أرضاً منزرعة يدفع البستاني إلى صاحب الأرض إيجار الحقل عن السنوات التي أهمل فيها على أساس الأراضي المجاورة كما يقوم بالعمل اللازم في الحقل الذي يعود إلى صاحبه.

٦٣ - إذا كانت أرضاً بوراً فإنه يقوم بالعمل اللازم في الحقل ويعيده إلى صاحبه كما يكيل ١٠ « كور » من الحبوب لكل ١٨ « إيكو » عن كل سنة.

٦٤ - إذا سلم رجل بستاناً إلى بستاني كي يلقحه، فإن البستاني يعطي صاحب البستان ثلثي محصول البستان كإيجار للبستان طيلة استثماره له. أما هو فيأخذ الثلث.

٦٥ - إذا لم يقم البستاني بتلقيح البستان ومن ثم هزل المحصول فإن البستاني يدفع إيجار البستان بما يعادل إيجار المثل المجاور.

٦٦ - إذا استدان رجل من تاجر ثم ضيّق عليه التاجر ولم يكن لديه ما يدفعه، فإذا أعطاه البستان بعد التلقيح وقال له « خذ مالك بلحاً بقدر ما أنتج البستان » فإنه لا يسمح للتاجر بذلك لأن لصاحب البستان نفسه أن يأخذ ما أنتج البستان من بلح ويدفع إلى التاجر مقابل ماله وفائدته طبقاً لنص اللوحة كما لصاحب البستان بدوره أن يأخذ بقية البلح الذي أنتجه البستان.

٦٧ - إذا بنى رَجل بيتاً فإن جاره.....

٦٨ - ......

٦٩ - ......

٧٠ - .....يعطيه.....

٧١ - إذا كان يعطي إقطاعية، يريد شراءها من ولاية مجاورة، حبوباً أو مالاً أو بضائع، فإنه يدفع غرامة ما سبق أن دفعه وتعود الضيعة إلى صاحبها. وإذا لم يكن للضيعة التزامات إقطاعية فله أن يشتريها ما دام يدفع لمثل هذه الضيعة حبوباً أو مالاً أو بضائع.

٧٢- ٧٧.... مواد ضائعة، إلا من ألفاظ ورد فيها أمر بناء المنزل.

٧٨ - إذا أجر رجل آخر منزلاً ودفع المستأجر الأجر إلى صاحب البيت لمدة عام ثم قال المالك للمستأجر وعقده لا يزال نافذ المفعول « اترك المنزل » فإن صاحب البيت يدفع غرامة المال الذي دفعه المستأجر لأنه طلب إليه أن يترك المنزل وعقده نافذ المفعول.

٧٩ - ٨٧......

٨٨ - إذا أقرض تاجر حبوباً بفائدة أخذ مقابلها ٦٠ « قو » من الحبوب لكل « كور »

كفائدة وإذا أقرض مالاً بفائدة أخذ سدس شاقل و ٦ « شي » (أي خمس شاقل) لكل شاقل من الفضة كفائدة.

٨٩ - إذا لم يكن لدى رجل ما يسد به الدين ولكن كانت لديه حبوب فإن التاجر يأخذ حبوباً مقابل ماله مع فائدة تتفق والسعر الذي يحدده الملك.

٩٠ - إذا زاد تاجر الفائدة على ٦٠ « قو » للـ « كور » من الحبوب أو سدس شاقل و ٦ « شي » على شاقل المال ثم أخذها فإنه يدفع غرامة تعادل ما أقرض.

٩١ - إذا أقرض تاجر حبوباً بفائدة ثم أخذ ماله بفائدة كاملة من الحبوب فإن الحبوب مع المال قد لا ....

٩٢ - ......

٩٣ - إذا كان التاجر..... أو لم يستنزل القدر الكافي من الحبوب الذي تسلمه ولم يكتب عقداً جديداً أو كان قد أضاف الفائدة إلى رأس المال فإن التاجر يردّ ضعف القدر الكامل الذي تسلمه من الحبوب.

٩٤ - إذا أقرض تاجر بفائدة حبوباً أو مالاً وعند التسليم دفع المال بالوزن الصغير والحبوب بالمكيال الصغير ولكن حين استرد فعل ذلك بالوزن الكبير والمكيال الكبير فإنه يدفع غرامة تعادل ما أقرضه.

٩٥ - إذا أقرض تاجر حبوباً أو مالاً بفائدة وأعطى... فإنه يدفع غرامة تعادل ما أقرضه.

٩٦ - إذا استدان رجل حبوباً أو مالاً من تاجر ولم يكن لديه حبوب أو مال يرده بل بضائع فإنه يعطي تاجره ما يملك مثبتاً أمام شهود أنه سيأتي بها وعلى التاجر أن يقبل ذلك دون اعتراض.

٩٧ - ..... فإنه يقتل.

٩٨ - إذا سلّم رجل إلى آخر مالاً للشركة فإنهما يقتسمان مناصفة في حضرة الإله الربح أو الخسارة الناجمين.

٩٩ - إذا أقرض تاجر مالاً بفائدة تاجراً متجولاً يقصد التجارة وأرسله إلى الطريق فإن التاجر المتجول... على الطريق.... المال الذي عهد إليه به.

١٠٠ - إذا كان قد حقق ربحاً حيث حل فإنه يسجل الفائدة على المبلغ بالكامل الذي استدانه ثم يحسبان الأيام عليه، ويرد إلى التاجر.

١٠١ - إذا لم يكن قد حقق ربحاً حيث ذهب فإن التاجر المتجول يدفع إلى التاجر ما اقترضه من مال مضاعفاً.

١٠٢ - إذا كان تاجر قد أقرض تاجراً متجولاً قرض مجاملة وتحققت خسارة حيث

ذهب فإنه يعيد رأس المال إلى التاجر.

١٠٣ ـ إذا هاجمه عدو في الطريق جعله يسلم إليه كل ما يحمل فإن التاجر المتجول يقسم بالإله وعندئذٍ يطلق حراً.

١٠٤ ـ إذا أقرض تاجر تاجراً متجولاً حبوباً أو صوفاً أو زيتاً أو أي بضاعة لبيعها بالقطاعي فإن التاجر المتجول يسجل القيمة ويردها إلى التاجر على أن يتسلم وصلاً بما يدفعه إليه من مال.

١٠٥ ـ إذا كان التاجر المتجول مهملاً بحيث لم يحصل على وصل مختوم بالمال الذي دفعه إلى التاجر فإن المال بغير وصل مختوم قد لا يضاف إلى الحساب.

١٠٦ ـ إذا استدان تاجر متجول مبلغاً من المال من تاجر ثم حدث نزاع فإنّ على التاجر أن يثبت في حضرة الإله والشهود أن التاجر المتجول استدان المبلغ وعندئذٍ يدفع التاجر المتجول إلى التاجر ثلاثة أمثال المبلغ موضوع الدين.

١٠٧ ـ إذا عهد تاجر بشيء إلى تاجر متجول ثم أعاد هذا إليه ما أعطاه فإنه في حالة حدوث نزاع بينهما وإنكار التاجر المتجول أنه تسلم شيئاً فإنه على التاجر المتجول أن يثبت ذلك بالقسم ضد التاجر في حضرة الإله والشهود وعندئذ يدفع التاجر ستة أمثال الشيء موضوع هذا النزاع.

١٠٨ ـ إذا تسلّمت بائعة خمور ثمناً للشراب نقوداً بالوزن الكبير بدلاً من أن تتسلم حبوباً وبذا جعلت سعر الشراب أقل من قيمة الحبوب فإنهم يثبتون ذلك ضدها ويلقون بها في ماء النهر.

١٠٩ ـ إذا تجمهر بعض المتشردين في حانة بائعة خمور ولم تقبض عليهم ولم تأخذهم إلى القصر فإنها تقتل.

١١٠ ـ إذا كانت «ناديتوم» (من طبقة الكاهنات) أو «أنتوم» (من طبقة الراهبات) ممن لا يَعِشْن في دير ـ يفتتحنَ حانة أو يدخلنَ حانة بقصد الشراب فالعقوبة: الحرق.

١١١ ـ إذا أعطت بائعة قنينة من شراب «بيخوم» نسيئة فإنها تأخذ ٥٠ ـ قو ـ من الحبوب عند جمع المحصول.

١١٢ ـ إذا كان رجل في رحلة تجارية وأعطى رجلاً آخر فضة وذهباً وأحجاراً كريمة أو أية بضائع من متعلقاته وعهد إليه بنقلها فإن هذا الرجل إذا لم يسلّم ما كان يجب نقله إلى حيث كان يجب نقله بل أخذه لنفسه فإن صاحب البضائع التي كان مفروضاً أن تنقل يجب أن يثبت الاتهام ضد الرجل الأخير فيما يتصل بموضوع ما كان يجب نقله ولم يسلمه وعندئذ يدفع الرجل إلى صاحب البضاعة التي كان يجب أن تنقل خمسة أمثال ما سلم إليه.

١١٣ - إذا كان لرجل دين من حبوب أو مال على آخر ثم أخذ حبوباً من الشونة أو ساحة التذرية بغير موافقة صاحب الحبوب فيجب اثبات أن هذا الرجل أخذ حبوباً من الشونة أو ساحة التذرية دون موافقة صاحب الحبوب وعندئذٍ يعيد كمية الحبوب التي أخذها بأكملها ثم يدفع كذلك غرامة كل شيء آخر يكون قد اقترضه.

١١٤ - إذا لم يكن لرجل دين حبوب أو مال على آخر ولكن احتجزه كرهن فإنه يدفع ثلث مينا من الفضة عن كل احتجاز.

١١٥ - إذا كان لرجل دين حبوب أو مال على آخر ثم احتجز شخصاً كرهينة ثم ماتت الرهينة ميتة طبيعية في بيت المحتجز فليس هناك وجه لإقامة الدعوى.

١١٦ - إذا كان موت الرهينة نتيجة ضرب أو إساءة في بيت المحتجز فإن صاحب الرهن عليه أن يثبت ذلك ضد تاجره فإن كان ابن الرجل قتل الابن، وان كان عبده دفع ثلث مينا من الفضة وغرامة عن كل ما يكون قد اقترضه.

١١٧ - إذا حل أجل التزام على رجل ثم باع خدمات زوجته أو ابنه أوابنته أو سخرهم للخدمة فإنهم يعملون في بيت مشتريهم أو ملتزمهم مدى ثلاث سنوات وتعاد إليهم حريتهم في السنة الرابعة.

١١٨ - إذا سُخّر عبد أو أمة للخدمة ثم أراد التاجر إشهار البيع فله أن يبيع دون وجه لإقامة الدعوى ضده.

١١٩ - إذا قام التزام على رجل وكان من نتيجة ذلك أنه باع خدمات أمته التي ولدت أطفالاً فإن صاحب الأمة يستطيع أن يدفع فيما بعد ما كان التاجر قد دفعه ولم يسترد أمته.

١٢٠ - إذا أودع رجل حبوبه بيت رجل آخر فخزنها وحدث تلف في الشونة، أو كان صاحب البيت قد فتح المخزن وأخذ حبوباً أو أنه أنكر تماماً تسلّمه أيّ حبوب بقصد خزنها في بيته فعلى صاحبها أن يبيّن تفصيلات حبوبه في حضرة الإله وعندئذٍ يعطي صاحب البيت مالكَ الحبوب ضعف ما أخذ من حبوب.

١٢١ - إذا أودع رجل حبوباً بيت آخر فعليه أن يدفع ٥ « قــو » مــن الحبــوب لكــل « كور » مقابل التخزين لمدة سنة.

١٢٢ - إذا أراد رجل أن يودع آخر فضة أو ذهباً أو أي شيء آخر لحفظه (أمانة) فيجب أن يبيّن لشهود مقدار ما يود إيداعه ثم يحرر عقداً وعندئذٍ تتم عملية الحفظ (الإيداع).

١٢٣ - إذا سلم شيئاً لحفظه بغير شهود أو عقود ثم أنكروا تسلمها حيث أودعها فإن الحال لا يستدعي إقامة دعوى.

١٢٤ - إذا أعطى رجل آخر فضة أو ذهباً أو أي شيء آخر بصفة أمانة بحضرة شهود

ثم أنكر الواقعة فيجب إثباتها ضده وعندئذ يدفع ضعف ما أنكره.

١٢٥ - إذا أودع رجل متاعه كأمانة ثم اختفى.المتاع حيث أودعه كما اختفى متاع صاحب البيت إما بسبب دخول اللصوص وإما عن طريق نقب الحائط فإن صاحب البيت الذي كان إهماله سبباً في تبديد الأمانة يجب أن يعوض صاحب البضائع وعليه أن يبحث جدياً بحثاً كاملاً عن متاعه الضائع ويأخذه من اللص الذي سرقه.

١٢٦ - إذا لم يكن متاع الرجل قد سرق ولكنه أعلن « أن متاعي قد سرق » وبدا يحاول خدع مجلس مدينته فإن مجلس المدينة يستعرض الحقائق بحضرة الإله ويبيّن أن متاعه لم يسرق وعندئذ يدفع إلى مجلس مدينته ضعف ما ادعى به.

١٢٧ - إذا شهّر رجل براهبة أو زوجة رجل آخر ولم يستطع إثبات شيء جُرَّ ذلك الرجل إلى حضرة القضاة وقُصَّ كذلك نصف شعره.

١٢٨ - إذا كان لرجل زوجة ولكن لم يحرر معها عقوداً فإن هذه المرأة ليست زوجة.

١٢٩ - إذا ضبطت زوجة في حالة تلبّس مع رجل آخر رُبطا معاً وألقي بهما في ماء النهر. فإذا أراد الزوج إبقاء زوجته فللملك أن يحفظ على الرجل من رعيته حياته.

١٣٠ - إذا اتصل رجل بخطيبة آخر ولم يكن قد واقعها رجل من قبل وكانت لا تزال في بيت أبيها ثم رقد في صدرها وأمسك بها فإنه يقتل، أما المرأة فتطلق حرة.

١٣١ - إذا اتهم رجل زوجته ولم تضبط متلبسة مع آخر وأثبتت دعواها بقَسَم أمام الإله عادت إلى بيتها.

١٣٢ - إذا شهّر بزوجة بسبب رجل آخر ولكن لم تضبط متلبسة في حالة اضطجاع مع رجل آخر فإنها تلقي بنفسها في النهر من أجل زوجها.

١٣٣ - إذا لم تحترس المرأة ثم دخلت بيت رجل آخر وجب إثبات ذلك ضدها ثم يلقى بها في النهر.

١٣٤ - إذا أُسِر رجل ولم يكن هناك في بيته ما يحفظ لأسرته الحياة فلزوجته أن تدخل بيت رجل آخر ولا لوم عليها.

١٣٥ - إذا لم يكن في بيت الأسير ما يكفي للانفاق على أسرته ثم دخلت زوجته بيت رجل آخر قبل عودته وولدت له أطفالاً وأخيراً عاد زوجها ووصل إلى مدينته فإن هذه المرأة تُعاد إلى زوجها الأول وأما الأولاد فيبقون مع أبيهم.

١٣٦ - إذا هجر رجل مدينته ثم هرب ثم دخلت زوجته بيت رجل آخر بعد رحيله فإنه عند عودته ورغبته في استعادة زوجته لا تعود الزوجة إلى زوجها الهارب لأنه احتقر مدينته وفر هارباً.

١٣٧ - إذا عول رجل على أن يطلّق « شوجيتوم » رزقت منه أطفالاً أو « ناديتوم »

جاءته بأطفال ردّت إلى هذه المرأة بائنتها. كما تعطى نصف الحقول والبستان والمتاع حتى يربّي أولادها وبعد أن تُتِمّ تنشئة أولادها تعطى نصيباً مماثلاً لأي وريث مما يوزع على أولادها حتى يستطيع الرجل الذي يختارها أن يتزوجها.

١٣٨ ـ إذا أراد رجل أن يطلق زوجته التي لم ترزق منه أطفالاً فعليه أن يسلّم إليها بالكامل كل ثمن زواجها وكذا بائنتها التي جاءت بها من بيت أبيها... ثم يطلقها.

١٣٩ ـ إذا لم يكن هناك ثمن زواج «فإنه يعطيها ـ مينا» واحدة من الفضة لإتمام الطلاق.

١٤٠ ـ إذا كان مزارعاً أعطاها ثلث مينا من الفضة.

١٤١ ـ إذا كانت زوجة رجل تعيش في بيته قد عوّلت على أن تترك البيت لتعمل وبذا تهمل بيتها ويستشعر زوجها المهانة فيجب إثبات ذلك ضدها وإن عول زوجها بسبب ذلك على تطليقها فإنه يطلّقها دون إعطائها شيئاً لإتمام الطلاق عند رحيلها. وأما إذا لم يكن زوجها قد عول على تطليقها فله أن يتزوج غيرها وتبقى الزوجة السابقة في بيت زوجها كخادمة.

١٤٢ ـ إذا كرهت امرأة زوجها بحيث قالت «لا صلة لك بي» فيتحرى عن حالتها أمام مجلس المدينة فإذا كانت حريصة بحيث لا يبدو منها ما يعيبها رغم أن زوجها يخرج ويتحدث عنها بسوء فإن هذه المرأة يمكن تسريحها دون لوم إطلاقاً إلى بيت أبيها على أن تأخذ بائنتها معها.

١٤٣ ـ إذا لم تكن حريصة بل كانت دائمة الخروج للزيارات وبذا تهمل بيتها ويستشعر زوجها المهانة فإنه يلقي بها في ماء النهر.

١٤٤ ـ إذا تزوج رجل «ناديتوم» ثم اسلمت هذه جارية لها إلى زوجها ثم رزق منها أطفالاً وعول على التزوج بكاهنة فليس له أن يفعل ذلك لأنه ليس له أن يتزوج كاهنة.

١٤٥ ـ إذا تزوج رجل «ناديتوم» ولم يرزق منها أطفالاً ثم عول على التزوج بكاهنة فله أن يتزوجها ويأتي بها إلى بيته ولكن هذه الكاهنة لا ترتفع إطلاقاً إلى مرتبة الـ «ناديتوم».

١٤٦ ـ إذا تزوج رجل «ناديتوم» وأعطته جارية حملت منه وجاءت بأطفال ثم طالبت بالمساواة بسيدتها لأنها رزقت أطفالاً فليس لسيدتها أن تبيعها ولكن لها أن تدمغها بميسم الإماء وتعدّها ضمن عبيدها.

١٤٧ ـ إذا لم ترزق أطفالاً فلسيدتها أن تبيعها.

١٤٨ ـ إذا تزوج رجل ثم مرضت زوجته بالحمى فإنه في حالة عزمه على الزواج بأخرى فله أن يفعل ذلك دون أن يطلق زوجته التي مرضت بالحمى... إنها يجب أن تعيش

في البيت الذي بناه ويستمر في إعالتها طيلة حياتها.

١٤٩ ـ إذا كانت هذه المرأة قد رفضت ان تعيش في بيت زوجها ردّت إليها بائنتها التي جاءت بها من بيت أبيها وعندئذ لها أن تترك البيت.

١٥٠ ـ إذا كان رجل، عند إهداء حقل أو بستان أو بيت أو متاع إلى زوجته، قد حرر عقداً مختوماً معها فإن أولادها لا يستطيعون الدخول في دعوى ضدها بعد وفاة زوجها ما دامت الأم تستطيع أن تمنح إرثها ابنها الذي تحبه ولكن ليس لها أن تعطيه غريباً.

١٥١ ـ إذا كانت امرأة تعيش في بيت زوجها قد نصّت في عقد زواجها إن دائني زوجها لا يستطيع ارتهانها بمقتضى إبراز وثيقة مكتوبة. ثم حدث أن كان الرجل مديناً قبل الزواج بتلك المرأة فإن دائنيه لا يستطيعون احتجازها كما أنه إذا كانت هي مدينة قبل دخولها بيت زوجها فإن دائنيها لا يستطيعون احتجاز زوجها.

١٥٢ ـ إذا حدث الدين بعد دخول المرأة بيت زوجها فعلى الاثنين أن يسألا أمام التاجر (يقصد الدائن).

١٥٣ ـ إذا سببت امرأة بموت زوجها بسبب رجل آخر وُضعت على الخازوق.

١٥٤ ـ إذا واقع رجل ابنته فعليه أن يترك المدينة.

١٥٥ ـ إذا اختار رجل عروساً لابنه ثم واقعها ابنه ثم ضبط هو بعد ذلك متلبساً معها رُبط وأُلقي به في النهر.

١٥٦ ـ إذا اختار رجل عروساً لابنه ولم يواقعها ابنه ولكن ضاجعها هو فإنه يدفع لها نصف مينا من الفضة ثم يرد إليها كل ما جاءت به من بيت أبيها حتى يستطيع الرجل الذي تختاره أن يتزوجها.

١٥٧ ـ إذا ضاجع رجل أمه بعد موت أبيه أحرق كلاهما.

١٥٨ ـ إذا ضبط رجل بعد موت أبيه متلبساً بمضاجعة مرضعته التي كانت حاملة أطفال فإنه يقطع من بيت أبيه.

١٥٩ ـ إذا جاء خطيب إلى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج ثم أحب امرأة أخرى وقال لحميه المقبل « لن أتزوج ابنتك » فإن أبا الفتاة يحتفظ بكل ما جيء إليه به.

١٦٠ ـ إذا جاء خطيب إلى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج ثم قال والد الفتاة له « لن أزوجك ابنتي » فإنه يرد ضعف ما جيء إليه به.

١٦١ ـ إذا جاء خطيب إلى بيت حميه المقبل بهدية الخطبة ودفع ثمن الزواج وأساء إليه صديق له بأن قال ان حماه المقبل قال « لن تتزوج ابنتي » فإنه يرد مضاعفاً ما جيء إليه به. ولكن صديقه لا يتزوج تلك الزوجة.

١٦٢ ـ إذا اتخذ رجل زوجة ورزقت منه أطفالاً ثم ماتت فليس لأبيها أن يسترد بائنتها لأن هذه البائنة ملك لأولادها.

١٦٣ ـ إذا اتخذ رجل زوجة ثم ماتت دون أن تجيئه بأطفال وأعاد له حموه ثمن الزواج الذي كان قد قدمه إلى بيت حميه فليس لزوجها أن يدعي حقاً في بائنتها لأن هذه البائنة من حق بيت أبيها.

١٦٤ ـ إذا لم يردّ حموه ثمن الزواج إليه فإنه يستنزل مبلغ ثمن الزواج بأكمله من بائنتها ويرد بقية البائنة إلى بيت أبيها.

١٦٥ ـ إذا كان رجل، عند إهداء حقل أو بستان أو بيت إلى بكر أولاده المحبوب في عينيه، قد كتب وثيقة مختومة له وجاء إخوته للتقسيم بعد وفاة أبيهم فإنه يحتفظ بالهدية التي أعطاها إياها أبوه مالاً كما أن ضيعة الأب تقسم بينهم بالتساوي.

١٦٦ ـ إذا كان رجل لم يختر زوجة لأصغر أبنائه عند اختياره زوجات لأبنائه فإن إخوته حين يقسمون تركته بعد موته يعطون أصغر الأبناء حصة إضافية تعادل ثمن الزواج من ضيعة أبيهم وهكذا يمكنونه من الحصول على زوجة.

١٦٧ ـ إذا تزوج رجل ورزق أطفالاً ثم ماتت زوجته فتزوج من بعدها بامرأة أخرى رزق منها أطفالاً كذلك فإنه حين يموت لا يقتسم الأطفال التركة تبعاً لأمهاتم بل يستولون على بائنة الأمّين، كل مجموعة على حدة ثم تقسم تركة الرجل بالتساوي بعد ذلك.

١٦٨ ـ إذا أراد رجل أن يحرم أحد أبنائه وقال للقضاة «أريد حرمان ابني من الإرث» فإن القضاة يتحرّون حالته فإذا لم يكن الابن قد ارتكب ذنباً خطيراً بحيث يحرمه حقه في البنوّة فليس من حق الأب أن يقطع عنه حقه في البنوّة.

١٦٩ ـ إذا كان قد ارتكب إثماً خطيراً يكفي لحرمانه من البنوّة فيجب العفو عن ذنبه الأول، فإن ارتكب خطأ خطيراً للمرة الثانية، فللأب أن يحرمه.

١٧٠ ـ إذا ولدت الزوجة الأولى لزوجها أطفالاً ثم جاءته جاريته بأطفال وقال الزوج في خلال حياته «أطفالي» لابناء الجارية وبذا عدهم كأطفال الزوجة الأولى فإنه بعد موت الأب تقسم التركة بالتساوي بين أطفال الزوجة الأولى وأطفال الجارية على أن يكون لبكر الزوجة الأولى نصيب مفضّل.

١٧١ ـ ومع ذلك فإذا لم يقل الأب خلال حياته «أطفالي» لمن جاءت بهم الجارية فإنه بعد وفاة الأب لا يشارك أبناء الجارية في متاع الأب أبناء الزوجة الأولى ولكن تحرّر الجارية وأولادها. وليس لأبناء الزوجة الأولى حق الخدمة على أبناء الجارية. وتأخذ الزوجة الأولى بائنتها وهدية الزواج اللتين كتبهما زوجها لها على لوحة وتعيش في بيت زوجها وتستمتع بالحياة فيه طيلة عمرها دون أن يكون لها حق بيعه لأنه ميراث يخص أولادها.

١٧٢ ـ إن لم يكن زوجها قد أعطاها هدية زواج ترد إليها بائنتها وتحصل من متاع زوجها على ميراث يعد أحد الأنصبة. وإن ظل أولادها يضايقونها ليدفعوها إلى ترك الدار يتحرى القضاة الأمر ثم يلقون اللوم على الأولاد. وهكذا لا تترك المرأة البيت. أما إن عولت على تركه فتترك لأولادها هدية زواجها التي أعطاها إياها زوجها. أما البائنة التي أخذتها من بيت أبيها فتأخذها معها حتى يتزوجها الرجل الذي تختاره.

١٧٣ ـ إذا كانت تلك المرأة قد رزقت أطفالاً من زوجها الأخير في المكان الذي دخلته فإنه في حال موتها يقتسم أطفالها من زوجها القديم والجديد البائنة.

١٧٤ ـ إذا لم تكن قد رزقت أطفالاً من الزوج الثاني فأطفال الزوج الأول وحدهم يتقاسمون البائنة.

١٧٥ ـ إذا تزوج عبد للقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة رجل حر ورزقت منه أطفالاً فليس لسيد العبد حق الخدمة على الأطفال من ابنة السيد.

١٧٦ ـ هذا إلى أنه إذا تزوج عبد للقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة سيد ثم إنها دخلت حين تزوجها بيت عبد القصر أو بيت عبد المواطن الخاص ببائنتها وارتبط بعضهما ببعض ثم أسسا بيتاً وأثثاه بمتاع ثم مات العبد فإن ابنة السيد تأخذ بائنتها ثم يقسم إلى قسمين ما اشتركت مع زوجها في شرائه بعد ارتباطها ويأخذ صاحب العبد النصف وتأخذ هي النصف لأولادها.

١٧٦ «أ» ـ إذا لم يكن لابنة السيد بائنة يقسم إلى نصفين ما اشترته مع زوجها بعد ارتباطها ويأخذ صاحب العبد نصفاً وتأخذ هي نصفاً لأولادها.

١٧٧ ـ إذا كان لأرملة أطفال قصر وعولت على دخول بيت رجل آخر فليس لها أن تدخل دون موافقة القضاة. فإنها حين تريد دخول بيت رجل آخر يتحرى القضاة حالة تركة زوجها السابق ثم يعهدون إلى زوجها الثاني برعاية تركة زوجها السابق وتحرر لوحة بينهم وبين المرأة تثبت أنهم سيرعون التركة ويربون القاصرين دون التعرض بالبيع لمتاع البيت لأن المشتري الذي يقدم على شراء متاع بيت أطفال أرملة يخسر ماله ويعاد المتاع إلى أصحابه.

١٧٨ ـ في حالة الراهبة أو الـ «ناديتوم» أو المنذورة «زيكروم» التي كتب أبوها لها لوحة عند تفديه بائنتها فإنه إذا لم يكن قد سجل بها تصريحه بتوريثها لمن تشاء ولم يكن قد منحها مطلق التصرف بعد موته فإن إخوتها يأخذون حقلها وبستانها ولكنهم يطعمونها ويعطونها زيتاً وملابس تعادل قيمة نصيبها بحيث تبدو راضية. فإذا لم يقدموا إليها طعاماً وزيتاً وملابس مناسبة تعادل قيمة نصيبها بحيث تبدو راضية فلها أن تعطي حقلها وبستانها أي مستأجر ترضاه. والمستأجر في هذه الحالة سيرعاها ما دامت تستولي على ثمار الحقل

والبستان أو ما منحها أبوها طيلة حياتها دون حق تصرف في البيع أو التوصية للغير لأن نصيبها يخص إخوتها من بعدها.

١٧٩ ـ في حالة الراهبة أو الـ « ناديتوم » أو المنذورة التي كتب لها أبوها عند تقديم البائنة صكاً مختوماً وسجل في اللوحة التي كتبها تصريحه بالتصرف في ميراثها وفق هواها ومنحها مطلق الحرية، فإنه بعد وفاته لها أن تسلم ميراثها إلى من تشاء وليس لإخوتها حق الدعوى عليها.

١٨٠ ـ إذا لم يقدم أب بائنة إلى ابنته « ناديتوم » في دير أو منذورة فإنه بعد موته تتسلم كنصيب لها من متاع أبيها في تركته نصيباً مماثلاً لأي وريث ولكن لها فقط أن تستمتع باستثماره طيلة حياتها لأن نصيبها في الميراث ملك لإخوتها من بعدها.

١٨١ ـ إذا كرس اب ابنته لمعبود كـ « ناديتوم » أو « عاهرة مقدسة » أو « كولماشيتوم » (متعبدة) ولم يقدم إليها بائنة فإنها بعد موته تأخذ نصيباً من تركته بمقدار الثلث ولها استثماره طيلة حياتها فقط لأنه يخص إخوتها.

١٨٢ ـ إذا كان أب لم يقدم بائنة إلى ابنته الـ « ناديتوم » لـ « مردوك » بابل ولم يسجل وثيقة مختومة لها فإنها بعد موته تشارك إخوتها في تركة الأب بنسبة الثلث لها ولكن ليس لها أن تباشر أية التزامات إقطاعية لأن لـ « ناديتوم » « مردوك بابل » حق منح ميراثها من تشاء.

١٨٣ ـ إذا حرر أب وثيقة مختومة لابنته الكاهنة عند تقديم بائنتها فلها بعد موته أن تأخذ نصيبها في تركة أبيها.

١٨٤ ـ إذا لم يقدم رجل بائنة إلى ابنته الكاهنة لأنه لم يزوجها فعلى إخوتها بعد موته أن يقدموا إليها هدية تتناسب مع قيمة التركة التي خلّفها الأب ويقدموها إلى زوجها.

١٨٥ ـ إذا تبنّى رجل ولداً باسمه، ورباه، فإن الطفل المتبنّى لا يُستَرجع إطلاقاً.

١٨٦ ـ إذا تبنّى رجل ولداً عرف أبوه وأمه عند تبنّيه فللطفل أن يعود إلى بيت أبيه.

١٨٧ ـ الابن المتبنى لموظف القصر أو خادم أو منذور لا يُرَدّ اطلاقاً.

١٨٨ ـ إذا أخذ عضو من طبقة الصناع ولداً متبنى وعلمه حرفته فله الحق ألا يرده إطلاقاً.

١٨٩ ـ إذا لم يكن قد علمه حرفته فمن الممكن أن يعود الطفل المتبنى إلى بيت أبيه.

١٩٠ ـ إذا لم يَعدّ رجل من بين أبنائه الولد الذي تبناه ورباه فلهذا المتبنى أن يعود إلى بيت أبيه.

١٩١ ـ إذا تبنى رجل ولداً ورباه ثم أسس أسرة له وجاءه أولاد فيما بعد، وعول على إبعاد المتبنى، فإن هذا الولد لا يذهب فارغ اليد، إذ أنه على من تبناه أن يعطيه من متاعه

ثلث ما يملك وله أن يسرّحه بعد ذلك ما دام لم يعطه حقلاً أو بستاناً أو بيتاً.

١٩٢ - إذا قال متبنى موظف قصر أو منذور لأبيه بالتبني أو أمه بالتبني «لست أبي» أو «لست أمي» قُطع لسانه.

١٩٣ - إذا وجد متبنى موظف قصر أو منذور أبويه وكره أباه بالتبني وأمه بالتبني ثم ذهب إلى بيت أبويه قُلعت عيناه.

١٩٤ - إذا أعطى رجل ابنه مربية ثم مات وهو تحت رعايتها فإنه في حالة تعاقد المربية مع ابن آخر دون علم الأب والأم فعليهما أن يثبتا ذلك ضدها ثم يقطعان ثديها لأنها تعاقدت مع ابن آخر دون علم أبيه وأمه.

١٩٥ - إذا ضرب ولد أباه قُطعت يده.

١٩٦ - من يتسبب في إتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تفقأ عينه.

١٩٧ - من يكسر عظمة رجل آخر تكسر عظمته.

١٩٨ - من يُفْقد رجلاً من العامة عينه أو إحدى عظامه يدفع مينا من الفضة.

١٩٩ - من يُفقد عبداً عينه أو إحدى عظامه يدفع نصف القيمة.

٢٠٠ - من يُسقط سن رجل من طبقته تكسر سنه.

٢٠١ - من يُسقطُ سن رجل من العامة يدفع ثلث مينا من الفضة.

٢٠٢ - من يلطم خد آخر أعلى منه مرتبة يجلد ستين جلدة بسوط من جلد الثور علناً.

٢٠٣ - إذا لطم نبيل خدّ نبيل من نفس المرتبة دفع مينا من الفضة.

٢٠٤ - إذا لطم رجل من العامة خد آخر دفع ١٠ شواقل من الفضة.

٢٠٥ - إذا لطم عبد خد نبيل صُلمت أذنه.

٢٠٦ - إذا ضرب رجل في معركة رجلاً آخر فأصابه فإنه يقسم قائلاً «أنا لم أضربه عمداً» وعليه كذلك أن يدفع أجر الطبيب.

٢٠٧ - إذا مات بسبب الضربة أقسم نفس القسم. فإذا كان من النبلاء دفع نصف مينا من الفضة.

٢٠٨ - إذا كان من العامة دفع ثلث مينا من الفضة.

٢٠٩ - إذا ضرب رجل ابنة رجل آخر وأجهضت دفع ١٠ شواقل من الفضة بسبب إجهاضها.

٢١٠ - إذا ماتت المرأة قتلت ابنته.

٢١١ - إذا وقعت الإصابة على ابنة رجل من العامة دفع ٥ شواقل من الفضة

٢١٢ - إذا ماتت هذه المرأة دفع نصف مينا من الفضة.

٢١٣ - إذا ضرب جارية فأجهضها دفع شاقلين من الفضة.

٢١٤ - إذا ماتت الجارية دفع ثلث مينا من الفضة.

٢١٥ - إذا باشر طبيب عملية كبرى لرجل بسلاح من البرونز فأنقذ حياته ثم فتح خراجاً بعين رجل بسلاح برونزي فأنقذ العين فأجره عشرة شواقل من الفضة.

٢١٦ - إذا كان من العامة أخذ خمسة شواقل.

٢١٧ - إذا كان عبد فإن صاحب العبد يعطي الطبيب شاقلين.

٢١٨ - إذا باشر طبيب عملية كبرى بسلاح برونزي وتسبب بموته أو فتح خراجاً بعينه فأتلفها قُطعت يده.

٢١٩ - إذا كانت العملية لعبد رجل من العامة ومات عوضه منه عبداً.

٢٢٠ - إذا باشر العملية لعين العبد بالسلاح البرونزي فأتلفها دفع نصف ثمنه من الفضة.

٢٢١ - إذا أصلح طبيب عظمة مكسورة أو شفى تمزقاً عضلياً فعلى المريض أن يدفع إلى الطبيب خمسة شواقل.

٢٢٢ - إذا كان من العامة دفع ثلاثة شواقل من الفضة.

٢٢٣ - إذا كان عبداً دفع صاحبه إلى الطبيب شاقلين من الفضة.

٢٢٤ - إذا قام طبيب بيطري بعملية كبرى لثور أو حمار وأنقذ حياته فإن صاحب الثور أو الحمار يدفع إلى الجرّاح سدس شاقل من الفضة أجراً له.

٢٢٥ - إذا قام بالعملية لثور أو حمار وتسبب في وفاته دفع إلى صاحب الثور أو الحمار ربع قيمته.

٢٢٦ - إذا محا رجل ممن يقومون بالوشم علامة عبد لرجل آخر دون موافقة العبد قطعت يده.

٢٢٧ - إذا خادع رجل أحد المختصين بالوشم بحيث أزال علامة العبد من عبد لرجل آخر قُتل ذلك الرجل وعُلق على باب بيته ويقسم المختص بالوشم قائلاً « أنا لم أقم بإزالتها عن علم » ثم يطلق سراحه.

٢٢٨ - إذا بنى بنّاء بيتاً لرجل وأنجزه له فإنه يعطيه شاقلين من الفضة لكل « سار » من البيت أجراً له.

٢٢٩ - إذا بنى بناء بيتاً لرجل ولم يقم البناء بحيث انهار المبنى وتسبب بوفاة صاحب البيت قتل البنّاء.

٢٣٠ - إذا أدى ذلك إلى موت ابن صاحب البيت قُتِل ابنه.

٢٣١ - إذا كان سبباً بموت عبد عوّض صاحب البيت منه عبداً.

٢٣٢ - إذا تسبب بإتلاف متاع عوّض من كل ما أتلف. وكذلك لأنه لم يُقِم البيت

متيناً فانهار أعاد بناء البيت الذي انهار على نفقته.

٢٣٣ - إذا بنى بنّاء بيتاً لرجل ولم يكن عمله مأموناً بحيث أصبح الحائط خطراً وغير مأمون فعليه أن يدعم الحائط على نفقته.

٢٣٤ - إذا صنع مراكبي مركباً سعته ٦٠ كوراً لرجل فأجره شاقلان من الفضة.

٢٣٥ - إذا صنع المركب ولم يقم بعمله قياماً حسناً بحيث تفكك أحد أقواسه في نفس السنة... وحيث أنه ظهر هذا العيب فعلى المراكبي أن يفك القارب ويقويه على نفقته ويسلم المركب المقوى إلى صاحبه.

٢٣٦ - إذا أجر رجل مراكبياً مركبه وأهمله هذا بحيث غرق أو غاص فإنه يعوّض صاحب المركب الأول منه مركباً آخر.

٢٣٧ - إذا استأجر رجل مركباً وحمّله بالحبوب والصوف والزيت والملح أو أي نوع من الحمولة ثم أهمله المراكبي بحيث غاص المركب وضاع ما يحمل فإن المراكبي يعوض منه مقدار ما غاص وما فقد.

٢٣٨ - إذا أغرق مراكبي مركب رجل ثم أعاد تعويمه فإنه يدفع نصف قيمته فضة.

٢٣٩ - إذا استأجر رجل مراكبياً أعطاه ٦ « كورات » من الحبوب في السنة.

٢٤٠ - إذا اصطدم قارب تجديف بمركب شراعي وأغرقه فإن صاحب المركب المغرق يقدم بحضرة الإله التفصيلات المتصلة بما فقد من مركبه وعلى المسؤول عن قارب التجديف الذي أغرق المركب الشراعيّ أن يعوضه من مركبه ومن بضاعته المفقودة.

٢٤١ - إذا احتجز رجل ثوراً كرهينة دفع ثلث مينا من الفضة.

٢٤٢ - ٢٤٣ - إذا استأجره رجل لمدة سنة أعطى صاحبه ٤ « كورات » من الحبوب كإيجار لثور الجر و ٣ « كورات » من الحبوب كإيجار لثور الشد الصغير.

٢٤٤ - إذا استأجر رجل ثوراً ثم قتله أسد في الخلاء فإن الخسارة تعود على صاحبه.

٢٤٥ - إذا استأجر رجل ثوراً وتسبب بموته بسبب إهماله إياه أو ضربه فيعوض صاحب الثور من ثوره بثور آخر.

٢٤٦ - إذا استأجر رجل ثوراً ثم كسر إحدى قوائمه أو أحدث قطوعاً في عضلة رقبته عوّض صاحب الثور من ثوره بثور آخر.

٢٤٧ - إذا استأجر رجل ثوراً ثم أتلف عينه دفع نصف قيمته فضة لصاحب الثور.

٢٤٨ - إذا استأجر رجل ثوراً ثم كسر قرنه أو قطع ذيله أو أصاب لحم ظهره دفع ربع قيمته فضة.

٢٤٩ - إذا استأجر رجل ثوراً ثم ضربه الإله فمات فمستأجر الثور يثبت ذلك عن طريق الإله ثم يطلق حراً.

٢٥٠ ـ إذا نطح ثور رجلاً أثناء مسيره في الشارع فمات الرجل فليس الأمر موضع دعوى.

٢٥١ ـ إذا كان لرجل ثور معروف بالنطح وأخطره بذلك مجلس مدينته ولكنه لم يخفف قرنيه أو يربطه ثم نطح الثور واحداً من النبلاء فمات دفع نصف مينا من الفضة.

٢٥٢ ـ إذا كان المقتول عبداً فإنه يدفع ثلث مينا من الفضة.

٢٥٣ ـ إذا استأجر رجل آخر ليشرف على حقوله وأقرضه حبوب الاطعام وعهد إليه بالثيران وتعاقد معه على زرع الحقل ثم سرق الرجل الحبوب أو العلف ووجدت بين متعلقاته فإنّ يده تقطع.

٢٥٤ ـ إذا اختلس حبوب الاطعام وبذا جاعت الثيران عوّض منه مقدار ضعف ما أخذه من حبوب.

٢٥٥ ـ إذا أجر ثيران الرجل أو سرق حبوب البذر ومن ثم لم يزرع الحقل فثبت الأمر ضده ففي موسم الحصاد يكيل ٦ «كورات» من الحبوب لكل ١٨ «إيكو».

٢٥٦ ـ إذا لم يكن قادراً على الوفاء بالتزاماته أُخذ إلى الحقل حيث تجره الثيران.

٢٥٧ ـ إذا استأجر رجل مزارعاً فإنه يعطيه ٨ «كورات» من الحبوب كل سنة.

٢٥٨ ـ إذا إستأجر راعي غنم فإنه يعطيه ٦ «كورات» من الحبوب كل سنة.

٢٥٩ ـ إذا سرق رجل محراثاً من حقل فإنه يدفع ٥ شواقل من الفضة إلى صاحب المحراث.

٢٦٠ ـ إذا سرق أداة بذر أو تقليب أرض فإنه يدفع ٣ شواقل من الفضة.

٢٦١ ـ إذا استأجر رجل راعياً ليرعى غنمه أو معزه فإنه يعطيه ٨ «كورات» من الحبوب كل سنة.

٢٦٢ ـ .... إذا .... سيد .... ثور أو نعجة.

٢٦٣ ـ إذا كان قد فقد ثوراً أو معزاً عهد إليه بها يعوض صاحبها من الثور ثوراً ومن المعز معزاً.

٢٦٤ ـ إذا كان الراعي الذي عهد إليه بالماشية أو النعاج لترعى قد تسلم أجره بالكامل وفق رضاه ثم ترك الماشية تتناقص والنعاج تتناقص وبذا قلل من مقدار النسل فإنه يعطى زيادة وربحاً طبقاً لشروط العقد.

٢٦٥ ـ إذا كان الراعي الذي عهد إليه بالماشية أو النعاج لترعى قد أصبح غير أمين ومن ثم غيّر من علامات الماشية أو باعها أُثبت ذلك ضده وعوض صاحبها عشرة أمثال من الماشية أو النعاج.

٢٦٦ ـ إذا حدثت زيارة إله لقطيع أو قتل أسد بعضه برّأ الراعي نفسه بحضرة الإله

ولكن صاحب الماشية يأخذ منه جثة الحيوان الذي ضرب من بين أفراد القطيع.

٢٦٧ ـ إذا أهمل راع بحيث ترك العرج يدب في القطيع فإنه يعوض صاحب الماشية والنعاج منها مقدار الخسارة عن طريق العرج الذي دب فيها.

٢٦٨ ـ إذا استأجر رجل ثوراً للدرس والتذرية فأجره ٢٠ «قو» من الحبوب.

٢٦٩ ـ إذا استأجر رجل حماراً للدرس والتذرية فأجره ١٠ «قو» من الحبوب.

٢٧٠ ـ إذا استأجر رجل نعجة للدرس والتذرية فأجرها ١ «قو» من الحبوب.

٢٧١ ـ إذا استأجر رجل ثيراناً أو عربة أو سائقاً للعربة دفع ١٨٠ «قو» عن اليوم الواحد.

٢٧٢ ـ إذا استأجر رجل عربة وحدها فإنه يدفع ٤٠ «قو» عن اليوم الواحد.

٢٧٣ ـ إذا استأجر رجل عاملاً فإنه يعطيه ٦ «شي» من الفضة عن اليوم الواحد من بداية السنة حتى الشهر الخامس، وأما من الشهر السادس حتى نهاية العام فيدفع ٥ «شي» من الفضة عن اليوم الواحد.

٢٧٤ ـ إذا أراد رجل أن يستأجر صانعاً فإنه يدفع إليه يومياً كأجر لـ .... ٥ «شي» من الفضة وكأجر لصانع الطوب ٥ «شي» من الفضة وكأجر للنساج ... «شي» من الفضة وكأجر لصانع الأختام... «شي» من الفضة وكأجر للجوهري... «شي» من الفضة وكأجر للحداد... «شي» من الفضة وكأجر لصانع الجلود... «شي» من الفضة وكأجر لصانع السلال... «شي» من الفضة وكأجر للبناء... «شي» من الفضة.

٢٧٥ ـ إذا استأجر رجل قارباً طويلاً فإيجاره ٣ شي من الفضة عن اليوم الواحد.

٢٧٦ ـ إذا استأجر رجل قارب تجذيف فأجره ٢ $\frac{1}{2}$ شي من الفضة عن اليوم الواحد.

٢٧٧ ـ إذا استأجر رجل مركباً سعته ٦٠ كوراً فأجره سدس شاقل من الفضة عن اليوم الواحد.

٢٧٨ ـ إذا اشترى رجل عبداً أو أمة ولم يحل الشهر بعد وأصيب بصرع فإنه يعيده إلى بائعه ويسترد المشتري ماله الذي كان قد دفعه.

٢٧٩ ـ إذا اشترى رجل عبداً أو أمة ثم تلقى دعوى على أحدهما فإن البائع مسؤول عن الدعوى.

٢٨٠ ـ إذا اشترى رجل في بلد أجنبية عبداً أو أمة رجل آخر ثم حين عاد إلى بلده وتعرف صاحب العبد أو الأمة عبده أو أمته فإنه إذا كان العبد أو الأمة من أهل البلد، حرّرا دون مال.

٢٨١ - إذا كان من أهل بلد آخر فإن المشتري يقرر بحضرة الإله مبلغ ما دفعه وفي هذه الحالة يعطي صاحب العبد أو الأمة التاجر ما دفعه من مال وهكذا يشتري حرية عبده أو أمته.

٢٨٢ - إذا قال عبد لسيده «لست سيدي» وأثبت سيده أنه عبده عندئذ تصلم أذنه.

خاتمة

قوانين العدالة التي وضعها الملك الكفء حمورابي والتي أمن عن طريقها قيادة رشيدة وحكومة سديدة في البلاد - أنا حمورابي... الملك الكامل الذي لم يهمل ذوي الشعور السوداء الذين قدمهم إليّ «آنليل» والذين عهد بهم إلى راعيهم «مردوك».. إنني أوجدت لهم أقاليم هادئة وتغلبت على صعوبات مريرة وجعلت الضوء يشع فوقهم بالسلاح الماضي الذي منحني إياه «زابابا» و «إينانا» وبفضل الإلهام الذي منحني إياه «أنكي» والقدرة التي أعطاني إياها «مردوك» اقتلعت العدو من أعلى ومن أسفل وأنهيت الحرب وأصلحت أمور البلاد وجعلت الناس يعيشون إخوة ولم أدع أحداً يرعبهم... لقد عيّنني كبار الآلهة ومن ثم غدوت الراعي الخيّر الذي يعني صولجه الحق وظلي يخيّم فوق مدينتي وحملت في صدري شعوب أرض سومر وأكد فتقدموا تحت حمايتي وحكمتهمُ في سلام وآويتهم إلى قوتي حتى لا يطغى القوي على الضعيف وحتى تتحقق العدالة لليتيم والأرملة في بابل التي رفع رأسها «أنوم» و «آنليل» وفي «إيساجيل» المعبد الذي توطدت أسسه كالسماء والأرض... لقد سجلت كلماتي القيمة على لوحتي بحضرة تمثالي كملك للعدالة.. وأقمتها لتشرع القانون في الأرض وتسجل الأوامر في الأرض ولتعطي المظلوم العدالة. أنا الملك المقدّم على الملوك... كلماتي منتقاة وقدرتي لا نظير لها...

بأمر «شمش» القاضي الأعظم للسماء والأرض.

ألا فَلتَسُدْ عدالتي الأرض.

باسم «مردوك» مولاي

ألا لا يسخرْ أحد من تماثيلي.

ثم تلا دعوات طويلة واستحلافاً للآلهة ودعوات ضد من ينال لوحته أو تماثيله بالتدمير أو السخرية أو التغيير أو التحوير.

القوانين الآشورية(١)

لم تنقش القوانين الآشورية على لوحة حجرية كما هي حال قوانين حورابي، بل كتبت على لوحات طينية تهشّم جانب منها لسوء الحظ. وقد عثرت عليها البعثة الألمانية في حفائرها في أشور القديمة (قلعة شرجات حالياً) فيما بين عامي (١٩٠٣ ـ ١٩١٤). وتاريخ اللوحات الآشورية من عهد تيغلات فلاسر الأول، أي من القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وأما القوانين نفسها فترجع على الأرجح إلى القرن الخامس عشر. وأما عدد اللوحات المحفوظة التي نشرت حتى الآن فإحدى عشرة لوحة.

اللوحة الأولى:

وفيها /٥٩/ مادة تتناول التشريع فيما يتصل بدخول المعابد وسرقة ما بها والتجديف والسخرية وسرقة الزوجة مال زوجها وإخفاء الأشياء المسروقة وعقوبات السرقة عامةً وتفصيلاً وهتك العرض والزنا والتشهير والتحريض على الفسق وهجر الزوجة زوجها والميراث والطلاق والدين. وتشير المادة /٤٠/ إلى العقوبات التي توقع بالزوجة أو الأرملة الآشورية والمحظية التي تصحب الزوجة عند الخروج إلى الطريق بغير غطاء رأس وكذا بالعاهرات المقدسات اللواتي عليهن ألا يخرجن غير محجبات. وأما العاهرة فلا تخرج محجبة، بل تكشف رأسها. وتشير المادة /٤١/ إلى ضرورة وجود شهود حين يرغب الرجل في أن تتحجب محظيته. وتشير المواد بعد ذلك إلى هدايا الزوج وما يُردّ منها وما لا يُردّ وشرائط ذلك، ثم الرهن وحالة الزوجة عند أسر زوجها أو غيابه وعقوبة إحراز المعدات السحرية، ثم الاجهاض والاغتصاب... اغتصاب العذراء أو الثيّب. والمواد الثلاث الأخيرة

---

(١) أنظر ص ٤٤٩.

أشارت إلى نوع العقوبات الجوازية على الزوجة والنص عليها في لوحة الزواج، ثم التجاوز عن عقوبة إضافية هي شد الشعر وعرك الأذن.

اللوحة الثانية:

وتحوي /٢٠/ مادة تتناول التركة وتقسيمها والقوانين المدنية المتصلة بالزراعة والري.

اللوحتان الثالثة والسابعة:

وفيها /١١/ مادة تتناول الرهن والسرقة وخيانة الأمانة.

اللوحة الرابعة:

وفيها /٤/ مواد بينها واحدة فقط هي الأولى كاملة نسبياً وفيها إشارة إلى عقوبة الجلد والغرامة عن جريمة غير واضحة. وأما المواد الثلاث الأخرى ففيها إشارات إلى الاستئجار والإقراض.

اللوحة الخامسة:

وفيها مادتان متصلتان بتغيير علامات الأغنام وبيع الراعي ما يعهد إليه من أغنام وخيل ليرعاها.

اللوحة السادسة:

وفيها ثلاث مواد ليست واضحة.

اللوحة الثامنة:

وفيها خمس مواد غير واضحة تتناول الرشوة.

اللوحة التاسعة:

وفيها ثلاث مواد تتناول جانباً من خيانة الأمانة والتبديد.

اللوحة العاشرة:

وفيها مادتان تتناولان الشهادة ضد آخر بالتجديف والعقوبة المترتبة على ذلك الذنب أو على الدعوى بالباطل.

اللوحة الحادية عشرة:

وفيها سبع مواد متنوعة وأجزاء كثيرة منها ضائعة، وما بقي يشير إلى تركة المتوفي وإلى ري الأرض وإلى تحرير العبد.

وهاك نصوص مواد اللوحات

اللوحة الأولى:

١ ـ إذا دخلت امرأة (سواء أكانت زوجة رجل[٢] أم ابنته) معبد إله ثم سرقت شيئاً

(٢) يقصد به الرجل الحر.

من متعلقات هيكل معبد الاله ووجد في حيازتها فإنه عند اتهامها يؤخذ ما يضبط ويسأل الإله وينفذ ما يأمر به من حيث معاملة المرأة.

٢ ـ إذا جدفت امرأة (سواء كانت زوجة أو ابنة رجل) أو انغمست في حديث لا رابط له فإنها تتحمل العقوبة التي تستحقها، أما رجلها وأبناؤها وبناتها فلا يمسهم أذى.

٣ ـ إذا مرض رجل أو مات وسرقت زوجته من بيته شيئاً ثم سلمته إلى رجل أو سيدة أو أي شخص آخر فإن الزوجة تعدم كما يعدم كل من تسلم منها شيئاً. أما إذا سرقت زوجة من زوجها وهو على قيد الحياة شيئاً من متعلقات بيته وأعطته رجلاً أو سيدة أو أي إنسان آخر، فإن الزوج يقيم الاتهام ضد زوجته ويوقع بها العقوبة المناسبة. كما أن من تسلم من يدها شيئاً يعيده وتوقع به نفس العقوبة التي أنزلها الزوج بزوجته.

٤ ـ إذا كان عبد أو جارية قد تسلم (أو تسلمت) شيئاً مسروقاً من يد زوجة رجل جُدع أنف العبد (أو الأمة) وصلمت أذناه عوضاً من المسروق. أما الرجل فيصلم أذني زوجته. ومع ذلك فإن ترك زوجته حرّة دون صلم أذنيها فلا تصلم أذنا العبد أو الأمة، وبذا لا يعوضان من المسروق.

٥ ـ إذا سرقت زوجة شيئاً من بيت رجل آخر تزيد قيمته على /٥/ مينا من الرصاص، فإن صاحب المسروقات يقسم قائلاً «أنا لم أسمح لها بتاتاً بأخذه. لقد حدثت سرقة في منزلي» فإذا أراد زوجها فإنه يسلم المسروقات ويفتديها ولكن لا يصلم أذنيها، فإذا لم يرغب في أن يفتديها فإن صاحب المسروقات يأخذها ويجدع أنفها.

٦ ـ إذا كانت لزوجة وديعة بالخارج فإن مستلم الوديعة يعتبر سارقاً.

٧ ـ إذا وضعت امرأة يديها على رجل أثناء مطاردتها فإنها تدفع /٣٠/ مينا من الرصاص وتجلد بالعصا عشرين جلدة.

٨ ـ إذا سحقت امرأة خصية رجل في معركة قُطع واحد من أصابعها. فإذا كانت الخصية الأخرى قد تأثرت نتيجة لذلك (حتى لو أن الطبيب ربطها) أو سحقت هي الأخرى في المعركة فإن عينيها تقلعان.

٩ ـ إذا وضع رجل يده على زوجة رجل آخر، وبذلك عاملها كما يعامل طفل صغير فإنهم عند مطاردته واتهامه يقطعون إحدى أصابعه، فإن كان قبلها تسحب شفته السفلى بواسطة حد سلاح بلطة وتقطع.

١٠ ـ إذا دخل رجل أو سيدة بيت آخر وقتل (أو قتلت) رجلاً أو امرأة، فإن القتلة يسلمون إلى «سيد الحياة» وله أن يحكم بالإعدام وله أن يُعفي من هذه العقوبة ولكن بشرط الاستيلاء على ما يملك (أو تملك)، فإذا لم يكن لدى القاتل (أو القاتلة) ما يؤخذ فابن وابنة... من البيت... يخص...

١١ ـ غير موجودة.

١٢ ـ إذا كان زوجة سيد تسير في الطريق وأمسك بها رجل آخر قائلاً لها « لأضطجع معك » فما دامت لا توافق وظلت تدافع عن نفسها ولكنه أمسكها بالقوة واغتصبها واضطجع معها فسواء أمسك به في ذات الفعل مع الزوجة أو شهد عليه شهود أنه اضطجع مع المرأة فإنه يعدم ولا يمس المرأة لوم.

١٣ ـ إذا تركت زوجة رجل بيتها، وترددت إلى بيت آخر حيث يقيم، فإن هو اضطجع معها، مع علمه بأنها زوجة رجل، فإنهما يقتلان، كلاهما.

١٤ ـ إذا اضطجع رجل مع زوجة آخر سواء في ماخور المعبد أو الطريق مع علمه بأنها زوجة رجل، فإن الزاني يعامل بنفس المعاملة التي يأمر الرجل بأن تعامل بها زوجته. فإن كان قد اضطجع معها دون أن يعلم أنها زوجة رجل فلا جريمة ضد الزاني. وللرجل أن يوقع بزوجته العقوبة التي تروق له ويراها مناسبة.

١٥ ـ إذا ضبط رجلٌ آخرَ مع زوجته، فحين ترفع الدعوى عليه وإثبات الاتهام ضده يعدم الاثنان، دون أن تلحق به أية مسؤولية. وإذا حدث عند القبض عليه أن جيء به إلى حضرة الملك أو أمام القضاة فإنه حين رفع الدعوى وإثبات الاتهام ضده، إذا قتل الزوج زوجته فعليه أن يقتل كذلك الرجل (شريكها). ولكن إن جدع أنف زوجته فإنه يخصي الرجل ثم يشوهون وجهه كله. ومع ذلك فإذا عفا عن زوجته أطلق سراح الرجل.

١٦ ـ إذا اضطجع رجل مع زوجة آخر برضاها فلا لوم عليه، وللزوج أن يوقع بزوجته العقوبة التي يراها. أما إذا اضطجع معها اغتصاباً فإن عقوبته عند رفع الدعوى واثبات الاتهام تكون مماثلة لعقوبة الزوجة.

١٧ ـ إذا قال رجل لآخر « إن الناس اضطجعوا كثيراً مع زوجتك » ولم يكن هناك شهود، أخذ الرجل إلى اختبار النهر.

١٨ ـ إذا قال رجل لجاره سواء سراً أو علناً « إن الناس اضطجعوا كثيراً مع زوجتك وسأقيم عليها الدعوى بنفسي »، فما دام غير قادر على إقامة الدعوى ضدها ولم يُقمها فإنه يجلد أربعين جلدة بالعصا، ثم يكلف بالعمل سخرة للملك مدى شهر كامل، ثم يخصى ويدفع غرامة وزنه من الرصاص.

١٩ ـ إذا بدأ رجل بنشر الشائعات ضد جاره سراً قائلاً: « الناس اضطجعوا مراراً معه »، أو قال علناً في حضرة آخرين « الناس اضطجعوا مراراً معك وسوف أقيم الدعوى عليك »، فما دام ليس قادراً على إقامتها عليه أو رفع الدعوى يجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخّر في خدمة الملك لمدة شهر كامل ثم يخصى ويدفع كذلك غرامة وزنه من الرصاص.

٢٠ ـ إذا اضطجع رجل مع جاره وأقيمت عليه الدعوى واثبت الاتهام، فإنهم

يضطجعون معه ثم يخصى.

٢١ ـ إذا ضرب رجل ابنة آخر فسبّب إجهاضها فعند رفع الدعوى وإثبات الاتهام ضده يدفع وزنتين وثلاثين مينا من الرصاص ويجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخّر في خدمة الملك لمدة شهر كامل.

٢٢ ـ إذا حدث لزوجة أن دفعها إلى الدعارة رجل ليس أباها أو أخاها أو ابنها بل شخصاً آخر ولم يكن يعرف أنها زوجة فإنه يقسم على ذلك ثم يغرم بدفع وزنتين من الرصاص إلى زوجها. أما إذا كان يعرف أنها زوجة لرجل فإنه يدفع التعويض ويقسم «أنا لم أضطجع معها». ومع ذلك فإذا قررت الزوجة «أنه لم يضطجع معي» فإن الرجل بعد دفع الغرامة يؤخذ إلى النهر فإن عاد منه يعامل بنفس المعاملة التي عامل بها الآخر زوجته.

٢٣ ـ إذا أخذت زوجة رجل زوجة رجل آخر إلى بيتها وسلمتها إلى رجل ليضطجع معها وكان الرجل يعرف أنها زوجة آخر عومل كمن يضطجع مع زوجة وتعامل صاحبة البيت معاملة الزانية. ومع ذلك فإذا لم يوقع الزوج عقوبة على زوجته الزانية فلا عقوبة على الزاني أو صاحبة البيت بل يطلق سراحه. ومع ذلك فإذا كانت الزوجة لا تدرك الموقف بمعنى أن صاحبة البيت التي جاءت بها إلى بيتها جاءت بالرجل عن طريق الحيلة واضطجع معها، ففي حالة إعلانها عند خروجها من البيت أنها اغتصبت يطلق سراحها ما دامت غير مذنبة، أما الزاني وصاحبة البيت فيقتلان. وأما إذا لم تعلن الزوجة ذلك يوقع بها زوجها العقوبة التي يراها مناسبة ويقتل الزاني وصاحبة البيت.

٢٤ ـ إذا هجرت زوجة زوجها ودخلت إلى بيت آشوري[٣] سواء في نفس المدينة أو في مدينة مجاورة حيث أدخلها بيته ومكثت مع سيدة البيت وقضت الليلة هناك ثلاث مرات أو أربع دون أن يعلم صاحب البيت أن زوجة الرجل تقيم في بيته ثم قبض فيما بعد على تلك المرأة فإن صاحب البيت الذي هجرته زوجته يصلم أذني الزوجة ولكنه يستردها ثم تصلم أذنا زوجة الرجل التي آوت المرأة إلى بيته. وإذا رغب زوجها في استرجاعها فإنه يستطيع أن يدفع غرامة ثلاث وزنات وثلاثين مينا من الرصاص ثمناً لذلك. كما أنه يستطيع أن يدعهم يأخذونها أي يطلقها. ومع ذلك فإذا علم رب البيت ان زوجة الرجل كانت تقيم في بيته مع زوجته فإنه يدفع الثلث الإضافي، فإذا أنكر ذلك قائلاً: «أنا لم أكن أعرف ذلك» أخذا معاً إلى اختبار النهر. فإذا عاد الرجل الذي كانت الزوجة في بيته من النهر دفع الثلث الإضافي[٤]. وإذا عاد الزوج المهجور من النهر فإنه بريء ما دام قد استوفى كل اجراءات

---

(٣) الآشوري هو المواطن العادي ومن الواضح أنه من طبقة أدنى من طبقة الرجل من الأحرار.

(٤) أي يدفع مرة وثلث مرة ما يعادل ثمن الزواج.

النهر. وإذا لم يصلح الزوج المهجور أذني زوجته واستعادها فلا عقوبة إطلاقاً.

٢٥ - إذا كانت امرأة تعيش في بيت أبيها ومات زوجها، فما دام إخوة زوجها لم يقسموا التركة ولم يكن لها ابن فإن إخوة الزوج يستولون على الحلي التي كان زوجها قد منحها إياها ولم تكن قد بددت. وأما ما بقي فيفوّض أمره إلى الآلهة ثم يقيمون دعوى لاسترداده وليس هناك ما يكرههم على الالتجاء إلى اختبار النهر أو اجراء القَسَم.

٢٦ - إذا كانت امرأة تعيش في بيت أبيها ومات زوجها وكان لزوجها أولاد فإنهم يأخذون ما قد يكون أعطاها من حلي، فإذا لم يكن له أولاد فإنها تأخذ الحلي لنفسها.

٢٧ - إذا كانت امرأة تعيش في بيت أبيها ويتردد إليها زوجها فإن زوجها يستطيع أن يسترد منحة الزواج التي كان زوجها قد منحها إياها، ولكنه لا يمس متعلقات بيت أبيها.

٢٨ - إذا دخلت أرملة بيت رجل (كزوجة) وكان معها وليدها الطفل فإنه إذا ترعرع في بيت الزوج الثاني ولم تكتب وثيقة التبنّي، فليس له نصيب من أملاك زوج أمه ولا يكون مسؤولاً عن الديون بل يأخذ نصيباً يناسب حقه من تركة أبيه الحقيقي.

٢٩ - إذا دخلت زوجة بيت زوجها فإن بائنتها وكل ما قد تكون جاءت به من بيت أبيها أو ما منحها إياها حموها عند دخولها يعطى أولادها وليس لأولاد حميها حق الدعوى عليها. ومع ذلك فإذا كان زوجها قد هجرها فله أن يعطي أولاده ما يراه.

٣٠ - إذا نقل أب هدية العرس إلى بيت حمي ابنه المقبل ولم تكن المرأة قد زوجت بعد ابنه وكانت زوجة ابن آخر له تعيش في بيت أبيها ومات الابن فإنه يزوج أرملة ابنه الذي مات لابنه الآخر الذي نقلت إلى بيت حميه هدية العرس. فإذا كان سيد الفتاة الذي تلقى الهدية لا يرغب في تسلم ابنته فإنه - إذا أراد - يسمح للأب الذي أحضر الهدية بأن يسترد كنّته المقبلة ويزوجها لابنه. ومع ذلك فإنه يستطيع، إذا أراد، أن يسترد كل ما كان قد أحضره من رصاص وفضة وذهب ولكن لا تقبل دعواه فيما يتصل بالمأكولات.

٣١ - إذا أحضر رجل هدية الزواج إلى بيت حميه المقبل ثم ماتت زوجته المقبلة وكان لحميه بنات أخريات فإذا وافق حموه فإنه يزوجه بابنة أخرى بدل المتوفاة وله أن يسترد ما سبق أن أعطاه إياه ولكن لا ترد الحبوب أو الأغنام أو المأكولات، إنه يسترد المال فقط.

٣٢ - إذا كانت امرأة لا تزال تعيش في بيت أبيها وأعطيت هدية الزواج فسواء كانت أخذت إلى بيت حميها أو لم تؤخذ فإنها ترضخ للديون وسوء السلوك والجرائم الخاصة بزوجها.

٣٣ - إذا كانت امرأة لا تزال تعيش في بيت أبيها ومات زوجها وكان لها أبناء فإنها تعيش معهم حيث تشاء. فإن لم تكن لها ذرية يزوجها حموها لواحد يختاره لها من أولاده أو يتزوجها هو. فإذا كان زوجها وحموها ميتين ولم يكن لها ابن تصبح أرملة وتذهب حيث تريد.

٣٤ ـ إذا تزوج رجل ارملة دون أن يختم وثيقة (عقداً) وعاشت في بيته مدى عامين نصبح زوجة وليست في حاجة إلى أن تترك البيت.

٣٥ ـ إذا دخلت أرملة بيت رجل كزوجة فإن كل ما تأتي به هو ملك لزوجها فإذا كان زوجها هو الذي ينتقل إليها فإن كل ما يأتي به ملك للمرأة.

٣٦ ـ إذا كانت امرأة لا تزال في بيت أبيها أو أن زوجها جعلها تعيش منفصلة ثم ذهب إلى الخلاء دون أن يترك لها زيتاً أو صوفاً أو ملابس أو طعاماً أو أي شيء إطلاقاً ولم يكن لديها حتى ولا سنبلة قمح يجيئها بها من الحقل بقيت هذه المرأة على عهدها لزوجها مدى خمس سنوات ولا تذهب لتعيش مع زوج آخر. وإذا كان لها أبناء وذهبوا ليؤجروا أنفسهم ويتكسبوا فإن المرأة تنتظر زوجها ولا تذهب لتعيش مع زوج آخر. أما إذا لم يكن لها أبناء فإنها تنتظر زوجها مدى خمس سنوات. وعند حلول العام السادس تستطيع أن تذهب لتعيش مع الرجل الذي تختاره وليس لزوجها حين يعود أن يدعي عليها حقاً: إنها حرة لزوجها الثاني. أما إذا استطاع أن يثبت عند عودته أنه عطل أكثر من خمس سنوات وأنه لم يتغيب راغباً في ذلك عن طواعية بسبب خصم ألقى القبض عليه وأنه اضطر إلى الهرب أو أنه قبض عليه كشرير وهكذا تأخر مكرهاً عن العودة فإنه يقدم امرأة مقابل زوجته ويسترد زوجته. ومع ذلك فإذا كان الملك قد أرسله في بلاد أخرى وتأخر أكثر من خمس سنوات فإنه على زوجته أن تنتظره ولا تذهب لتعيش مع زوج آخر. ومع ذلك فإذا ذهبت لتعيش مع زوج آخر قبل انقضاء خمس سنوات ثم رزقت أطفالاً فإن زوجها يسترجعها عند عودته كما يأخذ أولادها لأنها لم تحترم عقد الزواج بل تزوجت.

٣٧ ـ إذا أراد رجل أن يطلق زوجته: فإن كان ذلك بمحض رغبته فإنه يعوضها شيئاً وإذا كان ذلك رغم أنفه فليس من الضروري أن يعطيها شيئاً.. إنها تخرج فارغة.

٣٨ ـ إذا كانت امرأة لا تزال تعيش في بيت أبيها ثم طلقها زوجها فإنه يستطيع أن يسترد الحلي التي كان قد منحها إياها ولكن ليس له أن يطالب بثمن الزواج الذي قدمه لأنه من حق المرأة.

٣٩ ـ إذا تزوج رجل من ليست بابنته فإنه في حالة كون أبيها مديناً سابقاً وكانت هي تعيش في البيت رهينة وجاء الدائن الأول فإنه يعوض من ثمن المرأة بواسطة من قدمها كزوجة فإذا لم يكن لديه ما يقدمه فإن الرجل يأخذ من سلمها كزوجة أما إذا كانت تعامل بقسوة فإنها حرة ممن يعاملها على هذه الصورة. ومع ذلك فإن الرجل الذي أصبح زوجاً لها سواء أكره على كتابة لوحة أو كانوا قد سلموا منه ضمانة فإنه يستطيع أن يعوض من قيمة المرأة، ومن ثم يصبح من سلمها له كزوجة حراً.

٤٠ ـ لا تستطيع زوجات الرجال (الأحرار) أو الأرامل أو الآشوريات أن يخرجن إلى

الشوارع عاريات الرؤوس. وابنة الرجل... سواء كانت ملفعة أو عباءة يجب أن تتحجب. ويجب ألا تكو رؤوسهن عارية. سواء... أو... أو... فيجب ألا يحتجبن. ولكن حين يخرجن إلى الشوارع وحدهن يجب أن يضعن نقاباً. والمحظية[5] التي تخرج إلى الشوارع مع سيدتها يجب أن تتحجب. والعاهر المقدسة المتزوجة يجب أن تتحجب عند خروجها إلى الشارع. أما التي لم تتزوج فتخرج عارية الرأس. ويجب ألا تتحجب المومس: لا تضع نقاباً ويظل رأسها عارياً. وكل من يرى مومساً محجبة عليه أن يقبض عليها ويقيم الشهادة ويقدمها إلى محكمة القصر وهناك لا ينزعون حليها ولكن لمن قبض عليها أن يأخذ ملابسها: إنها تجلد خمسين جلدة بالعصا ويُصب زفت فوق رأسها. وإذا رأى رجل مومساً محجبة وأطلقها دون أن يقدمها إلى محكمة القصر جلد خمسين جلدة بالعصا وأخذ ملابسه من ادعى عليه ثم تثقب أذناه وتربطان بخيط يعقد في ظهره ثم يقوم بأعمال السخرة للملك مدى شهر كامل. أما الإماء فيجب ألا يتحجبن، وكل من يرى جارية محجبة يجب أن يقبض عليها ويأتي بها إلى محكمة القصر حيث تصلم أذناها ويستولي من قبض عليها على ثيابها. وإذا رأى رجل جارية محجبة وتركها دون أن يقبض عليها ويقدمها إلى محكمة القصر فإنه عند توجيه الاتهام إليه واثباته يجلد خمسين جلدة بالعصا وتثقب أذناه وتربطان بالخيط الذي يعقد عند ظهره ويستولي من تولى الادعاء عليه على ملابسه ثم يسخر في خدمة الملك شهراً كاملاً.

٤١ ـ إذا أراد رجل أن يجعل محظيته تتحجب فليحضر خمسة أو ستة من جيرانه ويحجبها بحضرتهم قائلاً: «إنها زوجتي» وهكذا تصبح زوجة له. والمحظية التي لم تضع الحجاب أمام الشهود من الرجال ولم يقل زوجها «أنت زوجتي» ليست زوجة، إنها لا تزال محظية. وإذا مات الرجل ولم يكن لزوجته المحجبة أبناء فإن أبناء المحظية يصبحون أبناء شرعيين ويأخذون نصيبهم من التركة.

٤٢ ـ إذا صب رجل زيتاً على رأس ابنة رجل آخر في يوم عيد أو جاء بهدية الخطبة في يوم وليمة فلا تُردّ هذه الهدايا.

٤٣ ـ إذا كان الرجل قد صب زيتاً على رأسها أو أحضر هدايا الخطبة ثم مات الابن الذي اختيرت له الزوجة أو هرب فإنها تعطى من يريد من أبنائه الآخرين من أكبرهم إلى أصغرهم الذي لا يقل عمره عن عشر سنوات. أما إذا مات الأب وكذا مات الابن الذي اختيرت له الزوجة ولكن كان للابن المتوفي ابن عمره /١٠/ سنوات على الأقل فإنه يتزوجها. ولكن إذا كان عمر الأحفاد أقل من عشر سنوات فإن لوالد الفتاة إذا شاء أن

(٥) تعني هنا الواحدة من السبايا التي قدر لها أن تصبح محظية أو زوجة ثانوية.

يعطيها أيا منهم، وله كذلك أن يرد ما يعدل الهدايا. أما إذا لم يكن هناك ابن فإنه يرد بالكامل بقدر ما أخذ أحجارا كريمة ما ليس بمأكولات وليس من ضروره لرد المأكولات.

٤٤ ـ إذا كان هناك آشوري أو آشورية، يعيش في بيت رجل كرهينة تعدل ثمن الواحد منها أو أنه اخذ كرهينة مقابل مبلغ كلي فإنه عند حلول موعد السداد له أن يقتلع شعره ويشوه أذنيه بأن يثقبها.

٤٥ ـ إذا تزوجت امرأة وقبض العدو على زوجها ففي حالة عدم وجود حمى أو ابن لها تبقى مخلصة لزوجها مدى عامين؛ فإذا لم يكن لها خلالها ما يكفيها لسد رمقها تقدمت لتعلن ذلك... إنها تصبح تحت وصاية القصر... سوف يعولها لتقوم هي بعمله إذا كانت زوجة لفلاح يعولها وهي تقوم بعمله. ومع ذلك إذا كان لزوجها حقل وبيت للالتزام في مدينته فإنها تتقدم إلى القضاء وتقول «ليس لدي ما أعيش به» ويتحرى القضاة من العمدة وشيوخ المدينة.. وما دام له في المدينة ـ كالتزام ـ حقل فإنهم يسمحون لها بأن تتملك ربع الحقل والبيت مدى عامين لإعالتها وتعيش هناك وتكتب بهذا لوحة وتكمل العامين ثم تستطيع بعدها أن تذهب لتعيش مع الزوج الذي تختاره وتحرر لها لوحة كأنما هي أرملة. فإذا عاد زوجها المفقود فيما بعد فإنه يستطيع أن يسترد زوجته التي زوجت بغريب. ولكن ليس له أن يأخذ الأولاد الذين رزقتهم من زوجها الثاني بل يأخذهم هذا الزوج الأخير. أما الحقل والبيت اللذين أعطيا غريبا كقيمة مقابلة لإعانتها فإنه يستعيدهما بنفس الشروط. أما إذا لم يعد ومات في بلاد أخرى فإن الملك يوزع بيته وحقله على من يشاء.

٤٦ ـ إذا لم ترغب امرأة مات زوجها في أن تترك بيتها عقب موته فإنها في حالة عدم تركه شيئاً لها كتابة تعيش في بيت أبنائها إن أرادت. وعلى أبناء زوجها واجب إعالتها ويحررون معها وثيقة ينص فيها على تقديم الطعام والشراب إليها كما يقدم إلى عروس يحبونها. وإذا كانت زوجة أخيرة لم ترزق نسلاً فإنها تعيش مع واحد من أبناء زوجها ويشتركون معاً في إعالتها. أما إذا كان لها نسل ولم يشأ أولاد الزوجة السابقة أن يعولوها فإنها تعيش في بيت أولادها حيث تريد. إن أولادها هم الذين يجب أن يعولوها وهي تقوم بعملهم. ومع ذلك فإن كان هناك فعلاً بين أبناء زوجها من تزوج بها فإن هذا هو الذي يعولها لا أولادها.

٤٧ ـ إذا أعد رجل أو امرأة معدات سحرية ووجدت في حوزته فإنه، عند توجيه الاتهام إليه وإثباته، يقتل صانع هذه المعدات وكل من شهد صنعها أو سمع بها من فم شاهد عيان قال: «أنا رأيتها بنفسي» يتقدم كشاهد سماع ويعلن للملك فإذا أنكر شاهد العيان أمام الملك ما قاله يعلن ذلك بحضرة الإله الثور ابن شمش «إنه حقاً ما قاله» وعندئذ يصبح حراً. أما شاهد العيان الذي قرر الشيء ثم أنكره فإن الملك يسأله ويتحرى

ماضيه وحين يؤتى بمستحضر الأرواح الشريرة يجعل الرجل يتكلم ويقول بنفسه إنه ـ أي الملك ـ سوف لا يبرئك من قسمك الذي أمرت أن تقسم به أمام الملك وابنه. إنه طبقاً لنص اللوحة، «انك دفعت للقسم فأقسمت للملك وابنه».

٤٨ ـ إذا كان هناك رجل تعيش ابنة مدينة في بيته كرهينة لدين وطلب من أبيها أن يزوجها فله أن يفعل. أما إذا رفض أبوها فليس له أن يتزوجها. وإذا مات أبوها فإنه يسأل واحداً من إخوتها وهذا يتحدث إلى إخوته الآخرين، فإذا قال أخ «سأسترجع أختي خلال شهر» ثم لم يسترجعها في خلال الشهر، فللدائن، إن أراد، أن يعلن أنها حرة من كل التزام ثم يعطيها زوجاً. وله كذلك، إن أراد، أن يبيعها طبقاً لشروط التعاقد...

٤٩ ـ ... كأخ... ومع ذلك فإذا ماتت المومس وأعلن إخوتها ذلك... أخذ نصيباً كنصيب الأخ مع الإخوة من أمهم.

٥٠ ـ إذا ضرب رجل زوجة رجل آخر بحيث أجهضها تعامل زوجة الضارب نفس المعاملة ويدفع تعويضاً عن الجنين نفساً وإذا ماتت المرأة قتل الرجل، يعوض من جنينها حياة. وإذا لم يكن لزوج المرأة ابن وضربها رجل حتى أجهضت قتل الضارب حتى ولو كان جنينها أنثى... إنه يعوض منها نفساً.

٥١ ـ إذا ضرب رجل زوجة آخر لا تربي أطفالها وسبب إجهاضها دفع وزنتين من الرصاص.

٥٢ ـ إذا ضرب رجل مومساً وسبب اجهاضها جوزي عن ضربة بضربة والتعويض نفساً بنفس.

٥٣ ـ إذا أجهضت امرأة برضاها فإنه عند توجيه الاتهام إليها واثباته توضع على الخازوق ولا تدفن... أما إن ماتت أثناء إجهاضها فإنها توضع على الخازوق ولا تدفن. وإذا خبأ إنسان هذه المرأة حين أجهضت دون أن يخبر الملك..

٥٤ ـ ......

٥٥ ـ في حالة ابنة الرجل العذراء التي كانت تعيش في بيت أبيها الذي لم يطلب منه تزويجها ولم يمزق غشاء بكارتها، ما دامت لم تتزوج وليس لأحد دعوى على بيت أبيها.. إذا اغتصب رجل العذراء وانتهكها إما في وسط المدينة وإما في الخلاء ليلاً في الشارع أو في الشونة أو في احتفال المدينة فإن والد الفتاة يأخذ زوجة مغتصب العذراء ويسلمها إلى من ينتهكها ولا يعيدها إلى زوجها بل يأخذها، ولوالد الفتاة أن يزوجها مغتصبها. فإذا لم يكن للمغتصب زوجة فإنه يقدم الثلث الإضافي فضة إلى أبيها كثمن لعذريتها ويتزوجها ولا يلقي بها خارجاً، فإذا لم يوافق الأب على ذلك يأخذ الثلث الإضافي للعذراء فضة ويعطي زوجته من يشاء.

٥٦ ـ إذا كانت العذراء قد أسلمت نفسها إلى رجل وأقسم هذا الرجل بذلك فلا تمس زوجته ويعطي مغويها الثلث الإضافي فضة ثمناً للعذرية ويعامل الأب ابنته على الصورة التي يراها.

٥٧ ـ سواء كان جلداً أو... لزوجة رجل هو ما ينص عليه في اللوحة فليتمم ذلك بحضرة القضاة.

٥٨ ـ في كل العقوبات سواء قلع العين أو صلم الآذان لزوجة رجل فإنه يجب إخطار الموظف ليحضر ويفعل كما هو مثبت باللوحة.

٥٩ ـ بالإضافة إلى العقوبات التي توقع بزوجة الرجل الواردة باللوحة حين تستحقها يستطيع الرجل أن يقطع شعر زوجته ويشوّه أو يعرك أذنيها دون مسؤولية.

اللوحة الثانية

١ ـ إذا قسم إخوة تركة أبيهم.. البساتين والآبار في الأرض فإن الابن الأكبر يختار ويأخذ حصتين كنصيب له، ثم يختار إخوته من بعده واحداً بعد الآخر، ويقوم الابن الأصغر بتقسيم الأرض المنزرعة وكذا كل محصولها، ثم يختار الأكبر حصة له، ثم يعمل قرعة بين إخوته لأنصبتهم.

٢ ـ إذا كان أحد الإخوة الذين لم يقتسموا الميراث قاتلاً يسلمونه إلى الملك وله أن يقتله أو يمنحه الحياة ويأخذ نصيبه.

٣ ـ إذا كان أحد الإخوة الذين لم يقتسموا الميراث قد نطق بالخيانة أو هرب فإن الملك يتصرف في نصيبه بما يراه مناسباً.

٤ ـ إذا كان بين الاخوة الذين يعملون معاً في حقل لم يتم تقسيمه، واحد... بذر الحبوب... زرع الحقل ولكن أخاً آخر جاء وأخذ الحبوب من حرث أخيه للمرة الثانية فحين يتهم ويثبت عليه الجرم يأخذ من زرع الحقل حصته بمجرد مجيء الأول.

٥ ـ إذا كان بين الأخوة الذين يعملون معاً في حقل لم يتم تقسيمه واحد يكون قد شق الأرض بالفأس...

٦ ـ ... يحصل عليه شراء قبل أن يحصل على الحق شراء والبيت شراء يجب أن يخرج منادٍ يعلن في مدينة آشور (إذا كانت الأملاك هناك) ثلاث مرات في الشهر أو يجعله يعلن ثلاث مرات في مدينة الحقل والبيت الذي سيشتريه قائلاً: أنا على وشك التملك بالشراء، حقل فلان ابن فلان وبيته في مجاورات هذه المدينة من له دعوى أو حق ليبرز وثائقه ويقدمها إلى المسجلين ثم يرفع دعواه ويدعمها ويأخذ العقار. كل أولئك الذين أبرزوا وثائقهم لي خلال هذا الشهر بينا كان لا يزال هناك وقت بغير نسيانها وقدموها إلى

المسجلين... الواحد من هؤلاء مؤمن على حقله وسيأخذه». وحين يعلن المنادي ذلك في مدينة آشور فإن واحداً من الوزراء ممن يقفون أمام الملك وكذا كاتب المدينة والمنادي ومسجلي الملك يرفعون الدعوى في حالة كون مدينة أخرى يحتمل أن تأخذ الحقل والبيت ويرفع الدعوى كذلك العمدة وثلاثة من شيوخ المدينة ويطلبون إلى المنادي الإعلان ثم يكتبون لوحاتهم ويسلمونها قائلين: «نادى المنادي خلال هذا الشهر ثلاث مرات... كل من لم يقدم وثيقته خلال هذا الشهر أمام المسجلين يفقد دعواه في الحقل والبيت إنهما خالصان لمن جعل المنادي يقوم بالإعلان» ثم يكتبون للقضاة ثلاث لوحات تتضمن إعلان المنادي ولوحة المسجلين...

٧ ـ إذا دمر رجل بيت جاره.. بقدر ما يدعي صاحب البيت.. وقيمة البيت... الذي دمره... مضاعفاً على قيمة البيت... يعطى صاحب البيت... لوزنه الرصاص يجلد بالعصا خمس جلدات ويسخر شهراً كاملاً لخدمة الملك.

٨ ـ إذا اعتدى رجل على أهم جزء من حدود أملاك جاره فحين تقام ضده الدعوى ويثبت الاتهام يغرم بثلث حقل مثل ما اعتدى عليه ويقطع أحد أصابعه ويجلد مائة جلدة بالعصا ويسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

٩ ـ إذا تعدى رجل على حدود أقل أهمية لجاره من حصص القرعة (أو التقسيم، وهي عادة حصص ثانوية) فحين تقام ضده الدعوى ويثبت الاتهام يدفع وزنه من الرصاص ويؤخذ منه ثلث حقل يعدل ما اعتدى عليه ثم يجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

١٠ ـ إذا حفر رجل بئراً أو أقام سداً في حقل ليس له فقد حقه في البئر أو السد وجلد ثلاثين جلدة بالعصا ويسخر في خدمة الملك عشرين يوماً. وأما التعدي على الأرض... السد... يحلف... أنا لم... البئر، أنا لم... السد.. وصاحب الحقل... في... البئر. و.

١١ ـ ... و... الدائن... ليعمل... أو... الدائن... اللوحات... ثمرة العمل... ليعمل... الحقل... يعطى الدائن...

١٢ ـ إذا زرع رجل بستاناً أو حفر بئراً أو استنبت أشجاراً في حقل جاره ورأى ذلك صاحب الحقل، ولم يعترض فإن البستان لمن زرعه، ولكنه يقدم حقلاً مقابل حقل إلى صاحب أرض البستان.

١٣ ـ إذا زرع رجل بستاناً أو حفر بئراً أو استنبت خضراً أو أشجاراً في أرض ليست له، فإنه حين تقام عليه الدعوى ويثبت الاتهام فمجرد أن يتقدم صاحب الحقل يأخذ البستان بكل ثماره.

١٤ ـ إذا احتل رجل قطعة أرض ليست له ووضع طوباً فإنه حين أقامة الدعوى وإثبات الاتهام يعطى الثلث مما يعادل الأرض ويؤخذ الطوب ويجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

١٥ ـ إذا... رجل على أرض ليست له ووضع طوباً أُخِذ الطوب وجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر لخدمة الملك شهراً كاملاً.

١٦ ـ .....

١٧ ـ إذا كان هناك في آبار الأرض ماء يمكن رفعه إلى الأرض المنزرعة لتجهيزها فإن أصحاب الحقل يعاونون بعضهم بعضاً... كل يخدم حقله بقدر ما يستطيع ويرويه. ومع ذلك فإذا لم يكن هناك تعاون بينهم يشكو أحدهم إلى القضاة ويأخذ منهم أمراً مكتوباً وعندئذٍ يستطيع أن يقوم بالعمل ويأخذ الماء لنفسه ويروي الحقل ولا يروي منه سواه.

١٨ ـ إذا كان هناك ماء مطر يمكن إحضاره الأرض المنزرعة لتجهيزها فإن أصحاب الحقوق يساعدون بعضهم بعضاً ويعمل كل قدر ما يستطيع من أجل حقله وريّه. ومع ذلك فإذا لم يكن هناك تعاون بينهم فإن المتعاون منهم يأخذ أمر أداء من القاضي ضد غير المتعاونين ويقيم الدعوى العمدة وخمسة من شيوخ المدينة... يجلد خمسين جلدة بالعصا ويسخر لخدمة الملك مدى شهر كامل.

١٩ ـ إذا زرع رجل أو استنبت حقل جاره أو احتله وأقسم صاحب الحقل بالملك قائلاً، «لقد زرعه واستنبته» فإنه حالما يعترض يحرم الزارع من دعواه في وقت الحصاد ويكيل الحبوب مسلماً إياها ويعيدها مكيالاً مقابل مكيال إلى صاحب الحقل بما يتفق ومحصول حقول المدينة... يعطى صاحب الحقل..

٢٠ ـ إذا... رجل.. حقلاً ليس له... وسور بسور... ووضع لوحة حدود وأعلن «هذا الحقل كان هبة» فإنه حين إقامة الدعوى عليه وإثباتها....

اللوحتان الثالثة والسابعة [٦]

١ ـ ... سيدها.. وإذا كان المتسلم... الذي أعتقه.. يعوض من العبد بسعر... وزنات من الرصاص والجارية بسعر /٤/ وزنات من الرصاص... ومع ذلك فإن أعلن المتسلم... يقسم بذلك بحضرة الإله ويأخذ بقدر...

٢ ـ إذا باع رجل آخر واحداً من الأرستقراطية [٧] أو واحدة، من نفس الطبقة يعيش في بيته كضمان لمال أو رهن أو باع أي واحد ممن يعيشون في بيته فإنه حين تقام الدعوى

---

(٦) اللوحتان الثالثة والسابعة متعلقتان ببعضها البعض.

(٧) أي واحد من أبناء السادة أو بناتهم.

عليه يغرم ماله ويعطي ما يعادل قيمته صاحب الشيء ثم يجلد... مرات بالعصا ويسخر في خدمة الملك عشرين يوماً.

٣ - إذا باع رجل في مدينة أخرى واحداً من أبناء السادة الذين يقيمون عنده كضمان المال أو رهن فإنه عند إقامة الدعوى عليه وإثباتها يدفع ماله غرامة ويدفع كذلك ما يعادل قيمته إلى صاحب الشيء ويجلد... مرة بالعصا ويسخر في خدمة الملك عشرين يوماً. فإذا مات من بيع في البلد الآخر يعوض منه نفساً. أما الآشوري، أو الآشورية، الذي أخذ مقابل مبلغ كلي معين فيمكن بيعه في بلد آخر.

٤ - إذا باع رجل ثوراً أو جحشاً أو حصاناً أو أي حيوان ليس له ولكن كان محفوظاً في حظائره كرهن قدم حيواناً بنفس القيمة ولكن ليس عليه أن يرد المال. فإذا لم يسلم الحيوان يغرم المال. وصاحب الشيء الذي كان حيوانه بالحظيرة يأخذ الحيوان. أما من تسلم الحيوان فيعاد إليه ماله بواسطة البائع.

٥ - إذا باع رجل ثوراً أو جحشاً أو حصاناً أو أي حيوان يكون قد سرقه من المرعى من آخر بالسعر المناسب ودفع المشتري السعر المناسب دون أن يعلم بأن ما اشتراه مسروق فإن عثر عليه في حوزته يعوض البائع بالكامل من الشيء المسروق مهما يكن السعر الذي انتهى إليه.

٦ - إذا وجد رجل... أو حيواناً أو أي شيء آخر كان مفقوداً ورآه شهود ثم باعه وتعرّفه صاحبه في حوزة المشتري وقبض عليه ولكن الرجل قرر قائلاً «أنا اشتريته» فإن صاحب المتاع لا يأخذ متاعه منه بل يرده ثم يأخذ من يد البائع و.... بل وأكثر من ذلك فإن السيد الذي اشترى المتاع والذي تسلم منه صاحب المتاع متاعه يعوّض منه بواسطة السيد الذي قام بالبيع له. وإذا قرر البائع قائلاً «أنا لم أعرف أن هذا المتاع كان مفقوداً» فإن الشهود يتهمونه ويقيمون الدعوى...

٦ - أ... يأخذه و... مقابل مال... نعجتين إلى صاحب الفضة... ومهما... لا يأخذه.

٧ - إذا كان هناك... أو أي واحد يعيش في بيت آشوري كرهن أو ضمان لمال وانتهى الوقت... إذا هو... مالا يقدر قيمته، ويأخذه... فإذا لم... قيمة ماله... يحصل عليه ويجعله معروفاً... رأس المال...

٨ - إذا سرق رجل... أو حيواناً أو أي شيء آخر فإنه حين إقامة الدعوى عليه وإثباتها يدفع... مينا من الرصاص. ويجلد خمسين جلدة بالعصا ويعمل في سخرة الملك مدى... يوماً ويصدر الحكم قضاة الأرض. فإذا كان المتاع المسروق قد بلغت قيمته... مينا من الرصاص وكان قد باعه دفع بقدر ما سرق ثمناً كاملاً صغيراً أو كبيراً ويوقع الملك

له العقوبة المناسبة.

٩ ـ إذا عهد رجل بكل شيء من كل نوع إلى زوجته أو إلى عبده ثم حدث أن شيئاً من متعلقات البيت أودع مكاناً آخر ولم يبلغ المودّع عن الموديعة من عهد إليه بها وعثر عليها فإن صاحب المتاع يأخذ متاعه ويكون الرجل مسؤولاً عن إخفاء مسروقات.

١٠ ـ إذا بالغ رجل في تقويم وديعة من جاره وسجل ذلك كتابة فإنه حين رفع الدعوى عليه وإثباتها فما دام لصاً فإنه يتعرض للعقوبة التي يوقعها به الملك ويراها مناسبة.

١١ ـ إذا بالغ رجل في تقويم... وسجل ذلك كتابة حتى يضيع مال الدين فإنه حين رفع الدعوى عليه وإثباتها فلأنه اشتطّ جداً في المبلغ يجلد... مرة العصا... إلى يد مدينيه... الكاتب و...

اللوحة الرابعة

١ ـ ... حين إقامة الدعوى عليه وإثباتها... الذي رده، يجلد، من ....، ٣٠ مينا من الرصاص وأما باقي الـ /١٥/ مينا... أبناء الملكْ والقضاة الذي رده طبقاً لـ ... الذي في الخارج إلى ابن... الملك...

٢ ـ ... ضرب... إلى الرأس... مينا.

٣ ـ ... كل شيء، يقدر... يتسلم... ومع ذلك إذا... قبض... لا يعود... استئجاره... الموظف...

٤ ـ ... الفاعل... يودعون... من المدين السابق... من المدين.

اللوحة الخامسة

١ ـ ... النعاج التي... ومع ذلك فإذا كان الرجل... وأخذ نعجة من قطيع جاره وغيّر من علامة المالك ووضع بدلاً منها علامته يجلد من أخذ النعجة مائة جلدة بالعصا ويقلع شعره ويسخر مدى شهر كامل في خدمة الملك ويتهم بأنه سارق نعاج.

٢ ـ راعي الخيل لا يبيع الواحد منها مقابل مال أو... بدون الرجوع إلى صاحبها يجب عليه ألا... من يديه راعي القطيع ومن تسلم الحيوان... الحيوان الذي باعه... ما دام لصاً يشوه وجهه و...

اللوحة السادسة

١ ـ ... وهو نفسه...

٢ ـ ... من الملك يجب ألا يأخذ... كفالة مالاً من... يجب ألا تؤخذ، كفالة... لا تؤخذ، كفالة.

٣ ـ ... لينتج فضة... لا يكترث بها... دع هذه... من الفضة، ومال قاله...

اللوحة الثامنة

١ ـ ... لا تأخذ.... منه

٢ - .... إلى النائب .... التي أسست.

٣ - ... رشا مواطناً من أرضه و.... حين اتهامه وإقامة الدعوى وإثباتها ... يكملها ...

٤ - .... للقاضي، مدينة إلى بيته ولا حاجة للمدين إلى أن يرد .... إلى القاضي....

٥ - .... التي يحتفظ بها ... الرشوة ... إلى ...

اللوحة التاسعة

١ - ... بمحض إرادته ... بعني إياها ... غرقت ... سواء غرقت أو استبدلت ... يجب إصلاح القارب وإعادة حمولته ... أو يعوض منه صاحب الدعوى على القارب ... أما المراكب ... لم يحلف الملك فإنه لا يعاد إلى مركزه.

٢ - ... قارب سواء نازلاً في النهر أو يعبر من ضفة إلى أخرى والتيار ... صدم بإهمال مركباً محملاً فأغرقه ... أو صدم مركباً فارغاً وأغرقه ... فإنه بقدر الحمولة الضائعة ...

٣ - إذا أعطى رجل وهو في سياحة ملابسه غسالاً ليغسلها ثم قال هذا إنها ضاعت فإنه يعوض صاحبها بالتمام مما فقد. ومع ذلك فإذا كان قد باعها وعرف أمر ذلك في المدينة فإنه عند إقامة الدعوى عليه وإثباتها أو عند العثور عليها في حوزة المشتري فإن الرجل يدفع ... ضعفا عن المتاع المسروق.

اللوحة العاشرة

١ - إذا قال رجل لآخر ... في معركة «أنت جدفت ... ودنست معبد الإله» ... جلد أربعين جلدة ...

٢ - إذا قال رجل لآخر في معركة «أنت جدفت ... ودنست معبد الإله ...» ... فما دام غير قادر على إقامة الدعوى جلد أربعين جلدة بالعصا وسخر شهراً كاملاً في خدمة الملك.

اللوحة الحادية عشرة

١ - ... إلى أبنائه ...

٢ - ... غير فكيرة ... لم يعين بيته ...

٣ - ... في الأيام ... البيت التي ... العبيد ... والبساتين ... بعد هذا ... اللوحات التي ... والشهود بقدر ...

٤ - إذا قسم أبناء تركة أبيهم ... البساتين والآبار على الأرض يختار الابن الأكبر ويأخذ حصتين ثم يختار إخوته واحداً بعد الآخر أنصبتهم، الابن الأصغر يقسم أي أرض منزرعة مع كل محصولها ثم يختار الابن الأكبر حصة ثم يلقي القرعة مع أخوته للحصة التالية.

٥ - إذا كان مالك ... مياهاً ... يقيمون دعوى ويعطون ...

٦ ـ إذا كان هناك ماء في آبار الأرض يمكن رفعه إلى الأرض التي تزرع بقصد إعدادها فإن أصحاب الحقول يعاونون بعضهم بعضاً، إن كلاً منهم يبذل جهده في حقله بقصد ريه فإذا لم يكن هناك تعاون بينهم فإن من يعمل منهم مستهدفاً التعاون يطلب إلى القضاة وهؤلاء يصدرون أمر أداء كتابياً وعندئذٍ يستطيع أن يقوم بالعمل حتى يروي حقله بحيث لا يروي غيره من مصدر مائه.

٧ ـ ... حريته... يدفع مينا من الفضة... يدفع... مينا من الفضة...

المصادر والمراجع

- ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الأول. مصر من فجر التاريخ إلى قيام الدولة الحديثة. دار المعارف ـ القاهرة. ١٩٦٥.
- ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الرابع. دار المعارف القاهرة ١٩٦٥.
- ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الخامس. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣.
- ابراهيم، نجيب ميخائيل (الدكتور): مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء السادس حضارة العراق القديمة. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦١.
- إرمان، أدولف و رانكه، هرمان: مصر والحياة المصرية القديمة. ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، ومحرم كمال. مطبعة مصر ـ القاهرة. لا تاريخ.
- إنجلس، فريدريك: أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة. ترجمة أديب يوسف. منشورات دار الفارابي والكتاب العربي. المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٥٨.
- باقر، طه: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة. شركة التجارة والطباعة ـ الجزء الأول، تاريخ العراق القديم ـ بغداد ١٩٦٢.
- برستد، جيمس هنري: انتصار الحضارة. تاريخ الشرق القديم. نقله إلى العربية الدكتور أحمد فخري. مطبعة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٥.
- برستد، جيمس هنري، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي. ترجمة الدكتور حسن كمال. المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٢٩.
- برستد، جيمس هنري: فجر الضمير. ترجمة سليم حسن. دار مصر للطباعة ـ القاهرة ١٩٥٦.

- بصمه جي، فرج (الدكتور): دليل المتحف العراقي. مطبعة الحكومة ـ بغداد ١٩٣٤.
- بليخانوف، جورج: فلسفة التاريخ. دار دمشق للطباعة والنشر ـ دمشق. لا تاريخ.
- التوراة.
- جماعة من الباحثين السوفيات: تاريخ العالم باللغة الروسية ـ المجلد الثاني ـ موسكو ١٩٥٦.
- جماعة من الباحثين السوفيات: الموسوعة التاريخية السوفياتية باللغة الروسية. المجلد السابع ـ موسكو ١٩٦٥.
- جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي. الجزء الأول. دار التقدم ـ موسكو لاتاريخ.
- حاطوم، نور الدين (الدكتور) وزملاؤه: موجز تاريخ الحضارة. الجزء الأول. مطبعة الجامعة ـ دمشق ١٩٦٤.
- حداد، عبد الحق و حمش، عدنان: الحركات الفلاحية عبر التاريخ. الناشر مؤسسة العلاقات الاقتصادية. لا مكان ولا تاريخ للطبع.
- حسن، سليم: تاريخ الأدب المصري القديم. الجزء الأول. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٥.
- حسن، سليم: مصر القديمة. الجزء الأول في عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية العهد الأهناسي. مطبعة كوثر ـ القاهرة ١٩٤٠.
- حسن، سليم: مصر القديمة. الجزء السابع. مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠.
- دريوتون، إتيين وڤانديه، جاك: مصر. تعريب عباس بيومي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٧٤.
- ديلاپورت، ل: بلاد ما بين النهرين. ترجمة محرم كمال والدكتور عبد المنعم أبو بكر. المطبعة النموذجية ـ القاهرة لا تاريخ.
- ستالين، جوزيف: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية. دار دمشق للطباعة والنشر ـ دمشق لاتاريخ.
- سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي. دار ابن خلدون ـ بيروت ١٩٧٩.
- سومر. مجلة تبحث في آثار العراق القديمة. المجلد الرابع. مطبعة التفيض ـ بغداد ١٩٤٨.
- سومر. المجلد الرابع (الجزء الثاني). شركة التجارة والطباعة المحدودة ـ بغداد ١٩٤٨.
- سومر. المجلد الخامس (الجزء الأول). مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٤٩.

- سومر. المجلد السادس (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٥٠.
- سومر. المجلد العشرون (الجزءان الأول والثاني). دار الجمهورية ـ بغداد ١٩٦٤.
- سومر. المجلد الرابع والعشرون (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الجمهورية ـ بغداد ١٩٦٨.
- سومر. المجلد الخامس والعشرون. مطبعة الجمهورية ـ بغداد ١٩٦٩.
- سومر. المجلد السادس والعشرون (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الجمهورية ـ بغداد ١٩٧٠.
- سومر. المجلد التاسع والعشرون (الجزءان الأول والثاني). مطبعة الجمهورية ـ بغداد ١٩٧٣.
- سومر. المجلد الثلاثون (الجزءان الأول والثاني). دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٤.
- الصفدي، هشام (الدكتور): محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ـ دمشق ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧.
- صفي الدين، محمد (الدكتور) وزملاؤه: دراسات في جغرافية مصر. مكتبة مصر ـ القاهرة ١٩٥٧.
- عادل عبد الحق، سليم (الدكتور): نوطة عن مصر والشرق الأدنى القديم ـ دمشق ١٩٤٧.
- غنيم، أحمد محمد: تطور الملكية الفردية. الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة لاتاريخ.
- فخري، أحمد: مصر الفرعونية. موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد. دار ممفيس للطباعة ـ القاهرة ١٩٧١.
- كاجدان، أ وزملاؤه: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية. بإشراف دياكوڤ وكوڤاليف. طبع في الاتحاد السوفياتي ـ موسكو لا تاريخ.
- كوروفكين، ف. ب: تاريخ العصور القديمة بالفرنسية. مترجم عن الروسية ـ موسكو ١٩٦٣.
- كيللي، ف و كوفالزون، م: المادية التاريخية. ترجمة أحمد داود. إصدار دار الجماهير ـ دمشق ١٩٦٧.
- لويد، ستون: الرافدان. ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس بغداد ١٩٣٤.
- متولي، محمد (الدكتور): وجه الأرض. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٩.
- نيكيتين، ب: أسس الاقتصاد السياسي. دار التقدم ـ موسكو لاتاريخ.
- الهاشمي، طه: مفصل جغرافية العراق. مطبعة دار السلام ـ بغداد ١٩٣٠.

- هامرتن، جون.أ: تاريخ العالم. أشرفت على ترجمته إدارة الثقافة بوزارة التربية، المجلد الأول. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة لا تاريخ.
- هاولز، وليام: ما وراء التاريخ. ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد. دار نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٦٥.
- ولسون، جون: الحضارة المصرية. ترجمة أحمد فخري. دار النهضة للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥.

الفهرس

تصميم الغلاف : نجاح طاهر